صحراء الملثمين وبلاد السودان

في نصوص الجغرافيين والمؤرخين العرب

جمع وتقديم

الدكتور حماه الله ولد السالم

أستاذ التاريخ في كلية الآداب

جامعة نواقشوط (موريتانيا)



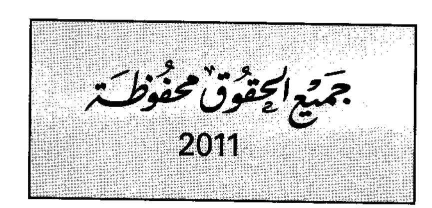
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

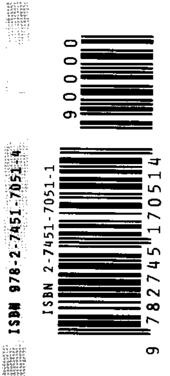
Title : The Sahara of " Mulathamin" and Sudan
in The works of Arab geographers and historians

Classification: History
Author : Ḥamāhullāh wild al-Sālim
Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
Pages : 640
Size : 17* 24
Year : 2011
Printed in : Lebanon
Edition : 1st

الكتاب : صحراء الملثمين
وبلاد السودان
في نصوص الجغرافيين والمؤرخين العرب

التصنيف : تاريخ
المؤلف : د. حماه الله ولد السالم
الناشر : دار الكتب العلميـــة - بيروت
عدد الصفحات : 640
قياس الصفحات: 24 *17
سنة الطباعة : 2011
بلد الطباعة : لبنــان
الطبعة : الأولى





بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أنتجت الحضارة العربية الإسلامية علوما جمة ومعارف واسعة، لاسيما في ميدان الجغرافية والرحلات، التي غطت شعوبا وأمما دانت بالإسلام أو خضعت لسلطانه أو وصلها قبس من الحضارة والثقافة على أيدي التجار والدعاة العرب والمسلمين.

وقد أنتجت المدونة الجغرافية العربية، مئات المؤلفات القيمة المتنوعة في المنهج والأسلوب، مع وحدة الرؤية العربية الإسلامية وطبيعة المنهج الوصفي السائد.

ويمكن التذكير مثلا بأعلام الجغرافيين والرحالين التالين: ابن بطوطة (زار مدينة ولاتة وبلاد السودان حوالي 751-752هـ) ابن الخطيب: ت776/1374م، عبد المنعم الحميري:ت866هـ/1461م، الوراق:ت973م، ابن حيان الأندلسي (987-1076)، ابن خرداذبة (ت300هـ/912م)، أحمد بن عمر ابن رسته (بداية القرن العاشر)، ابن الرقيق (ن2 من ق13م)، ابن سعيد المغربي الغرناطي، ابن عبد الحكم (ت257هـ)، ابن سليم الأسواني (ن 2 ق10)، ابن عبد المنعم الحميري (ق13-14م)، ابن الفقيه الهمداني (نهاية ق9 وبداية 10م)، الاصطخري أبو إسحاق الفارسي (850-934م)، ابو البقاء بن جيعان: ت 1497م، أبو بكر محمد بن احمد الواسطي: 1106م، أبو بكر بن العربي: 1075-1148م، أبوحامد محمد بن عبد الرحمان الغرناطي: ت1169، أبو الفداء عماد الدين الملك المؤيد إسماعيل بن علي الأيوبي مؤلف عربي جامع ومؤرخ وجغرافي 1273-1331م)، التمجروتي علي بن محمد:ت1594، علي بن يونس الصدفي ت 1009م، أبو دلف مسعر بن المهلهل الينبعي الخزرجي ق 10م، اليعقوبي، أبو العباس أحمد بن أبي يعقوب: ت 897 أو 905م)، أبوعبيدة عبد الله بن القاسم، من شيوخ الإباضية، عالم تاجر، (بدايةق8)، أبوعبيد الله البكري القرطبي: ت1094م، أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ:ت899م، أبو محمد العبدري جغرافي أندلسي:ن2ق13م، أحمد بن عمر العذري، جغرافي أندلسي: 1003-1085م، أحمد بن ياقوت الحموي: ولد 1225م، البيروني: 973-1048م، جمال الدين حمد بن محمد المقدسي: ت1364م، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: 1445-1505 م، الجبرتي، المؤرخ المصري: 1756-1826م، الإدريسي 1154م.. وهي مجموعة تكاد تستعصي على الحصر، وما يهمنا منها المؤلفات التي عنيت ببلاد الصحراء والسودان.

هذه موسوعة تاريخية شاملة لمقتطفات تاريخية وجغرافية، بعضها نادر، أو غير متداول على نطاق واسع، من مؤلفات الجغرافيين والمؤرخين العرب عن تاريخ وأخبار وأوصاف قبائل الملثمين وبعض أهل جوارهم في بلاد الصحراء الكبرى وبلاد السودان، قد وصلتهم من تلك البلاد عبر التجار والمسافرين من الحجاج والرحالة من أهل العلم، في سياقات زمانية ومكانية ومجتمعية مختلفة، أثرت على صورة الصحراء وبلاد السودان في الذاكرة العربية الإسلامية، سلبا وإيجابا، تبعا لاهتمام

التجار والساسة في الإمبراطورية العربية الاسلامية بتلك البلاد وشعوبها.

وكان اهتمام الجغرافيين والكتاب العرب منصباً على مسالك القوافل ومراكز التجارة وممالح كالصحراء وقبائلها وشعوب السودان ودولها.

وهي نصوص متباينة في الطول والقصر، والقيمة والمستوى، والنضج والدقة، ومختلفة زمانا ومكانا، باختلاف المؤلفين والناقلين وتنوع المصادر وطبيعتها.

لذلك فهي نصوص تفيد الباحثين في تاريخ البلاد العربية والإسلامية منذ العصر الوسيط إلى القرن التاسع تقريبا. وهي إلى ذلك تجمع ما تفرق في المصادر والأصول المتفرقة والتي يصعب جمعها إلا بجهد وتعب.

وهذه المجموعة تشكل موسوعة حقيقية لم يسبق أن تم جمعها أو تنظيمها وتقديمها في مصنف واحد، منشور ومطبوع، وهي تبدأ بمصدرين إباضيين مهمين هما الوسياني والدرجيني، وفيهما إشارات ثمينة عن تاريخ الصلات الدينية والتجارية بين الدول الإباضية في الشمال الإفريقي والدول السودانية والبربرية في الصحراء وبلاد السودان. وتنتهي بتراجم مستخرجة من معجم المشايخ للزبيدي المصري، لم يسبق نشرها عن رجال من بلاد شنگيطي "موريتانيا"، مروا بمصر، مقفلهم من حجهم، أو عبرها ابتداءاً، حيث تلقوا عن علمائها وتلقوا عنهم.

وتشمل كذلك عشرات المصادر المشرقية المهمة لمؤلفين كابن حجر، المقريزي، السخاوي، ابن الدواداري، ابن خلكان، الشريشي، ابن قتيبة، البيروني، القزويني، ابن كثير، أبي الفداء، ياقوت، ابن الاثير، اليعقوبي، الاصطخري، ...

وأيضا لمؤلفين مغاربة وسودانيين: المقري، ابن خلدون، ابن الخطيب، عياض، الغرناطي، البكري، ابن عذاري، عبد الرحمن السعدي، محمد بلو..

وتغطي تلك الإشارات والنبذ والنصوص مجالا جغرافيا واسعاً، يشمل ما بين البحر الأحمر شرقا والمحيط الأطلسي غربا، وما يقع بين بلاد المغارب والصحراء الكبرى ويلامس التخوم الغابوية في لهجة الغوانش: سكان جزر الكناري [الجزر الخالدات]، ولكنه في الأصل موجود في المعجم العربي الفصيح، ما يدل على عروبية اللفظ كما شأن اللهجات الأمازيغية العاربة.

ولفظ تكرور، يعني في لسان العرب، الحاجز، وربما جاء ذلك من كون المملكة التي سميت باسم تكرور كانت هي أولى الممالك السودانية التي أسلم أهلها وصارت بذلك حاجزا بين بلاد صنهاجة الصحراوية المسلمة، وبلاد الغابة الوثنية.

ويمكن القول إن هذا المجال الجغرافي والبشري الواسع هو ما عرّفته المصادر العربية باسم تكرور، التكرور، بلاد التكرور، أو بلاد تكرور، بدون تعريف. وهي كلها صيغ مختلفة لنفس الإسم الذي يقصد به بلاد الصحراء الكبرى والبلاد السودانية من البحر الأحمر إلى بلاد السودان المتاخمة للأطلسي.

اسم تكرور يطلق اصطلاحا على مملكة سودانية، تحكمها سلالة من شعب السوننكة من قومية الماندانغ، لأن اسم الملك هو جابي، وهو اسم سوننكي.

وقد ذكر العالم الأندلسي ابن حزم في إحدى رسائله إسلام أهل تكرور ووصول خبره لأهل الأندلس أوائل القرن الخامس، وكان البكري في المسالك والممالك، ذكر مملكة تكرور القائمة على النهر [نهر السنغال الحالي]، ربما قريبا من جنوب وسط موريتانيا، وتحدث عن إسلام ملكها وار جابي وابنه لابى، وسيشارك الابن في معارك المرابطين الأولى ضد خصومهم من الگداليين وحلفائهم

من ذوي النحل الغامضة في شمال موريتانيا.

والمهم أن اسم مملكة تكرور سيذكر لأول مرة في المشرق بعد أن أعمل ملوك تكرور الحج وعرفهم المشارقة بحاجّ تكرور، ثم اطلقوا الاسم على كل من يأتيهم حاجا من بلاد الصحراء والسودان، فصار تكرور وبلاد تكرور علما على كل ما يقع بين البحر الأحمر شرقا والأطلسي غربا. ومن هنا صار الاسم اصطلاحا جغرافيا وحضاريا وليست له بالقطع أية دلالة عرقية أو لغوية، لأنه يطلق على أقوام من أرومات شتى من الزنوج والعرب والتوارق وغيرهم.

وهكذا سنجد اصطلاحات مثل تكرور وبلاد تكرور وحجاج تكرور، تتكرر في المصادر المشرقية في العهد المملوكي وما قبله وما تلاه: المقريزي، السخاوي، القلقشندي، ابن حجر، ابن الدواداري، ...والامثلة كثيرة.

لكن اسم تكرور والتكارير والتكارنة سيكون مقصورا من أواخر القرن التاسع عشر، تقريبا، على شعب التوكلور، وهو جزء من قومية الهالوبولار الناطقة باللغة البولارية الفولاّنيّة. ومن هنا نشأ الخلط بين المدلول العام التاريخي لبلاد التكرور وأهل تكرور، وبين التكارنة والتكولور، فتأمل!

وقد بين العالم المؤرخ محمد بلو بن الشيخ عثمان الفودي، في كتابه إنفاق الميسور في معرفة بلاد التكرور، وهو جزء من عملنا هذا، أن أهل البلاد التي تسمى مشرقيا بلاد تكرور، لايعرفون شيئا عن هذا الاصطلاح في داخل بلادهم، بل يعرفون به خارجها في المشرق.

وقد انتشر اسم تكرور، بعد رحلة حاج الإمارة المذكورة، مع رحلات ملوك الهوسا ومالي وسنغاي وكانم وبرنو، ورحلات كبار علماء تنبكتو و ولاتا و جني وأنْصمن وأكدز..، وغيرها من حواضر الصحراء والسودان التي أضاءت بفقهائها في بلاد تكرور نفسها وفي الحاجز ومصر وما حولهما.

وترددت أصداء الرحلات الملكية المشهورة من بلاد تكرور من مملكة مالي ومملكة سنغاي وغيرهما، في الحوليات المصرية وكتب التراجم والتواريخ، حيث احتبل الكتاب المصريون بذكر رحلة المنسا موسى ملك مالي في حجته المشهورة، وتفننوا في أوصاف مقادير الذهب التي حملها معه، مع ما اشتهر من كرمه وفضله وعزة نفسه، في أخبار ظلت أصداؤها تتجدد في الذاكرة المصرية الخصبة.

وتطور استعمال لفظ تكرور اصطلاحا ولغة، يصدق على اسم شنگيطي الحاضرة الصحراوية الشهيرة القائمة اليوم في شمال موريتانيا.

فقد أطلق المشارقة اسم شنگيطي وبلاد شنگيطي وأهل شنگيطي والشناگطة، على عموم البلاد الصحراوية التي تعمر موريتانيا اجزاء واسعة منها.

وهكذا لم يأت القرن الثاني عشر الهجري حتى صارت البلاد الصحراوية الغربية الأطلسية، تعرف باسم بلاد شنگيطي ويعرف أهلها بالشناگطة، وكان ذلك من باب تسمية الجزء باسم الكل.

وقد كان الحج وركب الحاج من بلاد التكرور، ومن بلاد شنگيطي، أهم قنوات التواصل بين بلاد الصحراء والسودان لجهة مع الحجاز ومصر وما حولهما.

قد يعجب أهل اليوم حين يعرفون أن أعداد حاجِّ أهل البلاد الموريتانية قديما كانت تفوق أعدادهم حاليا رغم تطور وسائل النقل ويسر الرحلة وحسن المقام الذي يلقاه حاجّ اليوم.

ويعود ذلك إلى قوة وفعالية المجتمع الأهلي الإسلامي (الخطط الدينية والمؤسسات التجارية والتنظيمية) في مدن: تينيگي، ولاتة (ولاتا)، تنبكتو، تيشيت، وادان، شنگيطي، أوجفت، النعمة،

تجكجة، تكبة، أطار، قصر السلام، أروان، ... وفي بواديها: أزَواذ، بلاد الحوض، بلاد تگانت، بلاد الرقيبة، بلاد آدْرارْ، الساقية الحمراء، تندوف، .. بقيادة كبار العلماء الذين كانت لهم صلات وثيقة بالمشرق وأعطوا للشناگطة شهرتهم: الشيخ المختار الكُنْتِي ت1226هـ، عبد الله بن الحاج ابراهيم العلوي ت1233هـ في القرن الثاني عشر، صالح بن محمد الفُلاّني ت1222هـ الطالب أحمد بن طوير الجَنة الحاجي، محمد يحي الولاتي، الشيخ ماء العينين القلقمي، عبد الله بن سيد محمود الحاجي ت 1255هـ، محمد محمود بن التلاميد التركزي الشنگيطي ت1323هـ، وأبناء ما يأبى الجكنيون، ومحمد عبد الله بن زيدان بن غالي الْبُصَادي ت1933، ، وغيرهم من الأعلام.

أقدم رحلة حج من هذه البلاد وأشهرها هي رحلة حج رئيس صنهاجة يحي بن إبراهيم الكدالي (اللمتوني على الأرجح) وكانت في أواخر ثلاثينيات القرن الخامس الهجري لأنه مرّ، مقْفله من حجه، بفقيه القيروان "أبو عمران الفاسي" وتاريخ وفاته حدود سنة 430هـ. قيمة هذه الرحلة وشهرتها جاءت من نتائجها الباهرة حيث عادت على سكان بلاد الصحراء بردا وسلاما لأنها جاءتهم بالداعية الفقيه الشهير عبد الله بن ياسين الجزولي ت451هـ وكان ذلك بدأ دولة المرابطين الشهيرة.

كان لقب الحاجّ رمزا للتدين والإستقامة والأبهة ولذلك نجده في أسماء كبار أهل ذلك العهد مثل: يانّو الحاجّ بن عمر اللمتوني أو أبي بكر ويحي، وغيره.

في القرون الثلاثة الموالية لعهد المرابطين لا نعرف شيئا عن حاجّ البلاد وطرق انتقاله والمسالك التي كان يخترقها ولم نعثر على تراجم لحجاج معروفين.

لم يأت القرنان التاسع والعاشر حتى انتظم حاجّ البلاد في ركب الحاجّ التكروري، نسبة إلى بلاد التكرور التي هي مصطلح أطلقه المشارقة على مسلمي الصحراء الكبرى وبلاد السودان المصاقبة لها دون أن يحمل أي مضمون عرقي أو جغرافي أو لغوي محدد.

من أشهر حاجّ البلاد في تلك الفترة كبار علماء تنبكتو من الأسر العالمة: آل بغيغ الونگريون، آل أقيت، آل الحاجّ، آل اندغمحمد.. وغيرهم.

لكن حاجّ البلاد لم يلبثوا أن استقلوا بركاب حاجّ خاصة بهم من أشهرها ركب الحاجّ الولاتي فركب الحاجّ الشنگيطي.

كان ركب الحاجّ الولاتي هو ركب حجاج أهل البلاد كلها قبل أن تسمى بلاد شنگيطي، وهو ما يرجع إلى أسبقية مدينة ولاتة على مدينة شنگيطي زمنيا وتنظيما لركب الحاجّ، وبفعل اتجاه طرق القوافل التي كانت أقرب لولاتة قبل القرن الثالث عشر 19م منها لشنگيطي التي ستتحول نحوها الطرق في ذلك القرن وتصبح مركزا للركب الشنگيطي الكبير.

كان ركب الحاجّ الولاتي يخرج من ولاتة في تاريخ معلوم يقوده الحاجّ الأمين الولاتي حتى يصل إلى واحات توات "في الجزائر"، ثم يقوده عبد الرحمن أبو نعامة الملقب البكاي الكُنْتي حتى تخوم فزان "في ليبيا" ومنها يتسلم رئاسة الركب الشيخ المختار بن الطالب أعمر بن نوح الْبُصَادي "دفين فزان نفسها مقفله من إحدى حجاته".

كان تنظيم ركب الحاجّ الولاتي محكما، وله طرق معروفة يسلكها، فضلا عن طرائق التجهيز للرحلة من زاد وجمال وغيرها.

لركب الحاجّ قائد مطلق الصلاحية والنفوذ يسمى "شيخ الركب" أو "المقدم"، ويكون عادة صاحب مكانة علمية أو دينية مهمة.

وللركب أيضا دليل تتم مؤاجرته مقابل أجر معلوم حتى تصل قافلة الركب إلى المحطة التي

تنتهي عندها معرفة الدليل بالأرض. ويجب أن يكون الدليل خريتا ماهرا عارفا بالأرض ومسالكها ومهامها ومواطن المياه فيها، خبيرا بمظان الخطر والخوف لتتجنبها القافلة، وقد كانت مهنة دلالة القوافل حرفة قبيلة مسوفة، وذكر ابن بطوطة في رحلته أن الدليل يسمى "التاكشيف" وتعرف مهنته بـ "التاكشيفت" وهو تحريف للكشاف والكشافة بالعربية.

يتزود الحجاج بالزاد من كل محطة كبرى يمرون بها لاسيما المواد "المعمّرة" كالتمر والقديد..، لكنهم يأخذون كفايتهم من الماء كلما مروا ببئر أو نبع، مع أنهم كانوا يعطشون الإبل مدة طويلة ثم يوردونها الماء حتى ترتوي ثم يشدّون على أفواهها حتى لا تيبس بطونها ويتبخر ما بها من ماء سيستخدمونه للضرورة القصوى.

كان ركب الحاجِ عبارة عن قافلة متكاملة لكن مع فارق واحد هو أنها بقصد الحاجِّ لا بقصد التجارة أو ما شابه.

يبدأ إعداد الركب بشراء جمال القافلة أو كرائها لمسافة محددة "بين ولاتة واتوات مثلا"، وعادة مايسير مُلاّك جمال القافلة مع الركب إلى المحطة الرئيسة الموالية، حيث يبدّل الركب جماله شراءا أو كراءا.

كانت قافلة الحاجِّ تنطلق في الشتاء أو الخريف وتسيرا ليلا وتنيخ فجرا، نظرا لشدة الحر في الصحراء، مما يمنع السير نهارا.

تأمين الركب يأتي من الأسلحة التي يحملها رجال الركب، وكان الركب الولاتي مسلحا دائما، أو من عقد الخفارة الذي يعقده شيخ الركب مع القبائل التي تمر بها قافلة الحجاج.

ظل الركب الولاتي هو ركب البلاد الموريتانية الحالية، حتى أواخر القرن الثالث عشر الهجري حيث تحولت طرق الحاجِّ والتجارة نحو الشمال فصارت مدينة شنگيطي مجمعا لركاب الحاجِّ من مختلف جهات البلاد، فضلا عن أن أهلها كانوا مولعين بالحج.

وفي تلك المرحلة صارت قافلة الحاجِّ تعرف بركب الحاجِّ الشنگيطي، وتنطلق من مدينة شنگيطي، ولما لاحظ المشارقة ذلك أطلقوا اسم شنگيطي على البلاد كلها وتسمية الشناگطة على كل من يأتي من تلك الوجهة.

وقد لخص ذلك على نحو جامع الفقيه الأصولي سيدي عبد الله بن الحاجِّ إبراهيم العلوي التجگجي ت1233هـ /1818م في نبذته "صحيحة النقل" فقال: ".. وكان الركب يمشي من شنجيط إلى مكة كل عام، ويتعلق معهم من أرد الحج من سائر الآفاق، حتى أن أهل هذه البلاد، أعني من الساقية الحمراء إلى السودان، إلى أروان، إنْ رُؤوا، لا يُعرفون عند أهل المشرق إلا بالشناجطة إلى الآن، وقد تحج الدر منهم كلها، حتى لايبقى فيها صغير ولا كبير، من شدة اعتنائهم بالحج..".انتهى من الوسيط.

كان ركب الحاجِّ الشنگيطي مستقلا عن ركاب الحاجِّ المنطلقة من الأمصار المجاورة، لكنه قد ينسق معها على النحو الذي تنسق فيه ركاب الحاجِّ الأخرى مع بعضها البعض.

ابتداءا من نهاية القرن التاسع عشر، تعددت طرق الحج لدى أهل البلاد بفعل السيطرة الإستعمارية على مختلف مناطق إفريقية الغربية والشمالية، ولذلك رحل بعض الحجاج من طريق طويل من نهر النيجر عبر اتشاد إلى السودان حيث يستقلون السفن من ميناء سواكن السوداني نحو جدة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر.

أو ينتقل الحاجُّ بجهده الخاص عبر موانئ المغرب الحالي، على متن السفن المغربية أو التجارية المكتراة.

كان بعض حجاج البلاد ينتقل عبر السفن التي تجهزها الإدارة الإستعمارية لحاجّ غرب أفريقيا مجانا أو بأسعار رمزية.

من أشهر الرحلات الشنگيطية وأهمها: رحلة من ولاتة إلى توات نحو الحرمين وهي للحاج البشير البرتلي الولاتي، ورحلة المنى والمنة الطالب أحمد بن طوير الجنة الواداني الحاجّي، ورحلة محمد الأمين الحجاجي، ورحلة محمد يحي الولاتي، محمد فال بن باب العلوي، ورحلة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الملقب "آب"، ورحلة الشيخ التراد بن العباس القلقمي، وغيرهم من العلماء الحجاج المشهورين.

لم يكن الحج لدى الشناگطة قديما مجرد أداء للفرض بل كان رحلة لها نتائجها الحضارية والثقافية، يعود منها العالم بإجازات عالية السند أو بمصنف لم يعرفه أهل بلاده، كما كانت رحلة الحج مناسبة للاتصال بأهل الآفاق من العلماء والأعيان، وفرصة للتعريف بالبلاد الشنگيطية وأهلها.

ولما طرحت على الشناگطة مسألة الأوقاف، وسعوا للإفادة منها، كان ذلك هو الحافز الذي جعلهم يدونون الكثير من كتب الأنساب والشجرات والمناقب التي تؤكد انتماءهم للأسرة الثقافية العربية.

وهو ما جعل مسألة الأوقاف تلك مكْمن الصياغة الفكرية للهوية الشنگيطية. ولا أدل على ذلك من أنّ مُشكل الأوقاف الشنگيطية الذي كان البوتقةَ التي صهرت هموم القوم الثقافية والاجتماعية، والحافزَ الأول الذي دفعهم إلى تدبيج كتب الأنساب سعْيًا إلى الإندماج في نفس الأسرة، وتأكيدا لحقوقهم في أوقاف الحرمين.

لكن تدوين الأنساب لم يتم إلا على نحو متأخر مع تطور النخبة المثقفة في أوساط الزوايا إبان تطور العلاقة مع الأمصار العربية من خلال قوافل الحج والرحلات العلمية ولاسيما بعد أن حُرِم حجاج بلاد شنگيطي من حصتهم أوقاف الحرمين، فدفعهم ذلك إلى الدفاع عن هويتهم وأنسابهم.

وكُنَّا أول من نبَّهَ على تلك الحقيقة وجَزم بأنَّ الأنساب الشنگيطية أُلِّفَتْ ورُتِّبَتْ في تلك المرحلة وبسببٍ منها وليس نتيجة أوضاع إقتصادية واجتماعية كما يحلو للبعض من تلاميذ المدرسة الاستعمارية المُصابين بالحساسية أزاء العروبة والجهلة بخصائص الاجتماع في بلاد الإسلام.

وقد ظل ركب الحاج ينطلق من بلاد الصحراء والسودان في كل العهود، لكن تحولات السياسة وسني العوز والرخاء والحرب والسلم، كانت كلها، تغير من طرق الحج وانتظام الركب وبنيته وحتى اسمه وووجهته.

ومن ذلك انقطاع الصلة بين المغرب والمشرق، بعد انفراط سلك مملكة الفاطميين، وظهورالزيريين على أطرافها بأفريقية، وما تلا ذلك من زحف الهلاليين والسليميين على بلاد المغارب في الحملات المشهورة المعروفة.

وقد تردد حاكم افريقية ابن باديس في إنفاذ الركب الحجي خشية تعرضه لبطش الفاطميين، وهو ما دفع غالبية فقهاء الملكية إلى التشديد في شرائط الحج مع كراهيتهم للحج على سفن النصارى، حتى أن المازري والبرزلي وأضرابهما لم يعملوا الرحلة للحج ولا للسفر إلى المشرق، خوفا من اضطراب سلك الأمن وبطش الحكام وحتى غارات الافرنج على السواحل وفي البحر الذي كان ركوبه خطرا هو الآخر.

وقد لخص ذلك الشاعر الوادي آشي في أبيات مشهورة:

دون الحجاز ودون الغرب قاطعة من العوائق سدت دونها الطرق

عوف وزغب ودياب وسالمها والهيبون وروم البحر والغرق

وهو يقصد أن الطريق بين الغرب، أي بلاد المغارب، والحجاز، صارت مقطوعة بفعل الأعراب الذين يقطعون السبيل وغارات القراصنة المسيحيين، وخطر البحر الهائج أيضا.

وهو الحال الذي ظل قائما، وربما اشتد عن ذي قبل، في أيام الرحالة المؤرخ الحسن بن محمد الوزان المعروف بليو الافريقي، صاحب كتاب "وصف افريقيا"، حيث ذكر اانقطاع الطريق من جهات برقة وما حولها بفعل هجمات الاعراب.

ومع ذلك استمرت رحلات الحج العادية والملكية، تنتقل عبر المسالك والممالك، مع تبدل الوجهات والسبل والطرق، في كل عصر ومصر.

وقد ساهمت تلك الرحلات في تغيير الصورة النمطية عن افريقيا الصحراوية والسودانية في الذاكرة المشرقية.

فقد كان التصور السائد في المصادر المشرقية، مع تفاوتها، هو الغبش والجهل بنحل العيش والملك والحرب والسلم والعادات بين سكان تلك المجالات والأقاليم.

ويعود ذلك إلى دقة العزو وسبل النقل وقنوات الحصول على الأخبار والمعارف، ومن ذلك أن ابن حوقل النصيبي صاحب كتاب صورة الأرض، ذكر تجارة القوافل بين سجلماسة وأودغست في شرقي موريتانيا، وذكر صيغ التبادل وجانبا من تسجيل الصكوك والعقود باللغة العربية اواخر القرن الرابع الهجري، لكنه قطعا لم يصل إلى تلك الديار، بل نقل أخبارها من تجار سجلماسة وما حولها من حواضر المغرب الأوسط.

وهو حال البكري، الثقة والواسع الاطلاع، فقد عاش ابن عز الدولة البكري في بلاط ملك أبيه بإمارة والبة وشلطيس بغربي الأندلس، وتضلع من معارف العصر وعلوم الإسلام واللغة، واتصل بتجار الأندلس وعنهم نقل جل ما كتبه عن مسالك الصحراء والسودان وممالكها، وكان في نقله امينا ودقيقا، حسب نتائج بعض الأبحاث الأثرية والجغرافية.

ويشكل كتابه المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، وهو جزء من موسوعته الكبرى المسالك والممالك، معلمة قيمة حول الصلات والتجارة والناس والاشياء في تلك البلاد النائية الغريبة المعزولة.

وقد نقل إشارات عن أوّليّة إسلام ممالك السودان كمملكة تكرور ومملكة جافنة ومملكة مالي ويسميها ملي بدون تحريك، وقد يكون ذلك لمضارعة ما نقلته مصادر الأباضيين مثل الدرجيني والوسياني عن إسلام أهل تلك المملكة على يدي داعية من الاباضية وليس من السنة ما ورد في نص البكري.

وهو جانب من تنافس الملل والنحل الإسلامية على السبق والريادة في نشر الدعوة والتعرف على تلك البلاد والعباد.

وللمؤرخين نصيب غير قليل من الفائدة في التأريخ للدول والممالك، مع تفاوت بيّن في الدقة والفهم، بسبب النقل ومنهج الحكم وطريقة الوصف والمحايثة زمانا ومكانا.

فتاريخ العبر لابن خلدون، لاسيما الجزء الخاص بدول البربر، يختلف عن كتاب المُغرب لابن عذاري المراكشي.

لقد كتب ابن خلدون مصنفه الضخم العبر... على النحو التقليدي، القائم على عرض الحوادث والوقائع بحسب تسلسلها من دون التفات للعلل والأسباب، ولمظاهر الاجتماع والفكر

ونحل العيس، على الرغم من أنه عرض في مقدمة كتاب العبر لأنواع من التواريخ والمناهج بالغة الدقة والجدة والطرافة والعمق في فهم أسباب قيام الدول وانهيارها، وعوامل نهوض الحضارات وانحطاطها، وطبيعة نحل العيش البدوية والحضرية واختلافها عن بعضها البعض، وتأثيرها في حياة الناس.

والظاهر أنه استقى التحليل الاجتماعي من نمط العيش وتقلباته أيام الهجرة الهلالية وتفكك سلك الكيانات الدولوية في المغرب الكبير، لكنه قطعا لم يستطع تطبيق تلك المنهجية البديعة على التأريخ الكبير الذي سلك فيه مسلك المؤرخين التقليديين من أمثال الطبري والمسعودي.

ورغم الهالة الكبيرة التي أحيط بها ابن خلدون فإنها لم تستطع حجب تلك الحقيقة، كما لم تمنع المؤرخين المختصين من نقد مادته حول بعض التواريخ والدول.

ومن ذلك حديثه عن المرابطين، المنقول قطعا عن الرقيق وعن ابن أبي زرع وآخرين، وهي مصادر بعيدة زمانا ومكانا عن تاريخ تلك الدولة، ومن هنا لم يدرك ابن خلدون حقيقة الرباط والمرابطة وأوليّة المرابطين، لأنه نقل ذلك عن مصادر غير مباشرة وغير دقيقة، فضلا عن اسلوبه الفضفاض الذي يشتت الحقيقة التاريخية بل ويحجبها، كما الحال في وصفه الرباط، حيث خلط بينه ورباطات القرن السابع والثامن، وهي المؤسسات القائمة والمحصنة، بينما كان الرباط المرابطي نظاما حربيا وقتاليا وجهاديا مرابطيا منطلقا من المبدإ القرءاني القائم على جمع الخيل وتنظيمها مرابطة في سبيل الله.

بينما نجد مؤرخا آخر مختلفا عن ابن خلدون كليا في تلك السياقات، هو ابن عذاري المراكشي، وكان بين في القسم الرابع من كتابه البيان المغرب..أولية المرابطين وتاريخهم انطلاقا من أوثق مصدر موثوق عنهم هو الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية لابن الصيريفي كاتب المرابطين في أخريات أيامهم، وكان ألفه في أنسابهم وتاريخهم، ولذلك لا نجد ذكرا للرباط ولا للجزيرة التي كان بها ولا مجالا للوصف اللغوي الفضفاض الذي حبكه ابن خلدون عن الجزيرة التي تكون ضحضاحا في المصيف وغمرا في الشتاء... إلخ.

وقد تكررت أخطاء المؤرخين الأقدمين على يدي كتاب معاصرين، لايمتلكون الحس النقدي أمام المصادر، ويعتبرونها كتلة منسجمة، بينما ترجع كل رواية أو مجموعة حوادث إلى مصدر مختلف أو على مستوى من النسب المعرفي الخاص.

ولكن أهم مصادر تاريخ البلاد السودانية وما حولها من الجوار الصحراوي، هي كتابات مؤرخي تنبكتو وجني من بلاد مالي والسنغاي، ومؤلفات عالم بلاد الهوسا ومؤرخها محمد بلو الأمير الشاعر الناثر.

ويعد كتاب تاريخ السودان للسعدي، أهم مصنف في تاريخ مملكتي مالي وسنغاي وأخبار ملوكهما وتاريخ مدينة تنبكتو ودولة التوارق التي حكمت تلك البلاد في مراحل مختلفة، وتراجم علماء وفقهاء تلك المدن ومحنة علماء مدينة تنبكتوبعد الغزو السعدي الذي عرف جيشه بالرماة نسبة لفصيلة من حملة البنادق النارية الطويلة، والتي طحنت جيش دولة سنغاي في معركة تونديبي 1591م، وقد رفض علماء تنبكتو، كما هو شأن نظرائهم في ولاتا وتيشيت، البيعة للمنصور السعدي ملك المغرب أيامها، وماجره ذلك من نكال شديد على تلك النخبة، في مرحلة مضيئة من تاريخ الإسلام والثقافة العربية في شرقي موريتانيا الحالية ومحيطها من بلاد السودان.

وقد وصف السعدي تاريخ المحنة وصفا دقيقا وأرخ للحكام الجدد من الرماة المغاربة، وتسلسل حكمهم ومظالمهم وأيامهم مع العرب والتوارق والزنوج.

ويشكل كتاب تاريخ الفتاش في أخبار الملوك وأكابر الناس للقاضي محمود الكعتي، مصدرا قيما في تاريخ وأنساب وأخبار شعوب نهر النيجر وممالكه القديمة والحديثة. لكن القسم المتعلق بأخبار دولة ماسنا وأميرها أحمدو لُبُ الماسِني، منحول تماما، ومنقول من مؤلف ضائع اسم مؤلفه ابن المختار، وفيه تأسيس مناقبي أسطوري لذلك الحاكم الذي سيظهر بعد المؤلف بقرن تقريبا.

أما محمد بلو فهو سليل الأسرة الفلانية المشهورة التي حكمت بلاد الهوسا بعد معارك دامية بين والده الشيخ عثمان الفودي وأمراء ولايات الهوسا السبع من المسلمين والوثنيين.

وقد انصرف إلى التأليف والبحث رغم مشاغله السياسية، ويعتبر كتابه إنفاق الميسور، من أهم مصادر تلك البلاد وأهم مصدر على الإطلاق عن تاريخ حركة الشيخ عثمان وجهاده ودولته.

وقد أفدنا من مصادر مختلفة لتصحيح بعض الإشارات، ومن أعمال باحثين كمروة آدم، جوزيف كيوك، تاديوز ليفتشكي، جان دوفيس، أغناطيوس كراتشكوفسكي... ومن نشرات سابقة لبعض أعمال الجغرافيين العرب مثل كتاب المغرب... وهو جزء من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري ونشرته الأولى على يدي البارون دوسلان، والبيان المغرب لابن عذاري المراكشي في نشرة ابروفنسال وغيرهما

ورجعنا إلى ما توافر من نصوص مطبوعة متدولة لتوكيد بعض الصيغ وتركها على حالها إن كانت سليمة، ونقلنا بعض النصوص حرفيا عن بعض الأعمال كمدونة مروة وغيرها.

وقدمنا ببعض التراجم الأولية لمؤلفي النصوص، وهي تراجم تعريفية متدولة في المعاجم وفي المواقع. مثل: الأعلام للزركلي، المنجد، موقع ويكيبيديا وغيرها.

وهذه بعض التراجم التي تساعد في معرفة مؤلفي النصوص المجموعة في هذا العمل:

-الوسياني: ت 380هـ/990م

من كبار علماء الإباضية، برع في علم الكلام، وانفرد فيه بآراء متميّزة .

وهو من أبناء الحامة بقسطيلية من بلاد الجريد بالجنوب التونسي، إذ كانت في عهده آهلة بالإباضية .نشأ بها وتلقّى العلم عن جلّة علماء عصره، أخذ الأدب وعلم اللسان والفروع عن أبي الربيع سليمان بن زرقون النفوسي؛ وأخذ الأصول عن سحنون بن أيوب .تصدّر هو وزميله أبو القاسم يزيد بن مخلد اليهراسني للتعليم، فعقدا حلقات وقصدهما الطلبة من مختلف مواطن الإباضية بالمغرب .انتهجا طريقة المدرسة المتنقِّلة بين أحياء مزاتة، ومن تلاميذه: أبو نوح سعيد بن زنغيل، وأبو زكرياء فصيل بن أبي مسور اليهراسني .

كان لأبي خزر نشاط سياسي وعسكري، إذ قاد ثورة مسلَّحة ضدَّ جور العبيديين، وانتقاما لمقتل زميله أبي القاسم يزيد بن مخلد، فبويع أبو خزر إمام دفاع، وحشد جيشا لقتال المعزِّ الفاطمي، وتوجَّه إلى باغاي سنة 358هـ/968م، ولكنَّه تعجَّل الأمر قبل أن يصله المدد من ريغ والزاب ووارجلان، فحاصره المعزُّ وأخفقت ثورته .ثمَّ هرب إلى جبل يقال له تلتماجرت، وممَّن رافقه الشيخ أبو محمد توجين بن نوح اليفرني، وبقي مستخفيا هناك، ثمَّ أعطاه المعزُّ الأمان واستقدمه إلى بلاطه سنة 359هـ/969م، ولمَّا رحل إلى مصر سنة 362هـ/972م أخذه معه ليأمن جانبه، وكانت له في مجالس المعزِّ مناظرات مع العلماء تشهد على رسوخ قدمه في العلم والمناظرة .وصفه المعزُّ قائلا: «يغلا عالم ورع»؛ ووصفه أبو زكرياء بأنه «كان إماما ورعا مجتهدا في العبادة، جامعا لخصال الخير والعلم

والحلم والفراسة».

-الشيخ أبو العباس الدرجيني: نسبة عائلته، مولده، بيئته:

هو أبو العباس أحمد بن سعيد بن علي بن يخلف الدرجيني، أصله من أسرة إباضية كانت تسكن مدينة تيمجار بجبل نفوسة بليبيا وكانت هناك علاقة أسرية قوية قائمة بين جبل نفوسة وجربة والجريد ووارجلان ووادي ميزاب.

أما جده الأعلى الحاج يخلف بن يخلف فقد هاجر إلى بلاد الجريد فأما والده سعيد بن علي فقد هاجر إلى بلدة درجين السفلى وفيها ولد شيخنا أبو العباس وإليها ينسب، فمولده يكون حوالي 600هـ أما وفاته فكانت 670هـ.

وتقول رواية طائفته أن جده وهو علي بن يخلف تمكن من نشر الإسلام في بلاد السودان الغربي، بعد أسلم ملك مالي بفضل هذا الداعية وذلك سنة 575هـ حين كان يزاول التجارة بين السودان والجريد.

يقول الشيخ الدرجيني فيما يلي: (وحدث جماعة من أصحابنا أن علي بن يخلف سافر إلى غانا سنة خمس وسبعين وخمسمائة 575هـ فانتهى إلى مدينة مالي فأكرمه ملكها غاية الإكرام، وكان هذا الملك مشركاً، فقال له علمني مما علمك الله من فرائض الإسلام حتى أتبعك عليه وتستقي لنا فعلمه كيف يقر بالشهادتين فعلمهما).

أما بالنسبة إلى الشيخ الشماخي رحمه الله فيقول: (إن اعتناق ملك غانا وشعبه للإسلام يعود إلى علي بن يخلف الإباضي الذي عاش في القرن الخامس الهجري 5هـ حينما دعا الله أن يغيث هذا الوطن بمطر بعد جفاف دام عدة سنوات فاستجاب الله دعاءه ولما رأى هذا الملك هذه المعجزة دعا قومه للدخول في الإسلام.

وقد أورد البكري في المسالك، قصة مشابهة عن تاجر سني أسلم على يديه ملك ملي؟، وهي مالي الحالية، مما يطرح مسألة الشرعية التاريخية لنشر الإسلام والصراع السني الأباضي عليها.

ابن حجر العسقلاني:

محدث عالم شهير ولد بمدينة القاهرة في الثالث والعشرين من شعبان سنة 773هـ، وهو من عائلة فلسطينية الاصل سكنت مدينة عسقلان و هاجرت إلى مصر قبل ان يولد هناك وكان والده عالماً أديباً ثرياً، وأراد لابنه أن ينشأ نشأة علمية أدبية إلا أنه توفي ولم يزل أحمد طفلاً فكفله أحد أقارب والده زكي الدين الخروبي كبير تجار الكارم بمصر، فرعاه الرعاية الكاملة وأدخله الكُتّاب فظهر نبوغه المبكر فقد أتم حفظ القرآن الكريم وهو ابن خمس سنين ووصف بأنه كان لا يقرأ شيئاً إلا انطبعفي ذهنه. و هو عالم جليل

1- رحل إلى مكة سنة 785هـ وأقام بها سنة ودرس خلالها الحديث على يد الشيخ عبدالله بن سليمان النشاوري، وقد قرأ عليه صحيح البخاري وسمع في مكة من الشيخ جمال الدين بن ظهيرة.

2- ورحل من مكة إلى مصر عائداً فداوم على دراسة الحديث الشريف على يد العلامة الحافظ عبدالرحيم العراقي، وتلقى الفقه من الشيخ ابن الملقن والعز ابن جماعة وعليه درس الأصول وباقي العلوم الآلية كالمنهاج وجمع الجوامع وشرح المختصر والمطول.

3- ثم رحل إلى بلاد الشام والحجاز واليمن ومكة وما بين هذه النواحي.

4- وأقام في فلسطين وتنقل في مدنها يسمع من علمائها ويتعلم منهم، ففي غزة سمع من أحمد بن محمد الخليلي وفي بيت المقدس سمع من شمس الدين القلقشندي، وفي الرملة سمع من

أحمد بن محمد الأيكي، وفي الخليل سمع من صالح بن خليل بن سالم، وبالجملة فقد تلقى ابن حجر مختلف العلوم عن جماعة من العلماء كل واحد كان رأساً في فنه كالقراءات والحديث واللغة والفقه والأصول، ويذكر عن شيخه العز بن جماعة أنه قال: أقرأ في خمسة عشر علماً لا يعرف علماء عصري أسماءها.تفرد ابن حجر من بين أهل عصره في علم الحديث مطالعة وقراءة وتصنيفاً وإفتاءً حتى شهد له بالحفظ والإتقان القريب والبعيد والعدو والصديق، حتى كان إطلاق لفظ الحافظ عليه كلمة إجماع بين العلماء، وقد رحل إليه الطلبة من الأقطار وطارت مؤلفاته في حياته وانتشرت في البلاد وتكاتب الملوك من قطر إلى قطر في شأنها وكانت له اليد الطولى في الشعر، وله ديوان شعر متوسط الحجم مطبوع.شغل ابن حجر الكثير من الوظائف المهمة في الإدارة المملوكية المصرية، مما هيأ له الوقوف على مجريات السياسة المصرية ودخائلها آنذاك ومكنه من الاتصال المباشر بالمصادر الأولى لأحداث عصره.

وتولى ابن حجر الإفتاء واشتغل في دار العدل وكان قاضي قضاة الشافعية وعني ابن حجر عناية فائقة بالتدريس واشتغل به ولم يكن يصرفه عنه شيء حتى أيام توليه القضاء والإفتاء وقد درّس في أشهر المدارس في العالم الإسلامي في عهده من مثل (المدرسة الشيخونية والمحمودية والحسنية والبيبرسية والفخرية والصلاحية والمؤيدية ومدرسة جمال الدين الآستادار في القاهرة (وجمال الدين هذا من أهالي البيرة قرب رام الله في فلسطين).

له مؤلفات وتصانيف كثيرة زادت على مئة وخمسين مصنفاً في مجموعة من العلوم المهمة وسنذكر بعض ما اشتهر منها وطارت سمعته في الآفاق:

1- فتح الباري شرح صحيح البخاري (خمسة عشر مجلداً)، ومكث ابن حجر في تأليفه عشرين سنة (ولما أتم التأليف عمل مأدبة ودعا إليها أهل قلعة دمشق وكان يوماً عظيماً).

ويعتبر هذا السفر العظيم أفضل شرح وأعمه نفعاً لصحيح البخاري الذي يعتبر ثاني كتاب بعد كتاب الله، وتأتي أهمية كتاب ابن حجر من كونه شرحاً لأصح ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث وقد تضمن ذلك الشرح ذكر أحاديث أخرى وعلق ابن حجر على أسانيدها وناقشها حتى كان بحق (ديوان السنة النبوية)، وكذلك لما تضمنه من فقه وأصول ولغة ومناقشة للمذاهب والآراء في شتى المعارف الإسلامية. وقد اشتهر هذا الكتاب في عهد صاحبه حتى قبل أن يتمه وبلغ شهرته أن الملك شاه رخ بن تيمور ملك الشرق بعث بكتاب إلى السلطان برسباي يطلب منه هدايا من جملتها (فتح الباري) فجهز له ابن حجر ثلاث مجلدات من أوائله.

2- الإصابة في تمييز الصحابة وهو كتاب تراجم ترجم فيه ابن حجر للصحابة الكرام فكان من أهم المصادر في معرفة الصحابة.

3- تهذيب التهذيب ومختصره كتاب تقريب التهذيب.

4- المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، ذكر فيه أحاديث لم يخرجها أصحاب المسانيد الثمانية.

5- الدراية في تخريج أحاديث الهداية ويعتبر من كتب التخريج البديعة وقد خرج فيه الأحاديث الواردة في كتاب الهداية وهو مرجع فقهي وغير ذلك من المؤلفات الكثيرة.

6- "إنباء الغمر بأنباء العمر" وهو مؤلف ضخم يقع في حوالي ألف صفحة كبيرة حيث يتبع نظام الحوليات والشهور والأيام في تدوين الحوادث. ثم يتبع حوادث كل سنة بأعيان الوفيات. وقد أفاض في ذكر ما يتعلق بمصر من هذه الحوادث، وهو يتناول الأحداث التي وقعت بين

سنة (773 - 850 هـ).

7- "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" وهو معجم ضمنه تراجم أعيان القرن الثامن الهجري من علماء وملوك وسلاطين وشعراء وغيرهم من مصر ومختلف بلاد الإسلام، ويعتبر هذا الكتاب من أهم مصادر تاريخ مصر الإسلامية في الفترة التي يتناولها، وتبدو نزعته كعالم حديث في ذكر مصادره التي اعتمد عليها في تأليفه، وله تآليف اخرى.

المقّري:

ولد احمد بن محمد بن احمد المقرى القرشى المكنى بأبى العباس والملقب بشهاب الدين سنة 986 بمدينة تلمسان وأصل أسرته من قرية مقّرة (بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحة) التي تقع في ولاية المسيلة؛ نشأ بمدينة تلمسان (تيلمسان) وطلب العلم فيها وكانت من أهم شيوخه التلمسانين عمه الشيخ سعيد المقري. وهو واحد من أعلام القرن السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، سطعت فضيلته العلمية في تلمسان و فاس ببلاد مراكش، وذاعت في مصر و الحجاز وبلاد الشام بالمشرق العربي إبان حكم العثمانيين الأتراك. وقد شهد له معاصروه بالإمامة والفضل، في الفقه وأصوله، وفي الحديث وعلوم القرآن، وفي علوم العربية، وتدل آثاره الحسان على علم وفهم، ورواية ودراية، وإتقان وإحسان، ويعتبر "كتاب الرحلة إلى المغرب والمشرق" من الآثار المفقودة لأبي العباس المقري لولا الهدية التي قدمتها حفيدة المستشرق الفرنسي جورج ديلفان سنة 1993م للمكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة، والمتمثلة في مجموعة من المخطوطات من بينها رحلة المقري هذه.

شمس الدين السخاوي

شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي - نسبة إلى سخا شمال مصر - الشافعي، (831 هـ الموافق 1428-902 هـ).

مؤرخ كبير وعالم حديث وتفسير وأدب شهير من أعلام مؤرخي عصر المماليك. ولد وعاش في القاهرة، ومات بالمدينة المنورة سافر في البلدان سفرا طويلا وصنف أكثر من مائتي كتاب أشهرها الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ترجم نفسه فيه بثلاثين صفحة.

ولد شمس الدين السخاوي في ربيع الأول سنة 831 هـ، الموافق 1428م، في حارة بهاء الدين - في تلك الفترة - قريبا من مدرسة شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني بالقرب من باب الفتوح - حاليا - بالقاهرة، وبعدها انتقل إلى ملك لأبيه مجاور لمسكن ابن حجر العسقلاني.

بداية ؛ أرسله أبوه إلى المؤدِّب الشَّرف عيسي بن أحمد المقسي الناسخ فأقام عنده فترة قصيرة، ثم نقله أبوه إلى زوج أخته الفقيه الصالح البدر حسين بن أحمد الأزهري أحد أصحاب الشيخ يوسف الصَّفِي المالكي فقرأ عنده القرآن. بعدها بفترة، توجه به أبوه إلى الفقيه الشيخ الشمس محمد بن أحمد النحريري السعودي الضرير - مؤدب البرهان بن خَضِر و الجلال بن الملقِّن و ابن أسد وغيرهم من العلماء الكبار في هذا العصر -لاستكمال تعلم القرآن وعلوم تجويده، وحفظ منه فوائد ونوادر في الأدب، وقرأ عليه بعض الحديث، وبعدها انتقل بأمر من السعودي الضرير إلى الشيخ الشهاب بن أسد فحفظ عنده كتاب عمدة الأحكام للحافظ عبد الغني المقدسي، وكتاب التنبيه - ألفه عم السخاوي -، وكتاب المنهاج الأصلي وألفية بن مالك وكتاب النخبة، وكذلك قرأ عليه القرآن بقراءة أبو عمرو وابن كثير المقرئ، وكذلك تدرب على القراءة والمطالعة، حتى صار يشارك غالب من يتردد عليه في فهم القرآن والفقه وغيره.

ابن خلدون

(ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خالد (خلدون) الحضرمي)(غرة رمضان 732هـ/27 مايو 1332 - 19 مارس 1406م/26 رمضان808هـ) مؤسس علم الاجتماع ومؤرخ امازيغي مسلم من إفريقية في عهد الحفصيين وهي تونس حاليا ترك تراثا مازال تأثيره ممتدا حتى اليوم. ولد ابن خلدون في تونس عام 1332م (732هـ) بالدار الكائنة بنهج تربة الباي رقم 34. أسرة ابن خلدون أسرة علم وأدب، فقد حفظ القرآن الكريم في طفولته، وكان أبوه هو معلمه الأول [1]، شغل أجداده في الأندلس وتونس مناصب سياسية ودينية مهمة وكانوا أهل جاه ونفوذ، نزح أهله من الأندلس في أوساط القرن السابع الهجري، وتوجهوا إلى تونس حاضرة العلوم آنذاك[بحاجة لمصدر]، وكان قدوم عائلته إلى تونس خلال حكم دولة الحفصيين

ابن الخطيب

لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب - (رجب 713 هـ/1313م - فاس، 776 هـ/ 1374م) درس الأدب والطب والفلسفة في جامعة القرويين بفاس.

انتقلت أسرته من قرطبة إلى طليطلة بعد وقعة الربض أيام الحكم الأول، ثم رجعت إلى مدينة لوشة واستقرت بها. وبعد ولادة لسان الدين في رجب سنة 713 هـ انتقلت العائلة إلى غرناطة حيث دخل والده في خدمة السلطان أبي الحجاج يوسف، وفي غرناطة درس لسان الدين الطب والفلسفة والشريعة والأدب. ولما قتل والده سنة 741 هـ في معركة طريف كان مترجماً في الثامنة والعشرين، فحل مكان أبيه في أمانة السر للوزير أبي الحسن بن الجيّاب. ثم توفي هذا الأخير بالطاعون الجارف فتولى لسان الدين منصب الوزارة سنة 733 هـ. ولما قتل أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل سنة 755 هـ وانتقل الملك إلى ولده الغني بالله محمد استمر الحاجب رضوان في رئاسة الوزارة وبقي ابن الخطيب وزيرا ثم وقعت الفتنة في رمضان من سنة 760 هـ، فقتل الحاجب رضوان وأقصي الغني بالله الذي انتقل إلى المغرب الأقصى وتبعه ابن الخطيب وبعد عامين استعاد الغني بالله الملك وأعاد ابن الخطيب إلى منصبه. ولكن الحسّاد، وفي طليعتهم ابن زمرك، أوقعوا بين الملك وابن الخطيب الذي هرب إلى فاس حيث دخل في طاعة السلطان المريني لكن ومع ذلك ظل ابن الخطيب مطاردا من طرف خصومه الأندلسيين الذين أوقعو بينه وبين سلطان المغرب حيث زجه هذا الأخير في السجن ومات قتلا، حيث توفي خنقا في سجن فاس، ودفن بروضة أبي الجنود خارج أسوار فاس سنة 1374م 776 هـ.

تعرّف على العديد من عظماء و مشاهير عصره، و كانت له علاقة مميّزة مع ابن خلدون الذي التقى به في فاس ثم في غرناطة. و لما تعكّر صفو العلاقة بين السلطان محمد الخامس و ابن خلدون و انتهى الأمر بابن خلدون إلى ترك غرناطة بقيت علاقة الصداقة متينة بين العلاّمة و ابن الخطيب إلى آخر أيامه.

المقريزي:

شيخ المؤرخين المصريين "أحمد بن علي المقريزي" المعروف باسم "تقي الدين المقريزي" ولد وتوفي في **القاهرة**(764هـ-845هـ) (1364م-1442م) ممن اهتموا بالتأريخ بكل نواحيه.

الشيخ العلامة المؤرخ تقي الدين أحمد أبو محمد وأبو العباس بن علي بن عبد القادر بن محمد المقريزي الشافعي الأثري، علم من أعلام التاريخ، سار شوطاً بعيداً في حدود الفكر والعقل.

وبحث في أصول البشر وأصول الديانات، وكانت له دراية بمذاهب أهل الكتاب، كان حسن الخلق، كريم العهد، كثير التواضع، عالي الهمة فيمن يقصده لنيل العلم والدراسة، محباً للذاكرة والمداومة على التهجد والأوراد وحسن الصلاة ومزيد الطمأنينة، ملازماً لبيته (ويتهمه السخاوي بعدم الإتقان فيما يرويه من الحوادث عن المتقدمين ولكن المؤرخين لم يعولوا على ما ذكره السخاوي فيه لأن آثار المقريزي شاهدة له بالعلم والفضل - وابن حجر وهو شيخ السخاوي يقول فيه "في المقريزي" له النظم الفائق والنثر الرائق)، ثم يقول عنه أحد المؤرخين: (إن المقريزي كان متبحراً في التاريخ على اختلاف أنواعه، ومؤلفاته تشهد له بذلك وإن جحده السخاوي بذلك، فذلك رأيه في غالب أعيان معاصريه).

عُرف بالمقريزي نسبة لحارة في بعلبك] تعرف بحارة المقارزة فقد كان أجداده من بعلبك أجداده من بعلبك[بحاجة لمصدر]وحضر والده إلى القاهرة وولي بها بعض الوظائف، ولد المقريزي حسبما يذكر هو عن نفسه بعد سنة /760/هـ وابن حجر يقول إن مولده كان في سنة /766/هـ كما رآه بخط المقريزي نفسه، أما الإمام السيوطي فيقول إن مولده كان في عام /769/هـ، أما وفاته فهي محل اتفاق، حيث توفي في مصر عصر يوم الخميس /16/ رمضان سنة /845/هـ بالقاهرة ودفن يوم الجمعة قبل الصلاة بحوش الصوصية البيبرسية.

الدواداري

أبو بكر بن عبد الله بن أيبك **الدواداري** (مولده ووفاته: غير معروف) مؤرخ مصري مملوكي نشأ وعاش في حارة الباطنية بالقاهرة. كان جده " ابن أيبك صاحب صرخد " (ت 645هـ)، ووالده "عبد الله بن أيبك" (ت 713هـ)، وهو ذاته على إتصال بأكابر الأيوبيين والمماليك وشهود عيان لكثير من الحوادث خلال حقبة زمنية تمتد من أوائل القرن السابع حتى منتصف القرن الثامن للهجرة. وهي حقبة ذات أهمية تاريخية كبرى شهدت صراعات بني أيوب **الداخلية** وزوال دولتهم و بزوغ نجم[عدل] اسمه و نسبه و كنيته

الدولة المملوكية. من أهم مؤلفاته " كنز الدُرر وجامع الغُرر " و" درر التيجان وغرر تواريخ الزمان ". ويعد الكتاب الأول من أهم ما كتب عن العصرين الأيوبي والمملوكي نظراً لمعايشة ابن أيبك الدواداري لكثير من وقائع وأحداث العصرين من جهة، ونظراً لأنه عاش في فترة سابقة لكبار المؤرخين من أمثال " **المقريزي** " و **ابن تغري** " و" ابن **إياس**.

عياض:

هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرون **بن** موسى بن **عياض** السبتي اليحصبي المالكي، دفين مراكش. يعود نسب القاضي عياض إلى إحدى قبائل اليمن العربية القحطانية، وكان أسلافه قد نزلوا مدينة "بسطة" الأندلسية من نواحي "غرناطة" واستقروا بها، ثم انتقلوا إلى مدينة "فاس" المغربية، ثم غادرها جده "عمرون" إلى مدينة "سبتة" حوالي سنة (373 هـ = 893م)، واشتهرت أسرته بـ"سبتة"؛ لما عُرف عنها من تقوى وصلاح، وشهدت هذه المدينة مولد عياض في (15 من شعبان 476هـ = 28 من ديسمبر 1083م)، ونشأ بها وتعلم، وتتلمذ على شيوخها.له مصنفات كثيرة أهمها:

- إعلام المعلم بفوائد صحيح مسلم
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى (صلى الله عليه و سلم)
- مشارق الأنوار على صحاح الآثار

أبوحامد الغرناطي:

أبوحامد الأندلسي الغرناطي-473) 565هـ، 1080–1170م). أبوعبدالله محمد بن عبدالرحيم المازني القليسي الغرناطي الأندلسي. ولد في غرناطة، وتوفي في دمشق، اشتهر أبوحامد برحلاته التي بدأها سنة 508هـ، 1114م برحلته إلى مصر ثم رجع إلى وطنه برحلة أخرى سنة 511هـ، 1117م. وزار بغداد ومكث بها أربعة أعوام، وزار إيران ووصل إلى بحر قزوين ومصب نهر الفولجا، وقام بثلاث رحلات إلى خوارزم، واشتهر بكتابه تحفة الألباب ونخبة الإعجاب .ويجمع هذا الكتاب بين الحقيقة والخيال. ولأبي حامد كتاب آخر هو المعْرِب عن بعض عجائب المغْرِب، وهناك كتب أخرى تنسب له لكنها ليست من تأليفه مثل :عجائب المخلوقات وتحفة الكبار في أسفار البحار، ولم يكن أبو حامد جغرافيا صرفًا أو عجائبيًا خالصًا ولا رحالة فحسب، إنما هو ذلك كله.

الشريشي:

أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى بن عيسى الشريشي، نسبة إلى شريش، بالأندلس، شاعر رحل إلى المشرق وكانت وفاته سنة 616 هـ/ 1218 مم

أبو عبيد البكري

هو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، نسبة إلى بكر بن وائل. (1014م 404 هـ - 1094م 487 هـ) أديب و جغرافي و مؤرخ ونباتيّ (عالم نبات). وهو أول الجغرافيين المسلمين في الأندلس. قيل إن ملوك الأندلس كانوا يتهادون كتبه.

يعتبر أبو عبيد البكري، أكبر جغرافي أنجبته الأندلس، فقد ألّف كتابين جليلين في الجغرافية أوّلهما "معجم ما استعجم" الذي يعد أوّل معجم جغرافي عربي وصل إلينا أورد فيه جملة مما ورد في الحديث والأخبار، والتواريخ والأشعار، من المنازل والديار، والقرى والأمصار، والجبال والآثار، والمياه والآبار، والدارات والحرار، منسوبة محدودة، ومبوّبة على حروف المعجم مقيّدة ؛ أما كتابه الثاني فهو "المسالك والممالك" وصف جغرافية الأندلس وأوروبا، وإفريقيا الشمالية. وله في علم النبات: كتاب أعيان النبات والشّجريّات الأندلسية

أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري

(213 هـ–15 رجب 276 هـ/828 م–13 نوفمبر 899 م) أديب فقيه محدث مؤرخ عربي. له العديد من المصنفات أشهرها عيون الأخبار، وأدب الكاتب وغيرها.

يعتقد أنه ولد في الكوفة ونشأ في بغداد، وتعلم فيها على يد مشاهير علمائها، فأخذ الحديث عن أئمته المشهودين وفي مقدمتهم إسحاق بن راهويه، أحد أصحاب الإمام الشافعي، وله مسند معروف. وأخذ اللغة والنحو والقراءات على أبي حاتم السجستاني، وكان إمامًا كبيرا ضليعا في العربية، وعن أبي الفضل الرياشي، وكان عالما باللغة والشعر كثير الرواية عن الأصمعي، كما تتلمذ على عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي، وحرملة بن يحيى، وأبي الخطاب زياد بن يحيى الحساني، وغيرهم

أبوالريحان محمد بن أحمد البيروني

عالم مسلم ولد في ضاحية كاث عاصمة خوارزم (أوزبكستان) في شهر سبتمبر حوالي سنة (**326**هـ، **973**م) رحل إلى جرجان في سن ال25 حوالي **388**هـ **962** م حيث التحق ببلاط السلطان أبو الحسن قابوس بن وشمجير شمس المعالي و نشر هناك أولى كتبه و هو الآثار الباقية عن القرون الخالية و حين عاد إلى موطنه الحق بحاشية الأمير ابي العباس مأمون بن مأمون خوارزمشاه الذي

عهد إليه ببعض المهام السياسية نظرا لطلاقة لسانه و عند سقوط الإمارة بيد محمود بن سبكتكين حاكم عزنة عام**407هـ** الحقه مع طائفة من العلماء إلى بلاطه و نشر ثاني مؤلفته الكبرى تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة كما كتب مؤلفين آخرين كبيرين هما القانون المسعودي التفهيم لأوائل صناعة التنجيم توفي سنة (**440هـ، 1048م**) و أطلق عليه **المستشرقون** تسمية بطليموس العرب.

الهمداني:

أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (ت. 334 هـ) من أعظم جغرافيي جزيرة العرب في عصره، وكان شاعرا كذلك، وله إحاطة بعلوم الفلك والحكمة والفلسفة والكيمياء. سجن في أخريات حياته، في والجوهرتين العتيقتين. قضى في السجن عام 334 هـ.

من كتبه وانجازاته

- كتاب "الجوهرتين العتيقتين": في الكيمياء حيث لم يهتم الهمداني بتحويل النحاس إلى ذهب، كما كان شائعاً في عصره، بل درس المعادن المعروفة في عصره وخواصها وطرق تنقيتها واستعمالاتها الصناعية والطبية. وأهم ما يميز الهمدانى في هذا الكتاب اعتماده على المنهج التجريبي.
- كتاب صفة جزيرة العرب: حيث قدم أدلة كروية الأرض.
- كتاب الإكليل للهمداني: يروي فيه اخبار العرب والأمم سابقة

أبو عبد الله بن زكريا بن محمد القزويني، ينتهي نسبه إلى أنس بن مالك عالم المدينة .ولد بقزوين في حدود سنة 605 للهجرة، وتوفي سنة 682 هـ، اشتغل بالقضاء مدة، ولكن عمله لم يلهه عن التأليف في الحقول العلمية. ففقد شغف بالفلك، والطبيعة، وعلوم الحياة، ولكن أعظم أعماله شأناً هي نظرياته في علم الرصد الجوي.

أشهر مؤلفات القزويني كتابه المعروف (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات). فيه يصف القزويني السماء وما تحوي من كواكب وأجرام وبروج، مع التوقف عند حركتها الظاهرية، وما ينجم عن ذلك كله من اختلاف فصول السنة. كما تكلم عن الأرض وجبالها وأوديتها وأنهارها، وتحدث عن كرة الهواء، وعن الرياح ودورتها، وكرة الماء وبحارها وأحيائها، ثم تحدث عن اليابسة وما فيها من جماد ونبات وحيوان. وقد رتب ذلك ترتيباً أبجدياً دقيقاً وللقزويني كتاب (آثار البلاد وأخبار العباد). ضمّنه ثلاث مقدمات عن الحاجة إلى إنشاء المدن والقرى، وخواص البلاد، وتأثير البيئة على السكان والنبات والحيوان، كما عرض لأقاليم الأرض المعروفة آنذاك، وخصائص كل منها. كما يضم هذا الكتاب أخبار الأمم وتراجم العلماء والأدباء والسلاطين، وأوصاف الزوابع، والتنين الطائر أو نافورة الماء وغير ذلك دعا القزويني إلى التأمل في آيات الله في خلقه، وبديع صنعه، تماشياً مع ما أمر به القرآن الكريم من النظر والتأمل في السماء والأرض. وإنما المراد في النظر الدراسة والتفكير في المعقولات والنظر في المحسوسات، والبحث في حكمته

ابن عذاري (؟ - 695هـ، ؟ -1295م)

أحمد ابن محمد، أو أبو عبد الله محمد المراكشي، المشهور بابن عذاري. مؤرخ من أهل مراكش. لا يُعرف عنه إلاّ أنه نشأ حوالي نهاية القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي.

اشتهر بمؤلفه: البيان المُغْرِب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، طُبع في ثلاثة مجلدات. نشره أول مرة المستشرق دوزي سنة 1268هـ، 1851م. وتُرْجم الكتاب كاملا إلى الفرنسية، ترجمه فانيان سنة 1332هـ، 1914م. وهو من أفضل المراجع وأوثقها في موضوعه. قال في مقدمته، إنه

وصل في الجزء الثالث منه إلى أخبار سنة 667هـ، إلا أن المطبوع منه يقف عند سنة 460هـ. وأشار في الجزء الأول منه إلى كتاب له في تاريخ المشرق، لم يعرف مصيره.

ابن كثير:

هو الامام عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير، القرشي الدمشقي الشافعي ولد في سوريا سنة 700 هـ كما ذكر أكثر من مترجم له أو بعدها بقليل كما قال الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة.

وكان مولده بقرية "مجدل" من أعمال بصرى من منطقة سهل حوران درعا حاليا في جنوب دمشق ب سوريا، و كان أبوه من أهل بصرى و أمه من قرية مجدل.والاصح انه من قرية مندثرة تسمى الشريك تقع بين قريتي الجيزة وغصم ويمر من جانبها وادي مشهور اسمه وادي الزيدي وهي في منطقة حوران او درعا حاليا.

انتقل إلى دمشق سنة 706 هـ في الخامسة من عمره و تفقه بالشيخ إبراهيم الفزازى الشهير بابن الفركاح و سمع بدمشق من عيسى بن المطعم و من أحمد بن أبى طالب و بالحجار ومن القاسم بن عساكر وابن الشيرازى واسحاق بن الامدى ومحمد بن زراد و لازم الشيخ جمال يوسف بن الزكى المزى صاحب تهذيب الكمال و أطراف الكتب الستة و به انتفع و تخرج وتزوج بابنته.

وقرأ على شيخ الاسلام ابن تيمية كثيرا ولازمه وأحبه و انتفع بعلومه و على الشيخ الحافظ بن قايماز وأجاز له من مصر أبو موسى القرافى و الحسينى و أبو الفتح الدبوسى و على بن عمر الوانى و يوسف الختنى وغير واحد

أبو الفداء / ملك حماه

أبو الفدا عماد الدين الملك المؤيد إسماعيل بن علي الأيوبي مؤلف عربي جامع ومؤرخ وجغرافي 1273-1331م)، **ملك** او صاحب حماة في سوريا الملك العالم كما يطلق عليه، الأديب الشاعر، السياسي المحنّك، الشجاع المجاهد.

ياقوت الحموي:

شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي أديب ومؤلف موسوعات وخطّاط أشتغل بالعلم وأكثر من دراسة الأدب، وقد سمى نفسه (عبد الرحمن)، وكان يقيم في المدرسة النظامية. وأهم مؤلفات ياقوت الرومي كتابهُ المعروف (معجم البلدان) الذي ترجم وطبع عدة مرات.

ابن الأثير المؤرخ: **1160-1232م**

ولد علي بن أبي الكرم محمد بن محمد المعروف بعز الدين علي بن الأثير بجزيرة ابن عمر قرب الموصل بالعراق. عني أبوه بتعليمه، فحفظ القرآن الكريم، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة، ثم استكمل دراسته بالموصل بعد أن انتقلت إليها أسرته، وأقامت بها إقامة دائمة. سمع الحديث من أبي الفضل عبد الله بن أحمد، وأبي الفرج يحيى الثقفي، وتردد على حلقات العلم التي كانت تُعقد في مساجد الموصل ومدارسها. وكان ينتهز فرصة خروجه إلى الحج، فيعرّج على بغداد ليسمع من شيوخها الكبار، من أمثال أبي القاسم يعيش بن صدقة الفقيه الشافعي وأبي أحمد عبد الوهاب بن علي الصدمي. رحل إلى الشام وسمع من شيوخها، ثم عاد إلى الموصل ولزم بيته منقطعا للتأليف والتصنيف.درس ابن الأثير في رحلاته هذه الحديث والفقه والأصول والفرائض والمنطق والقراءات لأن هذه العلوم كان يجيدها الأساتذة المبرزون ممن لقيهم. غير أنه اختار فرعين من العلوم وتعمق

في دراستهما هما: الحديث والتاريخ، حتى أصبح إماماً في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به، حافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة، خبيراً بأنساب العرب وأيامهم وأحبارهم، عارفًا بالرجال وأنسابهم لا سيما الصحابة. وعن طريق هذين العلمين بنى ابن الأثير شهرته في عصره، وإن غلبت صفة المؤرخ عليه حتى كادت تحجب ما سواها. والعلاقة بين التخصصين وثيقة جدا. فمنذ أن بدأ التدوين ومعظم المحدثين العظام مؤرخون كبار، مثل الإمام الطبري، الذي جمع بين التفسير والفقه والتاريخ، والإمام الذهبي الذي كان حافظا متقنا ومؤرخا عظيما. وكذلك كان الحافظ ابن عساكر بين هاتين الصفتين..

توافرت لابن الأثير المادة التاريخية التي استعان بها في مصنفاته، بفضل صلته الوثيقة بحكام الموصل، وأسفاره العديدة في طلب العلم.

اليعقوبي ت 290هـ:

هو أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح العباسي من أهل بغداد، مؤرخ شيعي إمامي كان يعمل في كتابة الدواوين في الدولة العباسية حتى لقب بالكاتب العباسي

الإصطخري:

أبو القاسم إبراهيم محمد الكرخي هو عالم عربي مسلم من رواد علماء البلدان أو الجغرافيين العرب. نشأ في أصطخر ونسب إليها، وألف كتاب صور الأقاليم. وذكر اسمه في (كشف الظنون) بـ أبو زيد محمد بن سهل البلخي.

عاش في النصف الأول من القرن الرابع الهجري (العشر الميلادي). خرج سنة 951 م يطوف البلاد مبتدئا من بلاد العرب إلى الهند ثم إلى سواحل المحيط الأطلسي. وفي رحلاته لقي نفراً من العلماء في الحقول المختلفة. لم تكن مصادر علم البلاد الذي عرف فيما بعد بعلم الجغرافيا موفورة في عصره، فكان بذلك أول جغرافي عربي صنّف في هذا الباب، إمّا عن مشاهدة فعلية وإمّا نقلاً عن كتاب بطليموس. وقد نقلت مؤلفاته إلى عدة لغات وتمّ طبعها عدة مرات.

يعد في موسوعة المعرفة من أول من صنف في باب علم البلدان إما عن مشاهدة وإما عن سمع من أهل البلاد وإما نقلا عن بطليموس. ترجمت كتبه إلى عدد من اللغات كما طبعت عدة مرات.

السعدي

هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدى ولد في تمبكتو المدينة الصحراوية القائمة على عقفة نهر النيجر، وكانت تأسست في القرن الخامس الهجري على يد توارق "إمغشرن"، وعمرتها نخبة عالمة من صنهاجة والماندانغ، وهاجرت إليها جماعات من الأعيان من الكتاب والفقهاء، ومن هؤلاء عائلة المؤرخ السعدي، وكان أصله من المهاجرين إليها من زمن بعيد. تلقى العلم بها وسافر على نهر النيجرإلى مدينة جني وصار إماما لجامع سانكورى. ثم رحل إلى مملكة سنغاي وعرج على ماسنة وسواها، وله رحلات أخرى .

من مؤلفاته تاريخ السودان فصل فيه الكلام على مملكة سنغاي وما انتابها من الحوادث. وأتى في صدر الكتاب على طرف من تاريخ مدينة تمبوكتو ومن تداولوها من أرباب السلطان من توارق وسودان، وماسنة وسنغاي ومالى وجني وذكر علاقاتها مع دولة السعديين على عهد المنصور السعدي ت1603م. وفي الكتاب أبواب ترجم فيها لبعض الملوك والباشاوات الذين حكموا تنبكتو والسودان بعد معركة تنديبي سنة 1591 التي انهارت بعدها دولة سنغاي، وتحكم جيش السعديين المعروف

بالرماة. طبع هذا الكتاب بباريس مع ترجمة فرنسية سنة 1901على يد المحقق هوادس. توفي السعدي سنة (1066) هـ.

محمود كعتي:

مؤرخ من جني، كتب عمله المشهور: تاريخ الفتاش في أخبار الملوك وأكابر الناس، عرض فيه لتاريخ ممالك السودان، وقبائله من الفلان والسوننكه، وغيرهم، وصلتهم ببلاد صنهاجة الصحراء، وبعض تواريخ الباشوات في تنبكتو وجني وغيره.

لكن الكتاب يحوي جزءا منحولا كتبه المسمى: ابن المختار، عن دولة ماسِنا في عهد الشيخ أحمد لُبّ الماسني ت1845م وهو عهد لم يحضره المؤلف ولم يعرفه.

محمد بلو:

ابن الشيخ عثمان الفودي، مؤرخ فقيه وقائد سياسي، خلف أباه في مقامه الفكري والديني وقاد ولاية من ولايات الهوسا في دولة الفوديين الشهيرة بشمال غربي نيجيريا.

له مؤلفات عديدة وشعر رائق وله كتابه المهم في تاريخ بلاد السودان: إنفاق الميسور في معرفة بلاد التكرور.

لقد أفدنا من مواقع على الشبكة ومصادر مختلفة في هذه التراجم الأولية لاستجلاء ملامح المؤلفين العرب وغيرهم من أصحاب المؤلفات والمعاجم والنبذ التي ذكرت البلاد السودانية والصحراوي تفصيلا أو تلميحا، ولم نكن نود الإحاطة والحصر، ونحن لا نستطيع ذلك بالطبع، بل أردنا تقديم نصوص منتخبة تساعد الباحث والقارئ وتيسر له الإطلاع، راجين إكمال النقص وسد الخلل.

والله هو الموفق.

د.حماه الله ولد السالم

نواقشوط في 22 رجب من 1431 من هجرة خير البرية

النصوص

الوسياني: كتاب السير

من حوالي 650 هـ = 1252 - 53 م

T. Lewicki، Folia Orientalia، 1960، II, 10 - 11

1. رواية أبي معروف ويدرن بن جواد وبعث إلى الشيخ عبد الحميد الفزاني وهو عالم كبير من علماء أهل الدعوة كان في بلاد السودان مسيرة شهر من جبل نفوسة. فقال أرسل لي دواء العين. فقال عبد الحميد حين بلغته المغلغلة رسالة أبي معروف عجباً لهذا الشيخ أعطاه الله شفاء الذنوب ثم يسأل ما يزال عنه.

2. روايات القصور وهي قصطالية ونفزاوة من أهل الدعوة حفظهم الله أبو لأبي عبد الله محمد بن أبي عمرو التناوتي رحمة الله عليهما وهم بيت أهل الدعوة في نفزاوة من تناوتر. قالت يا سيدي لا ترُع قد ولدت عندك صبية... فسماها زينب. فبلغت الصبية مبلغ النساء فتزوجت رجلاً نفوسياً قنطرارياً. قال فسافر زوجها غانة. ثم جاء من سفره.

3. أبو محمد عبد الله بن محمد السدراتي:

ذكر عن أبي محمد عبد الله بن محمد السدراتي خال أبي محمد عبد الله بن محمد اللواتي. قال سافر خالي إلى القبلة فجعل تجارته صامتاً. واشترى جملاً لركوبه ومعه رجل حضري. فجاء الحضري إلى خالي فقال له أي اجعل تجارتي. فقال له لا أدري. فجعل الحضري تجارته رقيقاً فقفلوا إلى أهليهم. فكان أبو محمد لا تعب عليه ولا نصب. إذا ارتحل الناس ركب جمله وإذا نزل ضرب خيمته ويستريح. وكان الحضري يتعب وينصب في الخدم والرقيق هزلت هذه. وجاعت هذه ومرضت هذه وهربت هذه. وضرب العرق المدمر هذه. فإذا نزلوا اشتغلوا في حوائجهم والحضري متعب مغتم. وينظر في خلال ذلك إلى أبي محمد قاعداً في الظل وماله صقة في صرة لا تعب معه. فيقول الحضري سبحان الذي أراح عبد الله من هذا البلاء.

سير المشايخ
عن مؤلف مجهول من آخر القرن السادس هجرياً (12م)

1. حكاية تملي الوسياني

وذكر شيوخي الثلاثة أبو عمرو وأبو نوح وأبو الربيع رحمهم الله أن رجلاً من بني ويسين يقال له تملي، وكان مقلّا في أول أمره وهو من أهل القصور... فجعل يسافر إلى تادمكت فبلغ بها مالاً كثيراً... فجعل يبعث من تادمكت كل سنة ستة عشر كيس، كل كيس فيه خمسمائة دينار. وكانت من جلود بقر مكتوب على كل واحد منها "هذا مال الله" يبعث بها إلى أبي عمران موسى بن سدرين والد هارون الحامي الوسياني رحمه الله، يفرق بها على أهل ولايته، إلى أن كتب إليه أبو عمران مال الله كثير وأهل ولايتك قد استغنوا. وقيل قال له أهل الولاية قليل. فكتب إليه تملي كل من لا تعلم له كبيرة من أهل الدعوة فادفع له منها أخذتها عن الشيخ أبي خزر ولا أسأل عنها أحداً. وذكر الشيوخ أن أبا نوح سعيد بن يخلف وقال أبو نوح إنما هو أبوه يخلف بن تمصكويت المدوني سافر إلى تادمكت حتى وصل تملي فأدخله على بيوت ماله. فقال له إن كنت تأخذ مال الله يعنى الزكاة اغناك وعقبك. فقال له الشيخ لا. فقال له تملي ما علمتني شخياً فأعطاه دينار. فرجع الشيخ من عنده وكان يحدث عن بيت ماله رأيت فيها الكيوس موسوعة ما شبهتها إلا إلى الجراء وتراكم بعضها بعضاً ممتلئة كلها بالذهب مكتوب على كل كيس منها هذا مال الله، والحمد لله رب العالمين.

2. روايات أبي نوح سعيد بن يخلف المزاتي المدوني

وذكر أبو عمرو عن الشيخ يخلفتن بن أيوب النفوسي المسناني أن الشيخ أبا نوح الصغير يعرف عنده أربعون. فرساً وله فرس عتيق وعليه حج وعليه سافق إلى تادمكت قيمته مائة وخمسون دينار.

3. روايات أبي عمران موسى بن سدرين وولده هارون الحامي الوسياني

وذكر الشيخ أبو نوح أن الشيخ أبا موسى هارون بن أبي عمران مر على الشيخ أبي صالح فطلب أهل واجلان أن يقعدوا حلقة تلاميذ. فقالوا أن أمر الحلقة شديد

وحقوقها كثيرة. وقالوا لا نقوم بأمرها، وأتوه بمائة دينار. فأبى لهم من أخذها، وهو يريد السفر إلى غانة. وكتب إليه أبو عبد الله أن يترك ويدع الغربة فأن في بلاد أهل الدعوة خير الدنيا والآخرة... فكتب إليه أبو عبد الله أن قال له دع السفر إلى تلك الجهة فماذا عِبْت على فلحون بن إسحاق حتى مات فيها. فمر بنفعه وعلمه... فتوجه إلى تلك بلاد. ثم خرج إلى غيارة فوجدهم عراة. فلزم بيته حتى مات فيها رحمة الله عليه. وقد كلمه أبو صالح جنون أيام كان في وارجلان أن يضع له من مسائل التوحيد شيئاً والرد على المخالفين، فوضع في الألواح كتابه المنسوب إليه، فأعجله السفر ولم يعرضه وهو في الألواح.

4. روايات المستجابين الدعاء

ومنهم محمد بن رستم، وذلك أن ولده عمران في غانة. فقال لأهله أخروا عشائي آكُلُه مع عمران. فلبثوا حتى مضى هدوء من الليل ولم يجيء عمران، فخرج إلى صخرة السبع فرقى عليها، فجعل ينادي يا عمران فلم يجبه أحد. فعجب الناس منه. فرجع فلما جلس إذا بعمران يدق الباب. فأكل عشاءه معه، والحمد لله رب العالمين.

5. رواية أصيل

وذكر أيضاً أن عبدة يتيمة تخدمها وليس لها أحد فلما كبرت جعلت تخطب لها فلم تجد أحداً فتحيرت من ذلك. فتكلم إليها فقال ملكت في السماء السبع شهدت الملائكة فنادوا مؤمن بن وكيل، وكان رجل هو في ذلك الوقت في تدمكّت.

6. إسماعيل بن علي النفزاوي

وذكر أن الشيخ إسماعيل بن علي النفزاوي رحمه الله بات معه عند أبي العباس أحمد بن محمد بن علي في تماوط... وهذا الشيخ من تين بأمر تناوتي سفر إلى غانة، فلم يصل صلاة قط بغير ماء حتى رجع.

7. فلحون بن إسحاق

وذكر أبو الربيع أن الشيخ فلحون بن إسحاق من بني واسين جاءه سابلا... وذلك في سجلماسة يريد غانة.

ابن حجر العسقلاني

الدرر الكامنة في أيام المائة الثامنة

صبيح بن عبد الله التكروري الكلوتاتي الحارس سمع مع ولدي سيده من النجيب والشيخ شمس الدين ابن العماد وغيرهما وحدث بدمشق وبالقاهرة وكان صالحاً معتقداً أذكره ابن رافع وقال ذكر لي أنه اشترى نفسه من سيده بخمسمائة درهم جمعها من صنعة الكلوتات مات بدمشق في المحرم سنة 731 وله بضع وسبعون سنة...

عبد اللطيف بن أحمد بن محمود بن أبي الفتح بن محمود بن أبي القاسم التكريتي الاصل سراج الدين ابن الكويك التاجر الاسكندراني الربعي ولد سنة 659 وسمع من النجيب جزء ابن عرفة وحدث به مرة ففرق على كل من سمع عليه ديناراً ديناراً وتفقه للشافعي مهر ورحل إلى دمشق فسمع بها من اسحاق الاسدي وإسماعيل بن مكتوم وبنت الطائحي وغيرهم وكان من رؤساء الكارم وبني مدرسة الثغر وهو جد شيخنا أبي طاهر محمد بن محمد بن عبد اللطيف وأنجب هو وأبا جعفر وأبا اليمن قرأت بخط ولده أبي جعفر انه مات في جمادى الأولى سنة 34 ببلاد التكرور...

ثم ملك عبد الحليم سجلماسة في سنة 763 ثم نازعه عبد المؤمن على أخيه ففر عبد الحليم إلى بلاد التكرور فقدم مع الركب إلى مصر فأكرمه يلبغا وأنزله وأعانه على الحج فلما رجع وأراد بلاده مات بتروجة سنة 767...

القاسم التكروري أحد الصلحاء الزهاد كان يقيم بالمدينة ويسيح في الجبال فلا يدخل إلا يوم الجمعة مات في ذي الحجة سنة 747...

ماري حاطة بن منشا بن مغابن منشا موسى بن أبي بكر التكروري ملك التكرور ملك بعد أبيه وسار سيرة قبيحة بالغ في التبذير والفسق حتى مات في سنة 775 وولي بعده ابنه منشا موسى...

محمد بن عبد الله التكروري خطيب بلاده ثم حج وسكن المدينة وكان على

طريقة مثلي كثير البر والإيثار وتفقد الإخوان متسع العلم مات بالمدينة سنة 742 ودفن عند قبر عثمان حفر له بين القبور فوجدوا قبرا معقودا ليس فيه أحد فوضع فيه...

محمد بن مسلم بتشديد اللام ابن أحمد البالسي الأصل التاجر الشهير يقال كان أبوه حمالاً ثم كثر ماله ونشأ ولده ناصر الدين على صيانة وجده لأمه شمس الدين أحمد بن بشير كان من كبار التجار بمصر ورزق الحظ الوافر في التجارة وفي العبيد السفارة فكان يرحل إلى الهند والحبشة واليمن والتكرور ويعودون له بالأرباح الكثيرة المفرطة غاب مرة في قوص فأشاع ولده نور الدين علي أنه مات وبذل للأشرف شعبان مالاً عريضاً من ماله حتى مكنه من حواصله فبلغ ذلك أباه فحضر في أيام يسيرة واستعاد بعض المال وذهب أكثره ولما مات سنة 776 ورثه ولده علي وغيره من ولده فكان حصة الذكر أكثر من مائتي ألف دينار وهو صاحب المدرسة بالفسطاط من أحسن المدارس ولم تكمل إلا بعد موته وعمر مطهرة بجوار جامع عمرو وكان كثير الصدقات كثير التقتير على نفسه...

موسى بن أبي بكر سالم التكروري ملك التكرور قدم حاجاً سنة 724 في رجب وأدخل إلى الناصر فامتنع من تقبيل الأرض وقال لا أسجد لغير الله فأعفاه السلطان وقربه وأكرمه وأحسن تجهيزه إلى الحجاز وكثر في أيدي الناس الذهب من التكاورة وانحط سعر الدينار وسار في ركب بمفرده وكان مهاباً في قومه فلا يخاطبه أحد إلا ورأسه مكشوف وأقام بعد الحج ثلاثة أشهر بمكة ورجع ومات من رجاله عدد كثير من البرد واقترض من التجار لما رجع مالاً كثيراً فسار معه جماعة إلى بلاده لقبض أموالهم وكان عفيفاً ديناً اشترى جملة من الكتب ويقال أن جملة ما كان معه من المال مائة جمل فأنفقها في طريقه حتى استدان ولما رجع وفى جميع ما عليه وأرسل لجماعة ممن رافقه في الحج من أكابر المصريين حتى والي مصر انعامات كثيرة وكانت هديته إلى السلطان خمسة آلاف مثقال وكان كثير المروءة جداً وقدم للخزانة السلطانية شيئاً كثيراً من التبر المعدني الذي لم يصنع ولما رجع بعث للسلطان من هدايا الحجاز شيئاً كثيراً وجامله بالجميل والألطاف والمبلغ له ولأصحابه ولم يدع هو أميراً ولا صاحب وظيفة سلطانية حتى وصله بجملة من الذهب وبقي موسى في مملكته خمساً وعشرين سنة واستقر ابنه فيها أربع سنين ثم تملك عمه سليمان.

المقري
نفح الطيب

ثم قال السرخسي:... وبلغني أن قوماً أتوه بفيل من بلاد السودان هدية، فأمر لهم بصلة، ولم يقبله منهم، وقال: نحن لا نريد أن نكون أصحاب الفيل...

وقال [السرخسي] في رحلته لما ذكر السيد أبا الربيع سليمان بن عبد الله ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي، وكان في تلك المدة يلي مدينة سجلماسة وأعمالها: اجتمعت به حين قدم إلى مراكش بعد وفاة المنصور يعقوب لمبايعة ولده محمد. فرأيته شيخاً بهي المنظر، حسن المخبر، فصيح العبارة باللغتين العربية والبربرية. ومن كلامه في جواب رسالة إلى ملك السودان بغانة ينكر عليه تعويق التجار، فوله: نحن نتجاور بالإحسان، وإن تخالفنا في الأديان، ونتفق على السيرة المرضية، ونتألف على الرفق بالرعية. ومعلوم أن العدل من لوازم الملوك في حكم السياسة الفاضلة. والجور لا تعنيه إلا النفوس الشريرة الجاهلة. وقد بلغنا احتباس مساكين التجار ومنعهم من التصرف فيما هم يصدده. وتردد الجلابة إلى البلد مفيد لسكانها ومعين على التمكن من استيطانها. ولو شئنا لاحتبسنا من في جهاتنا من أهل تلك الناحية لكنا لا نستصوب فعله، ولا ينبغي لنا أن ننهى عن خلق ونأتي مثله. والسلام...

قال لي الفقيه أبو عبد الله محمد القسطلاني: دخلت إلى السيد أبي الربيع بقصر سجلماسة، وبين يديه أنطاع عليه رؤوس الخوارج الذين قطعوا الطريق على السفار بين سجلماسة وغانة، وهو ينكت الأرض بقضيب من الآبنوس ويقول:

ولا غـــرو أن كانـــت رؤوس عداتـــه   جـــواباً إذا كـــان الـــسيوف رســـائله

ومات بعد الستمائة، رحمه الله تعالى. انتهى...

ثم قال [السرخسي]:...وبلغني أن قوماً أتوه بفيل من بلاد السودان هدية، فأمر لهم بصلة، ولم يقبله منهم، وقال: نحن لا نريد أن نكون أصحاب الفيل. (3: 103)

شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي
الضوء اللامع لأهل القرن التاسع

أحمد بن محمد بن عيسى بن علي الشهاب اللجائي - بفتح اللام المشددة والجيم نسبة لقبيلة من أورنة إحدى قبائل البربر - الفاسي المغربي المالكي. ولد بفاس في رمضان سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة وأخذ القراءات عن أبي عبد الله محمد الفيشي الكفيف وأبي الحجاج يوسف بن منحوت الأنصاري وتفقه بأبيه وبالخطيب أبي القاسم عبد العزيز الباز عند راي ومما قرأه على ثانيهما المدونة في مدة اثنتي عشرة وكان يشهد على قراءته وعن أبيه أخذ العربية والمعاني والبيان وغيرها وناب في قضاء بلده خمس عشرة سنة ثم عرض عليه استقلالاً فأبى وضيق عليه ليقبل ثم خلص وسافر حاجاً فاجتاز بأبي فارس وأكرموا وروده وصل لمكة بعد الثلاثين بيسير وتردد منها للزيارة النبوية ثم سافر لمصر ولما قدم القاهرة أخذ عن المقريزي بعض كتابه إمتاع الأسماع وقيل إنه عرض عليه القضاء بعد البساطي فلم يوافق، وترجمه المقريزي في عقوده فقال ونعم الرجل هو أخبرني أنه في سنة عشرين كثرت الأمطار والسيول بأعمال فاس فظهر إنسان طوله ذراع في عرض شبر. ثم قدم القاهرة وتوجه منها في البحر لبلاده فأسر بجزيرة رودس ثم خلص بمال جبي له من القاهرة وعاد إليها ثم سافر منها في سنة ثلاث وأربعين فبلغنا موته وهو بالصحراء قبل وصوله انتهى. وهو ممن تميز في الفقه والعربية وغيرهما كالفرائض والحساب وبحث عليه ابن أبي اليمن في سنة تسع وثلاثين بمكة العمدة في الحديث وألفية النحو والرسالة لابن أبي زيد وقطعة من مختصر ابن الحاجب الفرعي وأذن له في الإقراء والمحيوي عبد القادر إلى الرضاع من تهذيب البرادعي وفرائض ابن الحاجب وإلى باب الضروب من تلخيص ابن البنا في الحساب والبعض من التسهيل والمغني وأذن له في إقراء الفقه والعربية والحساب وقال أنه لم ير من العلماء أعظم منه بحر لا يجارى في الفقه والعربية وعلوم الأدب والقراءات مع حسن الخلق وكثرة التواضع واللطافة لكنه يعتريه في أثناء تدريسه بعض غيبة وأنه دخل التكرور بعد الأسر فأقام سنة يقرأ بها التفسيرين ومات هناك؛ وكذا أخذ عنه بالقاهرة البرهان اللقاني وآخرون وأرخه ابن عزم سنة ثلاث وأربعين...

خالص التكروري. أصله من خدام جرباش قاشق ثم ترقى للخدمة عند الظاهر جقمق إلى أن عمله الاشرف إينال من رؤوس النوب وصار أحد مقدمي الأطباق ثم استقر به الظاهر خشقدم في نيابة التقدمة حين انتقال مثقال الحبشي منها للتقدمة ثم الاشرف قايتباي في التقدمة بعد نفي مثقال المشار إليه، ويذكر بلين ورفق وتواضع وبغير ذلك...

صالح بن محمد بن أحمد بن داود اليافوري فقيه المالكية بالتكرور. مات سنة ثلاث وأربعين...

محمد بن أحمد بن عثمان بن عبد الله بن سليمان بن عمر بن الشيخ محمد صاحب الخضر المشهور قبره بالقرافة ابن سيدي أبي العباس الحراز العز التكروري الأصل القرافى القاهري المالكي الكتبي ويعرف بالعز التكروري وربما كان يقال له قديماً الغاني نسبة إلى لغانة مدينة بالتكرور. ولد في أوائل سنة أحدى وتسعين وسبعمائة بالقرافة الكبرى وحفظ القرآن وتلا به لأبي عمر وعلى الزراتيتي والعمدة والرسالة وألفيه ابن ملك وعرضها على جماعة لم يجز منهم غير التلواني وأخذ الفقه عن الشهاب الصنهاجى والشمس بن عمار والنحو والعروض وعلم الغبار عن ناصر الدين البارنبارى والفرائض عن الشمس العراقي. وحج سنة تسع عشرة وبعدها وكتب على الشمس والوسيمى واسناد الزين عبد الرحمن بن الصائغ فأجاد وصار له خط حلو جداً متقن قال وقلت في حال كتابتي عليه وعمري إذ ذاك دون العشرين في مليح ناسخ وأشرت إلى قلم الأشعار وقلم المحقق والريحان والغبار:

لما شغفت بناسخ ناديته ... في ميم ثغرك تنشد الأشعار
نادى قلام الخد قلت محققا ... ريحان خدك ما عليه غبار

وشارك في الفضائل وله نوادر وأخبار ظريفة، وتنزل في الجهات وسمع على التنوخي أشياء منها جزء أبى الجهم وأجاز له أبو هريرة بن الذهبي وأبو الخير بن العلائي وجماعة ونبهنا عليه العلاء القلقشندي وكان يجلس عنده في سوق الكتب وأخذ عن التقى بن حجة شرح البديعية له وكتب بخطه منه عدة نسخ وتعانى النظم وتقدم في صناعة الكتب بحسب الوقت وصار في سوقه عين الجماعة وراج أمره بسببها ولزم الكمال بن البارزي والجمال ناظر الخاص فأثرى وجرت على يديه من قبلهما مبرات كل ذلك مع الديانة والأمانة والتواضع والعقل والتودد والخبرة بالزمان وحسن الصمت وملازمة التلاوة والعبادة وقد حدث باليسير أخذت عنه أشياء وكتبت

عنه قوله:

سكنت القلب يا رحمة ... وبي من عذلي غمه
فإن لاموا فلا بدع ... فما في قلبهم رحمه

مات في جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وصلى عليه بمصلى باب النصر ثم دفن في الصحراء...

عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن علي بن أحمد بن عبد العزيز الهاشمي العقيلي النويري الأصل المكي الآتي أبوه. ولد بها وأمه غزال الحبشية فتاة أبيه وحفظ القرآن وصلى به وسمع من ابن الجزري والبرماوي وغيرهما؛ ودخل في سنة اثنتين وثلاثين مع أبيه القاهرة ثم المغرب ثم التكرور، فماتا بها قبل سنة ست وثلاثين...

688 - محمد بن محمد بن محمد بن عمر خير الدين أبو الخير بن السري بن الصدر القاهري المالكي وهو بكنيته أشهر ويعرف بابن الغاني - نسبة لغانة مدينة بالتكرور - ابن عم العز التكروري. ولد أول القرن وسمع على الولي العراقي والواسطي المسلسل وجزء الأنصاري وعلى الثاني فقط جزء ابن عرفة وعلى ابن بردس وابن الطحان وابن ناظر الصاحبة بعض أبي داود وعلى الجمال بن جماعة القدسي وغيره معنا وقبلنا بل كان يزعم أنه سمع قديماً ولكن في قوله توقف نعم رأيت والده في طبقة السماع على ابن أبي المجد وكان هذا ينوب في الحسبة خارج باب الشعرية وتلك النواحي وله ببيت ابن البرقي خلطة وكذا بغيرهم مات عن سن عالية بعد توعك طويل في ليلة الخميس تاسع عشر من المحرم سنة تسع وثمانين وورثه ابن عمه الصدر الغاني ولم يلبث أن مات بمكة وكانا معاً ورثا العز التكروري رحمهم الله وإيانا وعفا عنه...

" أبو بكر " بن قاسم بن عبد المعطي بن أحمد بن عبد المعطي بن مكي ابن الأطراد الأنصاري الخزرجي المكي المالكي ويعرف بالحجازي، سمع من عثمان بن الصفي أحمد الطبري بمكة ومن غيره، ودخل بلاد التكرور فاتفق أنهم كانوا احتاجوا للاستسقاء فاستسقوا به فسقوا وذلك ببلد ملّي [مالي] ثم رجع إلى مصر فأقام بها، وكان يكثر زيارة الصالحين بالقرافة ويشارك في قليل من الفقه ويدري التاريخ، اجتمعت به مراراً، قال شيخنا في أنبائه، وقال في معجمه كان حسن المذاكرة كثير الاستحضار للتواريخ استفدت منه كثيراً، ومات في سنة ست عن سبع وسبعين سنة وكان يعرف بين المصريين بالفقيه أبي بكر الحجازي، وذكره الفاسي والمقريزي في عقوده وقال لقيته بمكة وكان حسن المذاكرة كثير الاستحضار للتاريخ.

ابن خلدون
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر
حج ملك التكرور

كان ملك السودان بصحراء المغرب في الإقليم الأول والثاني منقسماً بين أمم من السودان. أولهم مما يلي البحر المحيط أمة صوصو، وكانوا مستولين على غانة ودخلوا في الإسلام أيام الفتح.

وذكر صاحب كتاب رجار في الجغرافيا أن بني صالح من بني عبد الله بن حسن بن الحسن كانت لهم بها دولة وملك عظيم، ولم يقع لنا في تحقيق هذا أكثر من هذا. وصالح من بني حسن مجهول، وأهل غانة منكرون أن يكون عليهم ملك لأحد غير صوصو. ثم يلي أمة صوصو أمة مالي من شرقهم وكرس ملكهم بمدينة بني ثم من بعدهم شرقاً عنهم أمة گوگو. ثم التكرور بعدهم، وفيما بينهم وبين النوبة أمة كانم وغيرها.

وتحولت الأحوال باستمرار العصور فاستولى أهل مالي على ما وراءهم وبين أيديهم من بلاد صوصو وگوگو، وآخر ما استولوا عليه بلاد التكرور. واستفحل ملكهم إلى الغاية، وأصبحت مدينتهم بني حاضرة بلاد السودان بالمغرب ودخلوا في دين الإسلام منذ حين من السنين. وحج جماعة من ملوكهم.

وأول من حج منهم برمندانا، وسمعت في ضبطه من بعض فضلائهم برمندانه، وسبيله في الحج هي التي اقتفاها ملوكهم من بعده.

ثم حج منهم منسا ولي بن ماري جاطة أيام الظاهر بيبرس. وحج بعده منهم مولاهم صاكوره، وكان تغلب على ملكهم وهو الذي افتتح مدينة گوگو. ثم حج أيام الناصر وحج من بعده منهم منسا موسى حسبما ذلك مذكور في أخبارهم عند دول البربر، عند ذكر صنهاجة ودولة لمتونة من شعوبهم.

ولما خرج منسا موسى من بلاد المغرب للحج ملك على طريق الصحراء، وخرج عند الأهرام بمصر، وأهدى إلى الناصر هدية حفيلة يقال إن فيها خمسين ألف

دينار، وأنزله بقصر عند القرافة الكبرى وأقطعه إياها ولقيه السلطان بمجلسه، وحدثه ووصله وزوده وقرب إليه الخيل والهجن، وبعث معه الأمراء يقومون بخدمته إلى أن قضى فرضه سنة أربع وعشرين ورجع فأصابته في طريقه بالحجاز نكبة تخلصه منها أجله. وذلك أنه ضل في الطريق عن المحمل والركب وانفرد بقومه عن العرب وهي كلها مجاهل لهم، فلم يهتدوا إلى عمران ولا وقفوا على مورد، وساروا على السمت إلى أن نفذوا عند السويس وهم يأكلون لحم الحيتان إذا وجدوها والأعراب تتخطفهم من أطرافهم إلى أن خلصوا.

ثم جدد السلطان له الكرامة ووسع له في الحباء، وكان أعد لنفقته من بلاده فيما يقال مائة حمل من التبر في كل حمل ثلاثة قناطير فنفدت كلها، وأعجزته النفقة فاقترض من أعيان التجار، وكان في صحبته منهم بنو الكويك فأقرضوه خمسين ألف دينار وابتاع منهم القصر الذي أقطعه السلطان وأمضى له ذلك. وبعث سراج الدين الكويك معه وزيره يرد له منه ما أقرضه من المال فهلك هنالك. وأتبعه سراج الدين آخراً بابنه فمات هنالك. وجاء ابنه فخر الدين أبو جعفر بالبعض، وهلك منسا موسى قبل وفاته فلم يظفروا منه بشيء انتهى، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الخبر عن المعقل من بطون هذه الطبقة الرابعة وأنسابهم وتصاريف أحوالهم

هذا القبيل لهذا العهد من أوفر قبائل العرب ومواطنهم بقفار المغرب الأقصى مجاورون لبني عامر من زغبة في مواطنهم بقبلة تلمسان، وينتهون إلى البحر المحيط من جانب الغرب وهم ثلاثة بطون: ذوي عبيد الله، وذوي منصور، وذوي حسان. فذوي عبيد الله منهم هم المجاورون لبني عامر، ومواطنهم بين تلمسان وتاوريرت في التل وما يواجهها من القبلة. ومواطن ذوي منصور من تاوريرت إلى بلاد درعة فيستولون على ملوية كلها إلى سجلماسة، وعلى درعة وعلى ما يحاذيها من التل مثل تازي وعساسا ومكناسة وفاس وبلاد تدلا والمقدر.

ومواطن ذوي حسان من درعة إلى البحر المحيط، وينزل شيوخهم في بلد نول قاعدة السوس فيستولون على السوس الأقصى وما إليه، وينتجعون كلهم في الرمال إلى مواطن الملثمين من گدالة ومسّوفة ولمتونة. وكان دخولهم إلى المغرب مع الهلاليين في عدد قليل، يقال أنهم لم يبلغوا المائتين. واعترضهم بنو سليم فأعجزوهم وتحيزوا

إلى الهلاليين منذ عهد قديم ونزلوا بآخر مواطنهم مما يلي ملوية ورمال تافيلالت، وجاوروا زناتة في القفار والغربية فعفوا وكثروا وأنبتوا في صحارى المغرب الأقصى، فعمروا رماله وتغلبوا على فيافيه. وكانوا هناك أحلافاً لزناتة سائر أيامهم. وبقي منهم بإفريقية جمع قليل اندرجوا في جملة بني كعب بن سليم وداخلوهم حتى كانوا وزراء لهم في الاستخدام للسلطان واستئلاف للعرب. فلما ملكت زناتة بلاد المغرب ودخلوا إلى الأمصار والمدن. قام هؤلاء المعقل في القفار وتفردوا في البيداء فنموا نمواً لا كفاء له، وملكوا قصور الصحراء التي اختطها زناتة بالقفر مثل قصور السوس غرباً، ثم توات ثم جودة ثم تامنطيت، ثم وارگلان ثم تسابيت ثم تيگورارين شرقاً. وكل واحد من هذه وطن منفرد يشتمل على قصور عديدة ذات نخيل وأنهار وأكثر سكانها من زناتة، وبينهم فتن وحروب على رياستها. فجاز عرب المعقل هؤلاء الأوطان في مجالاتهم ووضعوا عليها الأتاوات والضرائب، وصارت لهم جباية يعتدون فيها ملكاً. وكانوا من تلك السالفة يعطون الصدقات لملوك زناتة ويأخذونهم بالدماء والطوائل ويسمونها حمل الرحيل. وكان لهم الخيار في تعيينها.

ولم يكن هؤلاء العرب يستبيحون من أطراف المغرب وتلوله حمى، ولا يعرضون لسابلة سجلماسة ولا غيرها من بلاد السودان بأذية ولا مكروه، لما كان بالمغرب من اعتزاز الدول وسد الثغور وكثرة الحامية أيام الموحدين وزناتة بعدهم. وكان لهم بإزاء ذلك أقطاع من الدول يمدون إلى أخذه اليد السفلى...

الطبقة الثانية من صنهاجة وهم الملثمون وما كان لهم بالمغرب من الملك والدولة

هذه الطبقة من صنهاجة هم الملثمون الموطنون بالقفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب، أبعدوا في المجالات هنالك منذ دهور قبل الفتح لا يعرف أولها، فأصحروا عن الضفاف ولم يجدوا بها المراد وهجروا التلول وحبوبها، واعتاضوا منها بألبان الأنعام ولحومها انتباذاً عن العمران واستئناساً بالانفراد وتوحشاً بالعز عن الغلبة والقهر. فنزلوا من ريف الحبشة جواراً، وصاروا ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجزاً، واتخذوا اللثام خطاماً تميزوا بشعاره بين الأمم.

وعفوا في تلك البلاد وكثروا. وتعددت قبائلهم من گدالة فلمتونة فمسوفة فوتريكة فناوكا فزغاوة ثم لمطة إخوة صنهاجة كلهم ما بين البحر المحيط بالمغرب إلى

غدامس من قبلة طرابلس وبرقة.

وللمتونة فيهم بطون كثيرة منهم: بنو ورتنطق وبنو زمال وبنو صولان وبنو ناسجة، وكان موطنهم من بلاد الصحراء يعرف كاكدم، وكان دينهم جميعاً المجوسية شأن برابرة المغرب. ولم يزالوا مستقرين بتلك المجالات حتى كان إسلامهم بعد فتح الأندلس، وكانت الرياسة فيهم للمتونة. واستوثق لهم ملك ضخم منذ دولة عبد الرحمن بن معاوية الداخل توارثة ملوك منهم. تلاكاگين وورتكا وأوراكن بن ورتنطق جد أبي بكر بن عمر أمير لمتونة في مبتدأ دولتهم.

وطالت أعمارهم فيها إلى الثمانين ونحوها، ودوخوا تلك البلاد الصحراوية، وجاهدوا من بها من أمم السودان وحملوهم على الإسلام، فدان به كثيرهم. واتقاهم آخرون بالجزية فقبلوها منهم وملك عليهم بعد تلاكاگين المذكور تيولوتان.

قال ابن أبي زرع: أول من ملك الصحراء من لمتونة تيولوتان، فدوخ بلاد الصحراء واقتضى مغارم السودان. وكان يركب في مائة ألف نجيب. وتوفي سنة اثنتين وعشرين ومائتين، وملك بعده يلتان وقام بأمرهم وتوفي سنة سبع وثمانين ومائتين، وقام بأمرهم بعده ابنه تميم إلى سنة ست وثلثمائة وقتله صنهاجة وافترق أمرهم. انتهى كلام ابن أبي زرع.

وقال غيره: كان من أشهرهم تينزوا بن وانشيق بن بيزا وقيل برويان بن واشنق بن يزار ملك الصحراء بأسرها على عهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر في المائة الرابعة. وفي عهد عبيد الله وابنه أبي القاسم من خلفاء الشيعة، كان يركب في مائة ألف نجيب وعمله مسيرة شهرين في مثلها. ودان له عشرون ملكاً من ملوك السودان يعطونه الجزى، وملك من بعده بنوه ثم افترق أمرهم من بعد ذلك، وصار ملكهم طوائف ورياستهم شيعاً.

قال ابن أبي زرع: افترق أمرهم بعد تميم بن يلتان مائة وعشرون سنة إلى أن قام فيهم أبوعبيد الله بن تيفاوت المعروف بناشرت اللمتوني فاجتمعوا عليه وأحبوه وكان من أهل الدين والصلاح، وحج وهلك لثلاثة أعوام من رياسته في بعض غزواته. وقام بأمرهم صهره يحيى بن إبراهيم الكدالي. وبعده يحيى بن عمر بن تلاكاگين.

وكان لهذه الطبقة ملك ضخم بالمغرب والأندلس أولاً، وبإفريقية بعده فنذكره الآن على نسقه.

الخبر عن دولة المرابطين من لمتونة وما كان لهم بالعدوتين من الملك وأولية ذلك ومصايره

كان هؤلاء الملثمون في صحاريهم كما قلناه وكانوا على دين المجوسية إلى أن ظهر فيهم الإسلام لعهد المائة الثالثة كما ذكرناه، وجاهدوا جيرانهم من السودان عليه فدانوا لهم واستوثق لهم الملك. ثم افترقوا وكانت رياسة كل بطن منهم في بيت مخصوص. فكانت رياسة لمتونة في بني ورتانطق بن منصور بن مصالة بن المنصور بن مزالت بن أميت بن رتمال بن تلميت وهو لمتونة. ولما أفضت الرياسة إلى يحيى بن إبراهيم الگدالي، وكان له صهر في بني ورتانطق هؤلاء، وتظاهروا على أمرهم.

وخرج يحيى بن إبراهيم لقضائه فرصة في رؤساء من قومه في سني أربعين وأربعمائة، فلقوا في منصرفهم بالقيروان شيخ المذهب المالكي أبو عمران الفاسي، واغتنموا ما متعوا به من هديه، وما شافههم به من فروض أعيانهم من فتاوبه.

وسأله الأمير يحيى أن يصحبهم من تلميذه من يرجعون إليه في نوازلهم وقضايا دينهم. فندب تلميذه إلى ذلك حرصاً على إيصال الخير إليهم لما رأى من رغبتهم فيه، فاستصعبوا مسغبة بلادهم. وكتب لهم الفقيه أبو عمران إلى الفقيه محمد وكاك بن زلوا اللمطي بسجلماسة من الآخذين عنه وعهد إليه أن يلتمس لهم من يثق بدينه وفقهه، ويروض نفسه على مسغبة أرضهم قي معاشه.

فبعث معهم عبد الله بن ياسين بن مكو الجزولي، ووصل معهم يعلمهم القرآن ويقيم لهم الدين. ثم هلك يحيى بن إبراهيم وافترق أمرهم، واطرحوا عبد الله بن ياسين، واستصعبوا علمه وتركوا الأخذ عنه لما تجشموا فيه من مشاق التكليف.

فأعرض عنهم وترهب. وتنسك معه يحيى بن عمر بن تلاگاگين من رؤساء لمتونة وأخوه أبو بكر، فنبذوا عن الناس في ربوة يحيط بحر النيل من جهاتها ضحضاحاً في المصيف وغمراً في الشتاء، فتعود جزراً منقطعة. فدخلوا في غياضها منفردين للعبادة، وتسامع بهم من في قلبه مثقال حبة من خير، فتسايلوا إليهم ودخلوا في دينهم وغيضتهم.

ولما كمل معهم ألف من الرجالات قال لهم شيخهم عبد الله بن ياسين إن ألفاً لن تغلب من قلة، وقد تعين علينا القيام بالحق والدعاء إليه وحمل الكافة عليه، فأخرجوا بنا لذلك فخرجوا وقتلوا من استعصى عليهم من قبائل لمتونة وكدالة

ومسوفة، حتى أنابوا إلى الحق واستقاموا على الطريقة، وأذن لهم في أخذ الصدقات من أموال المسلمين، وسماهم بالمرابطين وجعل أمرهم في العرب إلى الأمير يحيى بن عمر، فتخطوا الرمال الصحراوية إلى بلاد درعة وسجلماسة، فأعطوهم صدقاتهم وانقلبوا.

ثم كتب إليهم وگاگ اللمطي بما نال المسلمين فيما إليه من العسف والجور من بني وانودين أمراء، سجلماسة من مغراوة وحرضهم على تغيير أمرهم، فخرجوا من الصحراء سنة خمس وأربعين وأبعمائة في عدد ضخم ركباناً على المهارى أكثرهم وعمدوا إلى درعة. لا بل كانت هنالك بالحمى وكانت تناهز. خمسين ألفاً ونحوها.

ونهض إليهم مسعود بن وانودين أمير مغراوة، وصاحب سجلماسة ودرعة لمدافعتهم عنها وعن بلاده، فتواقعوا وانهزم ابن وانودين وقتل، واستلحم عسكره مع أموالهم، واستلحمهم ودوابهم وإبل الحمى التي كانت ببلد درعة. وقصدوا سجلماسة فدخلوها غلاباً، وقتلوا من كان بها من فل مغراوة، وأصلحوا من أحوالها وغيروا المنكرات، وأسقطوا المغارم والمكوس واقتضوا الصدقات واستعملوا عليها منهم وعادوا إلى صحرائهم.

فهلك يحيى بن عمر سنة سبع وأربعين، وقدم مكانه أخاه أبا بكر، وندب المرابطين إلى فتح المغرب فغزا بلاد السوس سنة ثمان وأربعين. وافتتح ماسة وتارودانت وجميع معاقله. ثم افتتح مدينة أغمات سنة تسع وأربعين وفر أميرها لقوط بن يوسف بن علي المغراوي إلى قادلا، واستضاف إلى بني يفرن بها، ثم افتتح المرابطون بلاد المصامدة بجبال درن، وجاسوا خلالها سنة خمسين، ثم أغزوا تادلا فاستباحوها واستلحموا بني يفرن ملوكها، وقتل معهم لقوط بن يوسف المغراوي صاحب أغمات. وتزوج امرأته زينب بنت إسحق النفراوية، وكانت مشهورة بالجمال والرئاسة، وكانت قبل لقوط عند يوسف بن علي بن عبد الرحمن بن واطاس، وكان شيخاً على وريكة وهزرجة بزمن هيلانة في دولة أمغارن في بلاد المصامدة وهم الشيوخ. وتغلب بنو يفرن على وريكة وملكوا أغمات فتزوج لقوط زينب هذه، ثم تزوجها بعده أبو بكر بن عمر كما ذكرنا. ثم دعا المرابطين إلى جهاد برغواطة الذين كانوا بتامستا وإنفا وجهات الريف الغربي فكانت لهم فيهم وقائع وأيام استشهد عبد الله بن ياسين في بعضها سنة خمسين.

وقدم المرابطون بعده سليمان بن عدو ليرجعوا إليه في قضايا دينهم. واستمر أبو

بكر بن عمر في إمارة قومه على جهادهم، ثم استأصل شأفتهم، ومحا أثر دعوتهم من المغرب وهلك في جهادهم سليمان بن عدو سنة إحدى وخمسين لسنة من وفاة عبد الله بن ياسين.

ثم نازل أبو بكر مدينة لواتة وافتتحها عنوة وقتل من كان بها من زناتة سنة اثنتين وخمسين. وبلغه وهو لم يستتم فتح المغرب بعدما وقع من الخلاف بين لمتونة ومسوفة ببلاد الصحراء، حيث أصل أعياصهم ووشايج أعراقهم ومنيع عددهم فخشي افتراق الكلمة وانقطاع الوصلة، وتلافى أمره بالرحلة. وأكد ذلك زحف بلكين بن محمد بن حماد صاحب القلعة إلى المغرب سنة ثلاث وخمسين لقتالهم، فارتحل أبو بكر إلى الصحراء، واستعمل على المغرب ابن عمه يوسف بن تاشفين، ونزل له عن زوجه زينب بنت إسحق، ولحق بقومه. ورقع ما كان بينهم من خرق الفتنة، وفتح باباً من جهاد السودان فاستولى على نحو تسعين مرحلة من بلادهم.

وأقام يوسف بن تاشفين بأطراف المغرب، ونزك بلكين صاحب القلعة فاس وأخذ رهنها على الطاعة، وانكفأ راجعاً. فحينئذ سار يوسف بن تاشفين في عسكره من المرابطين ودوخ أقطار المغرب. ثم رجع أبو بكر إلى المغرب فوجد يوسف بن تاشفين قد استبد عليه. وأشارت عليه زينب أن يريه الاستبداد في أحواله وأن يعد له متاع الصحراء وماعونها، ففطن لذلك الأمير أبو بكر، وتجافى عن المنازعة وسلم له الأمر، ورجع إلى أرضه فهلك لمرجعه سنة ثمانين وأربعمائة.

واختط يوسف مدينة مراكش سنة أربع وخمسين، ونزلها بالخيام وأدار سورها على مسجد وقصبة صغيرة لاختزان أمواله وسلاحه، وكمل تشييدها وأسوارها ابنه من بعده سنة ست وعشرين وخمسمائة. وجعل يوسف مدينة مراكش لنزله لعسكره وللتمرس بقبائل المصامدة المصيفة بمواطنهم بها في جبل درن، فلم يكن في قبائل المغرب أشد منهم ولا أكثر جمعاً. ثم صرف عزمه إلى مطالبة مغراوة وبني يفرن وقبائل زناتة بالمغرب، وجذب الحبل من أيديهم، وكشف ما نزل بالرعايا من جورهم وعسفهم، فقد كانوا من ذلك على ألم - حدث المؤرخون في أخبار مدينة فاس ودولتهم فيها بكثير منه - فنازل أولاً قلعة فازاز، وبها مهدي بن توالي من بني يحفش.

قال صاحب نظم الجواهر: وهم بطن من زناتة، وكان أبو توالي صاحب تلك القلعة ووليها هو من بعده فنازله يوسف بن تاشفين. ثم استجاش به على فاس مهدي بن يوسف الكزنابي صاحب مكناسة بما كان عدواً لمعنصر المغراوي صاحب

فاس، فزحف في عساكر المرابطين إلى فاس، وجمع إليه معنصر ففض جموعه، وارتحل يوسف إلى فاس وتقرى منازلها وافتتح جميع الحصون المحيطة بها، وأقام عليها أياماً قلائل، وظفر بعاملها بكار بن إبراهيم فقتله. ثم نهض إلى صفروي فافتتحها وقتل من كان بها من أولاد وانودين المغراوي ورجع إلى فاس فافتتحها صلحاً سنة خمس وخمسين، ثم خرج إلى غمارة ونازلهم وفتح كثيراً من بلادهم. وأشرف على طنجة، وبها سكوت البرغواطي الحاجب صاحب سبتة وبقية الأمراء من موالي الحمودية وأهل دعوتهما. ثم رجع إلى منازلة قلعة فازاز، وخالفه معنصر إلى فاس فاستولى عليها وقتل عاملها.

واستدعى يوسف بن تاشفين مهدي بن يوسف صاحب مكناسة ليستجيش به على فاس فاستعرضه معنصر في طريقه قبل أن تتصل بأيديهما، وناجزه الحرب ففض جموعه وقتله، وبعث برأسه إلى وليه ومساهمه في شدته الحاجب سكوت البرغواطي. واستصرخ أهل مكناسة بالأمير يوسف بن تاشفين فسرح عساكر لمتونة إلى حصار فاس فأخذوا بمخنقها وقطعوا المرافق عنها وألحوا بالقتال عليها فمسهم الجهد. وبرز معنصر إلى مناجزة عدوه لإحدى الراحتين فكانت الدائرة عليه وهلك. واجتمع زناتة من بعده على القاسم بن محمد بن عبد الرحمن من ولد موسى بن أبي العافية، كانوا ملوكاً بتازا وتسول، فزحفوا إلى عساكر المرابطين والتقوا بوادي صفير فكان الظهور لزناتة. واستلحم كثير من المرابطين، واتصل خبرهم بيوسف بن تاشفين وهو محاصر لقلعة مهدي من بلاد فازاز فارتحل سنة ست وخمسين، ونزل عليها عسكر من المرابطين وصار يتنقل في بلاد المغرب، فافتتح بني مراسن ثم فنزلاوة، ثم بلاد ورغة سنة ثمان وخمسين.

ثم افتتح بلاد غمارة سنة ستين. وفي سنة اثنتين وستين نازل فاس فحاصرها مدة ثم افتتحها عنوة وقتل بها زهاء ثلاثة آلاف من مغراوة وبني يفرن ومكناسة وقبائل زناتة حتى أعوزت مدافنهم فرادى، فاتخذت لهم الأخاديد وقبروا جماعات، وخلص من نجا منهم من القتل إلى بلاد تلمسان وأمر بهدم الأسوار التي كانت فاصلة بين القرويين والأندلسيين من عدوتيها، وصيرها مصراً واحداً. وأدار عليها الأسوار، وحمل أهلها على الاستكثار من المساجد، ورتب بناءها. وارتحل سنة ثلاث وستين إلى وادي ملوية فافتتح بلادها وحصون وطاط من نواحيها. ثم نهض سنة خمس وستين إلى مدينة الدمنة فافتتحها عنوة، ثم افتتح حصن علودان من حصون غمارة. ثم نهض سنة سبع

وستين إلى جبال غياثة وبني مكود من أحواز تازا فافتتحها ودوخها. ثم قسم المغرب عمالات على بنيه وأمراء قومه وذويه، ثم استدعاه المعتمد بن عباد إلى الجهاد فاعتذر له بمكان الحاجب سكوت البرغواطي وقومه من أولياء الدولة الحمودية بسبتة، فأعاد إليه ابن عباد الرسل بالمشايعة إليهم فجهز إليهم قائده صالح بن عمران في عساكر لمتونة، فلقيه سكوت الحاجب بظاهر طنجة في قومه، ومعه ابنه ضياء الدولة فانكشف وقتل الحاجب سكوت، ولحق ابنه العزيز ضياء الدولة. وكتب صالح بن عمران بالفتح إلى يوسف بن تاشفين. ثم أغزى الأمير يوسف بن تاشفين إلى المغرب الأوسط سنة اثنتين وسبعين قائده مزدلي بن تبلكان بن محمد بن وركوت من عشيره في عساكر لمتونة لمحاربة مغراوة ملوك تلمسان، بومئذ الأمير العباس ين يختي من ولد يعلى بن محمد بن الخير بن محمد بن خزر، فدوخوا المغرب الأوسط وصاروا في بلاد زناتة وظفروا بيعلى بن الأمير العباسي فقتلوه، وانكفأوا راجعين من غزاتهم.

ثم نهض يوسف بن تاشفين سنة ثلاث بعدها إلى الريف، وافتتح كرسيف ومليلة وسائر بلاد الريف وخرب مدينة نكور فلم تعمر بعد، ثم نهض في عساكره المرابطين إلى بلاد المغرب الأوسط فافتتح مدينة وجدة وبلاد بني يزناسن. ثم افتتح مدينة تلمسان واستلحم من كان بها من مغراوة، وقتل العباس بن بختي أمير تلمسان وأنزل محمد بن المستوفى بها في عساكر المرابطين، فصارت ثغراً لملكه. ونزل بعساكره واختط بها مدينة تاكرارت بمكان محلته، وهو اسم المحلة بلسان البربر. ثم افتتح مدينة تنس ووهران وجبل وانشريس إلى الجزائر، وانكفأ راجعاً إلى المغرب فاحتل مراكش سنة خمس وسبعين. ولم يزل محمد بن تينعمر والياً بتلمسان إلى أن هلك، وولي بعده أخوه ثم إن الطاغية تكالب على بلاد المسلمين وراء البحر، وانتهز الفرصة فيها بما كان من الفرقة بين ملوك الطوائف فحاصر طليلة، وبها القادر بن يحيى بن ذي النون حتى نالهم الجهد، وتسلمها منه صلحاً سنة ثمان وسبعين على أن يملكه بلنسية، فبعث معه عسكراً من النصرانية فدخل بلنسية وتملكها على حين مهلك صاحبها أبي بكر بن العزيز بين يدي حصار طليلة. وسار الطاغية في بلاد الأندلس حتى وقف بفرضة المجاز من صريف، وأعيا أمره أهل الأندلس واقتضى منهم الجزية فأعطوها. ثم نازل سرقسطة وضيق على ابن هود بها، وطال مقامه وامتد أمله إلى تملكها فخاطب المعتمد بن عباد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين منتجزاً وعده في صريخ الإسلام بالعدوة وجهاد الطاغية.

وكاتبه أهل الأندلس في كافة من العلماء والخاصة فاهتز للجهاد وبعث ابنه

المعز في عساكر المرابطين إلى سبتة فرضة المجاز، فنازلها براً. وأحاطت بها أساطيل ابن عباد بحراً فاقتحموها عنوة في ربيع الآخر سنة ست وسبعين، وتقبض على ضياء الدولة وقيد إلى المغرب فقتله صبراً وكتب إلى أبيه بالفتح. ثم أجاز ابن عباد البحر في جماعته والمرابطين، ولقيه بفاس مستنفراً للجهاد. وأنزل له ابنه الراضي عن الجزيرة الخضراء لتكون رباطاً لجهاده فأجاز البحر في عساكر المرابطين وقبائل المغرب ونزل الجزيرة سنة تسع وثمانين وأربعمائة، ولقيه المعتمد ابن عباد وابن الأفطس صاحب بطليوس. وجمع ابن أدفونش ملك الجلالقة أمم النصرانية لقتاله، ولقي المرابطين بالزلاقة من نواحي بطليوس فكان للمسلمين عليه اليوم المشهور سنة إحدى وثمانين.

ثم رجع إلى مراكش وخلف عسكراً بالإشبيلية لنظر محمد ومجون بن سيمونن بن محمد بن وركوت من عشيره، ويعرف أبوه بالحاج وكان محمد من بطانته وأعاظم قواد تكاليب الطاغية على شرق الأندلس، ولم يغن فيه أمراء الطوائف شيئاً فزحف إليه من سبتة ابن الحاج قائد يوسف بن تاشفين في عساكر المرابطين فهزموا جميع النصارى هزيمة شنيعة. وخلع ابن رشيق صاحب مرسية، وتمادى إلى دانية ففر علي بن مجاهد أمامه إلى بجاية ونزل على الناصر بن علناس فأكرمه، ووصل ابن جحاف قاضي بلنسية إلى محمد بن الحاج مغرياً بالقادر بن ذي النون فأنفذ معه عسكراً وملك بلنسية، وقتل ابن ذي النون، وذلك سنة خمس وثمانين، وانتهى الخبر إلى الطاغية فنازل بلنسية، واتصل حصاره إياها إلى أن ملكها سنة خمس وثمانين، ثم استخلصتها عساكر المرابطين وولى عليها يوسف بن تاشفين الأمير مزدلي، وأجاز يوسف بن تاشفين ثانية سنة ست وثمانين، وتثاقل أمراء الطوائف عن لقائه لما أحسوا من نكيره عليهم لما يسمون به عليهم من الظلامات والمكوس وتلاحق المغارم فوجد عليهم، وعهد برفع المكوس وتحرى المعدلة، فلما أجاز انقبضوا عنه إلا ابن عباد فإنه بادر إلى لقائه وأغراه بالكثير منهم، فتقبض على ابن رشيق فأمكن ابن عباد منه العداوة التي بينهما.

وبعث جيشاً إلى المرية ففر عنها ابن صمادح ونزلى على المنصور بن الناصر ببجاية، وتوافق ملوك الطوائف على قطع المدد عن عساكره ومحلاته فساء نظره، وأفتاه الفقهاء وأهل الشورى من المغرب والأندلس بخلعهم وانتزاع الأمر من أيديهم وصارت إليه بذلك فتاوى أهل الشرق الأعلام مثل الغزالي والطرطوشي فعهد إلى غرناطة واستنزل صاحبها عبيد الله بن بلكين بن باديس وأخاه تميماً من مالقة بعد أن كان منهما مداخلة الطاغية في عداوة يوسف بن تاشفين. وبعث بهما إلى المغرب فخاف ابن عباد

عند ذلك منه وانقبض عن لقائه وفشت السعايات بينهما. ونهض يوسف بن تاشفين إلى سبتة فاستقر بها وعقد للأمير سير بن أبي بكر بن محمد وركوت على الأندلس وأجازه فقدم عليها، وقعد ابن عباد عن تلقيه ومبرته فأحفظه ذلك، وطالبه بالطاعة للأمير يوسف والنزول عن الأمر ففسد ذات بينهما وغلبه على جميع عمله.

واستنزل أولاد المأمون من قرطبة ويزيد الراضي من رندة وقرمونة واستولى على جميعها وقتلهم. وصمد إلى إشبيلية فحاصر المعتمد بها وضيق عليه، واستنجد الطاغية فعمد إلى إستنقاذه من هذا الحصار فلم يغن عنه شيئاً وكان دفاع لمتونة مما فت في عضده واقتحم المرابطون إشبيلية عليه عنوة سنة أربع وثمانين. وتقبض على المعتمد وقاده أسيراً إلى مراكش فلم يزل في اعتقال يوسف بن تاشفين إلى أن هلك في محبسه بأغمات سنة سبعين وأربعمائة، ثم عمد إلى بطليوس وتقبض على صاحبها عمر بن الأفطس فقتله وابنيه يوم الأضحى سنة تسع وثمانين بما صح عنده من مداخلتهم الطاغية وأن يملكوه مدينة بطليوس، ثم أجاز يوسف بن تاشفين الجواز الثالث سنة تسعين وزحف إليه الطاغية فبعث عساكر المرابطين لنظر محمد بن الحاج فانهزم النصارى أمامه وكان الظهور للمسلمين.

ثم أجاز الأمير يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين سنة ثلاث وتسعين وانضم إليه محمد بن الحاج وسير بن أبي بكر واقتحموا عامة الأندلس من أيدي ملوك الطوائف، ولم يبق منها إلا سرقسطة في يد المستعين بن هود معتصماً بالنصارى. وغزا الأمير مزدلي صاحب بلنسية إلى بلد برشلونة فأثخن بها وبلغ إلى حيث لم يبلغ أحد قبله ورجع. وانتظمت بلاد الأندلس في ملكة يوسف بن تاشفين، وانقرض ملك الطوائف منها أجمع كأن لم يكن واستولى على العدوتين، واتصلت هزائم النصارى على يد المرابطين مراراً وتسمى بأمير المسلمين، وخاطب المستنصر العباسي الخليفة لعهده ببغداد وبعث إليه عبد الله بن محمد بن العرب المعافري الإشبيلي وولده القاضي أبا بكر فتلطفا في القول وأحسنا في الإبلاغ، وطلبا من الخليفة أن يعقد له على المغرب والأندلس فعقد له وتضمن ذلك مكتوب الخليفة بذلك منقولاً في أيدي الناس، وانقلبا إليه بتقليد الخليفة وعهده على ما إلى نظره من الأقطار والأقاليم. وخاطبه الإمام الغزالي والقاضي أبو بكر الطرطوشي يحضانه على العدل والتمسك بالخير، ويفتيانه في شأن ملوك الطوائف بحكم الله.

ثم أجاز يوسف بن تاشفين الجواز الرابع إلى الأندلس سنة سبع وتسعين، وقد

كان ما قدمناه في أخبار بني حماد من زحف المنصور بن الناصر إلى تلمسان سنة سبع وتسعين للفتنة التي وقعت بينه وبين تاشفين بن يتنعمر وافتتاحه أكثر بلادهم، فصالحه يوسف بن تاشفين واسترضاه بعدول تاشفين عن تلمسان سنة سبع وتسعين وبعث إليهما مزدلي من بلنسية، وولي بلنسية عوضاً عنه أبا محمد ابن فاطمة، وكثرت غزواته في بلاد النصرانية. وهلك يوسف على رأس المائة الخامسة وقام بالأمر من بعده ابنه علي بن يوسف فكان خير ملك، وكانت أيامه صدراً منها وادعة ودولته على الكفر وأهله ظهور وعزة وأجاز إلى العدوة فأثخن في بلاد العدو قتلاً وسبياً، وولى على الأندلس الأمير تميم بن. وجمع الطاغية للأمير تميم فهزمه تميم، ثم أجاز علي بن يوسف سنة ثلاث ونازل طليطلة. وأثخن في بلاد النصارى ورجع، وعلى أثر ذلك قصد ابن ردمير سرقسطة وخرج ابن هود للقائه فانهزم المسلمون ومات ابن هود شهيداً وحاصر ابن ردمير البلد حتى نزلوا على حكمه.

ثم كان سنة تسع شأن برقة وتغلب أهل جنوة عليها وخلاؤها. ثم رجع العمران إليها على يد ابن تامرظست من قواد المرابطين كما مر في ذكرها عند ذكر الطوائف، ثم استمرت حال علي بن يوسف في ملكه وعظم شأنه، وعقد لولده تاشفين على غرب الأندلس سنة ست وعشرين وأنزله قرطبة وإشبيلية، وأجاز معه الزبير بن عمر، وحشد قومه وعقد لأبي بكر بن إبراهيم المسوفي على شرق الأندس وأنزله بلنسية، وهو ممدوح بن خفاجة ومخدوم أبي بكر بن باجة الحكيم المعروف بابن الصائغ. وعقد لابن غانية المسوفي على الجزائر الشرقية دانية وميورقة، واستقامت أيامه، ولأربع عشرة سنة من دولته كان ظهور الإمام المهدي صاحب دعوة الموحدين، فقيهاً منتحلاً للعلم والفتيا والتدريس، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر متعرضاً بذلك للمكروه في نفسه.

ونالته ببجاية وتلمسان ومكناسة اذايات من الفسقة ومن الظالمين، وأحضره الأمير علي بن يوسف للمناظرة ففلج علي خصومه من الفقهاء بمجلسه، ولحق بقومه هرغة من المصامدة. واستدرك علي بن يوسف رأيه فتفقده وطالب هرغة بإحضاره فأبوا عليه فسرح إليهم البعث فأوقعوا به وتقاسم معهم هنتاتة وتينملل على إجارته والوفاء بما عاهدهم عليه من القيام بالحق والدعاء إليه حسبما يذكر ذلك كله بعد دولتهم. وهلك المهدي في سنة أربع وعشرين وقام بأمرهم عبد المؤمن بن علي الكومي كبير أصحابه بعهده إليه، وانتظمت كلمة المصامدة وأغزوا مراكش مراراً. وفشل ريح لمتونة بالعدوة الأندلسية، وظهر أمر الموحدين وفشت كلمتهم في برابرة المغرب. وهلك

علي بن يوسف سنة سبع وثلاثين وقام بالأمر من بعده ولده تاشفين وولي عهده، وأخذ بطاعته وبيعته أهل العدوتين كما كانوا على حين استغلظ أمر الموحدين واستفحل شأنهم وألحوا في طلبه.

وغزا عبد المؤمن غزوته المجرى إلى جبال المغرب، ونهض تاشفين بعساكره بالبسائط إلى أن نزل تلمسان. ونازله عبد المؤمن والموحدون بكهف الضحاك بين الصخرتين من جبل تيطري المطل عليها، ووصله هنالك مدد صنهاجة من قبل يحيى بن عبد العزيز صاحب بجاية مع قائده طاهر بن كباب، وشرهوا إلى مدافعة الموحدين فغلبوهم. وهلك طاهر واستلحم الصنهاجيون وفر تاشفين إلى وهران في موادعة لب بن ميمون قائد البحر بأساطيله. واتبعه الموحدون واقتحموا عليه البلد فهلك، يقال سنة إحدى وأربعين. واستولى الموحدون على المغرب الأوسط واستلحموا لمتونة. ثم بويع بمراكش ابنه إبراهيم وألفوه مضعفاً عاجزاً فخلع وبويع عمه إسحق بن علي بن يوسف بن تاشفين. وعلى هيئة ذلك وصل الموحدون إليها وقد ملكوا جميع بلاد المغرب عليه، فخرج إليهم في خاصته فقتلهم الموحدون. وأجاز عبد المؤمن والموحدون إلى الأندلس سنة إحدى وخمسين وملكوا، واستحلموا أمراء لمتونة وكافتهم وفروا في كل وجه، ولحق فلهم بالجزائر الشرقية ميورقة ومنورقة ويابسة إلى أن جددوا من بعده للملك بناحية إفريقية، والله غالب على أمره.

الخبر عن دولة ابن غانية

من بقية المرابطين وما كان له من الملك والسلطان بناحية قابس وطرابلس واجلابه علي الموحدين ومظاهرة قراقش الغزي له على أمره وأولية ذلك ومصايره

كان أمر المرابطين من أوله في كدالة من قبائل الملثمين حتى هلك يحيى بن إبراهيم فاختلفوا على عبد الله بن ياسين أمامهم، وتحول عنهم إلى لمتونة وأقصر عن دعوته وتنسك وترهب كما قلناه، حتى إذا أجاب داعية يحيى بن عمر وأبي بكر بن عمر من بني ورتانطق بيت رئاسة لمتونة. واتبعهم الكثير من قومهم وجاهدوا معه سائر قبائل الملثمين، وكان مسوفة قد دخل في دعوة المرابطين كثير منهم فكان لهم بذلك في تلك الدولة حظ من الرئاسة والظهور. وكان يحيى المسوفي من رجالاتهم وشجعانهم، وكان مقدماً عند يوسف بن تاشفين لمكانه في قومه. واتفق أنه قتل بعذر رجالات لمتونة في

ملاحاة وقعت بينهم فتثاور الحيان وفر هو إلى الصحراء ففدى يوسف بن تاشفين القتيل ووداه، واسترجع علياً من مقره لسنين من مغيبه، وأنكحه امرأة من أهل بيته تسمى غانية بعهد أبيها إليه في ذلك فولدت منه محمداً ويحيى ونشأ في ظل يوسف بن تاشفين وحجر كفالته.

ورعى لهما علي بن يوسف ذمام هذه الأواصر، وعقد ليحيى على غرب الأندلس وأنزله قرطبة. وعقد لمحمد على الجزائر الشرقية ميورقة ومنورقة ويابسة سنة عشرين وخمسائة، وانقرض بعد ذلك أمر المرابطين. وتقدم وفد الأندلس إلى عبد المؤمن، وبعث معهم أبا إسحق براق بن محمد المصمودي من رجالات الموحدين وعقد له على حرب لمتونة كما يذكر في أخبارهم، فملك إشبيلية واقتضى طاعة يحيى بن علي بن غانية، واستنزله عن قرطبة إلى جيان. والقلعة فسار منها إلى غرناطة يستنزل من بها من لمتونة، ويحملهم على طاعة الموحدين فهلك هنالك سنة ثلاث وأربعين ودفن بقصر باديس. وأما محمد بن علي فلم يزل والياً إلى أن هلك وقام بأمره بعده ابنه عبد الله.

ثم هلك وقام بالأمر أخوه إسحق بن محمد بن علي. وقيل إن إسحق ولي بعد ابنه محمد. وأنه قتله غيرة من أخيه عبد الله لمكان أبيه منه فقتلهما معاً، واستبد بأمره إلى أن هلك سنة ثمانين وخمسائة. وخلف ثمانية من الولد وهم محمد وعلي ويحيى وعبد الله والغازي وسير والمنصور وجبارة، فقام بالأمر ابنه محمد. ولما أجاز يوسف بن عبد المؤمن بن علي إلى ابن الربرتير لاختبار طاعتهم، ولحين وصوله نكر ذلك إخوته وتقبضوا عليه واعتقلوه. وقام بالأمر أخوه علي بن محمد بن علي وتلوموا في رد ابن الزبرتير إلى مرسله، وحالوا بينه وبين الأسطول حين بلغهم أن الخليفة يوسف القسري استشهد في الجهاد بأركش من العدوة، وقام بالأمر ابنه يعقوب واعتقلوا ابن الزبرتير وركبوا البحر في اثنتين وثلاثين قطعة من أساطيلهم وأسطوله، وركب معه إخوته يحيى وعبد الله والغازي وولي على ميورقة عمه أبا الزبير وأقلعوا إلى بجاية فطرقوها على حين غفلة من أهلها وعليها السيد أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن وكان بايميلول من خارجها في بعض مذاهبه واعتقلوا بها السيد أبا موسى بن عبد المؤمن كان قافلاً من إفريقية يؤم المغرب واكتسحوا ما كان بدار السادة والموحدين.

وكان والي القلعة قاصداً مراكش وهو يستخبر خبر بجاية فرجع وظاهر السيد أبا الربيع وزحف إليهما علي بن غانية فهزمهما واستولى على أموالهما وابنتهما ولحقا

بتلمسان فنزلا بها على السيد أبي الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن وأخذ في تحصين تلمسان ورمّم أسوارها وأقاما عند السيد يرومان الكرة من صاحب تلمسان وعاث علي بن محمد بن غانية في الأموال وفرقها في ذؤبان العرب ومن انضاف إليهم ورحل إلى الجزائر فافتتحها وولى عليها بدر بن عائشة. ثم نهض إلى القلعة فحاصرها ثلاثاً ودخلها عنوة وكانت له في المغرب خطة مشهورة ثم قصد قسطنطينة فامتنعت عليه واجتمعت عليه وفود الغزو سرح العساكر في البر لنظر السيد أبي زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن وعقد له على المغرب الأوسط.

وبعث الأساطيل إلى البحر وقائدها أحمد الصقلي وعقد عليها لأبي محمد بن إبراهيم بن جامع وزحفت العساكر من كل جهة فثار أهل الجزائر على يحيى بن أبي طلحة ومن معه وأمكنوا منهم السيد أبايزيد فقتلهم على شلف وعفا عن يحيى لنجدة عمه طلحة وكان بدر بن عائشة أسرى من مليانة واتبعه الجيش فلحقوه أمام العدو فتقبضوا عليه بعد قتال مع البرابرة حين أرادوا إجارته وقادوه إلى السيد أبي يزيد فقتله وسبق الأسطول إلى بجاية فثار بيحيى بن غانية وفر إلى أخيه علي لمكانه من حصار قسطنطينة بعد أن كان أخذ بمخنقها ونزل السيد أبو زيد بعساكره بتكلات من ظاهر بجاية وأطلق السيد أبا موسى من معتقله ثم رحل في طلب العدو فأفرج عن قسطنطينة بعد أن كان أخذها ومضى شديداً في الصحراء والموحدون في اتباعه حتى انتهوا إلى مغرة ونغارس. ثم نقلوا إلى بجاية واستنفر السيد أبا زيد بها وقصد علي بن غانية في قفصة فملكها ونازل بورق وقصطيلة فامتنعت وارتحل إلى طرابلس وفيها قراقش الغزي المطغري، وكان من خبره على ما نقل أبو محمد التيجاني في كتاب رحلته أن صلاح الدين صاحب مصر بعث تقي الدين ابن أخيه شاه إلى المغرب لافتتاح ما أمكنه من المدن تكون له معقلاً يتحصن فيه من مطالبة نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام الذي كان صلاح الدين عمه من وزرائه. واستعجلوا النصر فخشوا عاديته. ثم رجع تقي الدين من طريقه لأمر عرض له ففر قراقش الأرمني بطائفة من جنوده. وفر إبراهيم بن قراتكين سلاح دار المعظم نسبة للملك المعظم شمس الدولة ابن أيوب أخي صلاح الدين. فأما قراقش فلحق بسنترية، وافتتحها وذلك سنة ست وثمانين وخطب فيها لصلاح الدين ولأستاذه تقي الدين. وكتب لهما بالفتح وافتتح زويلة وغلب بني خطاب الهواري على ملك فزان، وكانت ملكاً لعمه محمد بن الخطاب بن يصلتن بن عبد الله بن صنفل بن خطاب وهو آخر ملوكهم، وكانت قاعدة ملكه زويلة. وتعرف زويلة ابن خطاب فتقبض

عليه وغلبه على المال حتى هلك، ولم يزل يفتح البلاد إلى أن وصل إلى طرابلس واجتمع عليه عرب ذياب بن سليم. ونهض بهم إلى جبل نفوسة فملكه واستخلص أموال العرب واتصل به مسعود بن زمام شيخ الدواودة من رياح عند مفره من المغرب كما ذكرناه. واجتمعت أيديهم على طرابلس وافتتحها واجتمع إليه ذؤبان العرب من هلال وسليم. وفرض لهم العطاء، واستبد بملك طرابلس وما وراءها، وكان قراقش من الأرمن، وكان يقال له المظفري لأنه مملوك المظفر والناصري لأنه يخطب للناصر صلاح الدين. وكان يكتب في ظهائره ولي أمير المؤمنين بسكون الميم، ويكتب علامة الظهير بخطه: وثقت بالله وحده أسفل الكتاب. وأما إبراهيم بن قراقش صاحبه فإنه سار مع العرب إلى قفصة فملك جميع منازلها وراسل بني الزند رؤساء قفصة فأمكنوه من البلد لانحرافهم عن بني عبد المؤمن فدخلها وخطب للعباسي ولصلاح الدين إلى أن قتله المنصور عند فتح قفصة كما نذكره في أخبار الموحدين.

رجع الخبر إلى ابن غانية

ولما وصل علي بن غانية إلى طرابلس ولقي قراقش اتفقا على المظاهرة على الموحدين واستمال ابن غانية كافة بني سليم من العرب وما جاورهم من مجالاتهم ببرقة وخالطوه في ولايتهم، واجتمع إليه من كان منحرفاً عن طاعة الموحدين من قبائل هلال مثل: جشم ورياح والأثبج. وخالفتهم زغبة إلى الموحدين فاعتقلوا بطاعتهم سائر أيامهم. ولحق بابن غانية فل قومه من لمتونة ومنونة من أطراف البقاع، فانعقد أمره وتجدد بذلك القطر سلطان قومه. وجدد رسوم الملك واتخذ الآلة وافتتح كثيراً من بلاد الجريد وأقام فيها الدعوة العباسية. ثم بعث ولده وكاتبه عبد المؤمن من فرسان الأندلس إلى الخليفة الناصر بن المستضيئ ببغداد، مجدداً ما سلف لقومه من المرابطين بالمغرب من البيعة والطاعة وطلب المدد والإعانة، فعقد له كما كان لقومه وكتب الكتاب من ديوان الخليفة إلى ملك مصر والشام النائب عن الخليفة بها صلاح الدين يوسف بن أيوب، جاء إلى مصر فكتب له صلاح الدين إلى قراقش واتصل أمرهما في إقامة الدعوة العباسية.

وظاهره ابن غانية على حصار قابس فافتتحها قراقش من يد سعيد بن أبي الحسن، وولى عليها مولاه وجعل فيها ذخائره. ثم اتصل بها إلى أن وصل إلى قفصة خلعوا طاعة ابن غانية فظاهره قراقش عليها فافتتحها عنوة. ثم رحل إلى توزر وقراقش

في مظاهرته فافتتحها أيضاً. ولما اتصل بالمنصور ما نزل بإفريقية من أجلاب ابن غانية وقراقش على، بلاد الجريد نهض من مراكش سنة ثمان وثمانين لحسم هذا الداء واستنقاذ ما غلبوا عليه. ووصل إلى تونس فأراح بها وسرح في مقدمته السيد أبا يوسف يعقوب بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن، ومعه عمر بن أبي زيد من أعيان الموحدين فلقيهم ابن غانية في جموعه بعهده فانهزم الموحدون وقتل ابن أبي زيد وجماعة منهم، وأسر علي بن الزبرتير في آخرين وامتلأت أملاك العدو من أسلابهم ومتاعهم. ووصل سرعان الناس إلى تونس، وصمد المنصور إليهم فأوقع بهم بظاهر الحامة في شعبان من سنته. وأفلت ابن غانية وقراقش بحومة الوفر وبادر أهل قابس وكانت خالصة لقراقش دون ابن غانية فأتوا طاعتهم وأسلموا من كان عندهم من أصحابه وذويه فاحتملوا إلى مراكش، وقصد المنصور إلى توزر فحاصرها فأسلموا إليه من كان فيها من أصحاب ابن غانية. وبادر هلها بالطاعة.

ثم رجع إلى قفصة فحاصرها حتى نزلوا على حكمه، وقتل من كان بها من الحشود. وقتل إبراهيم بن قراتكين. وأمتن على سائر الأعوان وخلى سبيلهم، وأمن أهل البلد في أنفسهم وجعل أملاكهم بأيديهم على حكم المساقاة. ثم غزا العرب واستباح حللهم وأحياءهم حتى استقاموا على طاعته. وفر ذو المراس كثير الخلاف والفتنة منهم إلى المغرب مثل: جشم ورياح والعاصم كما قدمناه. وقفل إلى المغرب سنة أربع وثمانين، ورجع ابن غانية وقراقش إلى حالهما من الأجلاب على بلاد الجريد إلى أن هلك علي في بعض حروبها مع أهل نفزاوة سنة أربع وثمانين، أصابه سهم غرب كان فيه هلاكه فدفن هنالك وعفى على قبره، وحمل شلوه إلى ميورقة فدفن بها. وقام بالأمر أخوه يحيى بن إسحاق بن محمد بن غانية وجرى في مظاهرة قراقش وموالاته على سنن أخيه علي.

ثم نزع قراقش إلى طاعة الموحدين سنة ست وثمانين فهاجر إليهم بتونس وتقبله السيد أبو زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن وأقام معه أياماً. ثم فر ووصل إلى قابس فدخلها مخادعة وقتل جماعة منهم، واستبد على أشياخ ذباب والكعوب من بني سليم فقتل سبعين منهم بقصر العروسيين. كان منهم محمود بن طوق أبو المحاميد، وحميد بن جارية أبو الجواري. ونهض إلى طرابلس فافتتحها ورجع إلى بلاد الجريد فاستولى على أكثرها، ثم فسد ما بينه وبين يحيى بن غانية. وسار إليه يحيى فانتهز قراقش ولحق بالجبال وتوغل فيها، ثم فر إلى الصحراء ونزل ودان ولم يزل بها إلى أن

حاصره ابن غانية من بعد ذلك بمدة وجمع عليه أهل الثأر من ذباب، واقتحمها عليه عنوة وقتله ولحق ابنه بالموحدين. ولم يزل بالحضرة إلى أيام المستنصر. ثم فر إلى ودان وأجلب في الفتنة فبعث إليه ملك كام من قتله لسنة ست وخمسين وخمسمائة.

رجع الخبر: واستولى ابن غانية على الجريد، واستنزل ياقوت فولى قراقش من طرده، كذا ذكره التجاني في رحلته. ولحق ياقوت بطرابلس، ونازله ابن غانية بها، وطال أمر حصاره. وبالغ ياقوت في المدافعة، وبعث يحيى عن أسطول ميورقة فأمده أخوه عبد الله بقطعتين منه فاستولى على طرابلس، وأشخص ياقوت إلى ميورقة واعتقل بها إلى أن أخذها الموحدون. وكان من خبر ميورقة أن علي بن غانية لما نهض إلى فتح بجاية ترك أخاه محمداً وعلي بن الزبرتير في معتقلهما. فلما خلا الجو من أولاد غانية وكثير من الحامية داخل ابن الزبرتير في معتقله نفر من أهل الجزيرة، وثاروا بدعوة محمد وحاصروا القصيبة إلى أن صالحهم أهلها على إطلاق محمد بن إسحاق فأطلق من معتقله، وصار الأمر له فدخل في دعوة الموحدين، ووفد مع علي بن الزبرتير على يعقوب المنصور. وخالفهم إلى ميورقة عبد الله بن إسحاق، ركب البحر من إفريقية إلى صقلية وأمدوه بأسطول، ووصل إلى ميورقة عند وفادة أخيه على المنصور فملكها، ولم يزل بها والياً. وبعث إلى أخيه علي بالمدد إلى طرابلس كما ذكرناه، وبعثوا إليه ياقوت فاعتقله عنوة أن غلب عليه الموحدون سنة تسع وتسعين فقتل. ومضى ياقوت إلى مراكش وبها مات.

رجع الخبر: ولما فرغ ابن غانية من أمر طرابلس ولى عليها تاشفين ابن عمه الغازي، وقصد قابس فوجد بها عامل الموحدين ابن عمر تافراكين بعثه إليهم صاحب تونس الشيخ أبو سعيد بن أبي حفص، فاستدعاه أهلها لما فر عنهم نائب قراقش أخذ ابن غانية لطرابلس فنازل قابس، وضيق عليها حتى سألوه الأمان على أن يخلي سبيل ابن تافراكين فعقد لهم ذلك وأمكنوه من البلد فملكها سنة إحدى وتسعين وأغرمهم ستين ألف دينار، وقصد المهدية سنة سبع وتسعين فاستولى عليها وقتل الثائر بها محمد بن عبد الكريم الركراكي.

وكان من خبره أنه نشأ بالمهدية وصار من جندها المرتدين وهو كوفي الأصل، وكانت له شجاعة معروفة فجمع لنفسه خيلاً ورجالاً، وصار يغير على المفسدين من الأعراب بالأطراف.

ابن الخطيب

الإحاطة في تاريخ الغرناطة

محمد بن محمد بن داود القرشي

محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن ابن أبي بكر بن علي بن داود القرشي المقرى، يكنى أبا عبد الله، قاضي الجماعة يقاس وتلمسان.

أوليته

نقلت من خطه. قال، وكان الذي اتخذها من سلفنا قراراً بعد أ، كانت لمن قبله مراراً، عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي المقرى، صاحب أبي مدين، الذي دعا له ولذريته، بما ظهر فيهم من قبول وتبين. وهو أبي الخامس فأنا محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحية بن عبد الرحمن، وكان هذا الشيخ عروي الصلاة، حتى أنه ربما امتحن بغير شيء فلم يؤنس منه التفات، ولا استشعر منه شعور. ويقال إن هذا الحضور مما أدركه من مقامات شيخه أبي مدين.

ثم اشتهرت ذريته على ما ذكر من طبقاتهم بالتجارة، فمهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار وتأمين التجار. واتخذوا طبل الرحيل، وراية التقدم عند المسير. وكان ولد يحيى، الذي كان أحدهم أبو بكر، خمسة رجال. فعقدوا الشركة بينهم فيما ملكوه، وفيما يملكونه على السواء بينهم والاعتدال، وكان أبو بكر ومحمد، وهما أرومتا نسبي من جميع جهات الأم والأب بتلمسان، وعبد الرحمن وهو شقيقهما الأكبر بسجلماسة، وعبد الواحد وعلي. وهما شقيقاهم الصغيران، بأي والاتن فاتخذوا هذه الأقطار والحوايط والديار، فتزوجوا النساء. واستولدوا الإماء. وكان التملساني يبعث إلى الصحراوي بما يرسم له من السلع. ويبعث إليه الصحراوي بالجلد والعاج والجوز والتبر، والسجلماسي كلسان الميزان يعرفهما بقدر الرجحان والخسران، ويكاتبهما بأحوال التجار، وأخبار البلدان، حتى اتسعت أموالهم، وارتفعت في الفخامة أحوالهم.

ولما افتتح التكرور كورة أي والاتن وأعمالها، أصيبت أموالهم، فيما أصيب من أموالها، بعد أن جمع من كان بها منهم إلى نفسه الرجال، ونصب دون ماله القتال، ثم

اتصل بملكهم فأكرم مثواه، ومكنه من التجارة بجميع بلاده، وخاطبه بالصديق الأحب، والخلاصة الأقرب، ثم صار يكاتب من بتلمسان، يستقضي منهم مآربه، فيخاطبه بمثل تلك المخاطبة، وعندي من كتبه وكتب الملوك بالمغرب، ما ينبئ عن ذلك. فلما استوثقوا من الملوك، تذللت لهم الأرض للسلوك، فخرجت أموالهم عن الحد، وكادت تفوق الحصر والعد، لأن بلاد الصحراء، قبل أن يدخلها أهل مصر كانت تجلب لها من المغرب ما لا بال له من السلع، فيعاوض عنه بما له بال من الثمن. ثم قال أبو مدين: الدينا ضم جنب أبي حمو، وشمل ثوبهاه. كان يقول لو لا الشناعة لم أزل في بلادي تاجراً من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع، ويأتون بالتبر الذي كل أمر الدنيا له تبع، ومن سواهم يحمل منها الذهب، ويأتي إليها بما يضمحل عن قريب ويذهب، إلى ما يغير من العوايد، ويجر السفهاء إلى الفساد.

ولما هلك هؤلاء الأشياخ، جعل أبناؤهم ينفقون مما تركوا لهم ولم يقوموا بأمر التثمير قيامهم، وصادفوا توالي الفتن، ولم يسلموا من جور السلطان، فلم تزل حالهم في نقصان إلى هذا الزمان فها أنا ذا لم أدرك في ذلك إلا أثر نعمة اتخذنا فصوله عيشاً، وأصوله حرمة. ومن جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب، وأسباب كثيرة تعين على الطلب، فتفرغت بحول الله عز وجل للقراءة، فاستوعبت أهل البلد لقاء، وأخذت عن بعضهم عرضاً وإلقاء، سواء المقيم القاطن والوارد والظاعن.

تقي الدين المقريزي

كتاب السلوك في معرفة الملوك

سنة أربع وعشرين وسبعمائة

وفيه قدم منسا موسى ملك التكرور يريد الحج وأقام تحت الأهرام ثلاثة أيام في الضيافة. عدى إلى بر مصر في يوم الخميس سادس عشرى رجب، وطلع إلى القلعة ليسلم على السلطان، وامتنع من تقبيل الأرض، فلم يجبر على ذلك، غير أنه لم يمكن من الجلوس في الحضرة السلطانية. وأمر السلطان بتجهيزه للحج، فنزل وأخرج ذهباً كثيراً في شراء ما يريد من الجواري والثياب وغير ذلك، حتى انحط الدينار ستة دراهم.

سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة

وفي يوم السبت ثامن عشره [المحرم]: توفي الشيخ صبيح التكروري بدمشق، وقد حدث بالقاهرة ودمشق مراراً عن النجيب الحراني وغيره.

سنة أربع وعشرين وسبعمائة

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشريه: رحل الركب من بركة الحاج إلى الحجاز.

سنة خمس وعشرين وسبعمائة

المحرم أوله الأربعاء ثالث عشرى كيهك: وفي يوم الجمعة عاشرة: قدم أوائل الحاج...

وفي يوم السبت خامس عشريه: وصل المحمل وبقية الحاج، مع الأمير أيتمش المحمدي أمير الركب...

وفي عشريه [رمضان]: رحل محمل الحاج من البركة، وقد قدم من حجاج المغاربة زيادة على عشره ألاف إنسان، ومن حجاج بلاد التكرور نحو خمسة ألاف نفر، وحج الطواشي عنبر السحرتي لالا السلطان، في تجمل كثير.

سنة اثنتين في خمسين وسبعمائة

وفي خامس عشره [شوال]: سار محمل الحاج، صحبة الأمير طيبغا المجدي. وقدم الحج عالم كثير من أهل الصعيد والفيوم والوجه البحري، وقدم من أهل المغرب

جماعة كثيرة، وقدم التكرور ومعهم رقيق كثير، وفيهم ملكهم.فسأل ملكهم الإعفاء من الدخول على السلطان، فأعفي، وسار بقومه إلى الحج، مستهل ذي القعدة.

سنة تسع عشرة وثمانمائة

وفي رابع عشره [شوال]:... وفيه قدم ركب التكرور للحج، ومعهم ألف وسبعمائة رأس من العبيد والإماء، وشيء كثير من التبر.

سنة خمس وثلاثين وثمانمائة

وفيه [شوال الخميس ثالث عشره] قدم ركب الحجاج المغاربة، وقدم ركب الحاج التكرور أيضاً، وفيهم بعض ملوكهم، فعوملوا جميعاً بأسوأ معاملة من التشدد في أخذ المكوس مما جلبوه من الخيل والرقيق والثياب، وكلفوا مع ذلك حمل مال، فشنعت القالة. وفي عشرينه: خرج محمل الحاج إلى بركة الحجاج...

وفيه قدم أحد ملوك التكرور للحج، فسار إلى الطور ليركب البحر إلى مكة، فمات بالطور ودفن بجامعه. وكان خيراً كثير التلاوة للقرآن، فيه بر وإحسان.

سنة أربعين وثمانمائة

وفي هذا الشهر [شوال]: قدم ركب التكرور برقيق كثير وتبر، فسار أكثرهم إلى الحج، بعدما باعوا الرقيق، فهلك أكثره عند من إشتراهم.

ابن الدوادري

كنز الدرر وجامع الغرر

الجزء السادس: كنز الدرر وجامع الغرر

ذكر سنة ثمان وعشرين وخمس مئة

...وفيها سألت الأجناد المصريون الحافظ أن يجعل ولده حيدرة المسمى بحسن واسطةً بينهم وبينه، وأخرجوا الأمير حسن من القصر الغربي بغير رضي الحافظ وألزموه أن يوليه. فقال لهم: رضيتموه؟ فقالوا: نعم. وظل يراوغ بهم الأمر تسعة أشهر، فلما غُلب سلّط عليهم السودان. وكان لهم زعيماً يُعرف بالأحاوي. فقتلوا من الجند خلقاً كثيراً، وكانت فتنة كبيرة، وأبدعوا كذا السودان فيهم وأخرجوهم من مواطنهم وبيوتهم، وحشروهم في طرف القاهرة بالحارة المعروفة بالبرقية أياماً، واستولى السودان على القاهرة. فخرج بعض الجند إلى المحلة مستصرخاً بالوالي. وكان واليها يومئذ رجلاً أرمنياً وهو بهرام الأرمني المقدم ذكره. وكان رجلاً سليم الباطن جيداً في نفسه. وكان نصرانياً على دينه، باقياً على ملته، فانضوى إليه جماعة من الجند والعساكر مع جند الأرياف، وسار طالباً للقاهرة. فوصل إليها، فغلقت الأبواب في وجهه، فأحرق باب القنترة، وباب الخوخة، وباب سعادة، وباب زويلة، وباب البرقية، ودخل ووضع السيف على السودان. فقتل خلقاً كثيراً. وأما الأمير حسن فإنه ساعد السودان على الأجناد، وقتلَ من الجند جماعةً. فقالوا للحافظ: سلّم لنا ولدك حسن وأنت آمن. فتمنع وعظم عليه تسليم ولده، وعلم أنه إن لم يسلمه قتلوه معه. فسقاه سمّاً فمات. ودخل الأجناد فوجدوه ميتاً. فقنعوا بذلك. وتولى الوزارة بهرام الأرمني. فهذا كان سبب وزارته. والله أعلم. (6: 513 - 515)

الجزء التاسع: الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر

فيها حضر ملك التكرور طالباً للحجاز الشريف، واسمه أبو بكر بن موسى. وحضر بين يدي المواقف الشريفة وقبّل الأرض. وأقام بالديار المصرية سنة حتى توجه إلى الحجاز. وكان معه ذهب كثير، وبلاده هي البلاد التي تُنبت الذهب. وسمعت

القاضي فخر الدين ناظر الجيوش المنصورة يقول سألت من ملك التكرور: كيف هي صفة منبت الذهب عندهم؟— فقال: ليس هو في أرضنا المختصة بالمسلمين، بل في الأرض المختصة بالنصارى من التكرور، ونحن نسيّر نأخذ منهم صفة حقوق لنا موجبة عليهم. وهي أراضي مخصوصة تنبت الذهب على هذه الصورة: وهو قطيعات صغار مختلفة الهندام، فشيء شبه الحليقات الصغار، وشيء شبه نوى الخرّوب ومثل ذلك. - قال القاضي فخر الدين: فقلت: فلِمَ لا تغلبوهم على هذه الأرض؟- فقال: إذا غلبناهم وأخذناها منهم لم ينبت شيء. وقد فعلنا ذلك بطرق عديدة، فلم ترى فيها شيئاً. فإذا عادت لهم نبتت على عادتها. وهذا الأمر من أعجب ما يكون. ولعل هذا لزيادة في طغيان النصارى.

ثم إن ملك التكرور وأصحابه اشتروا من القاهرة ومصر من سائر الأصناف. وظنوا أن مالهم لا ينفد. فلما استغرقوا في المشترى ووجدوا أصناف هذه الديار لا لها حد يُحد، وكل يوم ينظروا شيئاً أحسن من شيء نفد ما كان معهم، واحتاجوا للقرض.

فأقرضهم الطماعة من الناس رجاء الفائدة الكبيرة في عودتهم. فراح جميع ما اقترضوه على أربابه، ولم يرجع لهم منه شيء. ومن جملة ذلك لصاحبها الشيخ الإمام شمس الدين بن تازمرت المغربي، فقرضهم ذهباً له صورة جيدة. فلم يعود إليه شيء.

ثم إن هؤلاء القوم تعجبوا لهذه الديار وسعة ما فيها، وكيف استغرقت جميع أموالهم ولا تكمل أغراضهم في المشترى حتى احتاجوا وعادوا يبيعوا ما كانوا شروه بنصف قيمته. وكسب الناس عليهم كسباً جيداً، والله أعلم.

وأحسن لهم مولانا السلطان إحساناً كبيراً، وألبسه خلعة الملك من جهته. وقلده الخليفة تقليداً من قبله والتزم أنه يخطب في بلاده باسم مولانا السلطان، وكذلك السكة. وهذا ما عُهد لصاحب مصر غير مولانا السلطان غز نصره. (9: 316 - 317)

القاضي عياض
ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك

واستأذنه رجل أن يبني قنطرة، يجوز عليها الناس إلى دار سحنون، فأبى سحنون، لأن كسبه كان من بلدان السودان.

عبد الله بن ياسين الجزولي ذو الأنباء العظيمة، والقصص الغريبة، القائم بدعوة المرابطين، المزين لدولتهم، أول خروجهم. كان أولاً من طلبة أوكاد بن زلوه اللمطي، في داره، التي بناها بالسوس للعلم والخير، وسماها دار المرابطين. الى أن مرّ به رجل من جزلوة يعرف بالجوهر بن سكن، ممن كان يحب الخير، منصرفاً من الحج، فرغب الى أوكاد، أن يوجه معه رجلاً من طلبته، ليعلم قومه العلم، إذ كان الدين عندهم قليلاً، وأكثرهم جاهلية، ليس عند أكثرهم غير الشهادتين، ولا يعرف من وظائف الإسلام سواهما. فوجه معه عبد الله بن ياسين، وكان موصوفاً بعلم وخير، فسار معه، وفهم له سيره، ولقومه. وأخذ من الشدة في ذات الله تعالى، وتغيير المناكير وانعزام صاحبه، من لم يقبل الهدى، ولم يزل يستقر تلك القبائل حتى علا عليهم، وأظهروا الإيمان هنالك. ثم جرت له قصص، مع هذا الحاج، الجالب له ولغيره من الشدة، في إقامة الحدود، خاف منها آخراً على نفسه. قيل إنه أفتى بقتل الحاج المذكور، لأمر أوجبه عنده. وخرج عن جزولة الى ملتونة. فقام بأمرهم، قبل أيام تاشفين بن عمر، وقبل أيام يحيى بن عمر، وهو الذي سماه بأمير المسلمين، وأول من تسمى منهم بذلك. فقام بأمره، وجاهد معهم وقلدوه أمرهم. وأنفذ حدوده في أميرهم، فمن دونه. ثم توفي يحيى، فسلك تلك السبيل مع أخيه أبي بكر بن عمر. ولقد ذكر أنه ضرب بالسوط أبا بكر بن عمر وهو إذ ذاك أمير المسلمين، لحق تعين عليه عنده. والكل له مطيع، وسيرته في أموره هناك وتقريراته معروفة، محفوظة. يتأثر عليها مشيخة المرابطين. ويحفظون من فتاويه وأجوبته، ما لا يعدلون عنه. وكان أخذ جميعهم بصلاة الجماعة. وعاقب من تخلف عنها عشرة أسواط، لكل ركعة، تفوته. إذ كانوا عنده ممن لا تصح له صلاة إلا مأموماً، لجهلهم بالقراءة والصلاة. واستقامت للمرابطين بلاد الصحراء بجملتها وما

وراءها من بلاد المصامدة، والقبلة، والسوس، بعد حروب كثيرة. ثم خرج بالناس لجهاد برغواطة الكفرة. فغزاهم مع أبي بكر بن عمر، في جمع عظيم من المرابطين، والمصامدة. قيل إنهم كانوا في نحو خمسين ألف راجل، وراكب. فحل ببلادهم تامسنا، وقد فرت برغواطة أمامه في جبالهم وغياطهم. وتقدمت العساكر في طلبهم، وانفرد عبد الله في قلة من أصحابه، فلقيه منهم جمع كثير، فقاتلهم قتالاً شديداً. فاستشهد رحمه الله، وذلك سنة خمسين وأربعمائة. وقد بسطنا أخباره في كتاب التاريخ.

أبو حامد الأندلسي الغرناطي

تحفة الألباب

Journal Asiatique 207 (1925)، 41 – 48

وقد بقي من المائة سنة المعمورة عشرون سنة منها أربعة عشر لأنواع السودان. وبلادهم مما يلي المغرب الأعلى المتصل بطنجة ممتداً على بحر الظلمات وقد أسلم من ملوكهم فيما يقال خمسة قبائل أقربها غانة. ينبت في رمالهم الذهب التبر الغاية وهو كثير عندهم يحمل التجار إليهم الملح على الجمال من الملح المعدني فيخرجون من بلدة يقال لها سجلماسة آخر بلاد المغرب الأعلى فيمشون في رمال كالبحار ويكون معهم الأدلاء يهتدون بالنجوم وبالجبال في القفار ويحملون معهم الزاد لستة شهور فإذا وصلوا إلى غانة باعوا الملح وزناً بوزن الذهب وربما باعوه وزناً بوزنين أو أكثر على قدر كثرة التجار وقلتهم. وأهل غانة أحسن السودان سيرة وأجملهم صوراً أسبط الشعور، لهم عقول وفهم ويحجون إلى مكة.

وأما فاوة وقوقو وملي وتكرور وغدامس فقوم لهم بأس وليس في أرضهم بركة ولا خير في أرضهم ولا دين لهم ولا عقول. وأشرهم قوقو قصار الأعناق فطس الأنوف حمر العيون كأن شعورهم حب الفلفل وروائحهم كريهة كالقرون المحرقة، يرمون بنبل مسمومة بدماء حيات صفر، لا تلبث ساعة واحدة حتى يسقط لحم من من أصابه ذلك السهم عن عظمه ولو كان قليلاً أو غيره من الحيوانات والأفاعي. وجميع أصناف الحيات عندهم كالسمك يأكلونها لا يبالون بسموم الأفاعي ولا الثعابين، إلا بالحية الصفراء التي في بلادهم، فإنهم يتقونها ويأخذون دمها لسهامهم. وقسيهم صغار قصار. رأيتهم في بلاد المغرب ونبلهم، ورأيت قسيهم وأوتارهم من لحاء الشجر الذي في بلادهم، ونبلهم قصار. كل سهم شبر ونصالهم شوك شجر كالحديد في القوة قد شدوه في نيلهم بلحاء شجر.

يصيبون الحدق، وهم شر نوع في السودان، وسائر السودان ينتفع بهم في الخدمة والعمل إلا قوقو، فلا خير فيهم إلا قي الحرب ولهم ألواح صغار مثقبة بثقب غير نافذة

يصفّرون في تلك الثقب، فتصوّت بأصوات عجيبة، فيخرج إلى ذلك الصوت جميع أنواع الحيات والأفاعي والثعابين، فيأخذونها ويأكلونها. وفيهم من يشدها على وسطه كما يشد الحزام. ومنهم من يتعمم بالثعبان الطويل ويدخل السوق على غفلة فيكشف ثوبه ويرمي على الناس أنواع الثعابين والحيات، فيعطونه شيئاً حتى يخرج، وإن لم يعطوه ألقى في دكاكينهم من تلك الحيات.

ويجيء من بلاد السودان أنواع من جلود الماعز مدبوغة دباغة عجيبة. الجلد الواحد يكون غليظاً كبيراً ليناً محبّباً في لون البنفسج إلى السواد. يكون الجلد الواحد عشرين منّاً يتخذ منه الخفاف للملوك. ولا يبلّ بالماء ولا يبلي ولا يفني مع لينه ونعومته وطيب رائحته. يباع الجلد الواحد بعشرة دنانير تبلي خيوط الخفّ ولا يبلي هو، ولا يتقطع. فيغسلونه في الحمام بالماء الحار فيعود كأنه جديد. يتوارثه صاحبه من أبيه عن جده، وهو من عجائب الدنيا.

وعندهم حيوان يقال له اللمط مثل الثور الكبير له قرنان كالرماح تطول بطول بدنه ممدودة على ظهره. إذا طعن بها الحيوان أهلكه في الحال، عريض العنق. يتخذ من جلده تراس يقال لها الدرق اللمطية مضافة إلى ذلك الحيوان يكمن ثلاثة أذرع، وهي خفيفة لينة، لا ينفذها الأنشاب ولا يؤثر فيها السيف، تكون بيضاً كالقراطيس، وهي من أحسن التراس مبسوطة كالرغيف تستر الفارس وفرسه.

ومن أنواع السودان زيلع وهم أعف أهل السودان مسلمون يصومون ويصلون ويحجون إلى مكة كل سنة مشاة. وبلاد السودان إلى الزنج والبحار مسيرة أربعة عشر سنة. يأكلون الكلاب ويفضلونها على الغنم ويأكلون الفأر.

وبقى من المائة سنة العمران ستة سنين بين الحبشة والهند والصين والفرس ولاترك والخزر والصقالية والروم والأفرنج والنامس والكزان والطالشان والعرب وأهل اليمن والعراق والشام ومصر وأندلس إلى رومية العظمى وسائر أهل الكفار. وإنما المسلمون بيهم جزء من ألف جزء

وعند صنعاء أمة من العرب قد مسحوا كل إنسان منهم نصف إنسان له نصف رأس ونصف بدن ويد واحدة ورجل واحدة يقال لهم وبارهم من ولد إرم بن سام أخو عاد وثمود، وليس لهم عقول، يعيشون في الأجام وفي بلاد الشحر على شاطي بحر الهند والعرب، نسميهم النسناس. ويصطادونهم ويأكلونهم. وهم يتكلمون بالعربية ويتناسلون ويسمون بأسامي العرب ويقولون الأشعار. ورأيت في تأريخ صنعاء ذكر أن

تاجراً سافر في بلادهم فرآهم يثبتون على رجل واحد ويصعدون الشجر خوفاً من الكلاب أن تأخذهم. وسمع واحد منهم يقول شعر:

فررت من خوف السراة شداً ... إذ لم أجد من الفرار بداً

قد كنت قدماً في زماني جلداً ... فها أنا اليوم صعيف جداً

وقد ذكرهم الأعشي في شعره حيث يقول:

ألم تروا أرما وعادا ... أفناهم الليل والنهار

وأهلكت من بعدهم ثمود ... بما جنى فيهم قدار

وحل بالحي من حي ... يوم من الشر مستطار

وجاسم بعدها وطيس ... قد أوحشت منهم الديار

ومسّحت بعدهم وبار ... فلا صحار ولا وبار

وفي بلاد السودان أمة لا رؤوس لهم ذكرهم الشعبي في كتاب سير الملوك.

وذكر أن في فيافي بلاد المغرب من ولد آدم كلهم نساء، ولا يكون بينهم ذكر ولا يعيش في أرضهم، وأن أولائك النساء يدخلن في ماء عندهن فيحملن من ذلك الماء، فتلد كل امرأة بنتاً ولا تلد ذكراً البتة، وأن تبّع ذا المنار وصل إليهن لما أراد أن يصل إلى الظلمات التي دخلها ذو القرنين والله أعلم، وأن ولده إفريقسون بن تبع ذا المنار هو الذي بنا مدينة إفريقية وسماها باسم نفسه، وأن والده تبع وصل إلى وادي لسبت وهو واد بالمغرب يجري فيه الرمل كما يجري السيل لا يمكن حيوان أن يدخل فيه إلا هلك، فلما رآه استعجل الرجوع. وذو القرنين لما وصل إليه أقام إلى يوم السبت فسكن جريانه فعبر إلى أن وصل إلى الظلمات فيما يقال والله أعلم. وأولئك الأمة الذين لا رؤوس لهم أعينهم في مناكبهم وأفواههم في صدورهم وهم أمم كثيرة كالبهائم يتناسلون ولا مضرة على أحد منهم ولا عقول لهم والله أعلم.

أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان

المحقق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، الجزء السابع

يوسف بن تاشفين[1] أبو يعقوب بن تاشفين اللمتوني أمير المسلمين وملك الملثمين، وهو الذي اختط مدينة مراكش وقد تقدم في ترجمة المعتمد محمد بن عباد والمعتصم محمد بن صمادح [2] الملكين ببلاد الأندلس طرف من أخباره وما جرى لهما معه وكيف أخذ بلادهما، واستأسر ابن عباد وحبسه في أغمات، وقد استوفيت الكلام عليه هناك، ونبهت عليه الآن ليعلم الواقف عليه أن هذا الملك هو ذلك، وأنه عظيم الشأن كبير السلطان.

ذكر أرباب التواريخ شيئاً من أحواله فاخترت في هذا الكتاب ما وجدته في كتاب " المعرب عن سيرة ملك المغرب " لأنه [3] أوعب في حديثه من غيره لكنه لم يذكر مؤلفه حتى أذكره، غير أنه قال في أول النسخة التي نقلت منها هذا الفصل: إنه كتبها في سنة تسع وسبعين وخمسمائة وفرغ منها في غرة ذي القعدة من السنة بالموصل، وهو في مجلد واحد لطيف، فاخترت منه مقتضباً ما مثاله:

كان بر المغاربة الجنوبي لقبيلة تسمى زناتة برابر فخرج عليهم من جنوبي المغرب من البلاد المتاخمة لبلاد السودان الملثمون يقدمهم أبو بكر ابن عمر منهم، وكان رجلاً ساذجاً خير الطباع مؤثراً لبلاده على بلاد المغرب غير ميال إلى الرفاهية، وكانت ولاة المغرب من زناتة ضعفاء لم يقاوموا الملثمين، فأخذوا البلاد من أيديهم من باب تلمسان إلى ساحل البحر المحيط. فلما حصلت البلاد لأبي بكر ابن عمر

---

11) أخباره في الحلل الموشية والبيان المغرب (ج: 4) وروض القرطاس وأعمال الأعلام والروض المعطار (الزلاقة) وتاريخ ابن خلدون وابن الأثير والمعجب للمراكشي والأنيس المطرب ومذكرات الأمير عبد الله والاستقصا وجذوة الاقتباس... الخ.

(2) انظر ج 5: 21، 39.

(3) س: في أنه.

المذكور سمع أن عجوزاً في بلاده ذهبت لها ناقة في غارة فبكت وقالت: ضيعنا أبو بكر ابن عمر بدخوله إلى بلاد المغرب، فحمله ذلك على أن استخلف على بلاد المغرب رجلاً من أصحابه اسمه يوسف بن تاشفين ورجع إلى بلاده الجنوبية.

وكان يوسف هذا رجلاً شجاعاً عادلاً مقداماً، اختط بالمغرب مدينة مراكش، وكان موضعها مكمناً للصوص، وكان ملكاً لعجوز مصمودية تمدنه منها؛ فلما تمهدت له البلاد تاق إلى العبور إلى جزيرة الأندلس، وكانت محصنة بالبحر، فأنشأ شواني ومراكب وأراد العبور إليها، فلما علم ملوك الأندلس بما يروم من ذلك أعدوا له عدة من المراكب والمقاتلة وكرهوا إلمامه بجزيرتهم، إلا أنهم استهولوا جمعه واستصعبوا مدافعته وكرهوا أن يصبحوا بين عدوين: الفرنج من شماليهم والملثمون من جنوبيهم. وكانت الفرنج تشد وطأتها عليهم، إلا أن ملوك الأندلس كانت ترهب الفرنج بإظهار موالاتهم لملك المغرب يوسف بن تاشفين، وكان له اسم كبير لنقله دولة زناتة وملك الغرب إليه في أسرع وقت، وكان قد ظهر لأبطال الملثمين في المعارك ضربات بالسيوف تقد الفارس وطعنات تنظم الكلى، فكان لهم بذلك ناموس ورعب في قلوب المنتدبين لقتالهم.

وكان ملوك الأندلس يفيئون إلى ظل يوسف بن تاشفين ويحذرونه على ملكهم مهما عبر إليهم وعاين بلادهم، فلما رأوا عزيمته متقدمة على العبور أرسل بعضهم إلى بعض، وكاتبوهم يستنجدون آراءهم في أمره، وكان مفزعهم في ذلك إلى المعتمد بن عباد لأنه كان أشجع القوم وأكبرهم مملكة، فوقع اتفاقهم على مكاتبته، وقد تحققوا أنه يقصدهم، يسألونه الإعراض عنهم وأنهم تحت طاعته، فكتب عنهم كاتب من أهل الأندلس كتاباً هو: "أما بعد، فإنك إن أعرضت عنا نُسبت إلى كرم ولم تنسب إلى عجز، وإن أجبنا داعيك نسبنا إلى عقل ولم ننسب إلى وهن، وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتينا، فاختر لنفسك أكرم نسبتيك، فإنك بالمحل الذي لا يجب أن تسبق فيه إلى مكرمة، وإن في إستبقائك ذوي البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوت، والسلام".

فلما جاءه الكتاب مع تحف وهدايا - وكان يوسف بن تاشفين لا يعرف اللسان العربي لكنه كان يجيد فهم المقاصد، وكان له كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية - فقال له: أيها الملك، هذا الكتاب من ملوك الأندلس يعظمونك فيه ويعرفونك أنهم أهل دعوتك وتحت طاعتك، ويلتمسون منك ألا تجعلهم في منزلة الأعادي، فإنهم مسلمون، وهم من ذوي البيوتات؛ فلا تغير بهم، وكفى بهم من وراءهم من الأعداء

الكفار، وبلدهم ضيق لا يحتمل العساكر، فأعرض عنهم إعراضك عمن أطاعك من أهل المغرب؛ فقال يوسف بن تاشفين لكاتبه: فما ترى أنت فقال: أيها الملك، اعلم أن تاج الملك وبهجته وشاهده الذي لا يرد بابه خليق بما حصل في يده من الملك أن يعفو إذا استعفى وأن يهب إذا استوهب، وكلما وهب جزيلاً كان أعظم لقدره فإذا عظم قدره تأصل ملكه، وإذا تأصل ملكه تشرف الناس بطاعته، وإذا كانت طاعته شرفاً جاءه الناس ولم يتجشم المشقة إليهم، وكان وارث الملك من غير إهلاك لآخرته؛ واعلم أن بعض الملوك الأكابر والحكماء البصراء بطريق تحصيل الملك قال: من جاد ساد ومن ساد قاد ومن قاد ملك البلاد. فلما ألقى الكاتب هذا الكلام إلى يوسف بن تاشفين بلغته فهمه وعلم أنه صحيح، فقال للكاتب: أجب القوم، واكتب بما يجب في ذلك، واقرأ علي كتابك، فكتب الكاتب: "بسم الله الرحمن الرحيم من يوسف بن تاشفين، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، تحية من سالمكم، وسلم إليكم، وحكّمه التأييد والنصر فيما حكم عليكم، وإنكم مما بأيدكم من الملك في أوسع إباحة، مخصوصون منا بأكرم إيثار وسماحة، فاستديموا وفاءنا بوفائكم، واستصلحوا إخاءنا بإصلاح إخائكم، والله ولي التوفيق لنا ولكم، والسلام". فلما فرغ من كتابه قرأه على يوسف بن تاشفين بلسانه فاستحسنه، وقرن به يوسف بن تاشفين درقاً لمطية مما لايكون إلا في بلاده. - قلت: اللمطية، بفتح اللام وسكون الميم وبعدها طاء مهملة ثم ياء مشددة مثناة من تحتها وبعدها هاء ساكنة، هذه النسبة إلى لمطة، وهي بليدة عند السوس الأقصى، بينها وبين سجلماسة عشرون يوماً، قاله ابن حوقل في كتاب " المسالك والممالك " وهي معدن الدرق اللمطية، ولا يوجد مثلها في الدنيا على ما يقال، والله أعلم - قال: وأنفذ ذلك إليهم. فلما وصلهم كتابه أحبوه وعظموه وفرحوا بولايته ملك المغرب، وتقوت نفوسهم على دفع الفرنج، وأزمعوا إن رأوا من ملك الفرنج ما يريبهم أن يجيزوا إليه يوسف بن تاشفين ويكونوا من أعوانه على ملك الفرنج، فتحصل ليوسف بن تاشفين برأي وزيره ما أراد من محبة أهل الأندلس له، وكفاه الحرب لهم.

وإن الأذفونش بن فرذلند صاحب طليطلة قاعدة ملك الفرنج أخذ يجوس خلال الديار ويفتتح بلاد الأندلس ويشتط على ملوكهم بطلب البلاد منهم، وخصوصاً المعتمد بن عباد، فإنه كان مقصوداً فيه - وقد تقدم في ترجمة المعتمد ذكر تاريخ أخذه طليطلة والأبيات التي قيلت في ذلك - فنظر المعتمد في أمره فرأى أن الأذفونش قد داخله طمع فيما يلي بلاده، فأجمع أمره على استدعاء يوسف بن تاشفين على العبور،

على ما فيه من الخطر، وعلم أن مجاورة غير الجنس مؤذنة بالبوار، وأن الفرنج والملثمين ضدان له، إلا أنه قال: إن دهينا من مداخلة الأضداد لنا فأهون الأمرين أمر الملثمين، ولأن يرعى أولادنا جمالهم أحب إليهم من أن يرعوا خنازير الفرنج، ولم يزل هذا الرأي نصب عينيه مهما اضطر إليه.

وإن الأذفونش خرج في بعض السنين يتخلل بلاد الأندلس في جمع كبير من الفرنج، فخافه ملوك الأندلس على البلاد، وأجفل أهل القرى والرساتيق من بين يديه ولجؤوا إلى المعاقل، فكتب المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين يقول له: إن كنت مؤثراً للجهاد فهذا أوانه، فقد خرج الأذفونش إلى البلاد، فأسرع في العبور إليه، ونحن معاشر أهل الجزيرة بين يديك؛ وكان يوسف بن تاشفين على أتم أهبة، فشرع في عبور عساكره، فلما أبصر ملوك الأندلس عبور أهل المغرب يطلبون الجهاد، وكانوا قد وعدوا من أنفسهم بالمساعدة، أعدوا أيضاً للخروج، فلما رأى الاذفونش اجتماع العزائم على مناجزته علم أنه عام نطاح، فاستنفر الفرنجية للخروج فخرجوا في عدد لا يحصيه إلا الله تعالى. ولم تزل الجموع تتألف وتتدارك إلى أن امتلأت جزيرة الأندلس خيلاً ورجلاً من الفريقين، كل أناس قد التفوا على ملكهم. فلما عبرت جيوش يوسف بن تاشفين عبر في آخرها وأمر بعبور الجمال، فعبر منها ما أغص الجزيرة وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء، ولم يكن أهل الجزيرة رأوا قط جملاً ولا كانت خيلهم قد رأت صورها ولا سمعت أصواتها، وكانت تذعر منها وتقلق، وكان ليوسف بن تاشفين في عبورها رأيٌ مصيب، كان يحدق بها معسكره، وكان يحضرها الحرب، فكانت خيل الفرنج تحجم عنها. فلما تكاملت العساكر بالجزيرة قصدت الأذفونش، وكان نازلاً بمكان أفيح من الأرض يسمى الزلاّقة بالقرب من بطليوس قال البياسي: بين المكانين أربعة فراسخ؛ وقال أيضاً: إن يوسف بن تاشفين قدم بين يدي حربه كتاباً على مقتضى السنة يعرض عليه الدخول في الإسلام أو الحرب أو الجزية، ومن فصول كتابه: وبلغنا يا أذفونش أنك دعوت في الاجتماع بك، وتمنيت أن يكون لك فلكٌ تعبر البحر عليها إلينا، فقد أجزناه إليك، وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) (غافر: 50) فلما سمع الأذفونش ما كتب إليه جاش بحر غيظه وزاد في طغيانه وأقسم أنه لا يبرح من موضعه حتى يلقاه.

ثم إن ابن تاشفين ومن معه قصدوا الزلاقة، فلما وافاها المسلمون نزلوا تجاه

الفرنج بها، فاختار المعتمد بن عباد أن يكون هو المصادم لهم أولاً، وأن يكون يوسف بن تاشفين إذا انهزم المعتمد بعسكره بين أيديهم وتبعوه، يميل عليهم بعساكره، وتتألف معه عساكر الأندلس، فلما عزموا على ذلك وفعلوه خذل الفرنج وخالطتهم عساكر المسلمين واستعمل القتل فيهم، فلم يفلت منهم غير الأذفونش في دون الثلاثين من أصحابه، فلحق ببلده على أسوأ حال، فغنم المسلمون من أسلحته وخيله وأثاثه ما ملأ أيديهم خيراً.

قلت: وكانت الوقعة في يوم الجمعة الخامس عشر من رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة، وقيل في شهر رمضان في العشر الأواخر من السنة، والله أعلم. وقال البياسي: كان حلول العساكر الإسلامية بالجزيرة الخضراء في المحرم سنة تسع وسبعين وأربعمائة.

فحكي أن موضع المعترك على اتساعه ما كان فيه موضع قدم إلا على جسد أو دم، وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام حتى جمعت الغنائم، فلما حصلت عف عنها يوسف بن تاشفين وآثر بها ملوك الأندلس، وعرفهم أن مقصوده إنما كان الغزو لا النهب، فلما رأت ملوك الأندلس إيثار يوسف ابن تاشفين لهم بالمغانم استكرموه وأحبوه وشكروا له.

ثم إن يوسف بن تاشفين أزمع الرجوع إلى بلاده، وكان عند قصده ملاقاة الأذفونش تحرى المسير بالعراء من غير أن يمر بمدينة أو رستاق حتى نزل الزلاقة تجاه الأذفونش وهناك اجتمع بعساكر الأندلس؛ وذكر أبو الحجاج يوسف بن محمد البياسي في كتاب - تذكير العاقل وتنبيه الغافل - أن ابن تاشفين نزل على أقل من فرسخ من عسكر العدو في يوم الأربعاء، وكان الموعد في المناجزة يوم السبت الأدنى فغدر الأذفونش ومكر، فلما كان سحر يوم الجمعة منتصف رجب من العام أقبلت طلائع ابن عباد والروم في أثرها والناس على طمأنينة، فبادر ابن عباد للركوب، وانبث الخبر في العساكر فماجت بأهلها، ووقع البهت ورجفت الأرض، وصارت الناس فوضى على غير تعبية ولا أهبة، ودهمتهم خيل العدو، فقمرت ابن عباد وحطمت ما تعرض لها، وتركت الأرض حصيداً خلفها، وصرع ابن عباد وأصابه جرح أشواه؛ وفر رؤساء الأندلس وأسلموا محلاتهم، وظنوا أنها وهية لا ترقع ونازلة لا تدفع، وظن الأذفونش أن أمير المسلمين في المنهزمين ولم يعلم أن العاقبة للمتقين، فركب أمير المسلمين أحدق به أنجاد خيله ورجاله من صنهاجة ورؤساء القبائل، فعمدوا إلى محلة الأذفونش

فاقتحموها ودخلوها وقتلوا حاميتها، وضربت الطبول فاهتزت الأرض وتجاوبت الآفاق، وتراجع الروم إلى محلتهم بعد أن علموا أن أمير المسلمين فيها، فصدموا أمير المسلمين فأفرج لهم عنها، ثم كر فأخرجهم منها، ثم كروا عليه فأفرج لهم عنها، ولم تزل الكرات بينهم تتوالى إلى أن أمر أمير المسلمين حشمه السودان فترجل منهم زهاء أربعة آلاف ودخلوا المعترك بدرق اللمط وسيوف الهند ومزاريق الزان، فطعنوا الخيل فرمحت بفرسانها وأحجمت عن أقرانها، وتلاحق الأذفونش بأسود نفدت مزاريقه بالقذف، فأهوى ليضربه بالسيف، فلصق به الأسود وقبض على أعنته وانتضى خنجراً كان منتطقاً به، فأثبته في فخذه فهتك حلق درعه وشك فخذه مع بداد سرجه، وكان وقت الزوال من ذلك اليوم، فهبت ريح النصر وأنزل الله سكينته على المسلمين ونصر دينه، وصدقوا الحملة على الأذفونش وأصحابه، فأخرجوهم عن محلتهم، فولوا ظهورهم وأعطوا أعناقهم، والسيوف تصفعهم إلى أن لحقوا بربوة لجأوا إليها واعتصموا بها، وأحدقت بهم الخيل؛ فلما أظلم الليل انساب الأذفونش وأصحابه من الربوة، وأفلتوا بعدما نشبت فيهم أظفارهم، واستولى المسلمون على ما كان في محلتهم من الأثاث والآنية والمضارب والأسلحة، وأمر ابن عباد بضم رؤوس قتلى الروم، فنشر منها أمامه كالتل العظيم، ثم كتب ابن عباد إلى ولده الرشيد كتاباً وأطار به الحمام يوم السبت سادس عشر المحرم يخبره بالنصر.

وقد روي أيضاً أن أمير المسلمين طلب من أهل البلاد المعونة على ما هو بصدده، فوصل كتابه إلى المرية في هذا المعنى، وذكر فيه أن جماعة أفتوه بجواز طلب ذلك اقتداء بعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال أهل المرية لقاضي بلدهم وهو أبو عبد الله ابن الفراء أن يكتب جوابه، وكان هذا القاضي من الدين والورع على ما ينبغي، فكتب إليه: أما بعد ما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخري عن ذلك، وأن أبا الوليد الباجي وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة والأندلس أفتوا بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اقتضاها، وكان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وضجيعه في قبره ولا يشك في عدله، فليس أمير المسلمين بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا بضجيعه في قبره، ولا من لا يشك في عدله، فإن كان الفقهاء والقضاة أنزلوك بمنزلته في العدل فالله سائلهم عن تقلدهم فيك، وما اقتضاها عمر حتى دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحلف أن ليس عنده درهم واحد من بيت مال المسلمين ينفقه عليهم، فلتدخل المسجد الجامع هنالك بحضرة أهل العلم، وتحلف أن ليس عندك

درهم واحد، ولا في بيت مال المسلمين، وحينئذ تستوجب ذلك، والسلام.

ولما قضى أمير المسلمين من هذه الوقعة ما قضى، أمر عساكره بالمقام وأن تشن الغارات على بلاد الفرنج، وأمرّ عليهم سير ابن أبي بكر، وطلب الرجوع في طريقه، فتكرم له المعتمد بن عباد، فعرج به إلى بلاده وسأله أن ينزل عنده، فأجابه يوسف إلى ذلك. فلما انتهى إلى إشبيلية مدينة المعتمد، وكانت من أجمل المدن منظراً ونظر إلى موضوعها على نهر عظيم مستبحر تجري فيه السفن بالبضائع جالبة من بر المغرب وحاملة إليه، في غربيه رستاق عظيم مسيره عشرين فرسخاً يشتمل على آلاف من الضياع كلها تين وعنب وزيتون، وهذا الموضع هو المسمى شرف إشبيلية، وتميز بلاد المغرب كلها من هذه الأصناف، وفي جانب المدينة قصور المعتمد وأبيه المعتضد في غاية الحسن والبهاء، وفيها أنواع ما يحتاج إليه من المطعوم والمشروب والملبوس والمفروش وغير ذلك، فأنزل المعتمد يوسف بن تاشفين في أحدها، وتولى من إكرامه وخدمته ما أوسع شكر ابن تاشفين له، وكان مع ابن تاشفين أصحاب له ينبهونه على تأمل تلك الحال وما هي عليه من النعمة والإتراف ويغرونه باتخاذ مثلها لنفسه ويقولون له: إن فائدة الملك قطع العيش فيه بالتنعم واللذة كما هو المعتمد وأصحابه؛ وكان يوسف بن تاشفين مقتصداً في أموره غير متطاول ولا مبذر متنوق في صنوف الملاذ بالأطعمة وغيرها، وكان قد ذهب صدر عمره في بلاده في شظف العيش، فأنكر على مغريه بذلك الإسراف وقال: الذي يلوح من أمر هذا الرجل، يعني المعتمد، أنه مضيع لما في يده من الملك، لأن هذه الأموال التي تعينه على هذه الأحوال لا بدّ أن يكون لها أرباب لا يمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل أبداً، فأخذه بالظلم وأخرجه في هذه الترهات،و هذا من أفحش الاستهتار، ومن كانت همته في هذا الحد من التصرف فيما لا يعدو الاجوفين متى يستجد همة في حفظ بلاده وضبطها وحفظ رعيته والتوفر على مصالحها!!

ثم إن يوسف بن تاشفين سأل عن أحوال المعتمد في لذاته: هل تختلف فتنقص عما هي عليه في بعض الأوقات فقيل له: بل كان زمانه على هذا، قال: أفكل أصحابه وأنصاره على عدوه ومنجديه على الملك ينال حظاً من ذلك قالوا: لا، قال: فكيف ترون رضاهم عنه قالوا: لا رضا لهم عنه، فأطرق يوسف وسكت. فأقام يوسف عند المعتمد على تلك الحال أياماً. وفي بعض تلك الأيام استأذن رجل على المعتمد، فدخل وهو ذو هيئة رثة، وكان من أهل البصائر، فلما دخل عليه قال: أصلحك الله أيها

الملك، إن من أوجب الواجبات شكر النعمة، وإن من شكر النعمة إهداء النصائح، وإني رجل من رعيتك، حالي في دولتك إلى الاختلال أقرب منها إلى الاعتدال، لكنني ملتزم لك من النصيحة ما يستوجبه الملك على رعيته، فمن ذلك خبر وقع في أذني من بعض أصحاب ضيفك هذا يوسف بن تاشفين يدل على أنهم يرون أنفسهم وملكهم أحق بهذه النعمة منك، وقد رأيت رأيا فإن آثرت الإصغاء إليه قلته، قال له المعتمد: قله، قال: رأيت أن هذا الرجل الذي أطلعته على ملكك رجل مستأسد على الملوك، قد حطم ببر العدوة زناتة وأخذ الملك من أيديهم ولم يبق على أحد منهم، ولا يؤمن أن يطمح إلى الطماعية في ملكك، بل في ملك جزيرة الأندلس كلها بما قد عاينه من بلهنية عيشك، وإنه لمتخيل في مثل حالك سائر ملوك الأندلس، وإن له من الولد والأقارب ممن يؤثر مسراتهم من يودّ له الحلول بما أنت فيه من خصب الجناب، وقد أودى الأذفونش وجيشه واستأصل شأفتهم وأعدمك منه أقوى ناصر عليه لو احتجت إليه، فقد كان لك منه أقوى عضد وأوقى مجن، وبعد أن فات الأمر في الأذفونش لا يفتك الحزم فيما هو ممكن اليوم، قال له المعتمد: وما هو الحزم اليوم قال: إن تجمع أمرك على قبض ضيفك هذا واعتقاله في قصرك، وتجزم أنك لا تطلقه حتى يأمر كل من بجزيرة الأندلس من عسكره أن يرجع من حيث جاء حتى لا يبقى منهم بالجزيرة طفل، ثم تتفق أنت وملوك الجزيرة على حراسة هذا البحر من سفينة تجري فيه بغزاة له، ثم بعد ذلك تستعطفه بأغلظ الإيمان ألا يضمر في نفسه عوداً إلى هذه الجزيرة إلا باتفاق منكم ومنه، وتأخذ منه على ذلك، رهائن، فإنه يعطيك من ذلك ما تشاء، فنفسه أعز عليه من جميع ما تلتمس منه، فعند ذلك يقنع هذا الرجل ببلاده التي لا تصلح إلا له، وتكون قد استرحت منه بعدما استرحت من الأذفونش، وتقيم في موضعك على خير حال، ويرتفع ذكرك عند ملوك الأندلس وأهل الجزيرة، ويتسع ملكك وتنسب بهذا الاتفاق لك إلى سعادة وحزم، وتهابك الملوك، ثم اعمل بعد هذا ما يقتضيه حزمك في محاورة من عاملته هذه المعاملة واعلم أنه قد تهيأ لك من هذا أمر سماوي تتفانى الأمم وتجري بحار الدم دون حصول مثله.

فلما سمع المعتمد كلام الرجل استصوبه وجعل يفكر في انتهاز هذه الفرصة. وكان للمعتمد ندماء قد انهمكوا معه في اللذات، فقال أحدهم لهذا الرجل الناصح: ما كان المعتمد على الله، وهو إمام أهل المكرمات، ممن يعامل بالحيف ويغدر بالضيف، فقال له الرجل، إنما الغدر أخذ الحق من يد صاحبه لا دفع الرجل عن نفسه المحذور

إذا ضاق به؛ قال ذلك النديم: لضيمٌ مع وفاء خير من حزم مع جفاء. ثم إن ذلك الناصح استدرك الأمر وتلافاه، فشكر له المعتمد ووصله بصلة، وانصرف. واتصل هذا الخبر بيوسف بن تاشفين فأصبح غادياً، فقدم له المعتمد الهدايا السنية والتحف الفاخرة فقبلها ثم رحل فعبر من الجزيرة الخضراء إلى سبتة قلت: وهو المكان المعروف بزقاق سبتة يعدي الناس فيه من أحد البرين إلى الآخر، أعني بر الأندلس وبر العدوة، وقد تقدم الكلام على هذا المكان.

قال: ولما عبر يوسف إلى بر العدوة أقام عسكره بجزيرة الأندلس ريثما استراح ثم تبع آثار الأذفونش فتوغل في بلاده. ولما رجع الأذفونش إلى موضعه سأل عن أصحابه وشجعانه وأبطال عسكره فوجد أكثرهم قد قتلوا، ولم يسمع إلا نياح الثكالى عليهم، فلم يأكل ولم يشرب حتى مات هماً وغماً ولم يخلف إلا بنتا جعل الأمر إليها، فتحصنت بمدينة طليطلة.

وأما عسكر ابن تاشفين فإنهم في غارتهم هذه كسبوا من المغانم ما لم يحد ولا يوصف وأنفذوا ذلك إلى بر العدوة، واستأذن أميرهم سير ابن أبي بكر يوسف بن تاشفين في المقام بجزيرة الأندلس وأعلمه أنه قد افتتح معاقل في الثغور ورتب بها مستحفظين ورجالاً يغنون فيها، وأنه لا يستقيم لهذه الجيوش أن تقيم بالثغور في ضنك من العيش تصابح العدو وتماسيه، وتحظى ملوك الأندلس من الأرياف برغد العيش، فكتب إليه ابن تاشفين يأمره بإخراج ملوك الأندلس من بلادهم وإلحاقهم بالعدوة، فمن استعصى عليه منهم قاتله ولا ينفّس عنه حتى يخرجه، وليبدأ منهم بمجاوري الثغور، ولا يتعرض للمعتمد بن عباد ما لم يستولِ على البلاد، ثم يولي تلك البلاد أمراء عسكره وأكابرهم. فابتدأ سير ابن أبي بكر بملوك بني هود من ملوك الأندلس ليستنزلهم من معقلهم وهي ورطة - قلت: هي بضم الراء وسكون الواو ثم طاء مهملة بعدها هاء، قلعة منيعة من عاصمات الذرا، ماؤها ينبوع في أعلاها، وكان بها من الأقوات والذخائر المختلفات ما لا تفنيه الأزمان فلم يقدر عليها فرحل عنها، ثم جند أجناداً على صور الفرنج وأمرهم أن يقصدوا هذه القلعة مغيرين عليها، ويكمن هو وأصحابه بالقرب منها، ففعلوا ذلك، فرآهم صاحب القلعة فاستضعفهم ونزل في طلبهم، فخرج سير ابن أبي بكر فقبض عليه وتسلم القلعة. ثم نازل بني طاهر بشرق الأندلس، فسلموا إليه ولحقوا بالعدوة. ثم نازل بني صمادح بالمرية وكانت قلعتهم حصينة إلا أنهم لم يكن عندهم أجناد ولا أنجاد من الرجال فزحفوا عليهم وغلبوهم، فلما علم المعتصم بن

صمادح أنه مغلوب دخل قصره فأدركه أسف قضى عليه، فمات من ليلته فاشتغل أهله به. فسلموا المدينة. ثم نازلوا المتوكل عمر بن الأفطس ببطليوس، وكان رجلاً شجاعاً عظيم القدر كبير البيت - وكان أبوه المظفر بالله أبو بكر محمد بن عبد الله بن مسلمة التجيبي من فحول العلماء، وكان ملكاً له تصانيف أعظمها وأشهرها الكتاب المنسوب إليه وهو " المظفري " في علم التاريخ، [وكانت] مدينته بطليوس من أجمل البلاد - لم يذعن ولا أقبل على غير المدافعة والقتال إلى أن خامر عليه أصحابه فقبض عليه باليد وعلى ولدين له، فقتلوا صبراً، وحملوا أولاده الأصاغر إلى مراكش؛ وسائر ملوك الجزيرة سلموا وتحولوا إلى بر العدوة إلا ما كان من المعتمد بن عباد، فإن سير ابن أبي بكر لما فرغ من ملوك الجزيرة، كتب إلى يوسف بن تاشفين أنه لم يبق بالجزيرة من ملوكها غير المعتمد بن عباد، فارسم في أمره بما تراه، فأمره بقصده وأن يعرض عليه التحول إلى بر العدوة بأهله وماله، فإن فعل فبها ونعمت، وإن أبى فنازله، فلما عرض عليه سير ابن أبي بكر ذلك لم يعطه جواباً، فنازله وحاصره أشهراً ثم دخل عليه البلد قهراً واستخرجه من قصره قسراً، فحمل إلى العدوة مقيداً، فأنزل بأغمات وأقام بها إلى أن مات، ولم يعتقل من ملوك الأندلس غيره. وتسلم سير ابن أبي بكر الجزيرة كلها واستحوذ عليها، فمات يوسف بن تاشفين في التاريخ الآتي ذكره إن شاء الله تعالى.

وأفضى الملك إلى ولده أبي الحسن علي بن يوسف، وكان رجلاً حليماً وقوراً صالحاً عدلاً منقاداً للحق والعلماء، تجبى إليه الأموال من البلاد، لم يزعزعه عن سريره قط حادث ولا طاف به مكروه - قلت: قد تقدم في ترجمة أبي نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان القيسي صاحب " قلائد العقيان "[1] أنه جمع الكتاب المذكور باسم إبراهيم بن يوسف بن تاشفين، وأن الذي أشار بقتل الفتح المذكور هو علي بن يوسف بن تاشفين المذكور.

ثم ولي بعده ولده تاشفين بن علي بن يوسف وعلى يده انقرض ملكهم، وسيأتي شرح ذلك مفصلاً إن شاء الله تعالى. وقد تقدم في أوائل هذه الترجمة أن يوسف بن تاشفين هو الذي اختطّ مدينة مراكش؛ قال صاحب هذا الكتاب الذي نقلت منه هذه الترجمة في آخر الكتاب: إن مراكش[2] مدينة عظيمة بناها الأمير يوسف بن تاشفين

(1) انظر ج 4: 24.

(2) انظر الاستبصار في الحديث عن مراكش ص: 208 والحاشية.

بموضع كان اسمه مراكش - معناه: امش مسرعاً بلغة المصامدة - كان ذلك الموضع مأوى اللصوص وكان المارون فيه يقولون لرفقائهم هذه الكلمة، فعرف الموضع بها. وقال غير مؤلف هذا الكتاب: بنى ابن تاشفين مدينة مراكش في سنة خمس وستين وأربعمائة، قاله أبو الخطاب ابن دحية في كتابه الذي سماه " النبراس " في خلافة القائم بأمر الله، قال: وكانت مزرعة لأهل نفيس، فاشتراها منهم بماله الذي خرج به من الصحراء - ونفيس[1]: بفتح النون وتشديد الفاء وسكون الياء المثناة من تحتها، جبل مطل على مراكش، قلت: وهي بنواحي أغمات في المغرب الأقصى. وذلك أنه لما توطنت نفسه على الملك، وأطاعته قبائل البربر وذهب من يخالفه من لمتونة سمت همته إلى بناء هذه المدينة، وكان في موضعها قرية صغيرة في غابة من الشجر، وبها قوم من البربر، فاختطها يوسف وبنى بها القصور والمساكن الأنيقة، وهي في مرج فسيح، وحولها جبال على فراسخ منها، وبالقرب منها جبل لا يزال عليه الثلج وهو الذي يعدل مزاجها وحرها.

وفي سنة أربع وستين وأربعمائة نزل يوسف على مدينة فاس، وكانت إذ ذاك من قواعد بلاد المغرب العظام، وضيق على أهلها ثم أخذها فأقر العامة بها، ونفى البربر والجند، بعد أن حبس بعضهم وقتل بعضهم، فعند ذلك قوي شأنه وتمكن بالمغرب الأقصى والأدنى سلطانه، مع ما صار بيده من بلاد جزيرة الأندلس كما شرحناه. وكان حازماً سائساً للأمور ضابطاً لمصالح مملكته، مؤثراً لأهل العلم والدين كثير المشورة لهم، وبلغني أن الإمام حجة الإسلام أبا حامد الغزالي، تغمده الله تعالى برحمته، لما سمع ما هو عليه من الأوصاف الحميدة وميله إلى أهل العلم عزم على التوجه إليه، فوصل إلى الإسكندرية وشرع في تجهيز ما يحتاج إليه فوصله خبر وفاته، فرجع عن ذلك العزم، وكنت وقفت على هذا الفصل في بعض الكتب، وقد ذهب عني في هذا الوقت أين وجدته.

وكان يوسف معتدل القامة أسمر اللون نحيف الجسم خفيف العارضين دقيق الصوت، وكان يخطب لبني العباس، وهو أول من تسمى بأمير المسلمين، ولم يزل على حاله وعزه وسلطانه إلى أن توفي يوم الاثنين لثلاث خلون من المحرم سنة خمسمائة، وعاش تسعين سنة ملك منها مدة خمسين سنة، رحمه الله تعالى.

(1) راجع المصدر السابق.

وذكر شيخنا عز الدين بن الأثير في تاريخه الكبير ما مثاله[1]: سنة خمسمائة فيها توفي أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ملك المغرب والأندلس، وكان حسن السيرة خيراً عادلاً، يميل إلى أهل العلم والدين ويكرمهم ويحكمهم في بلاده ويصدر عن آرائهم، وكان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام، فمن ذلك أن ثلاثة نفر اجتمعوا، فتمنى أحدهم ألف دينار يتجر بها، وتمنى الآخر عملاً يعمل فيه لأمير المسلمين، وتمنى الآخر زوجته، وكانت من أحسن النساء، ولها الحكم في بلاده، فبلغه الخبر، فأحضرهم وأعطى متمني المال ألف دينار، واستعمل الآخر، وقال للذي تمنى زوجته: يا جاهل، ما حملك على هذا الذي لا تصل إليه ثم أرسله إليها، فتركته في خيمة ثلاثة أيام تحمل إليه في كل يوم طعاماً واحداً، ثم أحضرته وقالت له: ما أكلت في هذه الأيام قال: طعاماً واحداً، فقالت له: كل النساء شيء واحد؛ وأمرت له بمال وكسوة وأطلقته.

(385) وأما ولده علي المذكور فإنه توفي لسبع خلون من رجب سنة سبع وثلاثين وخمسمائة ومولده في حادي عشر رجب سنة ست وسبعين وأربعمائة، وقد سبق ذكر طرف من حديثه في ترجمة محمد بن تومرت المهدي، فيكشف عنه.

ولما خرج عبد المؤمن بن علي - المقدم ذكره [2] - قاصداً جهة البلاد المغربية ليأخذها من علي بن يوسف بن تاشفين المذكور، كان مسيره على طريق الجبال فسير علي بن يوسف ولده تاشفين ليكون في قبالة عبد المؤمن، ومعه جيش فساروا في السهل وأقاموا على هذا مدة، فتوفي علي بن يوسف في أثنائها في التاريخ المذكور، فقدم أصحابه ولده إسحاق بن علي وجعلوه نائب أخيه تاشفين على مراكش، وكان صبياً وظهر أمر عبد المؤمن ودانت له الجبال، وفيها غمارة وتالدة والمصامدة، وهم أمم لا تحصى، فخاف تاشفين بن علي واستشعر القهر، وتيقن أن دولتهم ستزول، فأتى مدينة وهران، وهي على البحر، وقصد أن يجعلها مقره، فإن غلب عن[3] الأمر ركب منها في البحر إلى بر الأندلس يقيم بها كما أقامت بنو أمية بالأندلس عند انقراض دولتهم بالشام وبقية البلاد، وفي ظاهر وهران ربوة على البحر تسمى صلب الكلب، وبأعلاها رباط يأوي إليه المتعبدون. وفي ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة

(1) ابن الأثير 10: 417.

(2) انظر ج 3: 237.

(3) هكذا في المسودة.

تسع وثلاثين وخمسمائة صعد تاشفين إلى ذلك الرباط ليحضر الختم في جماعة يسيرة من خواصه، وكان عبد المؤمن بجمعه في تاجرة وهي وطنه كما ذكرته في ترجمته واتفق أنه أرسل منسراً إلى وهران فوصلوها في اليوم السادس والعشرين من شهر رمضان، ومقدمهم الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى صاحب المهدي، فكمنوا عشية، وأعلموا بانفراد تاشفين في ذلك الرباط، فقصدوه وأحاطوا به، وأحرقوا بابه، فأيقن الذين فيه بالهلاك، فخرج تاشفين راكباً فرسه، وشد الركض عليه ليثب الفرس النار وينجو، فترامى الفرس نازيا لروعته، ولم يملكه اللجام حتى تردى من جرف هنالك إلى جهة البحر على حجارة في وعر، فتكسر تاشفين وهلك في الوقت، وقتل الخواص الذين كانوا معه، وكان عسكره في ناحية أخرى لا علم لهم بما جرى في الليل.

وجاء الخبر بذلك إلى عبد المؤمن، فوصل إلى وهران، وسمى ذلك الموضع الذي فيه الرباط صلب الفتح، ومن ذلك الوقت نزل عبد المؤمن من الجبل إلى السهل. ثم توجه إلى تلمسان وهي مدينتان قديمة ومحدثة بينهما شوط فرس، ثم توجه إلى فاس فحاصرها، وأخذها في سنة أربعين وخمسمائة، ثم قصد مراكش في سنة إحدى وأربعين فحاصرها أحد عشر شهراً وفيها إسحاق بن علي وجماعة من مشايخ دولتهم قدموه بعد موت أبيه علي بن يوسف بن تاشفين نائباً عن أخيه تاشفين، فأخذها وقد بلغ القحط من أهلها الجهد، وأخرج إليه اسحاق بن علي ومعه سير بن الحاج وكان من الشجعان وخواص دولتهم، وكانا مكتوفين، واسحاق دون البلوغ، فعزم عبد المؤمن أن يعفو عن إسحاق لصغر سنه فلم يوافقه خواصه، وكان لا يخالفهم، فخلى بينهم وبينهما فقتلوهما، ثم نزل عبد المؤمن في القصر، وذلك في سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، وانقرضت دولة بني تاشفين.

قلت: وقد ذكرت في ترجمة المعتمد بن عباد أن يوسف بن تاشفين عاد إلى الأندلس في العام الثاني من وقعة الزلاقة، وذكرت ها هنا ما يدل على أنه ما عاد إليها، وإنما نوابه هم الذين أخذوا بلاد الأندلس له، فقد يعتقد الواقف على هذا الكتاب أن هذا متناقض، والعذر في هذا أنني وجدته في ترجمة ابن عباد على تلك الصورة ووجدته في هذه الترجمة على هذه الصورة، والله أعلم بالصواب.

ثم رأيت في كتاب " تذكير العاقل " تأليف أبي الحجاج يوسف البياسي أن ابن تاشفين لما جاز البحر قصد إشبيلية، فخرج ابن عباد إلى لقائه ومعه الضيافة والإقامة، ثم خرج من إشبيلية بقضه وقضيضه قاصداً بطليوس، وجرت الواقعة المذكورة، ثم عاد ابن

تاشفين إلى بلاده، وان ابن عباد جاز البحر ومضى إليه في سنة إحدى وثمانين واستنجده على ما يجاوره من بلاد العدو، فأكرمه ابن تاشفين وأجابه إلى إنجاده، ثم عاد ابن عباد إلى بلاده واستعد للعدو، ولحقه ابن تاشفين في رجب من سنة إحدى وثمانين، ثم خرج الأذفونش في جيش كثيف، وكان ملوك الأندلس قد اجتمعوا عند ابن تاشفين فلما رأى ما فعله من الاستعداد بالجمع الكثير رحل عن مكانه وأوهمه خواصه أن ملوك الأندلس يفرون عنه ويخلون بينه وبين الأذفونش فأصغى إلى كلامهم وعمل في نفسه قولهم، فأخذ في الحركة إلى البرية، وتحرك الجميع بحركته وجاز البحر عائداً إلى بلاده، وقد وغر صدره على ملوك الأندلس، وتبين لهم تغيره عليهم وخافوه، فشرعوا في تحصين بلادهم وتحصيل الأقوات، وراسل بعضهم الأذفونش ليكون عوناً له خوفاً من ابن تاشفين، فأجابه الأذفونش بالإعانة والمساعدة، وكان قد سير له هدايا وألطافاً كثيرة فقبلها منه، وحلف له على جميع ما التمس منه، واتصل ذلك بابن تاشفين فاستشاط غيظاً.

ثم إن ابن تاشفين جاز البحر مرة ثالثة وقصد قرطبة وهي لابن عباد، فوصلها في جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين، وقد سبقه إليها ابن عباد، فخرج إليه بالضيافة وجرى معه على عادته. ثم إن ابن تاشفين أخذ غرناطة من صاحبها عبد الله بن بلكين بن باديس بن حبوس وحبسه، فطمع ابن عباد في غرناطة وأن ابن تاشفين يعطيه إياها. فعرّض له بذلك، فأعرض عنه ابن تاشفين، وخاف ابن عباد منه، وعمل على الخروج عنه فقال له: إنه جاءته كتب من إشبيلية، وهم خائفون من العدو المجاور لهم واستأذنه في العود إليها، فأذن له فعاد. ثم رجع ابن تاشفين إلى بلاده وجاز البحر في شهر رمضان من سنة ثلاث وثمانين، وأقام ببلاده إلى أن دخلت سنة أربع وثمانين، ثم عزم على العبور إلى الأندلس لمنازلة ابن عباد، وبلغ ذلك ابن عباد فأخذ في التأهب والاستعداد، ووصل ابن تاشفين إلى سبتة وجمع العساكر الكثيرة وقدّم عليهم سير بن أبي بكر فجاوزا البحر وضايقوا بلاد ابن عباد، فاستصرخ بالأذفونش فلم يلتفت إليه، وكان ما ذكرته، والله أعلم.

وفي هذه الترجمة ذكر الملثمين فيحتاج إلى الكلام عليه، والذي وجدته أن أصل هؤلاء القوم من حمير بن سبأ، وهم أصحاب خيل وإبل وشياه، ويسكنون الصحارى الجنوبية وينتقلون من ماء إلى ماء كالعرب، وبيوتهم من الشعر والوبر، وأول من جمعهم وحرضهم على القتال وأطمعهم في تملك البلاد عبد الله بن ياسين الفقيه، وقتل في حرب جرت مع برغواطة، وقام مقامه أبو بكر ابن عمر الصنهاجي الصحراوي

المقدم ذكره ومات في حرب السودان، وقد ذكرنا حديث يوسف بن تاشفين وسبب تقدمه، وهو الذي سمى أصحابه المرابطين، وهم قوم يتلثمون ولا يكشفون وجوههم، فلذلك سموهم الملثمين، وذلك سنة لهم يتوارثونها خلفاً عن سلف، وسبب ذلك على ما قيل أن حمير كانت تتلثم لشدة الحر والبرد يفعله الخواص منهم، فكثر ذلك حتى صار يفعله عامتهم. وقيل كان سببه أن قوماً من أعدائهم كانوا يقصدون غفلتهم إذا غابوا عن بيوتهم فيطرقون الحي فيأخذون المال والحريم، فأشار عليهم بعض مشايخهم أن يبعثوا النساء في زي الرجال إلى ناحية ويقعدوا هم في البيوت ملثمين في زي النساء، فإذا أتاهم العدو ظنوهم النساء فيخرجون عليهم، ففعلوا ذلك وثاروا عليهم بالسيوف فقتلوهم، فلزموا اللثام تبركاً بما حصل لهم من الظفر بالعدو.

وقال شيخنا الحافظ عز الدين ابن الأثير في تاريخه الكبير ما مثاله: وقيل إن سبب اللثام لهم أن طائفة من لمتونة خرجوا مغيرين على عدو لهم فخالفهم العدو إلى بيوتهم، ولم يكن بها إلا المشايخ والصبيان والنساء، فلما تحقق المشايخ أنه العدو أمروا النساء أن تلبس ثياب الرجال ويتلثمن ويضيقنه حتى لا يعرفن، ويلبسن السلاح، ففعلن ذلك، وتقدم المشايخ والصبيان أمامهن واستدار النساء بالبيوت، فلما أشرف العدو رأى جمعاً عظيماً فظنه رجالاً وقالوا: هؤلاء عند حريمهم يقاتلون عنهن قتال الموت، والرأي أن نسوق النعم ونمضي، فإن اتبعونا قاتلناهم خارجاً عن حريمهم، فبينما هم في جمع النعم من المراعي إذ أقبل رجال الحي، فبقي العدو بينهم وبين النساء، فقتلوا من العدو وأكثروا وكان من قبل النساء أكثر، فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلازمونه فلا يعرف الشيخ من الشاب ولا يزيلونه ليلاً ولا نهاراً.

ومما قيل في اللثام:

قومٌ لهم درك العلا في حمير ... وإن انتموا صنهاجة فهم هم [1]

لما حووا إحراز كل فضيلة ... غلب الحياء عليهم فتلثموا

وكان يوسف بن تاشفين مقدم جيش أبي بكر ابن عمر[2] الصنهاجي، وخرج من سجلماسة في سنة أربع وخمسين وأربعمائة، وكان أبو بكر ابن عمر قد أتى سجلماسة

---

(1) هامش المختار: خ وغذا دعوا لمتونة.

(2) أخباره في الحلل الموشية والمن بالإمامة وروض القرطاس ونظم الجمان والمعجب وأعمال الأعلام وتاريخ ابن خلدون والأنيس المطرب والاستقصا والبيان المغرب.

في سنة ثلاث وخمسين وحاصرها، وقاتل أهلها أشد قتال وأخذها، ثم رتب عليها يوسف بن تاشفين فكان ما كان.

أخبار الزمان

حام بن نوح عليه السلام

يقول أهل الأثر إن نوحاً عليه السلام دعا عليه بتشويه الوجه وسواده، وأن يكون ولده عبيداً لولد سام.

فولد له بعد كنعان كوش، فكان أسود، فهم أن يقتل امرأته فمنعه سام، وذكره دعاء أبيه عليه فغضب، ونزغ الشيطان بين الاخوة وحمل بعضهم على بعض، وكان آخر أمر حام أن هرب الى مصر، وتفرق بنوه، ومضى على وجهه يؤم المغرب حتى انتهى إلى الأقصى، إلى موضع يعرف اليوم بأصيلا، وهو آخر مرسى تبلغه مراكب البحر من نحو الأندلس إلى ناحية القبلة، وليس بعده للمركب مذهب. فيقال أن بنيه اغتموا لمكانه، وندموا على تركه، فخرجوا على أثره يطلبونه في النواحي التي قصدها، فيقال أن منهم طوائف وقعت عليه، فكانوا معه إلى أن مات وقطنوا ذلك البلد وسكنوا به وهم أصناف السودان فكل طائفة من ولده بلغت موضعاً فيطلبه فانقطع خبره عنهم أقاموا بذلك الموضع وتناسلوا فيه، ولم يصل إليه إلا بنوه فقط.

ولما مات حام خرج بعضهم من ذلك الموضع فأقاموا بمكان البربر، وكان عمر حام أربعمائة سنة وإحدى واربعين سنة. ولما مات دفنه بنوه في صخرة منقوبة في جبل أصيلا.

ذكر كنعان ابن حام

هو أكبر ولد حام وهو أول من غير دين نوح عليه السلام، وألقى العداوة بينه وبين بني جده من الجبابرة والكنعانيين الذين كانوا بالشام، ويقال فراعنة مصر منهم، وجالوت منهم الذي قتله داود عليه السلام فهؤلاء العمالقة، لأن العمالقة هم من ولد حام، ومن هؤلاء الكنعانيون الذين قاتلهم موسى عليه السلام، ويوشع بن النون من بعده وهم الذين عنى الله عز وجل بقوله "أن فيها قوماً جبارين" وكانت خلقهم عظيمة.

وفيما يقال أن كنعان الأصغر رتبهم في ناحية الشام والجزيرة ومن ولده فوسطن وصبرا ونهما وسمساوس، ومن ولده نبيط، والنبيط هو السواد وقيل

سموا بذلك لأنهم استنبطوا الأرض وعمروها وكانوا اصحاب عمارة وتدبير.

ومن ولد سودان بن كنعان امم منهم الأشبان والزنج وأجناس كثيرة تناسلت بالمغرب نحو سبعين جنساً وهم مختلفون في أفعالهم، ولهم ملوك.

ومنهم أجناس يلبسون الجلود وهم عراة، ومنهم من يتزر بالحشيش، ومنهم قوم يعملون لرؤوسهم قرونا من عظام الدواب، وعندهم فأر ابيض يأكلونه ويسمونه منَّ السماء.

ويتزوج الواحد منهم عشرة نسوة يبيت كل ليلة عند اثنتين منهن، فان جامعهن على ما تحب وإلا طلقهن الملك بعد ثالثة.

وبينما اجدبوا، فاذا أرادوا ان يستسقوا جمعوا عظاماً فكوموها كالتل، ثم أضرموها بالنار، وداروا حولها ورفعوا أيديهم الى السماء، وتكلموا بكلام فينزل المطر ويسقوا.

فاذا اعرس أحدهم لطخوا وجهه بشيء يشبه الحبر، ثم أجلسوه على تل، وجلسوا على تل واجلسوا المرأة بين يديه وجعلوا قصبا مثل القبة، وستروها بشيء من الحشيش وأقاموا حولها ثلاثة أيام يشربون نبيذ الذرة ويلعبون، ثم ينصرفون ويأخذ الزوج امرأته ويسيربها الى موضع سكناه.

ويلبسون حلق النحاس في ايديهم وآذان نسائهم، ويحمل اليهم الكرداونية التي تصبغ بالحمرة يلبسونها ولا يلبسها منهم إلا الملك.

ولهم شجرة عظيمة يعملون لها عيدا في كل سنة يجتمعون عندها، يلعبون حولها حتى يسقط عليهم ورقها فيتبركون به ويزينون المرأة بحلق النحاس والودع في شعرها.

ومن ولد سودان الكركر وبهم سميت المملكة، التي هي اعظم ممالك السودان وأجلها قدراً، وكل ملك لهم يعطي ملك الكركر حق الطاعة، وتنسب الى الكركر ممالك كثيرة.

ومملكة عانة وملكها ايضاً عظيم الشأن، ويتصل ببلاد معادن الذهب وبها منهم امم عظيمة، ولهم خط لا يجاوزه من صدر اليهم فاذا وصلوا الى ذلك الخط جعلوا الأمتعة والأكسية عليه وانصرفوا، فيأتون أولئك السودان، ومعهم الذهب فيتركونه عند الأمتعة وينصرفون، ويأتي اصحاب الأمتعة فإن أرضاهم وإلا عادوا ورجعوا فيعود من السودان، فيزيدونهم حتى تتم المبايعة

كما يفعل التجار الذين يبتاعون القرنفل من أهله سواء بسواء، وربما رجع التجار بعد زوالهم مختفين فوضعوا النيران في الأرض، فيسيل الذهب فتسرقه التجار. ثم يهربون لأن الأرض كلها ذهب عندهم ومعدن ظاهر، وربما فطنوا لهم فيخرجون في آثارهم، فإن أدركوهم قتلوهم.

وفي صحاريهم معادن الأشبار سم ويكبر حتى يظهر مثل الحصى الظاهر في الرمل وكل ما يحصل للتجار من الذهب يضربونه بمدينة سجلماسة، وهي مدينة كبيرة فيها أربعة جوامع وشارع يسار منه نصف يوم، وفيها نخيل كثير وفيها يضربون الدنانير.

وتحت يد ملك غانة عدة ملوك وممالك كلها فيها الذهب ظاهر على الأرض يستخرجه أهله، ويعملونه مثل اللبن.

ومن الأجناس المشهورة منهم ملك الدهدم يسار اليها من كركر على شاطئ البحر مغربا من هؤلاء ويحارب بعضهم بعضاً، ويأكلون الناس، ولهم ملك كبير تحت يده ملوك، وفي بلده قلعة عظيمة في صورة امرأة يتأهبون لها ويحجون اليها.

ومملكة الزغاوة واسعة كبيرة، منها على النيل مما يحاذي النوبة، ويحاربون النوبة.

ومملكة توان وهي كبيرة، ويسار فيها يوماً واحداً فيوجد فيها مومياء في ابيار غير انها تتحرك مثل الزئبق، وهذه الآبار في بقعة واحدة مقدارها نصف ميل بنوا عليها حصنًا وهم يستعملون المومياء. ويقال البقعة بمغرا من الصحراء.

وممالك النوبة وهم من ولد نوبا بن قوط بن مصر بن حام لأنهم لما صار جدهم الى مصر مع مصر مات مصر وبقي بنوه فتولى امره بعده قبطم وثبت القبط بمصر، وهو من أولاد قبطم بن مصر. ووجه قبطم اخوته يسعون في البلاد لطلب ممالك وعيش، فخرج نوب بن قوط بأهله وولده وسار على عبر النيل فملكوا هنالك.

ويقال لمدينتهم العظمى دنقله، وبلادهم بلاد نخل وزرع ومقدار اتساعها شهران، وهم نصارى على دين اليعقوبية.

ويكون هؤلاء مملكة النوبة من ناحية الصعيد، وهم أوسع ملكاً وأعظم

خطراً وأصفى لوناً، ومسيرة ملكهم ثلاثة أشهر ومدينتهم العظمى يقال لها دخلولة وهم أيضاً نصارى وملكهم جليل، ولهم لباس وأساورة والذهب أيضاً عندهم يظهر على الارض، ولهم أيضاً نخل وكرم وهم أجناس كثيرة ولهم ملوك وبلدهم واسع.

مملكة البجة: وهي تلي النوبة وهي أيضاً ممالك عديدة، وهم بين النيل والبحر وفي كل مملكة ملك، فأول ممالك البجة من حد السودان وهي آخر عمل المسلمين، والمسلمون يعملون عندهم في المعادن ووراء ذلك ممالك ومدن.

وتتصل بهم الحبشة وهم من ولد حبش بن كوش بن حام. وأكبر ممالكهم مملكة النجاشي وهو على دين النصرانية، واسم مدينتهم الكبرى كفر، ولم تزل العرب على قديم الأيام تأتي هذه المملكة للتجارات.

وتتصل بمملكة الحبشة مملكة الزنج، وهم على البحر المالح، ولهم ممالك واسعة، وهم من ولد سودان بن كنعان، ولهم أيضاً ملوك عدة وممالك، واسم ملكهم الأكبر كوخه يكون بموضع يقال له نكد، وهو على البحر، يحدون أسنانهم حتى ترق، وهم كبار الأفواه نظاف الثغور على كثرة أكلهم السمك.

ولهم افيلة يبيعون أنيابها من تجار البلدان التي تقرب منهم، ولهم الجزائر التي يخرج منها الودع ويتحلون به، ويبيعونه، وهم أجناس كثيرة، ولهم ممالك.

وأما الكوكة فهم أمة لهم أربعة أملاك ملكوا الى أيلة الحجاز وبنى كل واحد منهم مدينة سماها باسمه، وجعلوا سائر الأرض خيما، وقسموها على ثلاثين كورة مقسومة على اربعة أعمال لكل عمل ثمانون كورة، ولكل عمل ملك يجلس في مدينة على منبر من ذهب، وفي كل عمل بربا وهو بيت الحكمة، وهيكل لأ حد الكواكب وفيه أصنام ذهب مرتبة له.

وكانت الاسكندرية لهم واسمها راقودة وجعلوا لها خمس عشرة كورة وجعلوا فيها كبار الكهنة ونصبوا في هياكلها من أصناف الذهب أكثر مما في غيرها، وقسموا الصعيد ثمانين كورة على أربعة أقسام.

وكان عدد مدن مصر الداخلة في كورها ثلاثين مدينة فيها جميع

العجائب والكور مثل اخميم وقفط وقوص والفيوم...

وكان الوليد ين دومع العملاقي [الفرعون] قد خرج في جيش عظيم يتنقل في البلدان، يغلب ملوكها ليسكن ما يوافق غرضه منها...

ثم سنح له ان يمشي حتى يقف على مخرج النيل، ويغزو من بناحيته من الامم فأقام ثلاث سنين يستعد لذلك، حتى اصلح جميع ما احتاج اليه. واستخلف عبده عوناً على البلد وخرج في جيش كثيف، وعدد عظيمة، فلم يمر بأمة إلا أبادها.

فيقال انه اقام في سفره سنين كثيرة وأنه مر على امم السودان وجاوزهم ومرعلى ارض الذهب، فوجد فيها مواضع فيها قضبان ثابتة وهي بلاد عانة.

ولم يزل الوليد يسير حتى بلغ البطيحة التي ينصب ماء النيل إليها من الانهارالتي تخرج من جبل القمر، وجبل شامخ عريض طويل، وإنما سمي جبل القمر لأن القمر لا يطلع عليه لأنه خرج كثيرا عن خط الاستواء، ونظراليه كيف يخرج النيل من تحته فيمر في طرائق كثيرة كالانهار الرقاق، فيصير بعضها إلى حظيرة عظيمة يجتمع فيها، ويصير بعضها الى حظيرة عظيمة، ثم يخرج من كل حظيرة نهر عظيم ينصب إلى حظيرة عظيمة يجتمع النهران فيها وهي البطيحة الكبيرة، وهي بعد خط الاستواء، وقبل الاقليم الاول، ويخرج من تلك البطيحة نهر واحد، ويجوز خط الاستواء ويجري إلى مصر ويمده نهر آخر من ناحية مكران يصب فيه عند اول جبل معظم في ثلث الاقليم الأول.

ويذكر أن هذين النهرين يزيدان وينقصان، فيهما التماسيح [= تماسيخ] وسمك كأمثال سمك النيل، ويخرج منه نهر عظيم على مقربة من آخر شرقي جبل القمر وحكي عن الوليد أنه وجد القصر الذين فيه قماقم النحاس الذي عملها هرمس الاول في وقت البودشير الاول بن قفطويم بن مصرايم بن حام بن نوح عليه السلام، وهي خمس وثمانون صورة جعلها جامعة لمن يخرج من الماء من الجبل، وبمعاقد وبمصاب مدبرة، يجري منها الى تلك الصور ويخرج من حلوقها على قياس معلوم واذرع معدودة معلومة...

ودخل مصر الوليد بن دومع العمالقي وملكها فاستباح أهلها وأخذ أموالها، وتتبع ما أمكنه الوصول إليه من كنوزها، وهبط إليه أيمن بالطاعة من الصعيد ومدنها سامعا له إذ كان عسكره من قبله، ومن أعانه بملكه وجيشه

حتى أخذ بثأر خاله انداحس وتم الامر للوليد على أعظم أمر.

وسار [الريان] على أمم السودان حتى بلغ إلى مملكة الزموم (في ق: الدمدم) الذين يأكلون

الناس، فخرجوا إليه عراة بأيديهم حراب الحديد، وخرج ملكهم على دابة عظيمة الخلق لها قرون، وكان جسيما أحمر العينين فصبر للحرب صبرا عظيما ثم ظفر به الريان، فانهزموا في أوحال وأدغال وغيران وجبال وعرة، فلم يتهيأ له أتباعهم فيها.

الشريشي

شرح المقامات الحريرية

وغانة بلد من بلاد السودان، وإليها ينتهي التجار. والمدخل إليها من سجلماسة. ومن سجلماسة إليها مسافة ثلاثة أشهر. ومن غانة إلى سجلماسة شهر ونصف ودون ذلك. وسبب ذلك أن الرفاق تتجهز إليها من سجلماسة بالأمتاع والأثقال. فتباع في غانة بالتبر فمن سافر إليها بثلاثين حملاً يرجع منها بثلاثة أحمال أو بحملين، واحد لركوبه وثان للماء بسبب المفازة التي في طريقها. حدثني غير واحد من تجارها أنهم يقطعون المفازة في ستة عشر يوماً، لا يرون فيها ماء إلا على ظهور الإبل. فأثمان أحمال الثلاثين جملاً يجتمع فيها من التبر ما يجعل في مزود واحد، فيطوون المراحل للخفة.

وغانة بلد مملكة السودان وانتشر الإسلام في أهلها، وبها مدارس للعلم. وبها من تجار المغرب كثير يدخلون للتجارة، فيصيبون الخصب والأمن وكثرة المتاجر. فيشترون بها خدماً للتسري ويقيمون بها عند أميرها في غانة الكرامة. والخدم فيها قد جعل الله فيهم من الخصال الكريمة في خلقهن وخلقهن فوق المراد من ملاسة الأبدان وتفتق السواد وحسن العينين واعتدال الأنوف وبياض الأسنان وطيب الروائح.

البكري

المسالك والممالك

ومن هذه الصحراء إلى زويلة يوم. وهي بجوفيّ مدينة أجدانية، وهو مدينة غير مسورة في وسط الصحراء، وهو أول حد بلاد السودان، وبها جامع وحمام وأسواق يجتمع بها الرفاق من كل جهة منها، ومنها يفترق قاصدهم وتتشعب طرقهم، وبها نخيل وبساط للزرع يسعى بالإبل، ولم فتح عمر برقة بعث عُقبة بن نافع حتى بلغ زويلة وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين. وبزويلة قبر دعبل بن علي الخزاعي الشاعر. قال بكر بن حماد كامل:

الموت غادر دعبلا بزويلة - وبأرض برقة أحمد بن خصيب.

وبين زويلة ومدينة أجدابية أربع عشر مرحلة. ولأهل زويلة حكمة في احتراس بلدهم، وذلك أن الذي عليه نوبة الاحتراس منهم يعمد إلى دابة فيشد عليها حزمة حطب كبيرة من جرائد النخل ينال سعفها الأرض، ثم يدور بها حوالي المدينة، فإذا أصبح من الغد ركب ذلك المحترس ومن يتبعه على جمال السروج وداروا بالمدينة، فإن رأو أثراً خارجاً من المدينة أتبعوه حتى يدركوه أينما توجه لصاً كان أو عبداً أو أمة أو بعيراً.

وزويلة من أطرابلس بين المغرب والقبلة، ويجلب من زويلة الرقيق إلى ناحية إفريقية وما هنالك ومبايعتهم بثياب قصار حمر. وبين زويلة وبلد كانم أربعون مرحلة، وهم وراء صحراء بلاد زويلة لا يكاد أحد يصل إليهم وهم سودان مشركون. ويزعمون أن هنالك قوماً من بني أمية صاروا إليها عند محنتهم بالعباسيين، وهم على زي العرب وأحوالها.

ومدينة سجلماسة بنيت سنة أربعين ومائة، وبعمارتها خلت مدينة تدغة وبينهما يومان وبعمارتها خلت زيز أيضاً. ومدينة سجلماسة مدينة سهلية أرضها سبخة، حولها أرباض كثيرة وفيها دور رفيعة ومبان سرية ولها بساتين كثيرة، وسورها أسفلها مبني بالحجارة وأعلاه بالطوب، بناه أليسع أبو منصور بن أبي القاسم من ماله لم يشركه في

الإنفاق عليه أحد، أنفق فيه ألف مدى طعام، ولها اثنا عشر باباً ثمانية منها حديد. وكان بناء أليسع له سنة تسع وتسعين ومائة، وارتحل إليها سنة مائتين وقسمها على القبائل على ما هي عليه اليوم. وهم يلتزمون النقاب، فإذا حسر أحدهم عن وجهه لم يميزه أحد من أهله.

وهي على نهرين وعنصرهما من موضع يقال له أجلف تمده عيون كثيرة، فإذا قرب من سجلماسة تشعب نهرين يسلك شرقيها وغربيها. وجامعها متقن البناء بناه أليسع فأجاده، وحماماتها رديئة البناء غير محكمة العمل. وماؤها زعاق وكذلك جميع ما ينبط من الماء بسجلماسة، وشرب زروعهم من النهر في حياض كحياض البساتين، وهي كثيرة النخيل والأعناب وجميع الفواكه، وزبيب عنبها المعرش الذي لا تناله الشمس لا يزبب إلا في الظل ويعرفونه بالظلي، وما أصابته الشمس منه زبب في الشمس.

ومدينة سجلماسة في أول الصحراء لا يعرف في غربيها ولا في قبليها عمران، وليس بسجلماسة ذباب ولا يتجذم من أهلها أحد، وإذا دخلها مجذم توقف عنه علته. وأهل سجلماسة يسمنون الكلاب ويأكلونها كما يصنع أهل مدينة قفصة وقسطيلية، ويأكلون الزرع إذا أخرج شطأه وهو عندهم مستطرف. والمجذمون عندهم هم الكنافون، والبناؤون عندهم يهود لا يتجاورهم هذه الصناعة.

ومن مدينة سجلماسة تدخل إلى بلاد السودان إلى غانة، وبينها وبين مدينة غانة مسيرة شهرين في صحراء غير عامرة إلا بقوم ظاعنين لا يطمئن بهم منزل، وهم بنو مسوفة من صنهاجة، ليس لهم مدينة يأوون إليها إلا وادي درعة، وبين سجلماسة ووادي درعة مسيرة خمسة أيام.

من تامدُلت إلى بئر الجمالين مرحة، وهذه البئر عمقها أربع قامات من أنباط عبد الرحمان بن حبيب. ومنها إلى شعب ضيق لا تسير فيه الإبل إلا متتابعة مرحلة. ثم تسير في جبل يمسى أزور ثلاثة أيام، وهو محجر تجفى فيه الإبل ينبت أم غيلان، ومن خرج فيه عن الطريق أصاب زبر حديد مثقبة لا تذيبه النار. وهذا الجبل كثير الثعابين، طوله مسيرة عشرة أيام من أول طريق سجلماسة إلى جانب البحر المحيط. ويقال إن جبل أزور متصل بجبل نفوسة من جبال أطرابلس، وأحسبه جبل درن المذكور قبل هذا الذي ينبعث من تحته وادي درعة. فتسير في هذا جبل ثلاثة أيام إلى ماء يسمى تندفس آبار يحتفرها المسافرون، فلا تلبث أن تنهار وتندفن. ثم تسير منه ثلاثة أيام إلى بئر

كبيرة يقال لها وين هيلون. ثم تمشي ثلاثة أيام في أرض سواء صحراء ربما وجد فيها الماء على صفاء تحت الرمل من بقية الأمطار، إلى ماء نزر يقال له تازقى وتفسيره البيت.

ثم تسير منه إلى بئر أنبطها عبد الرحمان بن حبيب واحتفرها في حجر أدعج صلب طولها أربع قامات مرحلة. ثم تسير منها إلى بئر يقال لها ويطونان وهو كبيرة لا تنزف، ماؤها زعاق يسهل شاربيه من الناس والأنعام، وهو من عمل عبد الرحمان بن حبيب أيضاً طولها ثلاث قامات، ثلاث مراحل. ثم تمسي منه في أربع مراحل إلى موضع يقال له أوكازنت أرض زرقاء، ينبط أهل الرفاق فيها الماء على ذراعين وثلاث. ثم تمشي في مجابة جبال رمل معترضة لا ماء فيها، وهو أصعب موضع بطريق أَوْدَغُسْت، أربعة أيام إلى موضع يقال له وانزميرن آبار قريبة الرشاء فيها العذب والشريب، وعليه جبل طويل صعب كثير الوحوش. وبهذا الماء يجتمع جميع طرق بلاد السودان، وهو موضع مخوف تغير فيه لمطة وجزولة على الرفاق ويتخذونه مرصداً لهم لعلمهم بإفضاء الطرق إليه وحاجة الناس إلى الماء فيه. ثم تمشي منه في بلد واران خمسة أيام مجابة في كثبان رمل إلى بئر عظيمة في حد بني وارث قبيل من صنهاجة، على تلك البئر شجر يقال له السقنى، وهو شجر الأهليلج إلا أنه لا يثمر.

ثم تسير منه يومين إلى ماء يقال له أغرف آبار ملحة تردها أذواد لصنهاجة فتصلح عليه وتصح به، وكل ماء ملح فموافق الإبل. ثم تسير منه ثلاثة أيام إلى موضع يقال له أقر تندى تفسيره مجتمع الماء فيه أصناف كثيرة من الشجر وفيه الحناء والحبق. ثم تسير منه يوماً في جبل يقال له أژجونان يقطع فيه السودان. ثم تمشي يوماً في رمال شجرة إلى ماء يقال له بئر واران ماؤها زعاق. ثم تمشي في أرض لصنهاجة كثيرة الماء من الآبار ثلاثة أيام. ثم تسير منه إلى شرف عال مشرف على أَوْدَغُسْت فيه طير كثير يشبه الحمام واليمام إلا أنه أصغر رؤوساً وأغلظ مناقر، وفيه أشجار الصمغ الذي يجلب إلى الأندلس يصمغ بها الذيباج، مرحلة. ثم إلى أَوْدَغُسْت.

وهي مدينة كبيرة آهلة رملية يطل عليها جبل كبير موات لا ينبت شيئاً، بها جامع ومساجد كثيرة آهلة في جميعها المعلمون للقرآن، وحولها بساتين النخل، ويزرعون فيها القمح والفوس وسقى بالدلاء يأكله ملوكهم وأهل اليسار منهم، وسائر أهلها يأكلون الذرة، والمقائي تجود عندهم. وبها جنان حناء لها غلة كبيرة، وبها آبار عذبة والغنم والبقر أكثر شيء عندهم، يشترى بالمثقال والواحد عشرة أكبش وأكثر. وعسلها

أيضاً كثير يأتيها من بلاد السودان. وهم أرباب نعم جزيلة وأموال جليلة، وسوقها عامرة الدهر كله لا يسمع الرجل فيها كلام جليسه لكثرة جمعه وضوضاء أهله. وتبايعهم بالتبروليس عندهم فضة.

وبها مبان حسنة ومنازل رفيعة، وهو بلد وبيء ألوان أهله مصفرة وأمراضهم الحميات والطحال لا يكاد يخلو من إحدى العلتين أحد منهم. ويجلب إليها القمح والثمر والزبيب من بلاد الإسلام على بعد. وسعر القمح عندهم في أكثر الأوقات القنطار بستة مثاقيل وكذلك الثمر والزبيب. وسكانها أهل إفريقية وبرقجانة ونفوسة ولواتة وزناتة ونفزاوة، هؤلاء أكثرهم، وبها نبذ من سائر الأمصار. وبها سودانيات طباخات محسنات تباع الواحد منهم بمائة مثقال وأكثر، تحسن عمل الأطعمة الطيبة من الجوزينقات والقطائف وأصناف الحلوات وغير ذلك. وبها جوار حسان والوجوه بيض الألوان منثنيات القدود لا تنكسر لهن نهود، لطاف الخصور ضخام الأرداف واسعات الأكتاف ضيقات الفروج المستمتع بإحداهن كأنه يتمتع ببكر أبداً.

قال محمد بن يوسف: أخبرني أبو بكر أحمد بن خلوف الفاسي شيخ من أهل الحج والخير قال: أخبرني أبو رستم النفوسي وكان من تجار أَوْدَغُسْت أنه رأى منهن امرأة راقدة على جنبها، وكذلك يفعلن في أكثر حالهن إشفاقاً من الجلوس على أردافهن، ورای ولدها طفلاً يلاعبها ويدخل من تحت خصرها وينفذ من الجهة الأخرى من غير أن تتجافى له شيئاً لعظم ردفها ولطف خصرها. والحيوان الذي يعمل منه الدرق حوالي أَوْدَغُسْت كثير جداً. ويتجهز إلى أَوْدَغُسْت بالنحاس المصنوع وبثياب مصبغ بالحمرة والزرقة مجنحة، ويجلب منها العنبر المخلوق الجيد لقرب البحر المحيط منهم. والذهب الإبريز الخالص خيوطاً مفتولة، وذهب أَوْدَغُسْت أجود ذهب الأرض وأصحه.

وكان صاحب أَوْدَغُسْت في عشر الخمسين وثلاث مائة تين يروتان بن ويسنو بن نزار رجل من صنهاجة، وكان قد دان له أزيد من عشرين ملكاً من ملوك السودان كلهم يؤدون إليه الجزية، وكان عمله مسيرة شهرين في مثلها في عمارة يعتد في مائة ألف نجيب، واستمده معد بن ملك ماسين على ملك أوغام فأمده بخمسين ألف نجيب، فدخلت بلاد أوغام وعساكره غافلة، فغنمت البلد وأحرقته. فلما نظر أوغام إلى ما حل ببلده هان عليه الموت فرمى بدرقته وثنى رجله عن دابته وجلس عليها، فقتلته أصحاب تين يروتان. فلما عاينت نساء أوغام إليه قتيلاً تردين في الآبار

وقتلن أنفسهن بضروب القتل أسفاً عليه وأنفة من أن يملكهن البيضان.

فأما الطريق من أَوْدَغُسْت إلى بلد سجلماسة فمن أَوْدَغُسْت إلى تامدلت على ما ذكرنا أيضاً، وذلك أربعون مرحلة. ومن تامدلت إلى سجلماسة على ما ذكرناه قبل هذا إحدى عشرة مرحلة. فذلك إحدى وخمسون مرحلة. وبين أَوْدَغُسْت ومدينة القيروان مائة مرحلة وعشر مراحل.

الطريق من وادي درعة في الصحراء إلى بلاد السودان

من وادي درعة خمس مراحل إلى وادي تارجا، وهو أول الصحراء. ثم تمشي في الصحراء فتجد الماء على اليومين والثلاثة حتى تصل إلى رأس المجابة إلى البئر المسماة تزامت بئر معينة غير عذبة، وهو إلى الملوحة أقرب، قد أنبطت في حجر صلد من عمل الأول، ويزعم قوم أن بني أمية صنعتها. وفي الشرق منها بئر تسمى بئر الجمالين، وعلى مقربة منها أيضاً بئر تسمى ناللي كلها غير عذبة، وبين هذه الآبار الثلاث وبلاد الإسلام مسيرة أربعة أيام. ومنها إلى جبل يسمى بالبربرية آدْرارْ أنْ وَزّالْ تفسيره جبل الحديد مثل ذلك. ومن هذا الجبل مجابة ماؤها على ثمانية أيام، وهي المجابة الكبرى، وذلك الماء في بني يتتسر من صنهاجة، ومن بني يتتسر إلى قرية تسمى أمّودگن لصنهاجة أيضاً. ومنها إلى مدينة غانة أربعة أيام.

ومن الآبار الثلاثة المذكورة مجابة ماؤها على أربعة أيام إلى ايزل، وهو جبل في الصحراء، إلى قبيل من صنهاجة يعرفون ببني لمتونة ظواعن رحالة في الصحراء، مراحلهم فيه مسيرة شهرين في شهرين ما بين بلاد السودان وبلاد الإسلام ويصيفون في موضع يسمى أمطلوس وآخر يسمى تاليوين، وهم إلى بلاد السودان أقرب. وبينهم وبلاد السودان نحو عشر مراحل، وليس يعرفون حرثاً ولا يزرعون زرعاً ولا يعرفون خبزاً، إنما أموالهم الأنعام وعيشهم من اللحم واللبن ينفد عمر أحدهم ولا رأى خبزاً ولا أكله إلا أن يمر بهم التجار من بلاد الإسلام أو بلاد السودان فيطعمونهم الخبز ويتحفونهم بالدقيق، وهم على السنة مجاهدون للسودان.

وكان رئيسهم محمد المعروف بتارشنى من أهل الفضل والخير والدين والحج والجهاد، وهلك بموضع يقال له قنقارة - وقيل گنگارة - من بلاد السودان، وهم قبيل من السودان بغربي مدينة بنكلابين، وهي مدينة يسكنها جماعة من المسلمين يعرفون ببني وارث من صنهاجة. وخلف بي لمتونة قبيلة من صنهاجة تسمى بني جدالة وهم

يجاورون البحر وليس بينهم وبينه أحد.

وهذه القبائل هي التي قامت بعد الأربعين وأربعمائة بدعوة الحق ورد المظالم وقطع جميع المغارم، وهم على السنة ومتمسكون بمذهب مالك بن أنس رضه، وكان الذي نهج ذلك فيهم ودعا الناس إلى الرباط ودعوة الحق عبد الله بن ياسين. وذلك أن رئيسهم كان يحيى بن إبراهيم من بني جدالة وحج في بعض السنين ولقي في صدره عن حجة الفقيه أبا عمران الفاسي، فسأله أبو عمران عن بلده وسيرته وما ينتحلونه من المذاهب، فلم يجد عنده علماً بشيء إلا أنه رآه حريصاً على التعلم صحيح النية واليقين، فقال له: ما يمنعكم من تعلم الشرع على وجهه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال له: لا يصل إلينا إلا معلمون لا ورع لهم ولا علم بالسنة عندهم. ورغب إلى أبي عمران أن يرسل معه من تلاميذه من يثق بعلمه ودينه ليعلمهم ويقيم أحكام الشريعة عندهم، فلم يجد أبو عمران فيمن رضيه من يجيبه إلى السير معه. فقال له أبو عمران: إني قد عدمت بالقيروان بغيتكم وإن بملكوس فقيهاً حاذقاً ورعاً قد لقيني وعرف ذلك منه يقال له وجاج بن زلوي، فمر به فربما ظفرت عنده بيغيتك.

فجعل ذلك يحيى بن إبراهيم أوكد همه فنزل به وعلمه ما جرى له مع أبي عمران. فاخار له وجاج من أصحابه رجلاً يقال له عبد الله بن ياسين، واسم أمه تين يزامارن من أهل جزولة من قرية تسمى تماماناوت في طرف صحراء مدينة غانة، فوصل به إلى موضعه واجتمعوا للتعلم منه والانقياد له في سبعين رجلاً. فغزوا بني لمتونة وحاصروهم في جبل لهم فهزموهم وجعلوا ما اتخذوا من أموالهم مغنماً، فلم يزل أمرهم يقوى واستعملوا على أنفسهم يحيى بن عمر بن تلاجاجين وعبد الله بن ياسين مقيم فيهم متورعاً عن أكل لحمانهم وشرب ألبانهم لما كانت أموالهم غير طيبة، وإنما كان عيشه من صيد البرية. ثم أمرهم ببناء مدينة سموها أرتنني وأمرهم أن لا يشف بناء بعضهم على بناء بعض، فامتثلوا ذلك وهم يسمعون له ويطيعون إلى أن نقموا عليه أشياء يطول ذكرها، وكأنهم وجدوا في أحكامه بعض التناقض.

فقام عليه فقيه منهم كان اسمه الجوهر بن سكم مع رجلين من كربائهم يقال لأحدهما أيار وللآخر أينتكوا، فعزلوه عن الرأي والمشورة وقبضوا منه بيت مالهم وطردوه وهدموا داره وأنهبوا ما كان فيها من أثاث وخرثي. فخرج مستخفياً من قبائل صنهاجة إلى أن أتى وجاج بن زلوي فقيه ملكوس. فعاتبهم وجاج على ما كان منهم إلى عبد الله وأعلمهم أن من خالف أمر عبد الله فقد فارق الجماعة وأن دمه هذر، وأمر

عبد الله بالرجوع إليهم فرجع وقتل الذين قاموا عليه وقتل خلقاً كثيراً ممن استوجب القتل عنده لجراية أو فسق واستولى على الصحراء كلها. وأجابه جميع تلك القبائل ودخلوا في دعوته والتزموا السنة به. ثم نهضوا إلى لمطة وسألوهم ثلث أموالهم ليطيب لهم بذلك الثلثان، وهكذا سن لهم عبد الله في الأموال المختلطة، فأجابوهم إلى ذلك ودخلوا معهم في دعوتهم.

وأول ما أخذوا من البلاد المخالفة لهم درعة، ولهم في قتالهم شدة وجلد ليس لغيرهم، وهم يختارون الموت على الانهزام ولا يحفظ لهم فرار من زحف، وهم يقاتلون على الخيل والنجب وأكثر قتالهم رجالة صفوفاً بأيدي الصف الأول القنى الطوال للمداعيسة والطعان، وما يليه من الصفوف بأيديهم المزاريق يحمل الرجل الواحد منها عدة يزرقها فلا يكاد يخطئ ولا يشوى. ولهم رجل قد قدموه أمام الصف بيده الراية، فهم يقفون ما وقفت منتصبة، وإن أمالها إلى الأرض جلسوا جميعاً فكانوا أثبت من الهضاب، ومن فر أمامهم لم يتبعوه. وهم يقتلون الكلاب لا يستصحبون منها شيئاً.

وكان يحيى بن عمر أشد الناس انقياداً لعبد الله بن ياسين وامتثالاً لما يأمره به، ولقد حدث جماعة أن عبد الله قال له في بعض تلك الحروب: أيها الأمير إن عليك حقاً أدباً. فقال له يحيى: فما الذي أوجبه علي؟ قال له عبد الله: إني لا أخبرك به حتى أؤدبك وآخذ حق الله منك. فطاع له الأمير بذالك وحكمه في بشرته فضربه الفقيه ضربات بالسوط، ثم قال له: الأمير لا يدخل القتال بنفسه لأن حياته حياة عسكره وهلاكه هلاكهم.

وغزا المرابطون مدينة سجلماسة بعد أن خاطبوا أهلها ورئيسهم مسعود بن وانودين المغراوي، فلم يجيبوهم إلى ما أرادوا، فغزوهم في جيش عدتة ثلاثون ألف جمل سرج، فقتلوا مسعوداً واستولوا على مدينة سجلماسة وتخلفوا فيها جماعة منهم، ثم عادوا إلى بلادهم. فغدر أهل سجلماسة بالمرابطين بالمسجد فقتلوا منهم عدداً كثيراً، وذلك سنة ست وأربعين وأربعمائة. وندم أهل سجلماسة على ما فعلوا وتواترت رسلهم على عبد الله بن ياسين أن يرجع عليهم العساكر ويذكرون أن زناتة زحفت إليهم، فندب عبد الله المرابطين إلى غزو زناتة ثانية، فأبوا عليه وخالف عليه بنو جدالة وذهبوا إلى ساحل البحر. فأمر عبد الله الأمير يحيى أن يتحصن بجبل لمتونة، وهو جبل منيع كثير الماء والكلأ في طوله مسافة ستة أيام وفي عرضه مسافة يوم، وهناك حصن

يسمى أركى حوله نحو عشرين ألف نخلة كان بناه يانو بن عمر الحاج أخو يحيى بن عمر.

فصار يحيى في جبل لمتونة، وذهب عبد الله بن ياسين إلى مدينة سجلماسة في مائتي رجل من قبائل صنهاجة ونزل موضعاً يقال له تامدولت حصن فيه مياه ونخل كثير، ويشرف عليه جبل فيه معدن فضة معلوم هناك. فاجتمع لعبد الله جيش كثيف من سرطة وترجة ولهم هناك حصون. وكان أبو بكر بن عمر بدرعة مع أحمد بن أمدجنو، فأمّره عبد الله مكان أخيه يحيى المتخلف بجبل لمتونة. ثم رجعت جيوش بني جدالة إلى يحيى بن عمر فحاصروه في الجبل، وذلك سنة ثمان وأربعين، وهم في نحو ثلاثين ألفاً. وكان مع يحيى أيضاً عدد كثير، وكان معه لبّي بن ورجاي رئيس تكرور، وكان التقاؤهم هناك بموضع يسمى تيفريلى بين تاليوين وجبل لمتونة. فقُتل يحيى بن عمر رحمه الله وقتل معه بشر كثير، وهم يذكرون أنهم يسمعون في هذا الموضع أصوات المؤذنين عند أوقات الصلوات، وهم يتحامونه ولا يدخله أحد ولا أخذ منع سيف ولا درقة ولا سيء من أسلحتهم ولا ثيابهم. ولم يكن للمرابطين بعد كرة إلى بين گدالة.

وفي سنة ست وأربعين غزا عبد الله بن ياسين أَوْدَغُسْت، وهو بلد قائم العمارة مدينة كبيرة فيها أسواق ونخل كثير وأشجار الحناء، وهي في العظم كشجر الزيتون، وهي كانت منزل ملك السودان المسمى بغانة قبل أن يدخل العرب غانة، وهي متقنة المباني حسنة المنازل، ومسافة ما بينها وبين سجلماسة مسيرة شهرين وبينها وبين مدينة غانة خمسة عشر يوماً. وكان يسكن هذه المدينة زناتة مع العرب وكانوا متباغضين متدابرين، وكانت لهم أموال عظيمة ورقيق كثير كان للرجل منهم ألف خادم وأكثر. فاستباح المرابطون حريمها وجعلوا جميع ما أصابوا فيها فيئاً، وقتل فيها عبد الله بن ياسين رجلاً من العرب المولدين من أهل القيروان معلوماً بالورع.

الشريشي

شرح المقامات الحريرية

وغانة بلد من بلاد السودان، وإليها ينتهي التجار. والمدخل إليها من سجلماسة. ومن سجلماسة إليها مسافة ثلاثة أشهر. ومن غانة إلى سجلماسة شهر ونصف ودون ذلك. وسبب ذلك أن الرفاق تتجهز إليها من سجلماسة بالأمتاع والأثقال. فتباع في غانة بالتبر فمن سافر إليها بثلاثين حملاً يرجع منها بثلاثة أحمال أو بحملين، واحد لركوبه وثان للماء بسبب المفازة التي في طريقها. حدثني غير واحد من تجارها أنهم يقطعون المفازة في ستة عشر يوماً، لا يرون فيها ماء إلا على ظهور الإبل. فأثمان أحمال الثلاثين جملاً يجتمع فيها من التبر ما يجعل في مزود واحد، فيطوون المراحل للخفة.

وغانة بلد مملكة السودان وانتشر الإسلام في أهلها، وبها مدارس للعلم. وبها من تجار المغرب كثير يدخلون للتجارة، فيصيبون الخصب والأمن وكثرة المتاجر. فيشترون بها خدماً للتسري ويقيمون بها عند أميرها في غانة الكرامة. والخدم فيها قد جعل الله فيهم من الخصال الكريمة في خلقهن وخلقهن فوق المراد من ملاسة الأبدان وتفتق السواد وحسن العينين واعتدال الأنوف وبياض الأسنان وطيب الروائح.

ابن قتيبة

كتاب المعارف

(KL 1:21)

قال وهب بن مُنَبِّه أن حام بن نوح كان رجلاً أبيض حسن الوجه والصورة، فغيّر الله عز وجل لونه وألوان ذريته من أجل دعوة أبيه، وأنه انطلق وتبعه ولده فنزلوا على ساحل البحر. فكثرهم الله وأنماهم، فهم السودان. وكان طعامهم السمك فحدّدوا أسنانهم حتى تركوها مثل الإبر، لأن السمك كان يلصق بها. ونزل بعض ولده المغرب. فولد حام كوش بن حام وكنعان بن حام وفوط بن حام. فأما فوط فسار فنزل أرض الهند والسند، فأهلها من ولده. وأما كوش وكنعان فأجناس السودان: النوبة والزنج والقران والزغاوة والحبشة والقبط وبربر من أولادهما.

البيروني

كتاب الجماهر في معرفة الجواهر

وبسفالة الزنج ذهب في غاية الحمرة يوجد على تدوير الخرز في أرض سودان المغرب. يبلغها الموغل فيها كما قيل في اعتساف أمثال تلك البراري في مثل المدة المذكورة، يتعذر إلا بالاقتدار على حمل المزاد إن كانت الغلة فيها مزاحة. ثم نعلق بعد هذا خرافات.

وذلك أن من رسم تجار البحر في مبايعات الزابج والزنج أن لا ياتمنونهم في العقود وإنما تجيء رؤساؤهم وكبارهم ويرهنون أنفسهم حتى يستوثق منهم بالقيود ويدفع إلى قومهم ما أرادوا من الأمتعة ليحملوها إلى أرضهم ويقتسموها فيها بينهم. ثم إنهم يخرجون إلى الصحارى في طلب أثمانها، ولا يجد كل واحد من الذهب في تلك الجبال إلا بمقدار ما خصه من المبلغ زعموا. ويكون الموجود على مثال النوى وما أشبهها فيجيئون به إلى المراكب ويسلمونه إلى مراكبهم ورهائنهم حتى يؤدوه. ويرفعون الوثاق عنهم ويطلقون بالمبار والتحف. ويغسل التجار ذلك الذهب أو يحمونه بالنار احتياطاً، فإنهم يحكون عن واحد أنه جعل من ذلك الذهب قطعة في فيه فمات لوقته...

وقد يضاف إلى ما قلنا أساطير أخر في نبت الذهب في تلك البراري كالخرز، وأنه لا يعثر عليه إلا عند طلوع الشمس بلمعان شعاعها عليه - فأما تلك الأراضي وبراري السودان كلها فإنها في الأصل من حمولات السيول المنحدرة من جبال القمر والجبال الجنوبية عليه منكبسة كانكباس أرض مصر بعد أن كانت بحراً. وتلك الجبال مذهبة وشديدة الشهوق، فيحمل الماء إليها بقوته القطع الكبار من الذهب سبائك تشبه الخرز وبها سمي النيل أرض الذهب. - وأما وجوده عند طلوع الشمس فلشدة الحر لأن ظلام الليل يمنع عن طلبه وضوء النهار كذلك لاقتران الحر به، ولم يبق غير الغداة فإن آخر الليل أبرد أوقاته، وأول النهار رديفة لم يحتدم بعد متوعه. وليس بريق الذهب الخالص ولمعانه في الشعاع بمستبدع خاصة إذا كان غب الندى فطلاب الكنوز في

المدن العتيقة الخربة يقصدونها بعد إقلاع الأمطار - وقال ربيعة بن مقروخ الضبي

هجـــان الحـــي كالـــذهب المـــصفي صـــبيحة ديمـــة يجنـــيه جانـــي

وأما فرض الوجود على قدر إثمان ما حملوا من الأمتعة فاعلمي يا أم عمرو أن ذلك دليل على الغزارة التي تمكن في كل وقت وجود الحاجة منه فلا تلجئ العزة والعوز إلى الادخار والكنز مع سلامة الباعثة على اهتمام للغد. - فالزنجي إذا تمكن من وتر في كنكلة ووجد من الأطواق السائلة من النارجيل ما يسكره لم يعبأ بالدنيا واحتسب ما فيها من ذلك أنه ملكها بحذافيرها. - وفي أرض أولئك السودان معادن ليس في معادن سائر البلدان أغزر ريعاً منها ولا أصفى ذهباً، إلا أن المسالك إليها شاقة من جهة المفاوز والرمال. وسكان تلك البلاد ينقبضون عن مخالطة قومنا. ولذلك يستعد لها التجار من سجلماسة في حد تاهرت من أقاصي أرض المغرب بالزاد الكافي والماء الوافي. ويحملون إلى السودان الذين هم وراء تلك القيافي أثواب بصرية تعرف بالمبجبجات عرفوا ولوعهم بها. وهي حمر الأطراف ملونة بصنوف الألوان معلمة بالذهب. ويبايعونهم بالذهب بالاشارات من بعيد والمعاينات بشرط التراضي، بسبب العجمة وفر النفار عن البيضان كنفار البهائم عن السباع. ولا يرغبون في شيء غير تلك الأثواب. فإنهم يتهافتون عليها.

وتلك المعادن فيما بين بواطن السودان وبين زويلة من بلاد المغرب - ولأن أرض البجة من أشباه تلك الكنائس وأواخر بين النيل وبحر القلزم. فإنها خصت لذلك بمعادن الذهب على مسافة بضع عشرة يوماً من أسوان، كما ذكر في كتاب أشكال الأقاليم، ينتهي بعدها إلى حصن عيذاب وهو للحبشة ويسمى مجمع الناس هناك لاستنباط الذهب من الرمال والرضراض تحت أرض مبسوطة ليس فيها جبل العلاقي ووجوه الدخل منها إلى مصر...

وفي سفالة الزنج نحاس في غاية الجودة، لا يسود على النار بل يطوس ويحملون عليه الرصاص فيصير كالشبه وينقاد للأنطراق لا كالصفر في إبائه إياه.

الهمداني

كتاب الجوهرتين

(124 - ب)

معادن الذهب في بلاد الأعاجم: أما أغزر معادن الأرض الذهبية فمعدن غانة بأرض المغرب، مغرب مصر. وتحول دونه المفاوز والمخافة من سودان المغرب. فإذا وصل واصل أوقر ركابه، وذلك أن عروق الذهب وأعيانه وطرائده ونعاله وألسنته بها كثيرة. فيُقرض ويُحمل. خبرني بذلك إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمان صاحب دار الضرب بصنعاء وصعدة على ما تناهي إليه وخُبر به.

القزويني

عجائب المخلوقات و آثار البلاد

بلاد التبر

هي بلاد السودان في جنوب المغرب؛ قال ابن الفقيه: هذه البلاد حرها شديد جداً. أهلها بالنهار يكونون في السراديب تحت الأرض، والذهب ينبت في رمل هذه البلاد كما ينبت الجزر بأرضنا، وأهلها يخرجون عند بزوغ الشمس ويقطفون الذهب، وطعامهم الذرة واللوبيا، ولباسهم جلود الحيوانات، وأكثر ملبوسهم جلد النمر، والنمر عندهم كثير.

ومن سجلماسة إلى هذه البلاد ثلاثة أشهر، والتجار من سجلماسة يمشون إليها بتعب شديد، وبضايعهم الملح وخشب الصنوبر وخشب الأرز، وخرز الزجاج والاسورة والخواتيم منه، والحلق النحاسية.

وعبورهم على براري معطشة، فيها سمايم بماء فاسد لا يشبه الماء إلا في الميعان، والسمايم تنشف المياه في الأسقية، فلا يبقى الماء معهم إلا أياماً قلائل. فيحتالون بأن يستصحبوا معهم جمالاً فارغة من الأحمال، ويعطشونها قبل ورودهم الماء الذي يدخلون منه في تلك البراري، ثم أوردوها على الماء نهلاً وعللاً حتى تمتلي أجوافها، ويشدون أفواهها كي لا تجتر فتبقى الرطوبة في أجوافها، فإذا نشف ما في أسقيتهم واحتاجوا إلى الماء، نحروا جملاً جملاً وترمقوا بما في بطونها، وأسرعوا بالسير حتى يردوا مياهاً أخرى، وحملوا منها في أسقيتهم.

وهكذا ساروا بعناء شديد حتى قدموا الموضع الذي يحجز بينهم وبين أصحاب التبر، فعند ذلك ضربوا طبولاً ليعلم القوم وصول القفل. يقال: انهم في مكان وأسراب من الحر وعراة كالبهائم لا يعرفون الستر. وقيل: يلبسون شيئاً من جلود الحيوان، فإذا علم التجار أنهم سمعوا صوت الطبل أخرجوا ما معهم من البضائع المذكورة، فوضع كل تاجر بضاعته في جهة منفردة عن الأخرى وذهبوا وعادوا مرحلة فيأتي السودان بالتبر، ووضعوا بجنب كل متاع شيئاً من التبر وانصرفوا. ثم يأتي التجار بعدهم فيأخذ

كل واحد ما وجد بجنب بضاعته من التبر ويترك البضاعة، وضربوا بالطبول وانصرفوا، ولا يذكر أحد من هؤلاء التجار أنه رأى أحداً منهم.

بلاد السودان

هي بلاد كثيرة وأرض واسعة، ينتهي شمالها إلى أرض البربر، وجنوبها إلى البراري، وشرقها إلى الحبشة، وغربها إلى البحر المحيط. أرضها محترقة لتأثير الشمس فيها، والحرارة بها شديدة جداً لأن الشمس لا تزال مسامتة لرؤوسهم، وأهلها عراة لا يلبسون من شدة الحر، منهم مسلمون ومنهم كفار.

أرضهم منبت الذهب، وبها حيوانات عجيبة: كالفيل والكركدن والزرافة. وبها أشجار عظيمة لا توجد في غيرها من البلاد.

وحدثني الفقيه علي الجنحاني المغربي أنه شاهد تلك البلاد، ذكر أن أهلها اتخذوا بيوتهم على الأشجار العظيمة من الأرضة، وان الأرضة بها كثيرة جداً، ولا يتركون شيئاً من الأثاث والطعام على وجه الأرض إلا وأفسده الارضة، فجميع قماشهم وطعامهم في البيوت التي اتخذوها على أعالي الأشجار. وذكر، رحمه الله، انه أول ما نزل بها نام في طرف منها فما استيقظ إلا والارضة قرضت من ثيابه ما كان يلاقي وجه الأرض.

تغارة

بلدة في جنوبي المغرب بقرب البحر المحيط، حدثني الفقيه علي الجنحاني أنه دخلها فوجد سور المدينة من الملح، وكذلك جميع حيطانها، وكذلك السواري والسقوف، وكذلك الأبواب فإنها من صفائح ملحية مغطاة بشيء من جلد الحيوان كي لا يتشعب أطرافها. وذكر أن جميع ما حول هذه المدينة من الأراضي سبخة وفيها معدن الملح والشب، وإذا مات بها شيء من الحيوان يلقى في الصحراء فيصير ملحاً، والملح بأرض السودان عزيز جداً، والتجار يجلبونه من تغارة إلى سائر بلادهم يبتاع كل وقر بمائة دينار.

ومن العجب أن هذه المدينة أرضها سبخة جداً، ومياه آبارهم عذبة، وأهلها عبيد مسوفة، ومسوفة قبيلة عظيمة من البربر. وأهل تغارة في طاعة امرأة من إماء مسوفة، شغلهم جمع الملح طول السنة. يأتيهم القفل في كل سنة مرةً يبيعون الملح ويأخذون من ثمنه قدر نفقاتهم، والباقي يؤدونه إلى ساداتهم من مسوفة، وليس بهذه المدينة زرع

ولا ضرع، ومعاشهم على الملح كما ذكرنا.

تكرور

مدينة في بلاد السودان عظيمة مشهورة، قال الفقيه علي الجنحاني المغربي: شاهدتها وهي مدينة عظيمة لا سور لها، وأهلها مسلمون وكفار، والملك فيها للمسلمين، وأهلها عراة رجالهم ونساؤهم، إلا أشراف المسلمين فإنهم يلبسون قميصاً طولها عشرون ذراعاً، ويحمل ذيلهم معهم خدمهم للحشمة، ونساء الكفار يسترن قبلهن بخرزات العقيق، ينظمنها في الخيوط ويعلقنها عليهن، ومن كانت نازلة الحال فخرزات من العظم.

وذكر أيضاً أن الزرافة بها كثيرة، يجلبونها ويذبحونها مثل البقر، والعسل والسمن والأرز بها رخيص جداً. وبها حيوان يسمى لبطى، يؤخذ من جلده المجن يبتاع كل مجن بثلاثين ديناراً، وخاصيته أن الحديد لا يعمل فيه البتة.

وحكى أنه لما كان بها إذ ورد قاصد من بعض عمال الملك يقول: قد دهمنا سواد عظيم لا نعرف ما هو. فاستعد الملك للقتال وخرج بعساكره، فإذا فيلة كثيرة جاوزت العد والحصر، فجاءت حتى ترد الماء بقرب تكرور، فقال الملك: احشوها بالنبل. فلم يكن يعمل فيها شيء من النبال، وكانت تخفي خراطيمها تحت بطنها لئلا يصيبها النبل، وإذا أصاب شيئاً من بدنها أمرت عليها الخرطوم ورمتها، فشربت الماء ورجعت. والله الموفق.

سجلماسة

مدينة في جنوب المغرب في طرف بلاد السودان، في مقطع جبل درن في وسط رمل، بها نهر كبير غرسوا عليه بساتين ونخيلاً مد البصر. حدثني بعض الفقهاء من المغاربة وقد شاهدها: ان مزارعها اثنا عشر فرسخاً من كل جانب لكن لا يزرع في كل سنة إلا خمسها، ومن أراد الزيادة على ذلك منعوه، وذلك لأن الريع إذا كثر لا يبقى له قيمة فلا يشتري من الظناء بشيء. وبها أصناف العنب والتمر وأما تمرها فستة عشر صنفاً ما بين عجوة ودقل.

ولنسائها يد صناع في غزل الصوف، ويعمل منه كل عجيب حسن بديع من الأزر التي تفوق القصب، ويبلغ ثمن الازار ثلاثين ديناراً وأربعين كأرفع ما يكون من القصب ويتخذن من عقارات يبلغ ثمنها مثل ذلك مصبوغة بأنواع الألوان، وأهل هذه المدينة

من أغنى الناس وأكثرهم مالاً لأنها على طريق غانة التي هي معدن الذهب، ولأهلها جرأة على دخول تلك البرية مع ما ذكر من صعوبة الدخول فيها، وهي في بلاد التبر يعرف منها، والله الموفق.

غانة

مدينة كبيرة في جنوب بلاد المغرب، متصلة ببلاد التبر، يجتمع إليها التجار ومنها يدخلون بلاد التبر، ولولاه لتعذر عليهم ذلك، وهي أكثر بلاد الله ذهباً لأنها بقرب معدنها، ومنها يحمل إلى سائر البلاد، وبها من النمور شيء كثير، وأكثر لباس أهلها جلد النمر.

وحكى الفقيه أبو الربيع الملتاني أن في طريق غانة من سجلماسة إليها أشجاراً عظيمة مجوفة، يجتمع في تجاويفها مياه الأمطار فتبقى كالحياض، والمطر في الشتاء بها كثير جداً، فتبقى المياه في تجاويف تلك الأشجار إلى زمان الصيف، فالسابلة يشربونها في مرورهم إلى غانة، ولولا تلك المياه لتعذر عليهم المرور إليها، ويتخذون أقتاب البعران من خشب الصنوبر، فإن مات البعير فقتب رحله يفيء بثمنه.

غدامس

مدينة بالمغرب في جنوبيه ضاربة في بلاد السودان، يجلب منها الجلود الغدامسية، وهي من أجود الدباغ لا شيء فوقها في الجودة، كأنها ثياب الخز في النعومة.

بها عين قديمة يفيض الماء منها، ويقسمها أهل البلد قسمة معلومة، فإن أخذ أحد زائداً غاض ماؤها، وأهل المدينة لا يمكنون أحداً يأخذ زائداً خوفاً من النقصان. وأهلها بربر مسلمون صالحون.

كاكدم

مدينة بأقصى المغرب جنوبي البحر متاخمة لبلاد السودان، منها صناع أسلحة.

منها الرماح والدرق اللمطية من جلد حيوان يقال له اللمط، لا يوجد إلا هناك، وهو شبه الظباء أبيض اللون، إلا أنه أعظم خلقاً، يدبغ جلده في بلادهم باللبن وقشر بيض النعام سنة كاملة، لا يعمل فيه الحديد أصلاً، إن ضرب بالسيوف نبت عنه، وإن أصابه خدش أو بتر يبل بالماء ويمسح باليد فيزول عنه، يتخذ منه الدرق والجواشن قيمة كل واحد منها ثلاثون ديناراً، وحكى الفقيه علي الجنحاني: انه مر بقرب كاكدم

بتل عال، والناس يقولون من صعد هذا التل اختطفه الجن، وعنده مدينة النحاس التي اشتهر ذكرها، وسيأتي ذكرها في موضعه إن شاء الله تعالى.

كوار

ناحية من بلاد السودان جنوبي فزان، بها عين الفرس، قيل: إن عقبة ابن عامر ذهب إلى كوار غازياً، فنزل ببعض منازلها فأصابهم عطش حتى أشرفوا على الهلاك، فقام عقبة وصلى ركعتين ودعا الله تعالى، فجعل فرس عقبة يبحث في الأرض حتى كشف عن صفاة فانفجر منها الماء، وجعل الفرس يمصه، فرأى عقبة ذلك فنادى في الناس أن احتفروا، فحفروا وشربوا فسمي ذلك الماء ماء الفرس، وافتتح كوار وقبض على ملكها، ومن عليه وفرض عليه مالاً.

ابن عذاري

البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب

والموجب لخروجهم من الصحراء إلى وطن المغرب أن أحد بني جدالة، ويعرف بيحيى بن إبراهيم من جدالة، كان قد وجه لأداء فريضة الحج واجتاز في إيابه على مدينة القيروان وذلك سنة 440 هـ، فحضر بها مجلس الفقيه المدرس أبي عمران الفاسي، فسأله عن قبيلته ووطنه، فذكر أنه من الصحراء من قبيلة جدالة، فقال له الفقيه: ما مذهبكم؟ فقال له ما لنا علم من العلوم ولا مذهب من المذاهب، لأننا في الصحراء منقطعين لا يصل إلينا إلا بعض التجار الجهال، حرفتهم الاشتغال بالبيع والشراء ولا علم عندهم..). ابن عذاري: البيان المغرب، ج 4، ص 7 [تحقيق د. إحسان عباس] منقول من: الحلل الموشية، البكري، 165، وغيرهما مع اختلاف طفيف.

ويشتهرون وفيها أقوام على تعليم العلوم يحرضون وعلى التفقه في الدين من الله يرغبون...: يا سيدنا تنظر في من يتوجه معي إلى بلادنا ليعلمنا ديننا. فقال له الفقيه: سوف أجتهد لك في ذلك إن شاء الله تعالى. فعرض الفقيه الأمر على الطلبة هنالك فلم يجد أحداً يوافقه على ذلك، لأجل مشقة السفر البعيد والانقطاع في الصحارى، فدل الفقيه على رجل من فقهاء الغرب الأقصى اسمه واجاج. فأعطاه كتاباً يوصله إليه يؤكد في الاجتهاد في ذلك عليه. فلما وصل يحيى بن إبراهيم إلى أقصى المغرب وجده في موضع يقال له ملكوس، واجتمع معه فيه وأعطاه كتاب الفقيه ابي عمران. فرحب به وأكرمه وكلمه يحيى بما أراد أن يكلمه وأعلمه بوصية الفقيه أبي عمران إليه، وتوكيد عليه فاختار له شخصاً يقال له عبد الله بن ياسين فسار معه إلى قبيلة جدالة فاجتمع عليه عندهم نحو سبعين شخصاً ما بين كبير وصغير من فقهائهم ليعلمهم ويفقههم في دينهم فانقادوا له انقياداً عظيماً ووالوه في ابتداء الأمر تكريماً وأقاموا معه على ذلك مدة كبيرة واجتمع عليه منهم أعداد كثيرة إلى أن أمر عبد الله المذكور لقبائل جدالة بغزو قبائل لمتونة فحاربهم جدالة حتى غلبوهم ودخلوا في دعوة عبد الله بن ياسين وغزوا معهم سائر قبائل الصحراء وحاربوهم فقوي أمر جدالة وظهورهم إلى أن مات يحيى بن إبراهيم.

وبقي فيهم عبد الله بن ياسين يمتثلون كل ما به يأمرهم منقادين لأمره ونهيه إلى أن نقض عليه شخص منهم اسمه الجوهر بن سحيم شيئاً من أحكامه وجد فيها تناقضاً فتوافق مع بعض رجال من كبرائهم فعزلوه من الرأي والمشورة وقطعوا منه مالهم وانتهبوا داره وهدموها وأخذوا ما كان فيها وخرج عبد الله بن ياسين منهم خائفاً منهم.

وكان أمير لمتونة يومئذ يحيى بن عمر بن بولنكائي اللمتوني فرحل إليه عبد الله المذكور فتلقاه يحيى بن عمر بأحسن قبيل من إقباله وأخذ معه في أموره وأحواله فتوجه عبد الله بن ياسين إلى شيخه واجاج الذي دخل يحيى بن إبراهيم الجدالي عليه وقيل إنه كتب ولم يتوجه بنفسه إليه فأعلمه بما جرا في جدالة وبين له أمره معهم وحاله فشق على الشيخ واجاج المذظور ما أعلمه من ذلك فكتب إلى بعض أشياخ جدالة يعاتبهم على ما صدر لعبد الله بن ياسين منهم وما بلغه من فعل المشغبين عليه وهو مقيم بينهم وأخذ في ذلك أخذاً كلياً عليهم وعاتب عتاباً شاقياً إليهم لكونهم كانوا قد انقادوا إليه، ثم انتقدوا ما شيعه عدوه عليه. فلما وصل جواب الشيخ واجاج من أشياخ الجداليين المذكورين مستعذرين له على تقصيرهم في حق عبد الله بن ياسين أمره بالرجوع إلى تلك القبائل الصحراوية وكتب لأشياخهم يعلمهم أن من خالفه قد خالف الجماعة.

بعض أخبار عبد الله بن ياسين مع لمتونة في ابتداء أمرهم

ذلك أنه لما استقر عبد الله بن ياسين عند لمتونة انقادوا له وأطاعوه واحتال على الذين شاغبوا عليه في جدالة فقتلهم وأمر بقتل من استوجب القتل عندهم. فأجابته بعض القبائل الصحراوية ودخلوا في دعوته والتزموا المسنة به وكان أشدهم انقياداً له أمير لمتونة يحيى بن عمر. فكان يخرج معه مع قبائل لمتونة لمحاربة بعض القبائل الذين لم يخرجوا تحت طاعته إلى أن نهضوا إلى قبيلة لمطة فسألوهم ثلث أموالهم ليطيب لهم الثلثان الباقيان. كذا سن لهم عبد الله بن ياسين في الأموال المختلطة فأجابوه إلى ذلك ودخلوا معهم في دعوته مدة كبيرة وتقدم يحيى بن عمر اللمتوني على قبيلة مسوفة وغيرها.

وكان عبد الله بن ياسين قد دخل بلاد الأندلس في دولة ملوك الطوائف فأقام بها سبعة أعوام وحصل فيها على علوم كثيرة. ثم رجع إلى المغرب الأقصى فمر بتامسنا فوجد فيها أمماً لا تحصى أكثرهم تحت أمراء البرغواطة، وكان عسكر أمراء برغواطة

أكثر من ثلاثة آلاف وانضاف إليهم من سائر القبائل ما بين فارس وراجل أزيد من عشرين ألفاً من جراوة وزغارة ومطغرة والبرانس وركونة وغيرها.

وكان أهل المغرب يتولون أمور بلادهم وأمراؤهم يتولون الإمارة بينهم إلى أن تغلب كل شخص منهم على موضعه كما فعل ملوك طوائف الأندلس. فمر عبد الله بن ياسين ببلاد المصامدة بعد منصرفه من الأندلس فوجدهم يغيرون بعضهم على بعض يغنمون الأموال ويقتلون الرجال ويسبون الحريم ولا يرجعون إلى طاعة إمام. فكان من عبد الله بن ياسين بعض الإلهام أن قال لبعضهم: ألا تعرفون الله ربكم ومحمداً رسولكم عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام؟ فقالوا له: نعم عرفنا الله ربنا ومحمداً نبياً صلى الله عليه وسلم. فقال لهم عبد الله: فما لكم بدلتم وغيرتم هل لا قدمتم عليكم إماماً يحكم بينكم بشريعة الإسلام وسنة النبي عليه السلام؟ فقال له بعض أشياخ المصامدة: لا يرضى أحد منا ينقاد إلى حكم أحد من غير قبيله. فتركهم ورحل عنهم إلى بلاد جزولة فكان من أمره مع يحيى بن إبراهيم وجدالة ما تقدم ذكره. ثم رحل من جدالة إلى لمتونة فانقادوا له وكان أميرهم يحيى بن عمر أشد انقياداً له كما تقدم ذكره. قال بعض المؤرخين في المجموع المفترق وفي كتب غير ذلك أن بعد الأربعين والأربعمائة قامت قبائل في الصحراء من صنهاجة يعرفون ببني وارث وخلفهم لمتونة وجدالة وهم يجاورون البحر ليس بينهم وبينه قبيل غيرهم، وهذه الثلاثة قبائل في ذلك الوقت مسلمون قاموا بدعوة الحق ورد المظالم وقطع المغارم وهم متمسكون بالسنة.

وكان الذي شرع فيهم ذلك ودلهم على أرشد المسالك عبد الله بن ياسين وأول ما أخذت لمتونة من البلاد بلاد درعة. قال أبو عبيد رحمه الله: وكان للمتونة في قتالهم في ابتداء أمرهم شدة وجلد، وليس كذلك لغيرهم، وكانوا يختارون الموت على الانهزام ولا يحفظ لهم فرار من زحف وكان قتالهم على النجب أكثر من الخيل. وأكثرهم مترجلون على أقدامهم صفوفاً صفاً بعد صف يكون بأيدي رجال الصف الأول القنا الطوال وكانت لهم راية يقدمونها أمام الصفوف فهم يقفون ما وقفت منصبة وإن أمالها إلى الأرض جلسوا فكانوا في ذلك أثبت من الهضاب. فمن فر أمامهم سلبوه ولم يقتلوه... ويقتلون الكلاب ولا يستصحبون شيئاً منها في سكناتهم ولا في حركاتهم.

وكان يحيى بن عمر يمتثل أمر عبد الله بن ياسين امتثالاً عظيماً ولقد أخبر جماعة عنهما أن عبد الله قال له في بعض الحروب: أيها الأمير، إن عليك أدباً. فقال له يحيى: وما الذي أوجبه علي؟ فقال له عبد الله: لا أخبرك حتى آخذ حق الله بك. فحكمه في

نفسه وضربه بالسوط ضربات في رجله. ثم قال له: إن الأمير لا يدخل القتال بنفسه لأن حياته حياة عسكره وهلاكه هو هلاكهم.

بعض أخبار الأمير أبي زكرياء يحيى بن عمر أمير اللمتونيين وسبب تسميتهم بالمرابطين وخروجهم من الصحراء إلى سجلماسة ودرعة

كان هذا أبو زكرياء منقاداً في جميع أموره لإمامة عبد الله بن ياسين فقدمه بعسكره وعبد الله في مقدمته وهو في الحقيقة الأمير الذي يأمر وينهى: وكان يلي لمتونة جبل فيه قبائل من البربر على غير دين الإسلام فدعاهم عبد الله بن ياسين إلى الدين فامتنعوا له فأمر يحيى بن عمر بغزوهم فغزاهم لمتونة وسبوهم وقسموا سبيهم بينهم وأخذ أميرهم خمسهم وهو أول خمس قسمه اللمتونيون في صحرائهم وكان قد فقد في ذلك الوقت من عسكرهم أكثر من نصف عددهم، وكان إمامهم عبد الله ابن ياسين يصبرهم إلى أن ظهروا بأعدائهم فسماهم عبد الله بالمرابطين، وسمى أميرهم يحيى بن عزر أمير الحق. ووقفت على كتاب قديم...: لما بعث الفقيه أبو محمد عبد الله ابن ياسين لأهل هذا جبل الموالي لبلاد لمتونة يدعوهم للدخول في الإسلام وشريعة محمد عليه السلام وإن يؤدوا ما فرض الله عليهم من الزكاة فامتنعوا وقتلوا رسله فأمر لمتونة بغزوهم فخرج إليهم وصعد عليهم الجبل وقاتلهم ثلاثة أيام قتالاً... مات من لمتونة فيه عدد كثير وصبر الفريقان صبراً عظيماً فلما كان في اليوم الرابع جمع عبد الله بن ياسين أصحابه لمتونة وقال لهم: إنا احتسبنا أنفسنا في حق الله وسنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأراكم قد أعياكم حرب هؤلاء المشركين ولم يأمرنا الله أن نتركهم إذ... فاستعينوا بالله ربكم ينصركم عليهم. فخرجت لمتونة في اليوم الرابع وكان... أسبغ... وعزم على الحرب فحمي الوطيس بين الفريقين واشتدت الحرب إلى أن انهزم أعداؤهم وقتلوهم قتلاً ذريعاً وسلبوا أموالهم وسبوا نساءهم وأبناءهم... وعادوا إلى بلادهم فأمرهم إمامهم عبد الله ابن ياسين بإعطاء الخمس لأميرهم يحيى بن عمر... وأخذوه.

ولما ظهر لعبد الله بن ياسين استقامة لمتونة وجدهم واجتهادهم أراد أن يظهرهم ويملكهم بلاد المغرب. فقال لهم: إنكم قد غزوتم ونصرتم دين محمد صلى الله عليه وسلم، وقد فتحتم ما كان أمامكم وستفتحون إن شاء الله ما وراءكم. فأمرهم بالخروج

من الصحراء إلى سجلماسة ودرعة وأهلها يومئذ تحت طاعة زناتة المغراويين وأميرهم مسعود بن وانودينه وذلك بعد ما خاطبوهم. فلم يجيبوهم إلى ما طلبوا منهم فغزوهم في جيش كثيف وأكثرهم على النجب ركباناً ومنهم رجالاً وفرساناً فقاتلهم لمتونة إلى أن غلبوهم فطلبوا العفو منهم وأدخلوهم سجلماسة فقيل إنهم قتلوا مسعود بن وانودين أميرهم وقيل بل فر أمامهم. وأقام بها الأمير يحيى ابن عمر مدة أشهر مع إخوانه اللمتونيين.

ثم تخلف جماعة منهم فيهم ورحل منها مع إخوانه إلى الصحراء لأجل جدالة أعدائهم وبعد ذلك زحفت زناتة المغراويون على سجلماسة فدخلوها وقتلوا من كان بها من اللمتونيين في المسجد الجامع. فقيل أن ذلك كان في السنة ست وأربعين وأربعمائة وقيل في سنة ثمان وأربعين.

ثم بعد ذلك ندم أهل سجلماسة على ما فعل مع لمتونة وتواترت رسلهم على عبد الله بن ياسين يذكرون أن زناتة المغراويين... وأنهم هم الذين فعلوا ما فعلوا وقتلوا من قتلوا وطلبوا الوصول إليهم والقدوم... عليهم ليأخذوا ثأرهم منهم. فندب عبد الله بن ياسين اللمتونيين وغيرهم إلى... فخالفه قبائل جدالة وذهبوا إلى الساحل فأمر عبد الله بن ياسين أمير لمتونة يحيى أن يتحصن في جبلهم وهو جبل غزير الماء والكلأ. قال أبو عبيد رحمه الله كان في طوله مسيرة ستة أيام وفي عرضه مسيرة يوم واحد وفيه حصن يسمى أزكي حوله نحو من عشرين ألف نخلة. فصار يحيى بن عمر في ذلك الحصن قيل بسبب مرض أصابه وقيل غير ذلك.

وكان أبو بكر بن عمر قد تركه أخوه يحيى بن عمر أميراً على بلاد درعة. فاجتمع لعبد الله بن ياسين جيش كثيف من لمتونة ومسوفة ولمطة ومزجة وصار بهم إلى درعة. ثم بعد ذلك رجعت جيوش جدالة إلى يحيى بن عمر. قيل إنهم كانوا نحو ثلاثين ألف وأقل منهم ركبان على النجب وبعضهم على الخيل وذلك في سنة ثمان وأربعين وقيل سنة تسع... كان له... مع لمتونة في موضع معروف عندهم. قتل فيه يحيى بن عمر وقتل فيه بشر كثير وهم يذكرون بزعمهم أنهم يسمعون في ذلك الموضع أصوات المؤذنين عند أوقات الصلوات. والآن يحترمونه ولا يدخله أحد منهم.

ذكر دولة الأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني رحمه الله

وذلك أنه لما بلغ الخبر بوفاة أخيه أبي زكرياء ببلاد الصحراء قدمه أمامه

عبد الله بن ياسين في درعة وتوجه إلى سجلماسة وأخذ له البيعة من أهلها. ثم وصلها الأمير أبو بكر فبويع بها في أوائل شهر محرم مفتتح عام خمسين وأربعمائة. وقيل غير ذلك وبايعه فيها بعض الزناتيين على يدي عبد الله بن ياسين. وخرج الأمير أبو بكر من سجلماسة بعسكره في الثالث عشر إلى درعة ليأخذ منهم ما أوجب له عليهم من الزكاة والفطرة وكان بدرعة قوم من زناتة فامتنعوا له فقاتلهم الأمير أبو بكر وهزمهم وغنم إبلهم ومواشيهم وولى الأمير أبو بكر على بلاد درعة رجلاً من خيار لمتونة وترك معه جمعاً كبيراً وعاد إلى سجلماسة. وانصرف أبو محمد عبد الله بن ياسين عنه إلى بلاد المصامدة وغيرها حين تذكر ما عاينه من تلك القبائل وأحوالهم. فخرج من سجلماسة قاصداً إلى أغمات. فاجتمع بوريكة وهيلانة وهزمية وطاف على قبائل المصامدة وقبائل بلاد تامسنا فوجدهم على ما كان تركهم من الفتنة ألفها، فقال لهم: ألا تعرفون أنه من مات منكم في هذه الحروب الجاهلية فإنه من أهل النار؟ فوعظهم وقال لهم: اتقوا الله واردعوا عما أنتم عليه من فتنتكم، وقدموا على أنفسكم من يؤلفكم. فقالوا له: ما هو فينا... ولا في قبائلنا إلا كل قبيلة منا ترى أن يكون الأمير منها. فقال لهم: إن أنتم سمعتم مني أدلكم على رأي صالح يصلح الله به أحوالكم. هذا أمير لمتونة الصحراء أهل الزهد والورع. وقد كانوا سمعوا به وما أصلح الله من البلاد على يديه فأنعموا له... عليهم العهود والمواثيق بذلك.

ثم رحل عنهم ورجع إلى سجلماسة فتلقاه الأمير أبو بكر بن عمر على مسيرة يوم منها، وسر بقدومه عليه فبشره عبد الله بن ياسين بما أفاء الله له على يديه فشكر الأمير أبو بكر على ذلك ودعا له بامتداد عمره فقال له أبو محمد عبد الله: تأهب للحركة إليهم وقدومك المبارك إليهم. فأخذ في غد ذلك اليوم في حركته وولي على سجلماسة واحد إخوانه مع جمع وافر من لمتونة. وخرج من سجلماسة في السابع عشر لربيع الآخر من السنة خمسين المذكورة وذلك في عسكر فيه أربع مائة فارس وثمان مائة راكب على النجب وألفي راجل وكان وصولهم إلى أغمات وريكة في الثاني لجمادى الأولى من السنة فتلقتهم بعض أشياخ قبائل المصامدة على مرحلتين من أغمات فاحتل الأمير أبو بكر مدينة أغمات واستوكن مع إمامه عبد الله بن ياسين فبايعه بعض القبائل بها.

ثم وفدت عليه وفودها فبايعوه وأقام بأغمات مع إمامه مدة من ستة أشهر. فلما كان أول شهر ذي قعدة من العام المؤرخ انصرف عنه إمامه أبو محمد إلى بلاد تامسنا

فقتله برغواطة في أوائل سنة إحدى وخمسين وأربع مائة وقال بعض المؤرخين لدولتهم أن توجه في بلاد السوس ليصلح بين إخوته جدولة في فتنة فأصابه مرض فقضى نحبه. ووصل نعيه إلى أغمات. واما ما صح عنه بأنه قتله برغواطة كما تقدم ذكره ولم يقتل عبد الله بن ياسين حتى استولى على سجلماسة وأعمالها وأغمات وبلاد السوس وغيرها.

ومما يذكر من أحوال عبد الله بن ياسين أنه سافر مع قوم كانوا معه فعطش جميعهم فشكوا ذلك إليه فقال: عسى الله أن يجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً. ثم سار بهم ساعة وقال: احفروا. فحفروا فوجدوا الماء بأدنى حفر فعدوا ذلك كرامة له فشربوا جميعاً وسقوا دوابهم وانصرفوا. وكانت لمتونة لا تقدم أحداً منهم للصلاة إلا من صلى خلف عبد الله بن ياسين. وقيل كان عبد الله بن ياسين نكاحاً للنساء يتزوج في الشهر عدداً منهن ثم يطلقهن. فكان لا يسمع بامرأة حسناء إلا خطبها. ولا يجاوز بصداقهن أربعة مثاقيل.

وأما ما شذ فيه عبد الله من الأحكام فأخذه الثلث من الأموال وزعم أن بذلك تطيل وأن الرجل إذا دخل في دعوتهم وتاب عن سالف ذنوبه قالوا له: قد أذنبت ذنوباً كثيرة فيجب أن يقام عليك حدودها. فيضربوه حد الزنا وحد الافتراء وإن علموا أنه قتل قتلوه سواء أتاهم تائباً طائعاً أو غلبوا عليه. ومن يتخلف من مشاهدة الصلاة مع الجماعة ضرب عشرين سوطاً ومن فاتته ركعة ضرب خمسة أسواط. فكان أكثرهم يصلون بغير وضوء إذا حان الوقت، وأعجلهم الأمر من أجل الضرب. ومما يحفظ من جهل عبد الله بن ياسين أن رجلاً اختصم إليه مع تاجر غريب فقال له التاجر في جوابه: حاشا لله أن يكون ذلك. فأمر بضربه. ولما مات ابن ياسين وقتله برغواطة كان الأمير أبو بكر بن عمر قد تولى أمر صنهاجة وغيرها، وطاعت له قبائل المصامدة بأسرها. فقام معهم لقتال برغواطة حتى أخذ الثأر منهم. وفي ابتداء هذه الدولة اللمتونية اختلاف اختصرنا منه ما وقع الاتفاق عليه.

ذكر نسب أمراء الدولة المرابطية

قال ذو العلم بأخبارهم أن الجد الذي ينتهي إليه نسب جميعهم هو منصور، والجد الذي يفترق منه أفخاذهم ترجوت بن ورتاسن بن منصور بن مصالة بن أمية بن وانمالي الصنهاجي ثم اللمتوني. وكانت لترجوت ثلاث بنين محمد وحميد وإبراهيم.

فتفرقت منهم بطون كثيرة وكان القائم بالملك في الصحراء بعد أبيه إبراهيم وهو جد يحيى بن عمر الأمير المتقدم ذكره. وكان يقال له أمير الحق، وهو يحيى بن عمر بن إبراهيم بن ترجوت. وكان لأمير الحق يحيى المذكور من الولد أربعة بل ثلاثة محمد وعلي وعيسى وكان لأم محمد نبأ ظريف يأتي ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى. واستصحب يحيى بن عمر الأمر بقية عمره. فلما قضى نحبه ولي الأمر بعده أخوه أبو بكر بن عمر. وكان يرى في منامه بقرتين يخير فيهما فيضع... إحداهما فيقال له: هذا الذي أخذت هو الملك والذي تركت هو الولد. وكان له ابنان إبراهيم ويحيى. فأما يحيى يعرف بابن عائشة وهي بنت ياران بن تايغشت أخت إسحق بن ياران. وأما إبراهيم فلم يعرف أمه وكان أسود الجلدة، وهو إبراهيم بن الأمير أبي بكر بن عمر. وأما فخذ يوسف ابن تاشفين ومن ذكر معه فهم بنو إبراهيم، فهو يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن توجدوت.

وفي سنة ستين وأربع مائة استقامت الأمور للأمير أبي بكر بن عمر وطاعت له البلاد ووجه عماله إليها وكان مستوطناً بمدينة أغمات. وكانت بها امرأة جميلة تعرف بزينب النفزاوية، قد شاع ذكرها وأمرها في قبائل المصامدة وغيرها. فكان يخطبها أشياخهم وأمراؤهم فتمتنع لهم وتقول: لا يتزوجني إلا من يحكم المغرب كله. فكانوا يرمونها بالحمق، وكان لها أخبار مستظرفة غريبة كمثل أخبار الكهنة. فبعض يقولون أن الجن يكلمها وبعض يقولون هي ساحرة وبعض يقولون كاهنة. فأعلم بجمالها الأمير أبو بكر بن عمر فخطبها وتزوجها فوعدته بمال كثير تخرجه له. ثم أدخلته في دار تحت الأرض معصب العينين. ثم أزالت العصابة ففتح عينيه فرأى بيوتاً فيها ذهب كثير وفضة وجواهر وياقيت فعجب من ذلك أبو بكر بن عمر كل العجب لما عاين من الذخائر والذهب والفضة. فقالت له زوجه زينب هذا كله مالك ومتاعك، أعطاك الله إياه على يدي فصرفته الآن عليك وكان رؤيته له بضوء الشمس. ثم أخرجته معصب العينين من ذلك الموضع كما أدخلته فيه فلا علم من أين دخل ولا من أين خرج. وكان دخوله معرفاً بزينب المذكورة في شهر ذي القعدة من عام ستين وأربع مائة. وكانت هذه المرأة موسومة بالجمال والمال وكان لها محاسن وخصال محمودة ورؤية مستظرفة. فقيل والله أعلم أن الجن كانت تخدمها وقيل غير ذلك كما تقدم.

وفي سنة إحدى وستين وأربعمائة بعث الأمير أبو بكر بن عمر عسكراً كبيراً قدم عليه ابن عمه يوسف بن تاشفين وبعث معه جملة كبيرة من أشياخ لمتونة ومن قبائل

البربر المصامدة وغيرهم، وذلك برسم قتال بؤساء القبائل القاطنين بأرض المغرب. وكان أكبرهم شوكة بني يفران الزناتيين المستوطنين في قلعة مهدي ابن تبالا. فحاربهم يوسف ابن تاشفين بمن كان معه من القبائل التي دخلت... للأمير أبي بكر بن عمر وفر معنصر ابن حماد إلى مدينة فاس وقتل من اتهم بالقيام بأمر لمتونة. وقتل يوسف بن تاشفين أناساً من سدراتة.

وفي هذه السنة ضاق المجمع بمدينة أغمات وريكة... الخلق فيها فشكا أشياخ وريكة وهيلانة بذلك إلى الأمير أبي بكر بن عمر مرة بعد أخرى إلى أن قال لهم: عينوا لنا موضعاً أبني فيه مدينة إن شاء الله تعالى. وكان سكناه مع إخوانه في الأخبية... حتى ابتنى بزوجه زينب النفزاوية في هذا العام فزاد الخلق بأغمات من أجل... هيلانة وهزميرة على أن يعينوا موضعاً حيث يكون بناء المدينة. فوقع التنازع بين المذكورين في ذلك. وطلب كل واحد أن يكون بناء المدينة في بلادهم لينسب بناؤها إليهم، وذلك لأجل ما تقدم بينهما من الفتنة ومداولة الإمارة إلى أن اجتمعت أشياخ قبائل المصامدة وغيرهم فوقع تدبيرهم أن يكون موضع تلك المدينة بين بلاد هيلانة وبين بلاد هزميرة فعرفوا بذلك أميرهم أبا بكر بن عمر وقالوا له: قد نظرنا لك موضع صحراء لا أنيس به إلا الغزلان والنعم ولا تنبت إلا السدر والحنظل. ثم كان أراد بعضهم أن تكون المدينة على وادي تانسيفت فامتنع لهم من ذلك وقال: نحن من أهل الصحراء ومواشينا معنا لا يصلح لنا السكنا على الوادي. فنظروا له ذلك الموضع لكي يكون وادي نفيس جنانها ودكالة فدانها وزمام جبل درن بيد أميرها طول زمانها فركب الأمير أبو بكر في عسكره مع أشياخ القبائل فمشوا معه إلى فحص مراكش وهو خلاء لا أنيس به فقالوا له: ابن هنا مدينة تكون متوسطة بين هيلانة وهزميرة.

وفي سنة اثنين وستين وأربعمائة في الثالث والعشرين لرجب ابتدئ بأساس مراكش. وذلك قصر الحجر وشرع الناس في بناء الدور دون سور وفي ذلك اليوم بعينه كان ركوب الأمير أبي بكر بن عمر وإخوته وجميع محلته مع أشياخ المصامدة والفعلة من البنائين وغيرهم فابتدأ العمل في الأساس بمشاركة للأشياخ وحسب عونهم. فأعانوا على البناء بالمال والرجال فقام سور قصر الحجر في نحو ثلاثة أشهر على نحو ما ذكره ذو المعرفة والأخبار واشتغل الناس فيها ببناء الديار كل واحد على قدر جهده واستطاعته. فذكروا أن أول دار بنيت بمراكش من ديار لمتونة دار تورزجين ابن الحسن الكائنة بموضع أسدال بناها بالطوب وجددها الآن ظاهرة على المقر بالموضع المذكور

إلى وقتنا هذا سنة ست وسبعمائة وذكروا أن اللمتونيين حين طلبوا موضعاً حصراء يبنون فيه مدينتهم ليبعدوا من موضع الوادي والغياض على أنفسهم ومواشيهم لعادتهم في بلادهم فوقع بحثهم وجدهم واجتهادهم على موضع مدينة مراكش والله أعلم بذلك.

وفي سنة ثلاث وستين وأربعمائة كان الأمير أبو بكر بن عمر قاعداً على السور والفعلة أمامه يعملون في السور وفي غيره إلى أن وقف عليه رجل راكب على فرس أشعث الرأس فسلم عليه وقال: أيد الله الأمير، إن جدالة أغارت على إخوتك فقتلوا الرجال وسبوا الأموال وهزموهم. فلما استوفى كلامه قال الأمير أبو بكر: إنّا لله وإنّا إليه راجعون. وبعث إلى أشياخ لمتونة وكبرائهم وعظمائهم وقال لهم: إن إخوانكم قد أغارت جدالة عليهم وقتلوهم... وأنا مسافر إن شاء الله إليهم لأخذ بثأرهم فانظروا منكم رجلاً أستخلفه عليكم فأطرق الجميع برؤوسهم وصمتوا. ثم رفعوا وبهتوا فلم يكن... على ذلك فقال لهم: لا بد أن تدبروا من ترونه يصلح لذلك. ثم انصرفوا. فلما كان في... أبو بكر صلى ودعا الله أن يسمى له رجلاً صالحاً يستخلفه فهتف به هاتف مرعوباً. فقال: من هو هذا الغائب؟ فأنساه الله ذكر يوسف بن تاشفين إلى أن وصل من بلاد المغرب في تلك الأيام وحضر بين يدي أبي بكر بن عمر وهو بعيد القول على إخوته وهي الثالثة فقال له يوسف ابن تاشفين: أنا أكون خليفتك إن شاء الله عز وجل. فقال له الأمير أبو بكر: صدقت يا يوسف أنت والله خليفتي. وتذكر قول الهاتف له فولاه الأمر بعده.

ذكر حركة الأمير أبي بكر بن عمر إلى الصحراء

لما أخذ الأمير أبو بكر في الحركة إلى الصحراء ولى يوسف مكانه وقسم الجيش بين يوسف وبينه فقيل أن الذي ترك مع يوسف بن تاشفين من اللمتونين الثلث ورحل معه الثلثان وذلك في غرة ربيع الأخير من سنة ثلاث وستين فشيعه يوسف وودعه وأوصاه أبو بكر فطاوعه. وكان أبو بكر بن عمر لما عزم على حركته تلك قال لزوجه زينب: إني مسافر منك برسم الفتن والحروب ولا يمكنني أن أمشي عنك وأنت في عصمتي فإن أنا مت كنت مسؤولاً عنك والرأي أن أطلقك. فقالت له: الرأي السديد ما تراه. فطلقها فذكروا أنه قال لابن عمه يوسف بن تاشفين: تزوجها فإنها امرأة مسعودة. وقيل أنها هي التي طلبت منه طلاقها فأسعفها بذلك.

ذكر ولاية يوسف بن تاشفين ونبذ من أخباره

لما توجه الأمير أبو بكر بن عمر إلى الصحراء ولاه مكانه وترك معه الثلث من لمتونة إخوانه فاشتغل ببناء مراكش وتحصينها وحصل منها تحت سور وابواب في قصر الحجر وأعانه القبائل في جميع أموره وأحواله وحبب نفسه إليهم وأفاض إحسانه عليهم وكان يكاتب الأمير أبا بكر بكل ما يصنع فيشكره على ذلك وأبو بكر بن عمر في الصحراء يحارب جدالة حتى أخذ ثأره منهم في خبر طويل. وتزوج يوسف ابن تاشفين زينب النفزاوية في شهر شعبان المكرم من سنة ثلاث وستين بعد تمام عدتها ودخل بها فسرت به وسر بها وأخبرته أنه يملك المغرب كله فبسطت آماله وأصلحت أحواله وأعطته الأموال الغزيرة فركب الرجال الكثيرة وجمع له القبائل أموالاً عظيمة فجند الأجناد وأخذ في جمع الجيوش من البربر والاحتشاد... بنفسه وبتدبير زوجه زينب في كل يوم مع أمسه حتى... سلك أهل المغرب في قانون الضغط فتأتى من ملكه ما لم يتأت...

وفي سنة أربع وستين وأربعمائة تحرك الأمير يوسف بن تاشفين بعسكر جرار إلى بلاد الغرب. ورجع إلى وطاط إلى ملوية إلى ناحية جراوة ودوخ ما مر عليه من القبائل ودخلت كلها في طاعته هكذا. ذكر ابن القطان في نظم الجما: وفي هذه السنة صنع الأمير يوسف بن تاشفين دار السكة بمراكش وضرب فيها السكة بدراهم مدورة زنة الدرهم منها درهم وربع سكة من حساب عشرين درهماً للأوقية وهو الدرهم الجوهري المعلوم في وقتها هذا وضرب الدينار الذهبي باسم الأمير أبي بكر بن عمر في هذا العام. وفيها ارتدت قبائل في القبلة في جهة سجلماسة من زناتة وغيرهم فجهز إليهم يوسف بن تاشفين عسكراً قود عليه محمد بن إبراهيم اللمتوني فخرج في شهر ربيع الآخر وغنم تلك القبائل وقتل المرتدين ورجع بغنائم كثيرة فدون يوسف الدواوين ورتب الأجناد وطاعته البلاد وكتب إلى بعض إخوانه في السر من أبي بكر بن عمر يحصهم على الوصول إليه والقدوم عليه ويعدهم بالخير الجزيل الحفيل فوصل منهم جماعة كبيرة. وفي هذه السنة ولد ليوسف بن تاشفين مولود ذكر سماه المعز بالله من زوجته زينب النفزاوية.

وفيما قوي أمر الأمير يوسف وعظمت شوكته فاشترى جملة من العبيد السودان وبعث إلى الأندلس فابتيع له بها جملة من الأعلاج فركب الجميع وانتهى عنده منهم شراء ماله مائتين وأربعين فارساً ومن العبيد شراء ماله نحو الألفين وركب الجميع

فغلظ حجابه وعظم ملكه. وفيها افترض على اليهود فرضة ثقيلة في جميع طاعته اجمع له فيها مائة ألف دينار عشرية ونيف على ثلاثة عشر ألف دينار.

وفي هذه السنة اتصل الخبر بالأمير يوسف أن ابن عمه الأمير أبا بكر بن عمر قد أخذ في الرجوع من الصحراء إلى بلاد المغرب فاغتنم لذلك غماً شديداً وحزن حزناً عظيماً وصعب عليه مفارقة الملك بعد أن داق حلاوته ورتب فيه ما رتب من الأجناد والضخامة فعرفت زينب ذلك في وجهه فقالت له: أراك مهموماً مكروباً من وصول ابن عمك إلى ملكه الذي ولاك عليه، والله لا داق أبو بكر طعمها أبداً فطب نفساً وقر عيناً. فقال لها: إنه... استخلافه إلى من بين أهل بنيه ويثق على هذه المملكة ولو كان غير ابن عمي لقاتلته. فقالت له: أنا أدلك.. الله. فقال: وما ذلك يا زينب، فإني والله أعرفك ميمونة... قالت له: إذا قدم عليك وبعث مقدمات رجاله إليك فلا تخرج إليه... ادرّه بهدية جليلة... فلا يقاتلك على الدنيا، فإن الرجل خير لا يستحل سفك دماء... على أمرك وتفوز بملكك إن شاء الله. فقال لها: والله لا خالفتك في أمر تشير به أبداً.

وفي سنة خمس وستين وأربعمائة كان وصول الأمير أبي بكر بن عمر من صحرائه إلى مراكش فوجد يوسف قد استبد بالمملكة وأعجبته الأمرة وطاعت له جميع البلاد الغربية، فعلم أنه مقلوب عليه وعزم على تسليم الأمر إليه.

ذكر خلع الأمير أبي بكر بن عمر نفسه عن الملك وإسلامه ليوسف بن تاشفين

كان وصول أبي بكر بن عمر من الصحراء إلى أغمات في الخامس لشهر ربيع الأول المبارك من السنة المؤرخة قادماً إلى مراكش فنزل بخارج أغمات في مضاربه وتسابق أكثر أصحابه إلى مراكش برسم رؤيتها ورؤية بنائها والسلام على أميرها يوسف وكانوا قد سمعوا عن ضخامة ملكه وجميل كرامته وجزيل إحسانه وإنعامه على إخوانه وقرابته فاجتمع إليه من القادمين عليه خلق كثير فوصلهم على قدر منزلهم ومراتبهم وأمر لهم بالكسى الفاخرة والخيول العقيقة وغير ذلك من المبرة والمكرمة. فلما علم الأمير أبو بكر أحوال يوسف وما هو عليه من الميل إلى نخوة الملك وعز السلطان عزم على تسليم الأمر له. وعلم أيضاً يوسف أحوال الأمير أبي بكر من اللين في أمره لتقواه وديانته استمال نفوس إخوانه بإحسانه وإنعامه وزاد طمعه في الانقداد والاستبداد.

وانقطع رجاء الأمير أبي بكر من الملك فبعث إلى يوسف يعلمه بوصوله إليه وعين له يوماً معلوماً يكون فيه اجتماعه به فخرج يوسف من مراكش في جنده وعبيده وتلقاه في نصف الطريق فسلم عليه راكباً على دابته ولم تكن تلك قبل عادته. ثم نزل إلى الأرض وقعدا على برنس بسط لهما في ذلك المكان فسمي ذلك الموضع فحص البرنس إلى الآن. وأبو بكر مع ذلك متعجب في كثرة عساكره واحتفال هيئته يطيل النظر غنى ذلك كله فتكلم الأمير أبو بكر مع يوسف في مصالح المسلمين. ثم قال له: يا يوسف أنت ابن عمي ومحل أخي وأنا لا غنى لي عن معاونة إخواني والصحراء ولم أر من يقوم بأمر المغرب غيرك. ولا أحق به منك وقد خلعت نفسي لك ووليتك عليه فاستمر على تدبير ملكك وأنت حقيق به وخليق له وما وصلت إليك إلا لأمرتك في بلادك وأسلم لك في.. أمير إخوانها وموضع استيطاننا. فدعا له الأمير يوسف وشكر..: ولا أقطع أمراً دونك ولا استأثر إن شاء الله بشيء عليك. وحضر... الصحرواويين وخلع له أبو بكر نفسه وشهد بذلك بعض العدول وأعيان القبائل وعاد الأمير أبو بكر إلى أغمات موضع نزوله ورجع يوسف إلى مراكش دار مملكته فكان هذا التدبير برأي زينب النفزاوية زوجته فهي التي جسرته على ذلك كله حتى ملك المغرب أسعد ملك وأتمه نصراً على العدو ولم يهزم له قد جيش ولا ردت له راية بملك والله يؤتي ملكه من يشاء.

ذكر الهدية التي أهداها الأمير يوسف بن تشفين إلى ابن عمه أبي بكر بن عمر

لما وصل الأمير أبو يعقوب إلى مراكش بعد اجتماعه بالأمير أبي بكر بن عمر وخلعته له نفسه وتقديمه ليوسف وبيعته شرع يوسف في توجيهه الهدية المذكورة وذلك خمسة وعشرون ألف دينار من الذهب وسبعون فرساً منها خمسة وعشرون مجهزة بفاخر الجهازات وسبعون سيفاً محلاة وعشرون من الأشابر المذهبة ومائة وخمسون من البغال الذكور والأناث وخدور كثير بنفيس ولأمتعة والكسى القاخرة وبعث له عشرين جارية أبكاراً وجملة من خدم الخدمة ووجه له بمائتين من البقر وخمسمائة رأس من الغنم وألف برع من دقيق الدرمق واثني عشر ألف خبزة وسبع مائة مد من الشعير وبعث إليه وزناً صالحاً من العود والعنبر والمسك.

وكتب يعتذر له من ذلك ويحلف أنه ما بقي له شيء مما ادخره واقتناه فطابت

نفس الأير أبي بكر وقال: خير كثير هذا من يوسف. ثم انصرف بهديته بعد ما أعطى منها بعض إخوانه وخاصته وأقام بصحرائه ثلاثة أعوام والأمير أبو يعقوب يمده بالتحف والهدايا إلى أن قتله السودان المجاورون للمتونة في الصحراء لأنه كان يحاربهم حتى قضى الله بوفاته بسهم أصابه كان فيه منيته وذلك في سنة ثمان وستين وأربعمائة.

وفي سنة ست وستين وأربعمائة بعث الأمير أبو يعقوب مزدلي بن بانلونكا بعسكر ضخم إلى ناحية سلا فافتتح تلك القبائل من غير قتال ولا نزال، فأمنهم وانصرف عنهم في الخامس والعشرين لشهر ربيع الآخر وكان خروجه من مراكش في الثاني لشهر صفر فكانت غيبته هذه نحو ثلاثة أشهر وفيها بعث أيضاً يوسف بن تاشفين عسكراً إلى الغرب قود عليه يطي بن إسماعيل. ولما وصل إلى وادي بهت بعث رقاصاً إلى أمير مكناسة الخير بن خزر الزناتي... قد عفا عنه وبعث كتابه إليه بذلك فقرأ كتابه على زناتة... في أمره وقالوا: نقاتله بأجمعنا حتى نخرجه من بلادنا. فقال لهم: لا سبيل لذلك ولا أفعله حتى أبعث له. فبعث إليه منغفاد بن عبد العزيز الزناتي فلما وصل إلى يطي بن إسماعيل رحب به وأكرمه ولمن كان معه فقال له منغفاد: نحن رجال الأمير أبي يعقوب وبلادنا بلاده، غير أنا لا بد لنا من الاجتماع به وشروط نشترطها عليه وحينئذ نسلم البلاد إليه ونخرج له عنه. وضمن له اللمتوني ابن إسماعيل ذلك الشروط عنه وتعاهد على ذلك معه ودخل مكناسة وخرج الخير منها أميرها ومن كان معه من زناتة إلى موضع القناطير وولي كمناسة بعد الخير بن خزر الزناتي الأفضال اللمتوني ورحل ابن إسمعيل بعسكره مع الخير المذكور إلى مراكش وأنعم عليه الأمير يوسف بكل ما أراد. ثم صرفه فبقي الخير مستوطناً بخارج مكناسة إلى أن مات رحمه الله.

ذكر تسمية يوسف بن تاشفين رحمه الله بأمر المسلمين

وفي هذه السنة اجتمع أشياخ القبائل على الأمير أبي يعقوب يوسف بن تاشفين وقالوا له: أنت خليفة الله في المغرب وحقك أكبر من أن تدعى بالأمير إلا بأمير المؤمنين. فقال لهم: حاشا لله أن اتسمى بهذا الاسم. إنما يتسمى به الخلفاء وأنا راجل الخليفة العباسي والقائم بدعوته في بلاد الغرب. فقالوا له: لا بد من اسم تمتاز به. فقال لهم: يكون أمير المسلمين. فقيل إنه هو الذي اختاره لنفسه. فأمر الكتاب أن يكتبوا بهذا

الاسم إذا كتبوا عنه أواليه.

وفي سنة سبع وستين وأربع مائة افتتح أمير المسلمين يوسف مدينة فاس. وذلك لما افتتح مدينة مكناسة ووصله أميرها الخير وأحسن إليه وأكرمه وخيره حيث يريد السكنى وأسعفه في كل مطلب. جهز أمير المسلمين عسكراً جراراً وقدم عليه ابن عمه يحيى بن وآسينوا اللمتوني وأمره بمنازل فاس فكان وصوله إليها عقب رجب افرد من هذه السنة.

وكان أمراء فاس يومئذ أبناء حماة فقاتلهم يحيى قتالاً شديداً سبعة أيام، وفي الثامن دخلها عنوة مات فيها من أهل فاس بشر كثير وسلبت ديارهم. ثم عفى عنهم وانحصر أبناء حمامة الفتوح ودوناس في قصرهما. ثم طلبوا الأمان فعفى عنهما في بقيهما. فكتب بفتح فاس وبأخبار الفتوح بن حمامة وأخيه إلى الأمير يوسف بن تاشفين فأمر بتوجيههما حيث شاؤوا فاستوصى الفتوح مغيلة واستولت لمتونة على مدينة فاس حرسها الله. وفي هذه السنة وصل الخبر إلى يوسف بن تاشفين بوفاة الخليفة العباسي القائم بأمر الله وبيعة الخليفة المقتدر بالله في الثالث عشر لشعبان.

إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء

البداية والنهاية

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وسبعمائة...

وفيها [جمادي الاخرة] قدم ملك التكرور الى القاهرة بسبب الحج في خامس عشرين رجب فنزل بالقرافة ومعه من المغاربة والخدم نحو من عشرين الفا ومعهم ذهب كثير بحيث إنه نزل سعر الذهب درهمين في كل مثقال ويقال له الملك الاشرف موسى بن أبي بكر وهو شاب جميل الصورة له مملكة متسعة مسيرة ثلاث سنين ويذكر أن تحت يده أربعة وعشرين ملكا كل ملك تحت يده خلق وعساكر ولما دخل قلعة الجبل ليسلم على السلطان أمر بتقبيل الارض فامتنع من ذلك فأكرمه السلطان ولم يمكن من الجلوس أيضا حتى خرج من بين يدي السلطان وأحضر له حصان أشهب بزناري أطلس أصفر وهيئت له هجن وآلات كثيرة تليق بمثله وارسل هو إلى السلطان أيضا بهدايا كثيرة من جملتها أربعون ألف دينار إلى النائب بنحو عشرة آلاف دينار وتحف كثيرة.

أبو الفداء

تقويم البلدان

صفحة رقم 129. ومما بين الغرب والجنوب عن سنترية على مسيرة ثمانية أيام أوجلة بلدة قريبة إلى الوصف من سنترية وعلى مسافة ثمانية أيام عن أوجلة زالة، وهي بلدة ولها ملك بذاتها وفي السمت المذكور عنها مدينة فزان وكذلك وراء فزان بثمانية أيام في السمت المذكور عن فزان بلاد كاور ومنها إلى بلاد التكرور وكاور جنوبي طرابلس الغرب سنترية بفتح السين المهملة ونون ساكنة ومثناة فوقية مفتوحة وراء مهملة ومثناة تحتية مشددة مكسورة وأوجلة بفتح الهمزة وسوكون الواو وفتح الجيم ولام وهاء وزالة بفتح الزاء المعجمة واللام المشددة وهاء وكاور بفتح الكاف وألف وبفتح الواو ثم راء مهملة ووجدناها في الكتب مكتوبة كوار بتقديم الواو.

ثالث الأقاليم العرفية

وهو بلاد المغرب

15. أَوْدَغُسْت | أطوال 15:00، 6:00. قانون... 26:00| من الثاني | من الغرب الجنوبي الأقصى في الصحراء | عن عبد الواحد بفتح الهمزة وسكون الواو وفتح الدال المهملة وفتح الغين المعجمة وسكون السين المهملة وفي آخرها تاء مثناة من فوق. وقال ابن سعيد وأَوْدَغُسْت يسكنها أخلاط من البربر المسلمين والرئاسة فيها لصنهاجة قال في القانون وهي في براري سودان المغرب. قال ابن سعيد أيضاً وغربي هذه المدينة صحراء يسر التي يقطعها المسافرون بين سجلماسة وغانة وهي طويلة عريضة يكابدون فيها شدة العطش والوهج وربما هبت ريح جنوبية عليهم فنشفت مياههم بقربهم فهم يعدون لذلك المياه التي تكون في بطون الإبل يذبحونها ويشربون مياه أجوافها وليس فيها ماء ولا مرعى وأكثر ما يكون فيها اللمط لصبره على العطش وهو حيوان يشبه الغزال ولكنه أشد منه ووجدت صحراء يسر مكتوبة في كتاب الأدريسي نزهة المشتاق صحراء نسر بنون قبل الياء.

37. غدامس | ابن سعيد 39:10، 29:10 | من الثالث | في صحراء في

الجنوب من بلاد الجريد | بفتح الغين والذال المعجمتين وألف وميثم مكسورة وسين مهملة. وبغذامس الجلود المفضلة وهي على طريق بلاد السودان المعروفين بالكانم قال في العزيزي مدينة غذامس مدينة جليلة عامرة في وسطها عين أزلية عليها أثر بنيان رومي عجيب ويفيض الماء منها ويقتسمها أهل المدينة بأقساط معلومة وعليه يزرعون وأهلها قوم من البربر مسلمون ولهم مسجد جماعة وليس لهم رئيس ومرجعهم إلى مشائخهم.

39. زويلة | أطوال 39:00، 30:00، ابن سعيد 43:00، 27:40 | من أول الثالث | من أطراف سودان الغرب قاعدة بلاد فزان | من المشرك بفتح الزاء المعجمة وكسر الواو وسكون المثناة من تحت ولام وهاء. وعن ابن سعيد وزولة قاعدة بلاد فزان وهي جرائر نخل ومياه في صحارى وهو تحت حكم السودان. ومن المشترك زويلة في قبلة أهل إفريقية قال وزويلة أيضاً مدينة محدثنة كالربض للمهدية جعلها المهدي أول خلفاء العلويين مسكناً لرعيته وسكن هو وجنده المهدية وزويلة محلة كبيرة بالقاهرة قال في العزيزي ومدينة زويلة مدينة كثيرة النخل وزرع أهلها يسقي من الآبار وأما ضبط فزان فإن قد تقدم أنه بالفاء والزاء المعجمة.

ذكر الجانب الجنوبي من الأرض وهو بلاد السودان

قال ابن سعيد ما معناه إنا إذا ابتدأنا في بلاد السودان من الغرب فأول ما نجد فيه من المدن التي للسودان العراة المهملين الذين هم كالبهائم. وذكر من بلادهم ما أسماؤها أعجمية غير محققة مدينة مانقلو حيث الطول 10 والعرض 4، ثم زفو حيث الطول 13 والعرض 10، وزغتة حيث الطول 24 والعرض 7، وبرسنة حيث الطول 29 والعرض 7، وكوشة على عيون تمد آخر الأنهار من البطيحة الثانية من بطائح النيل حيث الطول 53 والعرض 2. وتحتها يمر نيل مقدشو الخارج في شمالي الخط ومجالات القمر بين البطيحتين ومجالات أكراو وجبل القمر على ما نقل عن بطلميوس حيث الطول 15:50 والعرض 11. وحوله عمائر القمر الذين ينسب إليهم الجبل. قال وهم إخوة الصين. والمشهور عنهم وعن أكثر من يعمر تلك البلاد أكل من وقع إليهم من الناس...

ومن بلاد السودان قاعدة التكرور. قال ابن سعيد وهي على جانبي النيل حيث الطول 17 والعرض 13:35. قال والتكرور قسمان قسم حضر ويسكنون المدن وقسم

رحالة في البوادي. وبلاد النوبة على شرقي النيل وقاعدتهم دنقلة. وبلاد البجا بين بحر القلزم وبين بحر النيل وبينهم وبين النوبة جبال منيعة. وبلاد زغاوة تحاذي بلاد النوبة على ضفة النيل من الغرب. وبلاد الحبشة متصلة بالبحر وساحل بلاد الحبشة مقابل لبلاد اليمن. وللحبشة مدن كثيرة وبلادهم تتصل بالخليج البربري وليس ببر الحبشة شيء من النخيل. وبين عدن وبين زيلع ثلثة مجار وزيلع عن عدن في جهة الغرب بميلة إلى الجنوب.

قال ابن سعيد نهر الهو وهو من الأنهار التي ذكرها بطلميوس ينحدر من جبل الهو الذي جنوبيه خلف خط الاستواء وهذا الجبل رأسه حيث الطول 32 والعرض 9 خلف خط الاستواء فيمتد من هناك إلى أن يجوز الخط بدرجتين ودقائق ويخرج منه مع خط الاستواء شعبة يكون طولها درجتين ويخرج من رأسها الغربي النهر المذكور ويلتوي إلى الشمال كالنون ثم يصب في النيل حيث الطول 2:30 عن مدينة ملل بالميم ولام ثم لام ثانية التي هي من مدن الكفار المهملين وطولها 26 وعلى شطي هذا النهر من مبتدأه إلى مصبه مجالات نمنم وهم إخوة لملم في النسب وفي شرقيه جبل سامقدي وهو كبير مشرف فيه عقاقير ونبات من منافع تلك البلاد ويأوي إليه خلق من كفرة السودان المعروفين بسامقدي وطولها 30 وعرضها 8...

السابع والعشرون من الأقاليم العرفية

وهو الجانب الجنوبي وهن بلاد السودان

1. مدينة بريسا | بعضهم: الطول 22:00، العرض 3:30 | من الأول | من التكرور | قد كتبناها في الجدول حسبما وجدناها | قال ابن سعيد ومدينة بريسا من أشهر بلاد التكرور وهي على شمالي نيل غانة ولا يوجد بها الخبز إلا طرفة عند ملوكهم والأبنوس عندهم كثير وفي ديارهم شجر القطن قال الشريف الإدريسي مدينة أبريسا مدينة صغيرة لا سور لها غير أن أهلها تجار متمولون وهي كالقرية الحاضرة وفي جنوبيها على مسيرة عشرة أيام أرض لملم طائفة من السودان.

2. مدينة غانة | ابن سعيد: الطول 29:00، العرض 10:15 | خارجة عن الأول في الجنوب | من بلاد السودان | بفتح الغين المعجمة والألف ثم نون وهاء في الآخر | ومدينة غانة محل سلطان بلاد غانة ويدعى أنه من نسل الحسن بن علي عليهما السلم وإلى غانة تسير التجار المغاربة من سجلماسة في بر مقفر ومفاوز عظيمة

سحفير المعرب نحو خمسين يوماً ولا يحضرون منها غير الذهب الأحمر وقد حكى ابن سعيد أن لغانة نيلاً هو شقيق نيل مصر قال ومصبه في البحر المحيط عند طول عشرة ونيف وعرض أربع عشرة فيكون بين مصبه وبين غانة نحو أربع درج وغانة على ضفتي نيلها قال وغانة مدينتان إحداهما يسكنها المسلمون والأخرى الكفار.

3. كوكو | ابن سعيد: الطول 44:00، العرض 10:15. قانون: الطول 30:00 | خارجة عن الأول في الجنوب | الظاهر أنها لا تقبل التصحيف وهي مكتوبة في الكتب بكافين وواوين | قال ابن سعيد وكوكو مقر صاحب تلك البلاد وهو كافر يقابل من غربيه مسلمي غانة ومن شرقيه مسلمي الكانم ولكوكو نهر منسوب إليها وهي في شرقي نهرها قال في القانون وكوكو واقعة بين خط الاستواء وبين أول الأقاليم الأول قال في العزيزي وعرض كوكو عشر درج قال وهم مسلمون قال الإدريسي الذي صح أن نهرها يخرج من ناحية الشمال فيمر بها ويجوزها بأيام كثيرة ثم يغوص في الصحراء في رمال قال ومن كوكو إلى مدينة غانة شهر ونصف.

6. جيمي وهي على النيل | ابن سعيد: الطول 53:00، العرض: 9:00 | بين الأول والخط | قاعدة بلاد الكانم | بكشر الجيم والياء المثناة التحتية الساكنة وكسر الميم ثم ياء مثناة تحتية ثانثية في الآخر وجدناها في خط ابن سعيد | قال ابن سعيد وهي قاعدة بلاد الكانم وفيها سلطان الكانم المشهور بالجهاد وهو من ولد سيف بن ذي يزن وله في سمت جيمي مدينة فيها بساتين ومستنزه وهي على غربي النيل الآتي إلى مصر وبينها وبين جيمي أربعون ميلاً وبها فواكه لا تشبه فواكهنا وبها الرمان والخوخ وقصب السكر.

9. زغاوة | أطوال: الطول 56:00، العرض 1:00. قانون: الطول 60:00، العرض 11:00. رسم وابن سعيد: الطول 54:00، العرض 11:30 | خارجة عن الأول في الجنوب | من الزنج | الظاهر أنها بالزاء والغين المعجمتين ثم ألف وواو وهاء في الآخر | قال ابن سعيد وقاعدة الزغاويين حيث الطول 55 والعرض 14. وقد أسلم أهلها ودخلوا في طاعة الكانمي وفي جنوبيها مجالات الزغاويين والباجويين ممتدة في المسافة التي على اعوجاج النيل وهم جنس واحد غير أن الباجويين أحسن صورة وخلقاً من الزغاويين قال في العزيزي ومن دنقلة إلى بلاد زغاوة في سمت الغرب عشرون مرحلة.

15. قاعدة التكرور | ابن سعيد: الطول 17:00، العرض 3:30 | من الأول |

من التكرور | بفتح التاء المثناة الفوقية والكاف الساكنة وضم الراء المهملة وسكون الواو ثم راء ثانية في الآخر | قال ابن سعيد وقاعدة التكرور على جانبي النيل واسمها تكرور وهم قسمان قسم يحضر ويسكن المدن وقسم رجالة في البوادي وأكثر مجالاتهم في جانب النيل الشمالي ولهم في الجنوب قليل أماكن.

20. جاجة | ابن سعيد: الطول 48:20، العرض 7:00 | | | بالجيم والألف ثم جيم ثانية وهاء في الآخر هكذا وجدناها في كتاب ابن سعيد | قال ابن سعيد وهي كرسي مملكة مفردة ولها مدن وبلاد وهي الآن لسلطان الكانم المشهور بالجهاد وهي موصوفة بالخصب وكثرة الخيرات وبها الطواويس والببغاء والدجاج الرقط والغنم البلق التي على دون الحمير الصغار ولها صور تخالف صور كباشنا والزرافات وفي شرقيها على ركن بحيرة كوري المغزا دار صناعة سلطان الكانم والمغزا مدينة مشهورة.

21. كاتان | ابن سعيد: الطول 51:00، العرض 13:00 | | | بالميم والألف والتاء المثناة الفوفية ثم ألف ثانية ونون في الآخر هكذا وجدناها في كتاب ابن سعيد | قال ابن سعيد وهي في سمت ركن البحيرة المعروفة ببحيرة كوري وجنوبيها قاعدة الكانم خيمي [=جيمي] وهي من مدن الكانم وهذه البحيرة هي التي يخرج منها نيل مصر ونيل مقدشو ونيل غانة وطولها ألف ميل ورأسها المشرقي حيث الطول 51 ووسعها عند الرأس تسع درجات ونصف ثم يسير قليلاً قليلاً إلى أن يكون وسع وسطها أربع مائة وخمسون ميلاً ووسع ذيلها ثلثمائة وستون ميلاً قال ابن فاطمة ولم أر من رأى جانبها الجنوبي قال ويحدق بها من جميع جهاتها أمم طاغية من السودان الكفرة الذين يأكلون الناس أكثرها وهؤلاء الذين يذكرهم سكان الجانب الشمالي منهم بدي ومدينتهم تعرف بهم ومن تحتها يخرج نيل غانة ومجالاتهم حولها ويجاوروها من الجانب الغربي جابي وهم الذين يبردون أسنانهم وإذا مات لهم ميت دفعوه إلى جيرانهم وكذلك يفعل معهم جيرانهم.

ياقوت

معجم البلدان

أوذَغست: بالفتح ثم السكون وفتح الذال المعجمه والغين المعجمة وسكون السينِ المهملة والتاء فوقها نقطتان قال ابن حَوقل. دون لمطة من بلاد المغرب تامدلت وعلى جنوبها أوذَغَست مدينة وعلى سَمتها في نقطة المغرب أوليل وبين سجلماسة إلى أوذغست مسيرة شهرين على سَمت المغرب فتقع منحرفة محاذاة عن السوس الأقصى كأنها مع سجلماسة مثلث طويل الساقين أقصرُ أضلاعه من السوس إلى أوذغست وهي مدينة لطيفة أشبه شيء بمكة شرفها الله وحماها لأنها بين جبلين، وقال المهلبي أوذغست: مدينة بين جبلين في قلب البرجنوبي مدينة سجلماسة بينهما نيف وأربعون مرحلة في رمال ومفاوز على مياه معروفة وفي بعضها بيوت البربر، وأوذغست بها أسواق جليلة وهي ومصر من الأمصار جليل والسفر إليها متصل من كل بلد وأهلها مسلمون يقرأون القرآن ويتفقهون ولهم مساجد وجماعات أسلموا على يد المهدي عبيد الله وكانوا كفاراً يعظمون الشمس ويأكلون الميتة والدم وأمطارهم في الصيف يزرعون عليها القمح والدخن والذرة واللوبياء والنخل ببلدهم كثير وفي شرقيهم بلاد السودان وفي غربيهم البحر المحيط وفي شماليهم منفتلاً إلى الغرب بلاد سجلماسة وفي جنوبيهم بلاد السودان.

أوراس: بالسين المهملة. جبل بأرض إفريقية فيه عدة بلاد وقبائل من البربر.

أورَال: آخره لام أجبل ثلاثة سود في جوف الرمل الواحد وَرَلٌ فيقال الوَرَل الأيمن والورل الأيسر والورل الأوسط وحذاؤهن ماءة لبني عبد الله بن دارم يقال لها الورلة قال عبيد بن الأبرص:

وكأن أقتادي تضمن نسعها من وَحش أورال هبيط مُفرَد

باتت عليه ليلة رَجَبية نصباً تَسُح الماء أو هي أبرَد

وكان يسكنها بنو خفَاجة بن عمرو بن عُقيل: أورَبة: بالفتح ثم السكون وفتح الراء والباء موحدة وهاء. مدينة بالأندلس وهي قصبة كورة جيان وتسمى اليوم الحاضرة

فيها عيون وينابيع كذا ذكر صاحب كتاب فرحة الأنفُس في أخبار الأندلس، وقال أبو طاهر الأصبهاني. أورَبة من قرى دانية بالأندلس منها أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن غالب الحَضرَمي الأوربي حج وسمع بمكة زاهر بن طاهر الشحامي وعاد إلى الاسكندرية وحدث بها عنه، وقد كتبتُ عنه أناشيد عن أبيه وأورَبة قبيلة من البربر مساكنهم قرب فاس.

أولِيلُ: قال ابن حَوقل على سَمت أوذَغست المتقدم ذكرها في نقطة المغرب أوليل وهو على نحر البحر واَخر العمارة وأوليل معدن الملح ببلاد المغرب بينها وبين أوذغست شهر ومن أوليل إلى لَمطَةَ معدن الورق خمسة وعشرون ميلاً.

أوَمَة: بفتح أوله وثانيه. اسم مدينة في اَخر بلاد زَويلة السودان من جهة الفزان بينها وبين زَويلة ثمانية أيام.

التبرُ: بلاد من بلاد السودان تعرف ببلاد التبر وإليها ينسب الذهب الخالص وهي في جنوب المغرب تسافر التجار من سجلماسة إلى مدينة في حدود السودان يقال لها: غانة وجهازهم الملح وعقد خشب الصنوبر وهو من أصناف خشب القطران إلا أن رائحته ليست بكريهة وهو إلى العطرية أميل منه إلى الزفر وخرز الزجاج الأزرق وأسورة نحاس أحمر وحلق وخواتم نحاس لا غير ويحملون منها الجمال الوافرة القوية أوقارها ويحملون الماء من بلاد لمتونة وهم الملثمون وهم قوم من بربر المغرب في الروايا والأسقية وشيرون فيرون المياه فاسدة مهلكة ليس لها من صفات الماء إلا التميع فيحملون الماء من بلاد لمتونة ويشربون ويسقون جمالهم ومن أول ما يشربونها تتغير أمزجتهم ويسقون خصوصاً من لم يقدم له عادة بشربه حتى يصلوا إلى غانة بعد مشاق عظيمة فينزلون فيها ويتطيبون ثم يستصحبون الأدلّاء ويستكثرون من حمل المياه ويأخذون معهم جهابذة وسماسرة لعقد المعاملات بينهم وبين أرباب التبر فيمرون بطريقهم على صحاري فيها رياح السموم تنشف المياه داخل الأسقية فيتحيلون بحمل الماء فيها ليرمفوا به وذلك أنهم يستصحبون جمالاً خالية لا أوقار عليها يُعطشونها قبل ورودهم على الماء نهاراً وليلاَ ثم يسقونها نهلا وعللاً إلى أن تمتلىء أجوافها ثم تسوقها الحداة فإذا نشف ما في أسقيتهم واحتاجوا إلى الماء نحروا جملاً وترمقوا بما في بطنه وأسرعوا السير حتى إذا وردوا مياهاً أخر ملؤا منها أسقيتهم وصاروا مجدين بعَنَاءٍ شديد حتى يقدموا الموضع الذي يحجز بينهم وبين أصحاب التبر فإذا وصلوا ضربوا طبولاً معهم عظيمة تسمع من الأفق الذي يسامت هذا الصنف من السودان

ويقال: إنهم في مكامن وأسراب تحت الأرض عراة لا يعرفون سترا كالبهائم مع أن هؤلاء القوم لا يَدَعُون تاجراً يراهم أبداً وإنما هكذا تنقل صفاتهم فإذا علم التجار أنهم قد سمعوا الطبل أخرجوا ما صحبهم من البضائع المذكورة فوضع كل تاجر ما يخصه من ذلك كل صنف على جهة ويذهبون عن الموضع مرحلة فيأتي السودان ومعهم التبر فيضعون إلى جانب كل صنف منها مقداراً من التبر وينصرفون ثم يأتي التجار بعدهم فيأخذ كل واحد ما وجد بجنب بضاعته من التبر ويتركون البضائع وينصرفون بعد أن يضربوا طبولهم، وليس وراءَ هؤلاءِ ما يُعلم وأظن أنه لا يكون ثم حيوان لشدة إحراق الشمس وبين هذه البلاد وسجلماسة ثلاثة أشهر، قال ابن الفقيه: والذهب ينبت في رمل هذه البلاد كما ينبت الجزَرُ وإنه يقطَفُ عند بزوع الشمس قال: وطعام أهل هذه البلاد الذرَة والحمص واللوبيا ولبسهم جلود النمور لكثرة ما عندهم.

تكرُورُ: براءين مهملتين. بلاد تنسب إلى قبيل من السودان في أقصى جنوب المغرب وأهلها أشبهُ الناس بالزنوج.

خَاوَر: أكبر مدينة كورة كاوار جنوبي فزان، افتتحها عقبة بن عامر سنة سبع وأربعين بعد ممانعة وقتل أهلها وسباهم.

زَافُونُ: بعد الفاءِ واو ساكنة ونون، ولاية واسعة في بلاد السودان المجاورة للمغرب متصلة ببلاد الملثمين لهم ملك ذو قوة وفيه منعة وله حاضرة يسمونها زافون وهو يرتحل وينتجع مواقع الغيوث وكذا كان الملثمون قبل استيلائهم على بلاد المغرب وملك الزافون أقْوَى منهم وأعرت بالملك والملثمون يعترفون له بالفضل عليهم ويدينون له ويرتفعون إليه في الحكومات الكبار وورد هذا الملك في بعض الأعوام إلى المغرب حاجًا على أمير المسلمين ملك المغرب اللمتوني الملثم فتلقاه أمير المسلمين راجلاً ولم ينزل زافون له عن فرسه قال من راه بمراكُش يوم دخوله إليها وكان رجلاً طويلاً أسوَدَ اللون حالكه منقباً أحمر بياض العينين كأنهما جمرتان أصفر باطن الكف كأنما صُبغا بالزعفران عليه ثوب مقطوط متلقع برثاءٍ أبيض دخل قصر أمير المسلمين راكباً وأمير المسلمين راجل بين يديه.

زغاوَةُ: بفتح أوله وفتح الواو قيل هو بلد في جنوبي إفريقية بالمغرب وقيل قبيلة من السودان جنوبي المغرب. وفيهم يقول أبو العلاء المَعَرّيّ:

بسبع اماءٍ من زَغاوَةَ زُوجت من الروم في نُعماك سبعة أعبُد

وقال أبو منصور الزغاوة جنس من السودان والنسبة إليهم زغاوي وقال ابن

الأعرابي الزغي رائحة الحبش، وقال المهلبي: ولزغاوة مدينتان يقال لإحداهما مانان وللأخرى ترازكي وهما في الإقليم الأول وعرضهما إحدى وعشرون درجة قال ومملكة الزغاوة مملكة عظيمة من ممالك السودان في حد المشرق منها مملكة النوبة الذين بأعلى صعيد مصر بينهم مسيرة عشرة أيام وهم أمم كثيرة وطول بلادهم خمس عشرة مرحلة في مثلها في عمارة متصلة وبيوتهم جصوص كلها وكذلك قصر ملكهم وهم يعظمونه ويعبدونه من دون الله تعالى ويتوهمون أنه لا يأكل الطعام ولطعامه قَوَمَة عليه سراً يدخلونه إلى بيوته لا يعلم من أين يجيئونه به فإن اتفق لأحد من الرعية أن يلقى الابل التي عليها زاوُر قتل لوقته في موضعه وهو يشرب الشراب بحضرة خاصة أصحابه وشرابه يعمل من الذُرَة مقوى بالعسل وزيه لبس سراويلات من صوف رقيق والتشلاح عليها بالثياب الرفيعة من الصوف الإسماط والخز السوسي والديباج الرفيع ويده مطلقة في رعاياه ويسترق من شاء منهم أمواله المواشي من الغنم والبقر والجمال والخيل وزروع بلدهم أكثرها الذُرَة واللوبياءُ ثم القمح وأكثر رعاياه عراة مؤتزرون بالجلود ومعايشهم من الزروع واقتناءِ المواشي وديانتهم عبادة ملوكهم يعتقدون أنهم الذين يحيون ويميتون ويمرضون ويصحو وهي من مدائن البلماء وقصبة بلاد كاوار على سمت الشرق منحرفاً إلى الجنوب.

الزغباءُ: بفتح أوله وسكون ثانيه وباءٍ موحدة ممدودة بلفظ تأنيث الأزْغَب والزغَبُ الشعَيْرات الصفر على ريش الفرخ وفراخ زُغب ورجل أزغبُ الشعر ورقبة زغباء، وهو جبل من جبال القبلية عن أبي القاسم الزمخشري.

زغْبَةُ: بفتح أوله وسكون ثانيه. اسم قرية بالشام واشتقاقه من الذي قبله كأنه نقل عن زَغبَةَ واحدة الزغَب ثم سكن. قال الشاعر يذكره:

عليهن أطراف من القوم لم يكن   طعامُهُم حبا بزغبَةَ أغْبَرا

عليهن - أي على - الخيل - أطراف جمع طرف وهو الكريم من الفتيان.

زَغْرَتان: من قرى هراة. ينسب إليها أبو محمد خالد بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد المديني الهَرَوي أحد الشهود المعدلين بها ذكره أبو سعد في شيوخه وقال سمع أبا عبد الله محمد بن عبد العزيز بن محمد الفارسي قال وأجاز لي، وأبو عبد الله محمد بن الحسن الزغرتاني سمع أحمد بن سعيد روى عنه أبو عمر عبد الواحد بن أحمد المليحي الهروي.

سِجلْمَاسَةُ: بكسر أوله وسكون اللام وبعد الألف سين مهملة، مدينة في جنوب

المغرب في طرف بلاد السودان بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاءَ الجنوب وهي في منقطع جبل درَن وهي في وسط رمال كرمال زَرُود ويتصل بها من شماليها جدَدٌ من الأرض يمر بها نهر كبير يخاض قد غرسوا عليه بساتين ونخيلاً مد البصر وعلى أربعة فراسخ منها رستاق يقال له: تيومتين على نهرها الجاري فيه من الأعناب الشديدة الحلاوة مالا يُحد وفيه ستة عشر صنفاً من التمر ما بين عجوة ودقل وأكثر أقوات أهل سجلماسة من التمر وغلتهم قليلة ولنسائهم يدُ صناع في غزل الصوف فهن يعملن منه كل حسن عجيب بديع من الأزر تفوق القصب الذي بمصر يبلغ ثمن الأزار خمسة وثلاثين ديناراً وأكثر كأرفع ما يكون من القصب الذي بمصر ويعملون منه غفارات يبلغ ثمنها مثل ذلك ويصبغونها بأنواع الأصباغ وبين سجلماسة ودرعة أربعة أيام وأهل هذه المدينة من أغنى الناس وأكثرهم مالاً لأنها على طريق من يريد غانة التي هي معدن الذهب ولأهلها جرأة على دخولها.

سهُو: مدينة عامرة بينها وبين زويلة السودان مرحلة.

غَانَةُ: بعد الألف نون كلمة عجمية لا أعرف لها مشاركاً من العربية، وهي مدينة كبيرة في جنوبي بلاد المغرب متصلة ببلاد السودان يجمع إليها التجار ومنها يدخل في المفازات إلى بلاد التبر ولولاها لتعذَّر الدخول إليهم لأنها في موضع منقطع عن الغرب عند بلاد السودان فمنها يتزودون إليها وقد ذكرتُ القصة في ذلك في التبر.

غدَامِسُ: بفتح أوله وبضم وهي عجمية بربرية فيما أحسب، وهي مدينة بالمغرب ثم في جنوبية ضاربة في بلاد السودان بعد بلاد زافُون تدبغ فيها الجلود الغدامسية وهي من أجود الدباغ لا شيء فوقها في الجودة كأنها ثياب الخز في النعومة والإشراق وفي وسطها عين أزلية وعليها أثر بنيانٍ عجيب رومي يفيض الماء فيها ويقسمه أهل البلدة بأقساط معلومة لا يقدر أحد أن يأخذ أكثر من حقه وعليه يزرعون وأهلها بربر يقال لهم تناوريّة.

فَزانُ: بفتح أوله وتشديد ثانيه وآخره نون، ولاية واسعة بين الفيوم وطرابلس الغرب وهو في الإقليم الأول وعرضه إحدى وعشرون درجة قيل: سمّيت بفَران بن حام بن نوح عليه السلام بها نخل كثير وتمر كثير ومدينتها زَويلة السُودان والغالب على ألوان أهلها السوَادُ وقد ذكرهم جرير في شعر له، فقال:

قَفْراً تشابهُ آجالُ النعام به ... عِيداً تَلاقَت به فَرانُ والنوبُ

كاكدم: بضم الكاف الثانية وفتح الدال. مدينة بأقصى المغرب جنوبي البحر

متاخمة لبلاد السودان، ومنها كان ملوك العرب الملثمين الذين كانوا قبل عبد المؤمن، وبها تجار، وصناع أسلحة من الرماح والدرَق اللمطية، وما تشتد حاجة البادية إليه من الصناع لأن الملثمين في بلادهم كانوا لا يأوون إلى الجدران إنما كانوا أرباب خيام، وسكان بادية، وحبال خيامهم من الكتان الأبيض ينتجعون الكلأ وقبائلهم لمتونة، ومسوفة، وكدالة أكثرهم عدداً، ومسوفة أجملهم صوراً ولمتونة أشجعهم، والملك فيهم، ومنهم كان أمير الملثمين يوسف بن تاشفين الذي ملك الغرب كله، وبأرضهم حيوان يقال له: اللمط من جنس الظباءِ إلا أنه أعظم خلقاً أبيض اللون يتخذ من جلده الدرَقُ اللمطية قطر الدرقة منها عشرة أشبار لم يتحصن المحاربون قط بأوقى منها يكون ثمن الجيد منها بالمغرب ثلاثين ديناراً مومنية تدبغ في بلادهم باللبن، وقشر بيض النعام.

كانِم: بكسر النون. من بلاد البربر بأقصى المغرب في بلاد السودان، وقيل: كانم صنف من السودان، وفي زماننا هذا شاعر بمَراكش المغرب يقال له: الكانمي مشهود له بالإجادة، ولم أسمع شيئاً من شعره، ولا عرفت اسمه. قال البكري: بين زويلة وبلاد كانم أربعون مرحلة، وهم وراء صحراء من بلاد زويلة لا يكاد أحد يصل إليهم، وهم سودان مشركون، ويزعمون أن هناك قوماً من بني أمية صاروا إليها عند محنتهم ببني العباس، وهم على زي العرب وأحوالها.

كاوَار: ناحية واسعة في جنوبي فَزَّان خلف الواح بها مدن كثيرة منها قصر أم عيسى، وأبو البلماءِ، والبلاس، وأكبر مدنه أبو البلماء، وألوان أهلها صفر يلبسون ثياب الصوف، وفي بلادهم أسواق، ومياه جارية، ونخل كثير، ولهم سلطان في طاعة ملك الزغاوة.

كِنَاوَة: بالكسر وفتح الواو. اسم قبيلة من البربر في أرض الغرب ضاربة في بلاد السودان متصلة بأرض غانة والأرض تنسب إليهم.

كُوار: إقليم من بلاد السودان جنوبي فزانَ افتتحه عقبة بن عامر عن آخره وأخذ ملكه فقطع إصبعه فقال له: لم فعلت بي هذا؟ فقال: أدباً لك إذا نظرت إلى إصبعك لم تحارب العرب وفرض عليه ثلثمائة وستين عبداً.

كُوكُو: وهو اسم أمة وبلاد من السودان. قال المهلبي: كوكو من الإقليم الأول وعرضها عشر درج وملكهم يظاهر رعيته بالإسلام وأكثرهم يظاهر به وله مدينة على النيل من شرقيه اسمها سرناة بها أسواق ومتاجر، والسفرُ إليها من كل بلد متصل، وله

مدينة على غربي النيل سكنها هو ورجاله وثقاته، وبها مسجد يصلي فيه ومصلى الجماعة بين المدينتن،وله في مدينته قصر لا يسكنه معه أحد ولا يلوذ فيه إلا خادم مقطوع، وجميعهم مسلمون وزي ملكهم رؤساء أصحابه القمصان والعمائم، ويركبون الخيل أعراء ومملكته أعمر من مملكة زغاوه وبلاد الزغاوة أوسع وأموال أهل بلاده الأموال والمواشي وبيوت أموال الملك واسعة وأكثرها الملح.

لَمطَةُ: بالفتح ثم السكون وطاءٍ مهملة أرض لقبيلة من البربر بأقصى المغرب من البر الأعظم يقال للأرض وللقبيلة: معاً لمطة، وإليهم تنسب الدَرَقُ اللمطية زعم ابن مروان أنهم يصطادون الوحش، وينقعون جلودهم في اللبن الحليب سنة كاملة ثم يتخذون منها الدرق فإذا ضربت بالسيف القاطع نبا عنها.

نول: آخره لام وأوله مضموم وثانيه ساكن: مدينة في جنوبي بلاد المغرب هي حاضرة لنطة فيها قبائل من البربر وهي في غربي تينزرت.

ورتَنِيسُ: بالفتح ثم السكون وفتح التاءِ وكسر النون ثم ياءٍ وسين مهملة: حصن في بلاد سُمَيساط وقيل إنه من قرى حَرَان كانت بها وقعة لسيف الدولة بن حمدان. قال أبو فِرَاس:

وأوطأ حصني ورتَنِيسُ خُيُولَه وقبلهما لم يَقرَع النجمَ حافرُ

وورتَنِيس أيضاً مدينة في بحر الجنوب من ناحية إفريقية من بلاد البربر وبها مملكة مداسة أمة من صنهاجة بعضهم كُفّار وبعضهم مسلمون والكُفار منهم جاهلية يأكون الميتة ويعظمون الشمس ومع ذلك يخافون من الظلم وهم يتزوجون في المسلمين وهم وأكثر المسلمين منهم هَمج وأموالهم المواشي. وورتنيس على شعبة من النيل مجاورة لبلاد السودان بينها وبين كوكو من السودان عشر مراحل.

ورجَلانُ: بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح الجيم وآخره نون: كورة بين إفريقية وبلاد الجريد ضاربة في البر كثيرة النخل والخيرات يسكنها قوم من البربر ومجانة واسم مدينة هذه الكورة فجوهه.

ابن الأثير

الكامل في التاريخ

وفي هذه السنة استعمل عمرو بن العاص عقبة بن نافع بن عبد قيس، وهو ابن خالة عمرو، على إفريقية، فانتهى إلى لواتة ومزاتة، فأطاعوا ثم كفروا، فغزاهم من سنته، فقتل وسبى، ثم افتتح في سنة اثنتين وأربعين غدامس، فقتل وسبى، وفتح في سنة ثلاث وأربعين كوراً من كور السودان، وافتتح ودان، وهي من برقة، وافتتح عامة بلاد بربر...

ثم إن هشاماً استعمل على إفريقية بعد عبيدة عبيد الله بن الحبحاب، وكان على مصر، فسار عبيد الله إلى إفريقية سنة ست عشرة ومائة فأخرج المستنير من الحبس وولاه تونس. ثم إن عبيد الله جهز جيشاً مع حبيب بن أبي عبيدة وسيرهم إلى أرض السودان فظفر بهم ظفراً لم يظفر أحد مثله وأصاب ما شاء، ثم غزا البحر ثم انصرف...

وفيها عزل هشام عبيد الله بن الحبحاب الموصلي عن ولاية مصر واستعمله على إفريقية، فسار إليها. وفيها سير ابن الحبحاب جيشاً إلى صقلية، فلقيهم مراكب الروم فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزمت الروم، وكانوا قد أسروا جماعة من المسلمين، منهم عبد الرحمن بن زياد، فبقي أسيراً إلى سنة إحدى وعشرين ومائة، وفيها سير ابن الحبحاب أيضاً جيشاً إلى السوس وأرض السودان فغنموا وظفروا وعادوا. وفيها استعمل عبد الله بن الحبحاب عطية بن الحجاج القيسي على الأندلس، فسار إليها ووليها في شوال من هذه السنة وعزل عبد الملك ابن قطن، وكان له كل سنة غزاة، وهو الذي افتتح جليقية والبتة وغيرهما، وقيل: بل ولي عبيد الله بن الحبحاب إفريقة سنة سبع عشرة، وسترد أخباره هناك، وهذا أصح...

في هذه السنة استعمل هشام بن عبد الملك على إفريقة والأندلس عبيد الله ابن الحبحاب وأمره بالمسير إليها، وكان والياً على مصر، فاستخلف عليها ولده وسار إلى إفريقية، واستعمل على الأندلس عقبة بن الححجاج، واستعمل على طنجة ابنه إسماعيل، وبعث حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع غازياً إلى المغرب، فبلغ السوس الأقصى وأرض السودان فلم يقاتله أحد إلا ظهر عليه، وأصاب من الغنائم والسبي أمراً

عظيماً، فملئ المغرب منه رعباً، وأصاب في السبي جاريتين من البربر ليس لكل واحدة منهما غير ثدي واحد، ورجع سالماً...

ذكر خروج أبي يزيد الخارجي بإفريقية

في هذه السنة اشتدت شوكة أبي يزيد بإفريقية وكثر أتباعه وهزم الجيوش. وكان ابتداء أمره أنه من زناته، واسم والده كنداد من مدينة توزر من قسطيلية، وكان يختلف إلى بلاد السودان لتجارة، فولد له بها أبو يزيد من جارية هوارية، فأتى بها إلى توزر، فنشأ بها، وتعلم القرآن، وخالط جماعة من النكارية، فمالت نفسه إلى مذهبهم، ثم سافر إلى تاهرت فأقام بها يعلم الصبيان إلى أن خرج أبو عبدالله الشيعي إلى سجلماسة في طلب المهدي، فانتقل إلى تقيوس، واشترى ضيعة وأقام يعلم فيها.

ذكر ابتداء دولة الملثمين

في هذه السنة كان ابتداء أمر الملثمين، وهم عدة قبائل ينسبون إلى حمير، أشهرها: لمتونة، ومنها أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، وجدالة ولمطة.

وكان أول مسيرهم من اليمن، أيام أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، فسيرهم إلى الشام وانتقلوا إلى مصر، ودخلوا المغرب مع موسى بن نصير، وتوجهوا مع طارق إلى طنجة، فأحبوا الانفراد، فدخلوا الصحراء واستوطنوها إلى هذه الغاية.

فلما كان هذه السنة توجه رجل منهم، اسمه الجوهر، من قبيلة جدالة إلى إفريقية، طالباً للحج، وكان محباً للدين وأهله، فمر بفقيه بالقيراون، وعنده جماعة يتفقهون، قيل: هو أبو عمران الفاسي في غالب الظن، فأصغى الجوهر إليه، وأعجبه حالهم.

فلما انصرف من الحج قال للفقيه: ما عندنا في الصحراء من هذا شيء غير الشهادتين، والصلاة في بعض الخاصة، فابعث معي من يعلمهم شرائع الإسلام! فأرسل معه رجلاً اسمه عبد الله بن ياسين الكزولي، وكان فقيهاً، صالحاً، شهماً، فسار معه حتى أتيا قبيلة لمتونة، فنزل الجوهر عن جمله، وأخذ بزمام جمل عبد الله بن ياسين، تعظيماً لشريعة الإسلام، فأقبلوا إلى الجوهر يهنئونه بالسلامة، وسألوه عن الفقيه فقال: هذا حامل سنة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قد جاء يعلمكم ما يلزم في دين الإسلام. فرحبوا بهما، وأنزلوهما، وقالوا: تذكر لنا شريعة الإسلام، فعرفهم عقائد الإسلام وفرائضه، فقالوا: أما ما ذكرت من الصلاة، والزكاة، فهو قريب، وأما قولك من قتل

يقتل، ومن سرق يقطع، ومن زنى يجلد، أو يرجم، فأمر لا نلتزمه، اذهب إلى غيرنا.

فرحلا عنهم، فنظر إليهما شيخ كبير فقال: لا بد وأن يكون لهذا الجمل في هذه الصحراء شأن يذكر في العالم. فانتهى الجوهر والفقيه إلى جدالة، قبيل الجوهر، فدعاهم عبد الله بن ياسين والقبائل الذين يجاورونهم إلى حكم الشريعة، فمنهم من أطاع، ومنهم من أعرض وعصى.

ثم إن المخالفين لهم تحيزوا، وتجمعوا، فقال ابن ياسين للذين أطاعوا: قد وجب عليكم أن تقاتلوا هؤلاء الذين خالفوا الحق، وأنكروا شرائع الإسلام، واستعدوا لقتالكم، فأقيموا لكم راية، وقدموا عليكم أميراً. فقال الجوهر: أنت الأمير! فقال: لا، إنما أنا حامل أمانة الشريعة، ولكن أنت الأمير. فقال الجوهر: لو فعلت هذا تسلط قبيلي على الناس، ويكون وزر ذلك علي. فقال له ابن ياسين: الرأي أن نولي ذلك أبا بكر بن عمر، رأس لمتونة وكبيرها، وهو رجل سيد، مكشور الطريقة، مطاع في قومه، فهو يستجيب لنا لحب الرئاسة، وتبعه قبيلته، فنتقوى بهم.

فأتيا أبا بكر بن عمر، وعرضا ذلك عليه، فأجاب، فعقدوا له البيعة، وسماه ابن ياسين أمير المسلمين، وعادوا إلى جدالة، وجمعوا إليهم من حسن إسلامه، وحرضهم عبد الله بن ياسين على الجهاد في سبيل الله، وسماهم مرابطين، وتجمع عليهم من خالفهم، فلم يقاتلهم المرابطون بل استعان ابن ياسين وأبو بكر بن عمر على أولئك الأشرار بالمصلحين من قبائلهم، فاستمالوهم وقربوهم حتى حصلوا منهم نحو ألفي رجل من أهل البغي والفساد، فتركوهم في مكان، وخندقوا عليهم، وحفظوهم، ثم أخرجوهم قوماً بعد قوم، فقتلوهم، فحينئذ دانت لهم أكثر قبائل الصحراء، وهابوهم، فقويت شوكة المرابطين.

هذا وعبد الله مشتغل بالعلم، وقد صار عنده جماعة من يتفقهون، ولما استبد بالأمر هو وأبو بكر بن عمر عن الجوهر الجدالي وبقي لا حكم له تداخله الحسد، وشرع سراً في فساد الأمر، فعلم بذلك منه وعقد له مجلس، وثبت عليه ما نقل عنه، فحكم عليه بالقتل لأنه نكث البيعة، وشق العصا، وأراد محاربة أهل الحق، فقتل بعد أن صلى ركعتين، وأظهر السرور بالقتل طلباً للقاء الله تعالى. فاجتمعت القبائل على طاعتهم، ومن خالفهم قتلوه.

فلما كان سنة خمسين وأربعمائة قحطت بلادهم، فأمر ابن ياسين ضعفاءهم بالخروج إلى السوس وأخذ الزكاة، فخرج منهم نحو تسعمائة رجل، فقدموا سجلماسة،

وطلبوا الزكاة، فجمعوا لهم شيئاً له قدر وعادوا.

ثم إن الصحراء ضاقت عليهم، وأرادوا إظهار كلمة الحق، والعبور إلى الأندلس ليجاهدوا الكفار، فخرجوا إلى السوس الأقصى، فجمع لهم أهل السوس وقاتلوهم، فانهزم المرابطون، وقتل عبد الله بن ياسين الفقيه، فعاد أبو بكر بن عمر فجمع جيشاً وخرج إلى السوس في ألفي راكب، فاجتمع من بلاد السوس وزناتة اثنا عشر ألف فارس فأرسل إليهم وقال: افتحوا لنا الطريق لنجوز إلى الأندلس ونجاهد أعداء الإسلام، فأبوا ذلك، فصلى أبو بكر، ودعا الله تعالى، وقال: اللهم إن كنا على الحق فانصرنا، وإلا فأرحنا من هذه الدنيا. ثم قاتلهم وصدق هو وأصحابه القتال، فنصرهم الله تعالى، وهزم أهل السوس ومن معهم وأكثر القتل فيهم، وغنم المرابطون أموالهم وأسلابهم، وقويت نفسه ونفوس أصحابه، وساروا إلى سجلماسة فنزلوا عليها، وطلبوا من أهلها الزكاة، فامتنعوا عليهم، وسار إليهم صاحب سجلماسة فقاتلهم فهزموه وقتلوه، ودخلوا سجلماسة واستولوا عليها، وكان ذلك سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة.

ذكر ولاية يوسف بن تاشفين

لما ملك أبو بكر بن عمر سجلماسة استعمل عليها يوسف بن تاشفين اللمتوني، وهو من بني عمه الأقربين، ورجع إلى الصحراء، فأحسن يوسف السيرة في الرعية، ولم يأخذ منهم سوى الزكاة، فأقام بالصحراء مدة، ثم عاد أبو بكر بن عمر إلى سجلماسة، فأقام بها سنة، والخطبة والأمر والنهي له، واستخلف عليها ابن أخيه أبا بكر بن إبراهيم بن عمر، وجهز مع يوسف ابن تاشفين جيشاً من المرابطين إلى السوس ففتح على يديه.

وكان يوسف رجل ديناً، خيراً، حازماً، داهية، مجرباً، وبقوا كذلك إلى سنة اثنتين وستين وأربعمائة، وتوفي أبو بكر بن عمر بالصحراء، فاجتمعت طوائف المرابطين على يوسف بن تاشفين، وملكوه عليهم، ولقبوه أمير المسلمين، وكانت الدولة في بلاد المغرب لزناتة الذين ثاروا في أيام الفتن، وهي دولة ردية، مذمومة، سيئة السيرة، لا سياسة ولاديانة، وكان أمير المسلمين وطائفته على نهج السنة، واتباع الشريعة، فاستغاث به أهل المغرب، فسار إليها وافتتحها حصناً حصناً، وبلداً بلداً بأيسر سعي، فأحبه الرعايا، وصلحت أحوالهم.

ثم إنه قصد موضع مدينة مراكش، وهو قاع صفصف، لا عمارة فيه، وهو موضع متوسط في بلاد المغرب كالقيراون في أفريقية، ومراكش تحت جبال المصامدة الذين هم أشد أهل المغرب قوة، وأمنعهم معقلاً، فاختط هناك مدينة مراكش ليقوى على قمع أهل تلك الجبال إن هموا بفتنة، واتخذها مقراً، فلم يتحرك أحد بفتنة، وملك البلاد المتصلة بالمجاز مثل سبتة، وطنجة، وسلا، وغيرها، وكثرت عساكره.

وخرجت جماعة قبيلة لمتونة وغيرهم، وضيقوا حينئذ لثامهم، وكانوا قبل أن يملكوا يتلثمون في الصحراء من الحر والبرد، كما يفعل العرب، والغالب على ألوانهم السمرة، فلما ملكوا البلاد ضيقوا اللثام.

وقيل كان سبب اللثام لهم أن طائفة من لمتونة خرجوا مغيرين على عدو لهم، فخالفهم العدو إلى بيوتهم، ولم يكن بها إلا المشايخ، والصبيان والنساء، فلما تحقق المشايخ أنه العدو أمروا النساء أن يلبسن ثياب الرجال، ويتلثمن، ويضيقنه، حتى لا يعرفن، ويلبسن السلاح. ففعلن ذلك، وتقدم المشايخ والصبيان أمامهن، واستدار النساء بالبيوت، فلما أشرف العدو رأى جمعاً عظيماً، فظنه رجالاً، فقال: هؤلاء عند حرمهم يقاتلون عنهن قتال الموت، والرأي أن نسوق النعم ونمضي، فإن اتبعونا قاتلناهم خارجاً عن حريمهم.

فبينما هم في جميع النعم من المراعي إذ قد أقبل رجال الحي، فبقي العدو بينهم وبين النساء، فقتلوا من العدو فأكثروا، وكان من قتل النساء أكثر، فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلازمونه، فلا يعرف الشيخ من الشاب، فلا يزيلونه ليلاً ولا نهاراً، ومما قي في اللثام:

قوم لهم درك العلى في حمير وإن انتموا صنهاجةً بهم هم
لما حووا إحراز كل فضيلة غلب الحياء عليهم فتلثموا

اليعقوبي

كتاب البلدان

زويلة

ووراء ذلك بلد زويلة مما يلي القبلة، وهم قوم مسلمون أباضية كلهم. يحجون البيت الحرام وأكثرهم رواية، ويخرجون الرقيق السودان من الميريين، والزغاويين، والمرويين، وغيرهم من أجناس السودان لقربهم منهم، وهم يسبونهم. وبلغني أن ملوك السودان يبيعون السودان من غير شيء ولا حرب. ومن زويلة الجلود الزويلية، وهي أرض نخل، ومزدرع ذرة وغيرها، وبها أخلاط من أهل خراسان، ومن البصرة، والكوفة.

ووراء زويلة على خمس عشرة مرحلة مدينة يقال لها كوار، بها قوم من المسلمين من سائر الأحياء، أكثرهم بربر، وهم يأتون بالسودان. وبين زويلة ومدينة كوار وما يلي زويلة إلى طريق أوجلة وأجدابية قوم يقال لهم لمطة، أشبه شيء بالبربر، وهم أصحاب الدرق اللمطية البيض.

سجلماسة

وسجلماسة مدينة على نهر يقال له زير، وليس بها عين، ولا بئر. وبينها وبين البحر عدة مراحل، وأهل سجلماسة أخلاط، والغالبون عليها البربر، وأكثرهم صنهاجة، وزرعهم الدخن، والذرة، وزرعهم على الأمطار، لقلة المياه عندهم؛ فإن لم يمطروا لم يكن لهم زرع.

ومن مدينة سجلماسة قرى تعرف ببني درعة، وفيها مدينة ليست بالكبيرة تامدلت ليحيى بن إدريس العلوي، عليها حصن، كان منها عبد الله ابن إدريس. وحولها معادن ذهب وفضة. يوجد كالنبات، ويقال إن الرياح تسفيه. والغالب عليهم قوم من البربر يقال لهم بنو ترجا.

السوس الأقصى

ومن المدينة التي يقال لها تامدلت إلى مدينة يقال لها السوس - وهي السوس الأقصى - نزلها بنو عبد الله بن إدريس بن إدريس، وأهلها أخلاط من البربر، والغالب عليهم مداسة. ومن السوس إلى بلد يقال له أغمات، وهو بلد خصب فيه مرعى ومزارع في سهل وجبل، وأهله قوم من البربر من صنهاجة. ومن أغمات إلى ماسة، وماسة قرية على البحر، تحمل إليها التجارات، وفيها المسجد المعروف بمسجد بهلول، وفيه الرباط على ساحل البحر، ويلقى البحر عند مسجد بهلول المراكب الخيطية، التي تعمل بالأبلة، التي يركب فيها إلى الصين.

ومن سجلماسة لمن سلك متوجهاً إلى القبلة، يريد أرض السودان - من سائر بطون السودان - يسير في مفازة وصحراء مقدار خمسين رحلة، ثم يلقاه قوم يقال لهم أنبية، من صنهاجة، في صحراء ليس لهم قرار شأنهم كلهم أن يتلثموا بعمائمهم، سنة فيهم، ولا يلبسون قمصاً، إنما يتشحون بثيابهم، ومعاشهم من الإبل، ليس لهم زرع، ولا طعام، ثم يصير إلى بلد يقال له غسط، وهو وادٍ عامر، فيه المنازل وفيه ملك لهم لا دين له، ولا شريعة، يغزو بلاد السودان وممالكهم كثيرة.

الإصطخري

المسالك والممالك

(25 - 24)

... ولم نذكر بلد السودان في المغرب والبجة والزنج ومن في أعراضهم من الأمم، لأن انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة، وهؤلاء مهملون لهذه الخصال، ولا حظ لهم في شيء من ذلك فيستحقون به إفراد ممالكهم بما ذكرنا به سائر الممالك، غير أن بعض السودان المقاربين لهذه الممالك المعروفة يرجعون إلى ديانة ورياضة وحكم، ويقاربون أهل هذه الممالك مثل النوبة والحبشة، فإنهم نصارى يرتسمون بمذاهب الروم، وقد كانوا قبل الإسلام يتصلون بمملكة الروم على المجاورة، لأن أرض النوبة متاخمة لأرض مصر والحبشة على بحر القلزم، وبينها وبين أرض مصر مفازة فيها معدن الذهب، ويتصلون بمصر والشام من طريق بحر القلزم، فهذه الممالك المعروفة، وقد زادت مملكة الإسلام بما اجتمع إليها من أطراف هذه الممالك...

وأما جنوبي الأرض من بلاد السودان فإن بلد السودان الذي في أقصى المغرب على البحر المحيط بلد مكنف، ليس بينه وبين شيء من الممالك اتصال، غير أن حدا له ينتهي إلى البحر المحيط، وحدا له إلى برية بينه وبين أرض مصر على ظهر الواحات، وحدا له ينتهي إلى أن البرية التي قلنا أنه لا يثبت فيها عمارة لشدة الحر؛ وبلغني أن طول أرضهم نحو من سبعمائة فرسخ في نحوها، غير أنها من البحر إلى ظهر الواحات أطول من عرضها؛ وأما أرض النوبة فإن حدا لها ينتهي إلى أرض مصر، وحدا لها إلى هذه البرية التي بين أرض السودان ومصر، وحدا لها إلى أرض البجة، وبراري بينها وبين القلزم، وحدا إلى هذه البرية التي لا تسلك.

وسجلماسة مدينة وسطة من حد تاهرت، إلا أنها منقطعة لا يسلك إليها إلا في القفار والرمال، وهي قرية من معدن الذهب، بينها وبين أرض السودان وأرض زويلة، ويقال إنه لا يعرف معدن للذهب أوسع ذهباً ولا أصفى منه، إلا أن المسلك إليه صعب، والاستعداد شاق جداً، وهو من مملكة عبيد الله، ويقال إن كورة تاهرت بأسرها من إفريقية، إلا أنها مفردة بالاسم والعمل في الدواوين.

وسطيف مدينة كبيرة بين تاهرت وبين القيروان، وهو حصينة ولما كورة تشتمل على قرى كثيرة وعمارة متصلة، وسكانها كُتامة قبيلة من البربر، بهم ظهر عبيد الله، وكان أبو عبد الله المحتسب الداعي إلى عبيد الله مقيماً بينهم، حتى تمهد أمره بهم.

والقيروان هي أجل مدينة بأرض المغرب، خلا قرطبة بالأندلس، فإنها أعظم منها، وهي المدينة التي كان يقيم بها ولاة المغرب، وبها كان مقام الأغلب وبنيه إلى أن أزال ملكهم أبو عبد الله المحتسب. وخارج القيروان أبنية كانت معسكر آل الأغلب ومقامهم بها كان، وتسمى الرقادة، إلى أن استحدث عبيد الله المهدية على شط البحر، فأقام بها وانتقل عن رقادة.

وأما زويلة فإنها من حد المغرب، وهي مدينة وسطة لها كورة عريضة، وهي متاخمة لأرض السودان.

وبلدان السودان بلدان عريضة إلا أنها قفرة قشفة جداً، ولهم في جبال لهم عامة ما يكون في بلاد الإسلام من الفواكه، إلا أنهم لا يطعمونه، ولهم أطعمة يتغذون بها من فواكه ونبات وغير ذلك مما لا يعرف في بلدان الإسلام. والخدم السود الذين يباعون في بلدن الإسلام منهم، وليس هم بنوبة ولا بزنج ولا بحبشة ولا من البجة، إلا أنهم جنس على حدة أشد سواداً من الجميع وأصفى.

ويقال إنه ليس في أقاليم السودان من الحبشة والنوبة والبجة وغيرهم إقليم هو أوسع منه، ويمتدون إلى قرب البحر المحيط مما يلي الجنوب، ومما يلي الشمال على مفازة ينتهي إلى مفاوز مصر من وراء الواحات. ثم على مفاوز بينها وبين أرض النوبة، ثم على مفاوز بينها وبين أرض الزنج، وليس لها اتصال بشيء من الممالك والعمارات إلا من وجه المغرب، لصعوبة المسلك بينها وبين سائر الأمم، وهذه جوامع ما يحتاج إلى معرفته من شرقي البحر من المغرب...

36. وزويلة بلد في وجه أرض السودان، وهؤلاء الخدم السود أكثرهم يقع إلى زويلة، وأرض المغرب ما كان منها في شرقي بحر الروم بقرب الساحل فتعلوهم سمرة، وكلما تباعدواو فيما يلي الجنوب والمشرق ازدادوا سواداً، حتى ينتهوا إلى بلد السودان، فيكون الناس بها أشد الأمم سواداً. ومن كان في غربى بحر الروم بالأندلس فهم بيض زرق، وكلما ازدادوا وتباعدوا إلى ما يلي المغرب والشمال ازدادوا بياضاً، حتى يقطع عرض الروم كله إلى ظهر الصقالبة، فكلما ازدادوا وتباعدوا ازدادوا بياضاً وزرقة وحمرة شعر، إلا أن طائفة منهم يرجعون إلى سواد شعر وعيون وهم صنف من الروم من الجلالقة، ويقال إن أصلهم من الشام، كما أن طائفة بخر شنة من أرض الروم يرجعون إلى سواد شعر وعيون، يزعمون أنهم من العرب من غسان، وقعوا إليها مع جبلة بن الأيهم.

وبين المغرب وبلد السودان مفاوز منقطعة، لا تسلك إلا من مواضع معروفة، وكان ملوك إفريقية وبرقة أولاد الأغلب الذن كان قد أُنفذ في أول أيام بني العباس، ليكون في وجه إدريس بن إدريش، وملوك طنجة أولاد إدريس بن إدريس، وبينهم وبين إفريقية تاهرت الشراة، وهم الغالبون عليها. وملوك الأندلس بنو أمية، ما خطب لبني العباس بها إلى يومنا هذا، ويخطبون لأنفسهم وهم من أولاد هشام بن عبد الملك، وصاحبهم في وقت تصنيف هذا الكتاب هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام ابن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، وأول من عبر منهم إلى الأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان في أول ولاية بني العباس فتغلب عليها، وبقيت الإمارة في أولاده إلى وقت تصنيفنا هذا.

والغالب على مذاهب أهل المغرب كلهم مذاهب الحديث، وأغلبها عليهم في الفُتيا مذهب مالك بن أنس. والذي يقع من المغرب الخدم السود من بلاد السودان،

والخدم البيض من الأندلس، والجواري المثمنات، تأخذ الجارية والخادم من غير صناعة على وجوههما بألف دينار وأكثر. وتقع منها اللبّود المغربية والبغال للسرج والمرجان والعنبر والذهب والعسل والزيت والسَفن والحرير والسمور...

وأما الواحات فإنها بلاد كانت معمورة بالمياه والأشجار والقرى والناس، فلم يبقى فيها ديار، وبها إلى يومنا هذا ثمار كثيرة، وغنم قد توحشت فهي تتوالد، والواحات من صعيد مصر إليها في حد الجنوب نحو ثلاثة أيام في مفازة، وتتصل الواحات بالنوبة ببرية فتنتهي إلى أرض السودان.

عبد الله المالكي
رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية
تحقيق بشير البكوص
بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1994 (2 ج)

سكن الصائغ قال: كنت أعمل السلاسل من نحاس وأطليها بماء الذهب الذي يجعل في اللجم، وأبعث بها تباع ببلد السودان. فوقع في قلبي منها شيء، فسألت البهلول بن راشد فقال: ما عندي فيها علم، ولكن اذهب إلى ابن فروخ الفارسي وانظر الجواب وأخبرني. فذهبت إلى ابن فروخ فسألته. فقال: أهؤلاء الذين تبعث إليهم هذه السلاسل معاهدون؟ قلت: نعم. فقال: ما أرى هذا، وهذا غِشّ. فرجعت إلى البهلول فأخبرته. فقال: يا بني، هو كما قال ابن فروخ. ثم قال: ابن فروخ الدرهم الجيد وأنا الدرهم الستوق. قال سكن الصائغ: فما عرفت أي شيء الدرهم الستوق، فسألت عنه فقيل لي الدرهم النحاس. (1: 182 - 183)

لقد حدثتُ عن سعيد صاحب سحنون أنه قال: ترك أبو الفضل هذا من ميراث أبيه أكثر من ألف دينار لم يرثها، فقيل له في ذلك: ما منعك منها؟ قال: كان ذلك من تجارة العاج، فكرهت أن أتلبس بشيء جاء فيه عن أهل العلم كراهية. فترك ذلك تورعاً وزهداً. (1: 479)

عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي

تاريخ السودان

1. ذكر ملوك سغي
2. ذكر أول سن وهو علي كلن
3. استيلاء كنكن موسى على مملكة سغي
4. ذكر مملكة ملي
5. ذكر جني ونبذة من أخبارها
6. ذكر العلماء والصالحين والقضاة الذين سكنوا مدينة جني
7. ذكر تنبكت ونشأتها
8. تعريف التوارق
9. ذكر معض العلماء والصالحين الذين سكنوا مدينة تنبكت
10. نبذة من كتاب الذيل لأحمد بابا
11. ذكر آية المسجد الجامع ومسجد سنكري على الترتيب
12. ذكر الظالم الأبر سن علي
13. ذكر أمي المؤمنين أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر
14. ذكر أسكيا موسى وأسكيا محمد بنكن
15. ذكر أسكيا إسماعيل ابن أسكيا الحاج محمد
16. ذكر أسكيا إسحاق ابن أسكيا الحاج محمد
17. ذكر أسكيا داوود وغزواته
18. ذكر أسكيا الحاج ابن أسكيا داوود
19. ذكر أسكيا محمد بان ابن أسكيا داوود
20. ذكر أسكيا إسحاق ابن أسكيا داوود
21. ذكر مجيء الباشا جودر إلى بلاد السودان
22. ذكر أسر الأسكيا محمد كاغ

23. ذكر حروب الباشا محمود بن زرقون
24. ذكر الباشا محمد طابع
25. ذكر الباشا عمار
26. ذكر البلاد ماسنة
27. ذكر الباشا سليمان والباشا محمود لنك
28. ذكر آفات ومحن في مدينة مراكش
29. نبذة في تاريخ الملوك السعدية
30. ذكر الوفيات والتواريخ لبعض الأجناد والفقهاء والأعيان والإخوان والأقارب وذكر بعض الحوادث فيها على الترتيب
31. ذكر الباشاوات من سنة 1021 إلى سنة 1039
32. سياحة مؤلف الكتاب في بلاد ماسنة
33. ذكر الباشاوات من عام 1039 إلى عام 1042
34. ذكر الوفيات والتواريخ من العام الحادي والعشرين بعد الألف إلى العام الثاني والأربعين بعد الألف
35. ذكر الباشاوات من عام 1042 إلى عام 1063
36. ذكر الوفيات والتواريخ من عام الثاني والأربعين والألف إلى آخر العام الثالث والستين والألف
37. ذكر من تولى أمور البلاد من السودانيين من مجيء الباشا جودر إلى عام 1063
38. تاريخ السودان من عام 1063 إلى عام 1065

بسم الله الرحمان الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلم

الحمد لله المنفرد بالملك والبقاء والقدرة والثناء المحيط بعلمه بجميع الأشياء يعلم ما كان وما يكون وإن لو كان كيف يكون، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، سبحانه من ملك قادر وعزيز قاهر الذي قهر عباده بالموت والفناء وهو الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء. والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين سيدنا ومولانا محمد خاتم الرسل

والأنبياء وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين من أهل الصفوة والاعتناء، صلى الله عليه وعليهم أجمعين وسلم صلاة وسلاماً بلا انقطاع ولا انقضاء.

وبعد، فقد أدركنا أسلافنا المتقدمين أكثر ما يتوانسون به في مجالسهم ذكر الصحابة والصالحين رضي الله عنهم ورحمهم. ثم ذكر أشياخ بلادهم وملوكهم وسيرهم وقصصهم وأنبائهم وأيامهم ووفياتهم، وهو أحلى ما يرون وأشهى ما يتذاكرون حتى انقرض ذلك الجيل ومضى رحمة الله تعالى عليهم. وأما الجيل الثاني ما كان فيهم من له الاعتناء بذلك ولا من يقتدي بطريق السلف الماضين ولا من له همة عالية في وجوه البر، كلهم وإن كان فاهله ينعد ويحصر ولم يبق إلا من له همة سفسافية من التباغض والتحاسد والتدابر والاشتغال بما لا يعني من القيل والقال والخوض في عيوب الناس والافتراء عليهم، وذلك من أسباب خاتمة السوء. والعياذ بالله.

ولما رأيت انقراض ذلك العلم ودروسه وذهاب ديناره وفلوسه وأنه كبير الفوائد كثير الفرائد لما فيه من معرفة المرء بأخبار وطنه وأسلافه وطبقاتهم وتواريخهم ووفياتهم فاستعنت بالله سبحانه في كتب ما رويت من ذكر ملوك السودان أهل سغي وقصصهم وأخبارهم وسيرهم وغزواتهم وذكر تنبكت ونشأتهم ومن ملكها من الملوك وذكر بعض العلماء والصالحين الذين توطنوا فيها وغير ذلك إلى آخر الدولة الأحمدية الهاشمية العباسية سلطان مدينة حمراء مركش. فأقول وبالله تعالى أستعين وهو حسبي ونعم الوكيل.

الباب الأول

ذكر ملوك سغي

أول من تملك فيها من الملوك زا الأيمن، ثم زا زكي، ثم زا تكي، ثم زا أكي، ثم زا كو، ثم زا علي في، ثم زا بي كمي، هم زا بي، ثم زا كري، ثم زا يم كروي، ثم زا يم، ثم يم دنك كيبع، ثم زا كوكُرَى، ثم زا كِنكِن. هؤلاء أربعة عشر ملوكاً ماتوا جميعاً في جاهلية وما آمن أحد منهم بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

والذي أسلم منهم زا كُسُي يقال له في كلامهم مسلم دَم معناه أسلم طوعاً بلا إكراه رحمه الله تعالى، وذلك في سنة أربعمائة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم. ثم زا كُسُي داربي، ثم زا هن كُزونك دم، ثم زا بي كي كيم، ثم زا نِتناسني، ثم زا بي كَين كنب، ثم زا كين شَنِئِنبُ، ثم زا تب، ثم زا يم داد، هم زا فدزو، ثم زا علي كر، ثم زا بير فلك

رحمه الله تعالى، ثم زا ياسبي، ثم زا دورُ، ثم زا زنك بار، ثم زا بس بار، ثم زا بدا.

ثم سنّ الأول علي كلن وهو الذي قطع حبل الملك على رقاب أهل سغي من أهل ملّي وأعانه الله تعالى على ذلك. ثم السلطان بعده وليه أخوه سلمن نار وهما أبناء زا ياسبي، ثم سُنّ إبراهيم كبي، ثم سن عثمان كَنَف، ثم سن باركين أنكبي، ثم سن موسى، ثم سن بكر زنك، ثم سن بكر دل بُيُنب، ثم سن ماركري، ثم سن محمد داع، ثم سن محمد كوكيا، ثم سن محمد فار، ثم سن كربيف، ثم سن مار في كل جُم، ثم سن مارُاركَنَ، ثم سن مارارندن، ثم سن سليمن دام، ثم سن علي، ثم سن بار اسمه بكر داع، ثم بعده أسكيا الحاج محمد.

أما الملك الأول زا الأيمن أصل اللفظ جاء من اليمن قيل أنه خرج من اليمن هو وأخوه سائرين في أرض الله تعالى حتى انتهى بهما القدر إلى بلد كوكيا، وهو قديم جداً في ساحل البحر في أرض سغي كان في زمن فرعون حتى قيل حشر منه السحرة في مناظرته مع الكليم عليه السلام.

وقد بلغاه في بئس الحال حتى كادت صفة البشرية أن تزول عنهما من التقشب والتوسخ والتعري إلا خرق الجلود على أجسادهما. فنزلا عند أهل ذلك البلد فسألوهما عن مخرجهما، فقال الكبير جاء من اليمن. وبقوا لا يقولون إلا زا الأيمن فغيروا اللفظ لتعسر النطق به على لسانهم لأجل ثقله من العجمة. فسكن معهم ووجدهم مشركين لا يعبدون إلا وثناً، فيتمثل لهم الشيطان في صورة الحوت يظهر لهم فوق الماء في البحر والحلقة في أنفه في أوقات معلومة، فيجتمعون إليه ويعبدونه فيأمرهم وينهاهم فيتفرقون عن ذلك ويتمثلون بما أمر ويجتنبون ما نهى.

وهو يحضر ذلك معهم. فلما علم أنهم على ضلال مبين اضمر في قلبه قتله وعزم عليه فأعانه الله في ذلك فرماه بالحديد في يوم الحضور وقتله. فبايعوه وجعلوه ملكاً. قيل أنه مسلم لأجل هذا الفعل. والارتداد طرا في عقبه بعده ولا نعلم من ابتدأ به منهم ولا تاريخاً لخروجه من اليمن ولا لوصوله إليهم ولا ما هو اسمه، وبقي اللفظ علماً له وصدره لقباً لكل من تولى بعده من الملوك.

فتناسلوا وتكاثروا حتى لا يعلم عدتهم إلا الله سبحانه. وكانوا ذوي قوة ونجدة وشجاعة وعظم جثة وطول قامة بحيث لا يخفى ذلك على من كان عنده معرفة بأخبارهم وأحوالهم.

الباب الثاني

ذكر أول سن وهو علي كلن

وأما سن الأول علي كلن فكان من قصته أنه سكن في الخدمة عند سلطان ملي هو وأخوه سلمن نار ابنا زا ياسبي. أصل الاسم سليمن، فتغير من أجل عجمة لسانهم.

وأمّاهما شقيقتان. أما والدة علي كلن فاسمها أمّا، واسم والدة سلمن نار فتِ وهي الأولى عند أبيهما فأخذت كثيراً ولم تلد حتى أيست من الولادة، فقالت لزوجها تزوج أختي أمّا، لعلك تجد منها عقباً حيث لم تجده مني. فتزوجها وهم من الجاهلين لأنهما لا تشتركان في العصمة. فحملا بقدرة الله تعالى في ليلة، واحدة وولدتا كذلك في ليلة واحدة ولدين ذكرين. فطرحا على تراب في بيت مظلم دون غسل إلا في الغد، وهي عادة عندهم في المولود بليل. فابتدأن بغسل على كلن ولذلك جعل كبيراً ثم غسل سلمن نار فكان الأصغر بذلك.

فلما بلغا مبلغ الاستخدام أخذهما سلطان ملي لأنهم في طاعته حينئذ للخدمة على عادتهم لأولاد الملوك الذين في طاعتهم، وتلك العادة جارية عند سلاطين السودان كلهم إلى الآن. فمنهم من يرجع بعد الخدمة إلى بلادهم ومنهم من يبقى فيها إلى أن يموت.

وكانا هنالك، فعلي كلن يغيب في بعض الأحيان لطلب المنفعة على سبيل العادة، ثم يرجع وهو لبيب عاقل فطن كيس جداً. وبقي يزيد في الغيبة حتى قارب سغي وعرف طرقاتها كلها فأضمر الخلاف والهروب إلى بلده، فاحتال واستعد لذلك بما ينبغي من الأسلحة والأزودة وكمنهم في مواضع معروفات في طريقه.

ثم فطن أخاه وأطلعه على سره، فعلفا حصانهما علفاً مليحاً صحيحاً جيداً حتى لا يخشيان عليهما عجزاً ولا عياء فخرجا وتوجها لسغى. فلما فطن لهما سلطان ملي جعل في إثرهما رجالاً ليقتلوهما. وكلما دنوا منهما تقاتلوا فيكسرانهم وتكرر القتال بينهم فما نالوا منهما نيلاً حتى وصلا بلدهما.

فكان علي كلن سلطاناً على أهل سغي وتسمى بسن وقطع حبل الملك عن أهله من سلطان ملي. وبعد ما مات تولى أخوه سلمن نار ولم يجاوز ملكهم سغي وأحوازها فقط إلا الظالم الأكبر الخارجي سن علي. فزاد علي جميع من مضى قبلهم في القوة وكثرة الجند، فعمل الغزوات وطوّع البلادات وبلغ ذكره شرقاً وغرباً. وسيأتي الكلام

عليه إن شاء الله تعالى. وهو آخر ملكهم إلا ابنه أبو بكر داع تولى بعد موته، فعن قليل نزع الملك منه أسكيا الحاج محمد.

الباب الثالث

استيلاء كنكن موسى على مملكة سغي

تنبيه: سلطان كنكن موسى هو أول من ملك سغي من سلاطين ملي، وهو صالح عادل لم يكن فهم مثله في الصلاح والعدل، قد حج بيت الله الحرام وكان مشيه والله أعلم في أوائل القرن الثامن في قوة عظيمة وجماعة كثيرة، والجندي منهم ستون ألفاً رجالاً، ويسعي بين يديه إذا ركب خمسمائة عبيد، وبيد كل واحد منهم عصى من ذهب، في كل منها خمسمائة مثقال ذهب.

ومشى بطريق ولات في العوالي وعلى موضع توات. فتخلف هنالك كثير من أصحابه لوجع رجل أصابه في ذلك المشي تسمى توات في كلامهم. فانقطعوا بها وتوطنوا فيها، فسمى الموضع باسم تلك العلة.

فورخ أهل المشرق مجيئه ذلك وتعجبوا من قوته في ملكه، ولكن ما وصفوه بالجود والكرم لأنه ما تصدق في الحرامين مع كثرة ملكه إلا بعشرين ألفاً ذهباً بنسبة ما تصدق به أسكيا الحاج محمد فيهما، وهو مائة ألفاً ذهباً.

ودخل أهل سغي في طاعته بعد جوازه إلى الحج. وبطريقها رجع فابتنى مسجداً ومحراباً خارج مدينة كاغ صلى فيها الجمعة، وهي هنالك إلى الآن. وذلك عادته رحمه الله في كل موضع أخذته الجمعة فيها.

وطرق تنبكت فملكها وهو أول ملوك ملكها وجعل خليفته فيها وابتنى بها دار السلطنة فسميت مع دك معناه في كلامهم دار السلطان، والموضع معروفة الآن. وصارت مجزرة للجزارين.

قال أبو عبد الله محمد بن بطوطة في رحلته رحمه الله تعالى كان السلطان منسى موسى يعني مل كُي كنكن موسى لما حج نزل بروض لسراج الدين بن الكويك أحد كبار التجار من أهل الاسكندرية ببركة الحبش خارج مصر. وبها نزل السلطان واحتاج إلى مال فتسلَّفه من سراج الدين هذا وتسلف منه امراؤه أيضاً. وبعث معهم سراج الدين وكيله يقتضي المال فأقام بملي فتوجه سراج الدين بنفسه لاقتضاء ماله ومعه ابن له. فلما وصل تنبكت أضافه أبو إسحاق الساحلي. فكان من القدر موته تلك الليلة.

فتكلم الناس في ذلك واتهموا أنه سُم. فقال لهم ولده إني أكلت معه ذلك الطعام بعينه فلو كان فيه سم لقتلنا جميعاً، لكنه انقضى أجله. ووصل الولد إلى ملي واقتضى ماله وانصرف إلى ديار مصر.

قال فيه وبهذه البلدة قبر أبي إسحاق هذا وهو الشاهر [الشاعر] المعاني الغرناطي المعروف ببلده بالطويجن. وبها أيضاً قبر سراج الدين المذكور. انتهى كلامه.

وفي رابع وخمسين بعد سبعمائة سنة والله أعلم قدم الشيخ أبو عبد الله صاحب الرحلة تنبكت.

وقيل أن السلطان كنكن موسى هو الذي بنى صومعة الجامع الكبير التي بها. ثم غزا إليها في أيام دولتهم سلطان موش في جيش عظيم فخاف منهم أهل ملي وهربوا وتركوا البلد لهم، فدخل فيهم وأفسدها وحرقها وخربها وقتل من قتل وأكل ما فيها من الأموال وولى إلى أرضه. ثم رجع إليها أهل ملي وملكوها مائة عام.

قال العلامة الفقيه أحمد بابا رحمه الله تعالى خربت تنبكت ثلاث مرات: الأولى على يد سلطان موش والثانية على يد سُنِ علي والثالثة على يد الباشا محمود بن زرعون. قال وهي أضعف الأولين وقيل سفك الدماء في خراب سُن علي أكثر منها في خراب صاحب موش.

وفي آخر دولة أهل ملي بتنبكت أخذ توارق مغشرن يغيرون عليهم ويفسدون في الأرض من كل جهة ومكان. وسلطانهم أكِلّ أكملوَل. فتشوشوا من كثرة ضررهم، وأذايتهم ولا يقفون لهم للمقاتلة. قالوا البلد الذي لا يدافع عنها سلطانها لا يجوز له ملكها فسلّموا فيها ورجعوا إلى ملي. فملكها أكلّ المذكور أربعين عاماً تتمّة.

الباب الرابع

ذكر مملكة ملي

أما ملي فإقليم كبير واسع جداً في المغرب الأقصى إلى جهة البحر المحيط. وقَيَمَغَ هو الذي بدأ السلطنة في تلك الجهة، ودار إمارته غانة، وهي مدينة عظيمة في أرض باغن. قيل أن سلطنتهم كانت قبل البعثة فتملك حينئذ اثنان وعشرون ملكاً، وبعد البعثة اثنان وعشرون ملكاً. وعدد ملوكهم أربعة وأربعون ملكاً، وهم بيضان في الأصل ولكن ما نعلم من ينتمي إليه في الأصل. وخدامهم عكريون.

فلما انقرضت دولتهم خلفها في السلطنة أهل ملي وهم سودان في الأصل

فوسعت سلطنتهم كثيراً جداً فملكوا إلى حد أرض جني وفيها كَلَ وبندك وسِبرِدك في كل من الثلاثة اثنا عشرة سلطاناً. أما سلاطين كَلَ فمنهم ثمانية كلهم في جزيرته، أولهم في حد أرض جني متجاور بها وهو ورُن كي، ثم ونزُ كي، ثم كمِي كُي، ثم فدكُ كي بالدال الساكنة ويقال بالراء أيضاً، ثم كِركُ كي، ثم كَو كي، ثم فرما كي ثم زُنَ كي، هؤلاء ثمانية.

وأما الأربعة فهم على وراء البحر من جهة الشمال، أولهم كوكِرِ كي وهو في حد أرض زاغ من جهة المغرب، ثم يار كي، ثم سَنَ كي، ثم سام كي ويقال له سنبَنبَ وفال فرن هو رئيسهم، وهو الذي يتقدمهم عند سلطان ملي إذا اجتمعوا ويشاوره عنهم.

وأما سلاطين بندُكُ فكلهم في وراء البحر من جهة اليمين، أولهم في حد أرض جني أيضاً متجاور بها وهو كَو كي، ثم كعن كي، ثم سَمَ كي، ثم تَرَ كي، ثم داع كي، ثم أَمَ كي، ثم تعب كي ونسيت الخمسة.

وأما سلاطين سبدك فهم وراء هؤلاء متجاورون إلى جهة ملي.

وملك سغي وتنبكت وزاغ وميمة وباغن وما أحوازها إلى البحر المالح فكان أهلها في قوة عظيمة وبطشة كبيرة التي جاوزت الحد والغاية. وله قائدان أحد منهما صاحب اليمين يسمى سنفر زومع، والآخر صاحب الشمال يسمى فرن سُرا. وتحت يد كل واحد منهما كذا وكذا من القياد والجيش حتى أورث ذلك الطغيان والتجبر والتعدية في أواخر دولتهم فأهلكهم الله تعالى بعذاب من عنده، فظهر لهم في يوم واحد ضحوة في دار سلطنتهم جند الله تعالى في صور الأطفال الآدميين، فأعملوا فيهم السيوف حتى كادوا أن يفنوهم. ثم غابوا في ساعة واحدة بقدرة العزيز المقتدر ولا يدري أحد من أين جاؤوا ولا أين ذهبوا.

فمن يومئذ دخل فيهم الضعف والوهن إلى دولة أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد. فواصلهم هو وأولاده بعده بالغزو التي لم يبق فيهم من يرفّع رأسه. وتفرقوا ثلاثة فرق كل واحد في طرف الأرض بطائفته يزعم أنه سلطان وخالف عليهم القائدان فاستقل كل واحد منهما بنفسه في أرضه.

وفي قوتهم في أيام دولتهم الغلبة راموا أن يدخل أهل جنى في طاعتهم فلم يقبلوا ذلك لهم. فصار أهل ملي يغزوهم بغزوات كثيرات ومعارك هائلاة شديدات معدودات إلى تسعة وتسعين مرة. وكل ذلك يغلبهم أهل جني. وذكر في الأخبار أنه ولا بد تكمّل مائة بينهما في آخر الدهر وأن أهل جني هم الغالبون أيضاً يومئذ.

الباب الخامس

ذكر جني ونبذة من أخبارها

وهي مدينة عظيمة ميمونة مباركة ذات سعة وبركة ورحمة، جعل الله ذلك في أرضها خلقاً وجبلة وطبيعة، أهلها التراحم والتعاطف والمواساة. ولكن المنافسة على الدنيا كانت من أخلاقهم جداً، حيث إذا زادت لأحد جاه بينهم أجمعوا على بغضه من غير أن يظهروه له ولا يتبين إلا إذا وقع من صروف الزمان، والعياذ بالله. فساعتئذ يبدي كل واحد ما عنده من قول البغض وفعله.

وهي سوق عظيم من أسواق المسلمين. وفيها يلتقي أرباب الملح من معدن تغاز وأرباب الذهب من معدن بيطُ، وكلا المعدنين المباركين ما كانت مثلهما في الدنيا كلها. فوجد الناس بركتها في التجارة إليها كثيراً وجمعوا فيها من الأموال مالا يحصيه إلا الله سبحانه.

ومن أجل هذه المدينة المباركة تأتي الرفاق من جميع الأفاق إلى تنبكت شرقها وغربها يمينها وشمالها وهي لتنبكت في وراء البحرين بين المغرب واليمين في جزيرة البحر متى فارض، ومتى رجع تباعد عنها الماء. والوقت الذي تحيط بها من أغشت والذي تباعد عنها من فبراير.

أصل بنائها موضع يقال له زبر. ثم ارتحلوا منها إلى المكان الذي هي له اليوم. والموضع الأول بقربها من جهة اليمين. وهي محيطة بالسور، ولها إحدى عشر باباً. ثم سدوا الثلاثة فبقي على ثمانية أبواب. وإذا كنت بعيداً عنها من خارج لا تحسبها إلا غابة من كثرة الأشجار فيها. وإذا دخلت فيها كأنها ما فيها شجرة واحدة.

ابتدأت في الكفر في أواسط القرن الثاني من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام. ثم أسلموا عند تمام القرن السادس، والسلطان كنبر هو الذي أسلم وأسلم أهلها بإسلامه. ولما عزم على الدخول في الإسلام أمر بحشر جميع العلماء الذين كانوا في أرض المدينة فحصل منهم أربعة آلاف ومائتان عالماً، فأسلم على أيديهم، وأمرهم أن يدعوا الله تعالى بثلاث دعوات لمدينة تلك. وهي أن كل من هرب إليها من وطنه ضيقاً وعسراً أن يبدلها الله له سعة ويسراً حتى ينسى وطنه ذلك، وأن يعمرها بغير أهلها أكثر من أهلها، وأن يسلب الصبر من الواردين إليها للتجارة في ذات أيديهم لكي يملوا منها فيبيعونها لأهلها بناقص الثمن فيربحون بها. فقرؤوا الفاتحة على

هذه الدعوات الثلاث. فكانت مقبولة وهي كائنة إلى الآن بالمشاهدة والمعاينة.

ولما أسلم خرب دار السلطنة وحوّلها مسجداً لله تعالى وهو الجامع وأنشأ الأخرى لسكناهم وهي في مجاورة الجامع في جهة المشرق. وأرضها منعمة عامرة معمرة بالأسواق في أيام الأسبوع كلها. وقيل أن في ذلك الأرض سبعة آلاف قرية وسبعة وسبعين قرية متقاربة بعضها إلى بعض. وكفاك في المقارنة أن السلطان إذا احتاج إلى حضور من كان بقرب بحر دب في قريته خرج الرسول إلى باب السور فنادى الذي يريد حضوره، فيمشي الناس النداء له من قرية إلى قرية، فتبلغه في الساعة ويحضر. كفى بهذا عمارة.

وحد أرضها عرضاً من كِيَكي قرية في قرب بحر دب من جهة اليمين إلى يَو بلد في مجاورة أرض وُرُنَّ كي، وطولاً من تيني بلد في حد أرض سلطان كابر إلى وراء جبال تنبلا قبيلة من قبائل المجوسيين كثيراً جداً.

وللسلطان اثنا عشر أمراء الأجناد في جهة المغرب في أرض سنا لا يرصدون إلا غزو ملي كي. ويقاتلون جنده متى جاؤوا بلا استئذان السلطان. منهم يَوس وسُناسُرُ وماتِغ وكرمو وغيرهم، وسَن فرن هو بئيسهم. وكذلك له اثنا عشر أمراء الأجناد أيضاً في جهة المشرق وراء البحر من ناحية تِنلي. ولما توفي السلطان كُنبُرُ، رحمه الله تعالى الذي في السلطنة هو الذي جعل الأبراج على الجامع والذي خلف هذا، هو الذي بنى السور الذي يدور بالجامع. وأما سلطان آدم فهو من أفضل سلاطينهم.

ومن حين كانت المدينة ما غلب أحد أهلها من الملوك إلا شي علي وهو الذي طوّعهم وملكهم بعد ما حاصرهم في تلك المدينة سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام على ما قال أهلها. ومحلته في زُبر يقاتلونهم كل يوم حتى يدور بهم البحر، فيرتحل بجيشه إلى موضع يقال له تِبكة شي، سميت بذلك لأجل مكثه. فيها فيمكثون هنالك ويحرثون إلى أن ييبس الماء، فيرجعون إلى زبر للمقاتلة. وهم كذلك إلى العدد المذكور من الأعوام.

فحدثني به السلطان عبد الله بن السلطان أبي بكر حتى وقعت المجاعة في أهلها ونقصت قوتهم. ومع ذلك يكابرون بحيث لم يعلم شن علي في أحوالهم شيئاً. فعمل وعزم الرجوع إلى سغي. فبعث له واحد من كبراء جيش سلطان جني، قيل هو جد أنس مان سري محمد، فأخبره بأسرارهم ومنعه عن الرجوع حتى يرى ما يؤول إليه أمرهم. فتصبر وزاد في الحرص.

ثم شاور السلطان قياده وكبراء جيشه في التسليم لسي علي فوافقوه على ذلك فبعث المرسول إليه بذلك، فأنعم وقبل. ثم خرج إليه مع كبراء جيشه فلما قرب إليه نزل ومشى إليه برجله فلقيه بالترحيب والإكرام. فلما رآه شاباً حديث السن قبضه وأجلسه إلى جنبه فوق بساطه فقال: المقاتلة مع الولد في هذا الزمن كله. فأخبره خدامه أن والده مات في أثناء الفتنة فخلفه في السلطنة. هذا هو السبب في مجالسة سلطان سغى مع سلطان جني على بساط واحد إلى الآن.

فخطب منه أمه وتزوجها. قال لي السلطان عبد الله هذا الزواج هو الذي زاد السبعة الأيام على العدد المذكور فبعث مس علي حصان سرجه لركوب زوجته إليه في المحلة. فلما وصلته رد الحصان لسلطان جني عطية مع جميع آلائه، وهن عند أهل جني إلى الآن. فارتحل راجعاً إلى سغي مع زوجته.

وحدثني بعض الإخوان أنه سمع ولي الله تعالى الفقيه محمد عريان الرأس رحمه الله تعالى ونفعنا ببركاته يقول حاصر سن علي مدينة جني أربع سنين، فما نال من أهلها نيلاً. وما ذلك إلا أن الخلفاء الأربعة أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً رضي الله عنهم أجمعين يحرسونه تلك المدينة، كل واحد منهم على ركن واحد من أركانها الأربع، إلى ليلة واحدة ظلم واحد من كبراء الجيش مسكيناً ظلماً فاحشاً فسلّموا في المدينة. وفي غدها فتحها سن علي وملكها وفعل بها ما شاء. وقال الشيخ المذكور أن أرباب القلوب الذين ينظرون بنور الله كائنون في هذا الإقليم يومئذ.

وحدثني بعض الإخوان أن ذلك الظلم الذي ارتكبها ذلك الجيشي هو أن واحداً ضعيفاً مسكيناً غصب منه زوجته واصطفاها لنفسه وغلب عليها بالفحشاء، والعياذ بالله. فلذلك عاقب الله الجميع وسلب منهم ملكهم. ورأيت في خط بعض المعتبرين من الطلبة أن سن علي أقام بجني عاماً واحداً وشهراً واحداً ولم يبين أنه من هذه المرة أو من مرة أخرى.

الباب السادس

ذكر العلماء والصالحين والقضاة الذين سكنوا مدينة جني

وقد ساق الله تعالى لهذه المدينة المباركة سكاناً من العلماء والصالحين من غير أهله من قبائل شتى وبلاد شتى.

منهم مورمغ كنكي أصله تاي قرية بين بيغ وكوكر. فرحل إلى كابر لأخذ العلم،

ثم رحل إلى جني في أواسط القرن التاسع، والله أعلم. كان فقيهاً عالماً صالحاً عابداً جليل القدر. وأسرع إليه الطلبة لاقتباس فوائده. وفي نصف ليل يخرج من داره إلى الجامع لنشر العلم. فيجلس الطلبة حوله يأخذون العلم إلى الإقامة لصلاة الصبح ثم يعودون إليه بعد الصلاة إلى الزوال وفيها يرجع لداره، ثم بعد صلاة الظهر كذلك إلى صلاة العصر. هكذا عادته مع الطلبة إلى يوم واحد، وهو في صلاة الصبح مع الإمام، سمع رجلاً بجنبه يدعوا في السجود وهو يقول: اللهم إن مورمغ كنكر ضاق علينا بلد، أرحنا منه. فلما سلّم قال: يا رب لا أعرف مضرتي للناس حتى يدعى علي. فارتحل ويومئذ من جني إلى كونا فنزل فيها. وسمع بخبره أهل جنج فبعثوا له القارب وارتحل فسكن في جنج إلى أن توفي، رحمه الله تعالى ونفعنا به. وقبره هنالك معروف يزار.

ومنهم فودي الفقيه محمد ساقوا الونكري. كان فقيهاً عالماً عابداً صالحاً ولياً، فسكن جني في أواخر القرن التاسع، رحل من بلده في أرض بيط من أجل فتنة وقعت فيها، فتوجه إلى أرض جني. فبينما هو يسير ذات يوم حتى غربت عليه الشمس في موضع تأخر فيه لأجل صلاة المغرب وبسط برنسه وقام عليه يصلي، فلما فرغ من القريضة قام يصلي النوافل، فإذا اللصوص جاء عليه من ورائه فجذب البرنس تحت رجله جذباً رقيقاً. فنحي رجله ذلك عنه. ثم جذبه تحت الرجل لأخرى فنحاه عن بعضه وهو قائم ثابت لا يبرح. فخاف منه اللصوص ورد البرنس تحته على الحال الذي أخرجه، فتاب على يديه والله أعلم.

فوصل في مسيره إلى بلد طورا وهو قرية بين جنى وشينَ من وراء البحر. فسكن فيه وبقي يأتي إلى جني كل يوم الجمعة لإداء فريضتها ولا بعرفه أحد. ثم إن واحداً من كبراء سلطانها رءا في منامه قائلاً يقول له: إن هذا الرجل الذي يأتيكم من طورا لصلاة الجمعة فأي بلد سكن فيها هو وذريته فهو أمان لها من الفتن، وأي بلد كان فيها قبره من توجه إلى أهلها بما يروّعهم روّعه بما هو أكبر منه. وبقي يرا تلك الرؤيا إلى ثلاث مرات. وفي المرة الثالثة نعته له، فأخبر السلطان بالرؤيا إلى آخرها. فأمره أن يرصده حتى يراه ويأتيه به. فلما رءاه، وقد توفرت فيه النعوت، أتى به إلى السلطان فقال له: هذه النعت التي رأيت.

فأمره بالسكنى معهم في جني. فشرع في تخريب بيت الصنم الذي يعبده جاهليهم مع الديار التي هو في وسطها، لأنها بقيت على حالها من حين أسلموا خالية، وعدّها له دار السكنى، فأعطاه إياها وعظمه وأكرمه غاية التعظيم والإكرام. ومع ذلك

كله لا يغشاهم في ديارهم ولا يجالسهم، فراوده بذلك السلطان غير مرة فلم يجده منه. ثم إن يوماً واحداً جاءه رجل واحد من أهل طاعة السلطان بمأرب يريد منه أن يذهب معه إليه لإنقاذ روحه، وقد توعده بالقتل. فقال: ليس من عادتي أن آتيه. فقال له روحي على عنقك تخاصمك له به غداً بين يدي الله تعالى إن لم تذهب معي إليه. فلما سمع منه ذلك القول عظم عنده وحاوز العظمة، فذهب معه إليه في الحين والساعة عاجلاً سرعاً. فلما شوّر عليه تعجب من إتيانه فأذن له بالدخول، فأخبره بسبب مجيئه. قال: عفوت عنه مع قبيلته أجمع من كل ذنب وجناية ومن كل ما يلزمهم من وظائف السلطنة إلى آخر الدهر، لكن بشرط أن تأكل معي طعامي. فرضي، فلما أحضر الطعام بين أيديهما مد الشيخ يده إلى الطعام انتفخ يده انتفاخاً شديداً قبل دخوله في الطعام. قال له: رأيت ما جرى. فقام وخرج عزيزاً مكرماً. وترك السلطان ذلك الرجل وقبيلته كما وعد له. هذه عصمة من الله تعالى لأوليائه الصالحين.

ولما رءاه ولي الله تعالى الفقيه سيدي محمود بن عمر ابن محمد أقيت حين سافر إلى جني عجبه حاله جداً، فأثنى عليه لما رجع لتنبكت. ولذلك ولاه أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد قضاء مدينة جني بعد رجوعه من الحج. وهو أول قاض فيها الذي يفصل بين الناس بالشرع. وقبل ذلك لا يتفاصل الناس إلا عند الخطيب بالصلح، وهو شأن السودانيين، والبيضان هم يتحاكمون عند القضاة. وتلك عادة جارية عندهم إلى الآن. وجميع ما ذكر في بركاته رءاها الناس وشاهدوه معاينةً. والدعاء مستجابة عند روضته على القطع، وهي رحبة الجامع عند محراب السور المحيط بها الشمالي، رحمه الله تعالى ورضي عنه وأعاد علينا من بركاته أمين.

ومن أهله القاضي العباس كب جنوي بلداً وعكري أصلاً كان فقيهاً عالماً جليلاً فاضلاً خيراً سخياً، له قدم راسخ في السخوة. وقبره في داخل الجامع قريب إلى مؤخره من جهة اليمين، رحمه الله تعالى.

ومنهم القاضي محمود بن أبي بكر بغيغ والد العالمين الفاضلين الصالحين الفقيه محمد بغيغ والفقيه أحمد بغيغ وهو جنوي بلداً ونكري أصلاً كان فقيهاً عالماً جليلاً تولى القضاء بعد وفاة القاضي العباس كب في العام التاسع والخمسين بعد تسعمائة على يد أسكيا إسحاق ابن الأمير أسكيا الجاد محمد بعد رجوعه من غزوة تَعبَ.

ومنهم القاضي أحمد ترف بن القاضي عمر ترف جنوي الأصل. والبلد كان

خطيباً، ثم جعل إمام الجامع، ثم قاضياً فجمع المراتب الثلاث. ثم مشى للحج واستناب الخطيب ماما على الخطيبة والإمام يحيى على إمامة الجامع والقاضي مودب بكر تروري على القضاء. فتوفي هنالك رحمه الله تعالى، وبقوا في تلك المراتب راتبين. أما القاضي بكر المذكور فهو كَمَوِي أصلاً من أولاد سلاطينها، فزهد في السلطنة وخدم العلم فنال بركته.

ومنهم القاضي محمد بنب كنات ونكري الأصل، كان فقيهاً عالماً جليلاً، تولى القضاء بعد وفاة القاضي بكر تروري، فهو آخر القضاة في دولة السودانيين.

فهؤلاء من علماء مدينة جني المشهورين ولم نوردهم في هذا الكتاب إلا لأجل شهرتهم بالعلم تبركاً بذكرهم.

وأما ذكر القضاة على الترتيب فأولهم القاضي محمد فودي سانو، ثم القاضي فوك، ثم القاضي كناجي، ثم القاضي تنتاع، عم القاضي سنقم، ثم القاضي العباس كب، ثم القاضي محمود بغيغ، ثم القاضي عمر ترف، ثم القاضي تلماكلس، ثم القاضي أحمد ترف بن القاضي عمر ترف، ثم القاضي موذب بكر تروري، ثم القاضي محمد بنب كنات. فهؤلاء قضاة من أول دولة أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد إلى آخرها. والقضاة بعدهم في المدينة المذكورة سيأتي ذكرهم إن شاء الله تعالى عند ذكر الدولة الأحمدية الهاشمية العباسية الملوية صاحب مراكش رحمه الله تعالى.

وأما علماء البيضان فقد سكن فيها كثير من أهل تنبكت وسيأتي ذكر بعضهم إن شاء الله عند ذكر الوفيات في الدولة الأحمدية المذكورة.

الباب السابع

ذكر تنبكت ونشأتها

فنشأت على أيدي توارق مقشرن في أواخر القرن الخامس من الهجرة. فنزلوا فيها راتعين. وفي وقت الصيف في ساحل البحر في قرية أمطغ ينزلون، وفي وقت الخريف يرتحلون ويصلون أروان منازلاً ويبدلون، وهي حدهم في العوالي.ثم اختاروا موضع هذه البلدة الطيبة الطاهرة الزكية الفاخرة ذات بركة ونجعة وحركة التي هي مسقط رأس وبغية نفس، ما دنستها عبادة الأوثان ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمان، مأوى العلماء والعابدين ومألف الأولياء وازاهدين وملتقى الفلك والسيار. فجعلوها خزانة لمتاعهم وزروعهم إلى أن صار مسلكاً للسالكين في ذهابهم

ورجوعهم. وخازنهم أمتهم مدعوة بتنبك، ومعناه في لغاتهم العجزة، وهي بها، فسميت الموضع المبارك بها.

ثم أخذالناس يسكنون فيه ويزداد بقدرة الله تعالى وإرادته في العمارة ويأتيه الناس من كل جهة ومكان حتى صار سوقاً للتجارة. وأكثر الناس إليه وروداً للتسوّق أهل وغد، ثم أهل تلك الجهة كلها. وكان التسوق قبل في بلد بير وإليه يرد الرفاق من الآفاق وسكن فيه الأخيار من العلماء والصالحين وذوي الأموال من كل قبيلة ومن كل بلاد، من أهل مصر ووجل وفزان وغدامس وتوات ودرعة وتفلالة وفاس وسوس وبيط إلى غير ذلك.

ثم انتقل الجميع إلى تُنْبُكْت قليلاً قليلاً حتى استكملوا فيه وزيادة مع جميع قبائل الصنهاجة بأجناسها. فكانت عمارة تنبكت خراب بير، ولم أتته العمارة إلا من المغرب، لا في الديانات ولا في المعاملات. فأول الحال كانت مساكن الناس فيه زريبات الأشواك وبيوت الأخشاش. ثم تحولوا عن الزريبات إلى الصناصن. ثم تحولوا عنها إلى بناء الحيوط أسواراً قصاراً جداً، بحيث من وقف في خارجها يرا ما في داخلها. ثم بنوا مسجد الجامع على حسب الإمكان، ثم مسجد سنكري كذلك. ومن وقف في بابه يومئذ يرى من يدخل في مسجد الجامع لأجل تخلية البلد من الحيطان والبنيان. وما ثبتت عمارته إلا في أواخر القرن التاسع، وما تكاملت البناء في الالتئام إلا في أواسط القرن العاشر في مدة أسكيا داوود ابن الأمير أسكيا الحاج محمد.

فأول من ابتدأ فيه الملك كما تقدم أهل ملي، ودولتهم فيه مائة عام، وتاريخه من عام سبعة وثلاثين في القرن الثامن ثم. توارق مغشرن ودولتهم أربعون عاماً، وتاريخه من عام سبعة وثلاثين في القرن التاسع. ثم سن علي، وتاريخه من عام ثلاثة وسبعين في القرن التاسع، ومدة ملكه فيه أربعة وعشرون سنة. ثم أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد، ودولته مع عقبه مائة عام وأحد، وتاريخه رابع عشر من جمادي الأخرى في العام الثامن والتسعين في القرن التاسع، وآخرها سابع عشر من جمادي الأخرى في العام التاسع والتسعين في القرن العاشر. ثم الشريف الهاشمي السلطان مولاي أحمد الذهبي، وتاريخه انقراض دولة أهل سغي، وهو السابع عشر من جمادي الأخرى في العام التاسع والتسعين في القرن العاشر. وكان ملكه فيه اليوم خمسة وستين سنة.

أما أكِل سلطان توارق فقد بقي في أيام سلطنته على حالهم القديمة من سكني البرارى في الحلات ويتبعون المراتع، وقوض أمر البلد على تنبكت كي محمد نض،

وهو صنهاجي من قبيلة آخر أصله شنجيط. وهو أصل جميع هذه القبيلة، كما أن أصل أهل ماسنة تشيت وأهل تفرَست بير، بعد ما خرجوا من الغرب. وأمه بنت سوم عثمان، وهو في دولة أهل ملي من أرباب هذا المكان. واللقب الذي تبدل بتبدل الدولة وبيده الأمر والنهي والقبض والدفع، وغير ذلك الحاصل هو حاكم البلد. فبنى المسجد المعروف وجعل صاحبه وحبيبه الولي الفاضل القطب الكامل سيدي يحيى التادلي إماماً فيه. فتوفيا معا في آخر هذه الدولة. وراء الشيخ محمد نض في آخر عمره في المنام ليلةً واحدة أن الشمس غربت فغاب القمر بعدها في فورها. فقصها على السيد فقال له: إن كنت لا تخاف عبّرتها لك. فقال: لا أخاف. قال: أموت وتموت بعدي بقرب. فاغتم ساعتئذ فقال: ألست قلت أنك لا تخاف؟ فقال: هذا الغم ليس من خوف الموت، إنما هو من حنانة على أولادي الصغار. فقال له: فوض أمرهم إلى الله تعالى. فمات سيدي يحيى فمن قليل مات هو، رحمهم الله تعالى. ودفن في مجاورة السيد في تلك المسجد. وقيل ذهب بصره في آخر عمره ولم يفطن به الناس إلا ليلة وفاة السيد. لما زوحم على جنازته أخذ يضرب الناس بالسوط وإذا كان بصيراً لا يضرب أولئك الناس.

وبعد وفاته ولي السلطان أكِل ولده الأكبر عمار مقامه. ثم تبينوا في آخر دولتهم بالظلم الفاحش الكثير الطغيان الكبير، وبقوا يسعون في الأرض فساداً، ويخرجون الناس من ديارهم قهراً ويزنون بحرمائهم. وما هي عادتهم مع تنبكت كي من العطية منعه منها أكِل. وكل ما جاء من الغرامة فلتنبكت كي منها ثلثها عادة. ومتى جاء من الحالات ودخل في البلد يكسبهم منها ويضيعهم ويفعل فيها جميع مراواته، والثلثان يقسمها على خدامه القينين.

وفي يوم واحد جاء ثلاثة آلاف مثقال ذهباً ففرقها عليهم بالعود في يده - وعادتهم أن لا يمسوا الذهب بأيديهم - ثلاثة فرق، فقالوا: هذا ثمن كسوتكم وهذا ثمن أسواطكم وهذا عطية لكم. قالوا له: هذا لتنبكت كي عادةً. قال: من هو تنبكت كي، وما يعني، وما فائدته؟ اذهبوا به فهو لكم.

فغضب وجمع كيده في الانتقام منه، فبعث لسن علي سراً أن يأتي حتى يمكن له تنبكت فيملكه. وأضعف له أحوال أكل في كل شيء في قدره وفي جسمه، وبعث له نعله ليعلم حقيقته وهو رجل نحيف قصير جداً. فأنعم له سن علي. فبينما أكل وتنبكت كي عمر ذات يوم جالسين على تنبكة أمظغ فإذا خيل سن علي وقوف في ساحل البحر من جهة كرم. فعزم أكل على الهروب ساعتئذ، وهو هروبه إلى بير مع فقهاء سنكري.

وأما وراء البحر ما دخل فيها ملك التوارق أصلاً. فشرع تنبكت كي في إرسال القوارب الذين يقطعون فيه. ثم جاء سن علي في جهة هَوص فهرب عمر إلى بير خوفاً من مؤاخذة سن علي مما صدر منه قبل من المخالفة. فقال لأخيه المختار بن محمد نض: هذا الرجل ولا بد ينتقم مني، وتأخر إلى الغد وامض إليه بنفسك كأنك تخبره به، وقل له من أمس ما رأينا أخي عمر ولا أحسبه إلا هرب. وإذا سبقت إليه بذلك الخبر لعل إن شاء الله يجعلك تنبكت كي، فتبقى دارنا في ستر الله. وإذا ما فعلت هذا التدبير لا بد يقتلني ويقتلك، ويخرب دارنا ويشتّت شملنا. فكان الأمر بقدرة الله وإرادته كما ظن عمر، وهو رجل عاقل فاطن لبيب. ثم دخل تنبكت وخربها كما سيأتي إن شاء الله تعالى ذكره، بعد ذكر العلماء والصالحين الساكنين بتنبكت تبركاً بهم. أنالها الله تعالى بركاتهم في الدارين.

الباب الثامن

تعريف التوارق

وهم المسوفة ينتسبون إلى صنهاجة. وصنهاجة يرفعون أنسابهم إلى حمير كما في كتاب الحلل الموشية في ذكر أخبار المراكشية. ونصه: هؤلاء لمتون ينتمون إلى المتونة وهم من أولاد لمت، ولمت وجدال ولمط ومسطوف ينسبون إلى صنهاجة. فلمت جد لمتونة، وجدال جد جدالة، ولمط جد لمطة، ومسطوف جد مسوفة، وهم ظواعن في الصحراء رحالة لا يطمئن بهم منزل، ليس لهم مدينة يأوون إليها، ومراحلهم في الصحراء مسيرة شهرين ما بين بلاد السودان وبلاد الإسلام. وهم على دين الإسلام وأتباع السنة، وهم يجاهدون السودان.

وصنهاجة يرفعون أنسابهم إلى حمير، وليس بينهم وبين البربر نسب إلا الرحم، وإنهم خرجوا من اليمن وارتحلوا إلى الصحراء، وطنهم بالمغرب. وسبب أن أحد الملوك التبابعة لم يكن فيمن تقدمه من ملوك قومه مثله، ولم يبلغ أحد منهم في فضله وعزة ملكه وبُعد غوره ونكاية عدوه وقهره للعرب والعجم مبلغه. فأنسى جميع الأمم ممن كان قبله وكان قد أخبره بعض الأخبار بحوادث الأيام وبالكتب المنزلة من الله على رسوله عليه السلام وأن الله عز وجل يبعث رسولاً هن خاتم الأنبياء ويرسله إلى جميع الأمم، فآمن به وصدق بما يأتي به. قال فيه في أبيات من الشعر فقال:

شهدت على أحمد أنه ... رسول الله بارئ النسم

فلو مد عمري إلى عمره ... لكنت وزيراً له وابن عم

في أبيات كثيرة قصتها مشهورة، وسار إلى اليمن ودعا أهل مملكته إلى ما آمن به فلم يجبه إلى ذلك إلا طائفة من قومه حمير. ولما مات غلب أهل الكفر أهل الإيمان فكان كل من آمن به مع تبع بين قتيل وطريد ومطلوب وشريد. فعند ذلك تلثموا لفعل نسائهم في ذلك الزمان، وفروا بأنفسهم وتفرقوا في الأقطار أيادي سبا. فكان خروج سلف المتلثمين عن اليمن ما ذكر، وكانوا أول من تلثم. ثم انتقلوا من قطر إلى قطر ومن مكان إلى مكان بانتقال الأيام والأزمان حتى صاروا بالمغرب الأقصى بلاد البرابر. فاحتلوا بها واستوطنه، وصار اللثام زيهم الذي أكرمهم الله به ونجاهم لأجله من عدوهم، فاستحسنوه ولازموه وصار زياً لهم ولأعقابهم، لا يفارقونه إلى هذا العهد. فتبربرت ألسنتهم بمجاورتهم البرابر وكونهم معهم ومصاهرتهم إياهم. والأمير أبو بكر بن عمر بن إبراهيم ابن تورقيت اللمتوني الذي خط مدينة حمراء مراكش هو الذي أخرجهم من المغرب إلى الصحراء لما غارت جدالة على لمتونة. واستخلف حينئذ ابن عمه يوسف بن تاشفين على المغرب. انتهى منه باختصار.

الباب التاسع

ذكر بعض العلماء والصالحين الذين سكنوا مدينة تنبكت

ذكر بعض العلماء والصالحين الذين سكنوا تنبكت سلفاً وخلفاً، رحمهم الله تعالى ورضي عنهم ونفعنا ببركاتهم في الدارين، وذكر بعض فضائلهم ومآثرهم. وكفى في ذلك ما رواه الشيوخ الثقات عن الشيخ العالم الفاضل الصالح الولي ذي الكرامات والعجائب الفقيه القاضي محمد الكابري، رحمه الله تعالى أنه. قال: أدركت من صالحي سنكري من لا يقدم عليه في الصلاح أحد إلا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم أجمعين.

منهم الفقيه الحاج جد القاضي عبد الرحمان بن أبي بكر بن الحاج، تولي القضاء بتنبكت في أواخر دولة أهل ملي، وهو أول من أمر الناس بقراءة نصف حزب من القرآن للتعاليم في جامع سنكري بعد صلاة العصر وبعد صلاة العشاء. جاء هو وأخوه السيد الفقيه إبراهيم من بير فسكن في بنك، وقبره معروف هنالك يزار. قيل أنه من الأبدال. وروي عن شيخنا الفاضل الزاهد الفقيه الأمين بن أحمد أنه قال: جاءت غزوة سلطان موش في زمانه إلى بنك فخرج الناس إلى قتاله، ووجد الحال أن الجماعة قعود عنده ساعتئذ. فتكلم بما تكلم على شيء من الدخن وأمرهم بأكله فأكلوه إلا واحد

منهم وهو صهره فاستحي لأجل المصاهرة. وقال لهم: اذهبوا إلى القتال ولا يضركم من سهامهم. فسلموا جميعاً إلا الرجل الذي لم يأكله فمات من ذلك القتال. فانهزم سلطان موش وطردوه مع جيشه، وما نالوا من أهل بنك ببركة هذا السيد المبارك.

ومنه تنسل ولي الله تعالى الفقيه إبراهيم بن ولي الله تعالى الفقيه القاضي عمر الساكن يِندِبُغ وهما من عباد الله الصالحين. أسكيا الحاج محمد هو الذي ولاه قضاء تلك الناحية. وله ابن أخت كان يزور تنبكت بعض الأحيان فاشتكى به القاضي الفقيه محمود عند الأمير أسكيا الحاج محمد أنه ينقل كلامهم إلى أهل يندبغ على وجه النميمة. فلما نزل تِلَ جاءه الفقيه القاضي عمر في جماعته من أهل يندبغ للسلام عليه، فسأل عن ابن أخته قالوا له: هاهو ذا قال له: أنت الذي تنقل الكلام بين الفقيه محمود وبين خالك بالنميمة. فغضب القاضي عمر وقال له: أنت هو النمام الذي جعلت القاضي في تنبكت وجعلت القاضي في نيدبغ فقام مغضباً فسار نحو المرسى. قال لأصحابه: نسير ونقطع البحر ونمشي في حالنا. فلما وصل البحر أراد أن يدخل فيه. قالوا له: القارب ما كانت الساعة، اصبر حتى يجيئ. قال: ولو لم يكن. ففهموا منه أنه يقطع البحر بلا قارب، فأمسكوه وأجلسوه حتى جاء القارب وقطعوا معه، رحمهم الله ونفعنا بهم آمين.

ومنهم الفقيه أبي عبد الله أند غمحمد بن محمد بن عثمان بن محمد بن نوح، معدن العلم والفضل والصلاح. ومنه تنسل كثير من شيوخ العلم والصلاح، منهم من جهة الآباء ومنهم من جهة الأمهات، ومنهم من جهتهما معاً. فهو عالم جليل قاضي المسلمين. قال العلامة الفقيه أحمد بابا رحمه الله: هو أول من خدم العلم من أجداده فيما أعلم، وهو جد جدي لأمه أبي أم جدي. تولى القضاء بتنبكت في أواسط القرن التاسع. قلت: وذلك في دولة التوارق. ثم عمر والد جدي فكان فقيهاً عالماً صالحاً، قرأ على الفقيه الصالح القاضي مودب محمد الكابري. انتهى كلام الفقيه أحمد بابا مختصراً.

ومنهم ولد الفقيه المختار النحوي العالم بلك فن من فنون العلم. عاصر هو وأبوه مع الفقيه العالم القطب ولي الله تعالى سيد يحيى التادلسي رحمهم الله تعالى ورضي عنهم. توفي رحمه الله تعالى في أواخر العام الثامن والعشرين بعد تسعمائة.

ومنهم ولده أيضاً الفقيه عبد الرحمن عالم التهذيب للبرادعي التقي الحليم، ولم يترك عقباً إلا ابنة واحدة.

ومنهم حفيده أبو العباس أحمد بُريُ بن أحمد بن أند غمحمد العالم التقي المقلل من الدنيا المتواضع لله تعالى. أخذ عنه العلم جماعة كثيرة من شيوخ العلم من المتأخرين من أهل سنكري رحمه الله تعالى.

ومنهم حفيده أبو عبد الله أند غمحمد بن الفقيه المختار النحوي بن أند غمحمد إمام مسجد سنكري. سلم فيها شيخ الإسلام أبو البركات الفقيه القاضي محمود عند كبر سنه، فولاه إياها. وهو عالم تقي ورع متواضع واثق بالله شهير في علم العربية مادح لرسول الله صلى الله عليه وسلم مسرد لكتاب الشفاء للقاضي عياض رحمه الله تعالى في رمضان في مسجد سنكري، رحمه الله تعالى.

ومنهم أبو عبد الله محمد بن الإمام أند غمحمد المادح لرسول الله صلى الله عليه وسلم المسرد لكتاب الشفاء للقاضي عياض بعد موت أبيه في مسجد سنكري إلى أن مات، رحمه الله تعالى.

ومنهم الفقيه المختار بن محمد بن الفقيه المختار النحوي بن أند غمحمد المادح لرسول الله صلى الله عليه وسلم المنفق عن المداحين في ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم، ويطرب لذلك غاية الطرب، ويبذل جهده فيه إلى أن مات رحمه الله تعالى.

ومنهم ابنه الفقيه محمد سن بن الفقيه المختار شيخ المداحين، فقام به أحسن قيام بالسكينة والوقار على الدوام والاستمرار إلى أن توفي رحمه الله تعالى. كان خيراً فاضلاً تقياً زاهداً ورعاً ذا مروة ووفاء وعهد، لازمته من حين الطفولية إلى انقضاء عمره والحمد لله على ذلك. وهو من ذرية الفقيه أند غمحمد الكبير من جهة الأب، والأم وأمه بنت الفقيه الإمام أند غمحمد. وكذلك الفقيه القاضي محمد قرينك وأخوه الفقيه القاضي سيد أحمد. أمهما بنت الفقيه الإمام أند غمحمد وأبوهما الفقيه أند غمحمد بن الفقيه أند غمحمدن بن أحمد بري بن أحمد بن الفقيه أند غمحمد الكبير. ولهذا الإمام المبارك خمس بنات مباركات، كلهن ولدن رجالاً مباركين، هاتان المذكورتان، الثالثة أم شيخ الشيوخ إمام مسجد سنكري الفقيه محمد بن محمد كري، والرابعة أم حامل كتاب الله تعالى محمد بن يُمذغربين، والخامسة أم أحمد ماتن بن أَسِكل أخ تاكُرَي.

ومنهم أبو العباس الفقيه أحمد بن أند غمحمد بن محمود بن الفقيه أند غمحمد الكبير الزكي الفطن العالم بفنون العلم من الفقه والنحو والأشعار وغير ذلك، رحمه الله تعالى.

ومنهم أبو محمد عبد الله بن الفقيه أحمد بُريُ بن أحمد بن الفقيه أند غمحمد

الكبير، وهو من ذريته من جهة الأب والأم، لأن أمه أخت الفقيه أبي العباس أحمد بن أند غمحمد. كان مفتياً في زمنه نحوياً لغوياً متواضعاً، شهر في زمنه بعلم القرآن والتوثيق، رحمه الله تعالى.

ومنهم أسباطه الثلاثة شيوخ الإسلام الأئمة الأعلام: الفقيه عبد الله والفقيه الحاج أحمد والفقيه محمود أبناء الفقيه عمر ابن محمد أقيت. قال فيهم العارف بالله تعالى القطب سيدي محمد البكري: أحمد ولي، محمود ولي، عبد الله ولي. لو لا أنه في قرية، وقد بقي في تازخت حتى توفي فيه. ووصى أن لا يغسله أحد إلا تلميذه إبراهيم جد حبيب بن محمد بابا. فأتى ووجد سراجاً موقداً عنده فقال لأهل بيته: اين سبحة الشيخ؟ فأتي به. فأمر بإطفاء السراج فوضع السبحة في مكان، فسطع منها نور أضاءت البيت حتى فرغ من الغسل.

وأما الحاج أحمد فوهو من عباد الله الصالحين والعلماء العاملين.

وأما محمود فهو صاحب كرامات وبركات كثيرات. وكم نودي في مواطن الغيبة لتفريج الشدائد والملمّات. فحضر ونفذ، وبعد ما دفن أخوه الأكبر الحاج أحمد رحمه الله تعالى ونفعنا به ورجع لداره صار حزيناً جداً، بحيث يعزيه الناس ولا يفطن لهم. فلما حاذا بدار عثمان طالب تنفس الصعداء وقال: الآن افترق أخي أحمد مع الملائكة. وعلم الناس أنه يشاهدهم، ولذلك تحزن. وهذا نوع عظيم في الكرامات والمكاشفات. وروي عن الفقيه المصلي وهو من أكبر شهود مجلسه واسمه الفقيه أند غمحمد بن ملوك بن أحمد بن الحاج الدليمي من أهل الزاوية في المغرب، وهو سمي جد الفقيه محمود من أمه، ولقب بالمصلي لكثرة صلاته في المسجد، أنه قال: عزمت على خطبة ابنة منه فكتبت البراءة مني فعزمت متى خرج جميع جلسائه وبقيت أنا وهو أعطيتها إياه. فلما تخاليت معه بداني بالكلام وقال: الطيور التي يتّحد جنسها هي التي تجمع في الطيران. فعلمت حينئذ أنه كوشف على ما عزمت عليه فتركتها. وتوفي المصلي رحمه الله سنة خمس وتسعين وتسعمائة، بعد ما أخذ العلامة الفقيه القاضي أبو حفص عمر سنتين في القضاء.

ومنهم أبو حفص عمر ابن الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت النحوي المادح لرسول الله صلى الله عليه وسلم صباحاً ومساءً، المسرد لكتاب الشفاء في كل يوم رمضان في مسجد سنكري، الواصل لرحمه المتعاهد لأقاربه، يتفقدهم في صحتهم ويعودهم في مرضهم، المنشر وجهة للخاصة والعامة، المتوفي شهيداً في مدينة

مراكش. رحمه الله تعالى ورضي عنه، وبرد ضريحه وأسكنه أعلى الفراديس فسيحه.

ومنهم أخوه أبو بكر المعروف بأبكر بير بن الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت العالم الزاهد المتصدق المنفق على الأيتام والتلاميذ، المتغرب في أيام دولته مع جميع عياله وأولاده إلى مجاورة رسول الله صلى الله عليه وسلم حباً لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم. وسكن المدينة المشرفة إلى أن مات مع كافة عياله في جوار المصطفى صلى الله عليه وسلم. وقد عزم على ترحيلهم حين حج في المرة الأولى حتى برز بجميع العيال وانفصل بهم عن البلد. فانتزعهم منه القاضي العدل العاقب، وعلم أنه لا يرجع إليهم، ولا يحب مفارقته إلى المرة الثانية. بعد وفاة العاقب رحل بهم جميعاً وجاور في المدينة المشرفة إلى أن ماتوا كلهم. ومن كرامته أن أخاه العلامة الفقيه أحمد بن الجاج أحمد طلب من أبي البركات ولي الله تعالى القطب سيدي محمد البكري رحمهم الله تعالى ورضي عنهم أن يريه ولياً من أولياء الله الذي يتوسل به إليه سبحانه. فأنعم له إلى ليلة واحدة بعد ما صلى العشاء الآخرة في جامع الأزهر أراد أن يخرج، وهو ممسك بيد الفقيه أحمد، فوضع يده ذلك على رأس رجل جالس فيه في الظلام. فقال هاهو مطلوبك. فجلس بين يديه وسلم عليه، فإذا هو أخوه أبكر بير فتحدث معه قليلاً. ثم خرج ووجد ذلك السيد واقفاً في باب الجامع ينتظره. فقال: هذا الذي أريتني. فقال: هاهنا يصلي العشاء الآخرة كل ليلة.

ومنهم أخوه العلامة المحدث الفقيه أحمد بن الحاج أحمد عمر بن محمد أقيت العالم الجميل الفصيح الذي كمل الله له أوناع الجمال كلها خلقاً ولوناً وصوتاً وخطاً وفصاحة، البارع في علم الأدب والفقه والحديث، المادح لرسول الله صلى الله عليه وسلم، المسرد للصحيحين في مسجد سنكري، المحبب إلى جميع الخلق، العزيز عندهم. وكفى في عزه وشرفه ما خاطبه به السيد الولي الصالح أبو عبد الله محمد البكري في قصيدته المرسلة إليه حين غاب عنه. وذلك قوله رضي الله عنه ونفعنا به:

أحبّتنا والله إني على عهدي	وحبي لكم حبي وودّي لكم ودي
ولم أنس أيام التداني وطيبها	وأوقاتنا ما بين عور إلى جدي
وإني على ذكري لكم وتوجهي	إلى الله فيما ترتجون من الرفدي
وأسأله في كل وقت مكرم	بتحقيق ما تبغون من واسع المدّي
لعمر ودين ثم أولادكم وما	ترومون من فضل يفيض بلا حدي

ومنهم أولاد شيخ الإسلام أبي البركات ولي الله تعالى الفقيه القاضي محمود ابن

عمر بن محمد أقيت: القاضي محمد، والقاضي العاقب، والقاضي عمر، والفقيه عبد الله والولي الزاهد الفقيه عبد الرحمن. قال بركة الإسلام الفقيه مسر أند غمحمد والشيخ الفاضل الفقيه مسر بير ما فضلنا محمود بن عمر إلا بالأولاد الصالحين انتهى.

أما القاضي محمد فكان عالماً جليلاً فهاماً ذكياً، وليس له نظير في عمره في الفهم والدهاءة والعقل. وساعدته الدنيا، وما أصبح في ليلة ولادته إلا وألف مثقال ذهباً، بات في ملكه من ضيافة الرجال الذين فرحوا بولادته/ لأنه أول مولود ذكر لأبي البركات الفقيه محمود.

وأما القاضي العاقب فكان عالماً جليلاً ثاقب الذهن، قوي القلب، صليب في الحق، لا يخاف في الله لومة لائم، ذا فراسة إذا تكلم في شيء، لا يخطئ كلامه، كأنه ينظر في الغيب. قد ملأ أرضه بالعدل بحيث لا يعرف له نظير في ذلك من جميع الأفاق.

وأما أبو حفص القاضي عمر قد برع في علم الحديث والسير والتواريخ وأيام الناس. وأما الفقه فقد بلغ فيه الغاية القصوى، حتى قال بعض من عاصره الشيوخ أنه لو كان موجوداً في زمن ابن عبد السلام بتونس لاستحق أن يكون مفتياً فيها.

وأما عبد الله فهو عالم فقيه مدرس متقلل من الدنيا مع ما بسط الله تعالى له فيها من الرزق حتى كاد أن لا يعرف نهايته.

وأما الشيخ الصالح الولي الناصح العارف بالله تعالى ابنه الناسك العابد الزاهد الورع الواعظ أبو زيد عبد الرحمن. كان فقيهاً عالماً معرضاً عن الدنيا بكليته، بحيث لم يقبلها ولو في لحظة واحدة، ذا مكاشفات. وأصحاب مدرسته يحكون عنه في ذلك حكايات كثيرات من ذلك ما روي بالتواتر أن محملة الباشا جودار لما برزت من مراكش أشار بها لأهل تنبكت يومئذ، وهو يوم الأربعاء الثاني من المحرم فاتح عام التاسع التسعين بعد تسعمائة. فلما صلى بالناس الظهر وجلس في مدرسته قال بالله بالله بالله لتسمعن في هذا عالم ما لم تسمعوا بمثله قط ولترون في ما لم تروا بمثله قط. وفي جمادي الأولى منه ورد السودان وفعلوا ما فعلوا. والعياذ بالله من مثلها. هكذا يفعل منها كثيراً.

ومنهم الفقيه العالم الرباني الولي الصالح أبو العباس أحمد بن الفقيه محمد السيد بسط الفقيه محمد، المشهور بالعلم في زمنه، وحضر مجلسه جماعة كثيرة من شيوخ العلم للأخذ عنه، منهم القاضي عمر بن الفقيه محمود، والفقيه محمد بغيع

الونكري، وأخوه الفقيه أحمد يغيع، والفقيه محمود كعت، والفقيه محمد كب بن جابر كب وغيرهم. وشهدوا له بالعلم والسيادة والورع والصلاح رحمه الله تعالى وأبقى بركته علينا وعلى المسلمين.

ومنهم حفيده الفقيه العالم أبو بكر بن أحمد بير بن الفقيه محمود، كان فاضلاً خيراً تاقياً صالحاً، نشأ به وشهد له بذلك أعمامه الصالحون واتفقوا على تقديمه للصلات بالناس حين مرض الإمام القاضي العاقب رحمه الله تعالى.

ومنهم الفقيه العالم العلامة فريد دهره ووحيد عصره البارع في كل فن من فنون العلم أبو العباس أحمد بابا بن الفقيه أحمد بن الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت. فجد واجتهد في بداية أمره بخدمة العلم حتى برع جميع معاصره وفاق عليهم جداً، ولا يناظر في العلم إلا أشياخه، وشهدوا بالعلم. وفي الغرب اشتهر أمره وانتشر ذكره، وسلم له علماء الأمصار في الفتوى وكان. وقّاناً عند الحق، ولو كان من أدنى الناس، ولا يداهن فيه ولو للأمراء والسلاطين. واسم محمد مكتوب في عضده الأيمن في الخلقة بخط أبيض. وجميع من ذكرنا بعد ذكر الشيخ المبارك الفقيه أند غمحمد الكبير إلى هنا فهم من نسله المباركين وذريته الصالحين، رحمهم الله تعالى ورضي عنهم ونفعنا ببركاتهم في الدارين.

وأما جد الفقيه محمود محمد أقيت فهو من أهل ماسنة، وسمعت العلامة الفقيه أحمد بابا رحمه الله أنه قال: ما رحّله منها إلى بير إلى بغض الفلانيين وهم متجاورون في سكناها وقال عنه أنه على يقين من عدم مناكحته معهم ولكن يخاف ذلك على أولاده لئلا يتناسلوا معهم. انتهى كلامه.

ثم بعد ذلك خطر له حب سكنى تنبكت وأكِل هو سلطانه يومئذ. فارتحل من بير ونزل بحلته بينه وبين رأس الماء. ثم تحدث مع جد مسر أند عمر وأخبره به. فقال له: ما يمنعك منه؟ قال: أكِل، فأتت بيني وبينه عداوة كبيرة. فقال له: أنا إن شاء الله تعالى أكون سبباً حتى تزول تلك العداوة وتسكن في تنبكت كما تريد. فجاء إلى أكِل في حلته ونزل عنده وبقي يتحدث معه إلى أن أخبره أن محمد أقيت ما يريد اليوم إلا أن يسكن في تنبكت. قال: لا يصيب ذلك. قال له ولِم. فدخل في خيمته وأخرج درقة مشقوقة بالطعن بالرمح والضرب بالسيف، فقال له: انظر إلى ما عمل لي محمد أقيت، وكيف يسكن المرء في بلده مع عدوه الذي عمل له هذا العمل؟ وقال له: هيهات الذي عرفته فيه قد فات، صار اليوم مسكيناً ذا عيال لا يريد إلا العافية. وما زال يلاطفه

بالقول اللين الحسن حتى زالت منه تلك العداوة وأذن له بالمجيء إلى تنبكت. فرجع إليه وأخبره به فارتحل مع عياله إليه وسكن فيه.

ومن الشيوخ المباركين أهل سنكري الفقيه أحمد بن الفقيه إبراهيم ابن أبي بكر بن القاضي الحاج والد مام سِر. روي عن شيخنا الزاهد الفقيه الأمين بن أحمد أخي الفقيه عبد الرحمن أنه قال: لا يحول بين الشيخ أحمد هذا وبين درس المصحف إلا إقراء العلم. وهو يلازم هذا العمل الصالح في جميع أوقاته رحمه الله تعالى ورضي عنه وأعاد علينا من بركاته.

ومنهم الفقيه صالح ابن محمد أند عمر المعروف بصالح تكن، الشيخ المعمري المستحرم عنه السلاطين، يشفع للمساكين عندهم، ولا يردون شفاعته على كل حال. ألّف شرحاً على مختصر الشيخ خليل، رحمه الله تعالى.

ومنهم السيد أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان بن عبد الله بن أبي يعقوب العالم الفقيه اللغوي النحوي المتفنن في علوم الأدب والتفاسير والأشعار وشهد له بالعلم جماعة الشيوخ رحمه الله آمين.

الباب العاشر

نبذة من كتاب الذيل لأحمد بابا

وفي كتاب الذيل للعلامة الفقيه أحمد بابا رحمه الله قال: أحمد بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى بن كدالة الصنهاجي التنبكتي جدي، والد الوالد، يعرف بالحاج أحمد، أكبر الإخوة الثلاثة شهروا علماً وديناً في قطرهم من أهل الخير والفضل والدين، حافظاً على السنة والمروة والصيانه والتحري، محباً في النبي صلى الله عليه وسلم، ملازماً لقراءة قصائد مدحه وشفاء عياض على الدوام، فقيهاً لغوياً نحوياً عروضياً محصلاً، اعتنى بالعلم طول عمره، وكتبه كتب عدة، كتب بخطه مع فوائد كثيرة، وترك نحو سبعمائة مجلد أخذ عن جده لأمه الفقيه أند غمحمد وعن خاله الفقيه مختار النحوي وغيرهما. شرّق في عام تسعين وثمانمائة وحج، ولقي الجلال السيوطي والشيخ خالد الوقاد الأزهري إمام النحو وغيرهما. ورجع في فتنة الخارجي سن علي، ودخل كَنو وغيرها من بلاد السودان، ودرس العلم وأفاد وانتفع به جمع كثير، أجلهم الفقيه محمود، قرأ عليه المدونة وغيرها. واجتهد في العلم درساً وتحصيلاً حتى توفي ليلة الجمعة في ربيع الثاني عام ثلاثة وأربعين وتسعمائة عن نحو ثمانين سنة. وطلب

للإمامة فأبى فضلاً عن غيرها. ومن مشهور كراماته أنه لما زار القبر الشريف طلب الدخول إلى داخله فمنعه الخدام منه، فجلس خارجه يمدحه صلى الله عليه وسلم فانحل له الباب وحده بلا سبب فتبادروا لتقبيل يده هكذا سمعت الحكاية من جماعته.

عبد الله بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى الصنهاجي المسوفي، شقيق جدي المتقدم. كان فقيهاً حافظاً زاهداً ورعاً ولياً صالحاً في غاية الورع والتوقي قوي الحفظ، درس بولاتن، وتوفي بها سنة تسع وعشرين وتسعمائة. وولد سنة ست وستين وثمانمائة. له كرامات.

محمود بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى الصنهاجي التنبكتي قاضيها أبو الثناء وأبو المحاسن عالم التكرور وصالحها ومدرسها وفقيهها وإمامها، بلا مدافع كان من خيار عباد الله الصالحين العارفين به، ذا تثبت عظيم في الأمور وهدي تام وسكون ووقار وجلالة، اشتهر علمه وصلاحه في البلاد وطار صيته في الأقطار شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، وظهرت بركته إلى ديانة وصلاح وزهد ونزاهة لا يخاف في الله لومة لائم. هابته الخلق كلهم: السلطان فمن دونه، فصاروا تحت أمره يزورونه في داره متبركين به، فلا يلتفت إليهم. ويهادونه بالهدايا والتحف تترى. وكان سخياً جواداً ولي القضاء عام أربعة وتسعمائة، فسدد في الأمور الشدد، وتوخى الحق، ولذوي الباطل هدد. فاشتهر عدله بحيث لا يعرف له نظير في وقته، مع ملازمة التدريس وللفقه، من فيه حلاوة وطلاوة سهل العبارة حسن التقريب، فلا يتكلف فانتفع به كثيرون، وحيى العلم ببلاده، وكثر طلبة الفقه، ونجب جماعة منهم فصاروا علماء. وأكثر ما يقرئ المدونة والرسالة ومختصر خليل والألفية والسلالحية وعنه. انتشر إقراء خليل هنالك وقيّد عنه تقاييد عليه أبرزها بعضهم شرحاً في سفرين. وحج عام خمسة عشر وتسعمائة فلقي السادة كإبراهيم المقدسي والشيخ زكرياء والقلقشندي من أصحاب ابن حجر واللقانيين وغيرهم، وعرف صلاحه ثمة. ورجع لبلاده ولازم الإفادة وإنفاذ الحق، وطال عمره فألحق الأبناء بالأباء، درس نحو خمسين سنة. توفي سنة خمس وخمسين ليلة الجمعة سادس عشر رمضان. وبلغ من الجلالة وتعظم الناس له وشهرة الذكر بالصلاح مبلغاً لم ينله غيره. وولد سنة ثمان وستين وثمانمائة. أخذ عنه والدي رحمه الله وأولاده الثلاثة القضاة محمد والعاقب وعمر وغيرهم.

مخلوف بن علي بن صالح البلبالي فقيه حافظ رحلة، اشتغل بالعلم على كبر على ما قيل. فأول شيوخه سيدي العبد الصالح عبد الله بن عمر بن محمد أقيت شقيق

جدي بولاتن، قرأ عليه الرسالة ورأى منه نجابة، فحضّه على العلم، فرغب فيه. وسافر للغرب فأخذ عن ابن غازي وغيره. واشتهر بقوة الحافظة حتى ذكر عنه العجب في ذلك. ودخل بلاد السودان ككنو وكشن وغيرهما، وأقرأ هناك. وجري له أبحاث في نوازل مع الفقيه العاقب الانصمني. ثم دخل تنبكت وأقرأ بها. ثم رجع للغرب فدرس بمراكش، وسمّ هناك فمرض فرجع لبلده. وتوفي بعد الأربعين وتسعمائة.

محمد ابن أحمد بن أبي محمد التازختي عرف بأيد أحمد بهمزة مفتوحة وياء ساكنة فدال مفتوحة، مضاف لاسم أحمد معناه ابن. كان فقيهاً عالماً فهاماً محدثاً متفنناً محصلاً جيد الخط حسن الفهم كثير المنازعة. قرأ ببلاده على جدي الفقيه الحاج أحمد بن عمر وعلى خاله الفقيه علي، وحصل ولقي بتكدة الإمام المغيلي وحضر دروسه. ثم رحل للشرق صحبة سيدنا الفقيه محمود، فلقي أجلاء كشيخ الإسلام زكرياء والبرهانين القلقشندي وابن أبي شريف وعبد الحق السنباطي وجماعة فأخذ عنهم علم الحديث، وسمع وروى وحصل واجتهد حتى تميز في الفنون وصار من المحدثين، وحضر درس الأخوين اللقانيين، وتصاحب مع أحمد ابن محمد وعبد الحق السنباطي. وأجازه من مكة أبو البركات النويري وابن عمته عبد القادر وعلي بن ناصر الحجازي وأبو الطيب البستي وغيرهم. ثم رجع لبلاد السودان وتوطن كشن فأكرمه صاحبها وولاه قضاءها. وتوفي في حدود ست وثلاثين وتسعمائة عن نيف وستين سنة له. تقيد وطرر على مختصر الشيخ خليل.

محمد بن محمود بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى الصنهاجي قاضي تنبكت. كان فقيهاً فهاماً دراكاً ثاقب الذهن من عقلاء الناس ودهاتهم. ولي القضاء بعد أبيه. فساعدته الدنيا، فنال ما شاء من دولة ورياسة وحصل له دنيا عريضة. شرح رجز المغيلي في المنطق. أخذ عنه والدي البيان والمنطق. وتوفي في صفر سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة. مولوده عام تسعة وتسعمائة.

العاقب ابن محمود بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي ابن يحيى الصنهاجي قاضي تنبكت. كان رحمه الله مسدداً في أحكامه، ثبتاً فيها، صليباً في الحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، قوي القلب جداً، مقداماً في الأمور العظام التي يتوقف فيها، جسوراً على السلطان فمن دونه، لا يبالي بهم. ووقع له معهم وقائع، وكانوا يخضعون له ويهابونه ويطاوعونه فيما يريد. إذا رأى ما يكره عزل نفسه وسد بابه، فيلاطفونه حتى يرجع. وقع له مراراً. ذا بصيرة نافذة في الأمور، لا يخطئ فراسته كأنه

ينظر في الغيب، موسعاً عليه في دنياه، مجدوداً في أموره مع التحري والتوقي مهيباً جداً. أخذ عن أبيه وعمه. رحل وحج ولقي الناصر اللقاني وأبا الحسن البكري والشيخ البشكري وطبقتهم. أجازه اللقاني كل ما يجوز له وعنه، وأجازني هو كذلك وكتب في خطه بذلك. ولد عام ثلاثة عشر وتسعمائة، وتوفي في رجب عام أحد وتسعين.

العاقب ابن عبد الله الأنصمني المسوفي من أهل تكدة قرية عمرها صنهاجية قرب السودان. فقيه نبيه ذكي الفهم وقّاد الذهن مشتغل بالعلم في لسانه، ذراية له تعاليق، من أحسنها كلامه على قول خليل، و"خصصت نية الحالف" حسن مفيد، لخصته مع كلام غيره في جزء سميته "تنبيه الواقف على تحرير خصصت نية الحالف". وله جزء في وجوب الجمعة بقرية انصمن خالف فيه غيره والصواب معه، و"الجواب المجدود عن أسئلة القاضي محمد بن محمود"، و"أجوبة الفقير عن أسئلة الأمير" أجاب فيها أسكيا الحاج محمد، وغيرها. أخذ عن المغيلي والجلال السيوطي وغيرهما. ووقع له نزاع من الحافظ مخلوف البلبالي في مسائل كان حياً قرب الخمسين وتسعمائة.

أبو بكر بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت تنبكتي المولد نزيل المدينة المشرفة، عمي. كان خيراً صيتاً ورعاً زاهداً تقياً أوّاهاً ولياً مباركاً معروف الصلاح ظاهر الزهد والورع والبر متين الدين كثير الصدقة والعطاء، قل أن يمسك شيئاً مع قلة ذات يده، مبرزاً في الخير لا نظير له، نشأ على ذلك. حج وجاور. ثم آب لبلاده لأجل أولاده. فأخذهم ورجع وحج وسكن المدنية حتى مات فاتح إحدى وتسعين وتسعمائة. ولد عام اثنين وثلاثين. وهو أول من قرأت عليه علم النحو، فلب بركته ففتح لي فيه في مدة قريبة بلا عناء. له أحوال جليلة، كثير الخوف والمراقبة لله، ونصح عباده، يردف زفرة بعد أخرى. رطب اللسان بالتهليل وذكر الله على الدوام، كثير الانشراح مع الناس من خيار صالحي العباد. رفض الدنيا وزهد في زهرتها مع ما لأهل بيته حينئذ من عظيم الجاه. ما رأيت قط مثله ولا من يقرب منه في حاله. تواليف لطاف في التصوف وغيره.

أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي ابن يحيى والدي الفقيه العالم بن الفقيه العالم. كان ذكياً دراكاً متفنناً محدثاً أصولياً بيانياً مشاركاً. وكان رقيق القلب، عظيم الجاه، وافر الحرمة عند الملوك وكافة الناس، نفاعاً بجاهه، لا يرد له شفاعة، يغلظ على الملوك فمن دونهم، وينقادون له أعظم الانقياد ويزورونه في داره. ولما مرض في كاغ في بعض أسفاره كان السلطان الأعظم أسكيا داوود يأتي إليه بالليل

فيسهر عنده حتى برئ ويسمر عنده تعظيماً لقدره. وكان مشهور القدر والجلالة وافر الجاه بحيث لا يعارض محباً في أهل الخير، متواضعاً لهم، لا ينطوي على حقد لأحد، منصفاً للناس، جماعاً للكتب، وافر الخزانة، محتوية على كل علق نفيس، سموحاً بإعارتها. أخذ عن عمه بركة العصر محمود ابن عمر وغيره، ورحل للشرق سنة ست وخمسين فحج وزار واجتمع بجماعة كالناصر اللقاني والشريف يوسف تلميذ السيوطي والجمال بن الشيخ زكرياء والأجهوري والتاجوري، وبمكة وطيّبة بأمين الدين الميموني والملائي وابن حجر وعبد العزيز اللمطي وعبد المعطي السخاوي وعبد القادر الفاكهي وغيرهم وانتفع بهم ولازم أبا المكارم محمد البكري وتبرك به وقيد عنه فوائد. ثم قفل لبلده فدرس قليلاً، وشرح مخمسات العشرينيات الفازازية في مدائح النبي صلى الله عليه وسلم ومنظومة المغيلي في المنطق شرحاً حسناً، وعلق على موضع من خليل وعلى شرحه للتتاءي حاشية بيّن فيه مواضع السهو منه، وعلى صغرى السنوسي والقرطبية، وجمل الخونجي، وفي الأصول، ولم يكمل غالبها. أسمع الصحيحين نيفاً وعشرين سنة في شهر رجب وتاليه وغيرهما. توفي في ليلة الاثنين سابع عشر من شعبان عام إحدى وتسعين وتسعمائة. وثقل عليه لسانه وهو يقرأ صحيح مسلم في الجامع. فأشار عليه شيخنا العلامة محمد بغيع وهو جالس حذاءه بقطع القراءة. فتوفي ليل الاثنين بعده أخذ عنه جماعة كالفقيهين الصالحين شيخنا محمد وأخيه أحمد أبي الفقيه محمود يغيع، قرأ عليه الأصول والبيان والمنطق، والفقيهين الأخوين عبد الله وعبد الرحمن أبي الفقيه محمود وغيرهم. وحضرت أنا عليه أشياء عدة وأجازني جميع ما يجوز له وعنه. وسمعت بقراءة الصحيحين والموطأ والشفاء. وُلد فاتح المحرم عام تسعة وعشرين وتسعمائة. ورأيت له بعد وفاته رؤياً حسنة، رحمه الله تعالى.

أحمد ابن محمد بن سعيد سبط الفقيه محمود بن عمر فقيه عالم محصل مدرس. حضر على جده المذكور الرسالة ومختصر خليل مرة، وأخذ عن غيره المختصر والمدونة. انتفع الناس به من عام ستين إلى وفاته في المحرم فاتح ست وسبعين وتسعمائة.

ومنهم الفقيهان الأخوان شيخنا محمد وأخوه أحمد قرأ عليه الموطأ والمدونة وخليلاً وغيرها. وله حاشية على خليل اعتمد فيه على البيان والتحصيل. ولد عام إحدى وثلاثين. أدركته وأنا صغير وحضرت دولته.

محمد بن محمود ابن أبي بكر الونكري التنبكتي عرف ببغيع بباء مفتوحة فغين معجمة ساكنة فياء مضمومة وعين مهملة مضمومة، شيخاً وبركتنا الفقيه العالم المتفنن الصالح العابد الناسك. كان من صالحي خيار عباد الله والعلماء العاملين مطبوعاً على الخير وحسن النية وسلامة الطوية والانطباع على الخير واعتقاده في الناس حتى كاد الناس يتساوون عنده في حسن ظنه بهم وعدم معرفة الشر، يسعى في حوائجهم، ويضر نفسه في نفعهم، ويتفجع لمكروههم، ويصلح بينهم، وينصحهم إلى محبة العلم وملازمة تعليمه وصرف أوقاته فيه وصحبة أهله والتواضع التام. وبذل نفائس الكتب الغريبة العزيزة لهم، ولا يفتش بعد ذلك عنها كائناً ما كان من جميع الفنون، فضاع له بذلك جملة من كتبه نفعه الله بذلك. وربما يأتي لبابه طالب يطلب كتاباً فيعطيه له من غير معرفته من هو. فكان العجب العجائب في ذلك إيثاراً لوجهه تعالى مع محبته للكتب وتحصيلها شراء ونسخاً. وقد جئته يوماً أطلب منه كتب نحو ففتش في خزانته فأعطاني كل ما ظفر به منها. إلى صبر عظيم على التعليم أناء النار، وعلى إيصال الفائدة للبليد بلا ملل ولا ضجر حتى يمل خامروها وهو لا يبالي حتى سمعت بعض أصحابنا يقول: أظن هذا الفقيه شرب ماء زمزم لئلا يمل في الإقراء، تعجباً من صبره، مع ملازمة العبادة، والتجافي عن ردي الأخلاق، وإضمار الخير لكل البرية حتى الظلمة، مقبلاً على ما يعنيه، متجنباً الخوض في الفضول. ارتدى من العفة والمسكنة أزين رداء. وأخذ بيده من النزاهة أقوى لواء مع سكينة ووقار وحسن أخلاق وحياء سهلة الإيراد والإصدار. فأحبّه القلوب كافة، وأثنوا عليه عامة بلسان واحد إلى الغاية. فلا ترى إلا محباً مادحاً ومثنياً بالخير صادقاً طويل الروح لا يأنف من تعليم مبتدئ أوبليد. أفنى فيه عمره مع تشبثه بحوائج العامة وأمور القضاة، لم يصيبوا عنه بديلاً ولا نالوا له مثيلاً. طلبه السلطان بتولية ولاية محلته فأنف منه وامتنع وأعرض عنه، واستشفع فخلصه الله تعالى. لازم الإقراء سيما بعد موت سيدي أحمد بن سعيد. فأدركته أنا يقرئ من صلاة الصبح أول وقته إلى الضحى الكبيرة دولاً مختلفة. ثم يقوم لبيته ويصلي الضحى مدة، وربما مشى للقاضي في امر الناس بعدها، أو يصلح بين الناس. ثم يقرئ في بيته وقت الزوال، ويصلي الظهر بالناس، ويدرس إلى العصر. ثم يصليها ويخرج لموضع آخر يدرس فيه للاسفرار أو قربه. وبعد المغرب يدرس في الجامع إلى العشاء، ويرجع لبيته. وسمعت أنه يجيئ آخر الليل على الدوام. وكان دراكاً ذكياً فطناً حاضر الجواب سريع الفهم منور البصير سكوتاً صموتاً وقوراً. وربما انبسط مع الناس، وربما زجرهم آية من

جودة الفهم وسرعة الإدراك، معروفاً بذلك أخذ العربية والفقه عن الفقيهين الصالحين والده وخاله. ثم قطن مع أخيه الفقيه الصالح أحمد تنبكت. فلازما الفقيه أحمد بن سعيد في مختصر خليل. ثم رحلا للحج مع خالهما فلقوا الناصر اللقاني والتاجوري والشريف يوسف الأوميوني والبرهموشي الحنفي والإمام محمد البكري وغيرهم فاستفادوا ثمة. ثم رجعا بعد حجهما وموت خالهما فنزلا بتنبكت. فأخذ عن ابن سعيد الفقه والحديث قرآ عليه والموطأ والمدونة والمختصر وغيرها ولازماه وعن سيدي والدي الأصول والبيان والمنطق قرآ عليه أصول السبكي وتلخيص المفتاح. وحضر عليه شيخنا وحده جمل الخونجي، ولازم مع ذلك الإقراء حتى صار أخيراً شيخ وقته في الفنون لا نظير له. ولازمته أكثر من عشر سنين. فختمت عليه مختصر خليل بقراءته وقراءة غيره نحو ثماني مرات، وختمت عليه الموطأ قراءة فهم، وتسهيل ابن مسالك قراءة بحث وتحقيق مرة بثلاث سنين، وأصول السبكي بشرح المحلي ثلاث مرات قراءة تحقيق، وألفية العراقي بشرح مؤلفها، وتلخيص المفتاح بمختصر السعد مرتين فأزيد، وصغرى السنوسي وشرح الجزيرة له، وحكم ابن عطاء الله مع شرح زروق ونظم أبي مقرعة، والهاشمية في التنجيم مع شرحهما ومقدمة التاجوري فيه، ورجز المغيلي في المنطق، والخزرجية في العروض. فشرح الشريف السبتي وكثيراً من تحفة الحكام لابن عاصم مع شرحها لولده كلها بقراءته. قرأت عليه فرعي ابن الحاجب قراءة بحث جميعه وحضرته في التوضيح، كذلك لم يفتني منه إلا من الوديعة إلى الأقضية، وكثيراً من المنتقي للباجي، والمدونة بشرح أبي الحسن الزرويلي، وشفاء عياض. وقرأت عليه صحيح البخاري نحو النصف وسمعته بقراءته، وكذا صحيح مسلم كلها ودولاً من مدخل ابن الحاج، ودروساً من الرسالة والألفية وغيرها. وفسرت عليه القرآن العزيز إلى اثناء سورة الأعراف، وسمعت بلفظه جامع المعيار للونشريسي كاملاً وهو سفر كبير، ومواضع آخر منه. وباحثته كثيركثيراً في المشكلات، وراجعته في المهمات. وبالجملة فهو شيخي وأستاذي ما نفعني أحد كنفعه وبكتبه رحمه الله تعالى وجازاه بالجنة. وأجازني بخطه جميع ما يجوز له وعنه. واقفته على بعض تواليفي، فسر به، وقرظ عليه لي بخطه، بل كتب عني أشياء من أبحاثي، وسمعته ينقل بعضها في دروسه لإنصافه وتواضعه وقبوله الحق حيث تعين. وكان معنا يوم الواقعة علينا فكان آخر عهدي به. ثم بلغني أنه توفي يوم الجمعة في شوال عام اثنين وألف. مولوده عام ثلاثين وتسعمائة. له تعاليق وحواشي نبه فيها على ما وقع لشراح خليل وغيره، وتتبع ما

في الشرح الكبير للتتاي من السهو نقلاً وتقريراً في غاية الإفادة، جمعتها في جزئي تأليفاً رحمه الله تعالى. انتهى ما كتبته من الذيل.

ومن سادات أهل سنكري من روي ثقات عن ثقات أنه تصدق بألف مثقال ذهباً على يد الشيخ الفقيه الولي الصالح أبي عبد الله القاضي مودب محمد الكابري، وفرقه على المساكين في باب مسجد سنكري، وذلك أنه كانت مجاعة حينئذ. فتكلم الشيخ في مدرسته وقال: من يفتح في ألف مثقال أتكفل له الجنة. ففتحها ذلك السيد المتصدق وفرقها على المساكين. وقيل رئي بعد ذلك في المنام قائلاً يقول له لا تنكفل علينا بعد.

وروي أن الولي الزاهد الفقيه عبد الرحمن بن الفقيه محمود حكى هذه القصة في مدرسته في المسجد، فقال له رجل: يا سيدي وهنا الساعة، من إذا تكفلت له الجنة يعطي ألف المثقال ذهباً؟ فقال السيد عبد الرحمن في الجواب: الكابري وأمثاله هم رجال هذا الطريق.

ومنهم هذا الشيخ أعني الفقيه القاضي مودب محمد الكابري شيخ الشيوخ، رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا به في الدارين. توطن تنبكت في القرن التاسع والله أعلم، وعاصر فيها كثيراً من الأشياخ، منهم الفقيه سيدي عبد الرحمن التميمي جد القاضي حبيب، والفقيه أند غمحمد الكبير جد الفقيه القاضي محمود لأمه، والفقيه عمر بن محمد أقيت والد الفقيه محمد المذكور، والعلامة القطب سيدي يحيى التادلسي وغيرهم. قد بلغ الغاية القصوى في العلم والصلاح. وأخذ عنه الفقيه عمر ابن محمد أقيت وسيدي يحيى. وقيل لا ينسلخ شهر إلا ويختم عليه تهذيب البرادعي لكثرة قراءه، والبلد حافلة يومئذ بالطلبة السودانيين، أهل المغرب المجتهدين في العلم والصلاح، حتى قيل أن معه في روضته ثلاثون كابرياً مدفونون كلهم عالمون صالحون. وروضته بين روضة ولي الله تعالى الفقيه الحاج أحمد بن عمر ابن محمد أقيت وبين موضع صلاة الاستسقاء، على ما خبرنا به شيخنا الزاهد الفقيه الأمين بن أحمد أخ الفقيه عبد الرحمن، ردمهم التراب.

ولهذا الشيخ المبارك كرامات كثيرة باهرة، منها أن واحداً من طلبة مراكش يطلق لسانه فيه ويذكره بما لا ينبغي، حتى يقول فيه الكافري، بكسر الفاء المكسورة. وهو ممن له جاه بليغ وحظ عظيم عند الأمراء الشرفاء، ويسرد لهم صحيح البخاري في رمضان. فسلط الله عليه الجذام، وجلب له الأطباء من كل جهة ومكان حتى قال واحد

منهم لا يداويه إلا قلب الصبي الأدمي يأكله. فكم من صبيان ذبحهم له الأمير يومئذ فما نفع فيه شيء حتى مات منه في بئس الحال، والعياذ بالله. روي ذلك عن العلامة الفقيه أحمد بابا رحمه الله تعالى. ومن كراماته ما رويته عن والدي رحمه الله تعالى عن أشياخه أنه خرج ذات يوم من أيام عشر ذي الحجة لشراء الأضحية، وكانت منه في وراء البحر، ومعه واحد من تلاميذه. فتخطى على البحر وتبعه التلميذ على ما ظهر له في الحال مما الله تعالى عالم به، فغرق في وسط البحر بعد ما خرج منه الشيخ. فصاح عليه ومد يده وأخرجه منه، فقال له: ما حملك على ما فعلت؟ فقال: لما رأيتك فعلتَ فعلتُ أنا إذاً. فقال له: أين قدمك من القدم الذي ما تخطى في معصية قط؟ انتهى.

وقد رثاه يوم مات رحمه الله تعالى الشيخ الإمام الوالي العارف القدوة المكاشف القطب الغوث الجامع السالك السيد الشريف الرباني سيدي يحيى التادلسي بأبيات وهو هذه:

تذكر ففي التذكار جل الفوائد ... وفي طيه ورد على خير وأرد
ألم تر سفر الحث بالفضل خصصوا ... سفر ذوي الأفكار أحظى بزائد
تُفيء لب المرء طبية الصبا ... فيلحق فتياناً ويقوي لساعد
وفي نقص هذه الأرض للحجر عبرة ... من أطرافها يبدو ومن كل ماجد
وبالقبض للنظار في العلم قبضة ... وفي ذلك أنذار بقرب الشدائد
آ طلاب علم الفقه تدرون ما الذي ... يثير هموم القلب من كل وافد
يثير هموم القلب فقد سُمَيدع ... فقيه حليم حامل للفرائد
بحسن تعليم مقرب فهمه ... وفتاق نهذيب بحسن الفوائد
محمد الأستاذ مودب ذي النهي ... رباطاً صباراً أمره في التزايد
فيا عجباً هل بعده من مبيّن ... ويا عرباً هل بعده من مجالد
فلو لا التعزي بالنبي وصحبه ... وأعلام علم الدين منه وراشد
لحق لدمع العين سيح على الولا ... لإفناء أشباح وإطفاء واقد
لقد أظلم الورى وبانت همومه ... صبيحة أسرى نفيه في الأصاود
أينكر ذو حجر زحاماً لحمله ... ففي السلف الأسى قوي التكابد
إذا انكسر النعشان من تحت سالم ... ومن آمنا الغرا زيادة واحد
وفي ذلك تعظيم وحسن تأدب ... مع الصالح الموفي بعهد المقالد
آ إخواننا فادعوا له بتقبل ... وروح وريحان سني الشاهد

وبسط برزق في فراديس جنة شهادة أستاذ وطاعة عابد
عليه من الرحمن ذي المجد والعلى سلام باللطاف عزيز القوائد
وصلى إله العرش ربي بمنه على خير مبعوث وأفضل شاهد
محمد المختار للختم رحمة بتتميم أخلاق كرام المعاهد
وللآل والأصحاب والتابع الذي بحبهم يدعو دعاء المعاقد

انتهى نقلتها من خط والدي رحمه الله تعالى وعفى عنه بمنه.

ذكر نسب الشيخ سيدي يحيى رحمه الله تعالى ونفعنا به وأعاد علينا من بركاته في الدنيا والآخرة. وهو يحيى بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن الثعلبي بن يحيى البكاء ابن أبي الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز ابن حاتم بن فصي بن يوسف بن يوشع بن ورد بن بطال ابن أحمد بن محمد بن عيسى بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي الله عنهم ورحمهم أجمعين. قدم تنبكت والله أعلم في أوائل دولة التوارق. فتلقاه تنبكت كي محمد نض فأحبه وأكرمه غاية الإكرام، فابتنى مسجده وجعله إماماً فيه. فبلغ الغاية القصوى في العلم والصلاح والولاية، وانتشر ذكره في الآفاق والأقطار، وظهرت بركاته للخاصة والعامة. فكان ذا كرامات ومكاشفات. قال أبو البركات الفقيه القاضي محمد: ما طرا قدم تنبكت قط إلا وسيدي يحيى أفضل من صاحبه. وقال ابنه الولي الزاهد الفقيه الواعظ أبو زيد عبد الرحمن بن الفقيه محمود: فواجب على أهل تنبكت أن يزوروا روضة سيدي يحيى للتبرك في كل يوم، ولو كانت منهم على مسافة ثلاثة أيام. وفي بداية أمره رحمه الله تعالى تخلي عن المعاملات، ثم اشتغل بها في آخر الحال، وأخبر أنه قبل الاشتغال بها يرى النبي صلى الله عليه وسلم كل ليلة، ثم صار لا يراه إلا مرة واحدة في الأسبوع، ثم بعد شهر مرة، ثم بعد سنة مرة. وسئل: ما السبب في ذلك؟ قال: لا أحسبه إلا من تلك المعاملات. فقيل له: فهلا تركتها؟ قال: لا، ما أحب أن أحتاج إلى الناس لأنظر - رحمنا الله وإياك - إلى مصيبة المعاملة، مع أن هذا الشيخ المبارك يتحافظ فيها من المحظورات غاية ونهاية. وانظر أيضاً إلى ثقل الاحتياج إلى الناس، كيف ترك هذا السيد المبارك هذه المزية العلية العظيمة لأجله. نسأل الله العفو والمعافات في الدارين بمنه.

ويروى أنه كان في مدرسته ذا ت يوم تحت الصومعة من خارج يقرأ وحوله عصابة من الطلبة، فإذا السَّحاب ارتفع وحصل على إنزال المطر، حتى استعد الطلبة

للقيام. ثم ترعد فقال لهم: على رسلكم فاسكنوا، ولا ينزل هنا والملك يأمره بالنزول في أرض كذا. فجاز على حاله. وحدثنا شيخنا الزاهد الفقيه الأمين بن أحمد رحمه الله تعالى أن جواري الشيخ سيدي يحيى طبخن حوتاً طرياً من صبح إلى عشي فلم تؤثر النار فيه شيئاً، فتعجبن بذلك حتى سمعه، فقال لهن أن رجلي مس شيئاً مبلولاً في السقيفة حين أخرج لصلاة الصبح اليوم، لعل هو والنار لا تحرق ما مسه جسدي. وروي أن طلبة سنكري إذا جاؤوه لأخذ العلم يقول: يا أهل سنكري كفاكم سيدي عبد الرحمن التميمي، وهو جاء من أرض الجحاز صحبة السلطان موسى صاحب ملي حين رجع من الحج، فسكن تنبكت وأدركه حافلاً بالفقهاء السودانيين. ولما رأى أنهم فاقوا عليه في الفقه رحل إلى فاس وتفقه هنالك، ثم رجع إليه فتوطن فيه. وهو جد القاضي حبيب رحمهم الله تعالى. وفي السنة السادسة والستين بعد ثمانمائة توفي سيدي يحيى وتوفي بعده عن قريب صاحبه الشيخ محمد نض كما مر رحمه الله تعالى عليهما.

ومنهم الشيخ مسِر بوب الزغراني صاحب الفقيه محمود بن عمر كان عالماً فاضلاً خيراً صالحاً عابداً نادر المثل في قبيلته، لأنها لا تعرف بالصلاح ولا بحسن الإسلام. لازمه الواعظ الزاهد الفقيه عبد الرحمن بن الفقيه محمود في بداية أمره، فاتدى بهديه واستمع من مواعظه. وقيل أنه كان في مدرسته ذات يوم فأذنه الناس بجنازة فقال من هو؟ قيل: زغراني. قال: نصلي عليه لأجل الشيخ مسِر.

صاحب الكرامات الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي ابن موسى عريان الرأس كان من عباد الله الصالحين زاهداً سخياً. خرج من ماله كله صدقة لله، ويأتيه التدور والفتوحات، فلا يمسك منها شيئاً بل يتصدق بها للفقراء والمساكين. واشترى كثيراً من المماليك وأعتقهم لوجه الله تعالى والدار الآخرة. وليس له بواب، كل من جاء يدخل بلا استئذان، يزوره الناس من كل فج في كل ساعة، وأكثرها بعد صلاة العصر من يوم الجمعة. وأكثر الناس زيارة له أهل المخزن الباشات فمن دونهم والعربان المسافرون لما رأوا من بركاته كثيراً. وهو بين انبساط وانقباض. إذا انبسط يتحدث لمن أغشاه بعجائب وغرائب ويضحك ويفرط فيه، وربما يضرب بيده المباركة في يد من قابله في الجلس في حالة الضحك، ويضع يده اليسرى على فيه، وقد ضرب في يدي كثيراً. ومتى انقبض لا يتحدث بشيء سوى الجواب لمن تكلم له. وأكثر ما أسمعه في تلك الحال: ما شاء الله كان، وما لم يشاء لم يكن، أو يقول: حسبي الله وكفى، سمع الله لمن دعى، ليس وراء الله منتهى. ومن طلب منه الفاتحة عند انقلابه يمد يديه المباركين

يقول بعد التعوذ والبسملة يس إلخ، يا أرحم الراحمين يا أرحم الراحمين يا أرحم الراحمين. ثم يقرأ الفاتحة ثلاث مرات ويدعو ويقول: أصلحنا الله وإياكم وأصلح أمورنا وأموركم وأصلح عاقبتنا وعاقبتكم في عافية ثلاث مرات، إلا في آخر عمره. لما دنا الرحيل اتخذ بواباً ولا يأذن في الدخول عليه مثل الحال الأول بل يرد الناس في بعض الأحيان واقتصر حينئذ في قراءة الفاتحة على مرة واحدة. ثم تركها فقال لي يوماً واحداً حين جلست بين يديه: كل من جاء هنا قلت لهم لا أقدر على قراءة تلك الفاتحة. فدعا لي بالدعوة المعهودة مرة واحدة وعليها اختتم. رحمه الله تعالى ورضي عنه وأعلى درجته في أعلى عليين.

وفي بداية أمره تجلى له أبو المكارم ولي الله تعالى القطب الجامع سيدي محمد البكري، وهو حديث السن يومئذ. وقد خرج من عند حبيبه في الله تعالى الفقيه أحمد بن الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت على العادة المعروفة بينهما في الزيارة، فأدركه قاعداً عند باب مسجد سنكري وقت الزوال، والمسجد ما زال ما فتح، وبيده كتاب الرسالة لابن أبي زيد القيرواني يقرأه على شيخه الفقيه عبد الرحمن بن الفقيه محمود. فوقف عليه الشيخ المبارك وسأله: أيش هذا كتاب الذي بيدك؟ فقال: الرسالة، فمد إليه يده المباركة وقال: أرنيه. فجعله في يده، فطالع فيه قليلاً، ثم رده له. وقال: بارك الله لك فيه. فجاز وهو لا يدري من هو ولا رأى مثل لونه قط. فلما جاء شيخه المسجد قص عليه القصة، فظن أنه الشيخ المذكور. فلما خرج من المسجد طرق أخاه الفقيه أحمد المذكور، فقال له: وهل جاء عندكم اليوم السيد محمد البكري؟ قال: نعم وقد تأخر عندي اليوم أكثر من عادته المعتادة. فأخبره بما جرا بينه وبين محمد ولد أد علي موسى، هكذا يقول له أهل سنكري. ثم بعد ذلك تشوش عقله حتى ظن الناس أن به جنوناً، ولا يبيت إلا في المساجد. ستكون عاقبته له خيراً. وقد أخبرني الثقة من طلبته أنه سأله: هل كان أحد رأى الله سبحانه في الدنيا؟ قال: نعم ومعك في هذا البلد الآن من رأى الله تعالى جل وعز. قال أخبرت شيخنا العلامة الفقيه محمد بابا بن الفقيه الأمين به، من غير أن أذكر له القائل. فقال لي: الذي أخبرك به هو الذي رآه تبارك وتعالى. وكنا عنده ثلاثة نفر أنا ورجلان يوماً واحداً بعد صلاة العصر من يوم الجمعة وهو في حال الانبساط يحدثنا، فإذا السحاب قد ثارت، فتغير وجهه وتشوش وقطع حديثه وجعل ينزعج في مجلسه. وأول ما نزل من أقطار المطر غلظ لنا في الكلام وشدد، وقال: لا أجالس مع الإنسان إذا ينزل المطر، فخرجنا جميعاً. فحدثت شيخنا

الفقيه الأمين به، فتعدب. وروينا عن بعض الإخوان أنه قال: كان لي جار نتجالس في طرفي النهار ونتوانس، فتفقدته، وداره قريب لداري فمشيت إليه لأرى كيف هي حاله. فلما سلمت عند باب داره شاور عني البواب، فجاء وقال: سيدي يقول لا تراه في هذه الساعة. قال فكدت أتميز من الغيظ من تلك المقالة فضربت صدري بيدي وقلت: مثلي يجيء إلى فلان لداره ويردني بلا رؤيته! عزمت على أن لا أكلمه أبداً. ثم بعد ذلك زرت الشيخ المبارك سيدي محمد عريان الرأس. فلما حصلت بين يديه بدأني بالكلام بعد السلام، فقال: كان ولي من أولياء الله تعالى تفقد حالاً من أحواله فحزن لذلك حزناً شديداً حتى تمنى لقاء الخضر عليه السلام ليكون له وسيلة عند الله تعالى في رد تلك الحال. ثم إن الله تعالى ردها له بفضله وكرمه بلا وسيلة أحد. فبعد ذلك جاء الخضر فسلم عليه في باب داره وقال: من أنت؟ فقال: المطلوب. قال: قد أغنانا الله عنك. فرجع الخضر ولم يضرب صدره بيده بقول: مثلي يرد، يا فلان! الإنسان معذور وربما يكون في حال لا يقبل أن يراه أحد فيها. قال ففهمت ما إليه الإشارة، فتبت في نفسي اسغفرت ومشيت إلى ذلك الأخ فسلمت، وأمر بفتح الباب بسرعة، فدخلت وقال لي: سامحني في تلك المجيء الذي ما رأيتني فيه، وأنا ممدود ساعتئذ على الأرض وبطني سبيل لا أقبل أن يراني أحد في تلك الحال. وقلت: سامح الله لنا ولك جميعاً.

وروي عن بعض جيرانه أنه قال أتيت القاضي محمود بن أحمد بن عبد الرحمن يوماً فقال لي: وجارك هنالك؟ قلت: نعم. قال الولي الذي لا يأتي الجمعة؟ فسكت، ثم بعد ذلك أتيت جيراني السيد محمد عريان الرأس فقال لي: يا فلان نعفو أولاً. قلت: العفو هو أفضل. قال: إن لم نعف يكن ما لا ينبغي. قل للذي يزعم بعدم إتيان الجمعة من أدراه قبل أن يأتي الجمعة هو سبقه إليها الذي زعم أنه لا يأتيه. والحكاية عنه في هذا الباب كثير جداً، رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا به في الدارين أمين.

ومنهم الفقيه العالم الزاهد الصالح التقي الورع شيخنا الأمين بن أحمد أخ الفقيه عبد الرحمن بن أحمد المجتهد لأمه، كان لسانه رطباً، يذكر الله تعالى. ولا يسميه السيد محمد عريان الرأس إلا بالأمين الذاكر. وحدثني بعض الإخوان من أهل سنكري عن والده وهو شيخ معمر أنه قال: أدركت سنكري والأسلاف الصالحون متوافرون فيها، فلم أر مثل حال الفقيه الأمين فيهم في حسن الإسلام. وحدثنا رحمه الله تعالى في مدرسته أن الفقيه عمر ابن محمدم بن عزر أخ الفقيه أحمد مغيا كان يقرأ كتاب الشفاء للقاضي عياض على العلامة الحافظ الفقيه أحمد بن الحاج أحمد ابن عمر بن محمد

أقيت، يحضر هو وولده الفقيه أحمد بابا والفقيه القاضي سيدي أحمد. ولا يقبل الأستاذ السؤال لأحد إلا للعارف وحده وللسيد أحمد في بعض الساعات. وأما ولده أحمد بابا إذا سأل يقول له: اسكت، إلى يوم واحد سأل الأستاذ القارئ عمر عن قبح هل هو لازم أو متعد، فسكت. ثم سأل سيدي أحمد، فسكت. قال فتلوت هذه الأية: هم من المقبوحين. فرفع بصره إلي وتبسم، وكنا جماعة نعرض على شيخنا الفقيه الأمين كتاب دلائل الخيرات، والنسخ تختلف في إثبات لفظة سيدنا وإسقاطها، فسألناه عنه. فقال: كنا نعرضه على الشيخ العلامة الفقيه محمد بغيع فسألناه عنه كذلك. فقال: ليس في ذلك الاختلاف بأس، لا يضر بشيء. وسألنا أيضاً عن القول المؤلف" وأن تغفر لعبدك فلان بن فلان". فقال كنا نعرضه أيضاً على الفقيه عبد الرحمن بن الفقيه محمود، فسألناه عنه. فقال مجاوباً: وإن تغفر لعبدك عبد الرحمن ولم يذكر والده. وأما تاريخ وفاته فسيأتي إن شاء الله تعالى في العام الحادي والأبعين بعد ألف وتاريخ وفاة السيد محمد عريان الرأس يأتي إن شاء الله تعالى في العام والعشرين بعد ألف.

الباب الحادي عشر

ذكر آية المسجد الجامع ومسجد سنكري على الترتيب

أما جامع الكبير فالسلطان الحاج موسى صاحب ملي هو الذي بناها، وصومعتها على خمسة صفوف، والقبور لاصقة بها من خارجها في جهتي اليمين والمغرب. وتلك عادة السودان أهل المغرب لا يدفنون أمواتهم إلا في رحاب مساجدهم وجوانبها من خارج، وذلك بعد ما رجع من الحج تتملك تنبكت. فلما جدد الفقيه العدل القاضي العاقب بن القاضي محمود بناءها خربها وسواها مع جميع القبور بالأرض من كل جهة، صير الجميع مسجداً، وزادها زيادة كبيرة.

فأول من تولى إمامتها الفقهاء السودانيون كانوا أئمة فيها في دولة أهل ملي وفي طائفة من دولة التوارق. وآخر الأئمة منهم فيها الفقيه القاضي كاتب موسى مكث في الإمامة أربعين سنة، لم يستنب ولو في صلاة واحدة لأجل صحة البدن التي رزقه الله تعالى بها. وسئل عن سبب تلك الصحة فقال: أحسبها من ثلاثة أشياء، ما بت في الهوى ولو ليلة واحدة في الفصول الأربعة كلها، وما بت ليلة واحدة إلا ودهنت جسمي، وبعد الفجر استحممت بالماء السخون، وما خرجت لصلاة الصبح قط إلا بعد الفطور. هكذا سمعته من والدي ومن الفقيه سيد أحمد رحمهم الله تعالى. ولا يقضي

بين الناس إلا في رحبته سُسُ دبي في وراء داره من جهة المشرق ينصب له المنصّة تحت شجرة كبيرة، كانت هنالك يومئذ. وهو من علماء السودان الذين رحلوا إلى فاس لتعلم العلم في دولة أهل ملي بأمر السلطان العدل الحاج موسى.

فخلفه في الإمامة والله أعلم جد جدتي أم والدي الفقيه الفاضل الخير العابد سيدي عبد الله البلبالي وهو والله أعلم أول البيضان صلى بالناس في تلك المسجد في أواخر دولة التوارق وفي أوائل دولة سن علي. جاء إلى تنبكت صحبة الفقيه الإمام القاضي كاتب موسى لما رجع من فاس هو مع أخيويه والد عبد الرحمن المعروف بالفع تُنكَ ووالد موسى كرَى ووالد نانا بير تور، وقد احترمه الخارجي سن علي كثيراً جداً. كان من عباد الله الصالحين زاهداً ورعاً لا يأكل إلا من عمل يده. وظهرت له كرامات وبركات. فدخل عليه سارق ليلة واحدة وطلع على نخلة كانت في عرصة داره يريد أن يسرق تمرها، فلصق على النخلة إلى الصبح، فعفى عنه وأمره بالنزول فخرج. ومن بركته أنه وقع مرض بتنبكت في بعض الأحيان، قلَّ من سلم منه. فاحتطب يوماً على رأسه إلى البلد وباعها، فكل من توقد تلك الحطب واصطلى بها استشفى وبرئ من حينه. ثم عاود فكذلك حتى فطن الناس له، وبقي يخبر بعضهم بعضاً به، فازدحموا على شرائها. فرفع الله تعالى ذلك المرض عن الناس ببركته.

وما خلفه في الإمامة فيما أظن والله أعلم إلا الشيخ الفاضل الصالح الخير الزاهد العابد العارف بالله تعالى الولي سيدي أبو القاسم التواتي قد سكن في جوار المسجد الجامع من جهة القبلة، ليس بينها وبين داره إلا الطريق الضيق النافذ، بعد ما ابتنى محضراً في قبالة المسجد لاصقاً بها، وفيها يقرأ الأطفال.

وبعد ما توفي خلفه فيه تلميذه السيد منصور الفزاني وبعده السيد الفاضل الصالح الخير الزاهد المقرئ عالم التجويد الفقيه إبراهيم الزلفي وهو أستاذ والدي.

والسيد أبو القاسم هو الذي أحدث هذه المقبرة التي هي المقابر اليوم بعد ما امتلأت المقبرة القديمة التي حول المسجد وجعل عليها السور. ثم خربت وامتحت. وهو الذي ابتدأ قرأة الختمة في المصحف بعد صلاة الجمعة مع قرأة حرف واحد من العشرينيات. وحبس أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد تابوتاً فيها ستون جزءاً من المصحف في ذلك الجامع لأجل تلك الختمة، وبقيت تقرأ فيها إلى العام العشرين بعد ألف، بدلت بأخرى، حبسها الحاج علي ابن سالم بن عبيدة المسراتي، وهي في الجامع الآن.

وصلى الأمير الجمعة فيها يوماً من الأيام، فتربص بعد السلام إلى أن يسلم على الشيخ الفاضل الإمام سيد أبي القاسم التواتي. فبعث أخاه فرن عمر ليخبره بإتيانه للسلام عليه، فأدركهم في قرأة المدح، فوقف على رأسه ينتظر فراغهم. فلما تأخر أتبعه الأمير المرسول الآخر، فإذا فرن برفع الصوت فقال: أسكيا يريد الركوب. فأجابه هو برفع الصوت، ما زالوا في القرأة، فنهاه الشيخ أشد النهي وقال: اخفض صوتك، أما علمت أن النبي صلى الله عليه وسلم يحضر أينما يمدح. فيقرأ عليه مصراعاً من أبيات المنشد وأدنيته بالذكر، فهو به معي. فبعد الفراغ جاءه الأمير فسلم عليه، وقرأ له الفاتحة.

وتأخر في تلك الإمامة جداً. كان ذا كرامات وبركات، يطعم الطعام، وأكثر إطعامه للمداحين لشدة محبته لمدح النبي صلى الله عليه وسلم. وموضع المدح قريب لداره، ومتى سمعهم يمدحون خرج إليهم بالرغائف السخونة كأنما خرجن من الفرن تلك الساعة، ولو كان في جوف الليل حتى تبين للناس أنها من الكرامة.

وروي أن المؤمنين رأوا الماء يقطر في ثيابه يوماً واحداً وهو في صلاة الصبح ويغلس بها جداً. فلما سلم سئل عنه، فقال استغاث فيّ غريق تلك الساعة في بحر دب فأنقذته، فمنها تلك الماء.

وروي أن الناس ازدحموا على نعشه في الليل المظلمة وتصادموا حتى سقطوا على الأرض جميعاً. وبقي النعش في الهوى واقفاً بقدرة البارئ سبحانه حتى قاموا وأمسكوه وراء الناس. هنالك جماعة كثيرة غير معروفين بعد تسعمائة. وتوفي الفقيه المختار النحوي في أواخر تلك السنة كما وقفت عليه في بعض التواريخ.

وسمعت من بعض الفقهاء الذي له حفظ واعتناء بمعرفة التواريخ أن سيدي أبا القاسم توفي في العام الخامس والثلاثين بعد تسعمائة، وأن أبا البركات الفقيه محمود بن عمر لم يتأخر بعده إلا عشرين سنة، وأنه ما وقف قدام الناس للصلاة بعد ما سلم في الإمامة لابن خاله الإمام أند غمحمد لأجل ضعف أعضائه المباركة من الكبر، إلا في جنازة سيدي أبي القاسم التواتي، وفي جنازة شاهده قياض الغدامسي، فهو الذي صلى عليهما. ودفن في المقبرة الجديدة، ودفن فيها كثير من الصالحني. وقيل أن معه هنالك خمسين رجلاً تواتيين أمثاله في الصلاح والعبادة. وكذلك المقبرة القديمة حول المسجد فيها كثير من عباد الله الصالحين.

وروي أن رجلاً واحداً شريفاً من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم اعتكف

في المسجد القديم في رمضان، فخرج ليلة واحدة لقضاء حاجة الإنسان من الباب الوراءي نصف الليل. فلما رجع أدرك في المقابر كلها رجالاً جالسين وعليهم قمص وعمامات بيض فشقهم إلى المسجد. ولما توسطهم قال له واحد منهم: سبحان الله كيف توطأنا بنعالك؟ فقلع حتى دخل المسجد رحمهم الله تعالى ورضي عنهم ونفعنا ببركاتهم في الدنيا والآخرة أمين.

ولما توفي تلميذه سيد منصور فسلم الناس له حتى دفن فيه وهم ثلاثة في تلك الروضة قال والدي رحمه الله تعالى: كان لأستاذنا الشيخ إبراهيم الزلفي جاه عظيم عند أهل تنبكت يومئذ لاعتقادهم فيه، ولو لا ذلك لا يسلمون له في ذلك الموضع.

وبعد موت الإمام سيدي أبي القاسم اتفق أهل الجامع الكبير على الفقيه أحمد والد نانا شرك، فرفعوا أمره إلى أبي البركات القاضي الفقيه محمود، فكمل عليه وصار إماماً في الجامع. وبعد شهرين من ولايته جاء ابن سيد أبي القاسم من توات، فمشى أولئك الجماعة إلى الفقيه فقالوا: تريد أن تجعل لنا ابن الشيخ إماماً؟ فقال لهم: بعد تولية الإمام أحمد؟ إن لم تخرجوا عني أسجنكن جميعاً. ثم رجع إلى توات وبعد سبعة أشهر توفي الإمام أحمد المذكور رحمه الله.

واتفقوا على الفقيه سيد علي الجزولي وهو طارئ، فولاه الإمامة القاضي الفقيه محمود واستناب الفقيه الفاضل عثمان بن الحسن ابن الحاج التشتي متى عرض له العذر. وهو من عباد الله الصالحين. ولما حضرته الوفاة أعطاه ثياب جمعته. وله عادة في المؤاساة على المصلين في الجامع من رمضان إلى رمضان خمسمائة مثقال. وفي واحد من رمضان لم يحصل إلا ماءتي مثقالاً، فبينه للفقيه محمود، فلما جاء إلى صلاة الجمعة وفرغ من تحية المسجد نادى المؤذن فقال له: قل لهؤلاء المسلمين مثل إمامكم هذا إذا ما زدتم في عادته في الخير، فلا تنقصوه منه،ا في الساعة أعطوا الخمسمائة المعروفة زيادة إلى المائتين، فكان سبعمائة مثقال في ذلك العالم.

فتوفي رحمه الله تعالى بعد ما مكث في الإمامة ثمانية عشر سنة فقال الفقيه محمود جدير أن ينفرد بالروضة فدفن خارج السور من جهة الشمال. ثم أمر النائب الفقيه محمود عثمان أن يكون إماماً راتباً، فامتنع وقال له: لا تخرج من يدي حتى تدلني على من يستحقها.

فدله على الفقيه صديق بن محمد تغلي فقبله فصار إماماً في الجامع، وهو كابري الأصل جنجوي المولد. فكان فقيهاً عالماً فاضلاً خيراً صالحاً، ارتحل من جنج إلى

تنبكت وتوطن فيه إلى أن توفي. وسبب ارتحاله أنه صور مسألة من مسائل الفقه في مدرسته يوماً واحداً، وهنالك من طلبته الذي ارتحل إلى تنبكت بعد ما قرأ عليه ما قرأ ثم رجع إلى جنج، فقال: صورة هذه المسألة ليست كذلك، على ما سمعت من الفقهاء في تنبكت. فقال الشيخ وما هي؟ قال كذا وكذا. قال: ضيعنا عمرنا باطلاً. فمن هذا ارتحاله رضي الله عنه.

فانعقدت المحبة بينه وبين النائب وتحابا في الله تعالى، فصارا ملاطفين بحيث إذا تغدا كل واحد منهما بعث فضلته لصاحبه إلى داره، وإذا تعشى كذلك. ولا يتجهز للجمعة إلا في داره لشدة المحبة.

ثم شرق الإمام صديق للحج فحج وزار واجتمع مع كثير من الفقهاء والصالحين، منهم العارف بالله تعالى سيدي محمد البكري الصديقي وهو يحب فقهاء تنبكت كثيراً، أخذ يسأله عنهم وعن أحوالهم، حتى قال له: الذي استنبته يصلي بالناس وراءك رجل صالح.

ولما رجع من الغيبة ودخل داره جاءه أخوه وحبيبه النائب عثمان فسلم عليه وحمد الله له على السلام، وقال له: ادع الله لنا، أنت الذي وقفت في المواقف الكرام. فقال له الإمام صديق: بل أنت الذي تدعو الله لنا، أنت الذي قال فيك العارف بالله تعالى سيد محمد البكري رجل صالح. وحدثه بعض الشيوخ المعمرين من أهل تنبكت أنه حدثه الفقيه الزاهد المؤدب خال والدي سيد عبد الرحمن الأنصاري قال حدثني الإمام صديق قال أخبرني العارف بالله تعالى القطب سيدي محمد البكري الصديقي: أن عمارة تنبكت في عمارة صومعة الجامع الكبير، لا يفرط أهلها فيها. ومكث في الإمامة نحو أربعة وعشرين سنة والله أعلم. وفي صدر من ولايته القاضي العاقب توفي رحمه الله تعالى.

فرتب النائب الفقيه عثمان بعد ما امتنع. فحلف له إن لم يكنه ليسجننه. وفي العام الخامس والسبعين بعد تسعمائة توفي جاره جدنا عمران، فصلى عليه، ودفن في المقبرة الجديدة في جوار سيدي أبي القاسم التواتي.

وفي أواخر العام السابع والسبعين بعد تسعمائة توفي هو ودفن في المقبرة القديمة رحمهم الله تعالى ورضي عنهم. فتنازع أهل الجامع الكبير في الفقيه كداد الفلاني والفقيه أحمد بن الإمام صديق. فاختار القاضي العاقب كداد فرتبه إماماً فيه. وهو فاضل من عباد الله الصالحين فمكث في الإمامة اثني عشر سنة.

فتولاها بعد موته الإمام أحمد بن الإمام صديق بأمر القاضي العاقب ومكث فيها خمسة عشر سنة وتسعة أشهر وثمانية أيام، عشر سنين في دولة أهلا سغي، وهو آخر أئمة الجامع الكبير في دولتهم، وخمس سنين في دولة السلطان الهاشمي أبي العباس مولانا أحمد. وسيأتي تاريخ ولايتهما وتاريخ وفاتهما عند ذكر الوفيات والتواريخ في العام الحادي والعشرين بعد ألف.

وأما مسجد سنكري فقد بنته امرأة واحدة أغلالية ذات مال كثيرة في أفعال البر ما رويناه في الخبر، ولكن لم نجد لبنائها تاريخاً. فتولى إمامتها كثير من الأشياخ رحمهم الله تعالى وغفر لهم. أما الذين عرفنا ترتيبهم فالولي الصالح أبو البركات الفقيه محمود بن عمر بن محمد أقيت تولاها على إذن الفقيه القاضي حبيب ثم ابن خاله الإمام أند غمحمد بن افقيه المختار النحوي. سلم له فيها لما ضعفت أعضاؤه المباركة من الكبر.

وبعد ما توفي الإمام أند غمحمد. أمر الفقيه القاضي محمد بن الفقيه محمود أن يتولاها ابنه الفقيه محمد، فاعتذر بسلس البول، فكلفه بالبينة عليه، فشهد له به الفقيه العاقب بن الفقيه العاقب بن الفقيه محمود. فأقاله القاضي محمد، وكلف شاهده بها، فتولاها. وبعد موت أخيه القاضي محمد كلفه الأمير أسكيا داوود بحمل القضاء فجمع بين المرتبتين إلى أن توفي. ولم يتتنب على الصلاة قط، إلا في مرض موته أمر ابن أخيه الفقيه الزاهد محمد الأمين بن القاضي محمد أن يصلى بالناس. فأبت أمه نانا حفصة بنت الحاج أحمد بن عمر، وبقي المسجد خالياً من صلاة الجماعة أياماً. ثم أمره العلامة الفقيه محمد بغيع أن يستناب من يصلي بالناس. فقال: ألا أن تكون أنت إياه؟ فقال له: لا يمكن ذلك لتعلق حق المسجد الأخرى.

ثم اتفقت الجماعة على ابن أخيه الفقيه أبي بكر بن أحمد بير، فقدموه كرهاً فصلى بالناس الظهر والعصر والمغرب والعشاء، فخرج من البلد هارباً ليلتئذ إلى قرية تنبهور. فتوفي بعده.

وقدمت الجماعة أخاه ولي الله تعالى الفقيه عبد الرحمن بن الفقيه محمود فكان راتباً فيها. ويتكلف وهو في غاية من المرض، ولم يستنب ولو مرة واحدة إلى أن قبضهم محمود بن زرقون.

فتولى بعده الفقيه محمد بن محد كري إلى أن توفي. فصلى بالناس القاضي سيد أحمد مدة قليلة. ثم ولاها ابنه الفقيه محمد. ثم تولاها بعد موته الفقيه سنتاعو بن

الهادي الوداني عن إذن القاضي عبد الرحمن بن أحمد معيا وهو الذي فيها الآن.

الباب الثاني عشر

ذكر الظالم الأبر سن علي

أما الظالم الأكبر والفاجر الأشهر سن علي برفع السين المهملة وكسر النون المشددة، كذا وجدته مضبوطاً في ذيل الديباج للعلامة الفقيه أحمد بابا رحمه الله تعالى. فإنه كان ذا قوة عظيمة ومتنة جسيمة ظالماً فاسقاً متعدياً متسلطاً سفاكاً للدماء، قتل من الخلق ما لا يحصيه إلا الله تعالى، وتسلط على العلماء والصالحين بالقتل والإهانة والإذلال.

قال العلامة الحافظ العلقمي رحمه الله تعالى في شرح الجامع الصغير للجلال السيوطي عند ذكر حوادث القرن التاسع: سمعنا أن رجلاً ظهر بالتكرور يقال له سُنِّ علي أهلك العباد والبلاد، ودخل في السلطنة سنة تسع وستين وثمانمائة.

وروي عن أبي البركات ولي الله تعالى الفقيه القاضي محمود بن عمر بن محمد أقيت أنه سبق مولده ولايته بسنة. نعم وقد رأيت في كتاب الذيل أنه ولد رحمه الله تعالى سنة ثمان وستين وثمانمائة وتوفي في سنة خمس وخمسين وتسعمائة ليلة الجمعة سادس عشر رمضان انتهى.

ومكث في السلطنة إما سبعاً وعشرين أو ثمانياً وعشرين سنة. فاشتغل بالغزوات وفتح البلادات، وأخذ جني وأقام فيها سنة وشهراً، وفتح جنج وأباح لدرمكي الدخول راكباً وغرفاً فوق غرف، وكلاهما ليس لأحد إلا لأمير سغي وحده. وفتح بر وأرض صنهاجة نونو، وأميرهم يومئذ الملكة بيكن كاب. وفتح تنبكت والجبال كلها إلا دُم فامتنعت له. وفتح أرض كنت، وعزم إلى أرض برك فلم يقدر ذلك له. وكان آخر غزواته أرض كُرم.

ولما تولى السلطنة كتب له تنبكت كي الشيخ محد نض كتابه بالسلام والدعاء، وطلب منه أن لا يخرج باله معه لأنه من جملة عياله. ولما توفي وتولى أبنه عمر كتب له بعكس ما كتب أبوه، وقال له في كتابه أن الوالد ما ذهب معه إلى دار الآخرة إلا بشقتين كتاناً فقط، وجميع القوة متوافرة عنده، ومن تعرض له يرى ما معه من تلك القوة.

فقال سن علي لأصحابه شتان ما بين عقل هذا الفتى وبين عقل أبيه، والذي بين

كلامهما من التفاوت هو الذي بيّن عقولهما. وفي سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة دخل في تنبكت في رابع رجب الفرد أو خامسه، وهي رابع سنة أو خامس سنة من دخوله في السلطنة. عمل فيها فساداً عظيماً جسيماً كبيراً فحرقها وكسرها وقتل فيها خلقاً كثيراً. ولما سمع أكِل بمجيئه أحضر ألف جمال، رحل فقهاء سنكري ومشى بهم إلى بير. فقال إن شأنهم هو الأهم عليه. ومشى فيهم الفقيه عمر بن محمد أقيت وأولاده الثلاثة المباركون: الفقيه عبد الله والفقيه أحمد وهو أكبرهم والفقيه محمود وهو أصغرهم سناً، وهو ابن خمس سنين يومئذ لا يقدر على الركوب ولا يقدر على المشي على رجله إلا يحمل على الرقبة حدُّ مكنكي، هو حامله حتى وصلوا، وهو عبد لهم. ومشى فيهم خالهم الفقيه المختار النحوي بن الفقيه أند غمحمد، وأدرك الإمام الزموري رحمه الله تعالى في بير، فأجازه كتاب الشفاء للقاضي عياض رحمه الله تعالى. ويوم الرحيل ترى رجلاً كبيراً بلحيته إذا أراد أن يركب الإبل يبقى يرتعد خوفاً منه، وإذا ركب طاح على الأرض عند قيامه، لأن الأسلاف الصالحين أمسكوا أولادهم في حجورهم حتى كبروا، ولا يعرفون شيئاً من أمور الدنيا لعدم لعبهم في حال صغرهم، لأن اللعب حينئذ يكيس الإنسان، ويبصر في كثير من الأشياء. فندموا عند ذلك، وبعد ما رجعوا لتنبكت خلوا بينهم وبين اللعب، وأطلقوهم من ذلك الإمساك.

فاشتغل الظالم الفاسق يقتل من بقي منهم في تنبكت وإهانتهم، وزعم أنهم أحباء التوارق وخاصتهم، فأبغضهم لذلك. فسجن والدة الفقيه محمود سِت بنت أند غمحمد، وقتل أخويها الفقيه محمود والفقيه أحمد أبي الفقيه أند غخمحمد. وجعل يتبعهم إذاية بعد إذاية وإهانة بعد إهانة والعياذ بالله. وأمر يوماً بإتيان ثلاثين من بناتهم الأبكار لتخذهن جواريات، وهو في مرسى كبر وأمر أن لا يأتين إلا على أرجلهن. فخرجن وما برزن من الخدور قط، وخدامه معهن يسوقهن حتى وصلن موضعاً عجزن عن المشي بالكلية. فبعث له بخبرهن فأمر بقتلهن، فقتلن جميعاً، والعياذ بالله. والموضع في قرب أمطع من جهة المغرب يقال لها فناء قدر الأبكار.

وبعد رحيل الفقهاء إلى بير قلد القضاء الفقيه القاضي حبيب حفيد السيد عبد الرحمن التميمي، وبالغ في تعظيم ابن عمه المأمون والد عماراد المأمون، حتى لا يقول له إلا أبي. وبعد موته، حين شرع الناس في ذكر مساوئه، يقول المأمون لا أقول في سن علي سوء إلا أنه أحسن إلي ولم يعمل في سوءاً كما عمله في الناس، لا يذكره بحسن ولا قبيح. فعظم قدره عند أبي البركات الفقيه محمود بذلك، لأجل عدالته.

ولم يزل يقتل فيهم ويذلهم إلى العام الخامس والسبعين والثمانمائة خرج من بقي من أهل سنكري هاربين إلى بير أيضاً. فجعل تنبكت كي المختار محمد بن نض في أثرهم فوصلهم في تعدِت، فتقاتلوا ومات في ذلك خيارهم. وهي الوقعة المعروفة بها. ثم التفت إلى أولاد القاضي الحي الذين في الفع كُنك فعاملهم بالإهانة والإذلال، فهرب كثير منهم وتوجهوا إلى تِكدة. وذكر أنهم ما توجهوا إلى تلك الناحية إلا ليستغاثوا بالتوارق ويأتوا بهم لأجل الانتقام منه، فعمل السيف فيمن بقي هنالك وقتل منهم كثير، وسجن فيها رجالاً ونساء، والعياذ بالله. وقيل من أجل ذلك لا يصب المطر في ذلك المكان صباً نافعاً إلى الآن.

وهرب من خيارهم ثلاثون رجلاً فتوجهوا إلى جهة المغرب، وهم في ذلك الهروب إلى يوم واحد وصلوا بلد شير، فنزلوا هنالك تحت شجرة قائلين صواماً. فناموا، ثم انتبه واحد منهم فقال: رأيت في نومي هذا كأنا جميعاً مفطرون الليلة في الجنة. ولم يتم كلامه فإذا رسل الظالم الفاجر راكبين على خيلهم، فقتلوهم جميعاً، والعياذ بالله، رحمهم الله تعالى ورضي عنهم أجمعين.

وأوقف الفقيه إبراهيم صاحب الفع كنك بن أبي بكر ابن القاضي الحي يوماً واحداً في الشمس في ذلك الموضع إهانة له وتعذيباً، فرأى والده أبا بكر المذكور في المنام، ويضربه بعكازه ضرباً وجيعاً يقول: شتت الله أولادك كما شتت أولادي فاستجاب الله تلك الدعاء فيه.

أما الذين هربوا منه في الفع كنك إلى تكدة فبقوا هنالك ساكنين متوطنين.

ومع هذه الإساءة كلها التي يفعل بالعلماء يقر بفضلهم ويقول: لو لا العلماء لا تحلو الدنيا ولا تطيب. ويفعل الإحسان في أخرين ويحترمهم. ولما غار على الفلانيين من قبيلة سنفتير بعث كثيراً من نسائهم لكبراء تنبكت وبعض العلماء والصالحين هدياً لهم، وأمرهم أن يتخذوهم جواري. فمن لا يرعى أمر دينه اتخذها كذلك، ومن يرعى أمر دينه تزوج منهم. جد جدتي أم والدي السيد الفاضل الخير الزاهد الإمام عبد الله البلبالي تزوج التي بعثها له، واسمها عائشة الفلانية. وولد منها نانا بير تورإم أم والدي وأدرك الوالد هذه العجوز قد كبرت جداً وعميت.

ومن أخلاق هذا الظالم الفاسق التلاعب بدينه يترك خمس صلوات إلى الليل أو إلى الغد ثم يؤمي قاعداً مراراً متكررة ذاكراً أسماءهم، ثم يسلم تسليمة واحدة ويقول انتنّ تعرف بعضكن بعضاً فاقتسمن. ومن أخلاقه أن يأمر بقتل إنسان ولو كان أعز

الناس عنده بلا سبب ولا موجب، ثم يندم على بعضهم. وخدامه الذين يعرفون أخلاقه إذا كان الأمر بالقتل ممن سيندم عليه أدخروه وأحفظوه، ومتى أظهر الندامة قالوا له قد حفظناه لك ولم يمت، فيفرح ساعتئذ، كما فعل ذلك بخديمه أسكي محمد، غير ما مرة كم أمر عليه بقتله، وكم أمر عليه بحبس. وهو يعكس عليه في بعض الأحيان لقوة قلبه وشدة جرأته التي جعل الله ذلك فيه جبلة وطبيعة. ومتى نزلت به شدة منه جاءت أمه كاسي إلى نانا تنت ابنة الفقيه أبي بكر بن القاضي الحي في تنبكت تطلب له الدعاء عندها أن ينصره الله تعالى على سن علي، إذا تقبل الله هذه الدعاء يفرحكم في أولادكم وأقاربكم إن شاء الله. فوفي بالوعد عند ولايته.

وأما أخوه عمر كمزاغ فهو يطيعه غاية لأنه كان عاقلاً لبيباً، وما تعرض له الظالم بالسوء قط. وكما فعل ذلك أيضاً بكاتبه إبراهيم الخضر، وهو فاسي جاء لتنبك وسكن فيه في حومة الجامع الكبير على جهة اليمين مائلاً إلى جهة المغرب قليلاً، فرتبه كاتباً. أمر يوماً بقتله وأكل جميع أمواله، فنفذ أمره. ولكن أدخره الخدام إلى يوم واحد جاءه كتاب الرسالة ولم يكن عنده قارئ، فقال: إن كان إبراهيم كبير البطن حياً لم نتوحل في هذا الكتاب. فقالوا له: هو حي أدخرناه، فأمر بإحضاره فقرأ الكتاب. ورده في خطته وأعطاه ضعف ما ضاع له من المال، ولم يجد السكون والهناء إلا في مدة أسكيا محمد، فأبقاه في مقامه عزيزاً مكرماً إلى أن توفي. فخلفه في ذلك المقام ابنه حوي، ولكن رجع كاتباً لناظر أسكيا في تنبكت في رترة عظيمة وقدر مكين.

ودخل في كبر سنة اثنين وثمانين وثمانمائة، وهي السنة التي دخل موش في مام. وكان سن علي في تسك سنة أربع وثمانين وثمانمائة. وفي هذه السنة ولد أيد حامد ابن أخت الفع محمود، وفيها صام هو رحمه الله. قال عن نفسه: سِنه الله أعلم سبعة عشر عاماً. وخرج من كُبُر سنة خمس وثمانين وثمانمائة.

وفيها دخل موش في بير في جمادي الأولى وخرج منه في جمادي الثانية، حاصرهم شهراً فطلب منهم الزوجة، فزوجه ابنة السيد الفاضل أند نض، فبقيت عنده إلى دولة أسكيا [أند نض بن علي بن أبي بكر] الحاج محمد فاستخلصها من أيديهم بعد ما حارب موش وخربهم، فزوجها وبعد الحصران. قاتل موش مع أهل بير فغلبهم وسبا عيالهم، وذهبوا فتبعهم أهل بير وقاتلوهم وأنقذوا العيال منهم. وعمر بن محمد نض هنالك يومئذ، وهو أشدهم نجدة وشجاعة في المقاتلة، وهو أول من بلغ موش كي وضايق عليه حتى سلم في العيال.

وفي هذه السنة خرج الفع محمود من بير في شهر شعبان ورجع إلى نتبكت. وذكر رحمه الله تعالى أنه قرأ رسالة ابن أبي زيد على يد حامد حتى بلغ ركعتي الفجر، فجاء موش وقرأ منه شيئاً على أحمد بن عثمان، ونسي من ختمها عليه. ثم بدأ قرأة التهذيب على أخيه. ورجع أيضاً إلى تنبكت خاله الفقيه المختار النحوي. وأما والده الفقيه عمر بن محمد أقيت فقد توفي هنالك.

ولما سكن في تنبكت بعد ذهاب دولة الظالم كتب لأخيه الفقيه عبد الله وهو في تازخت قرية في قرب بير، فأمره أن يأتي لتنبكت. فكتب إليه أنه لا يأتيها لأن أهل سنكري قاطعون للأرحام وظئر الأولاد، تفرقون بين أربابهم بالنميمة، وأيضاً لا يسكن حيث كان ذرية سن علي، وإذا كان راحلاً إليها ولا بد لا يسكن إلا في حومة الجامع الكبير في جوار السلطان الوجلي والد عمر بير، لأن أخلاقه حسنة ورضي عنه حين تجاورا في تازخت. وبقي هنالك إلى أن توفي رحمه الله وأعاد علينا من بركاته.

فلازم أبو البركات الفقيه محمود حين سكن تنبكت القاضي حبيب في أخذ العلم إلى أن توفي. فهو شيخه ووصاه أن يكون قاضياً بعده، وأن لا يغشى أبناء الدنيا في مساكنهم، وما ذلك إلا لأجل رفع الضرر عن الضعفاء والمساكين، وأنه رأى هذا الذي يترتب فيها. فامتثل وصيته رحمهما الله تعالى ونفعنا بهما في الدارين.

ثم شرع في حفر بحر رأس الماء للوصول إلى بير في البحر، وهو يشتغل بذلك بالجد والاجتهاد في قوة عظيمة. فإذا الخبر جاءه أن موش كي عازم إليه في جيشه بغزو، وأدركه الخبر في الموضع الذي يقال له شي فنس، فانتهى فيه. وكفى الله تعالى أهل بير شره. فرجع لملاقاة موش كي، فالتقى معه في جنكي تُعي قرية في قرب بلد كب من وراء البحر، فاقتتلوا هنالك، فهزمه سن علي، وهرب وتبعه حتى دخل في حد أرضه، وذلك في سنة ثمان ونمانين ونمانمائة.

ثم رجع ونزل في دير. ثم نهض منه لفتح الجبال كما مر. ثم غزا كُرم، فغلبهم وخربهم، وهي آخر غزوته. وأصلح السور الذي في كبر المسمى تل حين. خرج من بِتر سنة تسعين وثمانمائة.

وفيها شرق الحاج أحمد بن عمر ابن محمد أقيت للحج، ورجع في فتنة الخارجي سن، علي على ما قاله العلامة أحمد بابا في الذيل، وفي سنة إحدى وتسعين وثمانمائة. وفيها أُخذ تنبكت كي المختار ابن محمد نض وسجنه. وفي سنة إحدى وتسعين. ذكر اسم سن علي في عرفة والفقيه عبد الجبار كك حاضر سنة اثنين وتسعين

وثمانمائة، فدعوا الله تعالى عليه. فدخل في نقصان حتى ذهب دولته.

وكان تُسُكُ في سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة. وفي هذه السنة دخل أهل تنبكت في هَوكي ومكثوا فيها خمس سنين، منهم ولي الله تعالى سيدي أبو القاسم التواتي وأبو البركات الفقيه محمود وأخوه الحاج أحمد وغيرهم رحمهم الله تعالى. ومات مودب زنكاس سنة أربع وتسعين وثمانمائة.

وفي سنة ثمان وتسعين وثمانمائة توفي سن علي بن سن محمد داعوا، راجعاً من غزوة كُرم بعد ما حارب الزغمانيين والفلانيين. وقاتلهم ولما وصل بلاد كرم في رجوعه انطلق عليه سيل هنالك في الطريق يسمى كُن، وأهلكه بقدرة القادر المقتدر في خامس عشر من المحرم الحرام فاتح عام الثامن والتسعين والثمانمائة من الهدرة. فشق أولاده بطنه وأخرجوا أحشاءه وملؤوه عسلاً لئلا ينتن على زعمهم. جعل الله تعالى ذلك مجازاة لما كان يفعل بالناس في حياته أيام تجبره. فنزل عسكره في بعنيي.

الباب الثالث عشر

ذكر أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر

فتولى ابنه أبو بكر دوعو السلطنة في بلد دَنغ. وكان الأسعد الأرشد محمد بن أبي بكر الطوري، وقيل السلنكي، من كبار قياد سن علي. فلما بلغه ذلك الخبر أضمر في نفسه الخلافة وتحيل في ذلك بأمور كثيرة. فلما فرغ من إبرام حبل تلك الحيل توجه إليه فيمن كان معه من خواصه فغار عليه في البلد المذكور في ثاني ليلة من جمادي الأولى في العام المذكور. فانهزم جيشه وولّى هارباً حتى وصل قرية يقال لها أنكُع، وهو بقرب كاغ. فوقف هنالك حتى جمع عليه جيشه. ثم التقى معه فيها يوم الاثنين رابع عشر من جمادي الأخرى، فجرى بينهما حرب شديد وقتال عظيم ومعركة هائلة حتى كادوا يتفانون. ثم نصر الله تعالى الأسعد الأشد محمد ابن أبي بكر، وهرب سن أبو بكر داعو إلى أين، فبقي هنالك إلى أن توفي.

فتملك الأسعد الأرشد يومئذ، فكان أمير المؤمنين وخليفة المسلمين. ولما بلغ الخبر بنات سن علي قالت أسكيا، معناه في كلامهم لا يكون إياه. فلما سمعه أمر أن لا يلقب إلا به، فقالوا أسكيا محمد.

ففرج الله تعالى به عن المسلمين الكروب وأزال به عنهم البلاء والخطوب. واجتهد بإقامة ملة الإسلام وإصلاح أمور الأنام، وصاحب العلماء واستفتاهم فيما

يلزمه من أمر الحل والعقد، وميز الخلق، بعد ما كان الكل في أيام الخارجي جندياً، بين الرعية والجند. وبعث في الفور للخطيب عمر أن يطلق المسجون المختار بن محمد مض يأتيه ليرده في مقامه، فأخبر أنه مات، وقيل أنه بادر بقتله ساعتئذ. ثم بعث إلى بير لأخيه الأكبر عمر، فجاء فرده في مقامه تنبكت كي. وفي آخر تسع وتسعين وثمانمائة أخذ زاغ على يد أخيه كرمن فاري عمر كمزاغ، وقاتل بكرمغ.

وفي السنة الثانية من القرن العاشر مشى إلى الحج في شهر الصفر والله أعلم، فحج بيت الله الحرام مع جماعة من أعيان كل قبيلة، وفيهم ولي الله تعالى مور صالح جور رحمه الله تعالى ونفعنا ببركاته في الدارين، وعكري الأصل بلده توتا الله الذي في أرض تندرم. رأى الأمير بركته في ذلك الطريق لما هبت عليهم السموم بين مكة ومصر، نشف جميع ما معهم من الماء حتى كادوا أن يموتوا من الحر والعطش، بعث إليه فطلب منه أن يتوسل إلى الله تعالى في السقي لهم بحرمة النبي محمد صلى الله عليه وسلم. فزجر المرسول أشد الزجر وقال: حرمته أعظم من أن يتوسل بها في حاجة دنيوية. ثم دعى الله تعالى فسقاهم في الساعة بغيث جاء على وفق المراد.

والكجندي الذين ذهب بهم معه ألف وخمسمائة رجال، خمسمائة فرساناً، وألف رجلي، منهم ابنه أسكيا موسى وهُك كُرى كرى علي فلن وغيرهم. وأما المال فثلاثمائة ألف ذهباً الذي أخذه عند الخطيب عمر من مال سن علي الذي تحت يده. وأما الذي في داره هو فقد غبر ولم ير منه شيئاً.

فحج وزار، وحج معه من كتب الله ذلك له من أولئك الجماعة في آخر تلك السنة، وبالغ السيد المبارك مور صالح جور في الدعاء لأخيه عمر كمزاغ الذي خلفه على ملكه غاية ونهاية، لأنه يحبه وينفعه ويكرمه غاية الإكرام.

فتصدق الأمير في الحرمين من ذلك المال بمائة ألف ذهباً، واشترى جناناً في المدينة المشرفة وحبسها على أهل التكرور، وهي معروفة هنالك. واتفق بمائة ألف واشترى السلع وجميع ما يحتاج إليه بمائة ألف.

ولقي في ذلك الأرض المبارك الشريف العباسي، فطلب منه أن يجعله خليفته في أرض سغي، فرضي له بذلك وأمره أن يسلم في أمرته التي هو فيها ثلاثة أيام ويأتيه في اليوم الرابع. ففعل، وجعله خليفته، وجعل على رأسه قلنسوة وعمامة من عنده، فكان خليفة صحيحاً في الإسلام. ثم لقي كثيراً من العلماء والصالحين، منهم الجلال السيوطي رحمه الله تعالى، وسألهم عن أشياء من أموره، فأفتوه فيها، وطلب منهم

الدعاء، فنال بركاتهم كثيراً.

ورجع في السنة الثالثة ودخل في كاغ في ذي الحجة مكمل السنة، فأصلح الله تعالى ملكه ونصره نصراً عزيزاً وفتح له فتحاً مبيناً، فملك من أرض كنت إلى البحر المالح في المغرب وأحوازهما، ومن حد أرض بِندك إلى تغز وأحوازهما. فطوّع الجميع بالسيف والقهر، كما يأتي عند ذكر غزواته. وكمل الله له مراده في الجميع. فكيفما ينفذ حكمه في دار سلطنته، كذلك ينفذ في جميع مملكته طولاً وعرضاً مع العافية الباسطة والرزق الواسعة. فسبحن من يخص من شاء بما شاء، وهو ذو الفضل العظيم.

وفي السنة الرابعة غزا غزوة نعسر، وهو سلطان موش. ومشى معه السيد المبارك مور صالح جور، فأمره أن يجعلها جهاداً في سبيل الله. فلم يخالفه في ذلك. وبيّن جميع أحكام الجهاد، فطلب أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد من السيد المذكور أن يكون مرسولاً بينه وبين سلطان موش. فقبل ووصل إليه في بلده وبلغه رسالة أسكيا في الدخول في الإسلام. فقال له حتى يشاور آبائه الذين في الآخرة، فمشى إلى بين صنمهم مع وزرائه، ومشى هو معهم لينظر كيف يشاور الأموات. فعملوا ما يعملون من عوائدهم في صدقاتهم، فظهر لهم شيخ كبير فلما رأوه سجدوا له، وأخبره الخبر. فتكلم لهم بلسانهم وقال: لا أقبل لكم ذلك أبداً، بل تقاتلونه حتى تفنوا عن آخركم أو يفنوا عن آخرهم. فقال نعسر للسيد المبارك: ارجع إليه وقل له ما بيننا وبينه إلا الحرب والقتال. ثم قال لذلك الشخص الذي ظهر في صورة الشيخ بعد ما خرج الناس من ذلك البيت: سألتك بالله العظيم من أنت؟ فقال: أنا إبليس أغويهم لكي يموتوا على الكفر.

فرجع إلى الأمير أسكيا الحاج محمد وأخبره بجميع ما جرى. فقال عليك الآن بالقتال فيهم فقاتلهم وقتل رجالهم وخرب أرضهم وديارهم وسبا ذراريهم. فكل من أتى في هذه السبي من رجال ونساء صاروا مباركين. ولم يكن في هذا الإقليم جهاد في سبيل الله إلا هذه الغزوة وحدها.

وفي هذه السنة توفي القاضي حبيب رحمه الله. وتولى القضاء شيخ الإسلام أبا البركات فضاء تنبكت وأحوازها. وحدثني من أثق به من الإخوان أنه حدثه شيخ المسلمين الفقيه محمد بن أحمد بغيع الونكري حفظه الله تعالى أن الفقيه أبا بكر بن القاضي الحي هو الذي دل الأمير أسكيا الحاج محمد على الفقيه محمود أن يوليه القضاء، فقال له أن هذا الفتى رجل مبارك صالح فولاه إياها انتهى كلام الشيخ الونكري.

وخاله الفقيه المختار النحوي غائب حينئذ. فلما رجع من الغيبة لام الفقيه أبا بكر أشد الملامة فقال له: لم تدله على أبي [ابن أخي]؟ أليس لك ابن هو أهل للقضاء؟ فهلَا دلّلته عليه؟ وعمر أبي البركات يومئذ خمس وثلاثون سنة، ومكث في القضاء خمس وخمسون سنة، وتوفي عن تسعين سنة رحمه الله تعالى.

وأدركته القضاء في إمامة جامع سنكري، ثم إنه سلم منها في آخر عمره، وولاها ابن خاله الفقيه الإمام أند غمحمد ابن المحتار النحوي. ولم يقم بين يدي الناس بعد للصلاة إلا في وفاة ولي الله تعالى سيدي أبي القاسم التواتي فصلى عليه، وإلا في وفاة فياض الغدامسي فصلى عليه رحمه الله تعالى.

ونزل الأمير في توي في رجوعه من غزوة نعسر في رمضان. وفي الخامسة مشى إلى تندرم، وأخذ باغن فاري عثمان، وقتل دنب دنب الفلاني. وفي السادسة غزا إلى أير وأخرج تلظ في سلكنته. وفي السابعة بعث أخاه عمر كمزاغ إلى زلن ليقاتل قام فتي قلي قائد سلطان ملي الذي على البلد، فامتنع منه وما نال منه نيلاً، فأرسل الخبر للأمير أسكيا ونزل محلته في تنفرن بلد في قرب زلن في جهة المشرق، وفيه ولد أبنه عثمان فلقب بتنفرن. فجاء الأمير بنفسه فقاتله وغلبه وخرب البلد ورفع دار سلطان ملي وسبا أهله. وفي هذا السبي جاءت مريم داب والدة ابنه إسماعيل. فتأخر هنالك حتى أصلح البلد ووضعه على غير وضعه الأول، ثم رجع. وأما أهل جني فبولايته دخلوا في ملكه طائعين.

ولم يغز في الثامنة والتاسعة والعاشرة. وفي أول الحادي عشر غزا غزوة برك، ويقال له بربو أيضاً. وفيها نهبت جاريته زاركن بنكي والدة ابنه موسى أسكيا. ومات كثير من خيار أيبر بند وعغاريتهم [عقاريهم؟] في المعركة بينهما حتى بكا أخوه عمر كمزاغ. وقال له: أفنيت سغي. فقال: بل عمرت سغي، هولاء القوم الذين رأيتهم أيطيب لنا العيش في سغي وهم معنا فيه؟ ولا يمكن أن نفعل بهم هذا الفعل لأيدينا ولذلك أتينا بهم في هذا الموضع ليتق كانوا فيه وترتاح منهم لهم عرفت فيهم من عدم الفرار للموت فحينئذ ذهب عن أخيه ما به من الغم والأسف وبهذا التاريخ ولد الفقيه محمد بن أبي البركات القاضي الفقيه محمود رحمهم الله تعالى.

ولم يغز في الثاني عشر. وفي الثالثة عشر غزا غزوة كلنبوت وهي مل. وفي الخامس عشر مشى إلى الحج شيخ الإسلام القاضي محمود بن عمر، واستخلف في الإمامة خاله الفقيه المختار النحوي، وفي القضاء القاضي عبد الرحمن ابن أبي بكر،

بامر الأمير أسكيا الحاج محمد. ثم رجع من الحج في السادسة عشر في السابع والعشرين من شعبان. ولما وصل كاغ سمع به الأمير، وهو في كَبَر يومئذ المرسى المعروف، ركب في القارب وتوجه إلى كاغ للقائه، ولقيه هنالك.

ثم جاز أبو البركات إلى تنبكت، فدخل داره بسلامة وعافية. فظن كثير من أهل تنبكت أنه يسلّم في تلك الإمامة لخاله المذكور، وفي ظهر يوم وصوله جاء إلى المسجد فصلى بالناس. وأما القاضي عبد الرحمن فبقي في تلك القضاء، ولم يتكلم له الفقيه محمود بشيء إلى عشر سنين. فأخبر الشيخ أحمد بِيُكُن الأمير أسكيا الحاج محمد بذلك، فأرسل مرسوله إلى تنبكت وأمر أن يخرج منها القاضي عبد الرحمن ويتولاها متوليها الفقيه القاضي محمود. فخرج هذا ويتولى هذا تزييل.

وقع كلام وخصومة بين القاضي محمد بن أحمد بن القاضي عبد الرحمن وبين نفع تنبكت كي المصطفى كرى حفيد الشيخ أحمد بيكن، فشدد فيها القاضي محمد، فقال نفع: هذه عداوة من عهد أجدادنا حيث فطن جدي الشيخ أحمد الأمير أسكيا الحاج محمد عن عمل جدك القاضي عبد الرحمن، فعزله وهي التي عندك لنا.

وفي السابعة عشر أرسل الأمير هك كري كي علي فلن وبلمع محمد كري إلى باغن فرن مع قُت كَيتا.

وفي الثامن عشر غزا غزوة اللعين المتنبّي تينض، فقتله في زار. وقد أدرك الحال أن ابنه الكبير كَل غائباً في غزوة، فلما سمع ما جرى على والده اللعين هرب ما معه من الجند إلى فوت، وهو اسم أرض في قرب البحر المالح، لسلطان جلف، فسكن فيها فبقي يحتال في غدرة ذلك السلطان حتى تمكن منه فقتله. وانقسم إقليم جلف نصفين، نصفاً تملكه كَل ولد سلتي تينض، والنصف الآخر ملكه دمل، وهو أكبر قياد سلطان جلف.

فصار فيها سلطاناً عظيماً ذا قوة متينة وسلطنتهم باقية كذلك فيها إلى الآن، وهم سودانيون. ولما توفي كل خلفه ولده يريم. ولما توفي خلفه أخوه كلايي تبار، وهو فاضل خيّر عدل قد بلغ الغاية القصوى في العدالة بحيث لم يعلم له نظير في ذلك في المغرب بأسرها إلا سلطان ملي كنكن موسى رحمهم الله تعالى. ولما توفي كلايي خلفه ابن أخيه كت ابن يريم. ولما توفي خلفه أخوه سنب لام، وقد حاول في العدالة نصيبه، فنهي عن الظلم ولا يقبله البتة، وأقام في السلطنة سبعاً وثلاثين سنة. ولما توفي خلفه ابنه أبو بكر وهو الذي فيها الآن.

تنبيه تينض سلتي يا للب ونيم سلتي وررب ودك سلتي فرهي وكر سلتي ولرب خرجوا من قبيلة جلف في أرض ملي ونزلوا في أرض قياك. فلما قتل الأمير أسكيا الحاج محمد اللعين رحل الكل إلى فوت وسكنوا هنالك وهم فيها إلى الآن.

وأما جلف فهم خيار من في الناس فعلاً وطبيعة، وطبائعهم تباين طبائع سائر الفلانيين في كل وجه، وخصهم الله تعالى بمحاسن الأخلاق ومكارم الأفعال ومحامد السير، وهم في تلك الناحية الآن بقوة عظيمة ومتنة جسيمة. أما النجدة والشجاعة فليس لهم نظير فيها، وأما العهد والوفاء فمنهم ابتدأت وإليهم انتهت في تلك الناحية على سمعنا.

وفي آخر التاسعة عشر غزا غزوة كشن ورجع في الربيع الأول في العشرين سنة. وفي آخر الحادية والعشرين غزا غزوة العدالة سلطان أكدز، ورجع في الثانية والعشرين. وفي رجوعه خالف عليه كُت صاحب ليك الملقب بكَنت، وسببه أنه لما وصل بلده حين رجع معه من تلك الغزوة انتظر سهمه من تلك الغنيمة. فلما انقطع رجاؤه منه سأل دند فاري عن سهمه. فقال له: إن طلبته لتغوّطت. فسكت. ثم جاءه أصحابه فقالوا له: أين سهامنا عن هذه الغنيمة، ما رأيناها إلى الآن إلا تسألها. فقال: سألتها، قال في دند فاري إن عدت سألتها لتغوّطت. ولا أتغوط وحدي وإن كتنم تتغوطون معي سألت. فقالوا: نتغوط جميعاً معك. فقال: بارك الله فيكم، هذا الذي أريد. فعاد إلى دند فاري فسأله فأبى. فخالفوا، وصار بينهم إلى قتال عظيم فامتنعوا وخرجوا من طاعة الأمير أسكيا الحاج محمد إلى انقراض دولة أهل سغي، فقام كنت بنفسه. وفي الثالثة والعشرين غزا إليهم فما نالوا منهم نيلاً.

وفي الرابعة والعشرين أرسل أخاه كرمن فاري عمر إلى قام قتي فقتله. وفي الخامسة والعشرين نزل في كبر في الخامس عشر من رمضان. وفي السادسة والعشرين مات أخوه عمر كمزاغ في اليوم الثالث من الربيع الأول. فاحتجب ولي الله تعالى خور صالح جور عن الناس ثلاثة أيام. ثم خرج، فلما جلس في المدرسة قال للطلبة: ففي هذا اليوم ترك الولي بري عمر وعفي عنه. وهو يحب هذا السيد وينفعه ويكرمه غاية الإكرام.

والأمير في سنكرِيَ يومئذ قرية وراء كوكي إلى جهة دند، وجعل أخاه يحيى كرمن فاري، وأقام فيها تسعة أعوام. فتوفي في فتنة فارمنذ موسى لما خرج باغياً عن والده الأمير أسكيا الحاج محمد.

وفي الثانية والعشرين مات عمر بن أبي بكر سلطان تنبكت. وفي إحدى وثلاثين أرسل أخاه فرن يحيى إلى كرر، ومات هنالك بنك فرم علي يمر. فلما رجع بعث علي فلن إلى بنك لرفع تركة الهالك علي يمر، وطلب من الأمير أن يتولى ابنه بل فرم بنك فرم، وهو أدك فرم يومئذ، فأذن له. وهو معروف بين إخوته بالنجدة والشجاعة، ومن صغار أولاده. فلما سمع إخوانه الكبار ذلك غضبوا وحلفوا متى جاء كاغ يشقون طبله، وتلك الرئاسة مقام كبير في سلطنتهم، وصاحبه من أرباب الطبل. وبقي إخوانه يتكلمون في أمره بكلام الغار حساداً، إلا فارمنذ موسى وحده وهو أكبر منهم جميعاً.

فسمع بل جميع مقالاتهم فحلف هو على من أراد أن يشق طبله يشق هو دبر أمه. فجاء كاغ وطبله بين يديه يضرب حتى وصل موضعاً معروفاً بقرب المدينة، وهو حد الانقطاع ضرب جميع الطبل إلا طبل أسكيا وحده. فأمر طباله أن لا يمسك عن عمله إلى باب دار الأمير. فركب كبار الجيش الذين من عاداتهم أن يركبوا للقاء مثله، وفيهم إخوانه الذين وعدوا بشق طبله. فلما وصلهم نزل عن حصانه للسلام عليه كل من عادته أن ينزل لمثله، إلا فارمنذ موسى سلم عليه وهو على حصانه، وأحنى رأسه له قليلاً وقال له: ما تكلمت بشيء وقد عرفت إن تكلمت لا بد من وفاء كلامي. وما قدر أحد منهم أن يتعرض بسوء، فنعقدت العداوة بينه وبين إخوانه بهذا الطلوع، وبما فاق عليهم في كثير من المشاهد والمعارك بالجرأة.

وقد أدرك الحال موسى يحيد عن الطريق لوالده الأمير غيظاً عليه، وعلى خديمه النصيح علي فلن مما كان بينهما من المساعدة والموافقة، وزعم أن الأمير لا يفعل شيئاً إلا بأمره.

وقد عمي في أواخر دولته ولم يفطن أحد به لأجل قرب علي فلن منه وملازمته إياه. فجعل موسى يهدد عليه ويتوعده بالقتل، فخاف منه وهرب إلى تندرم عند كرمن فاري يحيى في السنة الرابعة والثلاثين.

وفي الخامسة والثلاثين خالف عليه فارمنذ موسى فذهب إلى كوكيا مع بعض إخوانه. فأرسل الأمير لأخيه فرن يحيى في تندرم أن يجيء لتقويم أعوجاج هؤلاء الأطفال. فجاء وأمره أن يذهب إليهم في كوكيا ووكّد عليه أن لا يبلغ معهم التمريث. فوصلهم هنالك ولقوه بالقتال حتى جُرح وتمكن منه. فسقط على الأرض وخر على وجهه عرياناً، وجعل يتكلم بما سيكون فيهم من المحدثات، وداوود ابن الأمير واقف عند رأسه في تلك الحال مع أخيه إسماعيل ومحمد بنكن كري بن عمر كمزاغ. فأشار

إلى صاحبيه بالبهتان والكذب. فقال في تلك الحال: مار بنكن كري، تصغير هذا اللفظ في لغتهم، أنت الذي تنسب إلى الكذب، وما ثم بعد لا تسمعه أبداً يا قطاعاً للرحم. وغطه إسماعيل بالثوب فقال وهو في تلك الحال: عرفت يا إسماعيل لا تفعله إلا أنت لأنك وصال للرحم. ثم توفي. فجعل الأمير ابنه عثمان يَوباب كرمن فاري وأرسله إلى تندرم.

ثم رجع موسى وإخوته إلى كاغ. وفي آخر هذه السنة عزل الأمير والده يوم الأحد يوم عيد الأضحى قبل الصلاة، والأمير في المصلى. فحلف أن لا يصلي أحد حتى يتولي الأمرة. فسلّم له والده، فكان أميراً ساعئذ. فصلى الناس صلاة العيد. وبقي هو في داره وأسكيا الوالد في دار السلطنة، ولم يخرجه منها في حياته. ومكث الأمير أسكيا الحاج محمد في السلطنة ستة وثلاثين سنة وستة أشهر.

الباب الرابع عشر

ذكر أسكيا موسى وأسكيا محمد بنكن

ثم دخل أسكيا موسى في قتل إخوته، فهرب كثير إلى تندرم عند كرمن فاري عثمان يوباب، منهم عثمان سيدي وبكر كِنِ كِرِنِ وإسماعيل وغيرهم. فاغتم لذلك وقال لمحدثيه: إن أخي عثمان عرفته ليس له أمر من نفسه، إنما يعمل بأمر جلسائه ولا يجالس إلا مع الأراذل والسفهاء، أخاف من الفتنة بيني وبينه.

فبعث له مرسوله بكتابه وأعلمه بدخوله السلطنة، وأعطى المرسول كتاباً آخر لوالدته كمس، وذكر له متى لم يقبل الكتاب يبلغ الآخر حينئذ للوالدة المذكورة. وكتب لها فيه أنه دخل في حرمتها وفي حرمة أبيه أن يتكلم لعثمان لئلا يكون سبب الشر بينهما. فوصل المرسول إليه فلم يبال به ولم يلتفت إليه ولم يأخذ الكتاب.

فبلغ الوالدة كتابها، فلما قرأته وعلمت ما فيه ذهبت إليه وكلمته وقالت له: رفعت لك ثدي إلا أن تجتنب مخالفة أخيك، وهو ليس لك بأخ بل أب، وهل عرفتَ سبب هذا اللقب الذي يسماك به اليوم الذي ولدتك؟ ما في بيتنا ما يسخن به الشراب لي، وقد خرج هو فتأخر عن الرجوع إلينا، فلما جاء قال له أبوك أين وقلتَ اليوم؟ والضيف هنما ينتظرك منذ أول اليوم. فأخذ حريشه ومشى إلى الغابة فاصطاد لنا ما سخن به الشراب لي، ولهذا قلت لك هو أبوك، وها هو حسبني، ودخل في حرمتي أن لا تكون سبب الشر بينك وبينه.

فسمع لها وأطاع وأمر بإحضار المرسول فقام هو على رجله وسأل عن عافية

أسكيا، وتلك عادتهم إذا كانوا مطيعين. فقرأ له الكتاب وعزم المضي إليه، وعمّر قواربه وأكمل أهبّته، فخرج للمسير مع جيشه. فمن قليل تغني مغنيه، فأغضبه كثيراً كاد أن يتميز من الغيظ، فقال لجماعته: انهبوا ما في القوارب، ورأسي ها لا يرفع التراب لأحد أبداً.

فرجع لداره وخالف بالحقيقة التي لا شك فيها، فرجع المرسول إلى كاغ وأخبره بما جرى. فجهز للمسير إلى تندرم، وقامت الفتنة وتحققت الشر. فسار بالجيش بلما قرب إلى تنبكت تلقاه شيخ الإسلام أبو البركات القاضي الفقيه محمود بن عمر رحمه الله تعالى في بلد تِري لكي يصلح بينه وبين إخوته. فلما جلس عنده استدبر السيد ولم يقابله بوجهه. فقال له: لم تستدبر عني؟ قال:لا استقبل وجهاً خلع أمير المؤمنين من أمرته. فقال له: ما فعلت ذلك إلا خوفاً على نفسي وكم من سنين لا يعمل إلا بما أمر به علي فرن، خفت من أن يأمر علي يوماً بسوء.،ولهذا خلعته. فطلب منه العفو لإخوته ويجتنب الفتنة بينه وبينهم لما فيه من قطع الرحم والفساد في الأرض. فقال له: امهل واصبر حتى يحترقوا بالشمس فإذاً يسرعوا إلى الظل. فرفع له الغطاء عن الحرشان الكبار المسومات. فقال له هي الشمس وأنت هو الظل، ومتى تألموا يهرعون إليك، فاعفوا عنهم حينئذ. ولما رأى أنه صمم على الشر رجع إلى تنبكت.

فنهض إليهم من ذلك المنزل ونزل توي. وسمع أن كرمن فاري عثما عزم على المجيء إليه للقتال، فظهر في وجهه الرعب والندامة، فقال له بلمع محمد كري: ومعه أخيك عثمان رجلان بكر كرن كرن والآخر نسيته، ولو كان في ألف رجل مع هذين أو أحدهما وأنت في عشرة آلاف رجل لغلبك، وإن كان الأمر بالعكس لغلبته.

وما زالوا في ذلك المجلس حتى رأوا شخصاً في السراب مرة يظهر ومرة يغيب حتى دنا إليهم، فإذا بكر كرن كرن المذكور، فنزل ورجع له التراب. فقال: ما جاء بك؟ قال: ليس بمحبتك ولا بكره عثمان، إنما جئت هرباً من الخسارة ولا أكون مع القوم الخاسرين. فقال له: ولِم: قال: لأن القوم جميعاً أصحاب الرأي. ثم جاء الآخر فقال مثل ما قال الأول. ففرح أسكيا موسى ساعتئذ فرحاً عظيماً.

ثم جاء عثمان فتقاتلا بين أككن وكبر في السادية والثلاثين. فمات بينهما خلق كثير، منهم عثمان سيدي وغيره، وهرب بإسماعيل إلى بير مغشرن كي زوج أخته كِبِن نكس ابن أخت أكِل، وبقي هنالك إلى زمن ولاية أسكيا محمد بنكن.

وأما كرمن فاري عثمان فهرب وهرب معه علي فلن وبنك فرم كل وآخرون، وانتهى عثمان إلى تمن فأقام بها إلى أن توفي سنة أربع وستين وتسعمائة. وعلي فلن قد جاز إلى كنو وعزم على الحج ومجاورة المدينة المشرفة، فحال القدر بينه وبين ذلك، فتوفي في كنو.

وأما بنك فرم بل فرجع إلى تنبكت واستحرم بأبي البركات القاضي الفقيه محمود، فبعث إليه وطلب الشفاعة له وهو في تِل. فقال جميع من دخل في داره فهو آمن إلا بل وحده، فرفع الكتب التي في حضرته على رأسه، وقال: دخلت في حرمة هؤلاء الكتب بعث بذلك إليه أيضاً. فأبى. فقال: بل لأبي البركات أشهد علي بأن جميع ما رأيت ما فعلتها إلا فراراً من أن لا أكون قاتل النفس، والآن يفعل ما بدا له. فذهب إليه بنفسه، فشوور، ودخل وصادف بابنه محمد بن أسكيا موسى واقف على رأسه، ويقول له: يا أبت لا تقتل أبي بنك فرم. فلما دنا منه تلقاه ابنه محمد المذكور يحييه. فقال له بَل يا بني ولا بد لي من الموت لأن ثم ثلاث خصال لا أفعلها أبداً: لا أقول له أسكيا، ولا أرفع التراب له على رأسي، ولا أركب وراءه. فأمر بقبضه، ثم قتله. قيل قتله في ألفع كنك مع ألفق دنك بن عمر كمزاغ، وهما ابنا عم وابنا خالة أمّاهما فلانيتان. أمر بحفر الحفرة حتى تعمقت جداً في ذلك المكان وجعلا فيها حيين وردما فماتا، والعياذ يبالله.

ثم قتل درمكي دنكر وبركي سليمن وجعل محمد بنكن كري كرمن فاري. ثم رجع إلى سغي على طريق أرض جني. فلما بلغ تِرفي تلقاه ولي الله تعالى الفقيه مورمع كنكي مع الطلبة خرجوا من جنج، فسلم عليه ودعا له على عادتهم. ثم قال له الشيخ نطلب منك في حق الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم أن تعفو عن درمكي وبركي، وهما بارّان لأهل أرضهما راضين عنهما جداً، وما دخلا في الفتنة بغرضهما بل بالخوف على أنفسهما قهراً وجبراً ولا يقدران أن يتخلفا عن فرن عثمان. فقال له: قد جاوزا يدي وتفوتا. فقال له الشيخ: لا تفعل ذلك ولا ترد شفاعتي. قال: ولا بد. فلما أيأس الشيخ قال له: قد كنت ساكناً في بلد جنج من زمن سن علي، وما صبنا راحة وعافية ولا سكوناً إلا في ولاية أبيك الأسعد المبارك أمير المؤمنين أسكنا الحاج محمد، فكنا ندعو له بالنصر وطول العمر، ونسأل هل له ولد مبارك الذي فيه رجاء المسلمين؟ قيل لنا نعم فسميت لنا ومتى دعونا له ندعو لك بالخلافة بعده، فتقبل الله أدعيتنا، والآن إذا خيّبت سعينا ومنعت لنا بالحرمة ما زالت الأكفّ التي رفعنا إلى الله

تعالى في الدعاء لك ترفعها إليه عليك. وقاموا ورجعوا.

وفي العشية ارتحل أسكيا موسى. فخرج بن فرم إسحق ابن أسكيا الحاج محمد من مقامه حتى وصل كرمن فاري محمد بنكن، فجذبه عن ورائه في مقامه. فالتفت إليه وقال له: أيس الذي جراك على هذا العمل؟ فخرجت من مقامك إلى هنا وتجذبني من ورائه؟ فقال له: الغم من عمل هذا الشيخ الذي فعل بأسكيا وتطاوله عليه، وما صبر له إلا لخوف. فوالله إن كنت إياه ساعتئذ لقتلته، ولو كنت أخلد في النار.

فلما نزلوا للمبيت جاء المتحدثون للمسر عند أسكيا على عادتهم، فحكى كرمن فاري له القصة بحالها التي صوّرت من بن فرم إسحق. فقال أسكيا: والله العظيم ما في جسمي شعرة واحدة خافت قط، ولكن إذا رأى ما رأيت حين أتكلم معه لمات من حينه خوفاً ورعباً. فقال لكرمن فاري: أما رأيت كفّيه الذين يرفعهما إلى كتفيه؟ قال: نعم. قال: يرد بهما أسدين على الكتفين رافعين يديهما إلي فارغين، شد فيهما، ما رأيت مثل عظمهما ولا مثل أنيابهما ومخالبهما، ولذلك أمرته أن يذهب إلى منزله، فرجعوا إلى جنج غاضبين عليه.

فلما وصل كاغ شرع في قتل الباقين من إخوته فاغتموا من أمره ودخلوا في الاحتيال في ذلك إلى يوم واحد قبض فرن عبد الله ابن أسكيا الحاج محمد، فهو شقيق إسحق، فاتفق الباقون جميعاً على أنه إذا قتله يقومون عليه ويقتلونه، إلى يوم واحد نادا إسحق فوضع بين يديه عمامة وفميصة باليتين. فقال له: أخوك فرن عبد الله جبان ادخرناه في موضع فمات من الرعب.

فخرج إسحق إلى عبد شاع فرم علوصاي بن الأمير أسكيا الحاج محمد وهو يبكي فأخبره. فقال: اسكت، هل أنت نساء؟ هذا آخر قتله فينا، ولا يقتل بعده أبداً. فاتفقوا وخالفوا عليه سراً حتى قتلوه في قرية منصور - وقتل هو فيها بلمع محمد كري، وخلفه بلمع محمد دند مي ابن أسكيا الحاد محمد على يد محمد بنكن - يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شعبان عام السابع والثلاثين، ومدته في السلطنة يومئذ سنتان وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً. وشاع فرم علو المذكور هو الذي باشر القتل. فتولى السلطان الأسعد الجواد أسكيا محمد بنكن ابن عمر كمزاغ يوم موته بالتاريخ المذكور.

وذلك أن إخوته لما اتفقوا على قتله ضمن ذلك لهم الأكبر منهم شاغ فرم علو فقال: أرميه بالحريش في الركوب، إن أخطأته فارموني بالحديد أنتم جميعاً لأموت

وتسلّموا من شره. فرما وصادفه في كتفه الأيسر وهو يتحدث مع بركي ساعتئذ أمر بمجيئه إلى جنبه في الركوب. فالتفت بركي وراءً الحريش واقفاً في كتفه والدم يسيل. وهو ما التفت ولا جعل نفسه كأنه نزل عليه أدنى شيء لشدته وقوة قلبه. فهرب بركي.

وأراد أن يقاتل معهم وما تمكن يده اليسرى من قبض العنان، فذهب إلى منزله وأخرج الحديد وكوّى الجرح وعصب العظم وبات تلك الليلة في الاستعداد للحرب والقتال مع إخوته غداً. ولم يكتحل بالنوم للغضب والغيظ، ويحلف ويكرره أن الدم يسيل غداً ويجري. فلما أصبح تحزم وخرج، وقامت المعركة بينه وبينهم، فتقاتلوا وغلبوه وهزموه. فهرب وتبعوه وقبضوه وقتلوه. فرجعوا ووجد شاع فرم كرمن فاري في مقام أسكي بين الأعواد، قد أمره أخوه عثمان تنفرن بذلك ليكون أسكيا. فأبى وامتنع وقال له: لا طاقة لنا بمقابلة هؤلاء القوم، يعني أولاد عمه.

فحلف له إن لم يدخل فيه يدخل هو، ولو كان الصغير لا يكون على رأس الكبير. فدخل وقام مقام أسكيا. فلما رجع شاع فرم ورآه فيه من بعيد فقال: من هذا الذي بين الأعواد لا أكسر شجرة برأسي فيأكل أحد ثمارها.

فاقترب عثمان تنفرن فقال لأخيه: اخرج بين أعواد أسكيا. وضرب رأسه بأعواد حرشانه، فخرج. ولما أراد أن يدخل في ذلك المكان رماه عثمان بالحريش من وراءه حتى تمكن منه، فخرج هارباً. ورجع محمد بنكن فيه، فبايعه الناس وثبت سلطاناً.

فوصل شاع فرم في هروبه عند أصحابه المرسى وطلب منهم أن يكتووا له الجرح. فقبضه كومكي وقطع رأسه بالمنجل، وأتى به لأسكيا. فشكر عمله له ساعتئذ، وأمهل له مدة، ثم قتله. وقتل جماعة كثيرة معه من قومه.

ورحّل عمه أسكيا الحاج محمد من دار السلطنة فدخل فيها، وبعث به إلى جزيرة كنكاك موضع بقرب المدينة في جهة المغرب، فسجنه فيها. وجعل أخاه عثمان كرمن فاري ومكث فيه ما مكث وهو في السلطنة. وبعث إلى بير في رد إسماعيل فجيئ به إلى سغي، لأنه صاحبه وحبيبه من حين الطفولية، فأحلفه المصحف أن لا يسعي في غدرته أبداً، وزوجه ابنته فت.

وأمر بحضور بنات أسكيا الحاج محمد في ناديته متى جلس فيها كاشفات رؤوسهن. وتصيح عليه يان مار: فرخ نعامة واحد خير من مائة فروخ دجاجة دائماً. فقام تلك السلطنة أحسن قيام، فوسعها وزينها وأجملها بالرجال زيادة على ما كانوا قبل، وبالملابس الفاخرة وأنواع آلات الطرب، وبالقينين والقينات، وكثرة العطايا

والمنائح. فنزلت البركات في أيامه، وانفتح فيها أبواب الأرزاق وانصبت، لأن أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد ما فتح صدره للدنيا خشية العين، وطالما ينهى أخاه فرن عمر عن ذلك، ويقول له: لا تعرض نفسك للهلاك بالعين.

وأما أسكيا موسى من حين تولى ما صاب راحة ولو ساعة واحدة لأجل عداوة الأقرباء، وهي أكبر مصائب الدنيا، وهي عداوة أبدية لا تحول ولا تزول. وهو كل ساعة في مكابدة النفس وشغل الخاطر بالهمّ والغم والاحتراس. وأخذ الحذر حتى مضى لسبيله.

والسلطان الأسعد مولع بالغزو والجهاد، وأكثر منها جداً حتى بمل منه سغى وكرهوه. وغزا بنفسه إلى كنت، فاقتتل هو وكنت في ونترماس، اسم موضع. فهزمه كنت هزيمة فاحشة. فهرب مع عسكره وتبعوه حتى حصّلوهم في خضخاض، ما نجاهم إلا الله تعالى، ولم يقدر أن يجتازه بالحصان. فنزل واحتمله على عنقه هيكي بكر علي دود حتى قطع به المكان ورجع عنهم جيش كنت. وأما جيشه هو فتفرقوا شذر مذر.

فأينما بات ليل يوم الهروب مد له بكر علي المذكور رجله وجعل رأسه عليه، وبقي يتحدث معه إلى أن قال: هذه الهزيمة الذي طرأت علي مع جميع هذه المشقات ما أشد علي غيظاً مما يقول أهل تنبكت ساعة وصلهم خبرنا، فيقول بعض المرجفين لبعض متى اجتمعوا وراء مسجد سنكري. فسمى منهم بوزداي وفلاناً وفلاناً، لأنه عارف بجميع أحوال البلد، وقد سكن في سنكري في نشأته للقراءة. هل سمعتم يا فتيان ما طرأ على مرنكن كري مع كنت؟ فيقول المستمعون: وما الذي طرأ عليه؟ فيقول المخبر: هزمه هزيمة كاد أن يموت ويموت جيشه كلهم. فيقولون: ما تغوط بعد الذي امتنع لأسكيا محمد، هو الذي غزا إليه. قال لهيكي بكر علي دود: هذه بقالاتهم كأني أنظر إليهم. ثم وصل كاغ، وما غزا أحد بعد إلى كنت من الأساكي.

ثم غزا إلى كرم. فلما وصل مساكنهم بعث الطليعة ليطالعوا على الكفار ويأتوا بخبرهم. وهم قد سمعوا خبره فجهزوا لقتاله. جاء بير فرجع الطليعة وأخبروه بمجيئ الكفار. ثم بعث الطليعة ثانية فرجعونا بقرب وأخبروا بدنوهم. فبعث لدنكلك، وهو ربّ الطريق يومئذ، أن يوقفوا عصيهم. فوجده المرسول يلعب بالشطرنج السوداني، ولا رد باله معه لالتهائه بذلك اللعب، حتى اقترب الكفار جداً.

فركب أسكيا بنفسه إليه وهو يصيح أيش هذا الحال، والكفار قد دنوا إلينا، فما

تكلم حتى أتم لعبه؟ فقام والتفت إليه وقال: أو لك يا هذا الجنان، لا تستحق أن تكون أميراً. فعمل ما عمل ساعتئذ من استعمالات الحرب، فانهزم الكفار وولوا مدبرين. قال له: ها هم وصلوك، افعل بهم ما أردت. فتبعهم الخيل وهم يقتلونهم إلى الغد. فخاف منه خوفاً عظيماً، فلما رجع إلى كاغ عن قليل جاء الخبر بموت كل شاغ. فقال لدنكلك: ما أراني الله إلا إياك لهذا المكان، فأنت كَل شاغ. فقال: ويحك ألم يبق لك مراد في الغزو؟ فقال: بلى ولكن ذكل الموضع من أوكد الموضع علينا، ولا نختار لها إلا أنت. قال: ولا بد. قال: لا بد. قال: على بركة الله، ولكن لا تجعل خليفتي إلا فلاناً. فأنعم له. فلما ولّى وبعد قال: اذهب أنت لا نبقيك فيها، ولا نجعل من ذكرت.

ثم إن إسماعيل ذهب إلى عند أبيه في تلك الجزيرة ليلة واحدة ليسلم عليه. فلما جلس بين يديه قبض على ذراعه فقال له: سبحن الله، كان ذراعك هكذا تتركني الناموس يأكل والضفادع تنقزّ علي، وهي أكره شيء عنده! فقال له: لا جهد لي. قال: اذهب عند فلان، واحد من خصيانه، واقبض من جسده موضع كذا، وقل له إذا عرف هذه الأمارة بيني وبينه يعطيك الذي عنده من وديعتي، اقبضها منه واشتر به الرجال سراً وهي ذهب، واذهب عند سوم كتباك واطلب منه الأمانة، وهو من أحباء أسكيا محمد بنكن.

فجاءه وطلب منه الأمانة. فقال له: قبح الله الحرية، ولو لاها ما تخرج عندي سالماً، ولكن متى نلت مرادك اقتلني تلك الساعة، ولا بد ولا بد. وقد عرف أسكيا الحاج محمد أن القصد عزيز عنده وعند أهل قبيلته أجمع، يبذلون فيها ولو أرواحهم، ما تكلم بعد بخير ولا بشر.

وقد كان قبل ما خالف عليه هذه القبيلة حتى تمكنوا من البلد، وخرج هارباً هيكي بكر علي دود، هو الذي احتال له حتى تمكن منهم مع أناس قلال الذين معه، فقتلوهم قتلاً شديداً، ورجع للبلد في سلطنته.

ثم جعل أهل سغي يتكلمون فيه، فيما بينهم لأجل مللهم منه. فلما سمع ذلك يارسنك دبي أخبره به، وهو من أحبائه وخاصته. فما صبر عنه حتى أخرجه لجماعته في ناديته كأنه لم يصح عنده. فقالوا له بأجمعهم: ما نقوم من هنا حتى تذكر لنا من يسعى بيننا وبينك بالنميمة، أما أن تختار جماعتنا أو يختاره هو. فلم يجد بد إلا أن قال أنه يارسنك دبي. فقبضوه ونقشوه بالحمرة والسواد والبياض وركبوه حميراً وطوقوا به البلد بالنداء والبرحة: هذا جزاء من يسعى بالنميمة.

ثم تجهز للغزو وخرج. فلما وصل قرية منصور الموضع الذي تولى فيه السلطنة نزل فيه وبعث دند فاري مار تمز غازياً مع الجيش، وذلك في شهر شوال أحد شهور العام الثالثة والأربعين. فقال له إن نجح سعيك فأنت دند فاري، وإلا فأنت مارتمز، يعني معزولاً. فقال: الله تعالى يصلحه بحرمة شهر الفطر هذا وشهر الراحة الذي بعده ونرتاح جميعاً إن شاء الله تعالى. فسار إلى ذلك الغزو واتبعه كثيراً من خواصه ليكونوا رقباء عليه لئلا يعذره. فشرع في تنفير الرجال بلطف الاحتيال حتى تمكن من تدبيره، فقبض جميع خواصه، وكبلهم في الحديد.

وعزله وهو في قرية منصور الذي تولى فيه السلطنة، ووافق باليوم الذي تولى في أيضاً، يوم الأربعاء ثاني شهر ذي القعدة الذي هو شهر الراحة عند أهل سغي في العام المذكور. ولما بلغه الخبر فقال: تكلم لي بهذا يومئذ، ولم أفهم إلا في هذا اليوم.

الباب الخامس عشر

ذكر أسكيا إسماعيل ابن أسكيا الحاج محمد

فتولى أسكيا إسماعيل بتولية دند فاري مارتمز في يوم العزلان بالتريخ المذكور في موضع يقال له تال. ومكث محمد بنكن فيها ست سنين وشهرين.

وفي هذا العام، أعني الثالث والأربعين بعد تسعمائة، توفي القاضي عبد الرحمن بن الفقيه أبي بكر بن الفقيه القاضي الحاج ضحوة السبت الحادي والعشرين من الربيع الآخر، وعمره اثنان وثمانون سنة. وسبقه ولي الله تعالى الفقيه الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت إلى دار الآخرة بعام واحد غير شهر واحد، وهو رحمه الله تعالى توفي في العام الثاني والأربعين ليلة الجمعة العاشر من ربيع الآخر في أول الطاعون المسمى كف.

وكيفما تولى إسماعيل بعث رسله ليطردوا محمد بنكن المعزول ويخرجوه من أرض سغي. وساروا قسمين، قسم إلى جهة هوص، وقسم إلى جهة كرم. وفي هذه القسم ياري سُنك دبي، طلب ذلك من أسكيا، ورجل آخر كذلك طلب منه تولية رئاسة التي له، فمنعها إياه وولاها لآخر. فلما تولى إسماعيل ولاه رئاسة أكبر منها.

وقد قدم مرسولاً قبل هؤلاء إلى كاغ ليلاً يتركوه أن يدخل فيها. فتوجه في هروبه إلى تنبكت وجاز عليه يومان في مسيره ما ذاق الكور، وهو مولع به كثيراً. فإذا مرسوله الذي أرسله إلى جني في أيام سلطنته راجع في القارب، وفيه كل خير. فلما

تحققه أتباعه صاحوا عليه: أسكيا هاهنا. فقصدهم حتى رسى قدامه وفهم ساعتئذ ما جرى. فطلب أسكيا منه الكور، وقال له: الكل متاعك، ارفع منها ما أردت. فقال: ليس بمتاعي اليوم ولا أرجع سارقاً ولا قاطعاً، أريد من الذي لك. فأعطاه ما يكفيه. فلما أكله وابتلعه تقيأ جميع ما في بطنه لطول عهده به. ثم طلب منه المرسول أن يمضي معه، فلم يقبل وقال: امض في طريقك بسلامة وعافية، وإذا وصلت أخبر أسكيا بجميع ما جرى بيني وبينك، ولا تكتمه شيئاً منها، لئلا يسمعه من فم آخر فقتلك باطلاً، وأهل سغيث ليسوا بخير. فلما بلغ أسكيا أخبره بجميع ما جرى.

ثم وصل تنبكت في آخر الليل، فقصد دار أبي البركات القاضي الفقيه محمود ليسلم عليه. فوجد ابنه عمر المنتبه وحده ساعتئذ فوق سطح يطالع كتاب المعيار للينشريشي في ليلة مقمرة، وسنه يومئذ والله أعلم سبعة وعشرون سنة. فشاور له والده الفقيه محمود، فدخل وسلم عليه وأخبره بما جرى عليه من أهل سغي. فخرج ساعتئذ وتوجه إلى تندرم عند أخيه كرمن فاري عثمان.

وفي غد ضحوة وصل خيل أسكيا إسماعيل تنبكت الذين في إثره، فجاوزوا على حالهم. وعند وقت العصر وصلوهم عند بحر كركند قريباً من تندرم. فاقتتلوا هنالك. ورجع خيل أسكيا إسماعيل لما تحققوا أنه وصل عند أخيه عثمان، ومعه ولده بكر. وطلب منه الرجوع إلى كاغ للمقاتلة، فقال له: ما زال ذلك الأصبع الذي جعلك أسكيا يردك أسكيا. فقال له لا نقدر على ذلك الذي مددت جيش سغى به من الرجال في مدتي هذه، لا يقابلهم جميع جيشك، مع أن أهل سغى إذا كرهوا لا شفاء لهم.

ثم وصل الخيل الذين أخذوا جهة كرم بلد كرم وهو مقابل لتندرم. فنادا ياري سنك دب: أسكيا مرنكن سلام عليكم. فقال له السائل: من أنت؟ قال: أما ياري سنك دب، ما أحب أن يكون عليك مثل هذا اليوم، ولكن أحب أن يكون قولي صدقاً. ثم نادى الآخر كذلك، فقيل له: من أنت؟ قال: أنا فلان، منعتني جيفة، فأبدلها الله لي ذبيحة.

ثم رجعوا إلى سغي، بعد ما توجه هو وأخوه عثمان إلى ملي، ومعه ولده المذكور. فوصلوا بلد سنقرزومع، ونزلوا فيه للتوطن. فتزوج ابنه بكر هنالك، وولد ماربا.

ثم شرع أهل ملي في الإذلال والتصغير لهم ولا يصبر عثمان على ذلك، يتكلم له ويوصيه على الصبر، حتى أن يوماً واحداً غضب عليهم غضباً شديداً في ذل الإذلال. فشدد عليه أسكيا محمد بنكن في الكلام يومئذ وأغلظ وقال له: أراك لا تريد لنا الخير في هذا الحال. فغضب عثمان وارتحل إلى بير وسكن فيها.

ثم ارتحل أسكيا وأولاده إلى سام، آخر بلاد سلاطين أهل كَل، فسكن فيها مع عياله. وذكر عن أسكيا إسماعيل أنه قال لما صاح عليه المغني ساعة الطلوع انقطع قلبه وسال منه الدم من ورائه، قال لإخوته: وما ذاك إلا لأجل المصحف الذي حلفت لأسكيا محمد بنكن هو الذي أخذني ونفذ في، وأنا لا أستأخر في هذه السلطنة، فانظروا لأنفسكم وكونوا رجالاً، ما أردت خروجه من السلطنة إلا لثلاثة أشياء: إخراج والدنا من ضرورة تلك الجزيرة، ورجوع أخواتنا في الحجاب، وقول يان مار كلما رآه: فرخ نعامة واحد خير من مائة فروخ دجاجة.

فبدخوله التسكية جاءه فارمنذ سوم كتابك، فنزل عن فرسه وقال له: بادر لي بذلك القتل. قال له: لا إلا أن تبقى في مقامك عزيزاً مكرماً عندي. فقال: لا والله. ولاطفه بالأقوال الحسنة كلها فلم يجد منه ممسكاً، فأمر بسجنه.

وكيف ما نزل عن فرسه ساعة مجيئه ركب عليه أخوه داوود. لأجل تلك الجرأة جعله فارمنذ، لما أيس من قبول سوم كتابك. وجعل هماد ولد أري بنت أسكيا الحاج محمد كرمن فاري، ابن بلمع محمد كري.

وفي الرابع ولأربعين أخرج أباه من مسجنه كنكاك في أول العام ورده إلى كاغ. وفيها ذهب إلى دور. وفيها توفي الأمير أسكيا الحاج محمد ليلة الأحد ليلة عيد الفطر، رحمه الله تعالى وغفر له وعفى عنه بمنه. ثم غزا إلى بكبول في أرض كرم، فلما قاربه رحل بعياله وقومه، فخرج من بين يديه. فأعطى الخيل لكرمن فاري هماد ولد أري، فتبعه حتى وصله. فتقاتلا وامتنع له الكافر. فبلغ الخبر أسكيا وأرسل لكرمن فاري أن امتنع لكم، أجيئ أنا بنفسي. فقال للعسكر سوسو، وهو كلمة التحضيض عندهم، يا أصحابنا، وقد عرفتم بلا شك ولا ريب إذا جاء يجد الذكر الجميل علينا، فتقدموا إليهم. وقتل الكفار منهم ساعتئذ تسعمائة فارس، فقتلوه مع المشركين وغنموا النجعة، حتى بيع عبد واحد في كاغ بثلاثمائة ودعاً.

وتوفي أسكيا إسماعيل في شهر رجب يوم الأربعاء في العام السادس والأربعين بعد أن خرج أهل سغي إلى الغزو.

الباب السادس عشر

ذكر أسكيا إسحاق ابن أسكيا الحاج محمد

فلما بلغهم خبر وفاته بادروا بالرجوع إلى كاغ قبل مجيئ بلمع، واتفقوا على

أخيه أسكيا إسحق. فولوه السلطنة في شهر شعبان سادس عشر منه بالتاريخ المذكور. وأقام إسماعيل فيها سنتين وتسعة أشهر وستّه يوم، ولايته سبعة وعشرون سنة.

أما إسحق فكان أجلّ من دخل في تلك السلطنة وأظلمهم خوفاً وهيبة، وقتل من الناس أهل الجند خلقاً كثيراً وكان من سيرته إذا خال من أحد أدنى شيء من التعرض للسلطنة لا بد أن يقتله أو يخرجه من أرضه. هذا دابه وعادته. فبدخوله السلطنة أرسل زغرانياً واحداً إلى بير ليقتل كرمن فاري عثمان، وجعل له جعلاً ثلاثين بقرة التي ما ولدت واحدة منهن قط. فقتله ورجع، فأعطاه الجعل كاملاً. ولما خرج إلى وطنه أمر بقتله، فقتل. ثم قتل كرمن فاري هماد ولد أري وجعل علي كسر خلفه. ثم سأل عن سوم كتاباك، أحي أم لا. فأخبر أنه حي. أمر بإطلاقه ومجيئه إليه. فلما امتثل بين يديه قال له مثلك الذي يعرف الخير ويشكره هو الذي يستحق أن يقرب ويتخذ عضداً ورفيقاً، أريد أن أردك في مقامك عزيزاً مكرماً. فقال له طلبه مني السلطان الرشيد المبارك، ما صابه، فأحرى أنت الذي ليس بشيء. فقتله.

ثم إنه حصل في قلبه خوف عظيم من هيكي بكر علي دود. فذكر لهنبركي أنه يأمره بالذهاب معه فيقبضه ويجعله في الحديد. وحين عزم على المسير قال أسكيا إسحق في ناديته: يا هيكي أنت مع هنبركي. فسكت ولم يجبه. ثم قال: يا هيكي أنت مع هنبركي. فسكت. ثم قال: يا بكر علي أنت مع هنبركي. فأسرع بالوقوف سمعاً وطوعاً، الآن علمت أن بكر علي هو الذي يذهب مع هنبركي، وأما هيكي لا يذهب مع هنبركي. فتعجب الناس من جودة فهمه ومعرفته بالجواب. فجعل هيكي موسى خلفه.

ثم إنه صلى عيد الأضحى في كبر في آخر الثامنة والأربعين. وفي التاسعة والأربعين غزا إلى تعب آخر بلاد سلاطين بندك. فلما رجع طرق جني، وصلى فيها الجمعة. فلما أراد أن يدخل الجامع رأى مزبلة عظيمة جداً في قرب الجامع من جهة القبلة. قال: القوة بر. وما صلى الناس الجمعة حتى ردمها خدامه كأنهم لم تكن هنالك قط، لأن حكمه شديد.

فلما فرغوا من صلاة الجمعة تكلم للقاضي العباس كب في بعض المسائل، ومحمود بغيغ جالس حذاء القاضي، وهو من أكبر شهوده. فبادر هو بالجواب. فلما وصل كاغ عن قريب جاءه مرسول أهل جني بنعي القاضي العباس رحمه الله تعالى، يستأذنونه في تولية القاضي. فقال: أليس هنالك قاض؟ قالوا: ما نعرفه. قال: يعرف هو نفسه المؤدب الأكحل الغليظ القصير الذي جاوبني ساعة أتكلم مع الهالك، علم هو

أنه قاض، ولذلك اجترأ على مجاوبتي، وهل يقدر أحد على ذلك من الفقهاء غير القاضي؟ اذهبوا فهو قاضيكم من قبل.

وبالغ فرن علي كشر في التعواخ له عند رجوعه من غزوة تعب، حتى بقي يريد منه الغرة ليقتله. ففطن له أسكيا إسحق وجعل يأخذ الحذر منه حتى بلغ مرسى كبر، فطلع تنبكت للسلام على القاضي الفقيه محمود، فسلم عليه ورجع. فلما بلغ المرسى بادر بالدخول في القارب، فلما رآه تعجل في الدنو إليه. فأمر القدافين أن يدفعوا إلى وسط البحر. فجاء بالغم حتى دخل البحر إلى ركبتيه، ولم يعرف. فلما أيس منه قال: هكذا كان الأمر. فولى بالغيظ الشديد.

ولما بلغ أسكيا مدينة كاغ أرسل لأهل تندرم أن يطردوه. فخرج وحده هارباً إلى أرض الوادي. فقبضه رجل وباعه. فقيد في الحديد يسقي الجنان، إلى يوم واحد رآه واحد من العرب الذي يأتيه في بيع الخيل أيام تمرده وطغيانه، فحدد النظر فيه فقال: كأنك فرن علي كشر. فرمى نفسه في البئر، وكان فيه حتفه.

وهو في أيام تجبره يتعدي على الأحرار يبيعهم. فبلغ شكواه القاضي محمود، فزاره يوماً واحداً فقال: لم تبيع الأحرار؟ ألا تخاف أن يبيعوك؟ كاد يتميز من الغيظ من قول أبي البركات، فتعجب به وأنكره وقال: كيف أباع؟ ولذلك صدق الله قول هذا السيد فيه.

فجعل أخاه داوود كرمن فاري، ومكث فيها ثمانية سنين. وفي إحدى والخمسين ذهب إلى كُكُر كاب اسم مكان في أرض دند. وفي الثاني والخمسين أرسل أخاه كرمن فاري داوود إلى ملي، فهرب منه سلطان ملي. ونزل معسكره في بلده، وتأخر فيه سبعة أيام. وبرح في العسكر أن كل من يريد أن يطيّر الماء فليفعله في دار السلطنة. وفي سابع اليوم امتلأت الدار كلها بالغائط مع سعتها وعظمها. ثم ارتحل راجعاً إلى سغي. فلما رجع أهل ملي إلى البلد تعجبوا مما وجدوه في دار السلطان وتعجبوا من كثرة أهل سغي ومن رذيلتهم وسفاهتهم.

وفي الخامس والخمسين توفي شيخ الإسلام أبو البركات الفقيه القاضي محمود ابن عمر ليلة الجمعة السادسة عشر من رمضان، كما مر رحمه الله تعالى ونفعنا به في الدارين. وفي يوم الجمعة الخامس عشر من الشوال تولى القضاء ابنه الفقيه القاضي محمد، وعمره يومئذ خمس وأربعون سنة، ومكث في القضاء سبعة عشر سنة وثلاثة أشهر، ومات في الثالثة والسبعين في صفر طلوع الشمس يوم الأحد الثالث عشر منه

عن ثلاث وستين سنة، رحمه الله تعالى.

وفي أول السادس والخمسين ذهب إلى كوكيا فمرض فيها مرض الموت. ولما اشتد عليه بعث لكرمن فاري داوود أحباؤه سراً في المجيئ، فأهمّه شأن أبرند فرم بكر ولد كبر بنت أسكيا الحاج محمد، لأنه شهر ونهر في الذكر الجميل حتى لا يختار أهل سغي أحداً عنه في ولاية السلطنة.

فاشتكى به عند رجل عالم بالاستعمال، فاستعمل له عليه. وأمره أن يحضر خابياً الذي فيه ماء، فأحضره. وعزم فيه بالعزائم وناداه باسمه. فأجاب وقال له: اخرج إلي. فخرج شخص من الماء بقدرة الله تعالى على شكله وصفته. فجعل الحديد في رجليه وطعنه بالحربة، وقال له: اذهب. فغمص في الماء.

ثم توجه إلى كاغ. ما وصل إلا وتوفي أربند فرم المذكور. فجاز إلى كوكيا فوصل قبل وفاة أسكيا إسحق. فخاصمه هيكي موسى أشد الخصومة وقال له: من أمرك بهذا؟ ومن شاورت عليه؟ ارجع الساعة. فرجع وعن قريب توفي. فبعث له في الرجوع فرجع.

ولما أيس من الحياة اختار أربعين فارساً شجاعاً وأمرهم أن يوصلوا ابنه عبد الملك إلى كاغ عند الخطيب لدخول الحرمة، لما عرف من الإساءة التي فعل لأهل سغي، ولما عاملهم به عبد الملك المذكور من التوقح والإذلال من تجبره وطغيانه. فوصلوه كما أراد، وفيهم عثمان درفن ابن بكركرن كرن بن الأمير أسكيا الحاج محمد.

وقد بعث إليه في أيام قوته مولاي أحمد الكبير سلطان مراكش أن يسلم له في معدن تغاز. فبعث له في الجواب أن أحمد الذي سمع ليس هو إياه، وأن أسحق الذي سمع ليس أبو إياه، ما زال ما حملت به أمه. ثم أرسل ألفين ركاباً من التوارق وأمرهم أن يغيروا على آخر بلد درعة إلى جهة مراكش بلا إخراج روح أحد فيرجعون على إثرهم. فغاروا على سوق بني أصبح كيفما قام وثبت، فأكلوا جميع ما وجدوا في ذلك السوق من الأموال. فرجعوا كما أمرهم، وما قتلوا أحداً. وما ذلك إلا ليري السلطان أحدم المذكور قوته.

وحسب ما أخذه ظلماً وغصباً من تجار تنبكت من الأموال بعد موته، فكان سبعين ألفاً ذهباً، على يد خديمه محمود يزا أخ الأمين يزا، وهما قينان أصلاً، يتعاقب بين تنبكت وكاغ ذهاباً ورجوعاً، يقبض من كل أحد بقدر مقدرته. ما تكلم به أحد في

حياته خوفاً من سطوته.

وتوفي يوم السبت والله أعلم الرابع والعشرين من الصفر سنة ست وخمسين وتسعمائة وبين موته وموت أبي البركات الفقيه محمود خمسة أشهر وعشرة أيام ومكث في السلطنة تسع سنين وستة أشهر.

الباب السابع عشر

ذكر أسكيا داوود وغزواته

فتولى بعده أخوه أسكيا داوود بن الأمير أسكيا الحاج محمد يوم الجمعة الثالث والعشرين من صفر المذكور في بلد كوكيا. ورجع إلى كاغ في أول يوم من ربيع الأول، فجعل كشي كرمن فاري، وهو زغراني أصلاً، وابنه محمد بنكن فاري منذ، وأخاه الحاج كري فرم. ثم جاءه دند فاري محمد بنكن سنبل عن دند.

فلما دخل كاغ قال: جميع الخدام يستحق العقوبة إلا هيكي موسى وحده، لأنه خديم نصيح وقام بها حق القيام. يعني بذلك طرده لداوود حين جاء بغير الأمر، وهيكي موسى المذكور صاحب جرأة ونجدة وشدة قد بلغ فيها الغاية القصوى. فدخل أسكيا داوود في حيلة اغتياله وأمر ابن أخته محمد ولد دل أن يرعاه متى وجد فيه الفلتة يقتله. فرماه ذات يوم بحريش فقتله. وجعل هيكي علي داد خلفه.

ثم أمر بتسريح بكر علي دود بن علي فلن، فهو معه في كاغ، إلى أن مات دند فاري محمد بنكن سنبل، أعطى مقامه لهُك كري كي كمكل، وفصّل ثيابه ولم يبق إلا أن يلبسه القلنسوة في ناديته. فجاء بكر علي دود في نصف ليل إلى باب دار فاري منذ محمد بنكن ابن أسكيا داوود فدق عليه الباب بشدة فخرج فزعاً مرعوباً، وحرشانه في يده، فقال: أيش؟ ثم قال: أسكيا يقتلني غداً في ناديته ولا بد، ولذلك جئتك لأخبرك به. فقال له: ولم؟ قال: لأنه عزم أن يجعل كمكل دند فاري غداً، وعرفت بلا شك ولا ريب أني أموت ساعتئذ. فقال له: وانتظرني هنا حتى أجيئ. فمشى إلى عند أسكيا ساعتئذ، وأتى بالباب الأكبر، ودقها فشاور عليه البوابون، فأمر له بالدخول. فأخبره بالقصة بحالها. وقال له: ارجع وأخربه بأنها له، ويدخل فيها غداً إن شاء الله تعالى.

فلما أصبح واجتمع عليه قومه في ناديته قال لوَند، وهو الذي يعود كلامه للناس: إذا تكلم قل لهذه الجماعة استخرت الله تعالى فيمن أولّيه على أهل دند، فما أرانا الله إلا هيكي بكر علي دود وهو دند فاري. فقام هُك كري كي كمكل، وحتى كفه بالتراب

فنثره في قبالة أسكيا داوود فقال: وهو الأمير يكذب؟ فوالله ما أراكه الله، إنما أرأته نفسك. فرجع لمجلسه الأصلي. فلما مات ولى كمكل الذكور ذلك المقام. ثم ولاه بان بعد وفاة كمكل، ولم يمت بان إلا في زمن أسكيا الحاج. فما ولاه أحداً، وبقي الموضع مرمياً على الأرض إلى قدوم كرمن فاري الهادي لكاغ للفتنة تحير أسكيا الحاج منه. وقام هيكي بكر شيلي أجي وقال لأسكيا: إذا أردت أن أقبض لك الهادي ولّني دند فاري فولاه حينئذ إياه، وقبض الهادي.

ذكر غزواته. وفي شهر شوال في العام الذي تولى فيه غزا إلى موش. وفي آخر السابع والخمسيه غزا إلى تع، اسم موضع في أرض باغن ويقال له ترمسي وكُم، فحارب في فندنك جاجي تماني، وفيه أتى بالقينين والقينات كثيرات المسمات مابي، وجعل لهم حارة في كاغ، كما جعلها الأمير أسكيا الحاج محمد لموش فيه. وفي شهر جمادي الأولى في الثامن والخمسين رجع إلى تندرم. وفي هذا العام وقع الطاعون في هذه الناحية كُرز، مات منه خلق كثير.

وفي التاسع والخمسين وقعت الخصومة بين أسكيا داوود وبين كنت سلطان ليك، وفي الموفي ستين اصطلحا. وفي إحدى والستين خرج إلى كوكيا، وبعث هيكي علي داد إلى كشن سرياً، فالتقى أربعمائة فارس أهل لبت أهل كشن مع أربعة وعشرين فارساً من أهل سغي في موضع يقال له كرفت، فتقاتلوا هنالك أشد القتال وطال الحال بينهم جداً في معركة هائلة. فقتل أهل كشن منهم خمس عشر رجلاً، منهم هيكي المذكور وأخوه محمد بنكن كوم بن فرن عمر كمزاغ وغيرهم. وقبضوا منهم تسعة مجروحين، منهم علوز ليل بن فرن عمر كمزاغ والد قاسم، وبكر شيلي أخي، ومحمد دل أخي، وغيرهم. فعالجوهم وقاموا بهم أحسن القيام، فأعتقوهم وبعثوهم لأسكيا داوود وقالوا: مثل هؤلاء لا يستحقون الموت لنجدتهم وشجاعتهم. وبقوا يتعجبون منهم لبأسهم وشدتهم حتى صاروا أمثلة عندهم. وولي مقام الهالك هيكي علي داد بكر شيلي أخي، فكا ن هيكي.

وفي الثاني والستين صعد من برن إلى ورش بكر، وأخرج شاغ فرم محمد كناتي وهو ونكري أصلاً، وهك كري كي كمكل مع الجيش إلى الجبال. وفي الثالث والستين غزا إلى بُص، وخربها ومات فيه خلق كثير هنا في الماء. وفي هذا العام مات الشيخ الأمين ابن الضو ولد سلطان وجلة.

وفي السنة السادسة والستين غزا إلى بلد سوم في أرض ملي، وتوفي سوم أنز

عند وصوله هنالك، فولي ابنه مقامه. فجاز إلى دبكرلا، وقاتل فيها قائد سلطان ملي مع كنت فرن وغلبه. وفي هذا الطريق تزوج نار ابنة سلطان ملي، ورحّلها إلى سغي في مملكة عظيمة من حلي وعبيد وأماء وآثاث وأمتعة ومعوناتها كلها من ذهب صحائف وقلات ومهراس ومدق وغيرها، وبقيت في سغي إلى أن توفيت فيه.

ثم رجع وفي رجوعه مات أسكيا محمد بنكن في بلد سام، وقد ذهب بصره حينئذ، فلما حاذاه أسكيا داوود نزل في مقابلته من وراء البحر، فاستأذنه سبطاه محمود وكلك فرم سعيد في السلام عليه، فأذن لهما. فقطعا البحر إليه وفرح بهما غاية الفرح، وبات معهما في السمر. فلما انقطع الحديث بينهم في أواخر الليل حركه أحدهما وقال له: قد رقدت؟ ضحك متعجباً من قوله فقال: ما اكتحل عيناي بنوم منذ اجتمع أبوكما وأمكما على مكيدتي. ثم سأل عن كركا منذ سرك ولد كل شاغ: أحي هو؟ قالا: نعم. قال: وما زال في مرتبته الدنيوية؟ قالا: نعم. فلما سمعه سرك المذكور، وهو ملسن، قال: ما هو أفضل، عزله من مرتبته العلية أم بقاءي في مرتبتي الدونية؟ كركا قرية في أرض تندرم. كرمن فاري عثمان يوباب هو الذي ولاه عليها، فطال عمره فيها جداً حتى انقرضت دولة سغي وهو فيها. وما مات إلا بعد ما سرح الباشا محمود بن زرقون بكر كنبو ابن يعقوب من السجن وجعله كرمن فاري. وفي اثني عشر يوماً من ولايته توفي كركا منذ المذكور.

ولما أصبح أسكيا داوود في مقابلة بلد سام أمر جميع أرباب آلات الطرب أن يسلموا على أسكيا محمد بنكن بضرب الآلات. فلما سمع الأصوات انقطع نياط قلبه فمات من ساعته. وبقي عياله ثمه.

ولما وصل في رجوعه مدينة جني نزل معسكره في زبر. ثم دخل المدينة لصلاة الجمعة، والأمير [الأمين] هو جني منذ يومئذ، وهو الذي ولاه تلك المرتبة، وقد كان في زمن أبيه الأمير أسكيا الحاج محمد، من الذين يسيرون قدامه عند الركوب ويشدون السرج بالمناوبة. ثم جعله ابنه أسكيا إسماعيل رئيس أصحاب الرجل الذي يقال له رب الطريق، وهو كذلك إلى أوائل ولاية أسكيا داوود، وجعله جني منذ، وهو الحاكم على البلد.

فلما خرج من المسجد بعد صلاة الجمعة وقلّ تحت سرجه يشده على حاله القديمة فوضع يده على رأسه ويكلم له برفع الصوت والتغليظ في الكلام ويقول له: جعلناك حاكماً على الأرض ولا ترعاها حتى كثر كفار بنبر فيها وثبتوا ما تغير عليهم.

وهو يتكلم حتى قارب باب زبر. قال. الله يجعل البركة في عمرك وفي أيامك، أنا تحت سرج أبيك وأشده ويده على رأسي هكذا، حاشاك من التصغير. فقال لي: السلطان الذي لا يجتنب غزوة الحجر وغزوة عابة كوب لا يريد لجيشه إلا التلف والخسارة، وقد حضرت أنت بنفسك في أرضك وبلادك، افعل فيها ما بدا لك. ثم توجه إلى بلده ودخل فيه يوم الجمعة في شوال.

وفي السابع والستين مات شاغ فرم محمد كناتي في ربيع الأول، وفيها توفيت ويزا حفصة ليلة الاثنين السابعة من شوال. وفي الثامنة والستين توفي الشيخ الفقيه المختار ابن عمر صبيحة الأحد الرابع يوماً من ربيع الثاني، وفيها تولت ويزا كيبن يوم الجمعة أول يوم من جمادي الأولى، وفيها توفي سلطان ليك محمد كنت في التاسع من رمضان، وخلفه في السلطنة ابنه أحمد في ذلك الشهر.

وفي التاسعة والستين صعد أسكيا داوود برن فغزا إلى موش ثانية، فهرب هو وجيوشه كلهم منه، ومات كيم كش وأبو بكر سو ابن فار محمد بنكن سنبل وكثير من الناس. ورجع في شهر رجب من هذا العام، وفي رجب هذا توفي كرمن فاري كشي ابن عثمان، ومكث في رئاسته اثني عشر عاماً.

وفي الموفي سبعين توفي الفقيه محمد بن عثمان رحمه الله يوم الأربعاء بعد العصر التاسع عشر من ربيع الثاني. وفي هذه السنة توفي كرمن فاري يعقوب بن الأمير أسكيا الحاج محمد في ربيع الأول يوم الجمعة. وفي يوم الاثنين السابع عشر من رمضان في هذا السنة توفي فاري محمد بنكن. وفي أواسط ذي الحجة مكملة هذه السنة تولى فار بكر علي دود بن القيم سلطنة دند كما تقدم.

أما محمد أكما تغاز منذ خديم أسكيا فقد توفي في تغاز في عام أربعة وستين وتسعمائة، قتله الفلالي الزبيري والد يعيش بن الفلالي بإذن مولاي محمد الشيخ الكبير سلطان مراكش. وقتل معه من التوارق الذين يرفدون ملح: أظلى علي انيي وعلي أندار وأندوس أكمتلك وغيرهم. فرجع الباقون إلى عند أسكيا داوود فذكروا له أنهم لا يتركون عادتهم من الرفود للملح إن تفوت، وأنهم عارفون المعدن غير تغاز الكبير. فأذن لهم في رفود منها، فحفروا تغاز الغزلان في ذلك العام، فرفدوا منها. والفلالي المذكور ما فعل ذلك إلا غضباً على أسكيا حيث اختار بن عمه الهنيت والد الشيخ محمد التويرق فولاه أمر تغاز.

وفي سنة إحدى وسبعين بعد تسعمائة بعث أسكيا داوود فاري بكر علي دود إلى

أرض برك لقتال بنَ، وهو عفريت غندور كيس حذر جداً. فخرج في شوال في وقت الصيف الشديد الحر جداً، فسار بالجيش في الفيافي والقفار. وكتم وجهته عن الجميع، وأسكيا هو الذي أمره به. وأخذ يسير بهم سيراً عنيفاً. فاشتكى الناس عند فار منذ محمد بنكن بن أسكيا داوود وطلبوا منه سراً أن يسأله عن وجهتهم، فسأله. ونهره مغضباً عليه أشد الانتهار، وقال له: أنت الذي تريد كشف سر أسكيا، لا أدخل لكم في توقحكم الذي تعاملون به الناس جميعاً. فخاف وسكت. فوصل بن وأدركه فجأة على الأرض نازلاً من فوق الجبل، ولا يحسب غزوة سغى يأبته في ذلك الوقت أبداً. فاقتتلوا وقتلهم جميعاً أهل سغي. وأما هو فلم يقتله إلا حصل فرم علو بص بن فاري منذ محمد بنكن سنبل. فرجعوا. وفي شهر ذي الحجة المكملة لهذه السنة دخلوا كاغ.

وفي سنة اثنين وسبعين توفيت ويزا كيبن ليلة الخميس في شهر شعبان. وفي سنة الثالثة والسبعين توفي الفقيه الجليل القاضي محمد بن الفقيه محمود رحمهم الله في شهر الصفر كما تقدم، وتولى القضاء بعده أخوه العدل الفقيه الإمام القاضي القب، ومكث فيها ثمانية عشر عاماً رحمه الله تعالى. وفي هذه السنة توفي فاري بكر علي دود في شهر جمادي الأخرى.

وفي سنة الرابعة والسبعين توفي الشيخ المبارك عمدة المسلمين الخطيب محمد سيسي يم السبت الثامن عشر من ربيع الثاني بعد الزوال رحمه الله تعالى. فولي مقامه الفقيه الخطيب محمد كب بن جابر كب، وهو من أهل جني، فرحله منه إلى كاغ بعد ما طالب به العلامة الفقيه محمد بغيع الونكري، فأبى وامتنع واستشفع بأخيه وشيخه ولي الله تعال الفقيه أحمد بن محمد سعيد، فمشى معه إلى كاغ في تلك الشفاعة، فشفعه فيه، ورجعا لتنبكت. فعن قليل بعد وصولهما توفي الشفيع شيخ الإسلام الفقيه أحمد المذكور رحمهما الله تعالى ونفعنا ببركاتهما أمين.

وفي السنة الخامسة والسبعين توفي جدي عمران بن عامر السعيدي في عشرين من رمضان عن ثلاثة وستين سنة، ودفن في جوار سيدي أبي القاسم التواتي رحمهم الله تعالى.

وفي السنة السادسة والسبعين في فاتحة المحرم توفي ولي الله تعالى العلامة الفقيه أحمد بن خمحمد سعيد سبط الفقيه محمود يوم الأربعاء أول وقت العصر الثامن والعشرين منه، وصلي عليه بعد صلاة المغرب، ودفن بين العشاءين في جوار جده الفقيه محمود، وعمره اثنان وأربعون سنة.

وفي أواخرها جدد القاضي العاقب بناء مسجد محمد نض، وعدله تعديلاً بليحاً، وختمه في شهر الصفر في السنة السابعة والسبعين. وفيها شرع في حمل اللبن لبناء الجامع الكبير بتنبكت، وابتدأ فيه في خامس عشر من رجب منها. وخربها يوم الأحد الخامس عشر من ذي الحجة وابتدأ في بنائها يوم الثلثاء السابع عشر منه. وفي شهر شوال من هذه السنة توفي الرجل الصالح إمام هذا جامع الإمام عثمان بن الحسن التشتي، ودفن في المقابر القديمة، فسواها جميعاً القاضي العدل العاقب المذكور، وزادها في الجامع القديم. وموضع قبر هذا الإمام معروف فيه عند أهلا معرفته. فتولى إمامة الجامع الكبير الإمام محمد كداد بن أبي بكر الفلاني، وهو من عباد الله الصاحين بأمر القاضي العاقب.

وفي أول السنة الثامنة والسبعين غزا أسكيا داوود إلى سور بنتنبا في أرض ملي، وهي آخر غزواته في أترم، وهو جهة المغرب. وفي هذا الطريق بعث ابنه كري فرم الحاج إلى الحمدية، ومعه سلطان نان الحاج محمود بير بن محمد الليم بن أكنقي مغشرن كي زوج ابنته بت، والمسك أنداسن كي، في أربعة وعشرين ألفاً جيش التوارق، اثنا عشر ألفاً مع كل أحد، وهي عادة جارية منهم إذا ناداهم أسكيا للغزو. لا بد يأتي كل واحد منهما بهذا العدد من الرجال. فغار على العرب الذين في تلك الجهات ورجع. وفي هذا الطريق حملت بابنه هرون الرشيد أمه. وأخوه الكبير فاري منذ محمد بنكن بن أسكيا داوود هو صاحب هذا الغزو بالطريق، ولكنه عليل يومئذ بعلة قرح مسر.

ثم رجع أسكيا فطرق تنبكت ونزل في مؤخر الجامع في صحنه حتى جاءه القاضي العاقب وفقهاء البلد وأعيانه للسلام عليه والدعاء له. وأدرك الجامع ما زال ما تمت بناؤه، فقال للقاضي: هذا الباقي هو سهمي في التعاون على البر، فأعطاه في ذلك ما قدر الله تعالى على يده. ولما بلغ داره بعث له أربعة آلاف خشب من شجرة كنكو، فختم بناءه في هذه السنة.

ثم غزا إلى كرم ووصل بلد زُبنك وقاتل فيه رئيسه تنن توتم وهزمه. ثم بعث كرمن فاري يعقوب إلى سن فغار على دع لبعض تعوّج صدر من دع كي، فسبا جميع عياله. ثم صالح بينهما أمكي فردهم له. ورجع وتحرك ثلاث تحريكات ما غار على أحد ولا قاتل مع أحد. واحدة منها وصل إلى حد موش فرجع بلا مغارة، والأخرى في جهة دند وصل إلى لولامي ومعه، والدتها ساني ابنة فاركي فماتت ثمه فقبرت فيها،

ورجع. والذي رويت عنه الخبر قال إنه نسي الثالثة.

وفي سنة خمس وثمانين وتسعمائة جدد القاضي العاقب بناء المسجد الذي في سوق تنبكت. وفيها توفي الخطيب محمد كب بن جابر كب في كاغ رحمه الله تعالى. وفيها توفي مؤدب كسنب بن علي كسنب وأحمد سر المداح بن الإمام. وفيها هرب باونك من تمن إلى سوا. وفيها طلع نجم ذو ذنب ليلة الجمعة خمساً وعشرين ليلة من شعبان. وفيها توفي السلطان مولاي عبد المالك في مراكش، وتولى أخوه مولاي أحمد الذهبي. فبعث لأسكيا داوود أن يسلم له في خراج معدن تغاز عاماً واحداً، وبعث له هو عشرة آلاف ذهباً هدية وعطية خير، فتعجب من سخائه وجوده، فكان سبب المحبة والوصلة بينه وبينه. فلما بلغه خبر وفاة أسكيا داوود تحزن وجلس للتعزية، فعزاه كبار أجناده كلهم.

وفي أواخر هذه السنة توفي كرمن فاري يعقوب، ومكث فيها ستة عشر سنة وخمسة أشهر. وفي يوم الخميس ثاني عشر من المحرم سنة ست وثمانين بعد تسعمائة شرع القاضي العاقب في تجديد بناء مسجد سنكري، واستهل الشهر فيها بالاثنين. وفيها وقعت الخصومة بين أولاد الشيخ محمد بن عبد الكريم وبين يحيى تنبكت منذ. وفي شهر شوال من هذه السنة ولى أسكيا داوود محمود درمي خطيباً. وفي شهر رمضان تاسع شهور سنة ست وثمانين وتسعمائة ولى ابنه محمد بنكن سلطنة كرمن. وفي أواخر ذي القعدة خرج من كاغ ووصل تنبكت يوم الثلاثاء التاسع والعشرين منه، ووصل تندرم في أوائل ذي الحجة وولى ابنه الحاج فار منذ، وفوّض الأمر لكرمن فاري محمد بنكن في جميع شؤون ناحية المغرب. وفي هذه السنة والله أعلم توفي بلمع خالد بن الأمير أسكيا الحاج محمد في ذلك رمضان، وتولى بعده بلمع محمد ولد دل.

ثم إن كرمن فاري طلب من أبيه الغزو لقتال أهل جبل دم، وقد امتنعوا لشن علي وأسكيا الحاج محمد، وما نالا منهم نيلاً. فأعطاه جيشاً وجعل عليهم هك كري كري يأسي، وأمره أن لا يدخل بجيشه في خطر وغرر ووكد عليه في ذلك جداً. فلما وصلوا الجبل المذكور أراد فرن محمد بنكن أن يطلع بالجيش عليه. أبى ياسي. وعاوده فأبى. فقال له: يا هذا العبد الداسر، لا تبال بأحد. وقال له: أخطأت في الخطاب، قل في يا هذا العبد السوء، نعم وهو كذلك. ولم يرض له بالإسعاف بمراده ذلك.

ثم إن مع الغندور المعروف المشهور الذي انتشر ذكره بالغندرة وفشي هو من

أهل هذا الجبل طلع على الجيش من فوقها، فكمن له محمد ولد مور، وهو على حصانه، يصعد إليه قليلاً قليلاً في طرف الجبل حتى قاربه فرماه بالحريش، فطاح على الأرض ومات. فمن حينئذ ازدادوا خوفاً من خيل أهل سغي. ثم رجع فرن محمد بنكن من غير قتال.

وفي سنة تسع وثمانين بعد تسعمائة توفي الأمان [الإمام] محمد بن أبي بكر كداد الفلاني ليلة الأحد التاسعة والعشرين من المحرم، وتولى أحمد بن الإمام صديق إمامة الجامع يوم الأربعاء السابع عشر من صفر. وفي هذه السنة توفي بلمع محمد دل كر بنكي، ومكث فيها والله أعلم خمس سنين، فتولى بعده محمد وعون دعنككي ولد عائشة بنكن بنت الأمير أسكيا الحاج محمد، ولاه أسكيا داوود.

وفي سنة تسعين بعد تسعمائة وقعت في تنبكت وباء عظيمة ومات فيها خلق كثير. وفيها وقع القطاعون المحاربون من فلان ماسنة على قارب أسكيا الحاج من جني، ونهبوا بعض أمتعته. ومثل ذلك لم يكن في دولة سغي قط، وذلك في زمن سلطان ماسنة فندنك بوب مريم. فلما بلغ الخبر فرن محمد بنكن نهض ساعتئذ وتوجه لماسنة للانتقام منهم من غير مشاورة واحد من كبرائه. فلحقهم الكبراء بعد ما ذهب فزين له الحال أخوه تنكي سالك وبن فرم دك وصوّباها له من غير أن يكون صواباً عندهما غضباً وغيظاً لتحقيره إياهما حيث أبى لهما ولو بإعلام فأحرى مشاورة الحاصل. غار على ماسنة وأفسدها فساداً عظيماً وقتل فيها من فضلاء الطلبة وصلحائها كثيراً، فظهر لهم بعد موتهم كرامات عجيبة. وأما السلطان فهرب إلى أرض في سنوي حتى سكنت الفتنة رجع.

ولما بلغ الخبر أباه أسكيا داوود أنكرها عليه جداً. فكانت مطياراً عليه لأن أسكيا ما تأخر بعد الوقعة في الدنيا كفى ذلك مطياراً له. وفي شهر رجب من هذه السنة توفي أسكيا داوود، ومكث فيها أربعاً وثلاثين سنة وستة أشهر. وكان موته في تندبي قريباً لكاغ، وهي مزرعه وفيها داره وعياله يأخذ أياماً فيها في آخر عمره. وأولاده الكبار كلهم معه هنالك عند موته. فجهز وحمل في القارب إلى كاغ ودفن فيه.

الباب الثامن عشر

ذكر أسكيا الحاج ابن أسكيا داوود

والحاج ابنه هو أكبر أولاده يومئذ هنالك. فتحزم وركب حصابه. وركب إخوانه

كلهم خلفه، ولكن غير دانين منه، وليس له مثل يومئذ في أهل سغي كافة في النجدة والشجاعة والصبر والتحلم. وقال من حضرهم هنالك من أهل العقل والمعرفة ساعتئذ يستحق: أن يكون أميراً ولو في بغداد.

وقيل اثنان من سلاطين سغي أكبر من سلطنتهم الأمير أسكيا الحاج محمد وحفيده سميه أسكيا الحاج محمد بن أسكيا داوود. واثنان استويا بها أسكيا محمد بنكن بن فرن عمر كمزاغ وأسكيا إسحق بن أسكيا داود، واثنان استويا بها أسكيا محمد بنكن بن فرن عمر كمزاغ وأسكيا إسحق بن أسكيا داوود. والباقون سلطنة سغي أكبر منهم.

فلما ركبوا عند مسيرهم لكاغ خرج حامد من بين إخوانه وتقدم إليه، فأخذ يساره ويقول له: اقبض فلاناً وفلاناً وفلاناً. ففطن إخوانه لا يتكلم إلا بالنميمة. ثم رجع لمركبه، فتقدم إليه الهادي فقال له لا: تتبع كلام هذا النمام، ولا تعمل الغار لأحد، فلا لك منازع هنا، ولا تتبع إلا الأكبر. فالأكبر إن كان محمد بنكن حاضراً هنا اليوم لا يصل إليك هذا اللأمر. وإن كنت غائباً اليوم وحضر هذا النمام القليل البركة لا نحاوزه به. فقال أنا وفعل الغار فيكم بعيد، لأن أباكم أودعكم علي، مع أن هذا الأمر قد فات اليوم الذي أريد أن أكون فيه، وهو حياة أعمامي وأقراني الذين أسنّ مني، ولو لا أن الدهر هو الذي أوجب علي قعود تلك العتبة اليوم لا أقعد عليه.

فلما دخلوا البلد وفرغوا من دفن والدهم بايعه القياد والأجناد وسائر الخلق والعباد في سابع عشرين رجب المذكور. ولكن ما دخل فيه إلا وهو عليل بعلة القروح في أسفله، فمنعته التصرف في نفسه حتى لم بغزو ولو مرة واحدة إلى أن توفي.

ولما بلغ فرن محمد بنكن خبر مرضه توجه إلى كاغ، وحين وصل تنبكت سمع خبر وفاته وولاية أخيه أسكيا الحاج محمد، رجع وتأخر في أككن ثلاثة أيام، ثم مشى في طريق حمالن ونزل في دبوس. ثم مشى ووصل داره. ثم جهز جيشه وعزم على الوصول إلى كاغ للقتال. فلما دخل تنبكت ذهب إلى القاضي برسم السلام ولا علم عند أحد من الجيش إذا سمعوا أنه حين قعد عند القاضي طلب حرمته أن يكتب لأسكيا أنه سلم في رئاسته وأنه يريد المكث في تنبكت لطلب العلم. فلما سمعوا ذلك هرب الجميع ساعتئذ وتوجهوا لكاغ عند أسكيا. فكتب القاضي وقبل أسكيا وولى أخاه الهادي بن أسكيا داوود سلطنة كرمن، وفعل أخاه المصطفى فاري منذ. وبقي هو في تنبكت في تلك الحال. ثم إن كبراء الجيش رأوا فيها بينهم أن بقاءه في تنبكت لا تصير

عاقبته إلى خير لهم ولأسكيا، فاتفقوا وجاؤوا إليه وقالوا له: تختار أنفسنا عنك وعن أخيك محمد بنكن، وكونه في تنبكت لا نقبله، لأن مراسيلنا لا ينقطعون عنه لقضاء حوائجنا فيه، لا يرجع النمامون يقولون إذا رأوا مرسول أحدنا توجه إليه: ها مرسول فلان مشى إلى عند محمكد بنكن.

فسمع كلامهم ذلك ووعاه وأرسل أمر بن إسحق بير أسكيا مع أناس في قبضه في تنبكت وأمره أن يسجنه في كنت. فوصلوه في قائلة من النهار نائماً في داخل البيت، وحصانه مربوط في حصنه، وعنده عبده الذي يخدم الحصان. فطلعوا من فوق حائط البيت على خيله متلثمين بعمامات سود متحزمين على قفاطين سود، فرمى الحصان أمر المذكور بحريش لكي يموت لئلا يركبه محمد بنكن ويقاتلهم. فتحرك الحصان في مربطه تحريكاً شديداً حتى أيقظه من النوم. فسأل العبيد عن تحريكه، فأخبر بما جرى، علم أنه أمر من أسكيا. فمات الحصان، وقبضوه وأنفذوا أمره فيه.

وبقي في كنت إلى ولاية أسكيا محمد بان، وبقي أولاده الثلاثة عمر بير وعمر كت وينب كيز أجي مختفين خائفين من أسكيا الحاج إلى انقراض دولته واقراض دولة أسكيا محمد بان. وقبل دخول أسكيا إسحق أظهروا أنفسهم وبقوا يطلبون أمر المذكور ليقتلوه في تلك الفترة. ففطن واختفى في الزمرة التي يقال لهم سوما، وهم الذين يحضرون دخول أسكيا حتى يدخل. وعادتهم لبس البرانيس، فلبس هو البرنس معهم حتى دخل أسكيا أسحق. فخرج حينئذ لأن الفتنة سكنت ولا يقدر أحد أن يتعدي على أحد.

ثم إن بكر بن أسكيا محمد بنكن لما سمع بولاية أسكيا الحاج محمد خرج من أرض كل مع ابنه مربا فقدم كاغ، فأكرمه أسكيا الحاج وجعله باغن فاري. فرجع إلى تندرم وهو محسوب في جيش كرمن مع ابنه المذكور عزيزاً مكرماً.

ثم ذكر لأسكيا الحاج أن فندنك بوب مريم حلف أن رأسه لا يدخل في باب الدار أبداً فأرسل اباغن فاري بكر أن يسير إليه بالتدبير والكياسة حتى يقبضه ويأتيه به بحيث لا يفطن فيهرب. ففعل ذلك وقبضه وأتاه به. فلما امتثل بين يديه وهو مقيد بالحديد، فقال له: يا ابن مريم أنت الذي حلفت رأسك لا يدخل في الباب أبداً. فقال له: لا تعجل علي بارك الله في عمرك حتى أتكلم. فقال له: تكلم. فحلف بالله تعالى أنه ما تكلم، والأعداء الذين لا يريدون لي إلا الموت هم الذين يقولونه علي، وأين أذهب فأفوتك؟

فأمر بإمضائه وتأخر زماناً ولا يدري أحد من الناس أين هو، حتى ظنوا أنه فارق الدنيا، إلى يوم واحد أمر بإحضاره وقال له: أريد أن أردك لسلطنتك، فجازاه بخير ودعا له وأكثر في الدعاء. وقال: إن خيّرتني لا أبغيها. فقال وما تبغي؟ قال: أن أكون عندك هنا وأخدمك. فعظم ذلك عليه وأعطاه من أجله عشراً من الخيل وخداماً كثيراً وداراً وأعطاه من كل خير ما هو المني والبغية. فبقي في كاغ عزيزاً مكرماً. وولي حمد أمنة مقامه لأهل ماسنة.

وفي يوم الأحد آخر وقت الضحى الحادي عشر يوماً من رجب عام أحد وتسعين بعد تسعمائة توفي القاضي العاقب بعد أن ملأ أرضه بالعدل بحيث لا يعرف له نظير في ذلك من جميع الآفاق، ومكث فيها ثمانية عشر سنة.

وبين وفاته ووفاة أسكيا داوود ثلاثة عشر شهراً. وفي ليلة الاثنين السابعة عشر من شعبان في هذا العام توفي الفقيه المحدث أبو العباس أحمد بن الحاج أحمد بن محمد أقيت رحمهم الله تعالى أجمعين. وبقيت القضاء في تنبكت سنة ونصفاً بعد وفاة القاضي العدل العاقب، ما تولاها أحد لأن أسكيا الحاج أرسل في ذلك للعلامة الفقيه أبي حفص عمر بن الفقيه محمد، ما قبلها مرتين وثلاثاً، والفقيه محمد بغيغ الونكري هو الذي يفصل بين المولدين والمسافرين، والمفتي الفقيه أحمد معيا هو الذي يفصل بين أهل سنكري.

ولما طال الحال بعث الشيخ المبارك الفقيه صالح تكن لأسكيا سراً أن يكتب له إذا لم يقبلها يوليها الجاهل، فكل ما حكم لا يسأل به الله تعالى عنه إلا إياه غداً بين يديه. فلما قرأ الكتاب بكي وقبل فتولاه في آخر يوم من المحرم فاتح سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة. ومكث فيها تسع سنين كاملاً.

وفي سنة اثنين وتسعين وتسعمائة خرج كرمن فاري الهادي من تندرم في صفر عازماً إلى كاغ لأجل الفتنة وأخذ السلكنة، وقيل أن إخوانه الذين كانوا في كاغ عند أسكيا هم الذين أرسلوا له سراً أن أسكيا الحاج ما فيه جهد أن يعزم، ويقدم لدخول السلطنة. ثم غدروه وسلموا فيه.

فلما وصل كبر أرسل رسوله إلى الفقيه عمر برسم السلام ولم يجيئ هو بنفسه كما هو عادته. ثم مشى في طريقه فتلقاه رسل أسكيا الحاج قبل أن يصل فطلبوا منه أن يرجع، فأبى. ورجعوا وأخبروه بخبره. فوصل كاغ ليلة الاثنين رابع ربيع الأول، وعليه الدرع وبين يديه بوقاته وطبله وغير ذلك. فخاف منه أسكيا خوفاً عظيماً لأنه مريض

عاجز لا يقدر على شيء. فقال له هيكي بكر شيلي أجي: ولّني سلطنة دند الآن أقبضه لك. فولاه إياها لأنه منذ توفي دند فاري بان في زمنه ما ولاها أحداً.

فقام في الحال ونصح. فجاء إليه إخوانه الذين كانوا هنالك يومئذ، منهم صالح ومحمد كاغ ونوح وغيرهم على أرجلهم، فقالوا له: ما أتى بك هنا وما تريد ومن شاورت ومن اتفق معك عليه؟ وما ذلك إلا أنك حسبت جميع من هنا نسواناً، انتظرنا هاهنا حتى ترى ما عندنا.

فرجعوا وتحزموا وركبوا خيلهم وأيوا [أتوا] عازمين على المقاتلة معه. فقال له الناس: اذهب إلى دار الخطيب حتى يصالح بينك وبين أسكيا. ودخل في داره. فلما سمع أسكيا بدخوله خرج ساعتئذ وأمر بإمساكه من هناك وبإتيانه بين يديه. فأمر بنزع ما عليه، فوجد عليه درعاً من حديد. فقال له: هادي ما أنت إلا كفور. فبكي فاري مند المصطفى بكاء شديداً، فقال: ما هكذا أتمنى لرئيسنا هذا، والذي أتمناه أن تجعلنا وراءه إلى صاحب موش أو إلى صاحب بص - أخذ يعدد السلاطين - فتنظر كيف نعمل لهم معه. وفاري مند المكور شقيق أسكيا الحاج. ولو لا ذلك ما يقدر على ذلك العمل. ثم أمر بإتيان حصانه الذي هو عليه. فلما رآه وقلّله قال: ما جرّأ أخي هادي على الفتنة إلا هذا الحصان. أمر بإدخاله في إصطبله، وخصه الله تعالى بمعرفة الخيل.

وضرب كثير من أتباعه، وأما خاله الذي هو رأس الفتنة فمات تحت ذلك الضرب، ونهبوا جميع ما معهم. وأمر بإذهابه إلى كنت برسم السجن، وولى كلشع محمد قاي بن دنكلك مقام هيكي بكر شيلي أجي، فكان هيكي. فأمره أن يولي في مقامه الذي نزل منه من أحب، فولى ابنه بكر، فكان كلشع. وولى أخاه حامد مقام بلعم محمد وعو بعد موته، فكان بلمع.

ثم أرسل السلطان مولاي أحمد الشريف الهاشمي رسوله إلى أسكيا الحاج بهدايا عجيبات له وقصده في ذلك الإطلاع على حال بلاد التكرور، لأنه عزم على بعث رسوله إلى كاغ. فتلقا أسكيا بالإكرام وأرسل له عند رجوع مرسوله أضعاف ما أرسل هو من الهدايا من خدام وسنانير الغالية وغير ذلك. ومن جملة ما أرسل ثمانون خصياً.

وبعد ذلك ورد الأخبار أنه بعث جيشاً فيها عشرون ألفاً رجالاً إلى جهة ودان وأمرهم بأخذ ما هنالك من البلدان على شاطي البحر وغيرها حتى يصلوا إلى بلاد تنبكت. فتخوف الناس من ذلك غاية الخوف. ثم شتت الله ذلك الجيش بالجوع

والعطش فتفرقوا شذر مذر، ورجع من بقي منهم إليه، وما قضوا شيئاً من مراده بقدرة البارئ تعالى.

ثم أرسل قائداً ومعه مائتا رامٍ إلى تغاز وأمرهم بأخذ أهله. فسمعوا به قبل وصولهم فخرجوا منه هاربين، منهم من مشى إلى الحمدية، ومنهم من مشى إلى توات وغيرها. وما وصل القائد والرماة إليه إلا خالياً ليس فيه إلا نفر يسير. فذهب أعيانهم إلى أسكيا وذكروا له ذلك، فاتفق معهم على أن ينمعوا رفود الملح منه.

وفي سنة أربعة وتسعين وتسعمائة في شوال جاء الخبر بأن لا يذهب أحد إلى تغاز، فمن مشى إليه فماله هدر. ثم أن أظلي ما صاب الصبر عن الملح فتفرقوا فمشى بعض إلى تنورد وحفروا الملح فيها بهذا التاريخ، وآخرون إلى غيرها. وتركوا التغاز هذه المدة. فرجع القائد والرماة إلى مراكش.

وفي هذا التاريخ أيضاً أخذ عمه سليمن كنكاك بنك فرم فولاها محمود بن أسكيا إسماعيل. وفي شهر ذي الحجة مكملة هذه السنة خالف عليه إخوانه وذهبوا إلى كرى عند محمد بان ابن أسكيا داوود. فجاؤوا به معهم وأقلعوا أسكيا الحاج وولوه أسكيا في الرابع من المحرم فاتح سنة خمس وتسعين وتسعمائة. ومكث أسكيا الحاج فيها أربع سنين وخمسة أشهر وبعد ذلك بأيام يسيرة توفي.

الباب التاسع عشر

ذكر أسكيا محمد بان ابن أسكيا داوود

فلما تولى أسكيا محمد بان جعل أخاه صالح كرمن فاري ومحمد الصادق بلمع وعزل حامد منها. وبادر بقتل أخويه فرن محمد بنكن وفرن الهادي في كنت، وقبرا فيه متجاورين.

فلما سمع الهادي بولايته تعجب وقال: قبح الله العجلة، أحمق من خرج من صلب والدنا يتولى السلطنة، وأما الحاج فما قتل أحداً من إخوانه حتى انقرضت أيامه.

ثم إن إخوانه حقروا شأنه ولم يكن أخلاقه مرضية عندهم ولا عند غيرهم، وأيامه بؤس ومجاعة. فاتفقوا على عزله وتولية بنتل فرم نوح السلطنة، فوافقهم عليه وتواعدوا في ليلة معلومة في موضع مخصوصة أن يأمر بنفخ بوقه هنالك، ويجتمعوا عليه فيه ويولوه السلطنة. ثم انكشف السر له ولا علم عند نوح به. فقبض هيكي محمد قاي والد كلشع بكر وشاع فرم المختار وغيرهما من الكبراء الذين اتفقوا على ذلك

الرأي وعزلهم. فأتى نوح الميعاد وأمر بنفخ البوق فلم ير أحداً، فهرب. وألحقهم الرجال فقبضوه مع أخيه فار منذ المصطفى وسجنوه في أرض دند بأمره.

وعزل كلشع بكر فرجع لتندرم، وجعل خلفه واحداً من حراطين تندرم فكان كلشع. ثم مات كرسل ماسن منذ، فولى كلشع بكر مقامه فكان ماسن منذ، وجعل له سركيا هيكي، وعلي جاوند شاع فرم، وأخاه إسحق بن داوود فار منذ.

ثم قتل بلمع محمد الصادق بن أسكيا داوود كبر فرم علوا الظالم الفاجر عشية الأحد السابع من الربيع سنة ست وتسعين وتسعمائة، وكان ذلك في كبر. فأراح الله تعالى المسلمين من شره. فأكل جميع ما احتوت عليه داره من الأموال. وخالف على أسكيا محمد بان، فأرسل لأخيه كرمن فاري صالح أن يأتي ليكون أسكيا، لأنه أولى به من جهة الكبر. فأتى في جيشه. فلما قارب كبر قال له أصحاب الرأي: انزل هاهنا لأن بلمع صادق غدار أهل مكر وخديعة، وابعث له أن يرسل لك جميع ما رفع في دار كبر فرم، لأنك أولى به حيث تلفظ لك بالسلطنة، فإن كان على الحق يرسله وإلا لا يرسله.

فأرسل إليه وأبى، فظهر له أنه غير صادق. فصار إلى الفتنة بينهما، فاقتتلا وقتله بلمع محمد الصادق عشية الأربعاء الرابع والعشرين من ربيع الثاني في العام المذكور. وبين قتله وقتل كبر فرم سبعة عشر يوماً. فاجتمع الجيشان على بلمع، فعزم على التوجه إلى كاغ لعزل أسكيا محمد بان. وبعث لبنك فرم محمود بن إسماعيل أن يأتي إليه ويكون معه. فخاف وهرب من بنك إلى كاغ.

ومحمد كي أجي بن يعقوب هو الذي رمى فرن صالح بالحريش عند الملاقات أولاً فتمكن فيه. ثم طعنه بلمع بالحربة ثانياً فمات من ساعته، وبعد الغروب أمر بتجهيزه ودفنه.

وأدرك الحال أن مارنف الحاج بن ياسي بن الأمير أسكيا الحاج محمد جاء إلى تنبكت يطلب الحرمة عند خدام أسكيا الذين كانوا فيه لما عزم على الدخول بابنة أسكيا محمد بان. فجاء عند بلمع محمد الصادق في كبر ليسلم عليه قبل الواقعة التي جرت على يديه من قتل كبر فرم وقتل كرمن فري. فقال له بلمع: قد رأيت الحال كنا فيه، وأريد أن تكون معنا. فقال: يا بلمع والله لا أتبع أحداً ما دام أصبع واحد تحرك في أسكيا محمد بان. وجعل بلمع يلاطفه بالكلام الطيب إلى أن قال له: إن أردت أن أزوجك ابنتي تزيدها على ابنة محمد بان؟ فقال له: يا سالك والله لا أتبع أحداً ما دام أصبع واحد يتحرك في أسكيا محمد بان. فناداه باسمه دون اللقب ليقطع رجاءه فيه

فقبضه وسجنه إلى أن تحققت الفتنة ووجبت. فقال له كي أجي وهوم من أقرب الناس إليه وأنصحهم له: اطلق مارنف وخذ بخاطره بأفعال الخير، لأن من كان في الفتنة يحتاج إلى مثله. فأطلقه وعامله بالخير، وأعطاه واحداً من حصان سرجه، وأمر بإخراج القيد من رجله. فركب الحصان وما زال خلخال واحد في رجله من زوج خلخال القيد، فهرب ساعتئذ، وتوجه إلى كاغ وقص القصة على أسكيا.

ثم توجه بلمع إلى كاغ في جيش عظيم من أهل المغرب، فيهم باغن فاري بكر وهنبركي منس وبركي أمر وكلشع بكر وغيرهم. فارتحل من كبر يوم الثلثاء أول يوم من جمادي الأولى ومشى على عزمه. فلما سمع ذلك محمد بان تشوش من أمره فخرج بجيشه من كاغ للقائه يوم السبت الثاني عشر من الشهر المذكور، فمات في منزله يومئذ عند القائلة. قيل من الغيظ لأنه وجدت شفته السفلى بجروحات بعض الأسنان. وقد سمعه الناس يقول لما بلغه الخبر أن بلمع يأتيه ليعزله: قبح الله سلطنته لأنه موضع الذلة والهوان، ولو لا ذلك كيف يجترأ سالك علي ويقول في حقي هذه المقالة. وقيل مات من سمن لأنه سمين جداً، وخرج في يوم شديد الحر لابساً درعاً من حديد. وعلى كل حال مات بالغيظ.

فولت الجيش إلى كاغ وميّز هك كري كي عنهم إلى حدة في أربعاء آلاف فارساً من خصي.

الباب العشرون

ذكر أسكيا إسحاق ابن أسكيا داوود

وفي غده يوم الأحد الثالث عشر من جمادي الأولى سنة ست وتسعين وتسعمائة تولى السلطنة أسكيا إسحق ابن أسكيا داوود، وهو أول أولاده بعد دخوله السلطنة. وأما محمد بان فلم يمكث في السلطنة إلا سنة واحدة وأربعة أشهر وثمانية أيام.

وفي يوم السبت التاسع عشر من الشهر جاء مرسول أسكيا إسحق إلى تنبكت بخبر ولايته، وأشكل أمره على أهل تنبكت لأن بلمع في الطريق. ولما صح عنده أن إسحق تولى السلطنة جمع الجيش الذين معه في موضع فبايعوه وولوه أسكيا، وأرسل مرسوله لأهل تنبكت وأمرهم بأخذ مرسول إسحق، وبلغ يوم الاثنين إحدى وعشرين من الشهر. فأخذوا مرسول إسحق كما أمر به وسجنوه. وفرح بذلك كثير من الناس، منهم تنبكت كي أبكر ومغشرن كي تبرت أكسيد والكيد ابن حمزة السناوي. وأعملوا

اللعب أطلعوا الطبل فوق سطح الديار وضربوه فرحاً بولاية محمد الصادق، لأن أهل تنبكت يحبونه كثيراً، فقد غر نفسه وغرهم.

ثم انقطع الخبر بين تنبكت وكاغ. وروي عن الفقيه أبي بكر لنبار الكاتب وزير القلم أنه قال أن كاغ بعد تمام الأسبوع من ولاية أسكيا إسحق صار كأن صاحب روح لم يكن فيه من أجل خوف بلمع محمد الصادق ورهبته، وأنه لما رأى ذلك وعلم أنه وقاح وأن أول من يبدأ بتوقحه الطلبة والفقهاء لما يزعم أنه عالم. فمشى إلى أسكيا وقت القائلة فدخل عليه وقال له: ما أتا بك في هذه الساعة؟ قلت له: بارك الله فيك وزين أيامك، منذ دخلت في هذه الدار العالية ما سمعنا المالك الثاني لأهل سغي. قال لي أسكي ألفع: هذا الذي ما عرفت ولا سمعت به قبل، وهل لأهل سغي مالك ثان؟ قلت له: بارك الله في عمرك كائن، وهو الذي يوطّئ لك رقاب الناس خارجاً، وأنت في داخل قاعد. فأخذت أعدده له من عهد جده إلى زمن أسكيا محمد بان. فقال لي: هذا تعني. قلت له: نعم، بارك الله في عمرك. قال: الذي يكون أهلاً لهذا ما عرفته في هؤلاء القوم. قلت له: لا تقل ذلك، ما زالت البركة في وجه الأرض: ابناك عمركت بن محمد بنكن ومحمد ابن أسكيا الحاج، فيهما جميع البركة، ابعث لهما في المجيء في هذه الساعة وعاملهما بالخير حتى يغرقا فيه.

فبعث لعمركت أولاً، ويسكّن معه في داره مربيه وصيف والده زبي وهو أشد منه بأساً وشجاعة، فخاف من تلك النداء في تلك الساعة خوفاً شديداً. فمشى فزعاً مرعوباً، وبقي زبي في الدار مرعوباً. فلما امتثل بين يدي أسكيا قال له: ولدي عمر من يوم رفعتم التراب هنا ما رأيتك بعد إلا في هذه الساعة، أما علمتم أن هذه الدار داركم وما دخلتُ فيها إلا لأجلكم، لا ينقطع رجلك عني. فأعطاه من كل جنس خيراً كثيراً من اللباس الفاخرات والزرع والودعة وغيرها، أعطاه حصاناً من خيل سرجه.

فرفع التراب وخرج مسرعاً لداره، وأدرك زبي في الغم والكرب الذي لا يعلمه إلا الله. فلما دخل عليه قال له: ما هنالك؟ قال: مت. قال له: فدا لك نفسي، أموت دونك، عجل لي بالخير. قال له: اصبر حتى تنظر. فدخل مراسيل أسكيا بجميع العطايا. فقال زبي: أمن هذا؟ إذا كنت لا تموت منها ففي أي شيء تموت؟ والحر لا يموت إلا في الخير، لا تزال تموت بمثلها، وأنا سابق قبلك فيها.

ثم دعا محمد ولد أسكيا الحاج وفعل له مثل ذلك الفعل.

وفي الغد تحزم عزركت وركب حصانه وجاء إلى دار أسكيا، وهو في ناديته

وجماعته متوافرة فيها. تحرك حصانه فأقبل وأدبر حتى أتم العادة. ثم تكلم بعد ما دعي وقال لوند قال: قل لأسكيا هؤلاء الجماعة أهل سغي يقولون ما لا يفعلون، وهم الذين يمسكون الماء والنار في أفواههم، وكل من تكلم لك هنا أول مرة ما تكلم بصدق، وهاهو سالك أت غداً، وإذا تلقينا معه هذه الحربة التي أجعلها في كذا أمه، فكل من كان على صدق فليقل مثل هذه المقالة. فتفرقت الجماعة وتحزموا، وتكلم الجميع بمثلها.

وفي يوم الجمعة الثامن عشر من جمادي الأولى نزل بلمع محمد الصاق بجيشه في كنب كري وبُنيت قباءه فدخل فيها. وأول من أتاهم هنالك مازنف الحاج المذكور، فلما رأى قباءه حرك حصانه وأجراه حتى دنا إليهم، فصاح وقال: أين سالك؟ فرمى القباء بالحريش حتى كادت أن تطيح وهو في داخله. فكر راجعاً. ثم جاءت كتيبة التوارق. ثم انثال خيل أسكيا إليهم كجراد منتشر.

فقام بلمع وأصحابه وأقاموا عصيهم وتهيئوا للقتال، فحرك وأجراه قاصداً جهة أسكيا إسحق. فتلقاه عمركت ومحمد ولد أسكيا الحاج، فرماه عمركت على رأسه بالحريش، فطار الحريش إلى السماء لأجل المغفر الذي في رأسه. فقال: ولدي عمركت أنت الذي رميتني بالحديد؟ فقال له: تنكر، وهو كلمة يعظم بها بلمع وكرمن فاري، ما كان منا أحد إذا جعله أسكيا في مرتبتك هذه الآن أن يصلحها. فانكسر قلبه فرجع إلى مقامه. ثم لم يزل يقاتل وأصحابه مع جيش أسكيا طول ذلك اليوم حتى انهزم. فولى هارباً إلى تنبكت. فرجع أسكيا إلى داره. ثم اتبعه الرجال، وأمرهم بقضبه أينما سلك.

وأما أهل تنبكت فلم يكن عندهم خبر بما جرى بينهم، إذا جاءهم بلمع سالك بنفسه يوم الأربعاء الثامن والعشرين من جمادي الأولى المذكور وأخبرهم بانهزام جيشه. وأخبر أنه بينما هو يوم الجمعة في كنب كري إذ سطع عليهم غبار عظيم من جيش عظيم لأسكيا إسحق، فالتقوا واقتتلوا من الضحى إلى وقت الغروب، فمات بينهم خلق كثير فحينئذ ولّيت مدبراً مع هنبركي وبركي وباغن فاري بكر، وكلهم مجروحون سوى باغن فاري وحده.

ثم جاء سالك إلى تندرم فقطع البحر إلى جهة كرم، ومعه هنبركي منس وابن فرم دك. فلحقهم الرجال الذين في إثره، فقبضوهم فجاؤوا بهم إلى كنت، وقتلوا سالك وابن فرم دك فيها بأمره، ودفنوهما في مجاروة بنكن وهادي والقبور الأربعة هنالك

معروفة. وأما هنبركي فجاؤوا به إلى عند أسكيا، فجعله في سنكور، وخيّط عليه جلد بقر وجعله في حفرة في إصطلبه طولها قامتان فردمت بالتراب حياً فمات منها، والعياذ بالله من غلبة الرجال.

وأرسل مراسيله إلى تنبكت في قبض مغشرن كي تبرت وتنبكت كي أبكر وأمرهم أن يقوموا هنالك. أما الكيد بن حمزة فقد عفى عنه لأنه تاجر مسكين فضولي لا عبرة به ولا مبالاة. فقال ولي الله تعالى السيد عبد الرحمن بن الفقيه محمود: لو كمل عفوه فيهما لا عبرة ولو بهما عند قدره.

فلما رجع المراسيل بهما إلى قتلهما، فأخذ يبحث عن أتباع سالك في الفتنة. فقتل كثيراً منهم وسجن كثيراً وضرب كثيراً بالسير المفتول والثقيل.

وأما محمد كي أجي ولد يعقوب فمات تحت الضرب. وأما يعقوب ولد أربند فجيء به بين يديه، فجعل يتكلم بصوت خفي، فقال له وند: ارفع صوتك يا بن مولاي، أهكذا تتكلم بين يدي سالك؟ فرفع صوته حتى جاوز الحد، يريد له البلاء بذلك. ثم ضرب حتى كاد أن يموت، ولم يكن أجله فيها. وسجن ازو فرم بكر بن يعقوب في كبر، فسرحه الباشا محمود بن زرقون. وسجن بركي وكل شاع بكر في موضع واحد، فتسرحا في فتنة الباشا جودار ورجعا لبلادهما وفي سلطنتهما بلا أمر أحد. ثم أتي ببكر بن الفق ذنك، فلما امتثل بين يديه قال له: يا هذا الكيشا الذي ما صاب مقاماً طول عمره الذي يستر شيبه فيه بعمامة! ثم قال: هاتوا كرزي. فجيء به، فقال له: خذه واستر به هذا الشيب السيء. جعل ذلك له إهانة وتصغيراً، وهو ملسن عارف بالشتم والتعييب جداً، فبقي كيشا فقباله.

ثم جيء بكركا منذ سرك ولد كلشع إليه، فقال له: يا شيخاً جوالاً في الفتن ما تخرج في يدي حتى تعدّ لي جميع الفتنة التي دخلت فيها واحداً بعد واحد. فقال ما افتضحت في إحداهن مثل افتضاحي في هذه. فضحك وقال: اذهب معافاً لوجه الله تعالى.

ثم جيء بسعيد مار، وهو ضعيف نحيف جداً متكلم ملسن يأكل أعراض الناس. فلما امتثل بين يديه قال: انظره، إذا أجلس على طرف القضيب يجلس، وإذا غرز لسانه في الحجر يثقبه. أين كنك فرم؟ فجاء وقال: اذهب به وبرّح عليه من أول البلد إلى مؤخره: إن وجده جالساً في وراء دار بت أو لقيه سائراً في البلد نصف الليل أو آخرها فليرمه بالحديد، ودمه هدر، ومن تركه ولم يقتله فقد ترك عدو الله ورسوله صلى الله

عليه وسلم وترك عدوي. فطاف به البلد كما أمر حتى حاذا به الجامع الكبير، جذب نفسه من الربوط الذي في قربيس البراح، فدخل الجامع لطلب الشفاعة. فبلغ الخبر الإمام فمشى إلى عند أسكيا للاستشفاع. فأمر بمجيئه وقال الإمام: أذهب فقد عفوت عنه. وقال للإمام: لا تذهب، وبقيت شفاعة واحدة أريد في حرمتك وفي حرمة الجامع: كما برح علي بهدر الدم، أن يبرح بالعفو فيسمعه الناس جميعاً لئلا يقتلوني باطلاً، وأعدائي كثير في كاغ. فضحك أسكيا وبالغ في الضحك وأمر له بذلك.

فأخذ مرة في هذا البحث حتى أتم مراده في أولئك الجماعة. ثم ولى محمود بن إسماعيل كرمن وجعله كرمن فاري، وجعل أخاه محمد كاغ بلمع، ومحمد هيك بن فرن عبد الله بن الأمير أسكيا الحاج محمد بنك فرم. قد أعطاه الله تعالى وأخاه تنطي برم تلت من الجمال الفائق التي لم ير الراؤون مثلها في أهل سغي أجمع، حتى إذا جاؤوا لتنبكت يتبعهم الناس لرؤية تلك الجمال.

وجعل ينب ولد سابي ول فاري منذ، والحسن تنبكت كي، وأكمظل أخ تدكمرت مغشرن كي، فهو والحسن آخر السلاطين في قومهما في دولة أهل سغي. أما الحسن فدخل في طاعة العرب، وأما أكمظل فلم يدخل فيها حتى توفي.

ثم قتل أخاه ياسي بر بير بن أسكيا داوود ظلماً وعوناً، فسعى به عنده خاصته ياي فرم بان أجي وذكر أنه يطلب السلطنة، وهو من خيار أولاد داوود وأحسنهم خلقاً وأعظمهم عفة ولم يعمل فاحشة قط، وهذا معدوم فيهم بالكلية.

وأما باغن فاري بكر فرجع إلى تندرم ودخل في حرمة الفقيه القاضي محمود كعت أن يشفعه عند أسكيا إسحق، فأنكر عليه ذلك ولده ماربا فتحولت عزمته وخرجوا عامدين كَل، فسكنوا في بلد يقال لها مدينة إلى مجيء محلة الباشا جودار.

ثم توفي دند فاري بكر شبلي أجي في زمنه، وجعل خلفه دند فاري المختار. وتوفي كلشع الذي ولاه أسكيا محمد بان. فجاء كنتي منذ الحسن إلى سغي يطلب الولاية، فبقي فيها إلى أن جاء الباشا جودار وانقلبت الدولة.

وفي سنة السابعة والتسعين بعد تسعمائة غزا إلى نمتنك كفار كرم، فمات منها بنك فرم محمد هيك. فلما رجع إلى كاغ جعل خلفه عثمان در فرن ابن بكر كرن كرن بن الأمير أسكيا الحاج محمد، وهو كبير السن يومئذ جداً. فقال لأسكيا: لو لا أن كرامتك لا ترد لا أقبلها لأجل كبر سني، لأني في أربعين فارساً الذين اختارهم أسكيا إسحق بير في كوكيا لإيصال ابنه عبد الملك لدار الخطيب في كاغ لما أيس من الحياة

في مرض موته. نعم فقد صدق لأن أسكيا إسحق هذا ما زال ما خلف بعد.

ثم غزا في السنة الثامنة والتسعين والتسعمائة إلى تنفن كفار كرم أيضاً. وفي أوائل ذي الحجة المكملة السنة المذكورة توفيت جدتي أم والدي فاطمة بنت سيد علي ابن عبد الرحمن الأنصرية، ودفنت في مجاورة بعلها جدي عزران رحمهم الله تعالى آمين. وفي سنة التاسعة والتسعين والتسعمائة عزم على الغزو إلى كل، وهو في شغل من أمرها إذ ورد خبر بمحلة الباشا جودار. فشغل عنها ونسيها ونبذها وراء ظهره.

ومن حين تولى أسكيا إسحق إلى يوم انهزم جيشه في ملاقات الباشا جودار ثلاث سنين وأربعة وثلاثون يوماً. ومن الانهزام إلى مقاتلته مع الباشا محمود بن زرقون في زرزن ستة أشهر وسبعة أيام. وسيأتي تواريخ ذلك إن شاء الله.

وفي أوائل العام المكمل لألف عزله محمد كاغ وتولى السلطنة على أهل سغي، ولم يمكث فيها إلا أربعين يوماً فقط. فقبضه الباشا محمود وأعزل. ولكن ما عرف كم تأخر إسحق بعد وقعة زرزن إلى يوم عزله محمد كاغ.

تتمة: أما الأمير أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر فأولاده كثير ذكوراً وأناثاً وفيهم من يتسمون على اسم واحد:

منهم أسكيا موسى، وموسى ينبل، وكرى فرم موسى.

وله عثمان ثلاثة: كرمن فاري عثمان يوباب، ومور عثمان سيد، وعثمان كنكر.

وله محمد ثلاثة: مور محمد كنب، ومحمد كدر، ومحمد كري.

وسليمن ثلاثة: سليمن كتنك، وبنك فرم سليمن كنكاك - وهو آخر أولاده في مسجنه الجزيرة المسماة كنكاك، وسليمن كند كري.

وله عمر ثلاثة: عمر كوكيا، وعمر توت، وعمر بوبع.

وله بكر ثلاثة: بكر كور، وبكر سين فل، وبكر كرن كرن.

وعلي ثلاثة: علي واي وعلي كسر، وبنك فرم علي بند كيني، وآخرون.

ومن أولاده أيضاً هار فرم عبد الله، وفرن عبد الله شقيق إسحق بير، وأسكيا إسماعيل، وأسكيا إسحق، وأسكيا داوود، وكرمن فاري يعقوب، والطاهر، ومحمود دنكر، ومحمود دند، وبنك فرم حبيب الله، وبلمع خالد، وياسي، وإبراهيم، وفامع، ويوسف كي، وآخرون.

ومن بناته ويز بان، وويز أم هاني، وويز عائشة كر، وويز حفصة، وعائشة بنكن أم بلمع محمد كرب، وعائشة كر أم بلمع محمد، وعو، وبنش، وحاوداكي أم هنبركي

منس، وحاو أدم بنت تنبار، ومك مور، ومك ماسن، وفراس أم درمكي مانكي، وكبر شقيقة أسكيا إسماعيل، وسف كر، وددل ويانا هسر، وفت هند أم عبد الرحمن، فت أجي، وفت وين، وكرتوجل والدة سيد كر.

أما أبوه فاسمه أبو بكر ويقال له بار. قيل أنه طورنك، وقيل أنه سلنكي، وأمه كسي. إخوانه كرمن فاري عمر كمزاغ، وكرمن فاري يحيى. وأما أخوه عمر فله من الأولاد أسكيا محمد بنكن، وكرمن فاري عثمان تنفرن، وبنك فرم علي زليل، ومحمد بنكن كوم، والفق دنك، وأسكيا موسى.

أمه زار كبر نكي، وهي جارية كبركي أولاً فولدت له ابناً فكان سلطاناً. ثم أصابها الأمير أسكيا محمد الحاج في السبي قبل أن يكون سلطاناً، فولدت له أسكيا موسى. ثم أخذها منه بس كي في المعركة بينهما، فولدت له ابناً فكان سلطاناً في بص.

وأسكيا إسماعيل أمه مريم داب ونكرية. وأسكيا إسحق بير، كلثوم درموية. وأسكيا داوود أمه سان فاري ابنة فاركي. وأسكيا محمد بنكن أمه آمنة كرى. وأسكيا الحاج ابن داوود أمه آمنة واي بردا. وأسكيا محمد بان أمه أمس كار. وأسكيا إسحق زغراني أمه فاطمة بس الزغرانية. والهادي أمه زابير بندا، وكرمن فاري عثمان يوباب أمه كمس ميمنكي. وعثمان تنفرن أمه تات زعنكي. وكرمن فاري حماد أمه أريو أخت أسكيا الحاج محمد الأمير، وأبوه بلمع محمد كري، وأخوه ماسوس والد محمد بنش أجي.

وأما كرمن فاري الأول فعمر كمزاغ، ثم يحيى، ثم عثمان يوباب، ثم محمد بنكن كريا، ثم أخوه عثمان تنفرن، ثم حماد أريو بن بلمع محمد كري، ثم علي كسر، ثم داوود، ثم كشيا، ثم يعقوب، ثم مركن، ثم الهادي، ثم صالح، ثم محمد بن إسماعيل.

وبلمع الأول محمد كري قتله أسكيا موسى حين ذهب إلى منصور، ثم محمد ندمي ابن الأمير أسكيا الحاج محمد، ثم حماد ولد أريو، ثم علي كسر، ثم كشيا، ثم خالد، ثم محمد ولد دل، ثم محمد وعو ولد دعنكاكي، ثم حامد ابن أسكيا داوود عزله أسكيا محمد بان ونفاه إلى جني حتى مات هنالك، ثم محمد الصادق، ثم عمر كمزاغ.

وبنك فرم الأول علي يمر، ثم بل، ثم باركر والد آمنة فاي أم أسكيا الحاج وليس أهلاً لهذه المرتبة، ثم علي كند نكني ابن الأمير أسكيا الحاج محمد أمه مولدة أجر أهل كيس - وليس بناجم عزله أسكيا إسحق وسكن في موالي أمه، ثم بكر بير بن مور ابن محمد بن أسكيا الحاج فأخذه فيها كثيراً، ثم علي مليل العدل، ثم سليمن كنكاك عزله

أسكيا الحاج ونفاه إلى جني حتى مات فيه، ثم محمود بن أسماعيل، ثم محمد هيك، ثم عثمان درفن.

أما أسكيا داوود فله من الأولاد كثير ذكور وأناث، ومن الذكور ستة كلهم اسمه محمد: محمد بنكن، والحاج محمد، ومحمد بان، ومحمد الصادق، ومحمد كاغ، ومحمد سرك أجي. وهارون اثنان: هارون دنكتيا، وهارون فات تراجي. ثم حامد، ثم الهادي، ثم صالح، ثم نوح، ثم المصطفى، ثم علي تند، ثم محمود فراراجي، ثم إبراهيم فصار إلى مراكش، ثم دك ثم إلياس كوم، ثم سحنون، ثم إسحق، ثم إدريس، ثم مارنف أنسا، ثم الأمين، ثم ياسي بربير، ثم سن، ثم سليمن زو، ثم ذو الكفل، وآخرون.

ومن الأناث بت زوجة مغشرن كي محمود بير الحاج بن محمد الليم، وكاسا زوجة جنكي وينبعلي فصارت إلى مراكش وفت زوجة ساتنك، وويز حفصة، وويز أكيينو، وحفصة كيمر. وقد زوج منهم العلماء والفقهاء والتجار وكبراء الأجناد كثيرات.

وأما ابنه كرمن فاري محمد بنكن فله من الأولاد فيما نعلم أربعة ذكور: عمر بير، وعمر كت، وبنب كير أجي، وسعيد فصار إلى مراكش وجُعل أسكيا هنالك وهو فيها إلى الآن.

وأما ابنه أسكيا الحاج محمد فله من الأولاد، فما نعلم ثلاثة أثنان ذكور محمد وهارون الرشيد، فكان أسكيا في دولة العرب. الثالثة أنثى اسمها فت تور فصارت إلى مراكش فمات فيها كما مات الباقون.

الباب الحادي والعشرون

ذكر مجيء الباشا جودر إلى بلاد السودان

وهو فتى قصير أزرق. وذلك أن ولد كرنفل، وهو رجل من خدام أمراء سغي، غضب عليه الأمير أسكيا إسحق بن داوود بن الأمير أسكيا الحاج محمد، فبعثه إلى تغز برسم السجن هنالك، وهو من بلادهم الذي في ملكهم وحكمهم.

فكان من قدر الله وقضائه انطلاقه من ذلك السجن، وهرب إلى مدينة حمراء مراكش عند أميرها الشريف مولاي أحمد الذهبي. ولم يدركه فيها، قد غاب إلى مدينة فاس لتعذيب الشرفاء الذين كانوا فيها، فأعمى أبصارهم، ومات من ذلك كثير منهم: إنا لله وإنا إليه راجعون. جعل ذلك نفاسة على الدنيا، والعياذ بالله.

فكتب ولد كرنفل كتاباً وبعثه له فأخبره بمجيئه وبأخبار أهل سغي وبما كانوا عليه من الأحوال الذمية والطبائع الرذيلة مع ضعف القوة، وحضه على أخذ الأرض من أيديهم.

فكتب الكتاب إلى الأمير أسكيا إسحق بعد ما بلغه كتاب ولد كرنفل وأخبره فيه بمجيئه إليهم وأنه غائب يومئذ إلى مدينة فاس وأنه يرى إن شاء الله كتابه في طي كتابه، ومن جملة ما خاطبه فيه مولاي أحمد أن يسلم له في خراج معدن تغاز وأنه أولى به منه لأنه الحاجز والمانع لهم من الكفرة النصرانيين إلى غير ذلك. فبعث الكتاب مع مرسوله له إلى مدينة كاغ، وهو ما زال في فاس بتاريخ شهر الصفر سنة ثمانية وتسعين وتسعمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، ووقفت على ذلك الكتاب بعينه. ثم إنه رجع منه إلى مراكش، فنزل عليه الثلج في الطريق كاد أن يموت منه، وقطع أيدي كثير من قومه وأرجلهم، وما وصلوا بلدهم إلا في بئس الحال، نسأل الله تعالى العافية من بلائه.

فلم يساعفه الأمير أسكيا إسحق بما طلب من التسليم في ذلك المعدن، بل قبح له الكلام في الجواب وبعث له صحبة جوابه حرشاناً ونعلين من حديد. فلما وصله ذلك عزم على صرف الحملة إليه بالغزو. وفي القابل في شهر المحرّم الحرام فاتح عال التاسع والتسعين بعد تسعمائة بعث المحلة الكبير إلى سغي لقتالهم، فيها ثلاثة آلاف رامياً من بين أصحاب الخيل ورجل، ومعهم من الأتباع ضعفها، كل صنف وأجناس من الصناع والأطباء وغيرهما.

جعل عليها الباشا جودار ومعه نحو عشرة من القياد: القائد المصطفى التركي، والقائد المصطفى ابن عسكر، والقائد أحمد الحروسي الأندلسي، والقائد أحمد ابن الحداد العمري قائد المخازينة، والقائد أحمد بن عطية، والقائد عمار الفتى العلجي، والقائد أحمد ابن يوسف العلجي، والقائد علي بن المصطفى العلجي وهو أول قائد جُعل على بلد كاغ ومات مع الباشا محمود بن زرقون حين قتل في الحجر، ثم القائد بوشيبة العمري، والقائد بوغيت العمري. والكاهيان الكاهية باحسن فرير العلجي على اليمين، والكاهية قاسم وردوي الأندلسي على الشمال. هؤلاء الذين جاؤوا مع جودار من القياد والكواهي.

فأخبرهم بخروج ذلك الأرض من مملكة السودان وبمقدار ما يملكه جيشه ذلك فيه على حسب ما يقف عليه في الخيور. فتوجهوا إلى أهل سغي.

فلما بلغهم خبر هذه المحلة جمع الأمير أسكيا إسحق قياده وكبراء مملكته في الرأي والتدبير. فكلما أشاروا إليه من الرأي السديد يرمونه وراء ظهرهم، لما سبق في سابق علم الله تعالى الذي لا رادّ لقضائه ولا معقب لحكمه من زوال ملكهم وانقراض دولتهم.

ووجد الحال أن حم ابن عبد الحق الدرعي كان في كاغ حينئذ، جاء لرسم السفر. فأمر الشيخ أحمد تويرق الزبيري الأمير إسحق بقضبه وسجنه، وهو عامل على تغز لأهل سغي، وزعم أنه ما جاء لكاغ إلا لأجل التجسس للأمير أحمد الذهبي. فسجنه الأمير إسحق ورافع وأحمد نين بير والحروشي والد أحمد الأمجد،

حتى وصلوا البحر عند قرية كربر فنزلوا هنالك وعمل الباشا جودار سفرة كبيرة لإطعام الطعام فرحاً لوصولهم البحر سالمين لأن ذلك أمارة ظفرهم بمرادهم ونجحهم لسعيهم من عند أميرهم، وكان ذلك يوم الأربعاء الرابع من جمادي الأولى في العام التاسع والتسعين بعد الهجرة كما مر.

وما طرقوا بلد أروان بل جازوا عليها على جهة المشرق ووافقوا بإبل عبد الله ابن شين المحمودي، فأخذ منهم جودار مقدار حاجتهم. فركب وغرب إلى ألأمير مولاي أحمد في مراكش اشتكاء بما ناله منهم من الظلم، وهو أول من أخبره بوصول تلك الحملة البحر. قال أول من سأل عنه الكاهية باحسن. فقال: لعل لاحسن على خيرب. ثم سأل عن القائد أحمد بن الحداد والباشا جودار، وكتب له أن يعطوه قيمة ما أخذوا من إبله.

ثم نهضوا من ذلك المكان فتوجهوا إلى بلد كاغ فتلقاهم الأمير أسكيا إسحق في موضع يقال له تنكندبع وهو في قرب تندبي في اثني عشر ألفاً وخمسمائة من الخيل وثلاثين ألفاً من أرباب الرجل. ولم يلتئم العسكر لأنه أهل سغي ما صدقوا بخبرهم حتى نزلوا على البرح.

فاقتتلوا هنالك يوم الثلثاء السابع عشر من الشهر المذكور فكسروا جيش أسكيا طرفة عين. وممن مات من الأعيان من أهل الخيل ساعتئذ فندنك بوب مريام صاحب ماسنة المعزول، وساع فرم علي جاوند، وبنك فرم عثمان درفن بن بكر كرن كرن ابن الأمير أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر، وهو كبير السن جداً يومئذ، جعله الأمير أسكيا إسحق بنك فرم لما مات بنك فرم محمد هيك في غزوة نمنتك كما مر.

ومات كثير من كبراء أهل الرجل يومئذ. لما انكسر العسكر طرحوا جروقهم على

الأرض وقعدوا عليهم متربعين حتى وصلهم جيش جودار، وقتلوهم صبراً على تلك الحال، لأن من شأنهم عدم الفرار عند الانكسار. وأخرجوا أسورة الذهب التي في أيديهم.

فولى الأمير أسكيا إسحاق وعسكره مدبرين منهزمين، فبعث لأهل كاغ أن يخرجوا منه فراراً إلى وراء البحر من جهة كرم، وبعث بذلك أيضاً لأهل تنبكت. فجاز على حاله، وما طرق كاغ، إلى كري كرم، فنزل فيها بتلك العسكر. فكان بكاء ونوحاً فيها، وارتفعت الأصوات بذلك ارتفاعاً عظيماً. وشرعوا في الخروج واقتطاع البحر في القوارب بالمشقة والازدحام، فغرق كثير من الناس في ذلك البحر وماتوا، وضاع من الأموال ما لا يحصيه إلا الله سبحانه.

وأما أهل تنبكت فلم يمكن لهم الخروج والفرار إلى وراء البحر لأجل المشقة وثقل الحال، ولم يخرج إلا تنبكت منذ يحيى ولد بردم والذين معه فيها من خدام أسكيا، فنزلوا إلى الكف يند موضع بقرب بلد توي. فجاز الباشا جودار بتلك المحملة إلى كاغ، ولم يبق فيها من سكانها إلا الخطيب محمود درامي وهو شيخ كبير يومئذ والطلبة ومن لم يقدر على الخروج والهروب من التجار. وتلقاهم الخطيب محمود المذكور بالترحيب والإكرام وأضافهم ضيافة فاخرة كبيرة، وجرى بينه وبين الباشا جودار كلام وحديث طويل، وبالغ في تعظيمه وإكرامه. ثم إنه رام الدخول في دار الأمير أسكيا إسحاق، فأمر بإحضار الشهود فحضروا له، ودخل معهم فيها. فلما طالعها وعاينها وعلم ما فيها حقرها.

وبعث له الأمير إسحاق أنه يصالح معه على مائة ألف ذهب وألف خديم يعطيها للأمير مولاي أحمد على يده ويرجع الجيش إلى مراكش ويسلم له في أرضه. فبعث له أنه عبد مأمور لا تصرف له إلا بما أمر مولاه السلطان، فكتب له بذلك هو والقائد أحمد بن الحداد مع اتفاق كافة تجار بلده، بعد ما أخبره في كتابه ذلك أن دار شيخ الحمارة في الغرب خير من دار أسكيا التي طالعوها بعثه صحبة علي العجمي وهو بشوظ يومئذ.

فرجع هو إلى تنبكت مع أولئك الجيش لينتظر الجواب، ولم يتأخر في كاغ إلا سبع عشر يوماً والله تعالى أعلم فوصلوا إلى مس بنك يوم الأربعاء آخر يوم من جمادي الثانية. ثم ارتحلوا منها يوم الخميس أول يوم من رجب الفرد. ونزلوا خارج بلد تنبكت من جهة القبلة وتأخروا هنالك خمسة وثلاثين يوماً. فأرسل الفقيه القاضي أبو حفص

عزر بن ولي الله تعالى الفقيه القاضي محمود يحم المؤذن ليسلم له عليه، ولم يضيفهم بشيء كما أضافهم الخطيب محمود درامي عند وصولهم مذينة كاغ. فغضب من ذلك غضباً شديداً فنشر له أنواع الفواكه التمر واللوز والسكر كثيراً وألبسه دائرة ملف أحمر سكرلات. فلم يحسن أرباب العقول الظن بذلك، فصار الأمر على ما ظنوا.

ثم إنهم دخلوا في داخل المدينة يوم الخميس السادس من شعبان المنير. وطافوا في المدينة وطالعوها، ووجدوا أكبرها عمارة حومة الغدامسيين. فاختاروها للقصبة وشرعوا في بنائها، وأخرجوا أناساً في ديارهم في تلك الحومة.

وأخرج الباشا دودار حم ابن عبد الحق الدرعي من السجن وجعله أميناً بأمر السلطان مولاي أحمد. وأما رافع وأحمد نين بير فمانا قبل وصول جودار لكاغ. وجعل للمرسول بشوظ علي العجمي في المعاد الذهاب والرجوع أربعين يوماً.

فوجدت هذه الممحلة أرض السودان يومئذ من أعظم أرض الله تعالى نعمة ورفاهية وآمناً وعافية في كل جهة ومكان ببركة ولاية الأسعد المبارك أمير المؤمنين أسكيا الجاد بن أبي بكر بن عدله وشدة حكمه الشامل العام الذي كما يهفذ في دار سلطنته كذلك ينفذ في أطراف ملكته من حد أرض دند إلى حد أرض الحمدية ومن حد أرض بندك إلى تغز وتوات وما في أحوازهم، فتغير الجميع حينئذ، وصارت الأمن خوفاً والنعمة عذاباً وحسرة والعافية بلاء وشدة. ودخل الناس يأكل بعضهم بعضاً في جميع الأمكنة طولاً وعرضاً بالإغارة والحرابة على الأموال والنفوس والرقاب. فعم ذلك الفساد وانتشر وبالغ واشتهر. فأول من بدأ فيها سنب لمد صاحب دنك، فأهلك كثيراً من بلاد رأس الماء، وأكل أموالهم على الإطلاق، وقتل من قتل وكسب من كسب من الأحرار. وكذلك الزغرانيون اتلفوا بلاد بر وبلاد درم كذلك. وأما أرض جني فقد اتلفها كفار بنبر شرقاً وغرباً يميناً وشمالاً اتلافاً قبيحاً شنيعاً، وخربوا جميع البلادات ونهبوا جميع الأموال، واتخذوا الحرائر جواري وتناسلوا معهم، فكانت الذراري مجوسيين والعياذ بالله. وكل ذلك على يد شاع مكي وقاسم ولد بنك فرم علو زليل بن عمر كمزاغ وهو ابن عم باغن فاري، وبهم ولد فندنك بوب مريام الماسني.

ومن رؤساء أولئك الكفرة يومئذ الذين يسوقهم مع هؤلاء الفاسدين القطاعين بنس سام في أرض فدك وقاي فاب في أرض كوكر، هؤلاء في جهة كل. وأما في جهة شيلي وجهة بندك فسلتي سنب كس الفلاني في قبيلة وررب وسلتي يربر والد حمد سول والفلاني في قبيلة جلوبي الكائنين في ناحية فرمان، ومنس مغ ولي والد كنع كي

أحد اثني عشر سلاطين بندك كما كانوا في أرض كل كذلك وبنكون كند إلى غير ذلك.

وذلك الفساد يجدد ويزداد إلى هلم جرا. ومن حين تولى الأمير أسكيا الحاج محمد ملك أرض سغي، ما قصدهم أحد من أمراء الآفاق بالغزو إليهم من القوة والمتن والنجدة والشجاعة والمهابة التي خصهم الله تعالى بها، بل هم الذين يقصدون الأمراء في بلدانهم فينصره الله عليهم غير ما مر، كما مر في أخبارهم وفصصهم، إلى قرب انقراض دولتهم وزوال مملكتهم، بدّلوا نعم الله كفراً وما تركوا أشياءً من معاصي الله تعالى إلا ارتكبوها جهراً من شرب الخمور ونكحة الذكور. وأما الزنى فهو أكبر عملهم حتى رجع بينهم كأنه غير محظور ولا لهم فخر وزينة إلا بها، وحتى يفعلها بعض أولاد سلاطينهم بإخوانهم.

وقيل أنه حدث في آخر مدة السلطان العدل أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد، وولده يوسف كي هو الذي أبدعه. فلما سمعه غضب غضباً شديداً، دعى عليه أن لا يصحبه ذكره إلى دار الآخرة. فأجاب الله تعالى دعوته فيه فانقطع منه بعلة والعياذ بالله. ثم إن الدعوة نالت ابنه أربند والد ينكي يعقوب، فانقطع ذكره كذلك في آخر عمره بتلك العلة.

ولهذا انتقم الله سبحانه منهم بهذه المحملة المنصورة، فرماهم بها من مسافة بعيدة ومكابدة شديدة فاجتثت عروقهم من أصلها، ولحقوا بأصحاب العبرة وأهلها.

ولنرجع إلى الكلام في تمام ذلك الصلح. فلما بلغ المرسول بشوظ علي العجمي عند السلطان مولاي أحمد، وهو أول من أتاه بخبر أرض السودان، وقرأ ذلك الكتاب غضب غضباً شديداً. عزل جودار ساعتئذ، وبعث محمود بن زرقون باشا بثمانين رامياً، كاتبهم مامي ابن برون، وشاوشهم علي بن عبيد. وأمره بطرد إسحاق من أرض السودان وقتل القائد أحمد بن الحداد العمري، حيث اتفق مع جودار على ذلك الصلح. وكتبه في الكتاب معه إلى الجيش.

ثم إن الشريفات وعظماء أهل داره رغبوا في القائد أحمد بن الحداد فعفي عن قتله، وطلبوا منه أن يكتبه. فكتبه أيضاً فسبق كتاب العفو إلى عند القائد أحمد بن الحداد، فعمل السفرة وأحضر فيها الكواهي والبشوظات، وأخبرهم بما جرى، فأعطى لكل واحد من الكواهي مائة مثقال مائة مثقال، وأعطى الباشوظات ما أعطاهم. فعاهدوه جميعاً أن لا يصيبه مكروه حيث سبق كتاب العفو. وفي العشية وصل كتاب القتل، فحالوا بينه وبين الباشا محمود بن زرقون، وأنقدوه منه بحكم الطريق العادية.

ووصل مدينة تنبكت يوم الجمعة السادس والعشرين من شوال عام تسع وتسعين وتسعمائة، ومعه القائد عبد العالي والقائد حم بركة. فعزل جودار ساعتئذ وتحول الجيش معه، وبالغ له في الملامة والانكار عليه حتى قال له: أي شيء منعك من اللحوق إلى إسحاق. فاعتلّ له بعدم القوارب. ولذلك شرع في صنع القوارب. ولما لم يجد السبيل إلى قتل القائد أحمد بن الحداد، عزله وجعل مكانه القائد أحمد ابن عطية، لأجل العداوة التي طرأت بينهما. والقائد أحمد ابن الحداد حبيب الباشا جودار، فعل به الباشا محمود بن زرقون ما فعل مغيظة لجودار.

ثم إن محموداً عزم على الحركة إلى إسحاق أسكيا، فاشتغل بإصلاح القوارب، لأن صاحب المرسى منذ الفع ولد زرك هرب بجميع القوارب إلى ناحية بنك لما بعث إسحاق أسكيا لأهل تنبكت بالارتحال. فقطعوا جميع الأشجار الكبار الذين كانوا في داخل مدينة تنبكت ونجروا منها الألواح وغصبوا الدفوف الغلاظ الكبار الذين كانوا في أبواب الديار وركبوا منهم قاربين. وأنزلوا الأول في البحر يوم الجمعة الثالث من ذي القعدة الحرام في العام المذكور. ثم أنزلوا الثاني في البحر يوم الجمعة أيضاً سابع عشر من الشهر المذكور.

فبرز الباشا محمود مع الجيش كله يوم الاثنين العشرين من الشهر المذكور، ومعه الباشا جودار المعزول وجميع القياد ما خلا القائد المصطفى التركي. فخلفه محمود على تنبكت مع الأمين حم حق الدرعي. ونزل خارج البلد من جهة القبلة، وتأخر هنالك بقية الشهر. ثم ارتحل منها يوم السبت الثاني من ذي الحجة الحرام المكمل للعام التاسع والتسعين وتسعمائة ونزل في مس بنك. ثم ارتحل منها ونزل في سينك، فتأخر فيه حتى صلى عيد الأضحى. ثم صرف للقاضي أبي حفص عمر أن يبعث له من يصلي بهم العيد، فبعث له الإمام سعيد بن الإمام محمد كداد، فصلى بهم هنالك هذا العيد، فرتبه إماماً يصلي في جامع القصبة إلى أن توفي رحمة الله عليه.

ثم توجه إلى إسحاق أسكيا للمقاتلة. فسمع هو به وهو في برن يومئذ، فنهض للقائه والتقوا في بنب يوم الاثنين الخامس والعشرين من الشهر المذكور، واقتتلوا يومئذ عند نبكة زرزن. فهزمه الباشا محمود أيضاً، فولى مدبراً منهزماً. ومن مات من عسكره يومئذ فار منذ ينب ولد ساي ول، وأمه من بنات الأمراء، وجعل خلفه سن ولد أسكيا داوود، فهذا آخر توليته. فتوجه نحو أرض دند، فنزل في كري كرم. وقد أصاب الرصاص بلمع محمد كاغ ابن أسكيا داوود عند المطاردة فأمرضه، وأمره إسحاق

أسكيا بالرباط في موضع، وأمر باركي ملك بمثله في موضع آخر، وأمره بالغارة على الفلانيين الكائنين في أنسع، فغار عليه.

ومع باركي ملك المذكور جماعة من إخوة إسحاق المذكور في موضع الرباط قد عزلهم من مراتبهم في غزوة تلفي لجبن ظهر فيهم يومئذ. فكتب لباركي أن يقبضهم خوفاً من الهروب إلى الأعداء. ففطنوا لذلك وهربوا إلى جهة كاغ، منهم علي تند ومحمود فرار أجي وبرهم وسليمن وغيرهم من أولاد أمير أسكيا داوود. فتبعهم الباشا محمود بن زرقون مع جيشه حتى وصل كوكيا نزل هنالك.

ولما ولى إسحاق أسكيا راجعاً عند الهزيمة الثانية بعث مرسوله إلى مدينة تنبكت، فوصله ليلة السبت أول ليلة من المحرّم فاتح العام المكملة للألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة، وأتم التسليم وأخبر بما جرى بينه وبين الباشا محمود.

وأدرك أن تنبك منذ يحيى ولد بردم أتى بمن معه من أتباعه والزغرانيين أهل يرو لقتال القائد المصطفى التركي. فوصلوا تنبكت يوم الخميس الحادي والعشرين من ذي الحجة الحرام مكمل عام تسعة وتسعين وتسعمائة. وقيل أنه حلف بدخول القصبة من باب كبر والخروج من باب السوق، وهو من أحمق الناس وأجهله. فلما قرب تحت برج القصبة ضرب بالرصاص فمات عشية ذلك اليوم، وقطع رأسه وطيف به في خشبة في المدينة ساعتئذ، وينادي المنادي معه: يا أهل تنبكت هذا رأس منذ متاع بلدكم، ومن لم يقعد عند روحه هكذا يفعل به. وجعل الرماة يحمروهم وجوههم بالشر ويجردون الناس بسيوفهم كل ساعة فاستوقدت نار الفتنة.

ولنرجع إلى تمام الكلام فيما جرى بين الباشا محمود بن زرقون وبين أهل سغي في تلك الجهة. فلما نزل بلد كوكيا، ومعه مائة وأربعة وسبعون قباوات في كل قباء عشرون رامياً، ونهاية جملتهم نحو أربعة الأفف رماة - وذلك جيش عظيم لا يقابله ويهزمه إلا من نصره الله تعالى وأيده - بعث الأمير أسكيا إسحاق ألفاً ومائتين فرساناً من خيار عسكره الذين لا يولون الأدبار، وجعل عليهم هيكي لهَ سركيا، وهو قد بلغ الغاية والنهاية في النجدة والشجاعة، وأمره أن يقع عليهم إذا وجد فيهم غزة.

فبعد انفصالهم مع أسكيا قليلاً لحقهم بلمع محمد كاغ في نحو مائة فارس، فسأله هيكي: مم هذا الالتحاق؟ فقال: أسكيا هو الذي اتبعني إياك. فقال له: هذا كذب وبهتان لما هو معروف عند الخاصة والعامة أن بلمع لا يكون تابعاً لهيكي، كلا وحاشا،

وما ذلك إلا عادتكم القبيحة وطبيعتكم الشنيعة، يا أولاد داوود، من الحرص على الأمرة. فتنحى عنهم هيكي لهَ مع أناس من خاصته.

ثم دود كور ولد بلمع محمد دل كبرانكي خرج من بين أولئك الجماعة متحيزاً إلى نحو هيكي، فقال له: يا دود تريد أن تقتلني كما قتل أبوك هيكي موسى لأسكيا داوود؟ لا تقدر عليه، ولا تقدر عليه لأني خير من هيكي موسى شدة، وأبوك خير منك، فوالله إن دنوت مني لجررت مصارينك في الأرض. فكر راجعاً إلى تلك الجماعة.

فازداد الناس علماً لشدة هيكي له ونجدته حيث أقرانه خير من هيكي موسى في النجدة، لأنه من أشجع الناس في زمنه. فرجع له إلى أسكيا إسحاق وأخبره بما جرى. فمن قليل بايع أولئك الجماعة محمد كاغ وجعلوه أسكيا. فتجهز إسحاق للذهاب إلى ناحية كب. فلما عزم قبض كبراء الجند الذين اتبعه جميع ما عنده من عُدد السلطنة وآلاتها، وشيعوه إلى منضع يقال به تار. فتفارقوا معه هنالك يستغفر منهم ويستغفرون منه، فبكي هو ويبكون. فهذا آخر العهد بينهم.

ثم توجه إلى تنفني عند كفار كرم بقدرة البارئ تعالى الذي لا راد لأمره ولا معقب لحكمه، وقد قاتلهم العام الماضي، وما تبعه أحد من أهل سغي إلا ياي فرم بان أجي وقليل من خاصته. فلم يستأخر عندهم إلا قليلاً فقتلوه وابنه وجميع من معه. فماتوا شهداء رحمهم الله وعفى عنهم.

ومن أخلاقه الكرم والتصدق بالأموال الكثيرة، وطلب الدعاء من العلماء والفقراء لأن لا يميته الله تعالى في السلطنة. فبلغه الله تعالى ذلك المأمول. وكان موته والله أعلم في جمادي الآخر في العام المكمل للألف.

الباب الثاني والعشرون

ذكر أسر الأسكيا محمد كاغ

ثم رجع الجيش إلى عند أسكيا محمد كاغ، وتم له البيعة. ثم بعث في إطلاق أخويه فار منذ كف وبنتل فرم نوح ابني أسكيا داوود، قد سجنهما أخوهما أسكيا محمد بان في أرض دند.

فشرع إخوتهم من أولاد أسكيا داوود يهربون إليهم. فأول من هرب إليهم منهم دعَي فرم المعزول سليمن ابن داوود أسكيا. فأتى الباشا محمود فقبله. وخاف من ذلك أسكيا محمد كاغ، فبعث له في طلب ذلك البيعة للسلطان مولالي أحمد، وكاتبهم بكر

لنبار هو الذي بعثه إليه، فأنعم له.

ثم إن المجاعة دخلت في محلته حتى أكلوا دوابهم، فبعث لأسكيا محمد كاغ أن يغيثهم بالطعام أينما كان. فأمر بحصاد ما صلح هنالك من الزرع في جهة حوص، وهو الذرة الأيض، فبعثه لهم.

ثم إن الباشا محمود بعث له أن يأتي عنده لأخذ البيعة. فعزم على ذلك، ونهاه عنه أصحاب الرأي من قومه، منهم هيكي له، فقال: لا أؤمنهم أنا، وإن عزمت على المجيء إليهم ولا بد اجعل ذلك وحداناً وحداناً إن شئتم، سبقتكم إليهم وحدي، فإن قتلوني لا يضركم بشيء، أكون لكم فداءً، وإن نجوت يسير بقية الجماعة كذلك حتى تسير أنت آخرهم، ولا يقدرون إذاً أن يمسكوك بسوء لأن ذلك لا ينفعهم بشيء.

فلم يصوب الرأي الكاتب بكر لنبار المذكور، فساروا إليهم جميعاً فلما. قربوهم بعث أسكيا محمد كاغ من يستأذن لهم. فبعث الباشا محمود نحو أربعين رجلاً من أعيان الجيش وكبرائهم للقائهم بلا عدة ولا سلاح. فأشار إليه هيكي لهَ بقتلهم فقال: هؤلاء الأعيان إن أفنيناهم لم يبق منهم من له شوكة. فتهيأ أسكيا محمد كاغ لذلك. فلما رآه الكاتب المذكور حلف لأسكيا أنه ليس عند الباشا محمود إلا الأمان التام بعهد الله وميثاقه. فسمع له ذلك وعمل عليه.

فلما دنوا منه سلموا عليه، وبلغوا له سلام الباشا محمود وأنه يرحب به. فتقدموا قدام أسكيا وأصحابه، وقد أحضر لهم شبائك الخداع والغدرة وأحضر لهم المآكل الطيبات. فلما شرعوا في الأكل قبضوه ومن دخل معه عند الباشا محمود في القباء وجردوهم من أسلحتهم.

ولما فطن ممن كان وراء الأقبية من أهل سغي هربوا، ومن قدر الله تعالى سلامته سلم وبلغ المأمن عند أصحابهم، ومن وفي أجله قتل بالرصاص وبالسيف. وممن سلم ساعتئذ عمر كت بن كرمن فاري محمد بنكن بن الأمير أسكيا داوود، طلع على حصان أسكيا محمد كاغ فهرب ونجا بقدرة الله تعالى بعد ما رموه بالرصاص كثيراً، وهارون دنكتيا بن الأمير أسكيا داوود هرب ونجا، وجرح اثني عشر نفرة بالسيف فرمى نفسه في البحر وقطعه بالعوم، ومحمد سرك أجي بن الأميرأسكيا داوود وغيرهم.

أما أسكيا محمد كاغ فقيد في الحديد، وقيد معه ثمانية عشر رجلاً من رؤسائه، منهم هيكي له، وكرمن فاري محمود بن الأمير أسكيا إسماعيل بن الأمير أسكيا الحاج محمد، وفار منذ سن بن الأمير أسكيا داوود، ودند فاري المختار، وكومكي وغيرهم.

فبعثهم إلى كاغ عند القائد حم بركة، وقد خلفه على ذلك البلد، وأمره بسجنهم في بيت في دار سلطنتهم. ثم بعد ذلك أمره بقتلهم، وطيح عليهم ذلك البيت، فكان قبرهم، إلا هيكي له وحده. فلما دخلوا المدينة امتنع لهم من الذهاب استعدالاً للموت، فقتل هنالك وصلب.

وأما علي تند ومحمود فرار أجي ابنا الأمير أسكيا داوود فوصلا في هروبهم كاغ، فأتيا الخطيب محمود درامي فسلما عليه. فسألهما عن سبب مجيئهما. فقالا الدخول في طاعة الباشا محمود. فأنكره عليهما، وأمرهما بالرجوع إلى عند إخوتهما وقومهما. وقالا إن كان والدهما حياً لا يتبعوه رأيه، فأحرى غيره. وأتيا القائد حم بركة وأخبراه بذلك، فكتب للباشا محمود خبرهما، وأمره بثقافهما. فلما قبض أسكيا محمد كاغ بعث له في قتلهما، فقتلهما.

وأما سليمن بن الأمير أسكيا داوود فقيدوه مع المقبوضين. ثم كلمه أهل الرأي فسرحه وبقي عندهم مع أناس قلال، منهم باركي بلك، ومحمد ولد بنش، ومحمد ولد موركي أمه بنت الأمير أسكيا داوود. وأما محمد ولد بنش وهي اسم أمه من نسل عمر كمزاغ، وأما أبوه فهو محمد بن ماسوس بن بلمع محمد كري، وغيرهم. وأكرم الباشا محمود سليمن غاية الإمكرام حتى جعله أسكيا عليهم. وجملة ما قبض الباشا محمود مع أسكيا محمد كاغ ثلاثة وثمانون رجلاً ما بين أولاد الأمراء وغيرهم. والمحلة في تنش يومئذ، وهو اسم موضع في قرب بلد كوكيا.

وقيل أن الأمير أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر لما غلب على سن علي وتولى السلطنة قبض من أولادهم وخدامهم مثل هذه العدة في هذا الموضع بعهد الله في الأمان. ثم إن الله تعالى القوي القادر اقتصّ منه كذلك جزاء ووفاقاً. وقيل أن أسكيا محمد كاغ ما استأخر في الدنيا بعد وفاة أسكيا إسحاق إلا أربعين يوماً. فاجتمعوا في الآخرة سبحن الحي الدائم الذي لا زوال لملكه ولا نهاية لديموميته.

وحين بعث محمد كاغ في إطلاق أخويه المسجونين فار منذ المصطفى وبنتل فرم نوح، وهو أصغرهما سناً ونوح أصغر من المصطفى سناً، فرحا فرحاً شديداً وعزما متى وصلا إليه يكرمان شأنه، حتى يمشيا قدامه متى ركب في نعليهما. فتلقيا في الطريق بخبر هذه المصيبة، وهو قبضته مع جماعته، فوليا راجعين إلى أرض دند.

واجتمع عليهما جميع من كان أهل سغي واتفقوا مع نوح أن يولّوا أمرهم فاري منذ المصطفى ليكون أسكيا، ولم يقبل فقال لهم: نوح أفضل وأبرك، والبركة حيثما

جعلها الله تكون، لا تختص بالكبر ولا بالصغر. فبياعوه فكل من توجه إلى جهة أخرى من الهاربين ولوا إليه جميعاً. وبقي لا يتمنى إلا محمد مور ومحمد ولد بنش، وهما ما زالا عند الباشا محمود حتى فرج الله عنهما. فهربا إليه، وهرب باركي ملك. ففرح بهم أسكيا نوح فرحاً شديداً وشكر الله تعالى على وصولهما لديه سالمين، فقال: لم يبق لي المنى حيث اتصل بنا هذان الرجلان.

فجعل الباشا محمود سليمن أسكيا على من بقي معهم من أهل سغي.

وتحدث الناس أن الكاتب بكر لنبار هو الذي غدر محمد كاغ وأصحابه وباعهم للباشا محمود حتى تمكن منهم. فقال لبعض أصحابه في تنبكت لما سكن فيه بعد جميع الوقائع: هذا الذي نسب إلي من الغدرة فوالله العظيم ما كان، وما أخبرت محمد كاغ إلا ما يعلم الله فيّ من النصح اتكالاً وثقة على ما حلف لي محمود في ذلك، وما غدر إلا هو، فغدرني وما غدر محمد كاغ، والميعاد بيننا جميعاً غداً بين يدي الله تعالى.

ثم إن الباشا محمود جهز جيشه فتبع أسكيا نوح إلى أرض دند، فوصل معه موصلاً في ذلك حتى إن أهل الأرض كنتَ يسمع أصوات مدافعهم للمقاتلة بينهم في يوم واحد.

وسكن نوح في أصحابه في أول الحال بلد كعراو آخر بلاد ذلك الأرض ملي إلى حد أرض كنت. ولم يزل الباشا محمود يتبعه بالغزو حتى بنى قصبة في بلد كُلن وأسكن فيه مائتين رامياً، وأمر عليهم الفتى القائد عمار. ومكث في تلك الناحية عامين كاملين غازياً. وجرت بينهما هنالك وقائع كثير شداد.

وكان يتبع نوحاً في يوم واحد حتى وصل مع جيشه بطحاء واسعة كبيرة جداً، وهم يسيرون في الطريق فانتهوا إلى غابة عظيمة كثيفة، والطريق نافذ في تلك الغابة. فقبض الكاهية باحسن فريد عنان فرسه واقفاً، وهو قسيس حكيم، فبعث إليه الباشا محمود أيش هذا وقوف، وهو يغضب ويصيح ويلومه بالجبن والرعب. فلما دنا إليه قال له: والله إن علمت شعرة واحدة في جسدي بالخوف والرعب لنتفتها منها، ولكن لا أقتحم بجيش مولانا السلطان نصره الله خطراً وغراراً. وأمر أن يرموا الغابة بالدرباش. فلما رموها جعل الرجال يخرجون منها هاربين، ومات منهم كثير بالرصاص.

وأسكيا نوح هو الذي كمنهم فيها لهم حيث علم أنه لا مشرع لهم غير ذلك الطريق ليفتكوا بهم غيلة. فنجاهم الله تعالى من كيده وخديعته بسبب فراسة الكاهية باحسن فريد المذكور. فولجوا الغابة حينئذ وجاوزها بالسلامة. وكانت بينهما في ذلك

الأرض معارك هائلة كثيرة. ونال منهم أسكيا نوح مع قلة أتباعه ما لم ينل منهم إسحاق أسكيا مع كثرة أتباعه ولو بعشر العشر.

ومات من أصحاب الباشا محمود يوم برني ثمانون رجلاً من خيار أرباب الرجل. وحدثني من أثق به أن محموداً جاء يطالع على الموتى بعد ما تفارقوا فأمر بحل حزامهم التي تحت بطونهم فأخرجت دنانير مطبوعات في حزامهم أجمعين، ورفع الباشا محمود الجميع لنفسه.

وقد تضرروا من طول ذلك المكث في ذلك الأرض تضرراً فادحاً عظيماً من كثرة التعب وامتداد الجوع والتعري والمرض من وخم الأرض. وضرب ماؤه كروشهم وأجراها، ومات منهم كثير منها من غير موت المقاتلة.

فأول الحال أسكيا نوح هو الذي يقود جيشه بنفسه للقتال وفي آخر الحال ولاه لمحمد ولد بنش، فكان نصر القتال على رأسه، وله في ذلك أخبار مشهورة وحكايات كثيرة. ولما طالت المشقة على الباشا محمود في تلك الناحية كتب للأمير مولاي أحمد مشتكياً بما نالهم من مقاسات الشدائد، وأن جميع خيله ماتوا.

فصرف نحو ست محلات، واحدة بعد واحدة، التحقت الجميع بهم في تلك الجهات. منهم محلة القائد علي الراشدي، ومنهم محلة القياد الثلاثة القائد بن دهمان، والقائد عبد العزيز بن عمر، والقائد علي بن عبد الله التلمساني. ومنهم محلة القائد علي المشماش وغيرهم. وبعد ذلك كله رجع محمود لتنبكت وما ظفر بالمراد في نوح.

ولنرجع إلى تمام الكلام في الفتنة التي قامت بين أهل تنبكت وبين القائد المصطفى التركي بعد موت تنبكت منذ يحيى. ولما كثرت الجراحات في الناس من الرماة اشتكى الأعيان بذلك لدي الفقيه القاضي أبي حفص عمر بن ولي الله تعالى الفقيه أبي البركات القاضي محمود ابن عمر، فشاور أصحاب الرأي في ذلك. فمنهم من أشار إلى دفعهم بالقتال إن أدى الحال إلى ذلك، ومنهم من أشار إلى الكف والإمساك، وضررهم لا يزداد إلا كثرة.

بعث القاضي عمر أَمَر خديم الشرع، وهو من أفسق الناس في وقته، ولا علم عند القاضي عمر به، إلى شيخ المولدين عمر الشريف سبط الشريف أحمد الصفلي بليل أن يبرح ساعتئذ أن لا يفرط الناس في أرواحهم ويأخذوا الحذر من هؤلاء الناس. فبدل قوله وقال: يأمركم القاضي بالقيام بالجهاد فيهم. فبرح بذلك في تلك الليل وأصبح الناس متحزمين للقتال مع القائد المصطفى. فابتدأ في أوائل المحرم الحرام

فاتح عام مكمل الأفل، واستمر إلى أوائل الربيع الأول. فمات بينهم في أولئك الأيام من قدر الله تعالى أجله فيها، فمنهم ولد كزنفل الذي تسبب في مجيء محملة جودار، وجاء معه في تلك المحلة، وبقي في تنبكت مع القائد المصطفى. فقتله أهل التنبكت في ذلك القتال.

فجاء أوسنب التاركي مغشرن كي لمعاونة المصطفى مع أصحابه. فحرقوا جميع البلد بالنار، وذلك في يوم الجمعة الرابع عشر من ذلك الشهر. ثم عاد بذلك غداً فكان يوماً شديداً على أهل تنبكت، وقاربوا ديار القاضي عمر بالحريق. فجاءت واحدة من بناتهم تعدو فقالت له: وصل أوسنب بغزوه إلى باب دار ألفع عبد، وهو أخوه الفقيه عبد الله بن الفقيه القاضي محمود. فقال لها: الله تعالى يعطيه غزواً في باب داره ويسلط عليه أدنى الناس يفتضح به كما افتضح بنا.

فاستجاب الله دعاءه، فجاءت غزوة توارق كلميني إلى باب خيمته، فدخل عليه واحد منهم فقتله في داخل الخيمة، وهو أدناهم، وذلك في يوم الأحد الثاني والعشرين من شوال عام خمسة بعد الألف. وهو نشأ في ديارهم وقرأ عليهم وكبر عندهم حتى كان واحداً من أولادهم. ثم صار إلى ما صار إليه من الغدرة والخيانة، والعياذ بالله من النفاق وسوء الخاتمة.

وكانت وقعة الجامع الكبير يوم الخميس الرابع من صفر الخير. وخرج الناس لكسر الديار ليلة الأربعاء الرابعة والعشرين من الشهر المذكور. وجاء باري شيغ يوم الجمعة السادس والعشرين منها في أمر المال الذي اصطلح عليها أسكيا مع جودار، وخرج من أمراغ إلى تنبهون يوم الخميس التاسع من الربيع النبوي.

وبلغ الباشا محمود خبر ما جرا بين أهل تنبكت وبين القائد المصطفى من القتال، وأنهم حاصروه مع أصحابه في القصبة، أرسل بذلك القائد المصطفى مع مالك والد محمد در. فبعث القائد مامي بن برون في ثلاثمائة وأربعة وعشرين رامياً، اثنان من كل قباء، ولا علم عند أحد منهم بذلك حتى وصلوا تنبكت.

فأمره أن يجعل السبيل في أهله وإن يقتلهم عن آخرهم، وهو رجل عاقل لبيب قسيس. فوصلوها ليلة ثانية عشر من ربيع الأول ليلة الولادة. فكان خوفاً عظيماً في البلد، وخرج كثير من الناس رامين أنفسهم في الصحارى والقفار.

فأصلح القائد مامي ما بين القائد المصطفى وبين أهل تنبكت، فكان فرحاً عظيماً للناس، ورجع للبلد كل من خرج منها هارباً. ورجع رئيس المرسى منذ الفق ولد زرك

بجميع القوارب. ودخلوا في بيعة السلطان مولاي أحمد بسبب هذا الصلح. وفتح الطريق إلى الآفاق، ودخل الناس في حوائجهم. ومن أراد السفر إلى جني وإلى غيره مشى إليه.

ثم إن القائد مامي تحرك إلى الزغرانيين أهل يرو، فغار عليهم وقتل رجالهم وأتى بنسائهم وصبيانهم إلى تنبكت وباعوهم بمائتين ودعاً إلى أربعمائة ودع.

ثم بعث القائد المصطفى شاوش واحداً إلى جني في قارب زنك درج لأخذ البيعة من أهله. ووافق وفاة جنكي ويبعلي، فقام بها جني منذ بكرن، وهو حاكم أسكيا على البلد، والقاضي بنب كناتي، وشم وتاكر قائدان من قياد جنكي، وأعيان البلد من الفقهاء والتجار، فكتبوا بقبول تلك البيعة للقائد المصطفى وللقائد مامي.

ثم بعد ذلك بعثا الرئيس عبد المالك وسبعة عشر رامياً لتولية جنكي، فجعلوا إسماعيل بن محمد جنكي، ومكث في السلطنة سبعة أشهر فمات. ومكنهم الله تعالى من الخاسر الأبعد بنكون كند، وهو من المفسدين في الأرض حينئذ. فأتي به إليهم فقتلوه في دار جنكي، ورجعوا لتنبكت.

وأما ويبعلي المذكور، فاسمه أبو بكر بن محمد، مكث في السلطنة ستاً وثلاثين سنة، وتزوج كاس ابنة الأميرأسكيا داوود، فكانت في عصمته إلى أن توفي.

ثم جاء القائد مامي بنفسه إلى جني، ونزل في دار جنكي، وولى عبد الله ابن عثمان سلطنة جني، وأصلح من أمور البلد ما أصلح، فرجع لتنبكت. وتلقى في ذهابه إلى جني مع الحاج بكر بن عبد الله كري السناوي ذاهباً إلى تنبكت في طلب عزل القاضي محمد بنب كناتي، مع اتفاق أعيان مدينة جني، عند القاضي عمر. فنهاه عنه القاضي عمر أشد النهي. فرجع إلى جني وأدرك القائد مامي فيه، فاشتكوا به عنده وادعوا عليه الجور. فعزله مامي المذكور وجعلوه في بيت، وسدوا بابه إلا كوّة التي يمدون له الماء والطعام منها تعذيباً له. والذين يعرفون حقيقة الأمر يومئذ في ذلك البلد من أهل العقول قالوا أن ذلك الدعوى باطل، وولى القضاء القائد مامي واحداً من أهل الغرب اسمه أحمد الفلالي.

فبعد ما رجع لتنبكت جاء باغن فاري بكر ابن أسكيا محمد بنكن من أرض كلَ إلى جني، ومعه ابنه ماربا وابن أخيه شيش وبندك ياو ولد كرسل وورر منذ، في أناس قليل، فنزلوا في قبالة باب زبر، والماء تحت القصر يومئذ. واستأذنوا أهل البلد في الدخول فيه. فلم يقبل جنكي وجبني منذ، وخافوا أن يحركوا عليهم الفتنة. فألّجوا في

طلب الدخول فذكروا أنهم ما جاؤوا إلا لأجل الدخول في بيعة الأمير مولاي أحمد. فبعث لهم أهل جني حبيب ترق بالمصحف وصحيح البخاري أن يحلفوا بهما أنهم ما جاؤوا إلا لذلك. فحلفوا عليه ودخلوا.

فلما باتوا في البلد أول الليلة اجتمع عليهم السفهاء فبدلوا قولهم وتعاقدوا معهم على الرجوع إلى بيعة أسكيا. سمي منهم محمد ولد بنياتي وسرسكر وكنكن دنتور. فبعد يومين أو ثلاثة أيام قبضوا جني منذ بكرن وأكلوا ما في داره من الأموال، وقبضوا القاضي المغربي وحددوهما وبعثوا بهما إلى مدينة بلد من بلاد أرض كلَ، وخربوا البيت الذي فيه الفقيه القاضي محمد بنب، وأخرجوه وأمروه أن يمضي إلى أينما أحب من البلاد، فمضى إلى عند سلطان تعب ومكث هنالك إلى أن توفي، رحمه الله تعالى وعفى عنه بمنه وكرمه. وقيل ليس له شغل في ذلك السجن إلا تلاوة كتاب الله تعالى أناء الليل وأطراف النهار، فظهرت له كرامة يوم خروجه منه، لأنه ما رؤي في ذلك البيت أثر قضاء الحاجة، لا من بول ولا من غائط.

وولوا القضاء يومئذ زور موسى داب، فأثبته أهل المخزن بعد فرارهم. ثم عزموا على قبض أحباب أهل المخزن من التجار وأكل أموالهم. فسجنوا [فسموا] منهم حام سن سكر السناوي، وذكروا أنه الأعظم الأكبر عندهم، فعزموا على ذلك ليلة عند السحر في دارهم. فلما خرج محمد ولد بنياتي وسر سكر من عندهم طرقوا فج مابي جارية حام المذكور، وأخبروها بذلك سراً وأمروها أن تخبره به. فأخبرته به، وأخبر هو أخاه الحاج بكر به. فاحتال في الزويرقة، وخرج بالليل خفية، فتوجه إلى تنبكت هارباً.

وفي غد انكشف خبره، فبعث باغن فاري أناسه في إثره في قارب فنف بامعي فير فير ليردوه إليه. فنادى الحاج بكر الفنف المذكور في داره وأعطاه مالاً لئلا يتعجل في المسير حتى يصل أخوه المأمن، فأنعم له. فلما قاربوا بلد ونزع، على شوفة رأى قاربهم حام المذكور، وهو راسٍ، ثم ساعتئذ دفع بعجلة واجتهد في المسير. فلما وصلوا هنالك سألوا عنه. فأخبرهم واحد تنبكتي قد عامله حام بخير كثير حينئذ أن قاربه دفع هنا في هذه الساعة، إن جزتم لوصلتموه بقرب. فسمع بذلك ونزع مور فأتاهم، فقال لهم: ارجعوا لأن الرماة سمعوا بخبركم فاستأخروا في بلد كنا ينتظرونكم ليقتلوكم، وأخبروا باغن فاري أنا الذي أمرتكم بالرجوع. فرجعوا وكفاه الله تعالى شرهم بسبب ونزع مور المذكور الذي أراد ذلك التنبكتي أن يصيبه ذلك.

ففعلوا في جني أولئك الأيام ما فعلوا من الفساد والطغيان، حتى أن الجمعة

الواحدة وقت الظهر حيث اجتمع الناس جاؤوا على خيلهم في الجامع متحزمين وأسلحتهم في أيديهم، وحلفوا لا يصلي أحد حتى يبايعوا أسكيا ويخطب الإمام باسمه على المنبر. فقال لهم الأعيان: هذا محال، لا يمكن ولا يجوز في الشرع. فلا يزدادون إلا تمرداً وعناداً إلى وقت اصفرار الشمس. فقال لهم الأعيان: اصبروا حتى نسمع ما جرى بين الباشا محمود وبين أسكيا، لعل يغلبه ويرجع الأمر إلى أصله، فحينئذ سكن شرهم. وصلى الناس الجمعة.

ثم وصل حام تنبكت وأخبر القائد المصطفى بخبرهم، فعزم على الحركة إليهم في جني نفسه. فقال له القائد مامي اسكن في قصبتك، وأنا أكفيك ذلك. فسار إليهم في ثلاثمائة رماة مختارين.

فلما قاربوا البلد بعث لهم جنكي عبد الله صلح تافني وتاكر أنس مان وهديته من الكور، وأمرهم بالقدوم بعجلة. فتبعهم سنقركي بوب ول بير وتلقاهم ماسنكي حمد أمنة في جني. وقيل حبيب ولد محمد أنباب هو الذي كتب له على لسان القاضي عمران، يسير مع القائد مامي حيثما سار، ويكون له معيناً ناصحاً. ولذلك تلقاهم بنفسه بعجلة.

وسمع باغن فاري خبر هؤلاء المراسيل، فجعل الحراسة على أبواب السور ليقبضوهم متى رجعوا. فدخل صلح تافني بباب شم انزوم فكفاه الله شر الحراسة، ولم يروه. فدخل تاكر بباب السوق الكبير فقبضوه وسجنوه ليقتلوه. فبكر القائد مامي بالوصول، فاشتغل باغن فاري وأصحابه بأنفسهم، وبادروا بالخروج والهروب، ونسوا تاكر وهربوا إلى ناحية بلد تير. فترك القائد مامي أربعين رامياً على مدينة جني وأمر عليهم علي العجمي، وجاز هو على حاله إليهم، ومعه جنكي عبد الله بجيشه وسلطان ماسنة وسلطان سنقر بوب ول بير بجيشهم، ووصلوهم في بلد تير، وتقاتلوا هنالك. فرمى ماربا ولد باغن فاري قارب لقائد مامي في البحر، وهو فيه، بالحريش، فانشق من رأسه إلى مؤخره، فخيطه القدافون في ذلك البحر، وعدلوه في طرفة عين.

ثم بعد ذلك كله هزمهم، وشتتوا شذر مذر. وهرب باغن ناري وأولاده إلى بندك، وانتهوا إلى بلد تارندكي. فقبضهم وقتلهم، وبعث برأس باغن فاري وبندك ياووور ومنذ وكف ماربا إلى جني. فبعث أهل جني الرؤوس إلى تنبكت عند القائد المصطفى، وعلقوا الكف وراء القصر في طريق دبر.

وبعث جنكي عبد الله عند أهل مدينة في أمر جني منذ بركن والقاضي المغربي،

فردوا منذ بكرن لجنكي. وأما القاضي فوجدوه الحال قد توفي هنالك رحمه الله تعالى. ولما عزم القائد مامي على الخروج من تنبكت لهذا الغزو، وأمر القائد المصطفى حام الذي جاءهم بالخبر أن يرجع معه. فمشى بقاربين من الملح، ووجد قد فرغ في جني بالكلية، فباعه وربح فيه ربحاً.

ثم رجع القائد مامي لتنبكت وقد استقام الحال بحيث لم يبق في تلك الناحية ما يشوش البال والحمد لله الكبير المتعالي وبقي علي العجمي حاكماً على مدينة جني المحروسة، وهو أول حاكم لأهل المخزن فيها.

الباب الثالث والعشرون

ذكر حروب الباشا محمود بن زرقون

تنبيه: ومكث جنكي عبد الله المذكور في سلطنته عشر سنين، قيل وشهرين.

ثم تولى بعد وفاته جنكي محمد بن إسماعيل، فبكث فيها ستة عشر سنة وخمسة أشهر، فعزله الباشا علي بن عبد الله التلمساني، وأمر بحبسه في جني، فلبث في السجن سنة واحدة فيه، وفي مدينة تنبكت سنتين.

وتولى مقامه جنكي أبو بكر بن عبد الله ثلاث سنين، ثم أخرجه من السجن الباشا أحمد بن يوسف عند ولايته، ورده لسلطنته في جني، ومكث فيها ثلاث سنين، فتوفي يوم الأحد وقت الزوال خمسة عشر من شوال عام تسعة وعشرين بعد ألف.

ثم تولى جنكي أبو بكر بن عبد الله المذكور بعد وفاته، فمكث فيها سبع سنين، وتوفي سنة ست وثلاثين وألف في زمن ولاية القائد يوسف بن عمر القصري في تنبكت.

ثم تولى جنكي محمد كنبر بن محمد بن إسماعيل، ومكث فيها ثمانية عشر شهراً، فعزل.

وتولي جنكي أبو بكر بن محمد، ومكث فيها ثلاث سنين، ثم قتله القائد ملوك بن زرقون صبراً عشية الخميس الثالث عشر يوماً من جمادي الأولى عام الثاني والأربعين والألف.

ثم رجع فيها جنكي محمد كنبر المعزول، ومكث فيها سنتين غير ثلاثة أشهر، فعزله الباشا سعود ابن أحمد عجرود عند مجيئه إلى جني في آخر يوم من ذي الحجة الحرام مكمل عام ثلاث وأربعين وألف.

وولاها جنكي عبد الله ابن أبي بكر المقتول في أول يوم من المحرّم الحرام فاتح عام الرابع والأربعين والألف، ومكث فيها ثماني سنين غير شهرين، وتوفي صبيحة يوم الفطر يوم الجمعة أحد شهور عام الحادي والخمسين والألف، وصلى عليه في المصلى.

ثم رجع فيها محمد كنبر المعزول أيضاً، ومكث فيها سنة وثلاثة أشهر، ثم عزل.

فتولاها أخوه جنكي إسماعيل بن محمد بن إسماعيل في مهلّ يوم الاثنين الثالث من المحرم المذكور الحرام في فاتح عام اثنينين وستين وألف، عزل.

فتولاها أخوه جنكي أنكبعلي بن محمد إسماعيل بهذا التاريخ، وهو الذي فيها اليوم.

وبعد ما رجع القائد مامي من غزوة باغن فاري جاء أبو بكر ولد الغنداس التاركي من رأس الماء لقتال القائد المصطفى في تنبكت. فلما قرب البلد تحير المصطفى كثيراً من أجل عدم الخيل، ولم يكن عندهم يومئذ إلا حصان واحد للقائد وحده، وهو في غم ذلك الحال إذ جاءه الخبر بوصول القائد علي الرشدي بير تحنات، وهي على مسافة يوم للبلد، ومعه ألف وخمسمائة رماة من أصحاب الرجل وخمسمائة من أصحاب الخيل، ومعه أيضاً خمسمائة خيل مطلوقيه، بعثهم من أجل مكاتبة الباشا محمود له من موت جميع خيلهم في أرض دند.

بعث القائد المصطفى أمنير ولد الغزالي ساعتئذ ليبادر لهم بالخيل عاجلاً مسرعاً، فجاء بهم في الوقت المختار، فكان لهم فرجاً بعد شدة. فخرج للقاء التاركي المذكور. وقد وصل بير الزبير عشية ذلك اليوم، ومعه أصحابه من التوارك وكثير من الصنهاجيين أولي الضفائب والزغرانيون، ومعه أيضاً مام ولد أمر ولد كبر وأخوه أحمد، فسكنا عنده لما هربا من التنبكت بعد وقعة القائد المصطفى.

فتلقيا عند البير المذكور فأول من مات بينهما مام ولد أمر المذكور وهو - والعياذ بالله - في أيام دولتهم ظالم كبير فاسق معتد، فضرب بالرصاص ساعتئذ فمات. فتحيز منهم أبو بكر التاركي، فتبعوه إلى ربوة نانا زرقتان، فولى علي القائد المصطفى والسيف مسلول في يده، فلما أراد أن يوقعه فيه حال إدريس الأبيض بينهما بالترس وقطع ترسه بذلك السيف حتى أصاب واحداً من أصبعه فقطعه. ثم إن الله تعالى نصر القائد المصطفى عليهم، فانهزموا وهربوا وقتلوا كثيراً من أصحاب أبي بكر التاركي. ولما وصلوا رأس الماء قتلوا بن داوود وجميع من معه من الرماة الذين بنوا القصبة

هنالك، وهو إحدى وسبعون رامياً، فبقوا على المخالفة.

ثم جاز القائد علي الراشدي أرض دند مع محلته. ثم جاء القائد بن دهمان والقائد عبد العزيز ابن عمر والقائد علي بن عبد الله التلمساني في أربعمائة رماة يشتركون فيهم. فحازوا على حالهم إلى عند الباشا محمود حتى اتصل به في تلك الأرض نحو ست حملات كما مر.

أما القائد علي بن عبد الله التلمساني فأبوه عبد الله من أكبر قياد السلطان في مدينة فاس، فلما توفي قام ولده علي بن عبد الله مقامه في القيادة، وهو شاب يومئذ، فاشتغل بالرذالة من شرب الخمر وغيره حتى سقط قدره بين الناس، ولكن له ركن قوي عند السلطان، وهوابن أخته التي تحت القائد عزوز، ولذلك ما امتحى اسمه بالكلية. ثم بعثه السلطان إلى السودان وهو ثالث ثلاثة في القيادة، ولم تنفرد له القيادة إلا بعد موت صاحبيه، فخرج بعد ذلك عجب العجائب حتى تتمثل به في الشدائد والصعاب. فكم غزوات حضرها وكمات حصرها وأعداء أهلكها ومساكن خربها وسلكها وبلاد فتحها وفساد أصلحها وثغور حرسها وغرور اقتحمها وأنسها، واستغل بذلك سنيناً وأعواماً حتى هدن الأرض ولا تسمع إلا: قيلاً وسلاماً سلاماً.

ثم بعث الباشا محمود بن زرقون وهو ما زال في أرض دند للقائد المصطفى أن يقتل الشريفين محمد الشيخ محمد بن عثمان وبابا بن عمر سبطي الشريف أحمد الصقلي. فقتلهما في السوق شر قتلة على يد الحاكم علي الدراوي، وشاوش الكامل هو الذي باشر القتل، فقطع أيديهما وأرجلهما بالفأس، وتركهما هنالك معذبين حتى ماتا في تلك الحالة: إنا لله وإنا إليه راجعون، وذلك في يوم الخميس التاسع من المحرّم الحرام فاتح العام الأول بعد الألف، لأنه استهل بالأربعاء وهو خامس يوم من أكتوبر، ودفنا في قبر واحد في جوار سيدي أبي القاسم التواتي. فغيمت السماء يومئذ وأغبرت الهوى بغبار أحمر. وهما من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، وماتا شهيدين، رضي الله عنهما ورحمهما فشلّت يدا القاتل المذكور إلى أن توفي، والبتول خصيمهم غداً عند الله تعالى.

وفي شهر الصفر في العام المذكور بعث الفقيه القاضي أبو حفص عمر بن ولي الله تعالى الفقيه القاضي محمود بن عمر رحمهم الله تعالى ونفعنا ببركتهم شمس الدين ابن أخيه القاضي محمد بكتابه إلى الشيخ المبارك سيدي عبد الله بن مبارك العاني، ومعه ألفع محمد ولد إددر وألفع كنبعلي ليطلب لهم العفو من الأمير مولاي

أحمد مما صدر منهم من الفتنة مع القائد المصطفى، وأن قومه هم الذين ابتدأوا فيها وأنهم في طاعة الله ورسوله ثم في طاعته.

فخرجوا من تنبكت بعد صلاة الظهر يوم الأربعاء العشرين من الشهر المذكور. فلما وصلوا عند السيد المذكور ركب معهم إلى مراكش عند الأمير، ولم يمش إليه قط. وبلغوه كتاب القاضي الذي اعتذر فيه بما اعتذر، وشفعه السيد، فقبل شفاعته فيهم، ورجع إلى بلده. فأكرم المراسيل غاية الإكرام وأجرى لهم الإقامة العجيبة الفاخرة وأمسكهم عاماً. ثم سافرهم مع القائد بو اختيار.

الباب الرابع والعشرون

ذكر الباشا محمد طابع

ولنرجع إلى ذكر رجوع الباشا محمود إلى تنبكت. وقد تقدم أنه استأخر في أرض دند عامين في المحاربة مع أسكيا نوح. فرجع ولم يظفر بمراده فيه. فكتب للقائد المصطفى قبل مجيئه أن يقبض القاضي عمر وإخوته حتى يجيئ. فكتب له أنه لا يقدر على ذلك: امهل حتى تقدم أنت بنفسك.

فلما قدم رام ذلك. قال له أصحاب الرأي: امسك عنها حتى تنتقم من أبي بكر ولد الغنداس وأعوانه الذين قتلوا بن داوود وأصحابه. فعزم إليهم وهرب أبو بكر وباعد منه. فجعل فتكاً عظيماً في الصنهاجين، وقتلهم قتلاً شديداً، حتى ظن الناس أنه لم يبق منهم باقية. وغنم من تلك الناحية مالاً كثيراً.

فرجع لتنبك. وقد تخلف الباشا جودار وراءه في مدينة كاغ حين رجع من دند، واستأخر هو في الطريق حتى بنا قصبة بنب، وأسكن فيها الرماة، وجعل عليهم القائد المصطفى بن عسكر.

فلما وصل تنبكت في قفوله من رأس الماء في قتال الصنهاجين شرع في تدبير قبض الفقهاء أولاد سيد محمود رحمه الله ونفعنا به. فكان حبيب ولد محمود أنباب من أكبر أعوانه وأهل رأيه حينئذ. فأول ما بدأوا به من رأيهم أنهم برّحوا في البلد أن الباشا يدخل في ديار الناس غداً فأي دار وجد فيها السلاح فلا يلوم ربها إلا نفسه، إلا ديار الفقهاء أولاد سيد محمود فقط. فهرب الناس بأموالهم إلى عندهم في ديارهم على وجه الوديعة ظناً منهم متى رأى المال في أي دار ساعة التفتيش يأكلها ظلماً وعدواناً. فهذا عين المراد في رأيهم ذلك. فدخلوا ديار البلد غداً وفتشوها جميعاً.

ثم برح بأن يجمع الناس كلهم غداً في جامع سنكري للحلوف على بيعة السلطان مولاي أحمد. فاجتمع جميع الناس، فحلف التواتيون والفزانيون والوجليون ومن جانسهم في اليوم الأول، وهو يوم الاثنين الثاني والعشرون يوماً من المحرّم الحرام فاتح العام الثاني بعد الألف. ثم حلف الولاتيون والودانيون ومن جانسهم في اليوم الثلاثاء الثالث والعشرين منه.

فقال لم يبق إلا الفقهاء يحضر الناس لهم غداً حتى يحلفوا. فلما اجتمع الناس في الجامع غداً غلقت الأبواب وأخرج الناس إلا الفقهاء وأصحابهم وأتباعهم. قبضهم جميعاً الباشا محمود بن زرقون يومئذ، وهو يوم الأربعاء الرابع والعشرون من المحرم فاتح عام الثاني بعد الألف، وأسرهم وأمر بهم إلى القصبة فريقين، فريق ذهب بهم في وسط البلد وفريق ذهب بهم خارج البلد من جهة القبلة.

وفيهم الشهداء الذين قتلوا يومئذ وهم سائرون حتى وصلوا حومة زم كند، استلّ واحد من الأسارى وهو ونكري يقال له أندف سيف واحد من الرماة فضربه به. فقتلوا ساعتئذ أربعة عشر رجلاً من الأسارى، تسعة من أهل سنكري: العلامة الفقيه أحمد معيا، والفقيه الزاهد محمد الأمين بن القاضي محمد بن سيدي محمود، والفقيه المصطفى ابن الفقيه مسراند عمر، ومحمد بن أحمد بير بن الفقيه سيد محمود، وبوز ابن أحمد أد عثمان، ومحمد المختار بن معيا أشار، وأحمد بير بن محمد المحتار ابن أحمد أخ ألفع صلح تكن وهو ابن أخ مسر أند عمر، ومحمد سر بن الأمين والد سن ومحمود كروكر من أهل حومة كابير، وبرهم بُيدل التواتي الخراز وهو من أهل كُير كن، واثنان ونكريان: أندف الذي تسبب في هذه المصيبة، وأخوه - وحرطانيان لأولاد سيد محمود فضل، وشينون الخياطان.

فانتهى القتل إلى محمد بن الأمين كانوا، وهو في ذلك السير، فقطعه أخ القائد أحمد بن الحداد فحمله على فرسه وهرب إلى داره فسلم. وبلغ الخبر الباشا محمود وهو ما زال في المسجد فقال: ما أمر به. وبعث لهم النهي عن العودة على مثله.

وأما القاضي عمر فهو شيخ كبير يومئذ، وبه وجع الظهر ولا يقدر على المشي، فركبوه فنيشاً، هو والزاهد سيدي عبد الرحمن أخوه في الفريق الذي مضوا في وسط البلد. وجميع من قبضهم الباشا محمود ربطوا في السير إلا إياهما.

وهذا القتل كان بقرب دار أمرادش، وهو حرطان من حراطين البلد. فأمر بدفن هؤلاء الموتى في داره. وجمع الفقيه أحمد معيا والفقيه محمد الأمين والفقيه

المصطفى في قبر واحد، والعلامة الفقيه محمد بغيغ هو الذي قام بتجهيزهم. فخرج أمرادش المذكور من تنبكت راحلاً، فسكن في بلد شيب إلى أن توفي.

فلما سمع الزاهد السيد عبد الرحمن فقال: من أهل بيتهم من يصيب هذا السوق إليوم إلا محمد الأمين. ولما سمع بموت فضل فيهم فقال: فضل صاب هذا السوق قد فاز.

ثم دخل الباشا محمود الباشا محمود في ديارهم، فرفع جميع ما فيهم من الأموال والمتاع والأثاث اللاتي لا يحصيها إلا الله، ما بين أملاكهم وأملاك سائر الناس من الودائع. ونهب أتباعه ما اتصلوا بها، وكشفوا عوراتهم، وجردوا حرائرهم، وفعلوا بهن الفواحش، وذهبوا بهن إلى القصبة مع الرجال، وسجنوا فيها ستة أشهر. وأفسد الباشا محمود جميع المال أشتتها شذر مذر، وتكرم بها للرماة، ولم يبعث للسلطان مولاي أحمد إلا مائة ألف ذهباً.

ثم سمع الباشا محمود وهو في تنبكت أن الفتى القائد عمار وأصحابه الذين تركهم في قصبة كلن نالهم ضرر عظيم من أسكيا نوح. فبعث لهم القائد مامي بن برون في القوارب ليرحلهم إلى تنبكت. فلما وصلهم ما وجد كيف يدخل عليهم من باب القصبة لأجل مضايقة أصحاب أسكيا نوح عليهم. فأتاهم القوارب في البحر من وراء القصبة، وكسروا القصبة من تلك الجهة. فدخل القارب منها، ودخل القائد عمار في قارب فنف سعيد دغا، فوصلوا تنبكب معافين.

قال فنف المذكور: لما طرد أهل جني سلطان ملي بعد رجوع الباشا جودار إلى مراكش، والقائد عمار المذكور هو باشا يومئذ. بعثوا البشارة له صحبة شاوش مسعود اللبان في قاربه. قال: لما وقفنا بين يديه قال: ألستَ الذي حملتني في قاربك حين ارتحلنا من قصبة كلن؟ قلت: نعم أنا هو. عرفت حينئذ أنه ثابت الذهن حديد العين.

وفي القابل من مشي مراسيل القاضي عمر إلى مراكش، بعث الأمير السلطان مولاي أحمد القائد بو اختيار إلى تنبكت في شهر الصفر والله أعلم في العام الثاني بعد الألف، بعد قبض الفقهاء بقليل، وهو علج نصراني أشمر اللون جميل الخلقة ولد سلطانهم، أمه جارية يعيره إخوانه بأمه. فلما تكرر ذكل هرب إلى المسلمين في مراكش عند مولاي أحمد. بعث أبوه في شرائه مالاً كثيراً، فلما حصل المال عند مولاي أحمد أسلم هو. فقال السلطان: هذا رزقك كله حلالاً طيباً، وعاتهم في مثل هذا أن المال لا يرجعون إليه.

الحاصل كتب كتاب أمن للقاضي عمر، وجعل المراسيل صحبة القائد بو اختيار، وأمره أن يكلم الباشا محمود أن لا يتعرض لهم بسوء، وهو قد كتب قبل له أن يقبضهم ويصرفهم إليه في القيود، ولا علم عند أحد بذلك من خدامه.

فلما وصلوا بلد تغاز سمع القائد بو اختيار جميع ما جرى عليهم على يد محمود بن زرقون، فنادى شمس الدين بالليل وقال له: مولاي أحمد غدرني وغدركم. فأخبره بما جرى في أهل بيته، وأمره أن يحتال في خلاص مهجته. فذهب إلى عند عيسى بن سليمن البربوشي شيخ أولاد عبد الرحمن، وخيامهم وراء تغاز يومئذ، فدخل في حرمته، وطلب منه أن يوصله إلى بلد واد. فوصله هنالك بنفسه كما أراد، فسكن فيه إلى رجوع العلامة الفقيه أحمد بابا لتنبكت. فصرف له، فجاء وسكن معه فيه قليلاً، فمات رحمة الله عليه.

وأما محم ولد أددر فأمسك براءة أمن من مولاي أحمد، حتى بلغه للباشا محمود بنفسه مع القائد بو اختيار لما وصلوا تنبكت في المحلة التي معه، وهي ألف مائتان رامياً، ستمائة من أهل ماسة كانوا مع بو اختيار، وستمائة من أهله حاحة كانوا مع الحسن بن الزبير. وأمرهما بالتفرقة في مسيرهم لئلا يزدحموا على الماء عند الورود. فأينما ظل بو اختيار يبيت، ثم الحسن بن الزبير، حتى وصلوا تنبكت. فسبق بو اختيار بالدخول. هذا أول مرة استخدم السلطان أهل ماسة وأهل حاحة عوضاً من إداء المطلب والوظيفة. ومعهما القائد عبد المالك، وهو قد جاوز إلى مدينة كاغ وسكن فيها.

ثم شرع الباشا محمود في تسقيط الفقهاء إلى مراكش بعد تأخرهم في السجن نحو خمسة أشهر. ومشوا جماعة كثيرة أباءً وأولاداً وحفائد ونساء ورجالاً في رفقة الكنانة في يوم السبت الخامس والعشرين من جمادي الأخرى في العام المذكور. ومشى معهم الكاهية باحسن فريد والقائد أحمد بن يوسف العلجي وغيرهم. أما باحسن فريد فقد مات في الطريق. وسبب ذلك شرعت الرفقة يوم موته في أمر الرحيل، فجاء إلى ولي الله تعالى الفقيه الزاهد السيد عبد الرحمن بن ولي الله تعالى أبي البركات الفقيه محمود، وهو يتوضأ، فركضه برجله وأمره بالقيام قبل الفراغ من الوضوء. فقعد حتى أتم وضوءه، ثم ركب راحلته. وركب فريد المذكور، فمن قليل نقر به الجمل ورماه على الأرض، فانكسر عنقه، مات في ساعته.

ولما رأوا مدينة مراكش عند وصوله إليها دعا عليهم الفقيه القاضي أبو حفص

عمر بن الفقيه محمود فقال: اللهم كما شوشونا وأخرجونا من بلادنا، فشوشهم وأخرجهم من بلادهم. فاستجاب الله دعاءه عليهم، فكان دخولهم في ذلك البلد فتح أبواب البلاء فيه.

فبعد ما خرج الفقهاء من تنبكت رحل الباشا محمود بن زرقون سوق البلد إلى باب القصبة، فكان ذلك يوم الخميس السادس من شعبان في العام المذكور. فدخلوا في مراكش أول يوم من رمضان في العام المذكور على ما ذكر العلامة أحمد بابا - رحمه الله ونفعنا به - في كتاب ذيل الديباج. قال فيه: ثم امتحن في طائفة من أهل بيته بثقافهم في بلدهم في محرم عام اثنين وألف على يد محمود بن زرقون لما استولى على بلادهم، وجاء بهم أسارى في القيود، فوصلوا مراكش أول يوم من رمضان من العام المذكور، واستقروا مع عيالهم في حكم الثقاف إلى أن انصرم أمر المحنة، فسرحوا يوم الأحد الحادي والعشرين لرمضان عام أربعة وألف، ففرحت قلوب المؤمنين بذلك، جعلها الله كفارة ذنوبهم انتهى.

وقد رجع القائد أحمد بن الحداد من تنبكت إلى مراكش خفية بحيث لم يعلم الباشا محمود بذلك، ومشى على طريق ولات، فأخبر السلطان مولاي أحمد بما فعل محمود من التعديات، حتى قال أنه لا يعرف إلا سيفه، وحتى من نصر السلطان في نصرته يسل شيءً من سيفه يقول: هذا. فغضب السلطان غضباً شديداً فقال: رجعت لا أنصر في السودان إلا بسيف هذا الملعون. فلما وصل لديه مراسيله مع الفقهاء، وسمع ما رفع في ديارهم من الأموال التي لا نهاية لها، ولم يبعث له منها إلا مائة ألف مثقال ذهباً، ازداد غضباً على غضب.

فكتب للأمين القائد حم حق الدرعي أن يأتي إليه، وأمر نفاس الدرعي أن يقوم مقامه. فلما وصل إليه القائد حم حق عرض عليه الجرائد رأى فيها كثيراً من الأموال، فسأله عنها بعد ما دفع له ما معه منها. فأخبره أن الباشا محمود قد أفسده وشتته إشتاتاً.

وسمع من العارفين أن حم حق ما دفع له ما معه بكمالها، بل سرق منها عشرين ألفاً ذهباً ودفنه تحت الأرض في جنانه في درعة. فقبضه وسجنه، وكتب للقائد الحسن بن الزبير في تنبكت أن يكون أميناً، وأن يمشي نفاس إلى مدينة جني فيكون أميناً هنالك. فبقي حم حق في السجن إلى أن توفي فيه، وانكشف عنه الذهب المسروق بعد موته، فاتصل بالسلطان بقدرة الله وإرادته.

ثم إن الباشا محمود تجهز ورجع لمحاربة أسكيا نوح ثانياً. وقد خرج من أرض

دند وتحول إلى أرض الحجر. وقبض من القائد بو اختيار جميع ما معه من الرماة وذهب بهم معه. وتلقى مع الباشا جودار في كنكربو جائياً من مدينة كاغ، وعرض عليه الذهاب معه. فطلب منه حتى يصل تنبك ويستريح فيه قليلاً، فحينئذ يلتحق به. فبلغ أرض الحجر وفتح هنبر ودعنكا وما في أحوازهما.

ثم إن السلطان مولاي أحمد بعث القائد منصور ابن عبد الرحمن إلى أرض السودان برسم قبض محمود بن زرقون وقتله وإهانته. فبعث له ولده مولاي بوفارس مرسولاً معجلة وسرعة أن يخبره بما يأتي به القائد منصور بن عبد الرحمن، وأمره أن يحتال لنفسه قبل أن يصل إليه. فلما بلغه الخبر وعلم بحقيقته، لأنه خديم مولاي بوفارس خاصة دون أولاد مولاي أحمد، توجه بجيشه إلى حدر المن وال، وفيهم أسكيا سليمن، فنزلوا تحت الحجر. فلما جن الليل عزم على الطلوع إلى الكفار. وامتنع أسكيا سليمن من ذلك، وقال: الحجر لا يطلع عليه في ليل للمقاتلة. ولا يعلم أنه يريد الهلاك لنفسه ولهم أجمعين.

فلما كان آخر الليل ذهب إلى الكفار في أربعين رامياً وعشرة من أهل تنبكت المولدين، ولا خبر عند الجيش إلا أصوات المدافع يسمعونها تخبط فوق الجبل عند طلوع الفجر. ففزعوا وأسرعوا إلى موضع قباه، فلم يجدوه فيها، فتوجهوا نحوا الجبل. فتلقوا من نجا من أصاحبه، وأخبروهم أنه مات وقائد كاغ القائد علي بن المصطفى ومن قدر الله موته معهما. فلما رموه بالنشاب وطاح على الأرض احتمله أولاد تنبكت على أعناقهم ليأتوا به إلى الجيش، ضايق عليهم الكفار فرموه وقطعوا رأسه، وبعثوه لأسكيا نوح، وبعثه أسكيا نوح لكنت سلطا كب، فأقامه في عود في سوق ليك زمناً طويلاً. فرجع أسكيا سليماً بالجيش مجدّاً بهم في السير خوفاً من لحوق الكفار بهم، حتى وردوا بحر بنك.

وقبل أن يموت جاءه مغسرن كي أوسنب بابنه أكنزر فطلب منه أن يولي أكنزر على قبيلته في رأس الماء، ويوليه هو على الآخرين الذين في جهة القبلة. فرضي ذلك له، وقسم مطلبهم الذي هو ألف مثقال من قديم عصر على الطائفتين، خمسمائة مثقال على هذا وحمسامائة مثقال على هذا، فثبت الحال على ذلك.

ثم جاء الجيش إلى عند جودار، فسكن بهم في جزيرة زنتا حتى وصل القائد منصور مدينة تنبكت، فدخل فيه الخميس أول يوم رجب القرد عام ثلاثة بعد ألف. فتلقاه الباشا جودار في أبراز، ونزل بمحلته جنان جعفر فابتنى فيها مشورة. ثم جاز إلى

الحجر في أخذ ثأر محمود بمحملته في شوال في العام المذكور، وهي ثلاثة آلاف رامياً ما بين أرباب الخيل والرجل. وتلقي مع أسكيا نوح في أرض الحجر، ومعه نجعة سغي كلها. فغلبه القائد منصور، ونال منه ما لم ينل منه محمود بن زرقون. فهرب مع جيشه وسلموا في النجعة. فسبا القائد منصور ذكوراً وأناثاً كباراً وصغاراً قينيين وقينات، فرجع بالجميع لتنبكت، وولى الجميع لأسكيا سليمن. فمن حينئذ صاب الخدم والأتباع من أهل سغي.

فسكن تنبكت، فكان رجلاً مباركاً عدلاً ذا حكم شديد في الجيس، وأمسك أيدي الظلمة والفسقة عن المسلمين. فصار يحبه الضعفاء والمساكين، ويبغضه الفسقة والظالمون.

ثم وقع بينه وبين الباشا جودار اختلاف حتى عزم أن ينزع منه جميع الرمات الذين معه، وأن يكون حكم الأرض في يده، حيث هو معزول من حين مجيء محمود ابن زرقون، حتى انتهى اختلافهما إلى المكاتبة للسلطان مولاي أحمد. فكتب لهما وفرق بينهما، فقال: حكم الأرض لجودار حيث هو فتحها، وحكم الجيش للقائد منصور، لا يدخل أحد في طريق واحد.

ثم تجهز أيضاً للرجوع إلى الغزو إلى أرض دند. ونزل في كربر، ومكث هنالك شهوراً وهو مريض. ثم رجع لتنبكت ونزل بمحلته بموضعه المعتاد. فكان أجله في ذلك المرض، فتوفي يوم الجمعة قرب الغروب السابع عشر من ربيع الأول عام خمسة بعد ألف. وقيل أن جودار أطعمه السم فقتله، وكذلك القائد بو اجتيار قيل أنه الذي أطعمه السم. ولم يتأخر هو بعد وصلوه أرض السودان إلى أن توفي، ودفن في مسجد محمد نض. أما القائد منصور فلم يدفن بعد وفاته إلا في الغد ضحوة السبت، وصلي عليه ودفن في مسجد محمد نض في مجاورة سيد يحيى. ثم جاء ابنه من مراكش، فنقله إليها ودفنه هنالك.

ثم بعث السلطان مولاي أحمد الباشا محمد طابع بمحلة فيها ألف رماة ما بين أرباب الخيل وأرباب الرجل. فوصل تنبكت يوم الاثنين التاسع عشر من جمادي الأولى عام ستة وألف. ونزل وراء القصبة في جهة القبلة، وهو شيخ كبير من قياد السلطان مولاي عبد المالك ذو معرفة ورأي وتدبير، قد سجنه السلطان مولاي أحمد عند ولايته اثني عشر عاماً.

ثم تجهز من منزله ذلك إلى الغزو في الحجر. فتنزع من جودار الجيش الذين

معه، وذهب معه القائد المصطفى التركي. ولما وصل أنكند مات فيه يوم الأربعاء الخامس من شوال. قيل أن جودار هو الذي أطعمه السم على يد نانا تركية.

وبقي هو في بنك في الحراسة. فرجع القائد المصطفى بالعسكر بعد ما جرى بينهم وبين أهل الحجر ما جرى. وقيل أطعمه السم أيضاً. فلما وصل إلى جودار في مكان الحراسة استرد منه الجيش، فأبى بذلك المصطفى. فتحاكما عند كبراء الجيش. غلبه جودار بما هو المعترف عندهم من الحكم بالطريق، لأن الجيش بيده يومئذ.

ثم توجه الجميع إلى تنبكت. فلما وصلوا مرسى كرنزفي أمره جودار بالطلوع إلى البلد والمكث في القصبة، وهو مريض. وحين انفصل عنه بعث في إثره من يقتله قبل الوصول إلى البلد. فخنقوه في قرية كبر، ومنهم إبراهيم السخاوي. فمات، وحملوا إلى البلد، ودفنوه أول الليلة من ذي الحجة مكمل عام ست بعد ألف في مقابر الجامع محمد نض.

وفي هذا العام أعني العام السادس بعد ألف رجع الأمين القائد الحسن بن الزبير إلى مراكش بمال عظيم الذي حصل من خراج الأرض في ثلاثة أعوام وشيء. وقام في مقامه عند غيبته القائد عبد الله الحيوني وسعيد بن داوود السوسي إلى أن رجع مع الباشا سليمن في أواخر العام الثامن بعد الألف، فانعزلا، ولم يستكمل ثلاثة أعوام في تلك الغيبة.

وبعد ما قبض الباشا محمود بن زرقون أولاد سيد محمود جاء حمد أمنة صاحب ماسنة إلى تنبكت في الاستشفاع لهم عنده بالإلحاح، فأبى وعزم على قبضه مما فهم منه من الحمية على رغمه. فنهاه عنه بعض نصحائه من السودان، فكف عنه، فرجع لوطنه.

ثم إن جودار بعث إليه في المجيء لحضرته، فأبى. وبعث للقائد المصطفى التركي وهو على تندرم يومئذ، فأمره بالغارة عليه. فذهب إليه في سبعمائة رامياً، أربعمائة من أرباب الرجل وثلاثمائة من أرباب الخيل. وكتب للقائد علي بن عبد الله التلمساني أن يصحبه في ذلك، وهو في بلد ونزع يومئذ للحراسة. فتوجهوا إليه مع الأخيار من أهل سغي مثل كرمن فاري بكر كنبو وكَل شاغ بكر وأشباههما. فهرب هو مع أهل حلته فقط. فوصلوهم في وراء بلد زاغ في موضع يقال له نول فن، ومعه كثير من كفار بنبر. وهرب هو مع أصحابه وتركوا الكفار في القتال مع المصطفى. فقتلوا كثيراً من أولئك الكفار بعد ما حصروهم في غابة كبيرة، وسبوا عيال حمد أمنة

المذكور، وفيهم زوجته عائشة فل وبعض أولاده الصغار.

وتوجه مع كبرائه إلى بلد زار عند سلطانه فرن سرا. وجعل ابن عمه حمد عائشة في سلطنته، وسجن أولئك العيال في مدينة جني. ثم رجع إلى أرضه بعد ما لبث في زار سنتين.

وبعد ما انفصل القائد المصطفى من قتال الكفار دخل في إثر حمد أمنة، وتبعه بغزوه حتى دخل في أرض قياك. ثم رجع حتى وصل بلد كوكركي، وفيها يسكن كل شاع. فنزل هنالك بمحلته أياماً. ثم ارتحلوا وتوجهوا إلى بلد شننكو، فنزلوا في ساحله من وراء البحر. فصرفوا لهم المراسيل، فجاء إليهم كبراؤهم للسلام. ثم رجعوا في إتيان الضيافات. ثم أمرهم بالقوارب للقطع إلى ساحلهم.

فلما حصلوا هنالك أطلقوا فيهم الغارة، فوقع بينهم قتال عظيم، حتى صاب القائد علي بن عبد الله التلمساني سهم مسموم فتأذى منه. ثم شرب طبغ فتقيّا السم بكماله، فكان منه شفاؤه. ولذلك التزمه بحيث لا يفارقه في غالب أحواله إلى أن توفي.

ومات حصان كل شاع بكر تحته بسهم صابه، وهو قد بلغ الغاية والنهاية في النجدة والشجاعة والفروسة. فبقي يقاتل على رجله ولا يعني شيئاً. فرأه في المعترك مخازني، وهو يعرفه بتلك الصفة تحقيق المعرفة، نزل له عن حصانه وأمره أن يركبه، فأبى اتقاء المعرّة. وحلف له إن لم يركبه يقتل الحصان. فركبه فقال له بعد ما فرغوا من القتال: رأيتك لا تصلح شيئاً، وخلت [خفت] أن تموت باطلاً، وأن كل ما أصلحه على الحصان أصلحه على رجلي، ولذلك أثرتك بذلك الحصان.

قتلوا من أهل ذلك البلد ما قتلوا وأسروا كثيراً رجالاً ونساء، منهم الفقهاء والصالحون. وأما القائد علي بن عبد الله فلما جن الليل من أول يومهم أطلق جميع من وقع في يده وأيدي أصحابه وأعتقهم جميعاً. وأما القائد المصطفى وأصحابه فوصلوا تنبكت بجميع من وقع في أيديهم، فباعوا ما باعوا وكسبوا ما كسبوا.

وقيل سبب جنايتهم لما أتى شاع مكي إلى أرض جني مع كفار بنبر وغاروا عليها وضاقوا أهلها وأفسدوا فيها فساداً كبيراً، ما قطعهم البحر إلا أهل ذلك البلد. ولهذا انتقموا منهم. ثم إن بارضوان قائد مدينة جني يومئذ تحرك إليهم ثانياً بنفسه، فهزموه وجيشه وطردوهم، فلم يعودوا إليهم بعد إلى هلم جراً.

وشاع مكي المذكور رجل من أهل كل، خدم أهل المخزن في جني في بداية أمرهم أزر. فلما علم غراتهم هرب عنهم ورجع لبلده، وصار عليهم بلاء عظيماً. فساق

المشركين إلى أرض جني مراراً متكررة حتى خربها وأخلاها.

الباب الخامس والعشرون

ذكر الباشا عمار

ثم أمر السلطان مولاي أحمد الباشا جودار بالمجيء إليه في حدود العام السابع بعد الألف، فكتب إليه أن يبعث من يقوم بالأرض ويكون وكيله على الجيش. فبعث القائد المصطفى الفيل والقائد عبد المالك البرتقالي. ثم رد إليه الجواب ثانياً بعجلة أنهما لا يمسكان هذه الأرض، لأن سلطان ملي قد تحرك وأراد المجيء إلى هذه الأرض، وكذلك صاحب ماسنة حمد أمنة عزم على الرجوع فيها. فليبعث الباشا واسمه عظيم في الأسماع دون القياد.

فبعث الفتى عمار باشا وحده على راحلة دون الجيش، وقد جاء معه قبل هذه المرة ألف رماة إلى سغي، خمسمائة من العلوج وخمسمائة من الأندلسيين. فلما وصلوا أظوات ذهبوا وافترقوا، فسار العلوج إلى جهة فاهتدوا وسلموا، وسار الآخرون إلى جهة فضلّوا وماتوا جميعاً. ومعهم الماجي مرسول القاضي عمر إلى مراكش بعد ذهاب المراسيل الأول، فمات معه.

فامر جودار بالمجيء حينئذ عزماً مؤكداً، ولو كان تلك الأرض كلها تتحرق بالنار، وكل هذه المكاتبة والإرسال في مدة قليلة. أما القائدان المصطفى وعبد المالك فوصلا مدينة تنبكت في شهر جمادي الأولى سنة سبع بعد ألف. وأما الباشا عمار فوصل في شهر رجب في السنة المذكورة. وأما الباشا جودار فتجهز للرجوع إلى مراكش يوم الخميس السابع والعشرين من شعبان في العام المذكور.

ثم إن سلطان محمود صاحب ملي تجهز لغزو أهل مدينة جني، فبعث مرسوله لكل شاع برك يعلمه بذلك وطلب منه المساعدة عليها، وهو في بلد كنتي يومئذ. فسأل المرسول: هل معه سنقرزومع فرن سرا؟ فقال: لا. فقال له: بلغه مني السلام وقل له أنتظره هنا إن شاء الله. فلما أدبر قال لأصحابه: هذا ليس بشيء حيث لم يتبعه هذان الأكبران من خدامه.

فلما قرب خرج كل كاع بين يديه إلى جني، وما أجاب دعوته من سلاطين كل وبدك إلا فدككي وأمكي وحمد أمنة صاحب ماسنة.

وقد بعث بخبره الحاكم سيد منصور الذي على جني للباشا عمار وطلب منه

الإغاثة. فوجه إليهم محلة فيها القائد المصطفى الفيل والقائد علي ابن عبد الله التلمساني. فلما وصلوا مدينة جني ضحوة الجمعة آخر يوم من رمضان في العام المذكور، صادفوا بنزوله مع عسكره ساعتئذ في رمل سانون، كلها لكثرتهم حتى انتهوا إلى الرجل الذي لا يدخل منه القوارب إلى المدينة. فتقاتلوا عليها وما نجاهم عنها إلا كثرة النيران من خبط المدافع، فنالت القوارب الطريق للوصول إلى مدينة.

فتشاور الحاكم سيد منصور أصحاب الرأي فقال له كل شاع بكر: يخرج لهم الآن وإذا بات هذه الليلة لالتمّت عليه قوم هذا الأرض كلهم. فقال لهم سيد منصور: الميعاد لملاقاتهم بعد صلاة ظهر الجمعة. فخرجوا لهم حينئذ، ومعهم جنكي محمد كنب بن إسماعيل. فهزموا ملي كي وعسكره في طرفة عين، وقتلوا منهم كثيراً.

وهرب هو على حصانه فتبعه كل شاع بكر وسُري محمد حتى وصلوا المأمن، وحيوه تحية السلطان، وقلعوا قلانسهم تعظيماً له على عادتهم، وقالوا له: عليك بتعجيل السير لئلا يلحقوك من لا يعرفوك ويفعلوا بك ما لا يليق. فوادعوه ورجعوا.

فلما فرغوا من طرده وقتاله رجعوا جمعياً، القياد والجيش، نصف ليلة السبت، وهي ليلة العيد. فلما صلوا العيد عزموا على غزو حمد أمنة وحلاته في بلد سأ، قرية في قرب المدينة. فقال لهم كرمن فاري بكر بن يعقوب أنه صاحب رحالة، وأمره ليس بشديد، وإنما الشديد أمر أمكي الذي هو حضري، وأمسك بعضد ملكي حتى وصله إليكم.

فردوا العزمة إليه فتوجهوا نحوه. فخربوا بلد سع، وغنموا فيه مالاً كثيراً، لأنه سوق التجارة يومئذ، ورجعوا إلى جني. فاصطلحوا مع حمد أمنة، وردوا له عياله الذين سبوهم في تلك الوقعة. وعزلوا حمد عائشة وجاؤوا به إلى تنبكت، وسجنوه فيه إلى أن توفي في مدة الباشا محمود لنك.

أما الصلح المذكور لم يقع إلا بعد وعقة سليمن شاوش وهو كاهية يومئذ، وذلك لما رجعوا من فتنة سع. جمع فندنك حمد أمنة جماعة كثيرة من كفار بنبر مع جيشه فتوجه نحو القبلة للفتنة. فبعث أهل جني محملة للقائه، وجلعوا عليها الكاهية سليمن شاوش، ومعهم فندنك حمد عائشة. فالتقوا في بلد تي، فاقتتلوا، وقُتل جميع الرماة ولم ينج من أهل المحملة كلها إلا اثنان ردلاً. فجاز حمد أمنة بحلاته إلى بطحاء دب، فنصبهم فيها أياماً. وهرب أهل حلة حمد عائشة إلى أرض بر، وسكنوا هنالك زمناً طويلاً.

ثم رحل فندنك حمد أمنة ورجع إلى سأ، واسأخر هنالك حتى وقع ذلك الصلح وردوا له جميع عياله، فيهم زوجته عائشة فل وابنه الأصغر كلل وأمنة بنت فندنك بوب مريم زوجة ابنه الأكبر بوب يام الذي هو وصية وولي عهده.

وعزل حمد عائشة وسجن. ولما طلع ميم رحل إلى قياك عند فرن سرا بأهل ماسنة كلهم إلا قليلاً، ومكث هنالك عاماً. ثم رجع إلى برك. ولم يبق له منازع، ودخل في طاعة أهل المخزن بالام فقط إلى هلم جراً.

الباب السادس والعشرون

ذكر البلاد ماسنة

تنبيه: أصل سلاطين ماسنة من كُمَ، وهو اسم موضع في أرض قيال، له أيضاً تُغُ وترمس. فكان فيه سلطان يقال له جاجي ابن سادي، وله شقيقان مغن ويك. فمات يك عن زوجة. فاراد السلطان جاجي أن يتزوجها، فامتنعت، وهي لا تريد إلا مغن، فهو لا يريدها ولا يقدر عليه خوفاً من أخيه السلطان.

فبقي الناس يتحدثون بها حتى أن يوماً واحداً دخل عليها مغن يلومها في ذلك، ويقول لها: كيف تمتنع من زواج السلطان؟ ومن يقدر عليه غيره؟ وكيف بأولادك الذين معك؟ وقلّبها حتى أعيا، فلم تقبل.

فلما رآه النمامون وقت خروجه من دارها قالوا للسلطان: أليس الذي قلناه لك عن مغن حقاً؟ وقد رأيناه الساعة يخرج من دار المرأة.

فجاء يسلم عليه، فلما امتثل بين يديه قال له: بارك الله فيك! هذا الذي تشتغل به هو الفعل. وأريد زواج امرأة، وأنت تفسد رأسها علي. فغلظ له في الكلام وقبح. فخرج مغن وهو غضبان. فركب فرسه ورمى وجهه للغيبة. وتبعه أربع فرسان أو خمسة وطائفة من الماشين حتى غابت عليهم الشمس. فنزلوا وأوقدوا النار، فإذا الضالون من البقر وقفوا عليهم، وقبضوا واحداً منهم وذبحوه وتعشوا به.

فلما أصبح الصباح ساروا في مسيرهم، وساقوا البقرات معهم حتى أتوا ربوة تسمى ماسنة، وهي في أرض باغن فاري، فوجدوا فيها الصنهاجين أولي الضفائر، وهي مسكنهم. فسكنوا معهم حتى لحقهم فيها ما تركوا وراءهم من عيالهم. ثم ذهب إلى عند باغن فاري، فوقف عليه وسلم وأخبره بقصته وبما تريد. فرحب به وأكرمه وأمره أن يرتع أينما أحب في أرضه. ثم جعله سلطاناً على قومه الذين معه، وجعل الفلانيون

يأتونه ويسكنون معه من قبيلته ومن قبيلة سنقر، وهم يومئذ يرتعون ما بين ساحل البحر وبيم.

ثم تفرع منه أولاد: الأكبر منهم اسمه بُهم مغن، وعلي مغن، ودنب مغن، وكوب مغن، وهاهارند مغن. هؤلاء خمسة رجال شقائق أمهم دم بنت يدل. ثم يلل مغن وحده من زوجة أخرى. ثم حمد بند وسنب شقيقان.

ولما توفي سلطان مغن بن سادي خلفه في السلطنة ولده الأكبر بهم، فتزوج امرأة تسمى يدنكي، فولد منها ناكب يدنكي، وإليها ينتسب وريدنكي. ثم تزوج امرأة أخرى أيضاً تسمى كف، فولد منها كانت علي، ومنه تنسل ورارد علي. ثم تزوج امرأة أخرى أيضاً تسمى، تد فولد منها حمد تد، وإليها ينتسب ورتد وزعكي تد وددتد.

ولما توفي سلطان بهم مغن خلفه في السلطنة أخوه علي مغن، وإليه ينتسب ور علي ولم يتولّ السلطنة غيرهما من أولاد مغن المذكور.

ولما توفي علي خلفه ابن أخيه كانت بن بهم، فتزوج امرأة من قبيلة سنقر تسمى درام سافو، فولد منها جاجي كانت وأنبيا كانت ودنب دنب وير كانت ولانبور كانت وكني كانت. ثم تزوج امرأة أخرى تسمى بنك، فولد منها مك كانت وحده فقط، وإليه ينتسب ورمك.

أما جاجي كانت فتزوج بنب حمد تد، فولد منها سود، وتفرع منه أولاد، منهم وربك ووردب، ومنه تنسل الفقيه أحمد بير الماسني. ولما توفي كانت، والزغرانيون قتله في الفتنة بينهم وهم الغالبون لهم في مدة كانت المذكور، وكذلك موش غلبهم في تلك المدة. فخلفه في السلطنة أخوه علي، فنصره الله على الزغرانيين وعلى موش فغلبهم أجمعين. فولد دنب علي وجنك علي وشم علي.

ولما توفي علي خلفه في السلطنة أنبيا كانت، وهو الذي انتقل من ماسنة إلى جنبل في مدة سلطنة الأمير أسكيا الحاج محمد. ولبث في السلطنة ثلاثين سنة، عشرين سنة في ماسنة، وعشر سنين في جنبل. ثم خلفه في السلطنة ابن أخيه سود ابن جاجي كانت. فمكث في السلطنة عشر سنين، فتزوج يبكن ابنة أنبيا، فولد منها إل سود وحمد فلاني.

ولما توفي سود اختلف ابنه إل وعمه حمد سر ولد أنبيا، وتنازعا على السلطنة حتى انتهى بها النزاع إلى حضرة الأمير أسكيا إسحاق بن الأمير أسكيا الحاج محمد. فأشركهما في الأمر، كسي إل سود بكسوة السلطنة، أعطاه حصاناً. ثم حمد سر كذلك.

وردهما إلى قومهم، فقال: أيهما أحب القوم فليتبعوه. فاختلفوا فرقتين، الأكثر تبعوا إل، والباقي تبعوا حمد سر. فاقتتلا، فغُلب إل وطرد من أرضه.

وذهب إلى سنقر وطلب منهم الإغاثة. فرجع إلى ماسنة للقتال فغلبه إل أيضاً. فذهب إلى عند أسكيا في كاغ، فبعث لإل وأمره بالمجيء إليه. فأجاب دعوته وذهب إليه في القارب. فأمر بقتله قبل الوصول إليه. ولم يمكث هو في السلطنة إلا عاماً واحاً.

فبقي الأمر لحمد سر أربع سنين. وحمد فلاني في كاغ عند أسكيا في تلك المدة. وامتنع بعد أهل ماسنة من اتباعه، فجعل أسكيا حمد فلاني في تلك السلطنة. ورجع إلى ماسنة خدام أسكيا فهرب حمد سر، واستكمل حمد فلاني السلطنة حينئذ. فعمر حلة والده وغار على بقرات سود كهمي. وتنسل من جاجي بن سادي، فهربوا من ماسنة بالكلية، وصاروا في جوار أسكيا مؤدين الوظيفة. ولم يبق مخالف محمد فلاني في ماسنة كلها إلا حلة أنبيا وحدها.

وغار حمد فلاني أيضاً على حلات وراردد علي وورمك، وقد جاؤوا من قياك إلى جنبل في زمن ولاية أنبيا مجتمعين. فهربوا من أجل تلك الغارة إلى أرض كها، فسكنوا هنالك. ومكث في السلكنة أربعاً وعشرين سنة. فعزله في السلطنة دنب لكار، وهو حفيد سود جاجي، فمكث في السلطنة خمسة أشهر، وقيل ستة أشهر. ثم عزله حمد فلاني المذكور، ومكث فيها إلى أن توفي.

فخلفه باب إل بأمر أسكيا، ومكث فيها سبع سنين، فتوفي في بلد كاغ. فخلفه في السلطنة برهم بوي بن حمد فلاني، هو وبوب إلى أمهما وإخوة [واحدة] بوي أينة بوب. فمكث فيها ثماني سنين. فمات في مدينة جني لما جاء فيها الأمير أسكيا داوود مولياً من غزوة أرض ملي، فبعيث له في المجيء، فتوفي هنالك.

فخلفه فيها أخوه بوب مريم ابن حمد فلاني، ومكث فيها أربعاً وعشرين سنة، فغار عليه كرم نفاري محمد بنكن ابن أسكيا داوود، وهرب إلى أرض فَي سندي. ولما عزم الهروب انتزع منه جدل على حصانه المسمى سنب داي، فقال إنه ملك لأسكيا. ثم رجع إلى حلته في ماسنة، وعزله أسكيا الحاج بن أسكيا داوود بعد ما تولى.

فخلفه في السلطنة حمد أمنة بن بوب إل، ولاه أسكيا الحاج المذكور، وأخذ في السلطنة ست سنين. فجاء محملة الباشا جودار، ومكث فيها بعد ذلك ثلاثة عشر سنة. ونهاية ما مكث فيها قبل وبعد تسعة عشر سنة. وفي حسابها سنتان لفندنك حمد عائشة.

وبعد ما مات حمد أمنة المذكور خلفه ولده بوب عائشة الملقب بيامي، فمكث فيها عشر سنين. ولما توفي خلفه أخوه برهم بوي، فمكث فيها اثني عشر عاماً.

ولما توفي خلفه فيها سلمك عائشة، فكان ذا عدل، وقهر الظلمة والجائرين من خدامهم وأتباعهم وأولاد السلاطين وأمسك على أيديهم عن الضعفاء والمساكين بحيث لم يسمع بمثله في سلطنتهم قط، ومكث فيها سنتين.

ولما توفي خلفه بن أخيه حمد أمنة بن بوب بيامي، وله فيها اليوم خمسة وعشرون سنة، وفي حسابه شهران لفندنك حمد فاطمة. وأما هارند مغن فمنه تنسل ور هارند وير كانت، فمنه تنسل ورير. ولما امتنع حلة أنبيا من أتباع حمد فلاني رجع حمد سر عليها سلطاناً. فاستفرت السلطنة فيها إلى هلم جراً، كما استقرت في حلة بوب إل.

فصارت سلطنة ماسنة مقسمة بين أربع حلات: حلة أنبيا وحلة بوب إل وحلة مك كانت وحلة علي أرد مغن. وأما حلة مك كانت مرة يسكن برك ومرة يرجع إلى قياك. وما انقطع بسكني برك منهم بلا رجوع إلى فندنك كداد، فمكث في السلطنة ثلاثين سنة. انتهى.

الباب السابع والعشرون

ذكر الباشا سليمان والباشا محمود لنك

ولنرجع إلى إتمام ذكر الباشا عمار. فمكث في الولاية سنة وشهرين وأياماً، وغلب عليه فيها القائد المصطفى الفيل، حتى صار كأنه صاحب الأمر، وهو ذو طغيان وتمرد وعناد لا يبالي بأحد. فبلغ السلطان خبر ما بينهما، فغضب عليهما جميع الغضب، على عمار من حيث الضعف حتى ركب عليه المصطفى، وعليه من حيث الطغيان والتعند حتى رجع عمار مركوباً له.

فعزله من عنده، وبعث الباشا سليمن ليكون صاحب الأمر. وأمره أن يسجنهما ويزيد للمصطفى إهانة وتصغيراً، ويبعثهما لحضرته في مراكش وهو في الحديد.

فوصل تنبكت يوم الخميس الخامس من ذي القعدة الحرام سنة ثمان بعد ألف. فظهر له في المصطفى المذكور ما ذكر عنه عند وصوله، حتى عزم على قبضه وهو في الركوب. فنهاه عن ذلك أصحاب الرأي لما عسى أن يكون حينئذ من افساد. فلما نزل الباشا سليمن ودخل في المشور وقعد على المرتبة قبض على العتبة وهو داخل، وخرقوا عليه أثوابه الفاخرة، وجعلوا عليه الحديد والقيود الثقال جداً، وبعثه للسلطان

على تلك الحال. وسجن عمار سجن إكرام إتماماً لقول السلطان. ثم رُجع لمراكش بأمره.

وجاء سليمن المذكور في خمسمائة رامياً، وقيل أكثر، فبنى داراً خارج البلد وسكن فيها مثل المحلة، ورفض سكنى القصبة. فكان ذا همة عالية ورأي فائق وتدبير عجيب وحكم شديد، وسار بذلك في ذلك الجيش كله، بحيث لا يبيت أحد منهم إلا معه في تلك المحلة. ومن غربت عليه الشمس في داخل البلد لا بد أن يأخذ فيه ما قدر الله له من ضرب العصى. ولا يبيت الليل كله إلا منتبهاً يحرس المحملة والبلد كليهما. ولا يحدث فيهما صيحة ولا صراخ إلا في سمعه وعلمه، وما طرأ من سرقة في أي جهة إلا يتبعها حتى تنكشف له ويحكم فيها بما يليق.

وقد أمعن النظر في أمر الأمين القائد الحسن بن الزبير، فبدا له أنه مفسد مسرق لبيت مال السلطان، لأنه اتخذ نحو ثلاثمائة جوار مع ضعفهم من الخدمة، فانتزع منه مال السلطان وجازها عنه في بيت في دار السلطان في القصبة. ثم شاور البشوطات فيما يفعل في أمره. فقالوا له لنا كلام في ذلك، والسلطان قريب منكم، فاكتبوا له. فكتب كل واحد منهما له. فكتب للباشا سليمن وأمره أن يفارق سبيله وليفعل ما بدا له في ذلك المال، لأن المال مالنا وهو أميننا، وما كان بينك وبينه فيها إلا متى احتجت إلى نحو ثلاثة آلاف مثقال يسلفه لك حتى ترد ه له. ولكن القائد عزوز هو الذي عاونه وحامى عنه عند السلطان. فمكث في الولاية أربع سنين وشهرين، وهو آخر باشات السلطان مولاي أحمد الذين صرفهم للسودان.

قال العلامة الفقيه أحمد بابا رحمه الله تعالى: أخبره الأمير السلطان مولاي زيدان بن الأمير مولاي أحمد أن نهاية الرجال الذين صرفهم والده في المحلات من لدن الباشا جودار إلى الباشا سليمن ثلاثة وعشرون ألفاً نفساً من خيار جيشه، وهي مقيدة في الزمام قد أراه ذلك الزمام. قال: أضاعهم الوالد باطلاً ولم يرجع منهم أحد لمراكش، فيموت فيه إلا نحو خمسمائة رجل، كلهم ماتوا في أرض السودان. انتهى.

ثم إن الأمير مولاي أحمد توفي، وسمع به الباشا سليمن، فأخفاه عن الناس عاماً، حتى جاء خبر ولاية مولاي بو فارس بن مولاي أحمد. فتولى بعد وفاة أبيه في أوائل العام الثاني عشر بعد الألف.

فبعث الباشا محمود لنك إلى أرض السودان، ووصل تنبكت في شهر الصفر في العام الثالث عشر بعد الألف، فجاء في ثلاثمائة رامياً وقيل أكثر، كلهم أهل ماسة. وجاء

معه محمد الماسي كاهية، وهو مسجون في مراكش لاشتغاله بالحرابة، فطلبه من عند القائد عزوز فأعطاه، وجعله كاهية. وصادف نزوله في تنبكت بجنازة أسكيا سليمن، وقيل أمر بكشف وجهه حتى رآه.

وأمر السلطان بمجيء الباشا سليمن إليه والقائد أحمد بن يوسف، وهو على مدينة جني يومئذ. فكتب للباشا سليمن وطلب منه أن ينتظره قليلاً حتى يجيء ويترافقا في الذهاب. فانتظره، ثم استطال الانتظار فذهب قبل أن يجيء، فجاء ولحقه.

وبعث القائد علي بن عبد الله التلمساني كتابه معه للسلطان مولاي بو فارس، وأخبره فيه بأحواله وبما هو فيه من الاشتغال بالغزوات وحراسة الثغور وعدم الكفاية التي يستعين بها على مشقاته، ومن أجل ذلك لم يبعث له هديته صحبة القائد أحمد المذكور.

ولما رجع بعث له السلطان كتاباً معه فأعطاه بلد تندرم لينتفع بما يخرج منه من الخراج. فلما وصل تنبكت بعث له ذلك الكتاب في بلد ونزع، لأنه يلازم الحراسة هنالك. ووجد الحال أن القائد علي التركي هو العامل على تندرم، فصرف له القائد علي التلمساني أنه أت إلى ذلك البلد، فإذا أدركه فيه لا بد يقطع رأسه.

فخاف وهرب إلى تنبكت، فغضب عليه الأمين القائد الحسن، ولامه وأكثر له في الملامة. فصرف المقدم حد بن يومف فيه عاملاً. فعزم القائد علي التلمساني على القدوم إليه، فخاف حد، وخرج إلى مور كُير. فجاء وتولاه، ومكث فيه. فرجع حد إلى تنبكت.

ثم وقع الاختلاف بين الأمين وبين علي بن عبيد، وهو عامل على كيس، فهرب إلى تندرم عند القائد علي المذكور لرسم التوطن عنده. فبعث له أهل تنبكت في رده، فامتنع من ذلك. فمشى الأمين القائد الحسن بنفسه، ولم يرده. فطول له في الكلام إلى أن قال له: إن هذه العطايا من السلطان. لا ينفذها لأنه أمينه ووكيله المفوض، فله الرد والإمضاء، وما كانت أيضاً إلا في براءة الرسالة. فقال له القائد علي في جوابه: إذ لم تنفذ العطاء ببراءة الرسالة، لا تنفذ ليمينك، لأن براءة الرسالة هي التي جاءت من عند السلطان.

الحاصل لم يجد مسلكاً منه، فرجع إلى تنبكت، وأحلف هو والباشا محمود الجيش كله على أنه لا يهرب منهم أحد إليه بعد هذا. فحلفوا عليه. ثم ذهب إليه سيد علي التواتي، فصبره ووعظه حتى قال له: لا تخسر أمر هذا الجيش، لأنه صائر إليك

غداً إن شاء الله. فحينئذ ترخي ورد علي بن عبيد المذكور.

ثم شرع الأمين القائد الحسن في تبديل نظام الجيش، وبدل العلامات، ورد سربة الفاسيين أصحاب اليمين، وسرة المراكشيين أصحاب الشمال، ونزل العلوج والأندلسيين تحتهما. وزعم أن ذلك كان من عند السلطان مولاي بو فارس. فجعل معلم سليمن العرفاوي كاهية على الفاسيين، وحد بن يوسف الأجناسي كاهية على المراكشيين.

ثم توفى الأمين القائد الحسن في أواسط العام الخامس عشر بعد الألف. فتولى مقامه الطالب محمد البلبالي بأمر صاحب الأمر الباشا محمود لنك. فاشترى من تركته ما اشترى من الخدام وغيره، ومكث في ذلك المقام سبعة أيام. وفي ثامنه ورد ابنه القائد عامر بن الحسن، بعثه السلطان مولاي بو فارس أميناً. فتولى المقام المذكور وانتزع من الطالب محمد المذكور جميع ما اشترى من تلك التركة.

وفي السادس عشر بعد الألف تولى السلطان مولاي زيدان بن السلطان مولاي أحمد. فرد الباشا سليمن إلى السودان ليكون صاحب الأمر. وبعد ما ساقط من مراكش وانفصل عنها قتله سعيد بن عبيد. فأعطى السلطان السبيل في قبيلته الشراقة، فقتلوا منهم كثيراً. وقتل معهم القاتل سعيد بن عبيد المذكور.

ثم إن الكاهية معلم سليمن طغى وتمرد وجعل لا يشتغل إلا بالمعاكسة على الباشا محمود والتطاول عليه. عزم على ترحيل القائد علي بن عبد الله من تندرم وإحضاره لديه حتى يتقابلا، لعل ينكسر حدته وتمرده. فنهاه عنه القائد مامي بن برون، وقال: مثل معلم سليمن مثل الكلب، إن هرّ عليك ورميت له عظماً ينساك ويشتغل به عنك، وهو إن جاء لا يريد إلا موضعك هذا.

ولما رأى أن حاله لا يزداد إلا فرطاً وشططاً صرف له في المجيء. فجاء وترك عياله وراءه. فاشتكى له بأمره وأمر بقتله، فقتله ليلة الخميس التاسعة من المحرم الحرام فاتح عام السابعة عشر بعد الألف. ولم يباشر القتل، بل أصحابه الذين قتلوه ووجدوه قاعداً في باب داره مع القائد إبراهيم أشخان، فضربوه بالسيف حتى مات. وجرح أشخان المذكور، فمات من ذلك الجرح.

فكان فزعاً كبيراً في البلد تلك الليلة، وغلق الناس أبوابهم. ثم إنهم برحوا بالعافية ليلتئذ وسكن الناس. فأمره الباشا محمود بالسكنى في تنبكت ورحل له عياله، وفوض له الأمر، فبقي أربعة أعوام ونصفاً لا يكون شيء إلا بأمره. وآخر الحال عزله

القائد علي بن عبد الله وتولى مقامه، فكان الأمر كما قال القسيس مامي المذكور.

وفي هذا العام جاء هيكي سيد كري أجي بالغزو من عند أسكيا هورون دنكتيا بن الأمير أسكيا داوود صاحب دند، أراد غزو طاعة أهل المخزن في البحر. فلما سمعوا خبره خرج القائد علي بن عبد الله التلمساني بالمحملة لقتاله في شهر الربيع الثاني، وفي المحملة أسكيا هرون بن أسكيا الحاج ابن الأمير أسكيا داوود المذكور. والباشا محمود هو الذي ولاه ذلك المقام عند وفاة أسكيا سليمن بن الأمير أسكيا داوود، وهو بلمع يومئذ. قد أمره بذلك الباشا سليمن لما انعزل. فتوجه إليه القائد علي فلم يقرب البحر فانتهى جبل دُي ورجع إلى بلدهم. وحين سمع فندنك بوب وول كين صاحب سنفر بتوجهه إلى تلك الجهة، وهو على طريقهم خاف وهرب إلى فندنك بوب يامي صاحب ماسنة، لأنه خالف حيينئذ.

فتبعه بالمحملة حتى وصل بلد عنكب، فنزل فيه وبعث لصاحب ماسنة أن يسلم فيه ويرده إليهم. فقال إنه دخل في حرمته وأنه يصلح بينه وبينهم ليعفو عنه ويرده في حلته على ألفي بقرة حالة. فقبل القائد علي فأعطى صاحب ماسنة تلك العدة من البقر من نفسه ساعة. فجاء بوب وول إليه في المحمة، واتبعه القائد أحمد البرج إلى حلته ليعطي ألفي بقرة حق الشاشية، وهو كأنه دخل في السلطنة الجديدة. فأعطاه إياها وأعطاه أيضاً الألفين الذي وقع عليه ذلك الصلح ثانياً، فكان ستة آلاف بقرة دفعوها في فور واحد عن عجلة.

وفي هذا الطريق خالف أهل سغي على أسكيا هارون ابن الحاج في عنكب. فصبرهم القائد علي، وصبروا. ولكن لما وصلوا تنبكت قاموا عليه حتى عزل، ورحله الأمين القائد عامر في جواره فأبرّ به وأكرمه غاية المبرة والإكرام إلى أن توفي، ومكث في الولاية أربع سنين، وبعدها ثماني سني.

وفي القابل في العام الثامن عشر بعد ألف جاء دند فاري بار بالمحملة الكبيرة من عند أسكيا في دند قاصداً أرض مدينة جني، فقطع البحر الكبير ونزل في ترفي، وذلك في شهر الصفر في العام المذكور. وقيل أن جنكي محمد بنب هو الذي بعث لأسكيا في دند أن يرسل ذلك الجيش، ويعاونهم لكي يخرجوا الأرض من مملكة أهل المخزن. فاشترك مع سري موسى في ذلك الأمر سراً، وكلشع محمد علي، ما قيل. وطلب من فندنك برهم صاحب ماسنة ان يوافقهم فيه، فامتنع وقال إنه راع وكل من تولى سلطنة الأرض فهو خديمه وراعيه. وكتم ذلك عن خديمه الأكبر نجدة وتدبيراً،

سري المعزول أنس مان.

ثم بعث دند فاري لجنكي وأعلمه أنه نزل في ذلك المنزل ينتظره. فرد له المرسول وأمره أن يرتحل إلى قصر مدينة جني، فحينئذ يخرج للقائه والاجتماع به. فلما طلع أنس مان على ذلك بعث مرسوله لدند فاري سراً فنهاه أشد النهي عن الوصول إليه، وقال له أن الجنويين ليسوا بأهل وفاء ونصح، لا أمنهم على جيش أسكيا. فقبل نصحه وارتحل ساعتئذ، فقطع البحر ورجع إلى جهة كرم.

وقد وجد الحال أن القائد أحمد بن يوسف خرج من تنبكت راجعاً إلى مدينة جني، وهو قائد عليها يومئذ، وعادته في قيادته يسكن فيها في بعض شهور السنة، ويسكن في تنبكت في بعضها.

فلما صح خبر هذه المحملة بعث به كركي لأهل بلد كب وعظم لهم أمرها. وقد وصله القائد أحمد المذكور ومعه جماعة من الرماة، فابنتى محملة هنالك، وبعث إلى تنبكت عند الباشا محمود لنك ووكد عليه في صرف المحملة بمبادرة وسرعة. فأمر القائد علي بن عبد الله أن يخرج لها. فخرج بجميع الجيش إلا من عادتهم أن لا يخرجوا إلا مع صاحب الأمر، إذا تحرك مثل قائد المخازنية وغيره. فخرجوا في جهة كرم. ثم سمع أن دند فاري في جيش عظيم، فصرف للباشا في تمديد الرجال. فخرج القائد ومن بقي في البلد من الرماة، وفيهم أسكيا هارون، وهو معزول يومئذ. فوصلوا بلد عنكب ونزلوا فيها.

ثم وصل دند فاري بلد كب، أينما ابتنى القائد أحمد بن يوسف محلته، فهرب منه بالمحلة ودخلوا في قصبة كب. فحاصّوا قباءه وما بقي وراءهم من أمتعته، وقبضوا بعض القوارب الخارجين من مدينة جني وأكلوا منها أموالاً كثيراً من الذهب وغيره. فحصروا تلك المحلة وهم في داخل القصبة.

فبلغ الخبر القائد علي بن عبد الله، وهو في محلته في عنكب، فنهض بمن اختار منها من الرماة لإغاثة المحصورين. وبقي القائد حد وأسكيا بكر وأسكيا هورون والقائد أحمد بن سعيد وأشياعهم في تلك المحلة. ولما سمع دند فاري بمجيء القائد علي نهض بمحلته بالليل قاصداً أرض درم من وراء جبل كر، حتى قاربوا بلد جنج. فنزل بالمحملة، وبعث لأهل جنج في أمر الضيافة فأرسلوها لهم.

ثم نهضت المحلة التي بعنكب لقتالهم، فاقتتلوا عند الجبل المذكور فكان قتالاً شديداً. ومات في المعركة بين الطائفتين كثير من خيار أهل المخزن منهم عبد العزيز

الكاتب من أصحاب المخازنية، ومن أهل النجدة المعروفين قدماً. وقبض أهل سغي أعني أصحاب داد فاري بلمع إسحاق ابن بنك فرم محمد هيك، وذهبوا به إلى عند أسكيا في دند. وما افترقوا في القتال إلا عند دنو الشمس للغروب. وما روعهم في المنزل الذي نزلوا فيها إلا صوت الدرقة التي ركضها الحصان برجله، فهرب أهل المحلة بأسرها فكبارها وصغارها إلى بحر دب إلى أفخاذهم في الماء. ثم تحققوا بعد ذلك السبب فخرجوا من البحر، وبلغوا الغاية والنهاية من الرعب والخوف. وما أغاثهم إلا أصوات غياطة القائد علي بن عبد الله فوق البحر يقطعها إلى نحوهم. فقال من حضر في ذلك الغزو: ما سمعنا في أذاننا قط أحلى من تلك الأصوات. فكان لهم فرجاً بعد الشدة.

ولما وصل بلد كب فقص علي القائد أحمد بن يوسف ما جرى بينهم، وأنه ارتحل إلى أرض درم كر راجعاً عند أصحابه هنالك وأدرك قد فرغوا من القتال. ودند فاري لما سمع بوصوله عندهم ولى مدبراً إلى أرضه. والقتال وقع في أوائل الربيع النبوي في العام المذكور.

ورجع القائد حد وأصحابه إلى تنبكت، وجعلوا على أجسامهم الشوكة لأهلها، ولبسوا لهم جلد النمر، وشتتوا جماعتهم في المجالس. وبقي البلد زماناً طويلاً لا يتحدث فيه اثنان في مجلس. وقبل وصول المحلة للبلد أمر صاحب الأمر بالدور فيه عند صلاة العشاء ومرة قبلها بالتشديد والتوكيد حتى لا يمدح المداحون ليلي الشهر الكبير إلا بعد صلاة المغرب. والعادة المعروفة المعهودة لا يكون إلا بعد صلاة العشاء.

وأما القائد علي بن عبد الله فقد مضى إلى مدينة جني بأصحابه، ومعه أسكيا بكر. وقد سبقه القائد أحمد بن يوسف بالمشي إليه، لأن أرض جني كلها قامت وخالفت، وجميع القرى التي كانت على ساحل البحر هرب أهلها كلهم إلى الحجر.

وأول قواربه الذي وصل بلد ساق دفع إليه الخيل من بلاد ساتنك، فنهبوا ما فيه ومضوا. فجاز القائد علي ولم يبال بهم، ووجد أهل بلد كوتا قد خالفوا وقاتلوا الرماة الذين في القصبة، فنصرهم الله عليه، وهربوا إلى الحجر. فجاز على حاله، فحين وصل قواربه مرسى بلد كنبع، ورسوا، وليس عنده نية القتال، جاءهم أصحاب سري موسى فبدأوهم بالقتال ساعتئذ. فتحزموا للقتال واقتتلوا، وذلك في يوم السبت الحادي عشر من الربيع النبوي في العام المذكور. واستعر القتال بينهم واشتد إلى اصفرار الشمس. فقال ذووا الرأي للقائد علي: إذا بات عنك الليلة وما أصبته لا تسيبه بعد.

فنزل على رجله ودخل في سور البلد حتى وقف في باب داره مع رجاله يقتتلون

مع أصحاب سري، وهو رجل أعمى جالس في داره، وباركي متاعه فوق السطح مع الرجال. ويرسل له السلام ساعة بعد ساعة ويسأل عن سلامته، ويقول: ما دام هو حي لا ينال العرب منه نيلاً. فإذا المرء جاءه قال: إن باركي أصيب بالرصاص الساعة فمات. قال: الآن، ثم مرادهم فيه. فعن قليل كسروا باب داره، فدخلوا عليه وقبضوه وقتلوا وأكلوا البلد كله إلا حومة كفار بوب، وذهب به في الحديد.

وقد أحضر جنكي محمد ينب الرجال في داره وحفر فيها البئر، وعول على القتال والحصران. فلما وصل القائد علي مدينة جني نزل بمحلته في سبر، وبعث بسري في داخل المدينة فقُتل شر قتلة، فبعث لجنكي في المجيء. فجاءه في ذلك المنزل، ولم يجاوز له الملامة فهداه الله للأصوب من الرأي.

ولا يشك أحد من الرماة الذين في إدالة جني أنه يقتله فلما رأوه راجعاً إلى داره سالماً سبّوا القائد علي ولعنوه غضباً وغيظاً. ثم رجع إلى تنبكت.

ثم بعث أهل جني لأهل البلادات كلها التي على سواحل البحر بالأمان إن يرجعوا إلى مكانهم. فمنهم من بادر بالرجوع، ومنهم من تأخر ثم رجع.

وفي القابل في التاسع عشر بعد الألف عند أول فيض ماء البحر رجع إلى مدينة جني مع أسكيا بكر لمصالح السلطنة. ولما وصلها لم يشك أحد من الرماة الذين كانوا في إدالته أنه ينتقم من جنكي. ولا يشك هو في ذلك.

فنزل خارج المدينة عند الجنان، وصرفوا لكَل شاع محمد فحضر. ثم رأى أيضاً أن قبض جنكي ليس بمصلحة ويكون فساداً في الأرض الذي لا ينجبر. فقطع عليه النصاف العظيم وقبض في ذلك مالاً عظيماً جداً في قبائله، وأدوه بعجلة وصرعة، وهم فرحون لسلامته، وهو عزيز عندهم حبيب في قلوبهم.

وقد حاسد أسكيا بكر كل شاع محمد حينئذ لما رأى أن قدره فاق على قدره، وبينهما تفاوت كبير. ثم رجعوا إلى تنبكت وقد طار عقل الباشا محمود من قبضه لما يترتب فيه من المفسدة العظيمة. فحين حضر بين يديه عند الوصول سأله هل قبضه أم لا. فقال: لا، بل رجع نصافاً. فدعا له فقال: لا أراهم الله تعالى ساعة ليس هو فيها. فأعطاه جميع النصاف.

وأما أسكيا بكر فوشى بكل شاع عند الباشا محمود، وأكثر في النميمة له عليه، وقال: إنه رأس الفتنة، وهو الذي بعث عند أسكيا في مجيء دند فاري. فكتب للقائد أحمد بن يوسف وأمره بقتله. فدافع عنه جهده حتى قال أنه يعطي عنه خمسمائة مثقال

إن لا يموت. فأبى إلا الموت. فقتل ظلماً وعدواناً.

وحين عزم القائد علي بن عبد الله على الرجوع من جني عزل القائد حمد بن يوسف من القيادة فولاها للطالب محمد البلبالي لما جاء إلى تنبكت. فأصلح من شأنه وسار إليه حاكماً.

وبقي القائد علي بن عبد الله في ذلك التمكن والاعتلاء إلى العام الحادي والعشرين بعد الألف، وهو في أسفَي للحراسة في وقتها المعرفة، إذ جاء خبر سيد كري أجي، وهو دند فري يومئذ، أنه يقصدهم بغزو كبير من عند أسكيا الأمين صاحب دند. فتوجه إليه بجيش عظيم، وفيهم الشيخ أحمد توريك الزبيري، في شهر الربيع الثاني والله أعلم. فوصلهم في شرك شرك، مكان في أقصى أرض بنك من جهة القبلة. فوقف كل طائفة من الجيشين في مقابلة صاحبها. ثم افترقوا بلا قتال، فولى هذا مدبراً، وهذا مدبراً. وذكر عن أسكيا بكر أنه قال ما رأيت طائفتين قد ذهبت دولة كل واحد منهما إلا إياهما.

وقيل أن القائد علي بعث لدند فاري سيد ذهباً على يد أسكيا بكر لكي يرجع من غير قتال، وهو ابن أخت أسكيا بكر المذكور. فرجع وسمع بذلك أسكيا الأمين. ولما بلغ لديه كاشفه في ناديته وغايظ عليه جداً وغيره بأخذ الرشوة في ترك القتال. فلما دخل داره شرب ماء الحلس فمات. فوجد الذهب في أمتعته، ولم يعرفه به أحد قبل. فقويت التهمة.

فرجع القائد علي بالمحلة إلى تنبكت فعزل الباشا محمود لنك، وتولى ضحوة الأربعاء الخامس عشر من شعبان المنيرفي العام المذكور في شهر يُليُه ولله أعلم. فركب ساعتئذ وطاف في البلد. فلما نزل دخل عليه الباشا محمود فسلم عليه وحياه ودعا له وقال له في في الكلام: ها أنت أبنيت باباً، كما دخلت فيه تخرج منه. إشارة منه للعزلان. فكان الأمر كذلك، فعن قليل مات. ومكث في السلطنة ثمانية أعوام وسبعة أشهر، وهو آخر الباشات من مراكش. وقيل أنه مات مطعوماً.

الباب الثامن والعشرون

ذكر آفات ومحن في مدينة مراكش

وقد تقدم أن دخول الفقهاء أولاد سيد محمود في مدينة حمراء مراكش هو فتح أبواب البلاء لها.

وذكر في الخبر أنهم أدركوا فيها أسارى النصارى يستخدمون يدخلون ويخرجون، وفيهم واحد ما رئي قط منذ أُسر منشرحاً ولا متبسماً إلا يوم دخول الفقهاء البلد، فوافقوا به عند باب السور، فلما رآهم ضحك وفرح غاية الفرح فزالت عنه ما به من عبوسة الوجه وتكمش الحال. فعجب الناس به، وانتشر خبره في البلد، واتصل بالسلطان مولاي أحمد، فأمر بسؤاله عن ذلك. فقال: وكيف لا أفرح، وقد تم مرادنا في بلدكم هذا، لأنا روينا عن أخبارنا أن خرابه دخول المتلثمين فيه، وهم هؤلاء الناس بالصفات التي وصفت لنا.

فأول ما بدأ فيه من البلاء على السلطان قيام مولاي نصر بن السلطان مولاي عبد الله، فأجابه أهل الغرب كافة لمحبة والده في قلوبهم. وخاف منه مولاي أحمد خوفاً عظيماً، وخرج إلى برا بالمحلة الكبير المتينة، فسرح الفقهاء المثقفين وعفى عنهم. فأمكنه الله منه وقتله وبعث بفرحه إلى بلاد السودان.

ثم ترادفت عليه المحن من كل وجه حتى قيل أنه ندم على ما صدر منه لعلماء السودان. ثم قام عليه ولده وقرة عينه ولي عهده مولاي الشيخ في مدينة فاس. فجهز إليه الجيش بنفسه وقبضه، وأمر الباشا جودار أن يذهب به إلى مكناسة ويسجنه فيها. ورد البيعة لابنه أبي فارس، وأعلم جودار بذلك بعد ما رجع من مكناسة، وهو شقيق مولاي الشيخ المذكور.

ثم أطعمته السم زوجته عائشة بنت أبي بكر الشبانية أم ابنه مولاي زيدان، وهما معه في هذه الغيبة، في تين أكله هو وحفيدته ابنة الشيخ، وهي صغيرة. أكلت منه واحداً، كيفما بلعته في الساعة طارت ونزلت على الأرض وماتت من حينها. وتمكن في السلطان، فبادر بالخروخ من مدينة فاس، ورجع إلى مدينة حمراء مراكش، ومات في الطريق في أواسط الربيع النبوي في العام الثاني عشر بعد الألف.

وكتمه جودار عن الناس حتى بلغوا المدينة، فدفن فيها. وأنفذ وصيته في بيعة مولاي أبي فارس، فبايعوه. وتولى السلطنة مولاي زيدان في فاس بنفسه، وبايعه أهلها، فقامت الفتنة بينهما. فجهز الجيش إلى فاس، فقتال مولاي زيدان، وأمر عليهم جودار. فلما قارب إليه سمع أنه خرج بنفسه لقتالهم، بعث رسولاً إلى مولاي أبي فارس وأخبره أن مولاي زيدان خرج بنفسه في المحلة يقصدهم، ولا يقدر هو محاربته ومطاردته قطعاً، ويأمر بإطلاق مولاي الشيخ ليكون لهم أمير الجيش حتى يقاتلوه. فأنعم له بذلك، وبعث جودار في تسريحه.

ثم بعد رجوع المرسول من عند مولاي أبي فارس كتب ثانياً لجودار فقال له فيه: إذا ضربت بذلك السيف فرده في غمده. فوقع الكتاب في يد مولاي الشيخ قبل أن يصل جودار، فقرأه وفهم المراد بتلك الإشارة. فاقتتلا وغلب مولاي زيدان، وهرب إلى أرض سوس. ورجع مولاي الشيخ إلي فاس وتأمر فيها، ثم جهز الجيش إلى مولاي أبي فارس في مراكش لقتاله، وأمر عليها ابنه مولاي عبد الله الصغير.

فغلب أبا فارس، وهرب إلى الجبال. وتولى السلطنة لنفسه في مراكش، ولم يمكث فيها إلا عاماً وتسعة أشهر. وكذلك مولاي أبو فارس لم يمكث فيها إلا عاماً وتسعة أشهر. ولما تولى جاءته أمه وأمرته بقتل الشيوخ الكبار خدام جده أحمد ليتهنا في تلك السلطنة. فقتلهم جميعاً، وهم أحد عشر قائداً، منهم الباشا جودار، وبعث برؤوسهم لوالدته في فاس. فحين رآهم انكسر قلبه في أمر الدنيا، وندم على السلطنة.

ثم خرج مولاي أبو فارس من الجبال وتوجه فاس، فسكن عند أخيه مولاي عبد الله الشيخ. ثم احتال مولاي زيدان حتى جهز الجيش إلى مولاي عبد الله في مراكش، وأمر عليهم ابن عمه مولاي أبو حسون، ويقال له بو الشعير أيضاً. فقاتله وغلبه. وهرب إلى فاس عند والده مولاي الشيخ. فقتل عمه أبا فارس، وتغلب على والده المذكور.

فاغتم لذلك وهرب إلى النصار وسكن عندهم. ثم باع لهم العرائش، وهو موضع نفيس عزيز جداً في مملكة المسلمين، فتولاها النصارى، وهي في أيديهم إلى الآن. وبقي عندهم إلى أن مات، وقيل مات مرتداً والعياذ بالله.

وبقي مولاي عبد الله في فاس يشتغل بالأعمال السيئات من الظلم والجور وغيرها حتى حجروه وأمسكوا على يديه إلى أن مات. فقاموا بأنفسهم بلا وال ولا أمير سوى الأشياخ في كل حومة إلى الآن.

وأما مولاي أبو حسون فتولى السلطنة لنفسه في مراكش نحو أربعين يوماً. فوجد أهلها في غاية من ضيق الغلاء، فأخرج لهم من هرايا السلطنة من كل صنف من الطعام المدخرة ونشرها لهم، ولذلك سُمي بو الشعير. ثم جاء مولاي زيدان، فقتله وتولى السلطنة.

ومن ذلك البلاء حدوث الطاعون والوباء فيها، ولم تكن قبل، كاد أهلها أن يفنى أصلاً وفصلاً من اتصالها ودوامها، وهلك منها من لا يحصى عدده إلا الله تعالى. ولم تنفك تلك المرينة عنها إلى هلم جراً.

وقد أدركت أن الأمير السلطان مولاي أحمد أنشأ بناء الجامع، ووضعه وضعاً عجيباً، فسمي بذلك جامع الهنأ. ثم شغل عنه بترادف تلك المحن ولم يكمله حتى توفي، فسمي جامع بذلك جامع الفناء.

ثم قيام سيد أحمد بن عبد الله السوري، وهي الفتنة العظيمة والمحنة الجسيمة التي شتت الشمل وبتت الأصل والفصل، بعثه الله تعالى عليهم عذاباً وانتقاماً، ولحكمه السابق توفية وإتماماً. فقام من واد السور في شهر المحرّم الحرام فاتح عام التاسع عشر بعد ألف في يوم عاشوراء - واد السور بلد بين توات وتفلالت - فأجاب دعوته أخلاط من الخلق. فتوجه إلى الأمير مولاي زيدان في مراكش بعد ما بعث إليه رسالات نظماً ونثراً يذكر فيها الكبائر التي يرتكبونها في دين الله تعالى وتغيير سنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

فخرج إليه الأمير مولاي زيدان فطارد معه، والرصاص ينزل على أصحابه ولا يؤثر فيهم شيئاً. فهزم عسكره وهرب إلى الجبال. فدخل أصحابه المدينة وأفسدوا فيها، ودخلوا في دار السلطان وأكلوا جميع ما فيها، وأبرزوا الحرائر من الدور وجردوهم وفعلوا بهن الفواحش مثل ما فعل محمود بن زرقون بديار أولاد سيد محمود، سواء بسواء، جزاء وفاقاً، سبحان الملك القادر الذي لا يغفل عما يعمل الظالمون. ورفعوا جميع ما في الديار من الأموال والأمتعة والآثاث ونشروها في الآفاق والأقطار. وجاء كثير منها في مدينة تنبكت لرسم التجارة، فتبايعها الناس بينهم وتملكوها. ودخل منها متاع في دار أولاد سيد محمود لينظروها من زينتها وحسن تراكيبها. فكان ذلك عظيم الاعتبار لأولي الأبصار من فعل الرب الذي انفرد بالقوة والاقتدار.

تنبيه: أما الأمير السلطان مولاي أحمد الذهبي فهو ابن مولاي محمد الشيخ ابن مولاي محمد أمغار الشريف بن عبد الرحمن. وأمه جارية اسمها للّ عودة أبوها فلاني الشريف.

أمغار جاء من المشرق، وأم أرض سوس المغرب فنزل فيها وسكن. وتلقاه أهلها بالتعظيم والإكرام والتشريف والاحترام. وفي آخر الحال ولوه أمرهم فكان أميراً. ومدته ثلاثة وثلاثون شهراً، فتوفي.

وخلف من الأولاد ثلاثة مولاي: أحمد الأعرج وهو الأكبر، ومولاي محمد الشيخ، ومولاي عبد الله. فتفرع من مولاي محمد الشيخ مولاي عبد المالك، ومولاي أحمد الذهبي. وتفرع من مولاي عبد الله أولاد كثير، منهم مولاي محمد، ومولاي

ناصر. أما مولاي أحمد الأعرج فكان أميراً في مدينة حمراء مراكش. ثم سعى بينه وبين أخيه محمد الشيخ النمامون وقالوا له إنه يطلب ملكه، فكانت فتنة بينهما حتى اقتتلا، فغلبه مولاي محمد الشيخ، وثقفه إلى أن مات.

وبقي مولاي محمد الشيخ في تلك السلطنة إلى أن توفي. فخلفه فيها أخوه مولاي عبد الله ومكث فيها سبعة عشر عاماً. فجاء صواباً لأهل الغرب وأحبوه كثيراً. فنحّى أولاد أخيه إلى أطراف المملكة، وكلموه في ذلك فقال لهم: أريد لكم الحيوة وطول البقاء وإذا سكنتم بين أولادي يقتلونكم. وبقوا على تلك الحال حتى مات.

فخلفه ابنه مولاي محمد المسلوخ في السلطنة، ومكث فيها عاماً وتسعة أشهر. فغضب أولاد عمه عبد المالك وأحمد الذهبي، فتوجها إلى أمير المؤمنين العثماني صاحب الفسطنطين وطلب منه عبد المالك أن يمده بالقوة من الجيش حتى يصيب ملك مراكش. فساعفه بمراده، وأمده من جيش ولأتراك ما يقده، فغلب ابن عمه مولاي محمد بن مولاي عبد الله. وهرب إلى النصارى.

فتولى مولاي عبد المالك السلطنة ومكث فيها عاماً وتسعة أشهر أيضاً. وبدل أحوال أسلافه بأحوال الأتراك، حتى في زي الملابس وفي المطاعم وتسميته أرباب الرتب من الخدام. فصار جميع أحواله في سلطنته أحوال الأتراك، واستعمل في الأسلحة المدافع على أنواعها، وفي الملابس القفاطين والفرجيات وشدخوخ وغيرها، وفي تسمية الخدام البشوطات وضباشيات والولضاش وغيرها.

فطلب مولاي محمد بن مولاي عبد الله من سلطان النصارى أن يمده بالجيش لقتال مولاي عبد المالك، فأجابه إلى ذلك. وجعل عليهم ابنه فتوجهوا إليهم. وفي يوم التقاء العسكرين كان من قدر الله تعالى موت ثلاثة نفر مولاي محمد ومولاي عبد المالك وابن سلطان النصاري بلا علاج ولا قتال، فكان من عجائب الاتفاق ذلك تقدير العزيز العليم. وبقي الجيشان يتقاتلون ولا علم عند أحد من الجيشين بوفاة السلطان مولاي عبد المالك، لأن القائد محمد طابع كتمه ولم يبديه لأحد، يجيء إلى بيت عوده الذي هو فيه ويكلمه ويشكر له من رجاله من شاء، ويولي إليهم ويقول لهم: السلطان يسلم ويراكم وما أنتم عليه، ويشكركم ويدعو لكم - حتى هزموا جيش النصارى، فولوا مدبرين. فلما أظهر وفاته هرب مولاي أحمد الذهبي واختفى خوفاً من أن يقتلوه.

فعزم الأتراك على تولية مولاي إسماعيل بن مولاي عبد المالك، فلم يقبل ذلك

أهل مراكش. فجيء بمولاي أحمد أينما كان في الساعة. فولوه فكان مولاي أحمد أميراً حينئذ. ثم شرع في قتل قياد أخيه الكبير لبغض سبق له فيهم من أفعالهم، منهم القائد الدغالي والقائد رضوان والقائد جعفر والقائد علي الجنوني، إلا القائد جودار والقائد محمد طابع، ولكن سجنه اثني عشر عاماً سجن ثقاف في جنان، وله فيها كل شيء من أنواع الخير والنعم. ثم سرحه وصرفه إلى السودان باشا، ومكث هو في تلك الأمرة سبعة وعشرين عاماً ونصفاً، فخرج فيها عجائب وغرائب من الذكاء والمعرفة بجميع الأشياء والهمة العلية والسعادة الدنيوية ومواتاة الليالي والأيام، حتى قال أنه ما همّ بشيء قط إلا يأتيه وفق ما أراد بل فوق ما نوى. ثم توفي في أوائل عام اثني عشر بعد ألف. فاضطربت الدولة ورجعت القهقرى إلى هلم جراً.

الباب التاسع والعشرون

نبذة في تاريخ الملوك السعدية

ولنرجع إلى إتمام الكلام في أمر مولاي زيدان مع السوري. فلم يدخل المدينة بنفسه أصلاً بل بقي خارجها أيام غلبته حتى تجهز إليه سيد يحيى السوسي، فالتقى معه وراء سور المدينة في أوائل رمضان في العام الثاني والعشرين والألف. فغلبه وقتله وقطع رأسه أهل مراكش، وبقي الأطفال يلعبون به. وبعث سيد يحيى للسلطان مولاي زيدان أن يأتي لبلده ويدخل في سلطنته. وأرسل إليه هو أن ينصرف لبلاده، متى انصرف يقدم لبلده، أينما شاء. ولم يأمن فيه وخاف منه الغدرة. فلما ولى محققاً رجع في سلطنته، وبقي فيها إلى أن توفي في العام السابع والثلاثين بعد ألف. ومكث في السطنة اثنين وعشرين سنة.

ثم تولى ابنه أبو مروان مولاي عبد المالك. فكان سفاكاً للدماء مسرفاً على نفسه مشتغلاً بالقبائح من الأفعال، حتى ملّ منه الناس فقتله قومه. وتوفي في أواسط سنة تسعة وثلاثين بعد ألف. فمكث في السلطنة سنتين وثمانية أشهر.

ثم تولى أخوه أبو عبد الله مولاي الوليد. فسارفي ولايته بسيرة أخيه. وملّ منه الناس أيضاً، فتعاهدت عمته الشريفة للّ صفية مع المماليك خدام الدار على قتله. فضُرب بالمدفعة ومات في أواسط سنة خمسة وأربعين وألف. ومكث في السلطنة خمس سنين.

فولت العمة أخاهم الأصغر سناً الفاضل الميمون المبارك مولاي محمد

الشيخ بن مولاي زيدان فكان أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ذا سيرة حسنة وطريقة زينة محباً للفقراء والمساكين معظماً للعلماء والصالحين. وله السلطنة اليوم تسعة عشر سنة، أطال الله بقاءه وأدام له النصر والتمكين والفتح المبين، إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير.

الباب الثلاثون
ذكر الوفيات والتواريخ لبعض الأجناد والفقهاء والأعيان والإخوان والأقارب
من مجيء الباشا جودر إلى عام الحادي والعشرين والألف وذكر بعض الحوادث فيها على الترتيب

من ذلك موت شاع فرم علي جاوند وبنك فرم عثمان درفن وفندنك بوب مريم وغيرهم عند ملاقات الباشا جودار وأسكيا إسحاق في المعركة، وذلك في يوم الثلاثاء السابع عشر من جمادي الأولى في العام التاسع والتسعين والتسعمائة.

وفي يوم الخميس الحادي والعشرين من ذي الحجة الحرام مكمل العام المذكور توفي تنبكت منذ يحيى ولد بردم، قتله أصحاب القائد المصطفى التركي عند سور القصبة بالرصاص.

وفي يوم الاثنين الخامس والعشرين منه توفي فاري منذ ينب ولد ساي ول في المعركة بين الباشا محمود بن زرقون وبين أسكيا إسحاق أيضاً.

وفي العام المكمل الألف في شهر جمادي الأولى والله أعلم توفي أسكيا إسحاق وأصحابه في نمتك، وأسكيا محمد كاغ وأصحابه في مدينة كاغ. وبين وفاتهما أربعون يوماً.

وفي هذا العام توفي الخطيب محمود دارمي في كاغ رحمه الله تعالى.

وفي يوم الخميس التاسع من المحرم الحرام الفاتح للعام الأول بعد الألف توفي الشريفان الشهيدان بابا الشريف وعمر الشريف سبطا الشريف أحمد الصقلي، قتلهما الباشا محمود بن زرقون في سوق مدينة تنبكت. ودفنا في قبر واحد في مقابر الجامع الكبير.

وفي ليلة الاثنين أول ليلة من المحرم الحرام الفاتح للعام الثانية بعد ألف قرب طلوع الفجر توفي العلامة الفقيه القاضي محمود كعة بن الحاج المتوكل على الله في

أزكيا. وحمل إلى تنبكت، وصلي عليه بعد صلاة العشاء الآخرة من ليلة الثلاثاء، ودفن ساعتئذ بمجاورة قبر الفقيه أحمد بن الجاج أحمد رحمهم الله ونفعنا ببركاتهم أمين.

وفي يوم الأربعاء الرابع والعشرين منه توفي الفقيه العالم المفتي أحمد معيا، والفقيه الزاهد محمد أمين بن القاضي محمد، والفقيه المصطفى بن الفقيه مسر أند عمر، قتلوا شهداء مع إحدى عشر نفراً معهم في الأسارى لما قبضهم الباشا محمود بن زرقون في جامع سنكري يومئذ، رحمهم الله تعالى وأعلى منازلهم في الفردوس الأعلى أمين.

وفي يوم السبت التاسع عشر من شهر صفر في العام المذكور تولى القضاء الفقيه القاضي محمد بن أحمد ابن القاضي عبد الرحمان بأمر الباشا محمود المذكور على يد حبيب بن محمد بابا بعد ما عرضه على العلامة الفقيه عبد الله أحمد بُري. واستصحب إليه معه عشرة من الشواش، فاستعذر له وطلب منه الإقالة. وأعطاه عقداً مكتوباً فيه على والده محمد بابا أربعمائة مثقال ذهباً له، فأقاله حينئذ.

وفي شهر جمادي الأولى منه توفي الفقيه محمد بابا مسر بن الفقيه أند غمحمد المعروف بالمصلي بن أحمد بن ملوك بن الحاج الدليمي في مدينة جني، كان فقيهاً عالماً جليلاً. وكان العلامة الفقيه عبد الله بن أحمد بُري يستمع لإقرائه خارج الدار حيث كان في تنبكت رحمه الله تعالى بمنه.

وفي يوم الجمعة التاسع عشر من شوال بعد صلاة العصر توفي شيخ الإسلام مفيد الأنام التقي النقي الصالح الفاضل العلامة الفقيه محمد بن الفقيه القاضي محمود بغيغ الونكري، ودفن في ليلة السبت في مقابر سنكري، رحمه الله ونفعنا به أمين.

وفي ثامن عشر من ذي الحجة الحرام آخر شهور العام الثاني بعد ألف ورد في مدينة تنبكت كتاب الفقيه القاضي أبي حفص عمر بن الفقيه القاضي محمود ببشارة وصولهم مراكش سالمين.

وفي هذا العام أعني الثاني بعد ألف توفي القائد بو اختيار في تنبكت، ودفن في جامع محمد نض.

وفي ليلة الجمعة الأولى من شهر المحرم الحرام فاتح العام الثالث بعد ألف توفي الشيخ الفقيه الصالح البارع في الحديث والسير والتواريخ وأيام الناس البالغ الغاية القصوى في الفقه، حتى قال بعض من عاصره من الشيوخ أنه لو كان موجوداً في زمن أبن عبد السلام بتونس لاستحق أن يكون مفتياً فيها، القاضي أبو حفص عمر

الصادع بالحق بن القاضي سيدي محمود بن عمر في مراكش. دفن بمجاورة القاضي أبي الفضل عياض رحمهم الله تعالى. وكان كثيراً ما يقول في حياته عند ذكر أبي الفضل عياض ما علي من دفن بمجاورته بأس، حتى رزقه الله ذلك بمنه. وقيل لما احتضر بعث لسيد علي بن سليمن أبي الشكوي أن يأيته فأعطاه براءة مطوية، وقال له: بلغها للسلطان وقت كذا. فكان ذلك الوقت بعد وفاته. فبلغها إياه فنشرها، فإذا فيها: أنت الظالم وأنا المظلوم وسيلقى الظالم والمظلوم بين يدي الحاكم العدل غداً. وقيل أنه ندم على ما صدر منه لهم حتى قال: لو اشتركت مع أحد في رأي ذلك لمحوته أصلاً وفصلاً.

وفي يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من جمادي الأولى عام الرابع بعد ألف توفي الفقيه أبو بكر ابن محمود أيد الإمام رحمه الله تعالى.

وفي ليلة الأربعاء ليلة الفطر عند استهلال الشهر، والناس ما زال في الزغاريت والتهاليل عليه والتباشر به، ولد جامع هذه الكراريس عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعيدي [السعدي] - ألهمه الله رشده وأثبته في ديوان السعادة عنده - وذلك في العام الرابع بعد الألف.

وفي ليلة الثلاثاء الثامنة والعشرين من الشهر المذكور توفي الشيخ الصالح ولي الله تعالى الفقيه إبراهيم بن الفقيه عمر في يندبغ، رحمه الله تعالى ونفعنا به أمين.

وفي ليلة الأربعاء أول ليلة من صفر عام خمسة بعد ألف توفيت أم سلمة بنت الفقيه محمود بن عمر في تنبكت، وهي آخر بناته موتاً.

وفي يوم الجمعة قرب الغروب السابع عشر من ربيع الأول في هذا العام توفي القائد منصور بن عبد الرحمن في تنبكت، وصلي عليه ضحوة السبت، ودفن بمجاورة قبر سيد يحيى رحمه الله في مسجد محمد نض. ثم جاء ابنه من مراكش فنقله إليها.

وفي يوم الجمعة التاسع من رمضان في العام المذكور توفي الإمام أحمد بن الإمام صديق في مزرعة كربع، وحُمل إلى تنبكت، وصلي عليه بعد صلاة الجمعة، ودفن في مقابر سنكري، رحمه الله تعالى.

وفي أواخر ذي القعدة الحرام في العام المذكور توفيت عائشة أسر بنت القاضي العاقب في مراكش.

وفي ليلة الثلاثاء بين المغرب والعشاء السادسة من ذي الحجة الحرام المكملة لعام خمسة بعد ألف توفي محمد سيف السنة بن القاضي العاقب في مراكش.

وفي يوم الثالث عشر منه توفي فيها سيد بن عثمان ابن الفقيه القاضي سيد محمود رحمهم الله تعالى أمين.

وفي يوم الجمعة السادس من صفر عام ستة بعد ألف توفيت سعيدة أم الفقيه عبد الله بن الفقيه محمود بن عمر، وصلي عليها بعد صلاة الجمعة. وهي آخر نسائه موتاً، رحمهم الله أمين.

وفي وقت الضحى من يوم الخميس الخامس من الشهر المذكور في العام المذكور توفي الشيخ الفقيه الولي الصالح المتبرك به سيدي الواعظ أبو زيد عبد الرحمن بن سيدي ولي الله تعالى الفقيه القاضي محمود بن عمر بمدينة مراكش، ودفن مع ابن القطان بإزاء جامع علي بن يوسف، رحمهم الله تعالى ونفعنا ببركاتهم في الدنيا والآخرة أمين.

وفي يوم الجمعة العشرين منه بعد صلاة الصبح توفي محمد مؤذن سنكري في تنبكت، وصلي عليه وقت الضحى، ودفن ساعتئذ.

وفي شهر ربيع الثاني منه توفي شيخ المداح الفقيه الصالح عمر بن الحاج أحمد بن عمر المعروف ببابا كري في مدينة مراكش، رحمه الله تعالى.

وفي أول يوم من شعبان منه توفي الشيخ الفقيه أبو محمد عبد الله بن الفقيه القاضي محمود بن عمر في مدينة مراكش، رحمه الله تعالى.

وفي يوم الأربعاء الخامس من شوال منه توفي الباشا محمد طابع في بلد أكد، هو وكرار في موضع واحد.

وفي أول ليلة من ذي الحجة الحرام مكمل عام ست بعد ألف توفي القائد المصطفى التركي في مرسى كبر، ودفن في جامع محمد نض في جوار سيد يحيى رحمه الله تعالى.

وفي صبيحة الخامس في شهر رجب في العام الثامن بعد ألف توفي الفقيه الفاضل الخير الزاهد المؤدب خال الوالد سيد عبد الرحمن بن الفقيه الفاضل الإمام القاضي سيد علي بن عبد الرحمن الأنصاري المسناني، ودفن في مقابر الجامع الكبير رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين.

وفي هذا العام توفي الفقيه العالم عثمان بن محمد بن محمد بن ذنب سل الفلاني إمام مسجد محمد نض، رحمه الله تعالى.

وفي شهر رجب الفرد عام العاشر بعد ألف توفي الفقيه العالم العلامة أبو محمد

عبد الله بن الفقيه أحمد بري بن أحمد بن الفقيه القاضي أند غمحمد، رحمه الله تعالى بمنه.

وفي ليلة الخميس ثاني عشر رجب الفرد عام أحد عشر وألف بعد الغروب توفي الفقيه العالم الفاضل الخير محمود ابن محمد الزغراني التنبكتي مولداً ومنشأً، وصلي عليه ضحوة الخميس، ودفن بباب روضة الفقيه محمود. ويقال أن أباه هنالك وكذا أخوه محمد. فمات عن أربع وستين، كما أخبر به هو. وأخذ رحمه الله عن الفقيه أحمد محمد سعيد الفقه، وبعده عن عبد الله بن الفقيه محمود. ومهر في النحو، ودرس في أوائل أمره. ثم غلبته علة السعال، فلازم بيته سنين، وتخلف عن الجماعات والجمع لأجل ذلك وكان إماماً في جامع التواتيين.

وفي ليلة الجمعة رابع شعبان في العام المذكور وقع البحر في معدك، وذلك يوم سابع من يناير في أيام الباشا سليمن. ثم وقع فيها أيضاً في أيامه ليلة ثامن رجب الفرد في العام الثاني عشر بعد ألف وذلك ثاني دجنبر.

وفي ضحوة ثالث عشر من ربيع النبوي عام الثاني عشر بعد ألف توفي المنصور بالله أبو العباس مولانا أحمد الذهبي خارجاً من مدينة فاس راجعاً لمراكش. فمات في الطريق، فحمل إليها ودفن فيها.

وفي يوم السبت قرب الزوال لليلة بقيت من شعبان في العام المذكور توفي الفقيه العالم الفاضل بقية السلف مفيد الطلبة أبو حفص عمر بن محمد بن عمر صنو عامر بن عمران السعيدي، رحمه الله تعالى وعفى عنه وأسكنه فسيح جنته بمنه. ودفن في قرب والده في مقابر الجامع الكبير.

وفي العام الثالث عشر بعد أفل في شهر صفر توفي أسكيا سليمن بن أسكيا داوود في الفع كُنك. ولحقه هنالك القاضي محمد بن أحمد بن القاضي عبد الرحمن، فتولى تجهيزه وحمل إلى تنبكت ودفن في مقابر سنكري.

وفي شهر ذي القعدة من هذا العام توفي الولي الصالح النقي الفاضل صاحب الكرامات الفقيه علي سل بن أبي بكر بن شهاب الولاتي التنبكتي مولداً ومنشأً، سبط ولي الله تعالى بابا مسر بير، وهو حبيب والدي. كان يحدث له أن الشيخ المقبور تحت صومعة الجامع الكبير بتنبكت جده. نعم وهو كذلك، لأنه ابن عم مسر بير المذكور، واسمه عمار، وكنيته أبو صم، كناه به عربان ولات، لأنه يتصمم عن ما لا يعجبه من الكلام. ولما أصلح القاضي العاقب المسجد القديم هُدم قبره ولا يعرف أنه هنالك،

فظهر وما تغير من جسده ولا من كفنه شيء. فوضع عليه العلامة شيخ الإسلام الفقيه محمد بغيغ الونكري برنسه حتى سوي القبر وبني عليه. ثم بعد ذلك جاء إلى تنبكت واحد من أولياء الغرب زائراً فجاء إلى عند الفقيه المحمدث الحافظ أبي العباس أحمد بن الحاج أحمد ابن عمر، فوجده مع الفقيه محمد بغيغ الونكري والفقيه أحمد معيا. فسلم عليهم وأخبرهم أنه ما جاء لهذا البلد إلا لأجل الرجل الصالح المقبور تحت صومعة الجامع، قد رآه وأخبره أن قبره هنالك، وطلب أن يزوره. فجاء إليه وزاره. فسأله الفقيه محمد بغيغ أو واحد منهم عن لونه، فقال لمحمد بغيغ: أنت أكحل منه. وقال لأحمد مغيا: أنت أنقى منه. وقال: لونه كلون هذا الرجل - أشار إلى العلامة الفقيه أحمد بن الحاج أحمد. ثم مشى، رحمهم الله تعالى ونفعنا بهم أجمعين.

وفي ليلة الأحد رابع عشر شعبان في العام الرابع شعر بعد ألف وقع البحر في معدك لاثني عشر خلت من دجنبر في أيام الباشا محمود لنك.

وفي خامس وعشرين من هذا الشهر في هذا العام توفي الفقيه العالم العلامة الفاضل الخير البارع المدرس أبو عبد الله محمد بابا بن محمد الأمين بن حبيب ابن الفقيه المختار في يوم الخميس بعد صلاة الصبح. وولد يوم الخميس بعد صلاة الصبح أيضاً في جمادي الآخرة سنة إحدى وثمانين بعد تسعمائة، وعمره اثنان وثمانون سنة وشهران، أسكنه الله تعالى أعالي الفراديس بمنه. كان رحمه الله مشاركاً في الفنون، له فيها محاولة جيدة وعبارة مجددة، برع في العلم ودرس وألف. أخذ عن الفقيه عبد الرحمن بن الفقيه محمود وحضر مجالس الفقيه محمد الونكري فقهاً ونحواً وكلاماً، ولم يباشر القرأة عليه. وكاتبه بالأسئلة، وقرنه مع والده الفقيه الأمين في الإجازة. ولازم الشيخ سيدي أحمد في النحو إلى أن اتقنه. وقرأ على الفقيه مغيا جملة من مختصر خليل، وسمع الباقي عن الفقيه محمد بن محمد كري لما تولى الإقراء في مسجد سنكري، وسمع منه التوضيح عن أبن الحاجب، وقرأ عنه جمع الجوامع. وسمع المدونة والموطأ من الفقيه عبد الرحمن ابن أحمد المجتهد. وأخذ روايتي ورش وقالون دارية عن حامل لوائها في زمانه سيدي بن عبد المولي الجلالي، وعن عبد الله بن الفقيه أحمد بري، وأجازه بالشفاء والبخاري. وله قطعة من التواليف، رحمه الله: شرح ألفية السيواطي، وتكملة البجائي على اللامية، وشرح ملفقات شواهد الخزرجي. وله قطعة على مقامات للحريري. وله حاشية على البجائي لم تكمل. وله قصائد جياد ملاح في الأمداح. له قبل وفاته بخمس سنين أو أزيد في كل مولد قصيدة

فصيحة التزمها، نفعه الله بها. ورثا شيخه الفقيه محمد الونكري والفقيه عبد الرحمن بقصيدتين، انتهى.

وفي ليلة الثلاثاء الخامس عشر من شعبان في العام الخامس عشر بعد ألف توفي الأمين الفائد الحسن بن الزبير، ودفن في مسجد محمد نض في جوار سيد يحيى، رحمه الله تعالى.

وفي يوم وفاته توفي أبو بكر ابن الغنداس التاركي في رأس الماء، قتله واحد تاركي من قبيلة كلميني. رماه بحريش في فمه، ورماه هو بالحريش. فماتا هو وأكنزر بن أوسنب ابنا الخالة.

وفي يوم الثلاثاء العاشر من ذي القعدة الحرام في العام السادس عشر بعد ألف ورد الشيخ العالم العلامة فريد دهره وحيد عصره الفقيه أحمد بابا بن الفقيه أحمد بن الحاج أحمد بن عمر مدينة تنبكت، سرحه إليها الأمير مولاي زيدان بوعد منه في حياة أبيه متى منّ الله عليه بدار أبيه يطلقه أن يسير إلى دار أبيه. وبعد ما وفى له ذلك الوعد وانفصل عن المدينة ذاهباً ندم على ما صدر منه، لو لا أن الله تعالى قدر تربته في مسقط رأسه.

وفي يوم الثلاثاء السابع عشر منه توفي الفقيه القاضي محمد بن أحمد ابن القاضي عبد الرحمن. وفيه تولى القضاء الفقيه الولي الصالح محمد بن أند غمحمد بن أحمد بري بأمر صاحب الأمر يومئذ الباشا محمود لنك.

وفي شهر ذي الحجة المكمل للسادس عشر بعد ألف والله أعلم توفي الفقيه الإمام عبد الله بن الإمام عثمان بن الحسن بن الحاج الصنهاجي بمدينة جني، رحمه الله تعالى.

وفي أوائل الربيع النبوي في العام التاسع عشر بعد ألف توفيت الشريفة نانا بير بنت الشريف أحمد الصقلي.

وفي اليوم السابع من وفاتها توفيت ابنتها الشريفة نانا عائشة رحمهم الله تعالى وأعاد علينا من بركاتهم أمين.

وفي يوم الخميس الخامس عشر من جمادي الأولى منه توفي الشيخ الفقيه عبد الرحمن بن أحمد المجتهد رحمه الله تعالى.

وفي يوم الأحد الثاني عشر من جمادي الآخرة منه توفي الفقيه صاحل بن ولي الله تعالى الفقيه إبراهيم. ولوالده هذا كرامات وبركات. ومن كرامته أن مسجد

سكنري ينشق له حائطه بالليل، يدخل منه ويتهجد فيه. وتراب روضته نافع لوجع الضرس إذا وضع عليه، وقيل أنه مجرب، رحمهم الله تعالى ونفعنا بهم أمين.

وفي ليلة الاثنين السابع من شوال عام عشرين بعد ألف توفي القاضي الفقيه محمد بن أند غمحمد بن أحمد بري بن أحمد بن القاضي الفقيه أند غمحمد.

وفي هذه الليلة تولي صاحبه وخليطه قديماً الشيخ عبد النور السناوني، وصلي عليهما ضحوة الاثنين، ودفنا في مقابر سنكري رحمهم الله تعالى أمين.

وفي يوم السبت اثني عشر منه تولى القضاء أخوه الفقيه العالم سيدي أحمد بن أند غمحمد بن أحمد بري بأمر الباشا محمود لنك أيضاً.

الباب الحادي والثلاثون

ذكر الباشاوات من سنة 1021 إلى سنة 1039

وقد تقدم التاريخ الذي تولى فيه الباشا على بن عبد الله التلمساني. وتولى ضحوة الأربعاء الخامس عشر من شعبان المنير في العام الحادي والعشرين بعد ألف. ومن حين تولى تبدلت الأمور وتغيرت الأحوال ولا ترى إلا الحوادث والبدع إلى هلم جراً.

ولما بعث أبو محلي سيد أحمد بن عبد الله السوري القائم كتابه لأهل تنبكت، بعد ما طرد الأمير مولاي زيدان ابن الأمير كولاي أحمد، رام الباشا علي بن عبد الله من الجيش الذين بحاضرة تنبكت أن يبايعوه ليكون أميراً، فأجابوه إلى ذلك وساعفوه عليه. ثم بعد ما خرجوا من عنده راجع إليهم عقولهم فندموا على ما صدر منهم من الإجارة والإسعاف، وأبوا وامتنعوا. ولما لم يجد منهم مراده ذلك رفض بيعة الأمير مولاي زيدان وبايع القائم السوري، فبايعه الجيش في بيعته، وتبعهم أهل جني في تلك البيعة إلى ستة أشهر.

فورد الخبر بقيام سيد يحيى السوسي على السوري فقتله وبعث الأمير مولاي زيدان أن يرجع إلى داره في سلطنته، فرجع فبادر أهل جني إلى الإنكار على أهل تنبكت حيث رفضوا البيعة التي في أعناقهم من قديم عصر باطلاً، وخالفوا عليهم مخالفة شديدة. فتابعهم أهل كاغ، وهم ما زالوا على بيعة الأمير وما تحولوا عنها بحال.

فخاف منها أهل تنبكت ورجعوا إلى البيعة المرفوضة، فجددوها. فبقي ذلك جناية كثيرة [كبيرة] على الباشا المذكور حتى أخذه بها الأمير في آخر الدهر أخذاً

شديداً. وصار العمال في أيامه ظالمين جائرين مفسدين في الأرض من كل جهة ومكان.

وفي أيامه جاء غراب أبيض في تنبكت، وانكشف أمره للناس في ثاني وعشرين يوماً من الربيع الأول عام الرابع والعشرين والألف. رأوه عياناً إلى يوم الأربعاء الثامن والعشرين من جمادي الأولى منه. قبضه الأطفال وقتلوه.

وفي العام الخامس والعشرين بعد ألف زادت البحر على عادتها زيادة لم ير أحد مثلها قط. واتفق جميع الأشياخ المعمرين يومئذ على أنهم لم يروا مثلها في الكثرة، ولا رأوا من رآها. فغلبت على المزارع وأفسدت زروعها، وأغرقت كثيراً من بلاد المغرب في ناحية جني. ومات خلق كثير منها من الأدميين والبهائم. وفي هذا العام وقع البحر في معدك ليلة اثنين لأحد عشر خلت من ذي القعدة، وذلك يوم أحد عشر من نونبر

وفي شهر المحرم الحرام فاتح عام السادس والعشرين والألف وقع بينه وبين القائد حد بن يوسف الأجناسي مغضبة واختلاف، فارتحل من القصبة، وخرج منها وسكن خارجها مع المختارين من أهل سربة المراكشيين، نحو ثلاثة وثمانين رجلاً، كلهم على نية واحدة. ورأى واحد في التصافي معه ويحرسونه ليلاً ونهاراً. فدخل أمره في النزول والنقصان حتى خلع قي يوم الاثنين الخامس من شهر الربيع النبوي في العام المذكور. ومكث في السلطنة خمس سنين غير شهرين.

فتولى المقام يوم خلعه باتفاق الجيش كله الباشا أحمد بن يوسف العلجي. فكتبوا عليه للأمير مولاي زيدان بعد ما سجن ووثق في الحديد، وبينوا له تعدياته وقبيح أفعاله وما احتازه من مال السلطان دون الأمين. فصرف الأمير في أمره في العام القابل كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وبقيت الحوادث تزداد ولا ترى في مستقبل الزمان إلا ما هو أكبر من أختها وحُبس المطر في هذا العام، فخرج الناس للاستسقاء، وبقوا فيها أربعة عشر يوماً لا تزداد السماء إلا صحواً. ثم سقوا قليلاً.

فكان فيه غلاء مفرطة في أرض تنبكت، مات في المجاعة خلق كثير، فأكل الناس ميتة البهائم والأجميين. ونزل الصرف إلى خمسمائة ودعاً. ثم صار وباء، فمات منها كثير من الناس بغير جوع. واستمر الغلاء إلى سنتين، وفرغ المال من أيدي الناس وباعوا آثاثهم وأمتعتهم. واتفق الشيوخ على أنهم لم يروا مثله قط ولا سمعوا بمثله من الأشياخ قبلهم.

وفي يوم الخميس سلخ ذي الحجة مكمل العام المذكور وقع البحر في معدك، وذلك ثامن عشر من دجنبر.

وفي يوم الأحد الثاني والعشرين من شهر الصفر عام السابع والعشرين بعد ألف بعد العصر سمع أهل تنبكت صوتاً في جو السماء نحو المشرق مثل الرعد الذي يتكلم من بعد لأجل غلظه في السماع، حتى حس بعض الناس لزلزلة الأرض. ووقع الرعب والفزع في أهل السوق، فهربوا وانتشروا. وحدثني من أثق به من الإخوان أن ذلك الحال وجده قاعداً تحت الشجرة خارج البلد نحو مسافة يوم عنه. فتحركت الأرض تحته، وخرت الأشجار، وخرجت الحشرات في حجورهم. ثم سكنت الزلزلة فعادت الأشجار إلى حالها والحشرات إلى الحجور.

وفي يوم الثلاثاء سلخ الربيع النبوي من هذا العام جاء الفتى الباشا عمار والقائد مامي التركي من عند الأمير مولاي زيدان في محملة فيها نحو أربعمائة رماة، والأمين القائد محمد بن أبي بكر. فنزلوا أبراز وقت الضحى من ذلك اليوم، وفي عشيته جاءهم الباشا أحمد بن يوسف للسلام عليهم، وكذلك فقهاء البلد وأعيانهم فاستهل عليهم شهر الربيع الثاني ليلة الأربعاء. أما الباشا عمار فدخل البلد في غدها، وأما القائد مامي والرماة فلم يدخلوا إلا صبيحة السبت. وقراؤوا كتاب السلطان وأنفذوا ما أمر به في الباشا علي بن عبد الله. وسأله القائد مامي بأموال السلطان، وعذبه في ذلك عذاباً شديداً حتى مات فيها حينئذ.

وأما القائد حد فقد خرج بالمحلة إلى أسفي بعد دخولهم البلد بثلاثة أيام. وقد شتتوا الرماة الذين جاؤوا مع القائد مامي المذكور في الأرياف. وقد التحق كل فريق منهم بسربة من العلوج والأندلسي، ودفعوا مامي إلى مدينة كاغ، وبقي هنالك إلى أن مات.

وسبب خروج القائد حد بتلك المحلة ما بلغهم من خبر دند فاري جاء بغزو من عند أسكيا الأمين متوجهاً إلى ناحية بلد كب. ثم بعث له هنبركي مرسولاً وأمره أن يرجع بجيش أسكيا لأنه مرض مرضاً مخوفاً، فرجع. وبقي القائد حد هنالك حراساً حتى فاض ماء البحر.

وفي شهر جمادي الآخرة رجع الباشا عمار إلى مراكش مع الأمين القائد عامر بن الحسن عزيزاً مكرماً بلا محنة ولا بلاء التي نالت كل من تولى ذلك المقام بعده. وبقي القائد محمد بن أبي بكر أميناً في تنبكت.

وفي شهر رجب خلع الجيش الباشا أحمد بن يوسف. ومكث في الولاية سنة كاملة وأربعة أشهر.

وفي هذا الشهر تولى الباشا حد بن يوسف الأجناسي باتفاق أولئك الجيش. وفيه توفي أسكيا الأمين المذكور وتولى مقامه أسكيا داوود بن أسكيا محمد بان بن الأميرأسكيا داوود في دند. ثم رجع الباشا حد بالمحلة من ذلك المكان إلى تنبكت في ذلك الشهر، فكان والياً مباركاً ميموناً. وكانت أيامه غرة منيرة، فحرر الناس من عشور الكني في هذا العام لأجل ما بقي عليهم من مضرة تلك الغلاء، فكان فرجاً عظيماً على المسلمين.

وفي أوائل شهر شوال في هذا العام طلع نجم ذو دنب فابتدأ أولاً طلع مع الفجر، ثم بقي يرتقي حتى توسط في السماء بين المغرب والعشاء إلى أن غاب.

وفي ليلة الثلاثاء الحادية والعشرين من المحرم الحرام عام الثامن والعشرين والألف وقع البحر في معدك، وهو يوم التاسع العشرين من دجنبر.

وفي سلخه توفي الباشا حد ودفن في مسجد محمد نض، ومكث في الولاية سبعة أشهر.

وبهذا التاريخ تولى الباشا محمد بن أحمد الماسي باتفاق الجيش، فعزل أسكيا بكر كُنبو بن يعقوب بن الأمير أسكيا الحاج محمد. ومكث في الولاية اثني عشر عاماً وولى في فور ولايته أسكيا الحاج ابن أبي بكر كُيشع بن الفك دنك بن عمر كمزاغ. وقبض الباشا أحمد بن يوسف وسجنه، ولبث في السجن إلى أن مات. وولى يوسف بن عمر القصري قيادة جني، بعد ما أخذه وسجنه في تنبكت. ثم قيد ابن أخته مبارك على السربة المراكشية. ولما تمكن فيها أراد قتل خاله، ففطن عليه وبادر به هو، فأسقاه سماً قاطعاً، فمات من حينه. وأطلع حم بن علي الدرعي قائداً على السربة الفاسية، وهو بشوظ يومئذ. فقبض الله تعالى هوانه وهلاكه على يده، فقبضه [فقبض] القائد حم بن علي المذكور مع وزيره الكاهية محمد كنكل الماسي، وسجنهما إلى أن قتلا شر قتلة، بعد أن مكث في الولاية ثلاث سنين غير شهر واحد، وفي السجن ثلاثة أشهر. ومدته في الولاية مع مدة أسكيا الحاج سواء.

فتولى القائد حم بن علي الدرعي مرتبة [مرتبته] يوم قبضه وهو يوم الأربعاء، التاسع عشر من ذي الحجة الحرام مكمل عام الثلاثين وألف. ولم يدخل في التبشات، ولم يسكن في الدار العالية، بل ابتنى داراً أخرى في القصبة وسكن فيها.

وفي أواخر الصفر في العام الحادي والثلاثين بعد ألف بعث للقائد يوسف بن عمر القصري في مدينة جني، فأمره بالمجيء إليه في تنبكت، ويريد أن ينتقم منه لأمر وقع بينهما قبل. فخرج هو من جني صبيحة الاثنين الخامس من الربيع النبوي ملبياً دعوته، وفي يوم الخميس عشر منه وصل تنبكت. فلم يرض أن يراه حتى تلفظ بمقدار يعطيه من المال في إرضائه على لسان المرسول بينهما، ولم يقبل. في ليلة الجمعة السادسة عشر منه بقدرة من له القدرة والإرادة والحول والقوة قتل القائد حم المذكور في المسجد وهو يصلي العشاء الآخرة خلف الإمام في الركعة الثانية في حال السجود، ضربه واحد بالمدفعة من أهل ماسة أصحاب الباشا محمد الماسي، وهم جماعة كثيرة تعاهدوا معه خفية على قتله في تلك الليلة على لسان المرسول بينه وبينهم. أما القاتل فقد هرب ونجا. وقبض واحد من الذين حضروا عند الوقعة، وقتل عند باب المسجد خارجاً.

واتفق كبراء الجيش على قتل الباشا محمد الماسي والكاهية محمد كنبكل، وقتلا ساعتئذ، وعلق رأساهما في السوق غداً. واتفقوا أيضاً على القائد يوسف المذكور وولوه مقامه ساعتئذ، فسبحن الله القوي القادر الذي يكفي عبده كيف شاء وبما شاء. واجتمع النفر الثلاثة في الدار الآخرة في تلك الليلة.

وحين تولى القائد حم بن علي عزل أسكيا الحاج وولى أسكيا محمد بنكن بن بلمع محمد الصديق بن الأمير أسكيا داوود، بعد ما صرف له في تندرم بالمجيء. فجاء في فور ولايته ومكث القائد حم في الولاية ثلاثة أشهر.

وفي يوم الجمعة السادس عشر من الربيع النبوي في العام الحادي والثلاثين والألف تولى القائد يوسف بن عمر القصري المرتبة العلية باتفاق الجيش كلهم. فسار بسير القائد حم بالتسمي بالقيادة والسكنى في الدار التي ابتنى. فكان والياً مباركاً، وأيامه غرة منعمة ذات بخت وسعة ورخاء وخصب.

فكيفما تولى بعث ملوك ابن زرقون إلى جني يكون قائداً فيها، ومكث فيها هنالك عاماً كاملاً، فعزله. فبعث فيها القائد إبراهيم ابن عبد الكريم الجراري، ومكث فيها عامين كاملين، فسعد بذلك المكس وجمع فيها أموالاً كثيراً، وتخلص من جميع ما يلمزه في ذلك من اللوازم والعوائد على أحسن الأحوال. ثم ولاها الحاكم علي بن عبيد.

وفي يوم السبت الثالث والعشرين من رمضان في العام الثاني والثلاثين بعد ألف دخل القائد عبد الله بن عبد الرحمن الهندي مدينة تنبكت، وهو قائد ينب يومئذ، دخلها

عند طلوع الفجر مع أصحابه يطلب الولاية، والشيخ علي الدراوي أمين السلطان علي قابض غرامة تغاز هو الذي دعاه وحمله على ذلك. فلم يوافقه عليه القائد محمد بن أبي بكر الأمين وكبراء الجيش، وأخرجوه من البلد ساعتئذ كرهاً. فخرج والشيخ علي الدراوي مع أهل سربته من العلوج ومن تابعهم من غير أهل سربته، ونزلوا في مرسى كبر. وبعثوا لإخوانهم الذين كانوا في مدينة جني، فجاؤوا فوقفوا على المقاتلة. فأرسل لهم ولي الأمر القائد يوسف الفقهاء والشرفاء في الصلح، فأبوا. فجهز إليهم القائد يوسف والأمين القائد محمد بن أبي بكر الجيش الذين معهم، فالتقوا يوم الأربعاء الخامس والعشرين من شوال في العام المذكور. فاقتتلوا، ومات بينهم من الفريقين من قدر الله وفاء أجله. ولم يظفر بالمراد، فرجع إلى بنب، وتبعه الشيخ علي الدراوي. ثم جاء القائد محمد الكلوي الماسي قائد جيش كاغ يومئذ إلى ولي الله تعالى الشيخ المنير وطلب منه أن يمضي معه إلى تنبكت عند القائد يوسف ويصلحا بينه وبين القائد عبد الله، فقدما وأصلحا بينهما، وحضر القائد عبد الله المذكور ذلك الصلح. فاصطلحا ورجع لبلده بنب وأدرك الشيخ علي مات بعده، وقيل أنه أسقى نفسه السم فمات، والعياذ بالله.

وبقي القائد عبد الله هنالك ساكناً إلى بعد ذهاب الباشا علي بن عبد القادر إلى توات، صرف فيه وكيله أخوه القائد محمد العرب. فجيء به غدراً إلى تنبكت، وضرب عنقه ليلة الولادة، وعلق في السوق. وقيل الباشا علي هو الذي أمره بقتله.

وفي عشرين يوماً من شعبان في العام السادس والثلاثين والألف عزل القائد يوسف من الولاية، ومكث فيها خمس سنين وخمسة أشهر. فتولاها القائد إبراهيم بن عبد الكريم الجراري باتفاق الجيش كلهم، فسكن في دار القيادة. وفي هذا الشهر الذي تولى فيه عزل الحاكم علي بن عبيد من حكومة جني، وولاها سيد منصور بن الباشا محمود لنك حاكماً.

وفي شهر جمادي الأولى في العام السابع والثلاثين والألف ورد مرسول السلطان مولاي عبد المالك بن مولاي زيدان بخبر ولايته وخبر وفاة أبيه. فوردت نسخة ظهيره الذي جاء صحبة مرسوله مدينة جني يوم الخميس الرابع من جمادي الآخرة.

وفي يوم الخميس الحادي عشر منه صار القائد إبراهيم الجراري باشا في تنبكت. ورجع إلى الدار العالية. فهان وضعف في ولايته، ويفعل أدنى الناس من الرماة في الرعية داخلاً وخارجاً ما شاء وأحب ولا ترى ناهياً ولا منكراً، فتعدّوا وبغوا وسعوا في الأرض فساداً.

وفي ليلة الثلاثاء الثالث عشر من شعبان في العام المذكور توفي الحاكم سيد منصور بن محمود في جني. وفي سلخه انعزل الباشا إبراهيم الجراري، ومكث هذا سنة واحدة في ولايته، وذلك سنة واحدة في حكومته. وقد تبرم حبل عزلانه في كاغ لما مضى عندهم الكاهية علي بن عبد القادر في الصلح بينهم وبين الجراري، حيث أعطى ماله الذي أفاده في جني للجيش الذين كانوا بتنبكت، ولم يعط أهل كاغ منه شيئاً. فغضبوا عليه، ومشى علي بن عبد القادر إليهم ليصلح بينهم، فتعاهدوا معه على تولية التبشات.

فرجع لتنبكت وراود أهلها بها، فقبلوه، وولوه باشا في رابع رمضان في العام المذكور. فكان سيف الله مسلولاً في المتعدين الباغين في أيام الباشا إبراهيم الجراري، فأهانهم وأذلهم وقتلهم، وصاروا لازمين الجوامع وديار الصالحين مختفين خوفاً ورعباً، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت. ومكث في الولاية أربع سنين وخمسة أشهر. وفي أيامه توفي الباشا عمار بن عبد المالك في مراكش رحمه الله بمنه.

فحين توفي تولى علي بن عبيد المذكور أيضاً حكومة جني في ذلك رمضان، ولبث فيها سبعة أشهر. وفي شهر ربيع النبوي في العام الثامن والثلاثين والألف عزله لمغاضبة وقعت بينهما، وأمر المعزول القائد يوسف بن عمر أن يتولى الحكومة بجني، فلم يقبلها، ودله على ملوك بن زرقون، فولاها القيادة بجني بهذا التاريخ.

ثم جعل الباشا إبراهيم الجراري عاملاً على قبيلة سفنتير، فمضى إليهم، وقبض زنكل متاعهم، قصد بذلك إهانة له وتصغيراً. فلما رجع عزل ملوك بن زرقون من تلك القيادة، وجعله فيها. فمن قليل مات بغيظ، قيل أنه دعى على نفسه بالهلاك في روضة الولي الفقيه محمود فودي سانوا، والدعاء مستجاب فيها، رحمه الله ونفعنا به. وسبب ذلك أنه بعث له سيفاً يحلى بالذهب، فقال له: لا يستحق بهذا السيف إلا أنت المحب للدنيا. فبكي ودعا على نفسه بالهلاك، وقال: ما هذا إلا شمانة منه واستهزاء. ثم رد ملوك بن زرقون المذكور فيها إلى أن عزل وقتل.

وفي يوم السبت السابع من جمادي الأولى في العام الثامن والثلاثين والألف قتل الأمين القائد محمد بن أبي بكر صبراً في السوق، وعاقه فيه بأمر السلطان مولاي عبد المالك بعد ما سجن يومين، وفي اليوم الثالث قتل، وتولى موضعه الأمين القائد يوسف بن عمر القصري بأمره، لأنه كتب فيه أن يقتل شر قتلة لما ظهر فيه من الغش والخيانة له. وقد عزم هو على قتل القائد يوسف لما تحسب معه في الأموال التي

تولاها في ولايته. فعذبه عذاباً شديداً في السجن ويريد قتله. فلما فطن لذلك أهل سربته المراكشيين حالوا بينه وبينه حتى يكتبوا للسلطان بذلك. فلما رد لهم الجواب أمر بقتله شر قتلة وأن يتولى القائد يوسف موضعه. فحضر قتله ساعتئذ في السوق مكتفاً وهو راكب على حصانه، فبان فيه الرعب والجذع. فقال له القائد يوسف: يا سيد محمد رد بالك مع الله ما عليك إلا الصبر. فلما ضرب عنقه صاح: يا أماه! فتوفي وعلق، ثم نُزل وجهز وصلي عليه، ودفن في مقابر الجامع الكبير.

وفي أواخر شعبان في العام المذكور غازا إلى ماسنة، وذلك أنه لما تولى توفي بقرب ذلك فندنك سلامع، وتولى ابن أخيه حمد أمنة في ذلك رمضان. بعث له الباشا علي أن يقدم إلى تنبكت ليوليه فيها، فأبى وامتنع. ولذلك غزا إليه، فجاءهم فجاة، فهرب منه فندنك حمد أمنة بجميع أناسه، ولم يقدر أن يتبعهم، لأنه وقت الصيف ولم يجيء في قوة ومتنة. فجاز على حاله إلى مدينة، فوصلها ضحوة السبت الخامس والعشرين من الشهر المذكور، واستهل عليه فيها رمضان بالأبعاء. وفي ضحوة الخميس الثاني منه دفع إلى ماسنة أيضاً ورجع إليهم، فلم يظفر بهم. ومن ثم رجع إلى تنبك في الشهر المذكور بلا مغارة. ثم اصطلحا.

وفي يوم الاثنين آخر يوم من المحرم الحرام فاتح العام التاسع والثلاثين والألف جاء عمر بن إبراهيم العروسي إلي تنبكت. فخرج إليهم الباشا علي بن عبد القادر والتقوا عند الأحراث وراء الفندرية بقليل. فاقتتلوا، وقتل عمر المذكور مع عبده بلال، فانهزم أصحابه وولوا مدبرين. وحمل علي الجمل فعلق في السوق يومئذ، فبعث بكفه إلى مدينة كاغ، وبرأس العبد إلى جني.

ثم رجع ولده إبراهيم العريسي مع بقية أولاده وجماعته إلى النبكة البي وراء المدينة من جهة المغرب. فنزلوا عليها وضرب قباءه السوداء فيها، فأخذوا هنالك ما أخذوا من الأيام. ثم ارتحلوا ورجعوا إلى ولات خائبين مخذولين.

ثم بعث للقائد ملوك بجني أن يقبل من حمد أمنة صاحب ماسنة مطلب زنكل لأجل هذا الصلح.

الباب الثاني والثلاثون
سياحة مؤلف الكتاب في بلاد ماسنة

وفي أواسط ذي القعدة الحرام من هذا العام سافرت إلى سيد الأخ المحب

الفاضل الفقيه محمد سنب قاضي ماسنة لزيارته. فطلبها مني منذ أعوام، لم يقدرها الله سبحانه إلا في هذا الوقت، وهو أول رؤيتي بتلك الجهة.

فلما وصلنا حلة السيد المذكور القيناه غائباً إلى حلة السلطان حمد أمنة. فبعث له الأعلام هنلك بوصولنا، فرد إلي المرسول بالتخيير بين أن ألحقه هنالك لرؤية السلطان والسلام عليه، وبين أن أبقى في حلته حتى يقدم علي فيها، ثم نرجع إليه متصحباً للسلام والرؤية.

فاخترت الأول لأجل وضع المشقة عنه في رجوعه ثانياً. فمشيت إليهم عزيزاً مكرماً، وما وصلنا إلا في الغد. فلما قربنا حلته أذن السيد القاضي به السلطان، فبعث هو إلي مرسوله للقائي.

فوصلنا الحلة ودخلنا منزلنا وقت الضحى، وصادف بنزول الغيث. ولم ير كل واحد منا أحد إلا بعد صلاة الظهر. فمشيت ساعتئذ عند السيد القاضي في منزله، فرحب بي وفرح بي غاية الفرح والسرور، ودعا إلي بخير. فنهض معي إلى السلطان في داره، ورحب بي كذلك ووافقت بوصول عامل زنكل عنده، وحضر جميع كبرائه. وقرئ عليهم كتاب القائد ملوك بما أمر به الباشا على منّ العفو عنه وقبض زنكل منه.

ففرحوا بذلك فرحاً عظيماً. فقال هو في ناديته، بعد ما تكلم كنبمع داوود وهو صاحب الكلام أولاً، قال: الآن تحققت لي السلطنة حيث قبل منا الباشا مطلب زنكل. ثم قال للكبراء الذين كان منكل مقسوماً على أيديهم: الله الله في تحصيلها بالسرعة والاجتهاد، ويكون مليحاً مختاراً، وأنا خائف من الباشا علي. قالها ثلاث مرات. ثم تكلم كنبمع فقال: الآن نحن نخاف منك جميعاً حيث قلت إنك تخاف من الباشا. فقرؤوا الفاتحة وتفرقوا على هذا.

وبتنا هنالك تلك الليلة. وفي غد فرغوا من الأمر الذي من أجله أتاهم السيد القاضي، فعزم على الرجوع إلى حلته. وبعث للسلطان بأني راجع معه. فقال: ما زال ما استأنس بي، فليمض هو على بركة الله تعالى، وأنا لاحق به إن شاء. فما رضي وعزم على الانقلاب معي.

وفي عشية ذلك اليوم أتاه السلطان في منزله، فحضرت معه. ثم قال له السيد القاضي زيارته هذه لنا ما قدرها الله بسحانه إلا في أيامك، وجعلها في رزقك، لأني طالما التمستها منه منذ ولاية عمك إبراهيم، فلم يقدرها الله تعالى إلا في هذا الوقت، وأنا ولا بد إن شاء الله تعالى عازم غداً على الرجوع إلى داري، ولا أتركه ورائي، أطلب

الخلوة في هذه الليلة لتستأنس معه.

ففعل ذلك، وأعطاني عشر بقرات، والعطاء ليس من شأنهم، لأن مال الدنيا عزيز في قلوبهم. فرجعنا إلى داره، فأبر بنا وأكرمنا وأحسن إلينا في ضيافتنا وأحوالنا كلها أياماً عديدة.

ثم عزمت على الرجوع إلى داري في جني. فأعطاني من البقر عشرين ومن الأضحية عشر شياه. فركب معي مشيعاً يوم خرجت من حلته. فلما توادعنا بعد بعد المسافة قال لي: زيارتك هذه لنا أعز علي من كل شيء، وإذا منّ الله تعالى علينا بالبقاء إلى القابل عاوده لنا. فعاودته له كذلك. ولم يزل دأبي معه بالمروة وحسن المعاشرة إلى أن قضى نحبه والتحق بالرفيق الأعلى، رحمه الله تعالى وغفر له وعفى عنه، وجمع شملنا وشمله في ظل العرش وفي الفردوس الأعلى بمنه وكرمه.

الباب الثالث والثلاثون

ذكر الباشاوات من عام 1039 إلى عام 1042

وفي هذا المحرم أعني فاتح التاسع والثلاثين والألف شرع في بناء جامع الهناء، وفرغ منها في شهر الصفر.

ثم جهز محلة إلى دند وسار إليها فيها بنفسه. فلما وصل بلد كوكيا نزل بها بالمحلة وبعث مراسيله إلى عند أسكيا داوود بن أسكيا محمد بان بن الأمير أسكيا داوود بالصلح، وخطب منه ابنته، وبعث له معهم كثيراً من الهدايا. فقبل ذلك الصلح وزوجه واحدة من بنات قربائه، وجعل مراسيله معهم ساعة انقلابهم إليه، فبلغوا له رسالته من قبول ذلك الصلح والزواج وفتح طريق الخير والمحبة والإمانة بينهما ما دام هو في التباشات.

ثم رجع إلى تنبكت، فبعث قارباً للقاء زوجته فجاءت إلى تنبكت كما أراد. ثم عزم على سفر الحج كما زعم. فأخذ يصلح من شأنه، وعين من الرماة ما يمشون معه من جيش تنبكت. وبعث لأهل كاغ أن يصرفوا له عدداً معيناً، وهو خمسون من الرماة عندهم الذين يمشون معه زيادة على ما عين من أهل تنبكت، فأبوا وامتنعوا. فكان ذلك غضباً مدخراً عنده عليهم.

فنهاه القاضي سيد أحمد وفقهاء البلد على تلك الغربة، ووعظوه وذكروه في جامع سنكري في اجتماعهم هنالك معه بما عسى أن يحل عزمته على ذلك السفر.

فصمم وأبى، وفي رابع عشر من شهر الصفر في العام الحادي والأربعين والألف توادع مع الناس ومع الجيش، واستناب أخاه القائد محمد العرب عليهم، ومشى على طريق توات. فرافق مع السيد المبارك التقي الزاهد سيد أحمد ابن عبد العزيز الجراري والفقيه سيد محمد بن العلامة الفقيه أحمد بابا. واستهل عليهم شهر الربيع النبوي بلد أراون.

فلما وصلوا توات لحقهم هنالك الفلالي بن عيسى الرحماني البربوشي وأصحابه، فطاحوا عليهم ليلاً، أرادوا قتله. فهرب إلى السيدين، فدخل عليهما في فسطاطهما واستجارهما، فتركوا نفسه في حرمتهما. ولكن صدوه عن الحج بعد ما قتلوا من قتلوا من أصحابه، وردوهم إلى تنبكت. وأعطاهم مالاً كثيراً في استنقاذ مهجته. فمضت الرفقة مع السيدين للحج.

ولما وصل تنبكت في شهر رجب في العام المذكور وجه خديمه محمد بن مؤمن السابعي على حاله إلى جني برسالته، ووجه أخاه القائد محمد العرب إلى أهل كاغ ليكون قائداً عليهم. وأراد أن ينتقم منهم من أجل ذلك الغضب الذي هو مدخر عنده لهم في امتناعهم بالخمسين الرماة. فلما وصلهم شرع في الانتقام، قاموا عليه وقبضوه وكبلوه وأكلوا ماله وعزموا على قتله. فاستجار بالشيوخ الكبار منهم، فعفوا عن قتله.

فلما بلغه الخبر بالشماتة عاملوا أخاه به وجه إليهم نفسه يريد قتالهم، ولكن لم يظهره لأهل تنبكت. خرج كأنه يريد الحرث في ذلك الطريق في شهر ذي القعدة الحرام في العام المذكور. فجاز على حاله فلحقه من لحقه من الجيش. فلما سمع ذلك الجيش الذي بحاضرة جني صرفوا مرسولين لأهل كاغ بالبر واحداً بعد واحد ليكونوا معهم على نيه واحدة وكلمة واحدة في مخالفته. فقبلوا ذلك واتفقوا عليه.

فلما بلغهم عاجلوه بالقتال، وهزموه طرفة عين، فهرب هو وأصحابه. وأخذوا قارب خزانته، وفيها جاريته، فحزن عليها حزناً شديداً. وقبضوا أيضاً أسكيا محمد بنكن، فكبروه وعظموه وراموا منه أن يسكن عندهم ليتبركوا به. ثم إنه شفع في أخيه القائد محمد العرب المذكور، فشفعوه وتركوه في حرمته. فأصلح بين الباشا علي وبينهم، فردوا الجارية المذكورة.

فلما وصل تنبكت جهز المحلة للرجوع إليهم استيصالاً لهم. فصرف سبعمائة مثقال ذهباً للقائد ملوك في جني أن يقسمها للجيش الذين هنالك عطاء وهدية، يريد بذلك تطييباً لقلوبهم معه. ثم صرف مرسولاً ثانياً لجني في أثر الأول عند خديمه

محمد بن مؤمن السباعي، وكتب له أن يقبض سلتي وري محمد قلي ويأكل جميع ما احتوت عليه داره ويبيع عياله وأولاده ويبعثه له في تنبكت مكبلاً في الحديد، يريد قتله من أجل ماله الذي أمسكه عنه عند عزمته على سفر الحج. فانتظره حتى طال به الانتظار فمضى ولم يصرفه الحاصل.

سبق المرسول الثاني المرسول الأول ووصل مدينة جني ضحوة الاثنين ثاني يوم النحر. فلما قرأ الكتاب وهو عند القائد ساعتئذ في المشور صرف لسلتي المذكور، وهو في دار جنكي على عادتهم في ملعب أيام العيد، فجاء وقبضه وسجنه في القصبة مكبلاً بالحديد. فأحضرني مع شاهد آخر لإحصاء ما في داره يومئذ. فأحصينا ما فيها في المزام سوى المماليك. وأمرنا أن نرجع غداً لإحصائهم. فبعد ما أحصيناهم في الغد أمرنا أن نمضي معه إلى السجن ليقر لنا أن ذلك نهاية ماله. فدخلنا عليه في السجن نهار الثلاثاء وألفيناه في بئس الحال. فقرأت عليه الزمام، فأقر أنه نهاية ماله. فأوقعنا الشهادة فيها.

ثم وصل الرسول الأول نهار الخميس الرابع عشر من ذي الحجة الحرام المكمل للعام الحادي والأربعين والألف. فلما قرأوا الكتاب ورأوا الصدر المهداة تحققوا بلا شك ولا ريب أنه ناله الضعف والوهن. ووجدهم قد فرغوا من قبح المخالفة وإبرامها. فقاموا ساعتئذ، وقبضوا محمد ولد مؤمن وسجنوه في السجن الذي فيه سلتي وري المذكور، وأخرجوا الحديد الذي في رجليه وردوه في رجلي محمد بن مؤمن. فأحضرني القائد وجميع كبار الجيش ساعتئذ في داره مع شاهد آخر لإحصاء ما فيها من المال. فأحصيناها في الزمام ما خلا المماليك والجواري. وأمرونا أن نرجع غداً لإحصائهم. فبعد ما أحصيناهم في الغد يوم الجمعة الخامس عشر من الشهر المذكور أمرونا أن نمضي إليه في السجن ونسأله على ماله، فوجدناه على الحال الذي وجدنا سلتي وري عليه يوم الثلاثاء. فسبحن الملك القادر الذي يفعل في ملكه ما يشاء المنفس عن المكروبين في أسرع من لمحة الطرف. وتركوه في السجن كذلك. ثم اتفقوا على قتله، فقتل ليلة عاشوراء من المحرم الحرام فاتح الثاني والأربعين والألف.

ولنرجع إلى تمام قصة الباشا علي بن عبد القادر مع أهل كاغ. ثم إنهم أطلقوا أسكيا محمد بنكن، فرجع إلى تنبكت. فلما وصل الفاه [إليه وجده] عازماً على الرجوع إليهم بالجد والاجتهاد، واستعد أنواعاً من آلات العذاب لهم. وفي يوم الأحد ثاني المحرم المذكور أمر قواربه بالدفع من مرسى كبر. فلما وصلوا قرية بور خالف عليه

الجيش ليلة الاثنين، وولوا علي بن مبارك الماسي باشا. ورجعوا للمرسى بالقوارب.

وخرج هو صبيحة ذلك الاثنين يلتحق بهم بالبر، وليس عنده الخبر لهذه المخالفة والعزلان. فتوجه نحوهم، وفي الطريق سمع ذلك الخبر. فكر راجعاً لتنبكت. فهرب عنه جميع أتباعه إلا القائد محمد بن مسعود المراكشي، وهو من أهل الوفاء والعهد. فبات فيه ليلة الثلاثاء، وفي غده أمر القاضي سيد أحمد أن يمضي إليهم في المرسى ليصلح بينهم وبينه. فلما وصلهم عرض ذلك عليهم ووجدهم لا يزدادون إلا أدباراً ونفوراً. فرجع البلد ولم يطرقه، بعث له من يخبره بما جرى، وجاز هو إلى داره.

وفي صبيحة الأربعاء ارتحلوا من المرسى إلى البلد. فخرج هو وقصد الفلالي بن عيسى البربوشي، وحلاته في قرب البلد. فطلب منه المعاونة على الهروب، فبات عنده في حلته ليلة الخميس. ولم يقبل له الذي طلب، فرده للبلد ضحوة الخميس. فجاء معه ودخل في دار القاضي للشفاعة. وبعث بذلك للباشا علي بن مبارك. فصرف إليه من يقبض منه جميع ما كان عليه من عدة السلطنة. فأعطى الجميع.

وفي العشية أتاه جماعة من الرماة، فأمر الباشا، فقبضوه وكتفوه إلى القصبة، وضرب عنقه في الرو مع القائد محمد بن يوسف مسعود. وجروه برجله في سكك المدينة إلى السوق، وعلقوه هنالك. ثم نزلوه وجهزوه ودفنوه في مقابر الجامع الكبير في جوار ولي الله تعالى سيدي أبي القاسم التواتي، رحمه الله تعالى، وذلك الخميس سادس يوم المحرم المذكور.

الباب الرابع والثلاثون
ذكر الوفيات والتواريخ
من العام الحادي والعشرين بعد الألف إلى العام الثاني والأربعين بعد الألف

من ذلك الباشا محمود لنك، توفي في شهر شوال في العام الحادي والعشرين والألف، ودفن في جامع محمد نض. قيل مات مطعوماً. وبعد وفاته عن قريب توفي القائد مامي ابن برون.

وفي ليلة السابع بعد صلاة العشاء الآخرة من الربيع النبوي عام الثاني والعشرين بعد ألف توفي الفقيه محمد بن محمد تكن، وصلي عليه ضحوة الغد ودفن في مقابر سنكري.

وفي شهر جمادي الأولى في العام الرابع والعشرين والألف توفي الخير الصالح الدين الزاهد القاضي العدل أبو العباس الفقيه أحمد تروي، رحمه الله تعالى ورضي عنه، بمدينة جني وتولى القضاء بعده إمام الجامع الكبير القاضي سعيد في شهر جمادي الآخرة الذي يليه، بعد مشاورة ولي الأمر بتنبكت الباشا علي بن عبد الله التلمساني وحاكم جني يومئذ البلبالي وسلطانها السوداني جنكي أبو بكر ساكر.

وفي شهر المحرم الحرام فاتح عام الخامس والعشرين بعد الألف والله أعلم توفي أسكيا هارون بن أسكيا الحاج محمد بن داوود.

وفي شهر الصفر توفي أخونا وشيخنا الفقيه محمد صالح بن علي بن الزياد رحمه الله تعالى وغفر له.

وفي يوم الأربعاء بين الظهر والعصر الخمس خلون من الربيع النبوي عام خمس وعشرين بعد ألف توفي الفقيه الإمام المصطفى ابن أحمد بن محمود بن أبي بكر بغيغ. وخبع في ذلك اليوم. كان رحمه الله تعالى ليناً ميناً صبوراً على مخالطة الناس صموتاً. أخذ عن عمه الكبير الفقيه محمد بغيغ، قرأ عليه الرسالة والمختصر وغيرهما، غير أن المختصر لم يكمل عليه، وعن الفقيه عثمان الفلالي والفقيه محمد بن محمد كري والفقيه عبد الرحمن ابن أحمد المجتهد، حضر عنده المدونة والموطأ، وقرأ عن الفقيه أحمد بابا بن الفقيه أحمد. أول ابتداء طلبه في حياة عمه شيئاً من العربية والمختصر وغيره، وعن ابن عمته الفقيه محمود الألفية وغيرها. وحضر مجلس الفقيه أحمد بابا مدة بعد مجيئه من مراكش. وتولى إمامة جامع محمد نض في شعبان عام ثامن بعد الألف إلى أن توفي، رحمه الله تعالى. وناب عن الخطيب في الجامع من السادس عشر بعد ألف. وكان مولده رحمه الله تعالى في الثالث والسبعين من العاشر رحمه الله تعالى.

وفي ذي القعدة الحرام من هذا العام توفي أخونا الفقيه سعيد المعروف بسنكم ابن صاحب والدنا وصديقه الملاطف بابا كري، رحمه الله وعفى عنه بمنه، بمدينة جني. ودفن في مقابر الجنان.

وفي المحرم الحرام الفاتح للسادس والعشرين والألف توفي الشيخ الفاضل الصالح الزاهد محمد بن المختار شيخ المداحين المعروف بسن. ولازمته من حين الطفولية إلى الممات، وأفدت منه فوائد كثيرة، رحمه الله تعالى وعفى عنه بمنه. وعمره أربعة وثمانون سنة. وفي اليوم الذي توفي فيه توفيت أمة الله تعالى خديجة ويج ابنة الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت، وعمرها أربعة وتسعون سنة وبينهما في السن

عشر سنين رحمها الله وغفر لها أمين.

وفي ليلة الخميس بعد صلاة العشاء الآخرة الثانية من الصفر في هذا العام توفي والدي عبد الله بن عمران بن عامر السعيدي. وصلى عليه شيخنا الفاضل الزاهد ولي الله تعالى الفقيه الأمين ابن أحمد أخو الفقيه عبد الرحمن بن المجتهد بوصية منه ضحوة الخميس، ودفن في ذلك الوقت في جوار والده في مقابر الجامع الكبير. والشيخ المذكور هو الذي تولى إنزاله القبر بالوصية أيضاً. وحضر غسله الخير الفاضل الولي الصالح شيخنا الفقيه محمد بغيغ الونكري. وحضر صلاته ودفنه جماعة كثيرة من الأكابر والأشياخ والفقهاء والصلحاء والأعيان والخاصة والعامة. ولم يتخلف في البلد إلا من حبسه عذر أو من لا مبالاة له في الحضور بمواضع الخير، غفر الله له وعفى عنه بمنه وكرمه. وتوفي والله أعلم عن سبع وستين سنة وكان مولده مكمل الستين من العاشر أعلى الله درجته في فراديس جنته.

وفي هذا الشهر توفي الإمام القاضي سعيد في مدينة جني. ومكث في القضاء سنة واحدة وثمانية أشهر. وفيه تولى القضاء بعده القاضي أحمد بن القاضي موسى داب.

وفي أواسط ربيع النبوي من هذا العام توفي صاحب والدي وملاطفه في جني بابا كري بن محمد كري، رحمه الله تعالى وعفى عنه وغفر له.

وفي أواسط ذي الحجة الحرام مكمل عام السادس والعشرين والألف توفيت نانا سيد بنت خال الوالد الفقيه الزاهد المري سيد عبد الرحمن بن سيد علي بن عبد الرحمن الأنصارية.

وفيه توفيت الشريفة الهاشمية الحسنية فاطمة بنت الشريف أحمد الصقلي، رحمهم الله تعالى ونفعنا ببركاتهم أمين.

وفي ليلة الجمعة طلوع فجرها لليلة بقيت من المحرم الحرام فاتح عام سبع وعشرين بعد ألف وتوفي ولي الله تعالى صاحب المكاشفات الفقيه محمد عريان الرأس. وصلي عليه ضحوة في مصلى الجنائز في الصحراء، وحضرها الخاصة والعامة. ودفن حينئذ في جوال الفقيه محمود خارج الروضة من جهة القبلة. قال الشيخ الفقيه محمد بن أحمد بغيغ والوكري في تعريفه: هو محمد بن علي بن موسى، عرف بسيد محمد عريان الرأس، كان من الصالحين، أخذ من فقهاء وقته كالأخوين الفقيهين عبد الله وعبد الرحمن أبي الفقيه محمود والفقيه محمد بغيغ والفقيه أحمد مغيا، ودرس

أول أمره، ثم ترك ذلك ولازم بيته لا يخرج ولو إلى الجمعة، وكان لعذر والله أعلم بذلك، واشتهر عند الناس بالولاية، فزاره من الباشات وغيرهم، واشتهرت بركته عند العرب، وقصدوه بالنذور والفتوحات، لا يفارق بيته خاسراً حافياً، ليس له بواب إلا في أواخر عمره، واشتهر بالكرم والعطايا رحمه الله تعالى، ومولده على ما سمعت سنة خمس وخمسين وتسعمائة، وكان رحمه الله ثبوتاً صباراً ضابط الأمور انتهى.

وفي أوائل ربيع الثاني من هذا العام توفي الباشا علي بن عبد الله التلمساني بتعذيب القائد مامي التركي. ووري في الرو بلا غسل ولا صلاة.

وفي سلخ المحرم الحرام فاتح العام الثامن والعشرين والألف توفي الباشا حد بن يوسف الأجناسي. ودفن في مسجد محمد نض.

وفي شهر شعبان من هذا العام توفي الباشا أحمد ابن يوسف العلجي. ودفن في مقابر الجامع الكبير.

وفي هذا العام والله أعلم توفي الفقيه محمود المعروف بالقع سر بن سليمن ابن محمد كرمع الونكري في مدينة جني رحمه الله تعالى.

وفي يوم الجمعة لثلاث بقين من المحرّم فاتح عام التاسع والعشرين بعد ألف توفي الشيخ الفقيه العالم الإمام محمد بن محمد كري، رحمه الله تعالى وغفر له.

وفي يوم الأحد عند الزوال الخامس عشر من شوال في هذال العام توفي جنكي ينب بن جنكي إسماعيل في مدينة جني.

وفي أواخر رمضان من العام الثلاثين بعد ألف توفيت عمتنا زهراء بنت عمران.

وفي يوم السبت العاشر من جمادي الأولى والله أعلم توفي إمام الجامع الكبير الإمام محمود بن الإمام صديق بن محمد تعل. ومكث في الإمامة ستة وعشرين سنة، وعمره يوم دخوله فيها سبعون سنة، رحمه الله تعالى وعفى عنه بمنه بوفاته. ثبتت الإمامة للإمام عبد السلام بن محمد دك الفلاني لأنه كان نائباً له بزمن طويل في يوم الأربعاء الرابع عشر من الشهر المذكور.

وفي ليلة الجمعة السادسة عشر من ربيع النبوي في هذا العام توفي القائد محمد بن علي والباشا محمد بن أحمد الماسي والكاهية محمد بن كنبكل الماسي كما رم.

وفي أوائل شوال منه توفيت حفصة أم ولد والدنا في مدينة جني ودفنت في الجامع الكبير رحمها الله تعالى.

وفي ضحوة الأربعاء الثاني عشر من المحرم الحرام الفاتح للعام الثاني والثلاثين والألف توفي الأخ البار النافع الصديق الملاطف المحب الناصح محمد بن أبي بكر بن عبد الله كري السناوي. ودفن في مقابر الجنان بمدينة جني يومئذ. فغسلته أنا والقاضي أحمد داب بوصية منه. كان محباً للفقراء والمساكين والطلبة محسناً إليهم، معرضاً عن أبناء الدنيا والظلمة، ذا مروة وسكينة ووفاء وعهد حافظاً عليه جداً، ومعروفاً به عند الخاصة والعامة. لم أر مثله في العهد والصدق وحسن الخلق تحت أديم السماء. فعاشرنا على ذلك في حياته، وتفارقنا عند مماته بلا تغيير ولا تبديل ولو في ساعة واحدة. غفر الله له ورحمه وعفى عنه وجمع شملنا وشمله في ظل عرشه والفردوس الأعلى بلا عقوبة ولا محنة بمنه وكرمه، إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير.

وفي يوم الجمعة الحادي والعشرين منه توفيت عمتنا أم هاني بنت عمران، رحمها الله وغفر لها وعفى عنها بمنه.

وفي يوم الأحد الحادي عشر من ذي الحجة الحرام المكمل للعام الثاني والثلاثين والألف توفيت عمتنا أم عائشة ابنة عمران، رحمها الله وغفر لها وعفى عنها بمنه.

وفي أوائل العام الخامس والثلاثين والألف توفي الفاضل الخير الصالح الفقيه العالم أبو العباس أحمد بن محمد الفلاني الماسني. ومرض مرضاً مخوفاً في مسكنه في جهة أنكم. أمر بمجيئه الحاضرة تنبكت. فلما وصل مرسى كبر توفي هنالك. وأتي بجنازته لتنبكت، وصلي عليه فيه. ودفن في مقابر الجامع الكبير، رحمه الله تعالى وغفر له ونفعنا به أمين.

وفي يوم الأحد العاشر من جمادي الأولى منه توفي الشيخ الفاضل المحدث الفقيه الإمام محمد سعيد ابن الإمام محمد كداد بن أبي بكر الفلاني، ودفن في مقابر الجامع الكبير رحمه الله ونفعنا به أمين.

وفي يوم الخميس عند الزوال الحادي والعشرين منه توفي علي بن الزياد، وصلي عليه بعد صلاة الظهر، ودفن في مجاورة الإمام سعيد، رحمه الله تعالى.

وفي صبيحة الجمعة العشرين من جمادي الآخرة توفي عبد الكريم بن أحمد داعو الحاحي، رحمه الله.

وفي يوم الأحد الثاني والعشرين منه توفي الفقيه الإمام عبد اسلام بن محمد دك الفلاني، وصلي عليه بعد صلاة الظهر، ودفن في جوار الإمام سعيد. ومكث في الإمامة

أربع سنين رحمه الله تعالى. وتولى الإمامة بعده الإمام سيد علي بن عبد الله سر بن الإمام سيد علي الجزولي في ولاية القائد يوسف بن عمر القصري عن إذن القاضي سيد أحمد بن أند غمحمد، رحمهم الله تعالى.

وفي صبيحة الخميس السادس من رجب الفرد منه توفيت الشريفة أم هاني بنت الشريف بوي بن الشريف المزوار الحسني زوجة أخي محمد سعدي في مدينة جني، رحمها الله تعالى.

وفي شهر ربيع النبوي في العام السادس والثلاثين والألف توفي الفقيه الختار سبط القاضي العاقب بن محمد زنكن بن أبي بكر بن أحمد بن أبي بكر بير خديم النبي صلى الله عليه وسلم. وهو الذي أتى بنسخة العشرينيات لتنبكت، يخدمه بالمدح وأفعال البر في مولده، ويباشر جلب ما يطعم فيها بنفسه من جني في كل عام حتى كبر وهرم. وطلب منه أولاده أن يكفوه بمونة ذلك لما هرم أبي وامتنع. فمات في بلد كونا عند خروجه من جني. فقبع في صحن مسجده، رحمه الله وأعاد علينا من بركاته في الدارين أمين.

وفي الجمعة الثاني يوماً من جمادي الآخرة منه توفي شيخنا الفاضل المبارك الفقيه الإمام محمد بن محمد بن أحمد الخليل في بلد بينا. وأتي بجنازته حاضرة جني، ودفن فيه في مقابر الجنان. وهو محب في غاية ونهاية. وكثيراً ما أسمع من الناس ثناءه علي في غيبتي، رحمه الله ورضي عنه وجازاه عنه خيراً ونفعنا به في الدارين أمين.

وقد جعلني نائباً له في الصلاة ثم امتنعت منها لشغل الحال. وفي يوم الجمعة الثالث والعشري من الشهر المذكور وليت مقامه في إمامة مسجد سنكري في البلد المذكور باتفاق أعيانه قاطبة عن إذن القاضي أحمد داب، وهو حافل بأولي الفضل يومئذ.

وفي ضحوة الخميس السادس من شعبان منه توفي سيد الوقت وبركته الشيخ العالم العلامة فريد دهره ووحيد عصره الفقيه أحمد بابا بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت، رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا به في الدارين ودفن في جوار والده.

وفي يوم الأربعاء الثاني عشر منه ولدت صفية ابنة أخي محمد سعدي.

وفي أواخر هذا العام توفي جنكي أبو بكر ساكر بن الفقيه عبد الله بمدينة جني وهو من أفضل سلاطينهم حالاً وديناً رحمه الله.

وكذلك القائد عامر بن القائد الحسن بن الزبير توفي في مراكش في أواخره.

وفي وقت طلوع الفجر من ليلة الجمعة سادس المحرم الحرام فاتح العام السابع والثلاثين والألف توفي أبو المعالي السلطان مولانا زيدان بن مولانا أحمد بمراكش، رحمه الله تعالى بمنه. وما دفن إلا بعد صلاة المغرب من ليلة السبت.

وفي يوم الأربعاء الثامن عشر منه توفي ولد أختي أم نانا عبد الرحمن بن الطالب إبراهيم النصراني في مدينة جني. أتى عنده هنالك صحبة والدتنا زائرة، رحمه الله تعالى.

وفي عشية السبت الحادي والعشرين منه توفي صهري الشيخ المختار تمت الونكري. وتوليت تجهيزه، وصلي عليه بن المغرب والعشاء، وخبع في الجامع الكبيربمدينة جني، رحمه الله تعالى ونفعنا ببركاتهم في الدارين.

وفي ليلة الثلاثاء الثالثة عشر منه توفي الحاكم سيد منصور بن الباشا محمود بنك بمدينة جني، ودفن ليلتئذ في الجامع الكبير. وبت أنا وثلاثة من الشهود وأربع من البشوظات عند باب داره للحراسة عليها بأمر الكواهي بعد ما طالعنا جميعاً على ما احتوت عليها الديار. وفي الغد ضحوة زمننا تركته بحضرة الكواهي بعد استئذان متولي الشرع، وذلك في زمن الباشا إبراهيم بن عبد الكريم الجرار.

وفي يوم الأربعاء وقت العصر السابع والعشرين من رمضان منه توفي الأخ المحب الفاضل النافع الفقيه محمد بن بدر بن حمود الفزاني. وصلي علي بعد صلاة المغرب، ودفن ساعتئذ في مقابر الجامع الكبير، رحمه الله وغفر له وعفى عنه بمنه.

وفي يوم السبت السابع من جمادي الأولى في العام الثامن والثلاثين بعد ألف توفي الأمين الأولى القائد محمد بن أبي بكر. قتله الباشا علي بن عبد القادر بأمر السلطان مولاي عبد المالك كما مر.

وفي يوم الاثنين آخر يوم من المحرم فاتح عام التاسع والثلاثين والألف توفي عمر بن إبراهيم العروسي وغلامه بلال، قتلاً في المعركة بينه وبين الباشا على بن عبد القادر كما مر.

وفي منتصف ليلة الأحد الثانية عشر من شعبان المنير منه توفي أبو مروان مولانا عبد المالك بن مولانا زيدان بمدينة مراكش رحمهم الله تعالى.

وفي يوم الأربعاء عند طلوع الشمس السادس عشر من رجب منه توفي الشيخ الفاضل الزاهد الفقيه أبو بكر بن أحمد بير ابن ولي الله تعالى القاضي الفقيه محمود بن عمر بن محمد أقيت، رحمهم الله ونفعنا بهم أمين.

وفي أوائل العام الحادي والأربعين وألف توفي الأمين القائد يوسف بن عمر القصري، ودفن في مسجد محمد نض. ومكث في قيادة تلمين [تأمين] عامين ونصفاً. فتولى مقامه الأمين القائد عبد القادر العمراني عن إذن صاحب الأمر الباشا علي بن عبد القادر.

وفي ليلة اثني عشر من ربيع النبوي منه ليلة الولادة توفي القائد عبد الله بن عبد الرحمن الهندي، قتله القائد محمد العرب في السوق بأمر أخيه الباشا علي بن عبد القادر حين وصل بلد أروان، بعث له بذلك الأمر.

وفي أواسط شعبان منه توفي القائد إبراهيم بن عبد الكريم الجرار بمدينة جني بعد ما أحضرني الكواهي ومحمد بن مؤمن السباعي وشاهداً آخر للوصية. فوصى بما وصى، ودفن في الجامع الكبير. وصرفت تركته للباشا علي بن عبد القادر. فكتب للقائد ملوك بن زرقون أن يتولى مقامه، وهو في جني يومئذ، فهذا آخر ولايته قيادة جني.

وفي يوم الثلاثاء العشرين من شوال منه توفي شيخنا الفاضل الصالح التقي الزاهد ولي الله تعالى الفقيه الأمين بن أحمد أخو الفقيه عبد الرحمن بن أحمد المجتهد لأمه. وصلى عليه الشيخ الفاضل الصالح الفقيه محمد بغيغ الونكري. قال في تعريفه الأمين بن أحمد بن محمد: شيخنا ومحبنا رطب اللسان بالذكر أخو شيخنا الفقيه عبد الرحمن رحمهما الله تعالى أخوه لأمه، فقيه نحوي تصريفي لغوي، له حظ في معرفة الصحابة، توفي رحمه الله تعالى بكرة الثلاثاء لعشر بقين من شوال الحادي والأربعين عن نيف وثمانين، وكان مولده سبعاً وخمسين وتسعماشة، صلي عليه في مصلى جنائز الكبراء والصلحاء في الصحراء انتهى. رحمه الله تعالى ورضي عنه ورفع درجته أعلى عليين وأعاد علينا من بركاته وبركات علومه في الدارين بمنه وكرمه.

انتهت الوفيات بهذا التاريخ.

الباب الخاس والثلاثون

ذكر الباشاوات من عام 1042 إلى عام 1063

أما الباشا علي بن مبارك الماسي فلم يمكث في الولاية إلا ثلاثة أشهر. فخلع في شهر ربيع الثاني، وأجلي إلى تندرم. ثم لم تطب العشرة بينه وبين إخوانه فيه، فأجلي ثانياً إلى بلد شيب. فبقي هنالك إلى أن توفي. وما ولوه يوم توليته إلا أن الجيش

لم يجد من سبّل رقبته إلا هو يومئذ لأجل مخافة الباشا علي بن عبد القادر ومهابته الحاصل.

وفي يوم خلعه اتفق الجيش كلهم على سعود بن أحمد عجرود الشرقي. فقدموه باشا يوم الأربعاء الثاني من ربيع الثاني عام الثاني والأربعين والألف. وكيفما تولى وطاع على الكرسي وجلس للمبايعة، دخل مرسول السلطان عبد الواحد المراغدي الجرار من مراكش جاء ببراوات القياد، وزعم أن كتاب السلطان سرق منه.

وقد أدركت مخالفة جيش جني على الباشا علي بن عبد القادر ابن أحمد أن القائد حم بن علي هنالك يومئذ، جاء فيها لرسم شراء الزرع له. فقضى حاجته منها وأتمها، فتجهز للرجوع إلى تنبكت، فخرج من جني يوم الثاني من ربيع الثاني.

وفي يوم الاثنين العاشر من جمادي الأولى قبض القائد ملوك جنكي بكر باتفاق الجيش كلهم وسجن. وزعموا أنه خرق إجماعهم في المخالفة على الباشا علي، لأنهم تعهدوا معه في ذلك وتحالفوا عليها. وقيل أنه الذي بعث له الخبر فيه، وأنهم قبضوا محمد بن مؤمن وأكلوا ما في داره. وبلغه مرسوله في رابع يوم القبض في طريق جهة الحجر.

وفي عشية الخميس الثلث عشر منه قتل صبراً في القصبة. وجعل رأسه في خشبة ووقفوه في السوق. فكان ذلك منكراً عظيماً وبدعاً شنيعاً عند قومه السودانيين. فقاموا كلهم وخالفوا. ورأس الخلافة يوسر محمد بن عثمان. وتابعه على ذلك ساسر وكرمو وماتع وغيرهم من خدام جنكي الذين في جهة المغرب.

فحاصر يوسر أهل بينا من التجار. فبلغ الخبر أهل جني، فصرف القائد ملوك المحلة لقتاله، وجعل عليها الكاهيين الفوقائيين محمد بن راح وسالم بن عطية. فطردهم يوسر، ولم ينالوا منه شيئاً، فهربوا، وتركوا واحدة من قباواتهم مطروحة في المرسى، وهي للكاهية سالم، فولوا مدبرين إلى قرية سربا فرسوا فيها، وبعثوا للقائد ملوك أن يمدهم بالإغاثة.

فذهب فيها الكاهية محمد التارزي بمن بقي في البلد من الرماة، فتلقى بالمحلة راجعين لجني. فرجع معهم ولم يغنوا بشيء. وقبل وصول المحلة إلى بينا صرف يوسر المذكور الصرخة لمن وراءه من السلاطين، دعكي وأمكي وغيرهما، فأجابوه جميعاً. فصرف كل منهم طائفة من الرجال لإغاثته، حتى بقي يوسر يخاصمهم أن لا يصلوا مع الرماة الغاية في القتال ظاهراً عياناً.

وبقي أهل جني في الحصران أربعة أشهر لا داعياً ولا مجيباً ولا تسمع كل يوم من الخبر السوء إلا ما يكاد أن يقطع نياط القلب، لأن ذلك القتل قد بلغ الغاية والنهاية من الغيظ في القلوب السودانيين. وحلفوا إذا ما أعطاهم أهل جني القائد ملوك ليقتلوه بقتيلهم لا بد أن يأتوا إلى جني ويقتلوا جميع من فيها من البيضان لأهل المخزن ولا غيرهم. والناس في ذلك الهم والغم حتى جاءهم القائد أحمد بن حم علي في أواخر جمادي الآخرة من العام المذكور، ولاه الباشا سعود قيادة المدينة، وعزل ملوك منها. فكان ذلك مفتاح فرج ورحمة. وذكر الناس لهم أن ذلك القتل كان من ملوك وحده فقط، ولذلك عزله صاحب الأمر فرخيت من ذلك شدة غيظهم، وبقي القائد أحمد يسايسهم، ويسكنهم بالعطايا والكلام الحسان، حتى ذهب بأسهم وامتحى. ولكن قد أورث لهم ذلك الحال الخسارة والحقارة للناس.

وفي أواخر ذي القعدة الحرام مشيت إلى ماسنة عند المحب السيد القاضي محمد سنب السلطان حمد أمنة للزيارة المعتادة. فاستهل علي فيها ذو الحجة الحرام المكمل للعام الثاني والأربعين والألف. وفي نهار يوم التروية وصلت جني، وقد أودعني السلطان حمد أمنة رسالة عند القائد أحمد بن حم بن علي في أمر خديمه جرن كوج، وهو صاحب الرو، قد غضب عليه وخاف من سطوته، فهرب إلى أرض جني عند جاجي ولد حمد عائشة. والعداوة القديمة الموروثة بينه وبين حمد أمنة المذكور.

فبلغت القائد أحمد تلك الرسالة وذلك أنه طلب منه أن يحتال كل الاحتيال حتى يتمكن من الهارب فيقبضه ويجعله في الحديد فيبعث له بالإعلام فيه. فصرف له القائد أحمد بالحضور لديه غير ما مر، فلم يقبل، كأنه فطن لما في الحال. ثم مضى حمد أمنة للعوالي على عادتهم المعروفة في الارتباع هنالك في المدة المعروفة، إلى أن تمت المدة ورجع للساحل.

فكتبنا له ما جرى في قصة القائد مع جرن. فاسأخر إلى ليلة الثانية من شوال عام الثلث والأربعين والألف، نهض بنفسه في جيشه قاصداً جاجي المذكور في حلته. فقدم مرسوله الي ساعتئذ، فطلب مني أن ألقاه في الطريق قبل وصوله إلى مقصده، وأن الميعاد في الملاقاة وراء بحر كاكر، يأتي معي شاهد واحد من شهود القاضي لنسعى بينه وبين جاجي في الصلح، وهو ابن عمه، ولا يريد الفساد بينه وبينه.

فوصل إلي المرسول وذهبت معه عند القاضي فأخبره [فأخبرته] بالرسالة فقال: بسم الله وعلى بركة الله، ولكن بعد استئذان القائد. فأذن فيه وأمرنا بالذهاب إليه. فسمع

لذلك الكاهية محمد بن روح فجاء إلى القائد وقال له: هذا طريقنا ليس بطريق الطلبة. فأمره القائد بالذهاب، فذهب مع الكاهية محمد الهندي في جماعة من الرماة والأتباع. فلما رآى ذلك مرسول حمد أمنة قال: هذا رأي سوء ولا يرضى بها أبداً. ولا يقدر هو أن يسبقوه إليه بالعمل الذي ما أمر به، فقطع الأرض قدامهم وسبقهم إليه. ووجده في المعياد نازلاً، فأخبره الخبر. فغضب غضباً شديداً وقال: أي شيء حملهم إلى الدخول في الطريق الذي ليس بطريقهم، هذا الطريق ليس بطريق أهل السلطنة، إنما هو طريق الطلبة، لأنه إصلاح بين الناس.

وأمر المرسول بالرجوع ثاناً إلى القاضي أن يقول له: لا يأتي إلا عبد الرحمن مع شاهد آخر، وأن يقول له أيضاً: أليس أبوه القاضي موسى داب وشهوده الذين أتوا إلى جده في بلد سع حين وقع الاختلاف بينه وبين أخيه حمد عائشة والد جاجي هذا في الإصلاح بينهم؟

فرجع المرسول، وركب هو مع جيشه وحاد عن الطريق للكواهي. فلما سمع القاضي مقالته قال: صدق ما قال إلا صحيحاً. فبعث بذلك للقائد أيضاً، فأمرنا بالذهاب، واتفقنا عليه بعد صلاة العصر.

فلما بدل الطريق للكواهي، سمعوا بذلك ورجعوا في طريق آخر للقائه، ما وصلوه إلا بعد التعب والمشقة. فلم يرض أن يدنو إليه فضلاً عن رؤيته حتى إلى وب. فنزل فيها، وبني له قباءه، فدخل فيها. فنزل الكاهيان وأتباعهما في الشمس، واستأذنوا عليه. فلم يرض لهم بالرؤية حتى صلى العصر. فخرج وركب وجاز عليهم قعوداً ولم يسلم عليهم.

فسافط أخاه سلامع إلى عند قصر البلد في جماعة كثيرة الكاهية محمد الهندي هو الذي اجترأ ركب حتى وصله فقال له: يا فندنك، هذا الحال رأينا ما جئت إلا لقتال أهل جني، فإن كان كذلك لا تجوز هذا الموضع حتى تبدأ بنا أولاً، فحينئذ تكلم لهم. وسلم عليهم ورجع بهم إلى عند فباءه، فأنزلهم.

فصلينا العصر، وعزمنا على الذهاب إليه كما طلب. فحين خرجنا من باب القصر التقينا بخيل سلامع، انتشروا يميناً وشمالاً بالقتل والرمي بالحريش والكشط حتى وصلوا أبواب القصر. فرجعنا خوفاً منه، فخاف أهل البلد خوفاً عظيماً، وظنوا أنه ما صدر منهم هذا العمل إلا بعد ما تعدوا على الكاهيين وأتباعهم. وهم في ذلك الهم والغم إلى عند غروب الشمس، جاء مراسيلهما عند القائد وذكروا له أن الكواهي باتوا عند حمد أمنة

في نبكة وب، وأن يصرف لهم الضيافة. فصرفها لهم ساعتئذ على البغل والحمير.

أما حاجي فهرب إلى وراء البحر خوفاً منه. وأما جرن فهرب إلى جهة أخرى. فباتوا مع حمد أمنة في ذلك الموضع. وفي آخر الليل ركب ولا علم عندهم حتى دخل في حلة حاجي المذكور، فدخل في داره وأجال حصانه فيها راكباً. ثم خرج حتى وصل حائط القصر، ووضع يده عليها أبراء لقسمه. وفي الغد بكرة توادع معهم، فولى إلى بلده. واتبعهم إخوته الثلاثة، سلامع وعلي التلمساني وأبا بكر أمنة، إلى تحت القصر. فتوادعوا، فدخولا القصر. ومضوا لاحقين أخاهم السلطان إلى بلادهم.

ثم بعث إلى جرن المذكور ابنه أن نطلب له الشفاعة عنده، ليرجع وأولاده لمكانهم ماسنة. فذكرته للقاضي، فكتب له في ذلك، فعفى عنهم وقيل، ولكن بشرط أن يحلفهم في الجامع على أنهم لا يسعون في غدرته أبداً. فأرسل من يحلفهم في جامع قرية كوفس، ورددنا له المرسول في إنفاذ ما أمر فيهم.

فكتب لنا معه أنه سمع أن الباشا سعود خرج في المحلة عازماً إليه بنفسه، وهو لا يعرف ما الموجب لذلك، لأنه ما خالف ولا خرج من الطريق ولا منع بزنكل ولا بعادة من العوائد، وأنه دخل في حرمة الإسلام وفي حرمتنا وفي حرمة الفقهاء كلهم والمساكين والقوارب والحراثين، إلا ما ترك سبيله.

فمضيت به عند القاضي فحين صافحه قال: صدق ما نعرفه بشيء مما ذكر، ولكن ليس لنا الشهادة به، اذهب الآن في هذه الليلة إلى عند تجار البلد واسألهم عن شهادتهم فيه، لأن أموالهم هابطة وطالعة على هذا البحر، وهم أعرف بما في الحال، فإن سمعت شهادة اثنين منهم كفى، وأرسل عند القائد أحمد في هذه الليلة من يخبره بهذه الوقعة، وأنا أتيه غداً إن شاء الله تعالى في أمر هذه الشفاعة عند الباشا.

فكملت الأغراض كلها كما أمرني. وبتنا على أن نبكر عنده غداً، فإذا مرسول الباشا قد ورد إليه بكرة بكتابه كتبه في بلد تندرم في محمته. وما ترك من فحش الكلام وخطاب الغضب إلا وذكر للقائد وجيش جني والذين معه كيف جاءهم حمد أمنة الطاغي تحت القصر، وسدوا الأوباب عنهم دونه، وحاصرهم سبعة أيام، وما ولى عنهم إلا بعد الرشوة الكبيرة، وها هو جاء، وما يلزمهم وحمد أمنة المذكور من العقوبة يرونها إن شاء الله.

فبعد ما قرأوا الكتاب صرف إلي القائد بأن أقول للقاضي لا يأتيه أصلاً، قد جاءهم كتاب الباشا بما لا ينبغي من كلام السوء في شأنهم مع حمد أمنة، وأنهم نسوا

أنفسهم فضلاً عنه. فانكف القاضي عن ما يريد. ولما سمع جرن بما جرى تشوش ولم يجد الصبر من نفسه إلى مجيء ذلك الإذن. فرجع وأولاده إلى ماسنة عند حمد أمنة. فعفى عنهم وتركهم.

وفي أواخر ذي القعدة الحرام وصل الباشا سعود مدينة جني، فنزل في سانون وبنى محملته على رملته. ثم ارتحل وتوجه إلى بينا للانتقام من يوسر في ثاني ذي الحجة الحرام المكمل للعام الثالث والأربعين والألف. فهرب منه أهل ذلك البلد كافة، وهرب يوسر إلى قريب منه، فكمن هنالك حتى رجع.

ولم يأت إليه من ولات تلك النواحي إلا شيلي كي وورنكي فقط. وأما دعكي وأمكي فبعثا إليهم مراسيلهما بالسلام عليهم. وبقي هنالك حتى صلى عيد النحر، وفي ثاني يوم العيد رحل منها راجعاً إلى جني. فنزل في منزله الأول، فشرع في ظلم العباد.

ونم الناس بعضهم بعضاً، وسعى الوشاة إليه بأخوي محمد سعدي وعبد المغيث قبل أن يخرج من تنبكت، فبعث لهما في المجيء إليه في المحلة بعد أن قبض من محمد سعدي مائتين مثقالاً ظلماً. فلما امتثلا بين يديه قال: يا الفع سعدي ليس لك شغل إلا اجتماع التجار في دارك كل يوم مع القائد أحمد في ذكر عيوبنا ومساوئنا، ولكن ما سمعنا أنك تخوض في ذلك معهم، وأنت يا عبد المغيث يا كذا يا كذا، أنت الذي تظلم الناس وتأخذ متاعهم طلماً للقائد أحمد، ارتحل من هذا البلد وارجع لتنبكت. ثم أمرهما أن يرجعا لديارهم.

ونوى التأخر هنالك إلى سلخ المحرم. وفي يوم واحد جاء البشوطات إلى كبر لرؤية أصحابهم وأحبائهم هنالك. فسمعوا فيه جميع ما قبض من الناس ظلماً، فجعلوا أن ذلك ما وقع في آذانهم في المحلة، فقالوا له: هذا تخريب البلاد. ولما رجعوا إليه عشية ذلك اليوم قالوا له: تعزم على الرجوع لتنبكت غداً. فاستعذر لهم لا يمكن ذلك حتى يولي المراسيل الذين صرفهم عند سلاطين هذا الأقليم. قالوا له: ولا بد من المشي، لأن هذا البلد لا طاقة لأهله على تأخرنا فيه، إن لم يكن لك مراد فيه فللسلطان وجيشه مراد فيه. فعزم وقسم الشراويط لأرباب القوارب للخياطة.

وحين نزل في المحلة عند مجيئه من تنبكت سأل القائد أحمد عن حالهم مع صاحب ماسنة حين نزل عليهم في جني، فقال له: ما أتى من أجلهم، إنما أتى من أجل خديمه الذي هرب منه ونزل عند أعدائه، وإنهم ما عرفوه بالخروج من الطاعة. فقال: إن كان كذلك لأي شيء مرسله ما جاءنا لزيارتنا والسلام علينا وصرف ضيافتنا؟ فأرسل

القائد أحمد ساعتئذ من عنده إلي بأن أرسل له، ولا بد أن يصرف ضيافة الباشا مع مرسوله بعجلة ومبادرة، وأن لا يجيئ أحد في ذلك إلا كنبمع. ففعل فجاء بالضيافة، وسلم عليه ودعا له وجدد العهد، ومشى معه إلى بلد كونا فسافط معه هنالك. ثم صرف للفقيه محمد سعدي أن يأتيه في المحلة ليتغفرا. فأتاه وتغافرا وكساه.

وفي آخر يوم من ذي الحجة خلع جنكي محمد كنبر بن جنكي محمد ينب. وفي أول يوم من المحرم الفاتح للعام الرابع ولأربعين والألف استخلف جنكي عبد الله بن جنكي أبي بكر. وفي ثاينة نهض راجعاً إلى تنبكت، وذهب بالأخ عبد المغيث معه، وجعله في قارب الخزانة، ووصى خازنه الشيخ بص عليه بخير. وركبت معهم يومئذ لموادعة الأخ إلى قرية دبن.

فنزل عليه، أي الباشا سعود، مرض الموت ضحوة يوم رحلته من جني. وغلبه الركوب، فدخل في القارب، ورجعت أنا إلى جني. وفي بلد كونا تلقا خبر هروب الأمين القائد عبد القادر العمراني، قد هرب في أواسط ذي الحجة، فازداد مرضاً على مرض من الكرب والغم. وكان هروبه في أواسط ذي الحجة الحرام، لما رأى الخلل والفساد والرذالة فيهم. فقصد المرابط سيد علي صاحب ساحل، فلقيه بالخير والإكرام، وسكن عنده في عز ومنعة.

فوصل هو إلى تنبكت بذلك المرض، ولما بلغ المرسى أمر الأخ عبد المغيث أن يسير دار والده ويسكن فيها. وولى الحاكم أحمد بن يحيى مقام العمراني، فصار قائداً أميناً في ثالث عشر يوماً من المحرم المذكور عند وصوله تنبكت. وبقي هو كذلك مريضاً إلى أن توفي في أوائل الربيع النبوي، ودفن في جامع محمد نض. فخلفه في ولاية المرتبة بهذا التاريخ الباشا عبد الرحمن بن القائد أحمد بن سعدون الشاظمي باتفاق الجيش.

وفي يوم الأحد السبع والعشرين من جمادي الآخرة من هذا العام خرجت من مدينة جني إلى تنبكت لمطالعة حال الأخ عبد المغيث، وطلب الشفاعة له لكي ترجع [يرجع] لداره في جني. فاستهل علينا شهر رجب الفرد عند توجهنا بحر دب، ورسينا كبر عشية الاثنين، ودخلت مسقط الرأس مدينة تنبكت يوم الأحد الخامس من الشهر المذكور.

وتلقيت فيه الخير والإكرام، ووصلت عند الباشا، فسلمت عليه. فرحب بي وأكرمني وأفرحني في الأخ المذكور. وقال: جميع ما نسب إليه النمامون من السوء فهو

منه بريئ، وذلك زور وافتراء. ووعدني بإطلاق سراحه ورجوعه لداره إن شاء الله تعالى. وقال أن: الذي نمه عند الباشا سعود ما توسل إلا بي، وأنا الذي أمرته بإخراجه من جني، وهو رحمه الله ما عقبه في مقامه إلا أنا، ولا يكون صواباً أن أنقص أمره بقرب وفاته. فدعوت له وقرأت له الفاتحة. وقد كشف الله لنا ذلك النمام فعرفناه. فحكم الله تعالى فيه بما هو أعظم مما جرى على الأخ المذكور. فقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين.

وفي عشية الاثنين السابع والعشرين منه عزل أسكيا محمد بنكن. وفي يوم الأربعاء آخر يوم من رجب الفرد المذكور ولي أسكيا علي سنب مقامه.

وفي يوم الجمعة بعد صلاة العصر الثاني من شعبان خرجت من تنبكت راجعاً إلى جني، فوصلته في أواسطه سالماً معافاً، والحمد لله رب العلمين.

وفي ضحوة الجمعة الثالث عشر من المحرم الحرام الفاتح للعام الخامس والأربعين والألف توفي الشيخ الفقيه العلامة القاضي أبو العباش سيدي أحمد بن أند غمحمد بن أحمد، رحمه الله تعالى ونفعنا به. وولي القضاء الفقيه القاضي محمد بن الفقيه الإمام محمد بن محمد كري.

وفي أوائل الصفر من هذا العام توفي الباشا عبد الرحمن، ودفن في مقابر الجامع الكبير، ومكث في الولاية إحدى عشر شهراً. فتولى الباشا سعيد بن علي المحمودي يهذا التاريخ. فعزل أسكيا علي سنب، ومكث فيها خمس أشهر وأياماً، ورد أسكيا محمد بنكن في مقامه.

في أيامه جاء تيرا فرم إسماعيل أخو أسكيا داوود بن أسكيا محمد بان بن أسكيا داوود إلى تنبكت خوفاً من أخيه المذكور أن يقتله. فطلب من الباشا سعيد أن يمده بالجيش من الرماة حتى يعزل أخاه من السلطنة وتولى مقامه. فنهاه عنه أسكيا محمد بنكن على وجه النصيحة، فلم يقبل، وغضب عليه، وزعم أن الناس أخبروه أنه لا يفسد أمره عند أهل المخزن غير هو. فلما سمع ذلك أسكيا محمد بنكن عاونه عند الباشا سعيد، حتى قضى حاجته بما أراد. ولكن كتب بذلك عند أهل كاغ، وأمرهم أن يعطوه من الجيش ما يكفيه.

فتوجه بهم إلى دند، وطرد أخاه، وتولى مقامه. فطرد إلى الرماة، وشمت بهم، وأطلق لسانه فيهم بالسب والفحش من الكلام. فبقي غيظ في قلوبهم إلى ولاية الباشا مسعود.

ثم إن القائد أحمد بن حم بن علي شرع في أصناف من الظلم والجور للخاصة والعامة من التجار والعلماء والضعفاء والمساكين، حتى انتقل جميع التجار من جني إلى بلد بينا، وعزالني من الإمامة ظلماً وعدواناً. فذهبت إلى تنبكت وفي أوائل شوال من العام السادس والأربعين والألف، وصلته ولقيني أهلها بالخير والإكرام من أهل المخزن وغيرهم. فغضبوا عليه غضباً شديداً، ولا تسمع عليه إلا داعياً وساباً.

فمشيت عند الفقيه القاضي محمد بن محمد كري لأسلم عليه. فلما رآني قام على فراشه ورحب بي وقبض يدي وأجلسنه على ذلك الفراش، وبادرني بالكلام فيما عاملني به من العمل السوء. فقال: سمعت أن القائد أحمد رجع منافقاً نماماً حسوداً. ثم استرجع من اجتماع هذه الأوصاف الثلاثة الذميمة في والٍ. ثم دعا عليه بأن يجعله الله في إرادته.

ثم راودني أهل تنبكت أن أرجع في تلك الإمامة، فامتنعت ولم أقبل. منهم السيد المحب الأعظم الشريف فاين [فاشز] والمشاور مسعود بن منصور الزعري، وبيده الحل والعقد يومئذ، وحتى كتب إليه الباشا سعيد بن علي المحمودي في أمري - فسبحن من له القدرة والإرادة - والكتاب ما زال بيدي.

جاءت إليه الشكوى في أمره، وترادفت بأنه من المفسدين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، من تجار البلد ومن أهل أكبار أولاد سالم وغيرهم. فعزله يوم السبت السادس عشر من ذي القعدة الحرام في العام المذكور، ومكث في القيادة أربع سنين وستة أشهر. وصُرف للكاهية محمد بن الحسن التارزي في حني أن يأتي، فولاه الباشا سعيد المذكور قيادة جني في أوائل ذي الحجة الحرام المكمل للعام السدس والأربعمائة والألف. وفي أول المحرم الحرام الفاتح للعام السابع والأربعين والألف رجع إلى جني قائداً.

وفي يوم الأربعاء الثاني من جمادي الآخرة من هذا العام عزل الباشا سعيد، فتولى مقامه الباشا مسعود بن منصور الزعري باتفاق الجيش، ومكث المعزول في الولاية سنتين وخمسة أشهر. وفي شهر ذي القعدة الحرام منه أطلق سراح الأخ عبد المغيث، فرجع إلى جاره في حني.

وفي هذا الشهر ابتدأت الحوادث والغلاء المفرط التي لم تعهد مثلها في جني، وبقيت تزداد حتى عمت الآفاق والأقطار، وبلغت في الشدة مبلغاً، حتى أكلت امرأة ولدها، ومات منها من الخلق ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى. وفرغ الجهد من الناس

حتى عجزوا عن تجهيز الأموات إلا حيثما مات امرؤ ووُري فيه من البيوت والأزقة بلا غسل ولا صلاة. فدامت نحو ثلاث سنين، ثم انصرمت، والحمد لله رب العلمين.

ثم إن القائد علي بن رحمون سافط مراسيل الباشا مسعود الذين جاؤوا معه إلى جني، وصرف معهم القائد محمد التارزي إليه بأمره. ولما نأوا به عن المدينة ربطوه في الحديد فوصله في تلك الحالة في دار السلطان في المشورة بأمره. ثم أمر بإخراجه إلى بلد أنكند، وهو موضع العذاب لمن غضب عليه، فقُتل هنالك ورمي به في البحر، وذلك في أواخر ذي الحجة الحرام المكمل للعام الثامن والأربعين والألف.

وفيه عزل الأمين القائد أحمد بن يحيى وأمر بإلقائه في البحر في موضع يقال له بور يندي، فمات منه بعد عزله بثلاثة أيام، ومكث في القيادة خمسة أعوام غير عشرين يوماً. وفي يوم الأحد السابع والعشرين من الشهر المذكور ولي الأمين القائد بلقاسم بن علي بن أحمد التملي مقامه.

وفي أوائل الصفر في العام التاسع والأربعين والألف توفي القائد ملوك بن زرقون في تنبكت، ودفن في مقابر الجامع الكبير.

وفي ليلة الأربعاء السابعة منه توفي القائد أحمد بن القائد حم بن علي، وألقى في البحر بأمره في قرب قرية كن، فمات منه، بعد ما أمر بأكل داره وسجنه في بلد كب زمناً طويلاً.

وفي يوم الاثنين الثاني عشر منه خرج بالمحلة إلى أرض دند لمقاتلة أسكيا إسماعيل بن أسكيا محمد بان بن الأمير أسكيا داوود لأجل ما عامل به الرماة الذين مشوا معه لمطاردة أخيه من الأعمال السوء التي تقدم ذكرها، ولما يتكلم به من فحش الكلام للباشا مسعود وحده خاصة. فكتم وجه مقصده عن الجيش حتى بلغ بلد بنب فأظهره حينئذ، وتأخر فيه عشر أيام لخياطة القوارب. ثم دفع إلى مدينة كاغ، فتأخر فيها عشرة أيام. ثم دفع إلى كوكيا فعمل فيها ليلة الولادة. ثم توجه إلى لولامي بلد أسكيا، فوصلها مع عسكره. وقاتل معه وهزمه مع جيشه، فتفرقوا شذر مذر. ونزل الباشا مسعود بالمحلة في البلد المذكور مع أسكيا محمد بنكن، وهو صاحب الرأي والتدبير، وصرف لمن قرب من أهل سغي بالأمان والمجيء، فجاؤوا وأطاعوا. وقلد الباشا أمرهم لمحمد بن أنس بن الأمير أسكيا داوود، وجعله أسكيا لهم. فسبي أموال الهارب إسماعيل وعياله وذراريه، وهم جماعة كبيرة. ثم ارتحل بعسكره راجعاً إلى تنبكت. فلما ولوا بقليل رجعوا لبلدهم وعزلوا محمد ولد أنس المذكور، وقلدوا أمرهم

لداوود بن محمد سرك أجي بن الأمير أسكيا داوود.

وما وصل الباشا مسعود مرسى كرنزفي إلا يوم الثلاثاء آخر يوم من رجب الفرد، واستهل شعبان بالأربعاء. ودخل في تنبكت يوم الخميس الثاني منه في أثناء تلك الغلاء. فبقيت تزداد حتى بلغت الغاية والنهاية وغلبت الوصف. وقسم أولاد إسماعيل لرؤساء السودان ليكفو لهم: بركي ودرمكي وجنكي، وكبرائه شم وتاكر وسلتي وري وغيرهم.

ثم إن القائد علي بن رحمون عجز عن إداء الرواتب والمونات من أجل الشدة التي عمت العباد والبلاد، حتى بقي لا يرد الجناية ما فيه نفع. فعزله الباشا مسعود في أوائل المحرم الحرام الفاتح للعام الحادي والخمسين والألف، ومكث في الولاية سنتين وثلاثة أشهر وأياماً يسيراً. فولاها الحاكم عبد الكريم بن العبيد بن حم [وحق] الدرعي، فمكث فيها عاماً وعشرة أشهر، ما أغنى شيئاً.

وفي ليلة الأحد الحادية والعشرين من رمضان في العام الثاني والخمسين والألف توفي المحب الناصح النافع أسكيا محمد بنكن بن بلمع محمد الصادق بن الأمير أسكيا داوود، رحمه الله تعالى وغفر له وعفى عنه بمنه، بعد ما مكث في الولاية واحد وعشرين عاماً وتسعة أشهر، وفيه خمسة شهر أيام أسكيا علي سنب. فولى مقامه لابنه الحاج محمد، وهو بنك فرم يومئذ. ولم يتول بنك فرم مرتبة التسكية منذ ابتداء دولتهم إلا هو، وهو الذي فيها اليوم، أعني الحاج محمد بن أسكيا محمد بنكن.

وفي أواسط ذي القعدة الحرام من هذا العام المذكور عزل الحاكم عبد الكريم من حكومة جني، وولاها عبد الله بن الباشا أحمد بن يوسف قائداً. فدخل مدينة جني ضحوة الجمعة السابع من ذي الحجة الحرام المكمل للعام المذكور.

وفي يوم الأحد التاسع منه يوم عرفة قام أهل جني وخالفوا على الباشا مسعود، وأحصوا أمواله التي في ذلك البلد وأعطوا منها الرواتب والمونات، وسجنوا مراسيله الذين كانوا هنالك، وربطوا الطريق إلى تنبكت ومنعوا السالكين من عندهم إليه من المسافرين. ثم أطلقوا قاربين في يوم الأحد الخامس عشر من المحرم الحرام الفاتح للعام الثالث والخمسين والألف كي يبلغوا حقيقة خبرهم لأهل تنبكت، لعلهم يخالفون عليه كما خالفوا.

فلما سمع ذلك الخبر احتال في المضي إليهم بالمحلة، فعزم على الخروج يوم الاثنين غرة صفر، الخير خالفوا عليه، وانفصلت جماعة منهم يومئذ، وذهبوا إلى عند

القائد محمد بن محمد بن عثمان إلى داره.

فلما بلغه الخبر تحزم إليهم في جماعة من أهل الجيش الجل منهم تبعوه بلا نية له. فلما بلغهم في باب دار القائد محمد المذكور بادرهم بالقتال. فأعطوه وجوههم، فانكسر، واتبعوه إلى باب القصبة. فاقتتلوا، ومات منهم من قدر الله أجله فيها. وأدخل الذين معه في القصبة وغلق الباب عليه وعليهم.

فخرج القائد محمد وأصحابه ساعتئذ إلى المرسى وباتوا. ثم قبضوا جميع ما هنالك من القوارب فحصروهم. ولحقهم هنالك كثير من أهل القصبة تلك الليلة، فخرجوا من أعلاها. فصرف إليهم الشرفاء ليصلحوا بينهم فأبوا. ثم خرج في جماعة من الخيل وتوجه نحو المغرب ناوياً الهروب، فبات في الغيبة ليلة واحدة، ما وجد السبيل إلى ذلك. فرجع للبلد وسلم لله تعالى فيما قدر وقضا، لأن الأيام قد تمت والملك قد زال وانقرض. فقبضه من بقي في القصبة خوفاً على أنفسهم من العقوبة، فسجنوه وبعثوا بخبره لأصحابه في المرسى في أوائل الصفر في العام المذكور. فبايعوا ساعتئذ الباشا محمد بن محمد بن عثمان بيعة تامة باتفاق أولئك الجيش.

ثم ارتحلوا من المرسى إلى تنبكت فطالعوا بيت السلطان، ولم يجدوا فيها من المال شيئاً سوى أربعمائة مثقال حلياً. فسئل بالمال وهو في السجن، فلم يقر بشيء. فشدد عليه في المسألة، حلف إذا انقضى هذا الشهر عليه وهو في الولاية لظهر عدمه واكشف حاله حتى يعلمها الخاصة والعامة. ثم طلب من الباشا محمد الأمان على روحه. فقال أنه أعطاه أمان الله على روحه الذي ليس كمثل أمانه الذي ينقصه ويغدر فيه. ثم بعث به إلى صاحب كرو مقيداً برسم السجن هنالك. فبقي كذلك إلى أن مات في مدة الحيوني. ومكث في الولاية خمس سنين وثمانية أشهر وأنام يسير.

وفي يوم الاثنين الثاني والعشرين من هذا الصفر مشيت من بلد ونزع إلى ماسنة لتعزية أهل بيت المحب الفقيه محمد سنب بمصيبة موته، وتعزية السلطان فندنك حمد أمنة بمصيبة موت أخيه سلامع. فوصلت حلة السلطان عشية الثلاثاء آخر يوم من الشهر المذكور فسلمت عليه ودعوت له، واستهل علي الربيع النبوي عنده ليلة الأربعاء. وأخبرني في تلك الليلة أنه سمع في هذه الساعة أن غزوة الباشا تأتيه، وأنه بلغوا بلد شيب.

فوادعته تلك الليلة لأجل هذا الخبر، وأخبرته بأن أمضي إلى محلة الأخ المرحوم لأعزي أهله. فأمرني أن أقول لأخيه القاضي علي سر أن يرتحل إليه لأجل

هذا الخبر. فخرجت من عنده بكرة، فوصلتهم عشية الأربعاء، فعزيتهم، وبلغت القاضي رسالته، وبت عندهم ليلة الخميس. وفي غدها بكرة خرجت من عندهم قاصداً يور، فبت حلات الصنهاجيين أهل ماسنة بعد ما وصلت بلد كنكر لبعض الحاجة.

فلما صليت الصبح خرجت من عندهم قاصداً حلة الأخ الفقيه بو بكر مود، وهي في قرب جبل سربا في أرض بحر دب، وقت يبس الماء. وفي وقت الضحى تلقيت مع أناس هاربين بأموالهم من البقر من ناحية إلى ناحية في المرعى لأجل خبر تلك الغزو. وفي وقت الزوال وصلت عند ذلك الأخ، فأخبرتهم الخبر. فبعث الطليعة ساعتئذ. وكيفما صلينا المغرب رجع بصحة ذلك الخبر، وزعم أنه سمع أن أسكيا هو الذي أتى بتلك الغزو.

ورحلوا ساعتئذ بأنفسهم وعيالهم وبقراتهم، وتركوا خيامهم منصوبات وآثاتهم وأمتعتهم وهربوا، وهرب جميع من كان في تلك الناحية كلها إشتاتاً إشتاتاً خائفين مرعوبين، لا تسمع إلا بكاء وصراخاً، ولا ينتظر أحد أحداً، ولا يلتفت أحد إلى أحد. فباتوا كذلك إلى ضحى الغد، نزلوا قليلاً. ثم تشوشوا من شدة الخوف في قلوبهم فارتحلوا هاربين. ومات كثير من الناس في ذلك اليوم من العطش.

وكنت معهم حتى حاذينا بلد كعني، فارقتهم وطرقته وتأخرت فيه، حتى جاء الصحيح من الخبر أن تلك الغزو جاءت لأجل فندنك عثمان صاحب دنك، لما غضب عليه الباشا، فهرب. ودخلوا في إثره حتى دخل ماسنة. وانتهت الغزوة عنكب، فرجعوا منه إلى تنبكت. وأسكيا ليس فيهم بل ظنوا ذلك.

ثم ركبت القارب منه إلى عند صاحبي منس محمد بن منس علي صاحب فدك، قد أرسل لي بأن أجيء بالقارب لرفود الزرع، لما سمع أني عازم على المسير إلى تنبكت. فدفعت من ذلك البلد يوم السبت الخامس عشر من جمادي الأولى. وفي يوم الأربعاء السادس والعشرين منه عند الظهر وصلت بلد كوكر، واستأخرت فيه عند سلطانه ماير ثلاثة أيام: يوم الخميس والجمعة والسبت. وفي نهاره دفعت منه إلى عند فدك كي، واستهل علي شهر جمادي الآخرة في قرية فولو ليلة الأحد. وفي ضحوة الأربعاء الرابع منه وصلت بلد كمن، وهو مرسى بلد فدك، فنزلت فيها، وبعث له الأعلام بمجيئي. فجاء عشية ذلك اليوم للقائي راكباً بنفسه، والسحاب تنزل في جشمه، وخدمه وإخوته. فرحب بي وأكرمني غاية الإكرام.

وفي ليلة الاثنين السادس عشر منه بعد العشاء الآخرة زادت لي بُنية من جاريتي

تنن في البلد المذكور، سميتها زينب. الجمعة الحادي عشر من رب الفرد خرجت من البلد إلى بلد شبل زائراً سلطانه سن كي عثمان والفقيه أبا بكر المعروف بموركيبا. فوصلتهما عند الظهر، فرحباني وأكرماني غاية الإكرام، فكساني الفقيه أبو بكر سعنتر المذكور، وأعطاني سن كي أمة. وفي يوم الاثنين الحادي والعشرين منه رجعت إلى كمن، وفي يوم الخميس الثامن والعشرين من شعبان رجعت عند الفقيه المذكور لسرد كتاب الشفاء له في بيته. فاستهل علي رمضان فيه ليلة الجمعة، فشرعنا في السرد بعون الله تعالى وإرادته، وفي آخر الشهر ختمته. فواساني بما أمكن له، تقبله الله تعالى له. ثم طلب مني أن أفسره لأولاه، فشرعنا فيها حتى أختمناه بفضل الله تعالى وحسن عونه.

وفي عشية الاثنين السادس من ذي الحجة الحرام المكمل للعام الثالث والخمسين والألف توفي الأخ المحب النافع الفقيه المذكور، فغسلته وصليت عليه. فأعطاني أولاده بعد الصلاة وقبل الدفن خادمين وعمامة شاشي صدقة عليه. فأعطاني السلطان عثمان عبداً لجميع الطلبة الذين حضروا الصلاة صدقة عليه، وهي عادتهم في أمواتهم. ودفناه تلك الليلة، غفر الله له ورحمه وعفى عنه بمنه وكرمه.

وقد أعطاني ابنته حليمة لأزوجها، ما قدر الله زواجها إلا بعد وفاته. فعقدت عليها ليلة الاثنين الثانية عشر من المحرم الفاتح للعام الرابع والخمسين بعد الألف، وابتنيت بها ليلة الجمعة السادسة عشر منه. فأمرني السلطان بالتوطن عنده بالعزم الشديد الوكيد، فأخبر جميع أناسه بذلك. ولم أقبله في نيتي.

وفي ضحوة الجمعة الثامن والعشرين من صفر ورد علينا مرسول الباشا محمد بن محمد بن عثمان وأسكيا الحاج محمد بكتابهما لفدك كي وسن كي فأخبراهما أنهما عزموا على الخروج بالمحلة لقتال صاحب التمرد والعناد والبغي والفساد الطاغي حمد أمنة صاحب ماسنة، وأمروهم - متى هزموهم بإذن الله تعالى وقوته وهربوا، فلا لهم طريق إلا عليهم - فليقتلوهم وليأكلوا أموالهم، فالله تعالى يهنئهم بها. وكتبوا مثل ذلك لكوكركي ماير وياركي بكر.

فأمسك فدك كي كتابه ولم يبده له، وبعث لماير كتابه مع أحد من خدام أسكيا. فردوا لهم الجواب صحبة المراسيل بأنهم على السمع والطاعة، وأنهم متى سمعوا بوصولهم في أرض ماسنة لا بد أن يقفوا عليهم هنالك للسلام ورفع التراب. أنا الذي كتبت لهم ذلك الجواب، وسلمت عليهم في الكتاب، وأخبرتهم فيه بأني آتي معهما إليهم بإرادة الكريم الوهاب. فزينت ذلك الأمر لهما حتى قبلوه قبولاً حسناً، وطفقوا في

الاستعداد والأهبة.

وفي يوم الاثنين الثاني من الربيع النبوي خرجت من شبل إلى سن مادك للتسوق، وفي العشية رجعت. وفي يوم الخميس الثاني عشر منه خرج الباشا وأسكيا في المحلة من تنبكت إلى ماسنة، وكتب لأهل حني أن يلقيه الكاهيان وجنكي في الطريق، والميعاد في ذلك عنكب. فأتى إليهم الكاهية محمد بن روح والكاهية محمد بن إبراهيم شمر وجنكي إسماعيل في ذلك الميعاد.

فدخلوا في ماسنة، فتهيأ حمد أمنة لقتالهم. فالتقوا ظهر الأحد الثالث عشر من الشهر المذكور، فوقع بينهم قتال شديد وحرب أكيد. فإذا المطر قد نزل عليهم في حال القتال، فافترقوا. ونال منهم حمد أمنة تلك الساعة نيلاً عظيماً. وبعث من ورائهم كتيبة من كتائبه، فقتلوا كثيراً من الرماة الذين كانوا مع الخزانة والخدمة والحشمة، ونهبوا جميع ما معهم من الأزواد والأمتعة، وأفسدوها إفساداً فاحشاً، حين كان الناس يشتغلون بالقتال في المعركة. ولما افترقوا عند نزول ذلك المطر باتت كلتا الطائفتين في مقابلة الأخرى. وفي الصباح عادوا بالقتال، فنصر الله تعالى جيش الباشا على أهل ماسنة في صبيحة ذلك الاثنين الرابع عشر من الشهر، وهزموهم بإذن الله تعالى وقتلوهم قتلاً عظيماً.

ثم بعث حمد فاطمة بن فندنك إبراهيم إلى الباشا محمد في طلب الأمان ليأتي إليه ويدخل في طاعته. فأذن له في ذلك. فجاء إليهم، وجعله فندنك. فنهض بين يدي الجيش ثانياً إلى أينما كان حمد أمنة، فوصلهم فجأة في حلته، فطاحوا عليهم. فهربوا وتركوا أموالهم وديارهم وتفرقوا شذر مذر وشتتوا إشتاتاً. وغنم الجيش أموالهم وردوا لحمد فاطمة ما طلب من عيالهم، وجعل كبار بنبر يقبضون ما توجه نحوهم من عيالهم وأموالهم انتقاماً من الله تعالى لهم من كثرة جورهم وتمردهم وطغيانهم وإفسادهم في الأرض من كل جهة ومكان. وكم قتلوا من أهل الله تعالى والفقراء والمساكين، وأخذوا أموالهم ظلماً وعدواناً.

وفي يوم الثلاثاء السابع من جمادي الأولى دفع سن كي عثمان وفدك كي محمد من بلد ناكر في ثلاثة عشر قوارباً صغاراً ذاهبين لزيارة الباشا محمد وأسكيا وفاءً لموعدتهم، وأنا معهم في إحدى القوارب. فدخلنا في بحر زاغ، فتلقاهم حمد أمنة المذكور في بلد ككن. فتحدث معهم طويلاً حتى سألهم مِم ذهابهم إلى المحلة. فقالوا: للزيارة وطلب المصالحة منهم معك. فقال لهم: نحن وأنتم متجاورون من قديم

عصر من عهد الأباء والأجداد، فإن كنتم مستمسكين بحبل ذلك الجوار فارجعوا لبلادهم، لأنهم سلاطين، فكل من قدم على السلطان فلا له إرادة ولا تصرف في أمره، وإذا أمروكم بالغزو علي لا بد لكم من إنفاذ أمرهم أحببتم أم كرهتم. فقالوا: لا بأس إن شاء الله، ولا بد من القدوم عليهم حيث وصلنا هنا.

فنوادع معهم، وأمرهم بالانتظار عند وراء بحر كلنك حتى يبعث لهم ضيافتهم من البقرات، فبعثها. فشرعوا في المسير. فقلت لهم على وجه النصيحة: متى وصلتم الباشا وأسكيا لا بد أن تخبروهم بجميع ما جرى بينكن وبينه، لكي تكونوا من الصادقين في الطاعة. فقبلوا تلك النصيحة.

وفي يوم الاثنين الثالث عشر من الشهر المذكوروصلنا بلد كرن. فتلقينا فيها يومئذ مع جنكي إسماعيل والكاهية محمد بن روح والكاهية محمد شمر وفندنك حمد فاطمة والكواهي المعزولين من أهل تنبكت في الغزو يقصدون حمد أمنة المذكور. ففرحوا بهم وأكرموهم وعظموهم غاية ونهاية. فقص عليهم ساعتئذ فدك كي جميع ما جرى بينهم وبينه في طريقهم. فقالوا له: إياه نقصد. فقال لهم: على بركة الله وحسن عونه، ونحن معكم على ما تريدون وتبغون.

فكتب الكاهية محمد بن روح وجميع الكواهي ساعتئذ بخبر وصول أهل كَل إليهم في كرن، وأنهم فرحوا بمجيئهم على الحال الذي جاؤوا به. وطلبوا منه أن يزيد لهم في الرجال، وأن يكون أكثرهم أهل الرجل. أنا الذي كتبت ذلك الكتاب لهم للباشا. وما أتا به سن كي وفدك كي من الخيل له ولأسكيا بعثاهم لهما هنالك وكتبا لهما كتاباً بالسلام والدعاء، وأنهما متى تم المراد في لحوق الطاغي حمد أمنة يأتيان إليهما لرؤية وجوههم. وكتبت أنا كتابي وقلت فيه للباشا ما جئت في هذا الطريق إلا لزيارته والسلام عليه، ولم أجد السبيل إليه في هذه الساعة لأجل اتباع أهل كل مع هذه الحركة.

ومحلته يومئذ في يور. فبعث الرجال الذين طلب منه الكواهي أن يمدهم بهم، فجعل عليهم أسكيا محمد والكاهية أحمد بن الباشا علي بن عبد الله التلمساني. فوصلوا إلينا في كرن يوم الجمعة السابع عشر من الشهر المذكور.

ثم أتاهم الخبر ليلة الأحد التاسعة عشر منه بموضوع مخصوص الذي فيه حمد أمنة. وأما الصلح الذي ذكر فدك كي لحمد أمنة فكان نسياً منسياً، حيث وجد حمد فاطمة جعل سلطان ماسنة.

وفي صبيحة ذلك الأحد نهضوا إليه، وركبنا قواربنا ساعتئذ راجعين إلى كل. وأمرنا أصحابنا بانتظارهم في بلد زاغ حتى يأتونا هنالك. فمضوا ومضينا، ووصلناه عشية الثلاثاء الحادي والعشرين منه، وتربصنا فيه أربعة أيام.

وفي عشية السبت الخامس والعشرين منه بعثوا لنا بالمضي إلى نورنسن، وهي دار سن كي الذي في ساحل بلده، وننتظرهم هنالك، وإنهم في تدبير أمر المطلوب والمطر قد صد عن السبيل إليه. فرجعنا ووصلنا يوم الأربعاء بعد صلاة العصر ليوم بقي من الشهر المذكور. فنزلت ساعتئذ وطلعت إلى شرل، وبلغته عند أصيل الشمس، وأخبرت أهله بسلامتهم وبالخير الذي عاملهم به الباشا وأسكيا. ففرحوا غاية الفرح ولم يقدر أحد أن يصل داره إلا أنا وحدي فقط حتى أدركهم السلاطين.

فتم الشهر واستهل جمادي الآخرة بالجمعة. ثم إن الغزو رجعوا، ولم يجدوا حمد أمنة أينما كان. وفي يوم الاثنين الحادي عشر منه وصل سن كي وفدك كي بلدهما. ثم سمعنا أنه في أرض في سندي، وهو فصل بين أرض كَل وأرض قياك. فأمراني أن أكتب له على لسان الباشا وأسكيا أن يطرده من أرضه، وإذا تمكن منه يقتله. فقبل وأنعم.

ثم استهل علي رجب الفرد في شبل بالسبت. واستأذنت سن كي عثمان في المسير إلى جني لرؤية إخوتي وعيالي، فأذن لي. فخرجت من شبل يوم الاثنين الثالث منه بالبر. فقطعت بحر كمن يومئذ وبت فيه ليلة الثلاثاء. وفي صبيحته خرجت منه سالكاً في طريق زول. وفي القائلة طلعت السحاب وقارب، وكيفما دخلت في بلد ماكر [مطر] نزلت÷ فاستأخرت فيه حتى انقطعت. وخرجت في وقت الظهر، وصلت زول وبت فيه ليلة الأربعاء عند ريئسه زول فرن. وفي ليلة الخميس بت في بلد فال عند فال فرن. وفي نهار الخميس وقت القائلة وصلت بلد فوتن، وهو لكمي كي، وبت فيه ليلة الجمعة. وفي ضحوتها وصلت بلد تنك، وهو لشلي كي. وبعد صلاة الجمعة خرجت منه، فبت في بلد فرمتنا. وفي ضحوة السبت وصلت بلد شلي كي، واسترحت فيه قليلاً. ثم جزت وفي وقت الظهر وصلت تمسكر. وفي ليلة الأحد بت في تيم تام، هو بلد ورن كي. وفي ضحوة الأحد وصلت بينا، وبت فيه الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس لانتظار القارب الذي يتوجه إلى مدينة جني، لأن ذلك وقت امتلاء البحر. وفي ليلة الجمعة الرابعة عشر من الشهر المذكور خرجت من بينا إلى جني في القارب. وفي ظهرها دخلت جني بحمد الله وحسن عونه، وأدركت جميع أهلي بخير وعافية،

والحمد لله رب العالمين.

وفي يوم السبت الخامس عشر منه التقى فندنك حمد فاطمة وجيش حمد أمنة للقتال. فقتلوا ثلاثة من إخوة فاطمة وكثيراً من أتباعه. ومات فيهم الفقيه سي بن أبي بكر، وهو ابن عم الفقيه القاضي إد، رحمه الله عليهما. وهرب حمد فاطمة المذكور، فلحقوه وقتلوه. فرجع حمد أمنة في سلطنته بلا منازع له في ذلك ولبث المقتول في السلطنة شهرين.

وفي ليلة الأحد الحادي والعشرين من شعبان خرجت من جني راجعاً إلى كَل بالبر أيضاً. وفي عشية هذا الأحد وصلت بينا واستأخرت فيه سبع ليالي لقضاء بعض الحاجة. وفي بكرة الأحد الثامن والعشرين منه خرجت من بينا، وفي وقت القائلة وصلت بلد كني عند كل شاع عبد الرحمن، وبت عنده ليلة الاثنين. وفي صبيحته خرجت منه وجزت على بلد وانتا وقت الضحى، ثم بلد تمتام، وهو فصل بين أرض سلطان ورن وسلطان شيلي، وهو مشترك بينهما قبل في الملك، ثم تغلب عليه سلطان شيلي فانفرد بملكه. وفي تلك الناحية ثلاثة بلاد اسماؤهم متقاربة تبم تام وتمتام وتاتام. وفي آخر وقت الضحى وصلت بلد كمتنا، وعند الزوال وصلت بلد يوسررا، وفي وقت العصر وصلت بلد بينا، وفي العشية وصلت بلد سلطان شيلي، وبت الثلاثاء، فاستهل فيها شهر رمضان. وفي ضحوة الغد خرجت من بلده ووصلت بلد تنك وقت القائلة، وهو فصل بين أرض شيلي كي وكمي كي من جهة المغرب، وبت فيه ليلة الأربعاء. وفي صبيحتها خرجت منه، وفي وقت الضحى جزنا على تاتن، وهو بلد سلطان كمي كي، ثم بلد تاترم، وعند القائلة وصلت بلد فوتن، وأدركنا السوق فيه قائماً، وبعد صلاة العصر خرجت منه وعند أصيل الشمس جزنا على بلد توتا الله، وغربت علينا الشمس في قرية بقربه، فبتنا فيه. وفي وقت الضحى يوم الخميس وصلت بلد فال، ونزلت فيه قليلاً حتى سلمنا على فرن، وجزنا ساعتئذ وبدلنا الطريق وحيّدنا عن طريق زول لسده بماء البحر إلى ذات الشمال، ووصلت بلد تمي بعد العصر، وبت فيه ليلة الجمعة. وخرجت منه صبيحتها، وفي وقت الضحى جزت على بلد فادك، ثم على بلد نوي، ثم على بلد مسلا، وفي وقت الظهر وصلت بلد قم، وصليت في الظهر والعصر، وعند أصيل الشمس وصلت بلد فدك، وبت فيه ليلة السبت عند صاحبنا فدك كي محمد. وخرجت منه صبيحته ووصلت فيه المرسى بلد كمن ضحوة، واستأخرت فيه قليلاً. ثم قطعت البحر إلى شبل ووصلت عشية السبت الخامس من رمضان بعافية،

فوجدت أهلي وعيالي بعافية، والحمد لله رب العالمين. ثم استهل على شوال فيه ليلة الخميس. وفي يوم الأربعاء الرابع عشر منه مشيت إلى بلد شنشند في بعض الحاجة، وهو على شاطئ البحر لسنكي، فوصلته آخر ضحوة، فاستأخرت فيه قليلاً. ثم رجعت وجزت على بلد مدينة، وهو على شاطئ البحر، له أيضاً قريب منه جداً، وفي عشية رحت إلى شبل. وفي يوم الخميس الثاني عشر من ذي الحجة الحرام المكمل للعام الرابع والخميس والألف عند الزوال زاد لنا ابن من زوجتي حليمة بنت الفقيه أبي بكر سعنتر، سميته محمد الطيب، جعله الله ميموناً مباركاً.

ثم إن كفار بنبر قاموا على سن كي وقدك كي وخالفوا عليهما حتى عزموا على قتالهما، ثم إن الله تعالى أطفأ نار تلك الفتنة بقوته وقدرته، بل سكنت وما طفئت بالكلية. فعزمت على الرجوع إلى مدينة جني بعيالي، وفي يوم الاثنين الثالث والعشرين منه بعد صلاة الظهر خرجت من شبل بفضل الله تعالى وحسن عونه، وبعد الغروب قطعنا بحر بلد كمن، واسأخرت فيه أربعة أيام، أصلح من شأني للسفر. فخرجت منه متوجهاً إلى جني بالبر. وفي ليلة الثلاثاء استهل علينا شهر المحرم الحرام الفاتح للعام الخامس والخمسين بعد الألف في بلد توتا الله. وبعد صلاة الظهر في غدها يوما الثلاثاء توفيت ابنتي زينب في بلد فوتن، وأقبرتها فيه ساعتئذ، رحمة الله عليها وجمع شملنا وشملها في القيامة والفردوس الأعلى بلا حساب ولا عقاب بمنه وكرمه.

وفي ليلة الأحد السادس منه وصلنا بلد بينا بسلامة وعافية والحمد لله رب العالمين. وفي صبيحة الثلاثاء الثاني والعشرين منه خرجت إلى جني بالبر لطلب القارب لحمل العيال فوصلته وقت الظهر. وفي صبيحة الثلاثاء آخر يوم منه خرجت من جني راجعاً إلى بينا بالبر أيضاً. فوصلته وقت الظهر كذلك، واستهل علينا صفر الخير بالأربعاء. وفي نهار السبت الرابع منه توفي أخونا محمد بن الشيخ المختار تمت الونكري. وفي ليلة الخميس التاسع منه خرجت إلى جني بالبحر مع العيال، فدخلنا فيه ليلة الجمعة العاشر منه، والحمد للله رب العالمين.

وكنت في بينا قبل المضي إلى جني، جاءنا الخبر أن أولئك الكفار جاؤوا إلى شبل فهرب أهلها جميعاً، سن كي وغيره، فخربوه حجراً حجراً غير المسجد والدار التي سكنت فيها، والحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين. ثم بعد ذلك فعلوا مثله لفدك كي وأكبر.

وبعد ما رجع الباشا محمد بن محمد عثمان من غزوة ماسنة إلى تنبكت، وأهل

جني إلى جني، عزل القائد عبد الله بن الباشا أحمد بن يوسف من قيادتهم، ومكث فيها سنتين وأياماً يسيراً. وأمرهم بمجيء الكاهية محمد بن إبراهيم شمر إليهم، وذلك في يوم الثلاثاء غرة المحرم المذكور بلغهم ذلك الأمر. فتوجه إليه الكاهية محمد المذكور، فولاه تلك القيادة. فرجع ووصل مدينة جني يوم اللاثنين ثمانية عشر يوماً من الربيع النبوي سابع الولادة.

ثم إن حمد أمنة فندنك ماسنة كتب لأهل جني، ودخل في حرمتهم إن يصلحوا بينه وبين الباشا محمد بن عثمان. فكتبوا له بذلك. وكتب لهم أنه أجاز تلك الحرمة وقبلها بشرط أن يأتي إليه قاضيه ووالدته وأخوه، وبعثوه إليه بإعلام ذلك صحبة مرسولهم. وفي عشية الأحد الثامن من جمادي الأولى رجع المرسول من عنده، وأخبر أن القاضي أت وأما والدته وأخوه فلا يمكن لهما الإتيان.

وفي يوم الأحد الثاني والعشرين منه جاء القاضي، فاجتمع هو وقاضي جني في دار القائد مع الكواهي فيما يكتبون للباشا مما وقع عليه الصلح. وفي يوم الاثنين السابع من جمادي الآخرة خرج قاضي ماسنة من جني إلى تنبكت مع شاهدي قاضي جني. فقبلهم الباشا وقبل الصلح وأجازه. فرجع وفي يوم الخميس الحادي والعشرين يوماً من شعبان وصل جني، وفي يوم الخميس الثامن والعشرين منه رجع إلى ماسنة واحد من أهل المخزن فتم الصلح.

وفي ليلة الثلاثاء آخر ليلة شوال توفي الشريف يوسف بن علي بن المزوار في جني، رحمه الله تعالى ونفعنا به في الدارين أمين.

وفي ليلة الأحد العشرة من ذي الحجة الحرام المكمل للعام الخامس والخمسين والألف توفي أخونا محمد الأمين كعت في بلد بينا، وصلي عليه ضحوة في المصلى رحمه الله وغفر له.

وفي ليلة السبت الثامن من المحرم الحرام الفاتح للعام السادس والخمسين والألف توفي أخونا الإمام بن الحاج سنبير الدرجي في بلد بينا، فغسلته، وصلي عليه ضحوة، رحمه الله وعفى عنه بمنه.

وفي يوم الاثنين السادس من الربيع النبوي توفي أخونا ومحبنا سيد الحسن بن علي الكاتب، ودفن في مقارب الجامع الكبير.

وفي يومئذ بعث الباشا محمد بن محمد بن عثمان مرسول إلى جني عند القائد محمد بن شمر والكاهية محمد روح والكاهية عبد الله الحرار والكاهية محمود بن

أحمد والكاهية أحمد بن بلقاسم الماسي والكاهية أحمد بن دهمان الحاحي، وأمرهم بمجيء إليه في تنبكت. وأنا في بينا يومئذ، فوصل المرسول إليهم يوم السبت سابع الولادة. فكتبوا إلي في ذلك يوم الأحد، ووصلني المرسول والكتاب وقت العصر. فخرجت من بينا في غده يوم الاثنين، وبتنا في الطريق ليلتين لأجل يبس الماء، فوصلت جني ضحوة الأربعاء. ودفعنا في المرسى أنا ومرسول الباشا عند صلاة الظهر من يوم الخميس الثالث والعشرين من الشهر، واستهل علينا شهر الربيع الثاني في بلد وك ليلة الخميس، ووصلنا مرسى كرنزفي نهار الأحد. فصرف لي الحصان وطلعت مدينة تنبكت ليلة الاثنين الخامسة منه، والتقيت معه تلك الليلة. فرحب بي وأكرمني، ورتبني كاتباً، نسأل الله تعالى العفو والعافية والسلامة والمعونة في الدين والدنيا والآخرة، وهو على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.

وفي يوم السبت السادس من رجب رد أسكيا داوود ابن محمد سرك أجي في مقامه على قومه في بلده. خرج من تنبكت مع مراسيل الراتب إلى كاغ يوم الأربعاء العاشر منه. وكتب لهم أن تسير معه محلة من عندهم إلى داره. فساروا معه كما أمر.

وقد أخذ إخوانه في تدبير عزله بكثير من الرماة، وابتدأوا ذلك من حين كانوا في غزوة ماسنة، ولم يزالوا يسعون فيها إلى ليلة الخميس الثامن والعشرين من رمضان، قاموا عليه إلى ضحوة السبت يوم العيد أحد شهور العام المذكور. خلعوه وولوا الباشا أحمد بن الباشا علي بن عبد الله التلمساني. فصلي هذا العيد وهو صاحب الأمر بعد ما مكث الباشا محمد بن عثمان في الولاية ثلاثة أعوام وثمانية أشهر وخلف كثيراً من المال، بيعت تركته في المشوار، فاشتراها الرماة. ثم أجلي من تنبكت إلى بر. ثم رحل منها إلى بلد شيب حيث كانت القصبة خوفاً عليه من أهل ماسنة لئلا يقتلوه غيلة. ثم رجع إلى تنبكت لرسم الحساب في ولاية الباشا أحمد بن حد، حيث طالب المعزول الباشا يحيى بالحساب، فقال أهل سريته إذا طالبه بالحساب ولا بد فليحضر الباشا محمد للحساب. فحضر وحوسب فخرج سالماً، ولم يتبعوه بشيء. فبقي في تنبكت إلى أن توفي فيه عشية الجمعة غرة الربيع النبوي عام الثالث والستين والألف.

وأما الباشا أحمد فكان ذا جود وسخاء وحلم وحياء طيب الأصل ابن أبيه في الفضل صحيح القول مليح الفعل، ولم يمكث في ذلك المقام إلا ثلاثة أشهر وثمانية أيام. وفي أيامه وقع البحر في معدك ليلة السبت سابع ذي القعدة لأربع خلون من دجنبر بعد ما تأخر في زبير بنك سبعة أيام.

وفي يوم السبت عند الزوال خامس من ذي الحجة الحرام المكمل للعام السادس والخمسين والألف توفي سيد الوقت وبركته الشيخ المحب سيدي الشريف محمد بن الشريف الحاج الحسني، وصلي عليه بعد صلاة الظهر في الجامع الكبير، ودفن في مقابرها، رحمه الله تعالى ونفعنا في الدارين ببركته.

وفي أواخرها توفي الشيخ عبد الرحمن أكنذر بن أوسنب التاركي سلطان مغشرن في حلته في رأس الماء. فخلفه سبطه أبو بكر بن ورمشت.

وفي ليلة الخميس بين المغرب والعشاء التاسعة من المحرم الحرام فاتح عام السابع والخمسين والألف توفي الباشا أحمد، وصلي عليه ضحوة الخميس عند مسجد محمد نض، ودفن فيها، رحمه الله تعالى وعفى عنه بمنه.

وبعد الرجوع من دفنه اتفق الجيش ساعتئذ، فولوا الباشا حميد بن عبد الرحمن الحيوني. كان نحيس السعد بخيس الجد، ليس بأهل للولاية، ولا له فيها أصل ولا فصل، وفوض الأمر للوزراء، وبقي لا له قول ولا فعل. فدخل بذلك في سلطنتهم فساد كبير، وهو يزداد كل يوم، لأن جميع من ولي بعده بذلك السير يسير، إنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما رأى أن ماءه لا تغني من غلة، ودلوه لا ترجع ببلة، رمى نفسه بطائفة قليلة من الجيش في المفاوز في وقت ترمي الهوى فيها بشرر من النار. فخاطر به وبهم غرراً، حتى ظن الناس أنه لا يريد إلا هلاكاً وتبواً.

فخرج من تنبكت بعد صلاة الظهر من يوم السبت الرابع من جمادي الأولى في ذلك العام المذكور قاصداً جهة كرم، وقطع البحر يوم الاثنين بقرب بلد بو، وفي يوم الأربعاء الثامن من الشهر المذكور تحملنا هنالك بلا مراكب من الدواب سوى شيء من أوداش قبضه من أهل العمودي الذين كانوا في تلك الجهة. ورفد الناس عليهم شيئاً قليلاً من الماء والأزواد.

فتوجهنا جهة الحجر رافدين الليل والنهار، حتى نهار الخميس السادس عشر منه وصلنا جبل ناي عند وقت الظهر. فعدز الناس وتخلف كثير من الخيل في الطريق، ورفد أربابهم على رؤوسهم سروجهم، ومن لم يقدر عليه تركه. ونزلنا على الماء الذي كان وراء جبل سوق. فبعث الطليعة ساعتئذ للتجسس على من كان في تلك الجهات لكي يغير عليهم. فأتي بالخبر عنهم، فقطع السرية ونهضوا إليهم ليلة الجمعة، وبتنا على ذلك الماء. وفي صبيحة الجمعة ارتحلنا للميعاد بيننا وبين السرية، أسكيا الحاج

والقائد عبد الصادق هم الذين عليهم.

ومضوا وراء جبل سوق ودخلنا في داخلها. وليس معنا ماء، والماء الذي نعت لنا القيناه قد يبس، وما هنالك غيره. وبقينا لا نخاف إلا الهلاك من العطش. ودخل الرماة يغتابونه، ويسمع. وهم في حال السير على باب الله تعالى إذا نحن بالشياة في وقت القائلة، والناس الذين يسوقونهم هربوا ودخلوا في الغابة، ولا يقدر أحد أن يدخلها لأجل تكثفها مع حمية الشمس ساعتئذ.

فساعهم الخدام معنا إلى وقت الظهر في حال اليأس والقنوط إذا نحن بضاية من ماء السحاب من رحمة الله تعالى ولطفه. فنزلنا عليه وصارت أرواحنا كأنها ردت بعد ما أخرجت لأجل فرج بعد شدة. وبعد ما ارتاح الناس قليلاً ركّب نحو عشرين رجلاً ليطالعوا على الأرض، فوافقوا بأهل البقر الذين يسيرون بين الجبال، فتقاتلوا معهم، وصابوا منهم قليلاً من البقر، وقتلوا واحداً من خيار الرماة، وقتلوا حصانه.

وبتنا على الماء ونحن في وجد عظيم من خبر تلك السرية إلى بعد طلوع الفجر. وأنا في حال السجود من صلاة الصبح سمعت حس طبلهم من جهة القبلة، فأخبرته به. ثم ارتحلنا بعد طلوع الشمس، فمن قليل التقينا مع مراسيل أصحابها الذين أتوا بخبر سلامتهم وهروب الفلانيين منهم بأموالهم، وما صابوا منهم شيئاً. ثم التقينا بأنفسهم وفي آخر وقت الضحى. نزلنا في مقابلة بعض قرية المشركين أهل الجبل في أحرائهم.

وبتنا هنالك ليلة الأحد. وفي غد ارتحلنا والتقينا مع أخ دعنكاكي فاري، يريد إلى صاحب الأمر يطلب الأمانة في الحضور لديه. فأعطاه إياها. فرجع إليه بالخبر بعد ما نزلنا على ماء بنك ذيب في مقابلة جبل لنب.

وبتنا هنالك ليلة الاثنين. وفي العشية جاء دعنكاكي المذكور. فسلم ودعا، فرفع التراب على رأسه، وأخذ العهد في الأمان لنفسه ولصاحبه هنبركي الهادي ابن هنبركي موسى كروا في أنفسهما وأهلهما وبلدهما. فسأله عن هنبركي المذكور. فقال عن قريب يجيء. فأكرمه صاحب الأمر غاية الإكرام.

وبتنا هنالك ليلة الثلاثاء، وفي غد ارتحلنا راجعين إلى ورائنا في طلب المحارب حمد بلل. ونزلنا في مقابلة بعد قرية المشركين وقت الظهر في مقابلة جبل مكة لجهة اليمين من جبل ناي. وفي عشيته جاءنا هنبركي المذكور. وبتنا هنالك ليلة الأربعاء. وقد بعث الجسوس في أمر حمد بلل المذكور. وفي غد ارتحلنا، فعن قليل تلقينا مع الجسوس. فأخبرنا بمكانه وأنه بقرب منا، ومعنا دعنكاكي المذكور. فجددنا في السير

بعد ما تأهبنا للقاء الحرب، فجزنا على بلد أحمد سانوا في وقت الضحى، وهو في حال الهروب. فلما قاربناه دخل في غار جبل دان، وهو قد بلغ غاية القصوى في الاعتلال [الاعتلاء] والرفعة حتى إن الإنسان إذا طلع فوقها لا تحسبه إلا طيراً صغيراً.

فنزلنا في فمهم عند الزوال، وبتنا هنالك ليلة الخميس. وفي غد ضحوة بعث السرية في إثره. فولجوا في تلك الغار، وباتوا في إثره ليلة الجمعة وليلة السبت. وفي غد بعد الظهر رجعوا إلينا، وما صابوا منه نيلاً. وفي صبيحة الأحد ارتحلنا راجعين. وفي يوم الثلاثاء بعد الزوال الثامن والعشرين من جمادي الأولى نزلنا عند جبل دعنكا.

وفي هذا اليوم كسفت الشمس في تنبكت. فحدثني بعض الطلبة أنه لما رأى عدم اجتماع الناس لصلاة الكسوف رفع الأمر إلى القاضي محمد بن محمد كري رحمه الله، فأجابه أنها لا تمكن والحال ما فيه سعة. وحدثني بعض الإخوان أيضاً أنه ظهر في تنبكت في ليلة واحدة من ليالي هذه الأيام بين المغرب والعشاء مثل دخان عظيم كثيف، قد عم ديار البلد كلها. وتشوش الناس منه ولم يدروا من أين حدث. وأخذوا في التفتيش والبحث عنه، حتى أتموا المنازل كلها ظناً منهم أن لا يكون حريقاً فيها، فما كان أصلاً.

الحاصل بعد ما نزلنا ساعتئذ بعث صاحب الأمر سرية، فغاروا على بعض الفلانيين، فغنموا قليلاً من البقر ورجعوا إلينا ليلة الأربعاء. وفي غد ارتحلنا متوجهين جبل هنبر. فضل يومئذ بعير بجميع ماعون المطبخ، ولم يدر أحد أين دخل ولا في أي طريق سلك. فنزلنا على الماء وقت الضحى عند قرية تسمى كيرتاو، وبتنا هنالك ليلة الخميس، واستهل بها شهر جمادة الأخرى. وفي غد ارتحلنا، وفي آخر وقت الضحى نزلنا على ماء كرم، وبتنا عليها ليلة الجمعة. وفي غد ارتحلنا متوجهين هنبر.

والتقينا بالبريدين في الطريق بخبر هروب هنبركي خوفاً من سطوة صاحب الأمر على زعمه. فوصلنا آخر وقت الضحى من يوم الجمعة الثاني من شهر جمادي الأخرة، فنزلنا هنالك. وفي غده بعث لصاحب الأمر في طلب الأمان، فأعطاه ذلك. وأتى وحضر. وقطع عليه المال في الزرع الخدام وشعوق التواري ما قطع.

فشرع في دفعها. ثم خاف أيضاً وهرب. والموافقة ما كانت بينه وبين أهل بلده، واجتمعوا على كراهته، وطلبوا من صاحب الأمر أن يعزله ويولي عليهم أخاه يوسف بن هنبركي موسى كرو. فولاه عليهم. وأعطى جميع ما قطع على المعزول والزيادة. ثم بعث السرية هنالك على بعض الفلانيين فغاروا عليهم وغنموا بقرات.

فأخذنا هنالك عشرة أيام. وفي عشية الخميس الخامس عشر من الشهر ارتحلنا متوجهين إلى تنبكت. وقد باع الرماة لأهل هنبر فنانيشهم وحميرهم وخواتيمهم وتهاليهم وصدرياتهم وغير ذلك بأدنى شيء من الزرع لأجل ما نالهم في ذلك الطريق من فاقة الجوع.

وفي يوم الثلاثاء عشرين يوماً من الشهر المذكور وصلنا البحر على بلد أشر، ونزلنا في مقابلة بلد كوي. وقد بقي كثير من الخيل في الطريق لعجز، وما وصل أربابهم البحر إلا على أرجلهم. ورمى الناس بعض أمتعتهم وآثاثهم. والمنزل الذي نزلنا فيه يومئذ يقال لها كنك كري. وفي يوم الاثنين السادس والعشرين منه ارتحلنا، ودخلنا مع صاحب الأمر في القارب، ومضى أصاب الخيل بساحل البحر. وبتنا ليلة الثلاثاء عند المقطع بقرب بلد يب. وفي غد قطعنا وبتنا ليلة الأربعاء وراء البحر من جهة حوص.

وفي ليلة الخميس ارتحلنا منه ووصلنا مرسى كرنزفي ضحوة الخميس آخر يوم من الشهر، واستهل شهر رجب بليلة الجمعة. ويوم الجمعة غرة هذا الشهر ورد علينا في المرسى مراسيل أهل مدينة كاغ يستخبرون عن عافيتنا وسلامتنا في ذلك السفر. وأمرنا أن أكتب لهم الجواب في ذلك. فالله تعالى يسامحني ما أودعته فيها من الأقوال المزخرفة ونصه:

الحمد لله، وصلى الله على نبيه محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً، الأبرار المكرمين، الأخيار المعظمين، الأنجاد المرعيين، الأسناد المرضيين.

القائد منصور بن مبارك الدرعي وكافة من معه من القياد والكواهي والمقدمين والبشوظات وضباشيات وسائر الولضاش، رعاكم الله وأنجدكم وأعانكم وسددكم وأصلح بمنه كافة أحوالكم، وبلغكم من جميع الخيرات والمسرات بمناكم وآمالكم. سلام تام عميم عليكم ورحمة الله وبركاته عن الخير والعافية ونعم الله المتوافية.

كتبناه إليكم - لله الحمد وله الشكر - وعن ما تشوقتهم إليه من معرفة أحوالنا وأخبارنا، حسبما هو مسطور في كتابكم الكريم الذي ورد علينا صحبة مراسيلكم في مرسى كرنزفي. فأدركنا في كل ما تحبون لنا وتمنون من العافية الباسطة الوافرة والنعم السابقة الفاخرة من المولى الكريم ذي الفضل العظيم.

وذلك لما عزمنا على الحركة إلى ناحية الظلمة المفسدين أعداء الله ورسوله، قبيلة سفنتير الذين أفسدوا طاعتنا في كيس بجهة كرم وخسروها. خرجنا بالمحلة

السعيدة إلى ساحل البحر في السفن. وسبب خروجنا بأنفسنا في ذلك شيئان:

أحدهما الإطلاع على أمكنتهم ومساكنهم في غايتها ونهايتها، في البعد والمسافة، بركائبنا وأرجلنا وحوافر خيلنا دفعاً لما قد عسى أن يتوهمه الغبي الأحمق أن طول رقدتنا لتعديتهم ومفسدتهم التي شملت طاعتنا وبلادنا منهم ومن غيرهم من القطاعين والمحاربين كان من ضعفنا وعجزنا. كلا ليس الأمر كما يزعم الزاعم ويتوهم الغبي الظالم، بل من صبر السلطنة وتأنّيها، حتى تبطش البطاشة الواحدة، فتمحو كل شيء أنت عليه في لحظة واحدة.

الثاني من الشيئين ضيق الحال وخلو الدار من المال - لا أخلاها الله تعالى من الخيرات والبركات - ولكن للدنيا طلوع ونزول، وتغيرات وحول، والأرزاق تغور وتفور، وترقد وتنور. وهذان الشيئان أخرجاني فيها.

فلما انتهينا إلى موضع الطلوع إلى العوالي، وانتقلنا من بطون السفن بحفظ الله الكبير المتعالي، وحملنا على ظهور الدواب بعون الله القدير الوهاب، شرعنا في إتباع إثر الأبعد الخاسر الظالم الفاجر رأس شياطين الإنس حمد بلل. نقطع أكمة وآجاماً، ونشد عزمة وأحزاماً، ويلفظنا أرض إلى أرض، ويجذبنا رفع من خفض، حتى وصل بنا السير إلى سفح الجبل بعناية من بيده القوة والحيل. وسلكنا منها مسلكاً ما سلكه أحد قبلنا، لا من الأسلاف ولا من الأخلاق. فصرفنا لأربابها من مشارقها إلى مغاربنا، من صاحب هنرب ودعنكا وفيلي.

فأجابوا دعوتنا وأتابوا [أتوا] لسطوتنا، حتى اتصلت الإجابة لصاحب كرو وغيره. فنزلوا إلينا، وحضروا لدينا مذعنين راغبين مذللين راهبين. فتجددوا لمولانا نصره الله تعالى البيع والطاعة، وقالوا: كل ما أردتم منا من الخدمة فالساعة الساعة. وتبرؤوا من جميع أعدائنا، وقلعوا من رقابهم كل عروة إلا عرى طاعتنا. فطلبوا منا الأمان على مهجتهم وبلادهم. فأعطيناهم ذلك بالعهد والميثاق.

فنهضوا معنا إلى لحاق ذلك الأبعد الخاسر. وأخذنا في إثره حتى قاربناه. فلما تيقن بالهلاك رمى نفسه في غارة ضيقة، أضيق من سم الخياط، وعن المسلك صعب الارتقاء، منفرداً وحيداً، تفرق عنه أصحابه وأتباعه، وتشتت عنه أهله وأشياعه.

فولج عليه في ذلك الغار الأسُود والنسور، جيشنا المويّد المنصور، حفاة مشاة، لما توقد فيهم حينئذ من غضب النجدة والجرأة، فاغرين أشداقهم، رافعين أعناقهم، مبدئين أنيابهم ومخاليبهم، حتى انتهوا به منتهى الغار. فرمى نفسه إلى ورائها في أيدي

المشركين. فلما رأى أنه ضاقت عليه نفسه، وضاق عليه الأرض بما رحبت، بعث المرسول إلى صاحب دعنكا في طلب العفو منا، وأنه تائب لله ولرسوله وللسلطنة. فعفونا عنه وأعطيناه الأمان على روحه فقط.

ثم بعث لنا قومه أنهم سلموا فيه، وأنهم متبرئون منه، طالبين الأمان على أنفسهم، بعد ما أغرنا على بعضهم وغنمنا منهم بحمد الله تعالى وفضله. فأعطيناهم الأمان، وقطعنا عليهم المال، ورجعنا سالمنين غانمين منصورين بفضل الله تعالى وكرمه، ثم ببركة مولانا سلالة الهاشمين، نصره الله تعالى.

وقد سمعنا خبر هؤلاء التوارق المدن الذين نزلوا عليكم، وخبر ما جرى بينهم وبين صاحب اكنزر. فإن رأيتم فيهم الغرة فلا تتركوهم، بل اقتلوهم قتل عاد وهمود، لأنهم غدارون خائنون، ما فيهم أمان بكل وجه. إن كنتم تقدرون ذلك بأنفسكم فعلى بركة الله تعالى، وإلا فاكتبوا للقائد محمد بن عيسى الكوش ببنب أن يمدكم بكل من كان معه من الرماة والعرب. لا تفشوا سركم حتى يمكنكم الله فيهم، لئلا يأخذوا حذرهم منكم، لأن الحرب خدعة.

بارك الله فيكم، وكان لنا ولكم ولياً ونصيراً.

وبه كتب يوم السبت ثاني رجب الفرد عام السابع والخمسين والألف في مرسى كرمزفي خديم المقام العالي المحمدي - نصره الله - صاحب السعادة الباشا أحمد بن عبد الرحمن الحيوني، لطف الله به بمنه وكرمه انتهت الرسالة.

وبقي في ذلك الوهن والضعف إلى نهار الجمعة السادس من شوال عام الثامن والخمسين والألف عزل. ومكث في الولاية سنة واحدة وتسعة أشهر.

فتولى ساعتئذ الباشا يحيى بن محمد الغرناطي باتفاق الجيش فكان. فاحشاً متقحشاً مسلطاً مبغضاً للخلق متكلماً في العلماء الشرفاء أهل البيت، وفي أولي الفضل كلهم بالسوء، نماماً خلاطاً، ويغري بين الناس بالشر. ومكث في الولاية ثلاث سنين وأياماً يسيراً، فكان كالثلاثين سنة طولاً من الثقل والسأمة. فتحبر مرتين: مرة إلى كاغ ومرة إلى بنب. وكل ذلك يحول الله سبحانه بينه وبين ما يريد في الناس من الشر والتوجه له.

خرج من تنبكت لحركة كاغ يوم الاثنين السادس من جمادي الآخرة عام ستين وألف إلى جزيرة زنتا، بعد ما قتل الشيخ إبراهيم بن الرعوان الشبلي في ثالث عيد النحر مكمل عام التاسع والخمسين والألف. ومنه نفر عنه قلوب جميع العرب

والتوارق لا من عدو المقتول ولا من صديقه. فمكث في تلك الجزيرة خمسة أيام. وفي يوم الجمعة العاشر من الشهر ارتحلنا منها ووصلنا بنب يوم الجمعة السابع عشر منه في ثمان مرحلات، وبتنا فيه ليلة واحدة. وارتحلنا منه صبيحة السبت الثامن عشر منه إلى كاغ. وفي ضحوة الاثنين العشرين منه جزنا على بلد كابنك وعلى بلد توصا. وفي يوم الأربعاء الثاني والعشرين منه نزلنا على بلد برم، والتقينا مع أهل كاغ ضحوة الخميس عند شجرة البرج. وفي يوم الجمعة نزلنا تندب، وأقمنا فيها ثلاث ليالي من وراء البحر. وفي يوم الاثنين ارتحلنا منه وبتنا دون مدينة كاغ، ووصلناها ضحوة الثلاثاء السابع والعشرين من الشهر المذكور في تسع مراحل. وفعل فيها ما فعل، واستهل علينا فيه شهر رجب ليلة الجمعة.

وارتحلنا منه راجعين يوم الاثنين الخامس والعشرين منه، واستهل علينا شهر شعبان ليلة السبت في بلد توصا عند جبل دار. ووصلنا بنب نهار الأربعاء الخامس منه، وأقمنا فيه سبعة أيام، وفعل فيه ما فعل. وارتحلنا منه يوم الأربعاء الثاني عشر، ووصلنا مرسى دعى يوم الأحد السادس عشر منه، وأقمنا فيها أربعة أيام. ودخلنا مدينة تنبكت يوم الخميس عشرين يوماً منه، واستهل علينا الشهر المعظم المبارك رمضان ليلة الاثنين لكمال شهر شعبان، والحمد لله رب العالمين.

ثم خرج من تنبكت لحركة بنب ضحوة السبت الثالث والعشرين يوماً من جمادي الأولى عام أحد وستين والألف. ونزلا في ذلك اليوم في جزيرة زنتا أيضاً، وتأخرنا فيها عشرين يوماً انتظاراً لبعض حوائج الجيش. وارتحلنا منها يوم الخميس اثني عشر يوماً من جمادي الآخرة، وقد استهل بالأحد. وتوجهنا بلد بنب لمداركة ما أفسد فيها المخالفون من البرابيش والتوارق.

فكتب للجيش الذين كانوا بمدينة كاغ أن يلتقوه بزمكي، وهو موضع معروف ببنب من جهة المشرق، فأجابوا وأنعموا، وقائدهم يومئذ رابح بن عيسى الكوش. فوصلناها في سبع مراحيل، ونزلنا فيها ضحوة الأربعاء الثامن عشر من الشهر المذكور. ففر منه البرابيش والتوارق وتفرقوا شذر مذر. فبعث لهم بالأمان مراراً متكررة، فلم يجيبوا، حتى بعث لهم القائد علال بن سعيد الحروسي، وهو والي البلد يومئذ، فامتنعوا. وبعض جيشه هم الذين يبعثون لهم أن لا يجيبوا دعوته، لأنه غدار، وقد كان حزن على قتل إبراهيم الرعواني ما زال في قلوبهم ولا يزال.

ثم إن قائد كاغ جاء في طائفة من الجند، وقد خرجوا جميعاً من المدينة، ثم

اختلفوا. فرجع الجل وما رضوا بالمجيء بالمخالفة البينة، حتى كادوا يقتتلون. وزعموا أن القائد رابح وأخاه القائد محمد الكوش ومن كان معهما على نية واحدة، هم الذين مكنوه في الوصول إلى كاغ ويريدون الآن أن يسوقوهم إليه في هذه الصاعة ليفعلوا فيه ما شاء الله. الحاصل تأخروا معه في بنب، وما وجد طريقاً إلى مراده بشيء من الأشياء. وبقوا معه إلى يوم رحيله إلى تنبكت، وهو يوم الاثنين السابع من رجب الفرد. فوادعهم وقرأ لهم الفاتحة، فرجعوا إلى بلدهم. فعزلوا القائد المذكور مع الكاهية الذي جاء معه، وهو من أهل اليمين، وما زال بعضهم في قليبهم إلى الآن.

وقد مرضت أنا في بنب مرضاً مخوفاً. ثم إن الله تعالى بفضله وكرمه عافاني وشفاني. عظم الله به الكفارة بجاه نبينا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم.

فتوجهنا لتنبكت ووصلنا مرسى كرنزفي يوم الجمعة الثامن عشر من الشهر المذكور، وبتنا فيها ليلة السبت. وفي غده استأذنته في الوصول لداري لأجل ذلك المرض. فأذن لي، وركبت بعد صلاة العصر. وبت ليلة الأحد في قرية أمظغ لعدم الطاقة على الوصول في تلك الحالة. وفي صبيحة وصلت البلد، ودخلت داري وأدركت عيالي كما أحب، فلله الحمد وله الشكر.

وتأخر هو في المرسى إلى يوم الخميس الرابع والعشرين من الشهر المذكور. فطلع البلد في بئس الحال، حتى ما طاف البلد في الركوب على العادة القديمة السالفة من أجل الغم والكرب.

وكيفما تولى بدأ بالشر لأهل جني بلا سبب ولا موجب. فخالفوا عليه ونبذوا أمره وراء ظهورهم حتى انعزل. ورام الوصول اليهم للانتقام منهم، فما يسر الله تعالى له السبيل إلى ذلك.

ثم عزل القائد محمد شرم من قيادتها، فأمر بمجيئه إليه. فجاء وحاسبه في إخراج ذلك الأرض، فعزل منها، وسجنه في بلاد بر حتى عمي هنالك. ومكث في اللولانة سنتين ونصفاً والله أعلم. وفي أوائل رمضان في العام التاسع والخمسين والألف ولاها عبد الكريم بن العبيد الدرعي قائداً. وفي أيامه توفي الشيخ إبراهيم بن الرعوان الشبلي كما مر، وكذلك القائد علي بن رحمون المنبهي.

وفي يوم الاثنين آخر يوم من شوال عام أحد وستين وألف عزل الباشا يحيى بن محمد الغرناطي، ومكث في الولاية ثلاث سنين وأربعة وعشرين يوماً. فتولى الباشا أحمد بن الباشا حد بن يوسف الأجناسي في ضحوة الثلاثاء غرة ذي القعدة الحرام في

العام المذكور باتفاق الجيش. فكان رفيقاً بالناس معظماً للعلماء والصالحين وأهل الفضل كلهم، ولكن ليس له معالي الهمة. وأخرج الجيش بيت المال من يده وجعلوه في يد الحاكم ناصر ابن عبد الله الأعمش، ليكون قائداً أميناً في فور ولاية الباشا أحمد المذكور في المشور السعيد، فتكفل لهم القيام بحقوقهم. وعزلوا القائد بلقاسم التملي من المتلمين [التأمين] الناقض الذي هو فيه.

ومن مات في أيامه من الأعيان القائد محمد العرب بن محمد بن عبد القادر الشرقي الراشدي، توفي في أواسط الصفر في العام الثاني والستين والألف.

وفي السابع وعشرين منه توفي أخونا ومحبنا الأمين القائد بلقاسم المذكور، رحمه الله تعالى وغفر له بمنه.

وفي ظهر الأربعاء الثاني من الربيع الثاني عام الثاني والستين والألف توفي القاضي محمد بن محمد بن محمد كري، رحمه الله وعفى عنه بمنه. فتولى القضاء، وعمره خمسون سنة. ولبث فيها سبعة عشر سنة.

وفي ضحوة الخميس العاشر منه في العام المذكور قلد القضاء الفقيه أبا زيد عبد الرحمن بن الفقيه أحمد معيا في المشور السعيد، سدده الله تعالى ووفقه، وعمره يومئذ ثلاثة وسبعون سنة.

وفي عشية الجمعة غرة الربيع النبوي عام الثالث والستين والألف توفي الباشا محمد بن محمد بن عثمان.

وفي يوم الأحد سابع ذي الحجة الحرام مكمل عام الاثنين والستين والألف عزل القائد عبد الكريم بن العبيد من القيادة في جني. وولي القائد علي بن عبد العزيز الفرجي تلك القيادة يوم الخميس السابع عشر من المحرم الحرام فاتح عام الثالث والستين والألف.

وفي يوم الجمعة الثاني والعشرين من الصفر عام اثنين والستين والألف وصل غُلي ماء البحر معدك، وهو ثان وعشرون يوماً من فبرابر، ولكن ما وصل الموضع المعهود الذي ينتهي إليه عادة، بل وقف عند مرمس يند، هذا أمر غريب الذي لم نره ولم نسمع به أنه جرى قبل، وهو من حوادث الزمان وغرائبه.

وفي أيامه انفتح أبواب الفتنة من كل جهة ومكان - كتب الله لنا وللمسلمين فيها السلامة والنجاة بمنه.

وفي أواخر ذي القعدة الحرام من العام الثاني والستين والألف خالف الشيخ

غُعل الدومسي على أهل كاغ، وهرب منهم إلى سغي عند أسكيا داوود بجميع ما هنالك من أرباب المواشي من العرب والتوارق والفلان وغيرهم. وفي أواسط المحرم الحرام فاتح عام الثالث والستين والألف حرك إليهم القائد منصور بن مبارك السواف قائد كاغ بجيشه. فتبعهم للإغاثة من أهل تنبكت خمسون رامياً مع المعزول الكاهية أحمد بن سعيد المداسني. وفصلوا إلى بلاد أسكيا، وهرب منهم وترك البلد خالياً. وأما أُعل فما نالوا منه نيلاً، فولوا راجعين. وتبعهم أعل المذكور يرميهم الكفار الذين معه بالنشاب كل ليلة إلى كوكيا، ففارقهم.

ثم أتى بغزوه إلى أرض أشر فغار على جميع من كان هنالك من العرب والتوارق، وسرق أموالهم. فتبعوه قليلاً، ثم خافوا من شره فرجعوا، وذلك في شهر رمضان في العام المذكور. وفي هذا الشهر خالف جنكي أنكبعلي على أهل جني، ومكث في بلد شو عند ماتنك شم، جعل الله عاقبة الجميع خيراً.

وفي يوم الجمعة السابع من الربيع الثاني في هذا العام رسى أخونا الفقيه محمد سعدي بن الوالد عبد الله بن عمران مرسى كبر، قد جاء من جني لقدح عينيه عند مجيء الطبيب إبراهيم السوس. وطلع البلد ليلة السبت، وأنزله الباشا أحمد بن الباشا حد في داره فأكرمه وأبر به غياة المبرة والإكرام. فتسبب له الطبيب المذكور، ففرج الله تعالى عنه، وأخرجه من ظلمة البصر. ولبث في تنبكت ثلاثة أشهر وأربعة أيام، فأعطى الباشا أحمد الطبيب من عنده ثلاثة وثلاثين مثقالاً وثلثاً ذهباً. ثم أعطاه هو عند رجوعه لوطنه جني أربعين حجرة ملحاً وكساه كسوة فاخرة. فخرج من تنبكت بعد صلاة الفجر من يوم الاثنين الثالث عشر من رجب الفرد في العام المذكور. وما تأخرت والدته في الحياة بعد ذهابه إلا شهرين وثلاثة وعشرين يوماً.

الباب السادس والثلاثون

ذكر الوفيات والتواريخ من عام الثاني والأربعين والألف إلى آخر العام الثالث والستين والألف

من ذلك الباشا علي بن عبد القادر، توفي في عشية الخميس السادس من المحرم فاتح عام الثاني والأربعين والألف، والقائد محمد بن سمعود. ضرب عنقهما في الر، وأمر بذلك الباشا علي بن مبارك الماسي باتفاق الجيش كلهم.

وفي ليلة عاشوراء منه ليلة الاثنين توفي محمد ابن موسى السباعي في بلد جني،

قتله القائد ملوك بن زرقون والكواهي الخمسة.

وفي حدود هذا العام توفيت عمتنا أم حفصة بنت عمران، رحمها الله تعالى.

وفيها توفي الفقيه العام الصالح التقى الخير الفاضل الشيخ بوب كار الفلاني من قبيلة سفنتير، رحمه الله ونفعنا به أمين.

وفي أواسط الصفر منه توفي القائد أحمد بن سعدون الشاكمي، ودفن في مقابر الجامع الكبير.

وفي عشية الخميس الثالث عشر من جمادي الأولى توفي جنكي أبو بكر بن عبد الله، قتله القائد ملوك بن زورقون في القصبة صبراً بحضور الكواهي الخمسة. ثم غسل ليلة الجمعة وصلي عليه ودفن في الجامع الكبير في مدينة جني.

وفي أواخر جمادي الآخرة منه توفي أخونا ومحبنا بابير كري بن أبي زيان التواتي في جني، رحمه الله تعالى وغفر له.

وفي آخر رمضان منه توفي أخونا وصديقنا من حين الطفولية حبيب بن عبد الله بن بلقاسم التواتي، رحمه الله تعالى وعفى عنه بمنه.

وفي أوائل ذي الحجة الحرام مكمل العام المذكور توفي الجار المحب الشريف محمد بغيغ بن عبد الله رس بن الإمام سيد علي الجزولي، رحمه الله تعالى.

وفي أواسط رجب في العام الثالث والأربعين والألف توفي أخونا ومحبنا محمود بن عمر الحرار. وفي ثاني يوم وفاته توفي أخونا ومحبنا الفع أبكر الفلاني، كلاهما في مدينة جني، ودفنا في مقابر الجامع الكبير رحمهما الله تعالى وغفر لهما وعفى عنهما.

وفي أوائل الربيع النبوي في العام الرابع والأربعين والألف توفي الباشا سعود بن أحمد عجرود الشرقي، ودفن في جامع محمد نض.

وفي أوائل ذي القعدة الحرام توفيت أختي أم كلثوم بنت الوالد عبد الله بن عمران في مدينة جني بعد صلاة العشاء الآخرة في النفاس بعد الولادة بيومين أو ثلاثة، ودفنت ليلتئذ في الجامع الكبير، رحمها الله وغفر لها أمين.

وفي ضحوة الجمعة الثالث عشر من المحرم الحرام الفاتح للعام الخامس والأربعين والألف توفي الفقيه العالم العلامة أبو العباس القاضي سيد أحمد بن أند غمحمد بن أحمد بُي ابن أحمد بن القاضي أند غمحمد، رحمه الله تعالى ونفعنا به أمين.

وفي أوائل الصفر توفي الباشا عبد الرحمن بن القائد أحمد ابن سعدون الشاظمي، ودفن في مقابر الجامع الكبير في جوار أبيه.

وفيه توفي الشيخ الفاضل الفقيه عبد الرحمن المعروف بافق كُم بن ولي الله تعالى الفقيه أبي بكر بن عبد الرحمن الغدامسي وصلي عليه بعد صلاة المغرب ودفن.

وفي يوم الخميس بعد الزوال الرابع عشر من رمضان في العام الخامس والأربعين والألف توفي مولانا الأمير الوليد بن مولانا الأمير زيدان في مراكش.

وفي يوم الأحد عند صلاة العصر الثاني من رجب في العام السادس والأربعين والألف توفي الفقيه العالم محمود بن الفقيه صالح ونكرب، ودفن في مقابر سنكري، رحمه الله تعالى بمنه وغفر له وعفى عنه.

وفي ليلة الأربعاء الثالثة والعشرين من صفر في العام السابع والأربعين والألف توفي أخونا وصديقنا الفقيه عمر كري بن يُمزغر الوداني، رحمه الله تعالى وغفر له وعفى عنه وجمع شملنا وشمله في ظل العرش وفي الفردوس الأعلى بلا عقوبة ولا محنة أمين.

وفي شهر الربيع الثاني توفي السيد المبارك المحب الناسك الشريف فائز بن الشريف أحمد في أكرز، رحمه الله تعالى ونفعنا به في الدارين أمين.

وفي يوم الخميس الثامن من الربيع الثاني في العام الثامن والأربعين والألف توفي الشيخ الفقيه العالم الفاضل البارع الكامل النافع أبو إسحاق إبراهيم ابن الفقيه أحمد بغيغ الونكري، رحمه الله تعالى ونفعنا به في الدارين أمين.

وفي أوائل شعبان توفي أخونا سليمن المعروف بسن جينو بن بلقاسم تنفن التواتي في مدينة جني، ودفن في الجامع الكبير، رحمه الله تعالى وعفى عنه بمنه.

وفي ليلة الخميس الخامس عشر من رمضان توفي أخونا ومحبنا النافع كلشع محمد أسر بن هيكي محمد ناي في بلد كنتي. ولما احتضر بعث إلى أهله في بينا وأنا فيه حينئذ لسرد كتاب الشفاء طلب منه ذلك أهل ذلك البلد في هذا العام. فوصل إلي مرسول بعد هدو من الليل لكي أحضر عنده حتى يقضي الله تعالى فيه ما يقضي. فركبت ساعتئذ بعد التكلف لأجل الإخوة والمحبة بيننا وبينه، وما وصلتهم إلا بعد طلوع الفجر، فوجدناه قد توفي. وفرغوا من تجهيزه تلك الليلة، رحمه الله تعالى وغفر له وعفى عنه بمنه وكرمه. نعم الأخ النافع هو. ورجعت إلى بينا صبيحة لأجل قراءة الكتاب المبارك.

وفي يوم السبت السابع عشر منه توفي أخونا علي بن الوالد عبد الله ابن عمران في جني ودفن في الجامع الكبير، رحمه الله تعالى وعفى عنه أمين.

وفي صبيحة السبت الرابع والعشرين منه توفي الأخ الفاضل الشقيق عبد الله بن الفقيه أحمد معيا بعد ما خرج من داره وركب فرسه وقصد القصبة لسرد الجامع الصحيح للبخاري في دار السلطنة. غلبه الحال في الطريق ورجع لداره وتوفي ساعتئذ، وهو يوم ختم الجامع المبارك. فختمه أخوه الفقيه عبد الرحمن رحمه الله تعالى برحمة واسعة أمين.

وفي شهر شوال والله أعلم توفي أخونا مرزوق بن حمدون الوجلي في جني، رحمه الله أمين.

وفي أواخر ذي الحجة الحرام المكمل للعام الثامن والأربعين والألف توفي القائد محمد بن الحسن التارزي، قتله الباشا مسعود كما مرّ.

وفيه توفي الأمين القائد أحمد بن يحيى، قتله أيضاً الباشا مسعود كما مر.

وفي أوائل الصفر في العام التاسع والأربعين والألف توفي القائد ملوك بن زرقون، ودفن في مقابر الجامع الكبير.

وفي ليلة الأربعاء السابعة منه توفي القائد أحمد بن القائد حم بن علي الدرعي، قتله الباشا مسعود كما مر.

وفي شهر ذي القعدة منه توفي أسكيا علي سنب المعزول في بلد كير جينو، قتله أصحاب غزوة شنان بن إبراهيم العروسي. وقتلوا كثيراً من خيار الصنهاجين الساكنين هنالك وأفسدوا فيها فساداً عظيماً.

وفي يوم الخميس عند الزوال في شهر جمادي الآخرة توفيت محبتنا الشريفة نانا كُم بنت بوي الشريف بن المزوار. فخرج روحها متبسمة ورأسها على ركبتي. وصليت عليها بعد صلاة الظهر، ودفنت في الجامع الكبير في جني، رحمها الله تعالى ونفعنا بها في الدارين أمين، وذلك في العام الخمسين بعد الألف.

وفي ضحوة السبت الرابع من ذي القعدة الحرام في هذا العام توفي أخونا الأمين بن علي بن زياد، رحمه الله تعالى وعفى عنه بمنه.

وفي صبيحة الجمعة من عيد الفطر من العام الحادي والخمسين والألف توفي جنكي عبد الله ابن جنكي أبيبكر، وصلي عليه في المصلى، ودفن في الجامع الكبير في جني.

وفي ظهر الأحد السابع عشر منه توفيت زوجتي كاك بنت المختار تمت الونكري، ودفنت في الجامع الكبير في جني، رحمها الله تعالى بمنه.

وفي ضحوة الاثنين الرابع عشر من المحرم الحرام في العام الثاني والخمسين والألف توفي إمام الجامع الكبير الإمام سيد علي بن عند الله سر بن الإمام سيد علي الجزولي، ودفن في مقابر الجامع الكبير، رحمه اللهتعالى بمنه.

وبهذا التاريخ تولى الإمام محمد الوديعة بن الإمام محمد سعيد بن الإمام محمد كداد الفلاني إمامة ذلك الجامع.

وفي يوم الأحد عند الزوال السبع والعشرين من جمادي الأولى توفيت أختي عائشة بنت الوالد عبد الله بن عمران، وصليت عليها بعد صلاة العصر، ودفنت في مقابر الجامع الكبير.

وفي يوم الجمعة التاسع من جمادي الآخرة توفي الجار النافع المرضي عنه الحاج عبد الله بن علي الإدريسي المعروف بمعكار، رحمه الله تعالى برحمة واسعة وغفر له وعفى عنه ورفع درجته في الفردوس الأعلى أمين.

وفي ليلة الأحد الحادية والعشرين من رمضان توفي محبنا ونافعنا أسكيا محمد بنكن بن بلمع محمد الصادق بن الأمبين أسكيا داوود رحمه الله تعالى وعفى عنه بمنه.

وفي ليلة السبت الثانية عشر من شوال توفي المحب النافع والصاحب الفاضل الفقيه أبو عبد الله القاضي محمد سنب بن القاضي محمد جم ابن الفقيه سنب مريم قاضي ماسنة، رحمه الله تعالى وعفى عنه وغفر له وجمع شملنا وشمله في ظل العرش وفي الفردوس الأعلى بمنه أمين.

وفي ليلة الخميس الخامس عشر من رمضان في العام الثالث والخمسين والألف توفي محبنا شم محمد في بلد جني، ودفن في الجامع الكبير، وهو رأس قياد جنكي رحمه الله وغفر له وعفى عنه بمنه.

وفي عشية الاثنين السابع من ذي الحجة الحرام المكمل للثالث والخمسين والألف توفي الأخ المحب النافع الفقيه أبو بكر سعنة المعروف بموركيا في بلد شبل في أرض كَل.

وفي شهر جمادي الآخرة في العام الرابع والخمسين والألف توفيت العمة أم نانا بنت الفقيه المقرئ سيد عبد الرحمن ابن سيد علي بن عبد الرحمن الأنصاري، رحمها الله تعالى بمنه.

وفي يوم الثلاثاء بعد صلاة الظهر غرة المحرم الحرام في العام الخامس والخمسين والألف توفيت ابنتي في بلد فوتن، دفنتها هنالك، وأنا في حال السير في السفر، تعلي الله بها الميزان.

وفي نهار السبت الخامس من الصفر توفي أخونا ومحبنا وصهرنا من الجانبين محمد بن الشيخ المختار تمت الونكري في بلد بينا. فغسلته، ودفن في ذلك الوقت، رحمه الله تعالى وغفر له وعفى عنه أمين.

وفي ليلة الثلاثاء آخر ليلة من شوال توفي الشريف يوسف بن الشريف علي بن الشريف المزوار، رحمه الله ونفعنا به في الدارين أمين.

وفي ليلة الأحد العاشرة من ذي الحجة الحرام المكملة للخامس والخمسين والألف توفي أخونا محمد بن الأمين بن أبي بكر كعت في بلد بينا. فغسلته، وصلي عليه في المصلى ضحوة العيد، ودفن هنالك ساعتئذ، رحمه الله وغفر له وعفى عنه بمنه.

وفي ليلة السبت الثامنة من المحرم الحرام الفاتح للعام السادس والخمسين والألف توفي أخونا الإمام بن سنبر الدرجي في بلد بينا. فغسلته ضحوة السبت، وصلينا عليه ساعتئذ، ودفن هنالك، رحمه الله وعفى عنه بمنه.

وفي يوم الاثنين السادس من الربيع النبوي توفي أخونا ومحبنا سيد الحسن الكاتب بن علي بن سالم الغصنوني، ودفن في مقابر الجامع الكبير، رحمه الله تعالى بمنه.

وفي شهر رجب والله أعلم توفي أخونا ومحبنا الفقيه صالح بن سعيد سلنكي في بلد تندرم، رحمه الله تعالى وغفر له وعفى عنه بمنه.

وفي يوم الاثنين السابع عشر من شوال توفي صهري سيد علي بن أحمد الإدريسي في بلد بينا، رحمه الله تعالى بمنه.

وفي يوم السبت عند الزوال الخامس من ذي الحجة الحرام المكمل للسادس والخمسين والألف توفي المحب النافع الشريف محمد بن الشريف الحاج، وصلي عليه بعد صلاة الظهر، ودفن في مقابر الجامع الكبير رحمه الله تعالى وغفر له وعفى عنه ونفعنا به في الدارين أمين.

وفي ليلة الخميس بين المغرب والعشاء التاسعة من المحرم الحرام فاتح عام السبع والخمسين والألف توفي الباشا أحمد بن الباشا علي بن عبد الله التلمساني،

وصلي عليه ضحوة الخميس، ودفن في جامع محمد نض، رحمه الله تعالى بمنه.

وفي يوم الجمعة العاشر منه توفي الباشا مسعود بن منصور الزغري في السجن عند كروكي في الحجر.

وفي أول ليلة من الصفر توفي مغشرن كي عبد الرحمن المعروف بأكنزر، وخلفه في مقامه سبطه أبو بكر بن ورمشت على يد الباشا الحيوني.

وفي جمادي الأولى توفي ابني محمد الطيب عبد أمه حليمة، ثقل الله به الميزان أمين.

وفي ليلة السبت العاشرة من ذي القعدة توفي الفقيه محمد سيد بن الفقيه أحمد بابا، ودفن في ضحوته في مقابر سنكري رحمه الله تعالى وغفر له وعفى عنه أمين.

وفي يوم الاثنين الخامس عشر من المحرم الحرام فاتح عام ثمانية وخمسين وألف توفي أخونا أحمد بن الوالد عبد الله بن عمران في بلد جني، ودفن في الجامع الكبير، رحمه الله وعفى عنه بمنه.

وفي ليلة الثلاثاء السابع عشر من شوال توفي الأخ العزيز والصاحب المحب الحنين من عهد الطفولية الفاضل الدين الفقيد محمود كعت بن علي بن زياد في بلد بينا، ودفن هنالك، غفر الله له ورحمه وعفى عنه وجمع شملنا وشمله في ظل العرش وفي الفردوس الأعلى بمنه وكرمه أمين.

وفي ليلة الرابع من عيد النحر مكمل العام التاسع والخمسين والألف توفي الشيخ إبراهيم بن مسعود الرعوان، قتله الباشا يحيى بن محمد الغرناطي، ووري في الروض بلا صلاة ولا غسل.

وفي شهر رجب عام ستين والأف توفي القائد عبد القادر بن ميمون الشرقي، ودفن في مقابر الجامع الكبير، رحمه الله تعالى بمنه وكرمه أمين.

وفي ليلة الخميس الحادي عشر من رمضان توفي القائد علي بن رحمون المنبهي في كندم، وأتي بجنازته إلى تنبكت ليلة الجمعة. فصلى عليه السيد الفاضل الفقيه محمد بن أحمد بغيغ الونكري عند جامع الكبير وذلك بوصية منه.

وفي ضحوة الأرعاء الثاني والعشرين من الربيع النبوي في العام الحادي والستين والألف توفي أخونا عبد المغيث بن الوالد عبد الله بن عمران في بلد جني، ودفن في الجامع الكبير، رحمه الله تعالى وغفر له وعفى عنه بمنه.

وفي إحدى وعشرين من شوال توفي القاضي أحمد بن القاضي موسى داب في

مدينة جني، ومكث في القضاء إحدى وثلاثين سنة. فتولى القاضاء بعده أخوه عبد الرحمن، وهو جاهل لا يعرف شيئاً من مسائل الأحكام.

وفي أواسط الصفر في العام الثاني والستين والألف توفي القائد محمد العرب بن محمد بن عبد القادر الشرقي الراشدي، ودفن في مقابر الجامع الكبير ضحوة.

وفي سابع وعشرين منه توفي أخونا ومحبنا الأمين القائد بلقاسم بن علي بن أحمد التملي، وصلي عليه بعد صلاة الظهر، ودفن في جوار شيخنا الولي الفاضل الفقيه الأمين أبي أحمد أخ الفقيه عبد الرحمن، رحمه الله وغفر له وعفى عنه بمنه وكرمه.

وفي يوم الأربعاء عند الظهر الثاني من الربيع الثاني والستين والألف توفي القاضي محمد بن محمد كري، رحمه الله وغفر له وعفى عنه بمنه.

وفي ليلة الأربعاء الثالثة والعشرين منه توفي القاضي عبد الرحمن في جني ومكث في القضاء نحو خمسة أشهر رحمه الله تعالى وغفر له وعفى عنه بمنه. وفي شهر جمادي الأولى منه قلد أهل جني القضاء محمد بن مرزوق مولى الهواري، سدده الله بمنه.

وفي صبيحة الخميس الثاني من ذي الحجة الحرام المكمل للثاني والستين والألف توفي مولانا شعبان، وصلي عليه ضحوة عند الجامع الكبير، ودفن في مقابره، رحمه الله تعالى وغفر له وعفى عنه بمنه.

وفي يوم الجمعة بعد صلاة العصر أول يوم من الربيع النبوي في العام الثالث والستين والألف توفي الباشا محمد بن محمد بن عثمان، وتوفي معه ساعتئذ ابنه الصغير. وصلي عليهما عند العشاء بعد ما حفر لهما في مسجد محمد نض. فغلظ محمد بغيغ في الكلام للباشا أحمد بن حد قبل الصلاة عليهما. وقال له كل ساعة ننهاكم عن دفن الأموات في هذا المسجد ولا تسمعون لنا، وذنوب ذلك على رقابكم. والميت نجس والنجس لا يدخل المسجد. ثم صلي عليهما، ودفنا في قبر واحد.

وفي ليلة الجمعة الرابعة عشر من الربيع الثاني توفيت الشريفة خديجة بنت عمركم، وصليت عليها ضحوة الجمعة، ودفنت في مقابر الجامع الكبير رحمها الله تعالى.

وفي يوم السبت بين الظهر والعصر السادس من شوال توفيت والدتي فاطمة بنت

الحسن الهوصية، وصليت عليها بعد صلاة المغرب عند الجامع الكبير، ودفنت في جوار والدنا، رحمهما الله تعالى وغفر لهما وعفى عنهما ونور ضريحهما وأكرم مثواهما وأسكنهما في الفردوس الأعلى بلا حساب ولا عقاب بجاه نبينا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم.

وفي ليلة الخميس عند غروب الشمس السابعة من ذي الحجة المكمل الثالث والستين والألف توفيت أختنا حفصة تاع بنت عبد الله بن عمران، وصليت عليها بعد صلاة العشاء ودفنت في جوار الوالد رحمها الله وعفى عنها أمين.

الباب السابع والثلاثون
ذكر من تولى أمور البلاد من السودانيين من مجيء الباشا جودر إلى عام 1063

وهنا انتهى القول بنا فيما أردنا من جمع ما تيسر من أخبار ملوك أهل سغي ونبذة من ذكر قيمغ وأهل ملي وملوك جني ونشأتها ونشأة تنبكت ومن ملكها ودولة الأحمدية الهاشمية المنصورية الململوية فيها، وذكر بعض العلماء والصالحين فيهما، وأنبائهم وقصصهم وسيرهم وغزواتهم وأيامهم وتواريخهم ووفياتهم ووفيات بعض أعيان البلاد والأحبة والإخوان وأهل القرابة، وما يتعلق بذلك من ذكر ملوك الفلانيين أهل ماسنة والتوارق من ابتدائهم إلى هذا التاريخ، وهو يوم الاثنين لأربع خلت من ذي الحجة الحرام المكمل للعام الثالث والستين والألف.

والذي في المقام يومئذ من الباشات الباشا أحمد بن حد بن يوسف الأجناسي. والذي في المقام من ملوك سغي في تنبكت أسكيا الحاج محمد بن أسكيا محمد بنكن بن بلمع محمد الصادق بن أسكيا داوود ابن الأمير أسكيا الحاج محمد ابن أبي برك. والذي في المقام من ملوك السودان أهل جني جنكي أبو بكر، ويقال له أنكبعلي في كلامهم بن جنكي محمد ينب بن جنكي إسماعيل. فخالف على أهل المخزن بمدينة جني وتعلق في البراري، ولا ندري اليوم ما يصير الله عاقبتهم معه - جعل الله السلامة في ذلك. والذي في المقام من الفلانيين أهل ماسنة فندنك حمد أمنة ابن فندنك أبي بكر يام بن فندنك حمد أمنة.

ولنذكر الآن ترتيب القياد والحكام في مدينة جني، وترتيب القضاة والأئمة وسلاطين التوارق في تنبكت من مجيء المحلة المذكورة إلى هذا التاريخ. وما حدث

بعد ذلك نقيده إن شاء الله تعالى على منوال ما تقدم ومئى إن كنا في قيد الحياة ونسأل الله تعالى التوفيق والإعانة بمنه وكرمه.

أما الحاكم الأول في مدينة جني

1. عند مجيء هذه المحلة فعلي العجمي، وهو بشوط فوقي على اليمين للباشا جودار.

2. خلفه القائد مامي بن برون على جني حاكماً لما جاء من تنبكت لمطاردة باغن فاري بكر في أواسط العام المكمل الألف. ومكث في تلك الحكومة عامين كاملين. وجمع في خراجها مالاً عظيماً، وقيل أنه حصل في عام واحد ستين ألفاً ذهباً. ثم أمر السلطان مولاي أحمد الذهبي أن يأتي إليه في مراكش، وأن يكون باقاس الدرعي حاكماً في ذلك البلد. فذهب إليه بمال عظيم من الذهب، ومكث باقاس المذكور في الحكومة تسعة أشهر، فمات.

3. فجعل الباشا جودار بارضوان حاكماً فيه بعد ما قسم السلطان مولاي أحمد أرض السودان بينه وبين القائد منصور بن عبد الرحمن. فولى جودار حكومة الأرض، وولى منصور حكومة الجند.

4. ثم زمن السلطان أن يتولى حكومتها سيد منصور، فانعزل بارضوان. ولما جاء الباشا سليمن عزل سيد منصور المذكور.

5. ورد الحكومة لبارضوان، فتولاها مرتين. ثم عزله.

6. فولاها بن برهم الدرعي، ثم مات.

7. فولاها العرب والد موم، اسم أمه، وهو مولد تنبكتي ونسبه من جهة أبيه شباني. تبع أهل المخزن وخدمهم فصاب عندهم جاهاً عظيماً. فجعله الباشا سليمن حاكماً في تنبكت. ثم جعله حاكماً في جني، فمكث فيها أربعين يوماً، فمات. قيل سحر وقيل أصيب بالعين، لأنه رجل أسمر اللون جميل الصورة وافي القد غليظ الجسم.

8. فولاها الظالم الفاسق أحمد البرج إلى أن جاء الباشا محمود لنك فعزله لكثرة ظلمه وجوره فولاها منصور السوسي.

9. ثم ولاها السلطان مولاي أبو فارس من عنده في مراكش القائد أحمد بن يوسف العلجي. فرجع إلى السودان، وعزله وتولاها. وبقي فيها إلى العام التاسع عشر بعد ألف. جاء القائد علي بن عبد الله التلمساني مدينة جني، فعزله.

10. وولاها الطالب محمد البلبالي حاكماً، وجعل أحمد بن بو سعيد قائداً، وفي ثلاثة أشهر خرج منها لجنون صابه فيها. وبقي البلبالي حاكماً إلى سبعة أشهر، عُزل.

11. وتولاها علي بن سنان قائداً. ثم عزل.

12. ورجع البلبالي حاكماً فيه ثانياً. وتأخر فيها نحو خمسة أعوام في مدة الباشا علي بن عبد الله. فلما تولى الباشا أحمد بن يوسف عزله.

13. وولاها أحمد بلّ حاكماً، ولم يسعد فيها. فعزله في سبعة أشهر.

14. وولاها ملوك بن زرقون قائداً. فعزله الباشا حد.

15. وولاها عبد الله بن عبد الرحمن الهندي قائداً على الجيش وجعل ملوك بن زرقون حاكماً على البلد. وبقيا كذلك إلى ولاية الباشا محمد الماسي. فخالف القائد عبد الله عليه حتى كاد أن تكون فيها فتنة. ثم أطفأ الله تعالى نارها فعزله وعزل ملوك معه.

16. وولاها علي بن عبيد حاكماً، فوافق بأيام شداد صعاب من بقايا الغلاء الفائتة. فكابد فيها المشقات فجدّ واجتهد إلى ستة أشهر، فتخلص من الرواتب والمونات على التمام والكمال. فطلب الإقالة فأقاله الماسي.

17. ثم ولاها يوسف بن عمر القصري قائداً، فمكث فيها سنة واحدة وأربعة أشهر وعشرين يوماً، فتولى المرتبة العلية بتنبكت بقدرة الله البارئ سبحانه الذي له القدرة والإرادة.

18. وفي فور ولايته رد القائد ملوك في جني قائداً فيها، ومكث هنالك عاماً كاملاً، فعزله.

19. وولاها القائد إبراهيم بن عبد الكريم الجرار عند تمام حول القائد ملوك، وهو شهر الربيع النبوي في العام الرابع والثلاثين والألف. فمكث فيها عامين، ثم عزله في شهر المحرم الحرام الفاتح للعام السادس والثلاثين والألف.

20. ثم ولاها الحاكم علي بن عبيد أيضاً، فمكث فيها ثمانية أشهر. فانعزل القائد يوسف من المرتبة، وتولاها القائد إبراهيم بن عبد الكريم الجرار في شعبان في العام السادس والثلاثين والألف. فبولايته عزل علي بن عبيد المذكور.

21. وولاها سيد منصور من الباشا محمود لنك حاكماً. وفي ليلة الثلاثاء الثالث عشر من شعبان في العام السابع والثلاثين والألف توفي الحاكم سيد منصور

المذكور. وفي سلخه انعزل الباشا إبراهيم الجرار، فتولى الباشا علي بن عبد القادر.

22. فرد علي بن عبيد في الحكومة، فمكث فيها سبعة أشهر أيضاً. عزله لمغضبة وقعت بينهما، وذلك في شهر الربيع النبوي في العام الثامن والثلاثين والألف.

23. فرد فيها القائد ملوك بن زرقون بهذا التاريخ. ثم عزله.

24. وولاها الباشا إبراهيم بن عبد الكريم الجرار بعد ما رجع من عمالته سفنتير الفلانيين. فعن قليل توفي.

25. فرد ملوك المذكور فيها، وبقي إلى عزل الباشا علي ووفاته. ثم عزله الباشا سعود.

26. وولاها القائد أحمد بن حم بن علي الدريع. ثم عزله الباشا سعيد بن علي المحمودي لكثرة شكاية الناس به عنده من الظلم والجور والتعدية.

27. فولاها القائد محمد بن الحسن التارزي التركي. ثم عزله الباشا مسعود بن منصور الزرعي.

28. فولاها القائد علي بن رحمون المنبهي. ثم عزله.

29. فولاها الحاكم عبد الكريم بن العبيد الدرعي. ثم عزله.

30. فولاها القائد عبد الله بن الباشا أحمد بن يوسف. ثم عزله الباشا محمد بن عثمان.

31. فولاها القائد محمد بن إبراهيم شمر. ثم عزله الباشا يحيى بن محمد الغرناطي.

32. فولاها القائد عبد القادر ملوك. وفي سابع ولايته توفي.

33. فرد فيها عبد الكريم بن العبيد المذكور. ثم عزله الباشا أحمد بن الباشا حد بن يوسف الأجناسي.

34. فولاها القائد عبي بن عبد العزيز الفرجي. وهو الذي فيها اليوم.

أما أول القضاة الذين تولوا على أيديهم في تنبكت

35. فالقاضي محمد بن أحمد بن القاضي عبد الرحمن، ولاه الباشا محمود بن علي بن زرقون بعد ما قبض أولاد سيد محمود رحمه الله تعالى. فتولى وهو ابن خمسين سنة. وتوفي وهو ابن خمس وستين سنة. فمكث في القضاء خمس عشرة سنة.

36. ثم القاضي محمد بن أند غمحمد بن أحمد بري بن أحمد بن القاضي

أند غمحمد، ولاه الباشا محمود لنك. فتولى وهو ابن ستين سنة، وتوفي وعمره أربعة وستون سنة، فمكث في القضاء أربع سنين.

37. ثم أخوه القاضي سيد بن أحمد أند غمحمد، ولاه الباشا محمود لنك أيضاً. فتولى وهو ابن خمسين سنة، فتوفي وعمره سبعة وسبعون سنة، ومكث في القضاء سبعة وعشرين سنة.

38. ثم القاضي محمد بن محمد بن محمد كري، ولاه الباشا عبد الرحمن بن القائد أحمد بن سعدون الشاظمي. فتولى وهو ابن خمسين سنة، فتوفي وهو ابن سبعة وستين سنة، ومكث في القضاء سبعة عشر سنة.

39. ثم القاضي عبد الرحمن بن الفقيه أحمد معيا، ولاه الباشا أحمد بن الباشا حد. فتولى وعمره ثلاثة وسبعون سنة، وهو الذي فيها اليوم.

وأما أول القضاة الذين تولوا على أيديهم في حني

40. فالقاضي أحمد الفلالي.
41. ثم القاضي مؤدب موسى داب.
42. ثم القاضي العدل أحمد توروري.
43. ثم القاضي سعيد ثم القاضي أحمد.
44. ثم أخوه عبد الرحمن داب.
45. ثم القاضي محمد بن مرزوق مولى الهواري، وهو الذي فيه اليوم.

وأما أول الأئمة الذين تولوا على أيديهم للجامع الكبير في تنبكت

46. فالإمام محمود بن الإمام صديق، ولاه القاضي محمد بن أحمد بن القاضي عبد الرحمن بعد وفاة أخيه الإمام أحمد في يوم اللاثنين الخامس والعشرين من رمضان في العام الخامس بعد ألف. فكتب بذلك للباشا جودار، وهو في المحلة في أسفي. فكمل له، وعمره يومئذ سبعون سنة، ومكث في الإمامة ستة وعشرين سنة، وتوفي وعمره ست وتسعون سنة.

47. ثم الإمام عبد اسلام بن محمد دك الفلاني، فتولى في العام الثاني واثلاثين والألف، ومكث فيها أربع سنين في أيام القائد يوسف بن عمر، والقاضي سيد أحمد، فتوفي.

48. وتولى بعده الإمام سيد علي بن عبد الله سر بن لإمام سيد علي الجزولي في شهر رحجب والله أعلم في العام الخامس والثلاثين والألف، فمكث فيها

ستة عشر سنة وسبعة أشهر، فتوفي ضحوة الاثنين الرابع عشر من المحرم الحرام في العام الثاني والخمسين والألف.

49. فتولى بعده بهذا التاريخ الإمام محمد الوديعة بن الإمام محمد سعيد بن الإمام محمد كداد، الفلاني وهو الذي فيها اليوم.

وأما أول الأساكي وكبرائهم الذين تولوا على أيديه في تنبكت

50. فأسكيا سليمن ابن أسكيا داوود، وذلك لما هرب بكر كيشاع بن الفودنك بن فرن عمر كمزاغ من أهل سغي إلى الباشا محمود بن زرقون، وهو أول من هرب إليهم منهم. قال له الباشا محمود: نجعلك أسكيا. قال لست أهلاً له. فلما جاء سليمن إليه هارباً. قال: هذا هو أسكيا. ثم سمع الباشا محمود ببكر كنرو بن يعقوب في سجنه، فسرحه. فلما جاء قال: هذا هو كرمن فاري، وأما إنه فبنك فرم. فولي الثلاثة أولئك المراتب.

51. ثم بعد أسكيا سليمن أسكيا هرون بن أسكيا الحاج.
52. ثم أسكيا بكر بن يعقوب.
53. ثم أسكيا الحاج بن بكر كيشاع.
54. ثم أسكيا محمد بنكن بن بلمع محمد الصادق.
55. ثم أسكيا علي زليل بن بكر كيشاع، فعزل.
56. ورجع فيها أسكيا محمد بنكن المذكور إلى أن توفي.
57. ثم ابنه أسكيا الحاج محمد.

وأما كرمن فاري

58. الأول فبكر المذكور، مكث فيها نحو سبعة عشر عاماً.
59. ثم الحاج بن بكر كيشاع، مكث فيها اثني عشر عاماً.
60. ثم محمد بنكن بن بلمع محمد الصادق، ومكث فيها ثلاث سنين غير شهر واحد.
61. ثم عبد الرحمن بن بكر كيشاع، مكث فيها إلى أن توفي.
62. ثم عمر، توفي فيها.
63. ثم داوود بن أسكيا بكر بن يعقوب، فعزل لرذالته.
64. ثم داوود بن أسكيا هرون، وهو الذي فيها اليوم.

وأما بلمع

65. الأول فهارون ابن أسكيا الحاج، مكث فيها حياة أسكيا سليمن.

66. ثم محمد بان بن محمد هيك ابن فرن عمر كمزاع، مكث فيها نحو ست سنين. فقبضه أهل سغي في غزوة دند فاري، وذهب به إلى عند أسكيا هارون دنكيا في لولامي. فبقي هنالك إلى أن توفي.

67. ثم مارنك.

68. ثم بكر ولد فامع، فعزل لرذالته.

69. ثم محمد بنكن بن محمد الصادق.

70. ثم عبد الرحمن بن بكر كيشاع.

71. ثم أخوه علي زليل.

72. ثم ابن أخيه عمر بن الحاج، فمات في غزوة لولامي.

73. ثم الحاج بن أسكيا هارون، قتله التوارق في الغزوة عند دنكي.

74. ثم إسحاق ابن أسكيا بكر، وهو الذي فيها اليوم.

وأما بنك فرم

75. الأول فبكر كيشاع المذكور، ولم يتأخر فيها.

76. ثم ابنه الحاج، فمكث فيها نحو خمسة عشر سنة.

77. ثم زاد بن يعقوب بن الأمير أسكيا الحاج محمد، مكث فيها أكثر من عشرين سنة.

78. ثم محمد بن الهادي بن أسكيا داوود.

79. ثم الحاج محمد بن أسكيا محمد بنكن.

80. ثم داوود بن أسكيا هارون.

81. ثم بان ثم محمد الصادق بن أسكيا محمد بنكن، وهو الذي فيها اليوم.

وأما الأساكي بعد قدوم المحلة في دند

82. فأولهم أسكيا نوح، فلبث في السلطنة سبع سنين، وما صاب راحة ولو شهراً واحداً إلا الاشتغال بالحرب والقتال، حتى مل منه أهل سغي لأجل غيبتهم الطويلة عن أهلهم وعيالهم فعزلوه.

83. وولوا أخاه أسكيا المصطفى بن أسكيا داوود. فأمر أخاه محمد سرك أجي بن أسكيا داوود أن يتبع نوح ويخرجه من أرض ملكهم، ومشى معه في ذلك خيار جيشهم. فخلف على المصطفى وعزله.

84. فكان أسكيا ولم يمكث فيها إلا قليلاً. فسمع في ليلة واحدة أصوات الأطفال يلعبون، فظن أن أهل سغي هم الذين خالفوا عليه. فخرج وهرب.

85. فولوا أخاه أسكيا هارون دنكتيا بن أسكيا داوود. وفي أيامه جاء دند فاري بار إلى بلاد جني، فقاتل مع أهل المخزن عند جبل كر. ومات في السلطنة.

86. فبايعوا أسكيا الأمين بن أسكيا داوود فكان سلطاناً مباركاً مسعوداً عليهم، فقام بهم أحسن قيام أيامه. منعمون بالهنأ والخير والبسط. فطرأت غلاء في أيامه، ودامت ستة أشهر. فقام على الضعفاء والمساكين وأنفق عليهم حتى جازت العلاء، يذبح كل يوم ثمانية دواس [دواب] أربعة في الصباح وأربعة في المساء، يقسم لحمها مع مائتين ألفاً ودعاً. وقام لهم ألف بقرات حلابات، يقسم ألبانها لهم أيضاً حتى فرج الله عنهم. وعمل الغزوات، ففتح الله تعالى له فيها أرزاقاً كثيراً. فمكث في السلطنة سبع سنين، فتوفي.

87. وخلفه ابن أخيه أسكيا داوود بن محمد بان بن أسكيا داوود، فمكث في السلطنة اثنين وعشرين سنة. فكان ظالماً فاسقاً سفاكاً للدماء. وقتل من أقربائه وكبراء جيشه ما لا يحصيه إلا الله، ولا يجوز عليه يوم إلا ويقتل فيه روحاً، وما تحرك للغزو ولو مرة واحدة، حتى أضعف قومه وكاد أن يفنيهم، وحتى عزم على قتل أخيه إسماعيل. ففطن لذلك وهرب إلى تنبكت، واستعان بأهل المخزن على قتاله. فكتب الباشا سعيد ابن علي لأهل كاغ أن يمدوه بما يقويه من الرماة. فذهب إليه، وطرده.

88. ودخل في السلطنة. ثم عزله الباشا مسعود بن منصور في المحملة بنفسه، فهرب.

89. وولى أسكيا محمد بن أنس بن أسكيا داوود. ولما رجع عزله أهل سغي.

90. وجعلوا أسكيا داوود بن محمد سرك أجي بن أسكيا داوود. ثم عزلوه، فهرب إلى تنبكت.

91. وولاوا [أسكيا داوود فرجع] أسكيا محمد بري ابن هارون دنكتيا ابن أسكيا داوود. فرجع أسكيا إسماعيل بجيش عظيم لقتاله، فهرب إلى كاغ في طلب الإغاثة.

92. وبادر أهل سغي، وولوا أسكيا مار شندن بن فاري منذ حماد بن بلمع حامد بن أسكيا داوود. ورجع بري من كاغ مع الجيش وعال الدومسي في جيشه.

فتقاتلوا مع إسماعيل. ومات فيها بري المذكور. وقتلوا إسماعيل وخسروا جيشه. ثم عزل أهل سغي مار شندن.

93. وولوا أسكيا نوح بن المصطفى ابن أسكيا داوود. ثم عزلوه.

94. وولوا أسكيا محمد البرك ابن داوود بن محمد بان.

95. ثم أخاه أسكيا الحاج.

96. ثم جاء إسماعيل بن محمد سرك أجي - ومشى مع أخيه أسكيا داوود إلى تنبكت - فعزله وتولى السلطنة.

97. ثم جاء أخوه المذكور مع تنبكت فعزله وتولى، وهو الذي فيها اليوم.

وأما أول سلاطين توارق مغشرن الذين تولوا على أيديهم

98. فأوسنب بن محمد بن أليم بن أكلنقي، وهم أربعة ذكور: الحاج محمود بير زوج بت، ومحمد، وأبو بكر، وأوسنب - أولاد محمد أليم بن أكلنقي. فنشأوا في تنبكت حتى صاروا كأهله. فحج محمود بير، وخدم أبو بكر العلم. وأما أوسنب فنشأ في ديار أولاد سيد محمود من صغره لأجل قراءة العلم، ثم صار إلى ما صار من سوء الخاتمة، والعياذ بالله. فخرج لهم عدواً مبيناً وقاتلهم في فتنة القائد المصطفى التركي، وخرق بيوتهم في بيع آخرته بالدنيا. فولوه على قبيلته بعد ما امتنع مغشرن كي أكمظل من طاعتهم. ثم أتى الباشا محمود بن زرقون في بنك، وذكر له أنه يريد أن يولي ابنه أكنزر على من كان في رأس الماء من قبيلته، ويتولى هو الذين كانوا في ناحية القبلة. فرضي له بذلك، فقسم مطلبهم الذي هو ألف مثقال، فجعل خمسمائة مثقال على كل واحد من الفريقين.

99. ولما توفي أوسنب المذكور خلفه ابن أخته مود

100. ثم محمود كين

101. ثم أرمشت

102. ثم المختار.

103. ثم محمود بن محمد بن وسطفن، وهو الذي فيه اليوم.

وأما أكنزر فهو فيها إلى العام التاسع بعد الألف، عزله الباشا سليمن لما سجن حد بن يوسف الأجناسي، وهو المقدم يومئذ. فولى أخاه بنجك السلطنة، ومكث فيها عاماً واحداً. ثم لعجزه عن القيام بتلك السلطنة، ورد أكنزر المذكور فيها. وسبب سجن حد المذكور توليته على العمال بأمر الباشا جودار فجعله عامل العمال، وهم أحد عشر

عاملاً، وهو الذي يتولى قبض خراج الأرض منهم، لأنه عزيز عند جودار ويحبه كثيراً. فسعى به الوشاة عند الباشا وذكوره أن خراج الأرض كلها بيد حد سبع سنين، يفعل فيها ما يشاء، ما حاسبه جودار فيها ولو مرة واحدة. فانظره سليمان وسأله عما عند العمال. وقال دفع الجميع تحت نظره وتبرأ. وجعل ذلك لئلا ينالهم سليمن بمضرته. ولما رجع حد لداره بعث له ستمائة مثقال هدية وأربع جوار عاليات اشتراهم بمائتين مثقالاً وأربع شقوق برنبال اشتراهم بمائة وستين مثقالاً. فقويت التهمة فيه، وسجنه. ولم يخرج من السجن إلا أعطاه خمسة آلاف مثقالاً ذهباً. وبقي أكنزر في السلطنة إلى أيام الباشا محمد الماسي. فقبضه القائد أنبارك وعزله وأكل جميع أمواله. وولى تدكمرت. ولما توفي أنبارك المذكور، رده الباشا محمد في السلطنة في شهر الربيع النبوي الذي مات فيه. وبقي فيها إلى العام السابع والخمسين الذي مات فيه، ومكث فيها نحو أربع وخمسين سنة. وفيها أيام بنجك وتدكمرت.

فولى الباشا حميد الحيوني سبطه أبو بكر بن ورمشت، وهو الذي فيه اليوم.

وهنا انتهت المجموعة بحمد الله وحسن عونه بتاريخ نهار الثلاثاء الخمس خلون من ذي الحجة الحرام تمام العام الثالث والستين والألف، والحمد لله رب العلمين وهو حسبي ونعم الوكيل.

الباب الثامن والثلاثون

تاريخ السودان من عام 1063 إلى عام 1065

الحمد لله وحده. ومما حدث بعد ما مضى من التاريخ رجوع جنكي محمد كنبر في السلطنة لما أيس أهل جني من أخيه المخالف. وكان ذلك في يوم السبت التاسع من ذي الححة المكمل للعام الثالث والستين والألف.

وفي يوم الثلاثاء الثاني عشر منه جاء بشوطان فوقيان من أصحاب اليمين وأصحاب الشمال إلى تنبكت بالصرخة على المخالف جنكي، بعثهما أهل حني لطلب الإغاثة في قتله. وفي الاثنين السابع عشر من المحرّم عام الرابع والستين والألف بعث صاحب الأمر الباشا أحمد بن الباشا حد المحلة لهم في تلك الإغاثة، وجعل عليهم الكاهيين التحتين الكاهية محمد العرب بن الباشا علي بن عبد الله والكاهية سعيد ابن أحمد أصح. فتوجهوا إليهم في القوارب بالتاريخ المذكور في حال امتلاء البحر.

وفي ليلة الخميس الحادية عشر من صفر في العام المذكور وصل ماء البحر

معدك، وهو ثان وعشرون من دجنبر، في ولاية الباشا أحمد بن حد.

وفي يوم الاثنين الحادي والعشرين من الربيع النبوي في هذا العام ورد البريد من عند أهل جني بكتابهم إلى الباشا أحمد، وأخبروه أنهم مع الإغاثة من أهل تنبكت اقتتلوا مع جنكي بكر المذكور ثماني مرات ليلاً ونهاراً، ما نالوا منه نيلاً، ومات في المعركة بينهم أربع رماة. فطلبوا منه ثانياً أن يمدهم بالمحلة. ورجع المقاتلون جميعاً إلى مدينة جني ينتظرونها. والقتال بينهم في بلد شو، قد بنى عليهم ثلاث حصون، وهو في داخلها مع جيشه.

وفي يوم الثلاثاء عند طلوع الفجر الثاني والعشرين من الشهر المذكور توفي القائد مولود بن الحاج سلام الغرياني في حاضرة تنبكت، وصلى عله الفقيه محمد بغيغ الونكري عند مسجد محمد نض، ودفن في مقابر الجامع الكبير، رحمه الله وعفى عنه بمنه.

وفي يوم الأربعاء العشرين من جمادي الأولى ورد كتاب القائد علي بن عبد العزيز الفرجي والكواهي من جني وأخبروا فيها أن الباغي جنكي بعث كتابه لحمد أمنة صاحب ماسنة أنه دخل في حرمة السلطان، وجميع خدامه من القياد والكواهي وغيرهم في طلب العفو منهم، وأن يكون وسلة له في ذلك. فكتب لأهل جني بذلك وبعهث لهم مع كتاب جنكي. فصرفوهما مع كتابهم للباشا أحمد بن حد.

وفي غرة جمادي الآخرة يوم الأحد ورد كتاب من أهل كاغ، وأخبروا أن جميع التوارق الذين هربوا مع أعال الدومسي رجعوا إليهم طائعين، وبقي وحده في أرض أسكيا، رد الله كيده في نحره.

وفي يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادي الآخرة ورد كتاب أهل جني صحبة مرسولهم، وأخبروا فيه أن جنكي رد صلح صاحب ماسنة ولم يقبله.

وفي يوم الاثنين الرابع عشر من شعبان ورد كتاب من أهل جني للباشا أحمد بن حد وأخبروه أن جنكي أبو بكر خرج من شو وجاز إلى بينا، فلما وصل ثمة أرسل يوسر محمد بن عثمان لهم كتاباً، وأخبر أن جنكي يريد المصالحة معهم. ثم أرسل لهم ثانياً أنه قال لا يقبل ذلك الصلح، وأنه لا يدخل جني أبداً.

وفي يوم الجمعة التاسع من رمضان عزل الكاهية محمد بن رح، وزعم أصحابه أنه سبب الفتنة بينهم وبين جنكي أبو بكر حتى خالف. ووصل الحال بينهم وبينه موصلاً سوءاً، وهو قبل صاحب رأي وتدبير للجيش بحاضرة جني بحيث لا يخطئ

رأيه الصواب، وهو الذي طرأ أمر سماوي [مساوئ] لا مرد له. وفي يوم الاثنين الثاني عشر منه توفي وصار إلى دار الآخرة.

وفي يوم الأحد الثامن عشر منه ورد طائفة من السرية الشراقية من جني إلى تنبكت لأجل الاختلاف والتنازع التي وقعت بينهم. فأعزلوا من أجلها كاهيتهم محمد العرب وأخلفوه الكاهية مؤمن بن عبد الكريم العرب. ثم عزلوه بعد أربعة أشهر، وأخلفوه الكاهية أحمد بن سليمن. فبطلوعه ظهر فيه الميل إلى المعزول محمد العرب. فنفروا عنه نفرة شديدة حتى خرجت هذه الطائفة من جني عامدين إلى تنبكت، فوصلوه بالتاريخ المذكور.

وفي هذا اليوم أيضاً ورد الكتاب من عند القائد علي بجني، وأخبر أن جنكي قطع عنهم الطريق ومنع السالكين إليهم من كل جهة ومكان. ثم كتب أنه صار قائماً وقام معه جميع الخلق السودانيين كافة أجمع، وما بقي لهم أحد لا من يمين ولا شمال ولا أمام ولا وراء.

وفي يوم الاثنين السادس والعشرين منه ورد كتاب من عند محمد كاغ ولد هنبركي الهادي لأسكيا الحاج محمد، وأخبر أن أسكيا داوود توفي على سريره في بلده في شهر رجب، وأن ابنه إبراهيم هو الذي خلفه في السلطنة.

وفي يوم الاثنين الرابع من شوال خلع الباشا أحمد بن حد، بعد ما مكث في السلطنة ثلاث سنين غير ستة وعشرين يوماً. فاتفق الجيش على المشاور محمد بن موسى، فجعلوه باشا ساعتئذ. وفي غده سرح المعزول الباشا يحيى بعد ما لبث في السجن ثلاث سنين.

وفي عشية الجمعة عند دنو الشمس للغروب توفي الشيخ المبارك بابا أحمد الشريف، وصلى عليه الفقيه محمد بغيغ الونكري عند مسجد محمد نض بعد صلاة العشاء، ودفن في مقابر الجامع الكبير، رحمه الله تعالى ورضي عنه وأعلى درجته في أعلى عليين، وهو ثامن يوم من الشهر المذكور.

وفي سلخ هذا الشهر وردت الطائفة الأخرى من أهل الشراقة الباقية في جني ونزلوا في جزيرة توى مع الكاهية محمد العرب، بعد ما كتب لهم الباشا أحمد بن حد أن لا يأتي معهم إلى تنبكت لأنه رأس الفتنة وسببها. ثم كتب لهم بذلك الباشا محمد بن موسى، فأبوا وكتب لهم مراراً متكررة لما سمع أنه معهم، وبعث لهم مراسيلاً بعد مراسيل أن لا يأتوا به معهم لتنبكت، فخالفوا وأبوا. فلما قربوا قامت

الطائفة السابقة وبقوا بالحرام حتى قاربوا البلد وهو معهم. فجرى بينهم قتال حتى يتفانوا عن آخرهم. فنزلوا في تلك الجزيرة وهم فيها إلى الآن. ورام الناس كيف أن يصالحوهم، فما وجدوا السبيل إلى ذلك.

وفي يوم السبت الرابع عشر من ذي القعدة جاء كتاب من عند القائد علي في جني، وذكر فيه أن الكاهية موسى ذهب إلى عند جنكي في بينا لما أتاهم كتاب يوسر أن يأتي لأخذ الصلح من جنكي. فتلكم معه في ذلك وقبله، وأمره أن يدخل إلى جني أو إلى كنبع ليسكن فيها، فلم يرض بهما ساعتئذ، وقال: سأفعل إن شاء الله. وأطلق الطريق المسدود. فجاء الونكريون إلى جني، وبقي الناس يذهبون ويرجعون.

وفي يوم السبت السابع من الربيع النبوي عام الخامس والستين والألف ارتحل الكاهية محمد العرب وطائفته الذين معه من مرسى كبر بعد ما ارتحلوا من توى. ونزلوا فيها ومكثوا هنالك نحو خمسة أشهر، فرجعوا إلى تندرم. فمنعهم الرماة الذين كانوا فيها من دخول قصبتها بأمر صاحب الأمر الباشا محمد بن موسى. ثم ارتحلوا منها إلى أرض بر ونزلوا فيها.

وفي يوم الخميس التاسع عشر منه توفي القائد عبد الكريم بن العبيد في مدينة كاغ. صرفه هنالك الباشا محمد بن موسى ليحضر حتى يتفاصل أهلها مع وكيل القائد ناصر بن عبد الله في ثلاث رواتب التي اجتمعت عليه وتداخل بعضها في بعض حتى لم يدروا كيف المفاصلة فيها.

وفي يوم الخميس الخامس والعشرين من الربيع الثاني توفي الباشا يحيى. فصلى عليه القاضي عبد الرحمن في الضحراء في مصلى الجنائز عند الظهر، ودفن في مقابر سنكري.

وفي يوم الأربعاء الحادي والعشرين من جمادي الآخرة جاء البشوطان من جني بكتاب القائد علي بن عبد العزيز الفرجي، فأخبر فيه أن أصحاب جنكي طاحوا على قارب ملح في الطريق وقتلوا فيها خمسة أنفس، ثلاثة دراوي الأصل وواحد تواتي والخامس عبد أهل تنبكت، ونهبوا منها مالاً كثيراً. فطلب أهل جني الإغاثة من أهل تنبكت في ذلك الكتاب.

فاغتم الجيش الذين بتنبكت لذلك غماً شديداً وكادوا أن يتميزوا من الغيظ. فعزموا أن يسيروا إليهم بالمحلة الجامعة الكاملة الوافرة. وجعل كبارهم يجرون الحال ويطولونها حتى أدت إلى قطع الرجال. فقطعوا ثمانين رجلاً، فجهزوهم، وأخرجوهم.

فلما وصلوا المرسى نفروا فيما بينهم، فظهر لهم أن كبارهم لا يعجبهم المشي. فخالفوا عليهم وأجابهم إلى ذلك الذين بقوا في المدينة، وذلك يوم السبت التاسع من رجب الفرد. فعزلوا الباشا محمد بن موسى، ومكث في السلطنة تسعة أشهر وخمسة أيام، وعزلوا الكاهية عبد الكريم والكاهية محمد الجسيم وبشوطاتهما الثمانية والهملاجيين[؟].

وجعلوا أبدالهم في ذلك اليوم، فاتفقوا على القائد محمد بن أحمد بن سعدون الشاظمي وولوه باشا، لأن الباشا محمد بن موسى بعثه اليهم يومئذ ليصلح بينهم، فأخذوه وولوه عليهم كرهاً يومئذ. وهو رجل مبارك إن شاء الله تعالى، وفقه الله بالخير والصواب، وأصلحه به وأصلح به وعلى يديه.

وكتب في فور ولايته للسراقة الذين هربوا إلى أرض بر، وأمرهم أن يرجعوا إلى تنبكت ويتركوا المعزول العرب بن علي في تندرم. فأجابوا دعوته وامتثلوا أمره.

وفي هذه الأيام جاء توارق الحجر إلى عند الباشا محمد بن أحمد بن سعدون بأولادهم وعيالهم وأموالهم، فأخبروه أنهم يريدون أن يدخلوا في طاعته ويسكنوا في أرضه رغبة في سكنى جوار تنبكت، ولكن سبب خروجهم من أرضهم في الساعة خوف إخوانهم توارق أُلمدن. فقبلهم الباشا محمد المذكور، ورضي بهم، منهم بابا أما رئيس تدمكت، وبابا أكمني رئيس أدورفن، وأملوس، وابن أخت وندك محمد أكُعوي، وتسلوف. هو وبابا أما المذكور من أولاد أشركان، جعل الله أقدامه علينا رحمة وعافية بمحمد وآله صلى الله عليه وسلم.

وفي يوم الاثنين الخامس عشر من رمضان توفي الكاهية محمد العرب بن علي في أرض بر في بلد كيم. وتأخروا فيها لأجل يبس ماء البحر.

وفي يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شوال قدم الكاهية أحمد بن سليمن وأصحابه تنبكت فأصلح الباشا محمد بن أحمد بن سعدون بينهم وبين الطائفة السابقة في تنبكت. فأعزل الكاهية أحمد المذكور والكاهية محمد بن عبد القادر الشرقي الذي على أهل تنبكت، وجمعهم على الكاهية عمار بن أحمد عجرود، فتوافقوا واصطلحوا.

وفي يوم الاثنين الثاني عشر من ذي القعدة ورد كتاب من عند الكاهية منصور بن عبد الله العلجي في بلد أروان، وأخبر فيه أن مولاي محمد الشيخ بن مولاي زيدان توفي في بلد مراكش، وتولى ابنه مولاي العباس، رحمه الله تعالى رحمة واسعة وأسكنه الفردوس الأعلى، وجعل ابنه خليفة مباركاً ونصره نصراً عزيزاً وفتح له فتحاً مبيناً.

وفي يوم الأربعاء الحادي عشر من المحرم الحرام فاتح عام السادس والستين والألف توفيت محبتنا وجارتنا الشريفة أم بنت زيدان الشريف بن علي المزوار الحسني، وصليت عليها عند الجامع الكبير، ودفنت في جوار والدها في مقابر ذلك الجامع ضحوة تلك الأربعاء، رحمها الله تعالى وبرد ضريحها.

وفي ليلة الأحد بين المغرب والعشاء السادس من صفر توفي شيخنا ومحبنا وصاحب والدنا الفقيه الإمام محمد كورد بن الفقيه القاضي محمد ساج الفلاني عن أربعة وثمانين سنة، وصلى عليه القاضي عبد الرحمن في الصحراء في مصلى الكبراء والصلحاء ضحوة الأحد، ودفن في جوار والده في مقابر سنكري. ورحل لتنبكت في شبابه عن نحو ثلاثة وعشرين سنة، ودخلها عند استهلال شعبان في الخامس بعد الألف، فصاحب والدنا حينئذ. فقبله قبول مبرّة وإكرام ونصح ومواساة إلى الممات. فبعدما مهر وبهر في اقتباس العلم قدم والده من بلده يريد ارتحاله معه، فنهاه والدنا عن ذلك. فاستمع لكلامه وعمل به فتركه. ثم رجع لتنبكت ثانياً فقدر الله له وفاته فيها. واشتغل هو في أخذ العلم عند علماء البلد وهو حافل بهم يومئذ. فأخذ عن أشياخ والده [والدي] عدة، منهم الفقيه القاضي محمد ابن أحمد بن القاضي عبد الرحمن، وشيخ الشيوخ الإمام محمد بن محمد كري، والقاضي محمد بن أند غمحمد، والفقيه عمر بن محمد بن عمر، والعلامة الفقيه بابا بن الفقيه الأمين، والفقيه القاضي سيد أحمد بن أند غمحمد وغيرهم. وحضرمجلس العلامة الفقيه أحمد بابا بعد مجيئه من مراكش. فحصل عدة فنون من العلم كالفقه والحديث والأصول والبيان والنحو والمنطق والعروض والحساب وغيرهم، رحمه الله تعالى وغفر عنه ورفع درجته في أعلى عليين بمنه.

وفي ليلة الخميس العاشر من الصفر توفي سيد الوقت وبركته شيخنا شيخ الإسلام ومفيد الأنام الفقيه محمد بن الفقيه أحمد ابن الفقيه القاضي محمود بغيغ الونكري. وصلى عليه ابن أخيه محمد بن المصطفى ضحوة الخميس في الصحراء في مصلى الكبراء والصلحاء. ودفن في جوار آبائه وأقاربه وأهل بيته في مقابر سنكري. وهو عالم عامل فاضل تقي ورع ناسك ولي، وهو خاتمة الأشياخ وآخرهم موتاً، وبه تم انقراضهم. إنا لله وإنا إليه راجعون، غفر الله له ورحمه وعفى عنه ورضي عنه ورفع درجته في أعلى عليين ونفعنا ببركته في الدارين أمين.

وفي ليلة السبت الحادية عشر من الربيع النبوي توفي أخونا أحمد بن الحاج

محمد بن الأمين كانوا. وصلى عليه ضحوة في الصحراء القاضي عبد الرحمن، ودفن في جوار أهل بيته في مقابر سنكري، رحمه الله تعالى وغفر له وعلى عنه بمنه.

وفي يوم الأحد السادس عشر من الربيع الثاني ورد كتاب من مراكش من عند القائد يحيى بن يحيى الحياني للباشا محمد بن أحمد بن سعدون، وأخبر فيه أن السلطان مولاي محمد الشيخ توفي في الثاني والعشرين من الربيع النبوي عام خمسة وستين وألف، وبايعوا ابنه السلطان مولاي العباس ساعتئذ. فجاء على وفق المراد وظهرت منه البركة في الساعة والحين.

وفي السادس عشر من جمادي الأولى ورد كتاب من عند القائد علي بن عبد العزيز الفرجي في جني ومن عند سريا الكمال بن سريا بكر صاحب كنبع، وأخبروا أن الأبعد الخاسر الخارجي جنكي بكر جهز جيشاً إلى كنبع يريد قتل سريا المذكور والتغلب على ذلك البلد لقطع الطريق على السالكين. ووجد أن هنالك الكاهية عبد الله الماسي مع نحو ثلاثين رماة حراسة البلد. فوصل الجيش إلى سور البلد فتقاتلوا. فنصر الله الكاهية المذكور وسريا عليه، فهزموه مع جيشه الأرذلين الخاسرين، وكسروهم وطردوهم. وقتلوا منهم ثلاثمائة رجالاً وزيادة بعون الله وقوته. فولوا مدبرين خائبين. أهلكه الله ودمره تدميراً وتبره تتبيراً وأراح العباد والبلاد منه بمنه وكرمه.

تم وكمل بحمد الله تعالى وحسن عونه.

القاضي محمود كعتي

تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار

[رواية وتحرير ابن المختار]

الباب الأول	أسكيا الحاج محمد
الباب الثاني	ملكي كنك موسى
الباب الثالث	مملكة كياك
الباب الرابع	دولة كيمع
الباب الخامس	شي عال
الباب السادس	أسكي محمد
الباب السابع	أسكي موسى
الباب الثامن	أسكي محمد بنكن
الباب التاسع	أسكي إسماعيل
الباب العاشر	أسكي إسحق
الباب الحادي عشر	أسكي داوود
الباب الثاني عشر	أسكي الحاج وقاضي تنبكت العاقب
الباب الثالث عشر	أسكي محمد بان
الباب الرابع عشر	أسكي إسحاق الثاني
الباب الخامس عشر	أسكي محمد كاع وانقراض دولة كاع
الباب السادس عشر	الباشات في تمبكت ونوح أسكي دند
ذيل	

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً

قال الشيخ العالم الفقيه الأديب القاضي العادل الزاهد الورع الولي المكاشف التقي العابد سيدي محمود كعت الكرمني داراً التنبكتي مسكناً والوعكري أصلاً،

رحمه الله تعالى ونفعنا به أمين.

الحمد لله المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت والقهر والغلبوت والرأفة والرحموت الملك الديان القادر المنان الذي خلق الأرض والسماء وعلم آدم الأسماء وأخرج من صلبه الملوك والرعاء. فمنهم متكبرون قاسطون، ومنهم مقتصدون صالحون. فابتلاهم بظهور الأنباء والأخبار، وأعذر إليهم على السنة [شنة] المرسلين الأخيار، فأهلك من أباهم، وصيرهم عبرة للمعتبرين، وموعظة للمتبغين.

ثم أورث العلماء عملهم وأخلف الخلفاء على أمرهم فإليهم يأوي الطريد وبهم يقمع الخصم الملد ولذلك جعلهم ظلاله في الأرض، وزينهم لا زينة النور في الحوض، فمن أطاعهم فقد هدى وفاز، ومن حاد عنهم فقد خسر وخاب. نحمده على ما أولانا من سوابغ النعم والآلاء، حيث جعلنا من عباده الكرماء، وأزاح عنا شر الأعداء بأدعية العلماء، ووصايا الحكماء، وصوارم السلاطين والخلفاء. فوجب له علينا الشكر والثناء والسجود والانحناء، إذ هو المولى الأعلى. فمن بطعه فقد هدى واستمسك بالعروة الوثقى، ومن يعصه فقد غوى وباء بالخسر وغوى.

ونشهد أن لا إله إلا الله شهادة من أفرغ قلبه وهواه لامتثال أمر مولاه، ونعد تلك الشهادة إن شاء الله إلى يوم لقياه، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. ونشهد أن سيدنا محمدً عبده الكريم ورسوله الرحيم وصفيه الحليم ونجيه الأمين ذو الأيات الصادقات والمعجزات الباهرات والبراهين القاطعات، أرسله موطداً للإسلام ومسدداً للآنام ومكسراً للأصنام ومبيناً للشرائع والأحكام. القائل: بدأ هذا لأمر نبوة ورحمة، ثم يكون خلافة ورحمة الحديث. والقائل: لا تزال طائفة من أمتي على الحق حتى تقوم الساعة. والقائل عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين، من بعدي عضّوا عليها بالنواجذ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله البررة الكرام وصحابته ليوث الضرغام وعلى سائر إخوانه وذريته السادات الأعلام.

من إلى ناصع نسبهم ينتسب كل شريف ظريف، ومنهم ينتخب كل أديب عفيف، وبصميم أفعالهم يقتدي كل تقي حي، وبكريم أقوالهم يقتدي كل مقتصد منيب، وبقويم منهجهم يسلك كل مرشد عريف، وإلى نار هديهم بسراجه كل منفرد محب، وإلى ذروة علمهم يسمو كل مقصود بخير. فجزاهم الرب عنا أفضل الجزاء، وأثابهم يوم التنادي أجزل الثواب، وجعلنا بكرمه من المهتدين، وفي زمرتهم من المنخرطين، وبإحصانهم من المتبعين، بجاه خير الورى وأفضل من أعطي الهدى وأكرم من وطأ الثرى.

وبعد فلما كان ذكر قصص الأنباء والسلاطين والملوك وأكابر البلدان من عادة الحكماء والعلماء الأعيان اتخاذاً بسنة القرآن وتذكيراً لما غبر من الزمان ورداّ للبغي عن الحيف والهوان وعوناً للتقي على مساعدة الإخوان.

ومن الله علينا بأن أظهر لنا في زماننا هذا الإمام الصالح الخليفة العادل والسلطان الغالب والمنصور القائم أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر التوردي أصلاً والكوكوي داراً ومسكناً.

فأثار لنا الهدي بعد ظلم الدجي، وأماط عنا الهدي بعد الجبن والردئ. فانفسح له بحمد الله البلدان شرقاً وغرباً، وتداعت له الوفود فرداً وجمعاً. فأذعنت له الملوك كرهاً وطوعاً، فصرنا من بركاته بخير ونعمى بعد ما كنا في ضيق وبؤس. وبدل الله تعالى ذلك بفضله كما قال لأكرم خلقه أن مع العسر يسراً.

أردت أن نجمع من أحواله الحلوان مع ذكر شي عال الملعون ما سهل على اليد واللسان، وإلى الله سبحانه التكلان.

وسميته تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس. وذكر وقائع التكرور وعظام الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار.

الباب الأول

أسكيا الحاج محمد

اعلم، رحمنا الله وإياك، أن الإمام العادل والسلطان الفاضل أسكيا الحاج محمد لما تولى السلطنة أقام طريقة سنغي وجعل فيها قواعد، وذلك أن ليس له أحد في جنده يفرش له في مجلسه إلا جنكي، وكلهم يحملون له التراب إلا جنكي، فإنه لا يحمل إلا دقيق الطعام. وكلهم يقلعون الطاقية عند حمل التراب إلا كرمن فار، وليس فيهم من يتعدى عليه يقول الصدق إلا دند فار. ولا فيهم من ينهاه عن أمر ويتبعه أحب أم كره إلا بركي. ولا فيهم من يدخل داره راكباً إلا درمكي. ولا في أرضه من ينادي عبده ويرسله بأمر ولا يقدر أن يأبى ويفعل له في الأمر ما يفعل في أمر أسكي إلا القاضي. ولا من يناديه باسمه في مجلسه إلا كسردنك. ولا من يجلس معه على سريره إلا الشرفاء. وجعل للقاضاة إذا جاؤوه يأمر لهم ببسط حصير الصلاة لهم. وجعل للمزامين أن يجلسوا عن يساره. ولا يقوم لأحد إلا للعالم والحجاج إذا قدموا من مكة. ولا يأكل معه إلا العلماء والشرفاء وأولادهم وسَن ولو كان صغيراً، رحمه الله.

وهذا كله في أول أمره لتأليف قلوب قومه. فلما ثبتت له السلطنة واستقامت المملكة خرج من ذلك كله، وجعل يسأل العلماء العاملين عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويمشي على أقوالهم، رحمه الله، حتى اتفق جميع علماء عصره على أنه خليفة. وممن صرح له بذلك الشيخ عبد الرحمن السيوطي، والشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، والشيخ شمهروش الجني، والشريف الحسني مولاي العباس أمير مكة، رحم الله الجميع.

وأقام للمسلمين حقوقاً وحرمة على نفسه. وأمر لأهل موركير أن يتزوجوا ما شاؤوا، فيتبعهم أولادهم، وهو موجود إلى الآن، لم يتبدل ببركته، رحمه الله.

وأعطى للشريف أحمد الصقلي ناحية القرى والجزائر. وأما الشريف الحسني مولاي العباس فكان مع أمير المؤمنين وخليفة المسلمين أسكي الحاج محمد جالساً بحذاء الكعبة يتحادثان، فقال له الشريف مولاي العباس: يا هذا أنت الحادي عشر من الخلفاء الذين ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنك جئتنا ملكاً، والملك والخلافة لا يتفقان. فقال له كيف ذلك، يا سيدي؟ فقال له مولاي العباس: لا سبيل إلى ذلك إلا أن تخرج عما أنت فيه. فأذعن له أسكي طوعاً، وطرد جميع الوزراء عنه، وجمع جميع آلات السلطنة وأموالها، وجعل ذلك كله بيد العباس، وقعد عازلاً لنفسه. ودخل مولاي العباس في الخلوة ثلاثة أيام. ثم خرج يوم الجمعة ونادى أسكي الحاج محمد وأجلسه بمسجد البلدة الشريفة مكة، وجعل على رأسه قلنسوة خضراء وعمامة بيضاء، وأعطاه سيفاً، وأشهد الجماعة الحاضرين أنه خليفة بأرض التكرور، وأن كل من خالفه في تلك الأرض فقد خالف الله تعالى ورسوله.

ثم تهيأ أسكي الحاج محمد للرجوع. فلما وصل مصر وجد هناك الشيخ عبد الرحمن السيوطي، فسأله أسكي عن الخلفاء الذين ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم سيأتون بعده. فقال الشيخ: هم اثنا عشر، خمسة منهم بالمدينة، واثنان بمصر، وواحد بالشام، واثنان بالعراق، وقد مضى هؤلاء كلهم، وبقي اثنان بأرض التكرور، أنت أحدهما، ويأتي بعدك الثاني، قبيلتك منسوبة بطورد من أهل اليمين ومسكنك بكوكو، أنت مريد منصور عادل كثير الفرح والعطاء والصدقة، لا يعجزك موضع من مملكتك إلا موضع واحد يقال له بُرْكُ، بباء مضمومة ممالة فراء ساكنة بعده كاف مضمومة ممالة، ثم يفتح الله ذلك الموضع بيد الخليفة الثاني بعدك، تنام أول الليل، ثم تصلي آخره، ويصيبك عمى في آخر عمرك ويعزلك واحد من أبنائك

ويرميك في بعض الجزائر، ثم يخرجك ابنك آخر، ومصداق جميع ما قلت علامة في فخذك اليسرى، كان من برص فأبراه الله بغير علم أحد. فقال أسكي: صدقت يا سيدي وقرة عيني.

وقال له الشيخ: ولك ابناء كثير نحو مائة رجل، كلهم يتبعون أمرك في دولتك. ثم يعكسون الأمر بعدك، والعياذ بالله حتى يصير الأمر ملكاً عضوضاً.

وحزن لذلك وسكت ملياً. ثم تنفس الصعداء، وزفر زفيرة الثكلاء. ثم سأل الشيخ أيضاً: هل يخرج من صلبه من يقيم الدين ويصلح أمره؟ فقال له الشيخ: لا ولكن يأتي رجل صالح عالم عامل تابع السنة اسمه أحمد، يظهر أمره في بعض جزائر سبر ماسنة، ولكن من قبيلة علماء سنقر، وهو الذي يرثك في الخلافة والعدالة والصلاح والجود والتقى والزهد والنصرة، ويكون كثير التبسم، والسنة، دائم التحرك في جلوسه، ويسبقك بكونه متبحراً في العلوم، وأنت لا تعلم إلا أحكام الصلاة والزكاة والاعتقادات، وهو آخر الخلفاء المذكورين.

ثم سأل أسكي الشيخ: هل هذا الخليفة يجد الدين فيجدده أو يجده خامداً فيوقده؟ فقال له الشيخ: بل يجد الدين خامداً فيكون كشرارة جمر وقعت في يابس الحشيش، فينصره الله على جميع الكفار والمخالفين حتى تعم بركته البلاد والأقطار، فمن رآه وتبعه كان كما تبع النبي صلى الله عليه وسلم، ومن خالفه فكأنما خالف النبي صلى الله عليه وسلم. فتوسط الأولاد في زمانه، لكنهم لا يزالون على الجهاد إلى فنائهم.

قال الراوي عن شيخه القاضي حبيب: فيسبب هذا الرجل المذكور والخليفة المنصور تغلظ شي عال الملعون في قتل قبيلة سنقر، وكان يسمع خبره كثيراً من أفواه الكهان، وأنه يخرج على قبيلة سنقر، فقتلهم حتى لم يبق منهم إلا طائفة قليلة.

ثم سأل الشيخ أيضاً عن أمر أرض التكرور ما يول إليه آخره. فقال الشيخ: أما أرض التكرور فهي أول أرض تخرب لأجل إبايتهم الملوك. وسأله عن أمر كاو وما سبب خرابها، فأخبره بما أخبر. وسأله أيضاً عن تنبكت وجن، وأخبره عن أمرهما بما سيجيء إن شاء الله.

ثم سأله أيضاً عن أمر أربعة وعشرين قبيلة الذين وجدهم بيد شي بار مملوكةً له ورثهم عن آبائه. فقال الشيخ: صفهم لي، فوصفهم له. فقال له الشيخ: أما نصفهم فملكه لك سائغ، وأما النصف الآخر فتركهم أفضل، لأن فيهم شبهة. فقال للشيخ: فما

الذين ملكهم إلى سائغ؟ فقال الشيخ: الأولى قبيلة جِنْدِكَتَ، بجيم ودال المكسورتين بينهما نون ساكنة وكاف وتاء مفتوحتين، والثانية قبيلة جَمْوَلَ، بجيم مفتوحة ومنم ساكنة فواو مفتوحة ولام ممالة مكسورة، والثالثة جمتن والرابعة كم، والخامسة سربتي، والسادسة من كفار بمبر تنسب بجركر بكر، والسابعة تنسب بتنكرتب، والثامنة تنسب بكسمبر، والتاسعة تنسب بسمسيك، والعاشر تسمى بسرك، والجادية عشر تسمى بكرنكي، والثانية عشر تسمى بأربي.

ثم قال أسكي للشيخ المذكور: فما حال من ادعى من هذه البقائل أنه ابن حر أو حرة؟ فقال الشيخ أما من ثبت أن أباه حر وأمه من هذه القبائل فملكه له سائغ، وأما من ثبت أن أمه حرة وأباه من هذه القبائل فإن كان أقام في دار أبيه وعمل بعمله فلك أيضاً ملكه، وإن كان خرج من دار الأب إلى دار الأم فليس لك ملكه، لأن هذه القبائل لم يزل الملوك والسلاطين منذ زمن ملكي إلى شي بار يحذرون الناس عن مناكحتهم.

فوافق قول الشيخ أقوال العلماء الذين سألهم أسكي قبل ذهابه إلى الحج، رحم الله الجميع.

ثم بعد رجوع السلطان العادل أسكي الحاج محمد رحمه الله جدد هو أيضاً على تحذيرهم عن منكحة هذه القبائل. فكل من نكح فيهم امرأة ممن ليس من أهل مور كير فولده ملكي، فكل امرأة نكحها رجل منهم فولدت فإن أحبت لولدها الحرية فلتخرجه من دار زوجها إلى دار أبيها، وإلا فإن أقام الولد بدار الزوج وعمل بعمل الزوج فهو أي الولد ملكي. وهذا بعد ما سأل الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي عن أمر هؤلاء القبائل، فأخره كما أخبره الشيخ عبد الرحمن السيوطي، واتفق أقوالهما كما يقع الحافر على الحافر.

ثم أمر الشيخ محمد بن عبد الكريم أسكي الحاج محمد أن يكتب إلى الخليفة الذي يجيء بعده ويطلب منه الدعاء. وقال له أسكي الحاج محمد: وهل تبلغ تلك البراءة؟ فقال الشيخ: أرجو أن تبلغ إن شاء الله. فأمر الكاتب علي بن عبد الله أن يكتب براءة ونصها:

هذا الكتاب أمير المؤمنين قامع الفجار والكافرين أسكي الحاج محمد بن أبي بكر إلى وارثه المسدد والقائم بأمره المؤيد المؤمنين أحمد المنصور، فالسلام أشهى من كل مشتهى وإكرام أنور من الدر وأبهى يخصك ويعم على كافة من منك وإليك بروح وريحان. فموجبه إليك أيها الأخ البر الصالح إعلامك وتبشيرك بأنك آخر

الخلفاء وقاهر الأعداء وهادي السعداء باتفاق العلماء. ونحن نطلب منك الدعاء وأن أكون يوم القيامة في كريم زمرتك، كما نسأل الله تعالى العصمة من فتن الزمان، ونرجو من الله سبحانه أن يجعلنا وإياك في زمرة خير الورى، آمين.

فدعى له الشيخ أن يبلغ الله هذه البراءة بأيما وجه، فأمّن الحاضرون على دعائه.

قال الشيخ محمود كعت: وليعلم كل من وفق على هذه القصص التي ذكرناها أنّا لم نقصد بذكرها مباهاة ولا افتخاراً، بل لما رأيناه وشاهدناه من مناكرة أهل الزمان أحوال السلطان مع اتفاق العلماء الأعيان على أنه من الخلفاء النبلاء والأمراء النجباء، فلم يضره ذلك في دينه ولا في دنياه بحمد الله تعالى، وكما لم يضر من يأتي بعده إن شاء الله أقوال الحساد وإباية الجهال وسعاية الغدار والفساق. قال الفقيه محمود، ويعضد قول الإمام، ويوافقه ما روي عن الشيخ عبد الرحمن الثعالبي، من أنه سيكون آخر الزمان في أرض التكرور خليفتان، أحدهما يظهر في آخر القرن التاسع، الآخر يظهر في أول القرن الثالث عشر، ينكرها أهل عصرهما أشد التنكير، وينسبون أفعالهما إلى الظلم والأباطيل، فيقمع الله لهما كل جاهل جحود وكل عالم حسود، يسويان في جميع الأوصاف الحميدة إلا في العلم، يفيض الله في يديهم الأموال العريضة المخزونة يصرفانها فيما يرضى الله.

ولنرجع إلى ما كنا بصدده من ذكر مناقب الإمام العادل والسلطان الفاضل. فلما ملكه الله جميع أرض شي وتمكن في السلطنة، عزم على الذهاب إلى بيت الله الحرام للحج وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم. وتهيّأ وخرج في العام الثاني بعد تسع مائة، ومعه من العلماء الأعيان الشيخ محمد تل والفا صالح جور وكاغ زكريا ومحمد تننك والقاضي محمود يدبغ والشيخ مور محمد هوكار والمبتلي بالتأليف أنا محمود كعت، ومن أمراء النواحي ابنه أسكي موسى وهد كركي علي فلن وغيرهم، ومن العبيد الخدام ثمانمائة عبد، ورئيسهم فرج ميبن.

وحج البيت في ذلك العام، وتصدق على فقراء الحرمين بمائة ألف دينار ذهباً، واشترى بمثلها جناناً وبيوتاً وحبسها على الفقراء والعلماء والمساكين. ثم طلب من أمير مكة مولاي العباس أن يعطيه واحداً من الشرفاء إما أخاه أو ابنه ليتبركوا به، وهذا بعد ما أمره مولاي العباس على أرض التكرور وبين أنه واحد من الخلفاء الاثني عشر. وقال له مولي العباس: فسأعطيك إن شاء الله من هو كأنا ولكن لا يمكن ذلك الآن.

ثم أمر مولاي العباس ابن أخيه مولاي الصقلي أن ينزل إليه. فنزل إليه، فنزل في

العام الخامس وعشرين بعد تسعمائة. ووافق قدومه إلينا حال بداية التأليف ووصول القلم إلى هنا. فقدمنا ذكر مناقبه على مناقب غيره.

ومما بلغنا منها أنه لما قرب ودنا إلى تنبكت نحو يوم رأى الشيخ الإمام القاضي محمود بن عمر بن محمد أقيت في منامه النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الليلة، وكانت ليلة الأحد عاشر ذي الحجة الحرام، وبعيره جاثٍ. فأقبل الشيخ الإمام إليه، فقبل ما بين عينيه، فتحدثا في أشياء. ثم قال له النبي صلى الله عليه وسلم: اعلم يا محمود أنه يقدم إليكم اليوم حفيدي في أثواب خصر على ناقة سوداء، في عينه اليسرى قرح، وهو الذي يصلي بكم هذا العيد، فإذا أتاكم فأنزلوه بموضع يقرب إلى الماء والمقابر وإلى المسجد الجامع وإلى السوق. ثم نبح كلب فوثب بعير النبي صلى الله عليه وسلم للقيام، فقطع كلامه وركب بعيره وسار.

ثم انتبه الشيخ وتوضأ وجلس قليلاً. فافلق الفجر وكان ذلك اليوم يوم العيد، فأقبل إلى مجيئ البعير، فوجد آثاره في الأرض. فدور ذلك الموضع بهراوته. ثم خرج إلى المسجد.

فلما صلوا الفجر وطلعت الشمس وخرجوا إلى صلاة العيد أمر الشيخ محمود المؤذن إبراهيم بن عبد الرحمن بن السيوطي والفا صالح بن محمد والفا محمد بن المدان أن ينظروا له الطريق، وهل يأتي أحد من قبل المشرق. فنظروا فلم يروا شيئاً. ثم أمرهم ثانياً وثالثاً، فقالوا لم نر شيئاً. فتعجّب وقال: الله أكبر، وجلس قليلاً. ثم: انظروا. ففعلوا. فإذا هو امرؤ لابس ثوباً أخضر على ناقة سوداء. فقال لهم الشيخ هذه بغيتي. ثم قص لهم ما رأى في البارحة.

فلما وصل إليهم الشريف أحمد الصقلي وجدوه كما وصفه جده رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأكرموه وحملوه على عنقهم إلى موضع يقال له بسوكر، وأنزلوه هنالك. ثم قدموه إلى المصلى، فصلى بهم العيد.

ثم لما رجع الشيخ من المصلى نظر الموضع الذي دوره بالهراوة، ووجده كما عهد من آثار جثة البعير ودوران الهراوة. فأمر تلامذته ببنائه وسماه كلصخ. واتخذه أهل تنبكت موضعاً يمدحون فيه النبي صلى الله عليه وسلم في الأيام العظام، ويدرسون فيه الأحاديث. ثم أمر الشيخ بقتل جميع كلاب تنبكت لهذه الرؤيا.

وأمر أمير تنبكت بأن يرسل إلى الإمام العادل والخليفة الصالح يبين له مجيء مطلبه. فقدم الإمام إليه من كاغ وأتاه بمائة ألف دينار وخمسمائة خادم ومائة إبل ضيافة

له. ثم ناوله الشريف الحسني براءة مولاي العباس وفيها بعد ذكر أشياء كانت بين مولاي العباس وبين الخليفة أسكيا: واعلم يا أخي أن أهل بيتنا ليس عليهم شيء من كلف السلطنة، وقد أرسلت إليك ابن أخي هو كنفسي، فإن كنت تستطيع أن تسقط تلك الكلف عنه وعن أهله فليقم عندك، وإلا فاتركه يرجع.

فقال الإمام بعد قراءة البراءة: فقد جعلنا ما هو أصعب من هذا لمن هو دونك، فكيف لا نفعله لك؟ ثم أمر كاتبه علي بن عبد الله أن يكتب له وثيقة في ذلك معلماً كل وافق عليه من الولاة والقضاة والساداة إن لا يتعرضوا له، ولا لرهطه الذين جاؤوا معه ولأزواجهم وذرياتهم، في شيء من أمور السلطنة ولو ضيافة، ولهم شفاعة في كل شيء إلا النفس التي حرم الله، وإن كان ما شفعوا فيه جناية فعلينا وعلى نوابنا أرشها، أو في مال فعلينا ضمانه، وكل من خالف هذا الأمر فلا يلومنّ إلا نفسه. وقال للحاضرين حوله ليبلغ الشاهد منكم الغائب.

ثم سأله الإمام عن نسبه الشريف فأمر خادماً كان حوله أن يأتي بكتاب له فذهب. فأتى بالكتاب، فتناوله منه. ففتحه فأخرج منه رقعة فدفعها إلى الإمام، فدفعها الإمام إلى علي المذكور، فقرأها، فإذا فيها:

أنا أحمد بن عبد الرحمن بن إدريس بن أبي يعزي بن حسن بن إبراهيم بن عبد الله بن عيسى بن إبراهيم بن عبد الرحمن عرف بزين العابدين بن الحسن بن علي بن أبي طالب وأمه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم سأله الإمام أيضاً عن حال ظعنه ورحلته من بلده بغداد وكيفية حاله في الطريق ووصوله إلى تنبكت. فقال: اعلم أن أمري عجيب، وذلك أني كنت ذات يوم أنا وإخواني... مولاي يعقوب بن موسى بن فضل بن مولاي الرشيد بن محمد المنوفي بن أبي يعزي بن محمد بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلي بن موسى بن عباس بن أحمد بن علي بن زين العابدين مولاي جيدان ومولاي أبو فارس ومولاي إسماعيل جالسين عند أبينا الشيخ عبد الرحمن، وهو ينظر إلى وجوهنا. ثم قال لمولاي جيدان: أن الله يرسلك إلى مدينة مكة أن تكون إمامها وحفائدك هناك. ثم التفت إلى أبي فارس وقال له: يا أبا فارس إن الله يرسلك إلى مدينة مراكش ويقويك عليهم، وربما تكون حفائدك سلطانهم. ثم التفت إلى إسماعيل وقال له: يا إسماعيل إن الله يعطيك العلم والحكمة والدولة والهيبة، ولكن مسكنك مدينة فاس، وتكون قاضيها وأسباطك هناك. ثم التفت إلي، مولاي أحمد عرف بالصقل بنعال، ووضع يده الكريمة على رأسي

وبكى بكاء شديداً وخر مغشياً، حتى ظننّا أنه يموت. فلما أفاق استغفر ربه، ثم قال لي: يا مولاي أحمد سيصيبك بعدي هم وكرب، وتقع في شدة ظلماً، حتى تخاف على نفسك من الهلاك، ثم ينجيك الله من ذلك، ثم يأمرك الله بالنزول إلى أرض السودان، وتكون أوتادهم من أرضه، وينقسم أبناؤك ثلاثة أقسام، ويرجع فرقتان إلى بغداد، ويبقى فرقة بأرض السودان، وربما تكون حفائد القرقتين أقوياء في بغداد، وحفائد الفرقة الباقية هم أوتاد أرض السودان، ويكثر فيهم الأولياء. وهذا الذي ذكرت لكم قد ذكره لي جدكم سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم في المام قبل أن نتزوج أمكم الكريمة لل زهر باثني عشر عاماً. ثم بعد ذلك توفي الشيخ رضي الله عنه في عام مكمل ثمانمائة وخمسين في آخر ذي الحجة الحرام ليلة الاثنين بين المغرب والعشاء، ودفناه ليلتئذ وراء مسجد بغداد تحت شجرة كيشة.

وكان الأمر بعد موته كما ذكر. فتوجه إخواني كلهم إلى المواضع التي أشار لهم، وبقيت أنا ببغداد. فخرجت منها ذات يوم أقصد طائف، فأصابني العطش، ولم أجد ماء إلى أن غربت الشمس وظلم الليل وغم السماء. وظللت عن الطريق حتى أيقنت بالهلاك، فأويت إلى شجرة هندية، وقد بلغني من التعب والعطش والجوع هم عظيم، فبت هناك إلى أن أصبح الله بخير الصباح.

فلما صليت الصبح التفت إلى جانبي، فإذا برجل ملطخ في دم، وفي تحت أبطه حريش. فنهضت قائماً بالتعوذ وذهبت إليه أنظر حاله، فوجدته في حال الرمق. ثم نظرت إلى بعد فإذا بسبعة رجال يسرعون وبأيديهم المدافع. فلما قربوا إلي قالوا: والله ما ينجيك هذا يوم شيء. وقابلوا إلي بالمدافع وضربوها علي وأخطأوا كلهم. فهربت، وتبعني منهم ثلاثة حتى دخلت مدينة فاس.

وقصدت دار علي بن نان، وجاء الثلاثة ووقفوا باب الدار وطلبوا أن يخرجني علي، فأبى وقال: والله ما نخرج حفيد رسول الله صلى الله عليه وسلم لتقتلوه ظلماً. وطلب أن يعطيهم الدية، فأبوا. وكان له ابن واحد ذكر اسمه عبد الله فناداه: يا عبد الله. فجاء الابن. فلما رأوا الابن قال لهم علي: هل هذا يماثل طريدكم؟ قالوا: نعم. قال: خذوه وافعلوا به ما شئتم. واتركوا حفيد النبي صلى الله عليه وسلم، فقتلوه ساعتئذ، وكروا راجعين.

ثم منّ الله تعالى على علي المذكور بعشر بنين في تلك السنة، وشبوا كلهم، وأنا عند علي. ونكحوا وولد كل واحد منهم عشر بنين، وشبوا أيضاً وعلي حي وأنا عنده.

فركب علي وأولاده وحفائده، فصاروا مائة وأحد عشر فارساً قاصدين إلى حج بيت الله الحرام، وأنا معهم. فلما حججنا وزرنا وقضينا مناسك الحج قال علي المذكور: يا أهل الحرمين، إن الله تبارك وتعالى أكرمنه بشيء لم يكرم أحداً بمثله في زمننا. ثم قص عليهم القصة الماضية، وانطلق راجعاً مع أولاده وحفائده.

وبقيت بمكة عامين. ثم أمرني مولاي العباس بأن أنزل إلى أرض التكرور، وأخبر بأن هناك خليفة من خلفاء جدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكون عنده. وخرجت إلى مدينة بغداد متهيأ، فنمت فيها ذات ليلة، وكانت ليلة الجمعة، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر عند رأسي وقال: يا زولاي أمد اخرج إلى مدينة تنبكت وهو موضع مسكنك وأنت أوتاد أرضه.

فخرجت في غده من بغداد وإمامها يومئذ عبد الله بن يوسف وقاضيها عبد الرحمن بن عيسى وجئت طائف فوجدت عبد البر بن وهب إمامها ومالك بن عوف قاضيها. ثم ارتحلت منها فزودوني بألف دينار، فجئت مصر فوجدت محمود بن سحنون إمامها وعبد العزيز قاضيها. ثم ارتحلت منها فزودوني بألف دينار، فجئت الاسكندرية فوجدت محمد بن يوشع إمامها وعبد القادر بن سفيان قايها. ثم ارتحلت منها وزودوني بألف دينار، فجئت مصراط ووجد أحمد بن عبد الملك إمامها وعلي بن عبد الله قاضيها. ثم ارتحلت منها وزودوني بألف دينار، فجئت بنغازي ووجدت أبا بكر بن عمر اليماني إمامها وعمر بن إبراهيم قاضيها. ثم ارتحلت فزودوني بألف دينار فجئت طرابلس ووجد داوود بن ناخورا إمامها وعبد القهار بن الفيزان قاضيها. ثم ارتحلت وزودوني بألف دينار وخمسمائة دينار، فجئت غدامس ووجدت ابن عباس بن عبد الحميد إمامها وأحمد الغدامسي بن عثمان قاضيها. ثم ارتحلت فزودوني بألف وسبعمائة دينار، فجئت فرجان فوجدت محمد الهادي بن يعقوب إمامها وموسى بن سنوسي قاضيها. ثم ارتحلت وزودوني بأفل دينار، فجئت تونس فوجدت يحيى بن عبد البؤوف إمامها ونوح الفرشي قاضيها. ثم ارتحلت فزودوني بألف وثلاثمائة دينار، فجئت سوسة ووجدت عبد الحق بن الحر إمامها وعبد الكريم بن عبد الحفيظ قاضيها. ثم ارتحلت وزودوني بألف ومائة دينار، فجئت فاس ووجدت محمد بن سنوسي إمامها والقاضي عياض بن موسى قاضيها. ثم ارتحلت فزودوني بألف ومائتي دينار، فجئت مكناسة ووجدت محمد بن يعقوب إمامها والقاضي بن عبد العزيز قاضيها. ثم ارتحلت وزودوني بألف دينار، فجئت تندوف فوجد قصي بن سليمان إمامها والطاهر

البكي قاضيها. ثم ارتحلت وزودوني بألف دينار، فجئت يروَن فوجدت علي بن حميد إمامها وعبد الوهاب بن عبد الله قاضيها. ثم ارتحلت وزودوني بألف وخمسمائة دينار، وقصدت تنبكت.

فأقام الشريف الحسني أحمد الصقلي بتنبكت، ونكح هناك امرأة أعرابية من أهل تافلالت اسمها زينب، فولدت له مزاور وخمدم وسليمان ورقية وزينب. ثم إن الإمام أسكيا الحاج محمد - أطال الله حياته وأسكننا وإياه جنته - لما لم يجد صبراً على مفارقته قدم إليه بنفسه، فأزعجه إلى كاغ، فأنزله في دائرة بيته، وأضافه بألف وسبعمائة زنجي، منهم بلد كوي بكاف وواو ممالتين فياء مسكونة، وزنجي كُيْنُ بداف مضمومة ضمة أشمام فبياء مسكونة ونون مضمومة اسم بلد بين تنبكت ودند، وإن كوي كان بين البحرين من ناحية بمب، نقلته من فم موسى، وزنجي كربا وكان أبوهم وعكري الأصل ولذلك يقال لهم تنكر وزنجي أُنكُندُ بهمزة مضمومة فنون مدغمة وكاف مضمومة إشماماً ونون ساكنة ودال مضمومة، وزنجي ككنك هي عريشة في أرض ماسنة، وزنجي جزيرة بركُنكُ بباء وراء ممالتين فكافين مضمومتين إشماماً بينهما نون مسكونة مدغمة، وزنجي جزيرة طيطَوَن بطاء ممالة فياء ساكنة وطاء مفتوحة وواو مفتوحة ونون ساكنة، وزنجي جزيرة كنككِر بكافين أيضاً بينهما نون كالمتقدمة فكاف مضمومة ممالة وراء مكسورة ممالة تذييل.

قال القاضي محمود كعت: وفي سابع قدوم الشريف الحسني أحمد الصقلي - عرف بالصقل بنعال - وذلك يوم الاثنين، جاء إليه الأمير العادل أسكي للموآنسة والمفاكهة، وجلسا لذلك إلى أن ارتفعت الشمس. فقال الأمير للشريف: يا سيدي هل يمكن للإنسان أن يرى الجان ويكلمه بغير دخول خلوة بالذكر والصلاة ونحو ذلك؟ فقال له الشريف: يمكن ذلك ولو تخلينا الآن لأريت ذلك.

فأمر الأمير الحاضرين بأن يذهبوا، فذهبوا كلهم. وبقي الأمير والشريف جالسين مدة طويلة. قال الأمير فرأيت كأنما الأرض كلها صارت ماءً، وكأن النجوم تخرج من ذلك الماء فتصعد إلى السماء، وكأن الطيور تأتي حولي فتذبح أنفسها. ثم رأيت سبعة رجال يحملون كرسياً أخضر حتى وضعوها بيننا فجلسنا قليلاً، فإذا برجال كثيرين في أيدي بعضهم الكتب وفي أيدي بعضهم الألواح، وبينهم شيخ متوكئ على هراوة، لم أدر من حيث أتوا، فجلسوا محدقين بنا. وتقدم الشيخ إلى الكرسي فجلس عليه.

ثم قال لي الشريف: هذا كبير تلامذة الشيخ شمهروش، وهو من أولاد ميمون

حج مع شيخه عشر حجة. فقلت بعد ما سلم علينا: ما اسمه؟ فقال: دمير بن يعقوب. فتحيينا تحية متعارفين. ثم قال لي الشريف: كل ما كنت تريد أن تسأل الشيخ شمهروش عنه لو كنت رأيته فاسأل هذا عن ذلك، فإنه علم جميع علم شمهروش.

فقلت: إني أحب أن أعرف أصل سغي وأصل عكري. فقال دمير بن يعقوب: يا أمير المؤمنين وخليفة المسلمين، إنه سمعت من شيخي شمهروش رضي الله عنه وأرضاه أن جد سغي وجد وعكري وجد ونكر كانوا إخواناً شقائق، وأبوهم كان ملكاً من ملوك اليمن اسمه تراس بن هارون. فلما مات أبوهم تولى علي المملكة أخوه يسرف بن هارون. فضيق على أبناء أخيه أشد التضييق، فتهاجر الأبناء من اليمن إلى ساحل البحر المحيط، ومعهم زوجاتهم. ووجدوا هنالك عفريتاً من الجن، فسألوه عن اسمه. فقال: رور بن سار. فقالوا: وما جاء بك في هذا المكان؟ فقال تُكْ. قالوا وما اسم هذا المحل؟ فقال: لا أعلم. فقالوا: يحق لهذا المكان أن يقال له تكرور. وقالوا: وما خفت منه؟ فقال: سليمن بن داوود. وكان عفريت تارة يطير في الهوى، وتارة يصعد إلى الجبال، وتارة يغمز في الماء، وتارة يخرق الأرض ويدخل فيه.

وكان اسم كبير الرجال المذكورين وعكري بن براس، واسم زوجته آمنة بنت بخت، وهو جد قبيلة وعكري، بواو مفتوحة وعين ساكنة وكاف وراء مصمومة ممالتين فياء ساكنة. واسم ثاني الرجال سغي بن براس، واسم زوجته سارة بنت وهب، وهو جد قبيلة سغي، بسين وغين مضمومتين ممالتين بعدهما ياء ساكنة. وثالث الرجال اسمه ونكر، وهو أصغر هم، وليس له زوجة، وإنما كان لهم أمتان اسم أحدهما سكرى واسم الأخر كسرى. فاتخذ ونكر سكرى سرية له، وكان جد قبيلة ونكر، بواو بفتوحة ونون مدغمة وكاف مفتوحة فراء مفتوحة. وكان لهم عبد يسمى بمينك، فزوجوه بأمتهم كسرى وهو جد قبيلة مينك، بميم مكسورة ممالة فباء مدغمة ونون مدغمة وكاف مفتوحة. وإلى آبائهم نسبوا.

ثم تفرقوا في الأرض، وكان كبيرهم وعكري سلطانهم. وسموه كيمغ، ومعنى ذلك في كلامهم طال الإرث، يريدون بذلك أطال الله ورثتنا الملك. وقيل غير ذلك، هكذا ذكره الشيخ شمهروش.

فقال له الإمام: فجزاك الله أحسن جزائه، فهل أخبرك الشيخ بخبر عوج الذي يقول الناس أنه أكبر أهل الدنيا؟ فقال: نعم، قد ذكر لي الشيخ من أخباره ما لا يمكن أن أذكره كله لك الآن، ولكن سأذكر لك شيئاً منها إن شاء الله. سمعت منه رضي الله عنه

أن عوج ابن نعناك كان رجلاً جباراً، وكان أكبر أهل الدنيا في زمنه وأطولهم. وكان لا يشبع، وكان صحرائياً لا يخالط الناس إلا أحياناً. وكان يصطاد الوحوش والحيتان، ويأخذ بعض الطيور في طيرانها. ولا يحرث ولا يكسب شيئاً إلا الصيد، وإذا قرب حصاد مزارع الناس سبقهم عليها فأكلها واستأصلها. فإذا جاء القوم ليطردوه طردهم، وأخذ بعضهم ورمى به بعضاً فيموت المرمي به، حتى خاف الناس منه وتركوه.

فلما اشتد عليهم الضرر احتالوه فطرحوا من أنفسهم على كل بيت ثوباً، فجمعوا تلك الأثواب فأعطوه لعوج ديناً إلى شهرين. ولما جاء وقت الحصاد جعل على عادته ليأكل المزارع، فرآه الصبيان فقالوا: هذا مدياننا هذا، مدياننا، أفض لنا ديننا. ففر عنهم وترك لهم مزارعهم.

فلما قرب وقت الطوفان قال النبي عليه السلام: يا عوج احتطب لي ما أصنع منه فلكاً لأشبعك. فذهب عوج لذلك واحتطب عيداناً كثيرة. فلما رآه أهل القرية خافوا أن يهلكهم تلك العيدان إن وصل بها وطرحها. فخرج بعضهم إليه ولقيه وقال له: يا عوج إلى أين تقصد بهذه العيدان؟ فقال: النبي نوح عليه السلام أمرني أن أحتطب له لكي يشبعني. فقال: ألذلك جمعت هذه؟ فقال عوج: نعم. قال: أما تعلم أن نوحاً يغرك، بل لا يملك ما يشبعك به. فطرح عوج تلك العيدان كلها إلا عوداً واحداً اتخذه لعصاه. فجاء إلى النبي نوح عليه السلام فقال: اعطني ما في يدك. فقال عوج: هذا عصاي. فقال النبي نوح: خذ شق خبز. فاحتقره وطرحه في فيه، ولم يمكن أن يضم عليه فاه. ثم أخرجه وجعل يأكله قليلاً قليلاً حتى شبع، وبقي بعض الشق كأنه لم ينقص. فقال عوج: الحمد لله رب العالمين، اليوم شبعت لم أشبع قبله قط. فقال النبي نوح عليه السلام: فستشبع بعده أيضاً مرة.

فلما نزل الطوفان وكاد الماء أن يغرق عوج صعد على بعض الجبال وجلس، وكانت الحيتان تأتي إليه فيأخذها ويشويها بعين الشمس، ثم يأكلها هكذا إلى أن شبع. وراود الماء أن يغرقه فقام. ثم ارتفع الماء إلى صدره، ولم يجاوز صدره إلى أن غاض.

وكان لا ينام إلا بعد سنة. فأخذته السنة في بعض الصحارى، ووجده بعض إماء النبي نوح عليه السلام نائماً، ومررن نحو رجليه إلى طلب الحطب. فلما رجعن وجدنه قد احتلم وسال احتلامه كالسيل. فظننه ماءً، فخضنه، فحملن كلهن من ماء احتلام عوج.

وكن خمس إماء، أكبرهن ماسي بنت سر، والثانية وهي تلي ماسي في السن

اسمها سور بنت سر، وتليها في السن كاتو، وتليها جار، وتليها سبط. وكلهن بنات سري. فلما ولدن ولدت كل امرأة توامين رجلاً وانثى. فولدت ماسي جنك وميبنن، وولدت سور بوبو، وسري وولدت كاتو تمبو وحوب، وولدت جار كرنكي وسار، وولدت سبط سرك ونار.

فلما كبر الأولاد أذن لهم نوح عليه السلام أن يرتحلوا مع أمهاتهم فينزلوا في ناحية البحر ويصطادوا حيتاناً يعيشوا بأنفسهم، ويأتوا له بشيء من ذلك الحيتان. ففعلوا ذلك إلى أن بلغوا النكاح.

فتزوج جنك سري وكان أبا قبيلة جنك، بجيم وكاف مكسورتين ممالتين ونون مدغمة بعدها كاف ممالة. وتزوج بوبو ميبنن، وكان أبا قبيلة بوبو، بباء موحدة ممالة فواو ممالة وباء وواو أيضاً كذلك. وتزوج كرنكي سور، وكان أبا قبيلة كرنكي. وتزوج تمبو سور وكان أبا قبيلة كرغي، بكاف وغين مضمومتين ممالتين بينهما راء ساكنة. وتزوج سرك سار، وكان أبا قبيلة سرك، بسين وكاف مصمومتين ممالتين بينهما راء ساكنة.

وكانوا في تلك الحالة بزمن النبي نوح عليه السلام. فلما توفي النبي نوح عليه السلام تفرقوا وشتتوا فراراً من الرقية. فأما تمبو وبوبو فقصدا مع أبناءهما الصحارى. وأما جنك وكرنكي وسرك فدخلوا في البحر إلى بعض جزائره. ثم تناسلوا وتكاثروا وكانوا هنالك إلى أن طلع عليهم الناس، فأخبر بخبرهم بعض ملوك بني إسرائل.

فأرسل قومه ليأخذهم، وكان صغيرهم سرك جاهلاً غبياً أحمق، فقال له أخوه جنك وكرنكي: يا سرك قل لرسل الملك: ليس فينا مملوك لنوح إلا أنت وأولادك، فإذا قلت ذلك ننجو نحن، ثم نطلب ما نفديكم به. فامتثل سرك قولهما، فأخذ رسل الملك سرك وأولاده إلا قليلاً منهم اختفوا وبقوا مع جنك وكرنكي. ثم تشتتوا شذر مذر إلى أن بلغوا أرضكم هذه.

هكذا سمعت من الشيخ رضي الله عنه.

فقال له الأمير أسكيا أجدت، فجزاك الله خير جزائه. فهل عندك شيء من خبر البربر؟ فقال: أجل، سمعت من شيخي شمهروش رضوان الله عليه أن ملكاً من ملوك فارس اسمه قرطوم بن دارم كان له على بعض عماله غرامة، وذلك في كل سنة خمسمائة جارية غير مفتضة. فأرسل في بعض السنين رسوله سلمان بن عاصف إلى أخذ تلك الغرامة، فأخذها وجاء بالإماء الجواري إلى أن قرب من مدينة الملك بنحو

عشرة أيام، وبات بهن في موضع يقال له كرسا. فلما أصبح وجدهن كلهن مفتضات، فخاف سلمان من ذلك على نفسه، فأرسل إلى الملك يبين له ما قدره الله. فأمر الملك بأن يتركهن هنالك إلى أن يلدن. ففعل، فلما ولدن ولدن غلماناً كالجن طبيعة إلا أن صورهم صور بني آدم. فقطع الملك على عدد رجالهم أفراساً لهم، يغزون عليها ويغيرون ويأخذون له الأموال. فلما مات ذلك الملك هربوا إلى أرض المغرب، ودخلوا تحت رعية كيمغ يحيبن مارس. وهذا أصلهم على ما ذكر لي شيخي وسيدي شمهروش رضي الله عنه.

وقد ذكر القاضي محمود كعت أصل ملوك سنغي. هو امرأتان من أسباط جابر بن عبد الله الأنصاري خرجتا من المدينة يوماً إلى جنانهما وأصابهما العطش. وكان لأحديهما أي أكبرهما ابن صغير مراهق، وذهب يطلب الماء لهما. ووجد الماء وجاء به في ذلك البستان. وكان أول من لقيته خالته، وطلبت عليه أن يسقيها، وأبى عليها إلا بعد أن يشرب أمه. ومر عليها حتى وصل إلى أمه. وسألته أمه فقالت له: هل أسقيت خالتك فلانة يعني شقيقتها؟ وقال لا. وغضبت عليه وطردته مع ذلك الماء. وغضب هو وطرح نفسه في الصحراء، ولم يعرف له خبر.

وطرحت خالته نفسها بعده في الصحراء لأجل أمه التي طردته بسببها. واقتفت آثار ابن أختها، وضلت عن الطريق حتى وقعت في يد النصارى، وأخذوها. ومكثت مع أحد حداد النصارى وولدت لذلك النصراني بنتاً في الزنى. ثم نكحها بعد ذلك وولدت له ابناً. ثم كبرت البنت المولودة في الزنى حتى زوجها أحد حداد النصارى أيضاً، فولدت له ابناً.

فكبرا هذان الابنان، وحدثت لهما أمهما حالها وسبب خروجها من المدينة وطلبها ابن أختها. وأطرحا أنفسهما في طلب أخيهما حتى سمعا خبره في السودان، فوجداه في كاع.

فوجدوا أن أهل كاع ليس لهم سلطان إلا الحوت الكبير يخرج لهم في وقت الأضحية ويجلس لهم إلى وقت الزوال، ثم يرجعوا إلى بيوتهم.

فلما وصلا إلى أخيهما قال له أخوه ابن خالته: أنا أعمل لك ما تقتل به هذا الحوت فتكون ملكاً على هؤلاء القوم. فعمل له دم وقتله به. وكان عليهم ملكاً مهيباً مطاعاً.

وعمل ابن أختهما له دفاً، وكان يضربه. هو جد من كان دع، اسم قبيلة سغى.

وكان الآخر أصل كل حداد من حفائد جم كريا.

التنبيه الأول: نذكر فيه أولاد الشريف الحسني أحمد الصقلي. وذلك أن له من الأولاد محمد ومزاور وسليمان. ورجع محمد وسليمان إلى مدينة بغداد. وبقي مزاور في بلد تنبكت، ونكح امرأة من الأعراب اسمها زينب بنت وهب، فولدت ابن القاسم وحمدم الهاشمي وعلي وعبد الله ومولاي محمد وعبد الرحيم. ثم ارتحل هؤلاء الشرفاء من تنبكت لسبب جوع خافوا منه على أنفسهم وعيالهم. وحين ارتحلوا باتوا الكاهي الأغراب بوس. ثم ارتحلوا منها وباتوا أسكنغ. ثم ارتحلوا منها وباتوا ديري. ثم ارتحلوا، فلما وصلوا موضعاً يقال له عسفي تفرقوا، فأخذ بعضهم ميمنة وبعضهم ميسرة. فأما أهل الميمنة فابن القاسم ومولاي محمد الهاشمي وعبد الرحيم، فبات هؤلاء رأس الصيران يقال له في كلامنا جندبغ. ثم ارتحلوا وباتوا بدودجس. ثم تفرقوا وتوجه محمد الهاشمي إلى سرفلابير، وأقبل ابن القاسم إلى قرية وانك، ومر عبد الرحيم إلى توتل. وأما أهل الميسرة فهم عبد الله ومولاي محمد وعلي. فأما عبد الله أقبل إلى قرية واوبار وأما مولاي محمد فأقبل إلى نحو وو، وأما علي فتوجه إلى كرم.

والتنبيه الثاني نذكر فيه ما للشيخ العالم التقي الولي الصالح محمد تل، وينسبونه إلى بني مداس من الكرمات والعطاء من الأمير أسكيا، وذلك أنه ما رآه ولا سمع ذكره إلا احترمه وقبل يديه الكريمتين وقال: نفعنا الله ببركتك. وجعل له أن يركب جمله ويسير به نهاراً واحداً، ويكون كل ما وجد في تلك المسافة من ثلاث قبائل جم ول وجم تن وسربي ملكاً له، أي للشيخ محد تل. ومن ليس من هؤلاء فيكون حوزاً له، ومبدأ تلك المسافة حركنس كيغر ومنتهاه إلى دودكسر. وأما القرى المصهرات بهذه القبائل في هذه المسافة فيمون إلى كاي وما بينهما من بلد أوس وكرم تنيف على سبعين قرية.

والتنبيه الثالث نذكر فيه ما لشيخنا العالم الورع الزاهد الولي المتفنن الفع صالح جور عبد الأمير أسكيا من الإكرام والعطاء. وذلك أن الأمير إذا رآه لا يصغي إلى كلام أحد سواه ولا يفرح لأحد كما يفرح له. ومما ملّكه من القبائل المملوكين جدادانكا وقبيلة فالن وسري وبنكن وتميا وحردان وبل. وأصل هؤلاء من سرك. تتمة.

الباب الثاني
ملكي كنك موسى

ولنذكر بعض ما أمكن لنا من أخبار ملّكي كنك موسى.

وكان ملكي سلطاناً صالحاً تقياً عابداً ملك من منتهى مل إلى سبردك، وأطاعه جميع من فيها من سغي وغيرها. ومن علامة صلاحه أنه كان يعتق كل يوم نفساً، وحج إلى بيت الله الحرام، وبنى في حجه مسجد جامع تنبكت ودكر وخندم وديري وونك وبك، وكنك عجمية، وقيل أنها عربية الأصل.

ولحجّه سبب حكاه لي الطالب الحافظ لقصائص الأوائل، وهو محمد فم رحمه الله. ذكر أن ملكي كنك موسى هو الذي قتل أمه نانا كنك خطأً، وأسف لذلك وندم وخاف عقوبة ذلك، وتصدق بمال جسيم وعزم على صوم الدهر.

وسأل بعض علماء زمانه عما يفعل في الاستغفار لهذا الذنب العظيم. فقال له: أرى أن تفزع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتهرب إليه وتدخل في حرمته وتستشفع به، وسيشفعه الله فيك، وهذا هو الرأي.

وعقد العزم والحزم على ذلك في يومه، وقام يجمع المال والجهاز للسفر ونادى من أرضه من كل جانب يطلب الزاد والعون. وأتى بعض مشائخه يطلب منه أن يختار له يوم الخروج في الأيام. فقال أرى أن تنتظر يوم السبت الذي يكون ثاني عشر شهر، واخرج فيه لا تموت حتى ترجع لدارك سالماً، إن شاء الله.

ومكث يتربص حصول ذلك في الشهور وينتظره. ثم لم تحصل إلا بعد تسعة أشهر وافق ثاني عشره بيوم السبت. وخرج بعد ما وصل رأس قافلته بتنبكت، وهو بداره في مل.

والسبت الموافق بثاني عشر شهر كان منذ حينئذ يتفاءل به مسافروهم، ويمثل به في مسافر رجع بسوء المنقلب، فيقال: هذا ما خرج في داره سبت خروج ملكي.

وخرج كنك موسى بقوة عظيمة ومال جسيم في جيش عرمرم. وقد روى لنا بعض الطلبة من شيخنا العلامة القاضي أبي العباس سيدي أحمد بن أحمد بن أند غمحمد رحمه الله ورضي عنه وأرضاه: سأل يوم خروج الباشا علي بن عبد القادر إلى توات زاعماً أنه يريد الحج عن عدد من مشى معه من قومه، فقيل له: يبلغ من معه من جملة السلاح نحو ثمانين. فكبر وسبح، ثم قال: لم تزل الدنيا على النقصان، وقد خرج

كنك موسى إلى الحج من هما ومعه ثمانية آلاف، ثم أسكي محمد خرج حاجاً ومعه ثمانمائة رجلاً، عشر ذلك، وجاء بعدهما علي بن عبد القادر ثالثاً بثمانين عشر ثمانمائة. ثم قال: سبحانه لا إله إلا هو وقد لا يتمّ مراد علي بن عبد القادر انتهى.

ثم خرج كنك موسى راحلاً ذاهباً. وفي قصة سيره أشياء أكثرها لا يصح ويأبى العقل قبول ذلك. ومن ذلك ما وجدته جمعة في بلد من هنا إلى مصر إلا وبنا فيه مسجداً يومه، ويقال أن مسجد بلد كندم ودكرى من المساجد الذين بنى. وأدام طعامه غداءً وعشاءً منذ خرج من داره إلى أن قفل لحم الحوت الطري والسلق الرطب.

وحدثت أنه خرجت معه زوجته المسماة أنار كنت مع خمسمائة نسوتها وخدمها إلى أن نزل بموضع من صحارى بين توات وتغاز وضربوا بها الظعن. وباتت زوجته تلك معه في فسطاطه ساهرة، ونام هو. ثم استيقظ ووجدها ساهرة لم تنم، فسألها: أما نمتِ؟ ما لك؟ فما أجابته، فبقيت إلى نصف الليل. ثم استيقظ فألقاها كذلك ساهرة، فأنشدها بالله عما أصابها، فقالت: ليست إلا وسخ بدني ودرنها، وقد تمنيت البحر وأغتسل وأخوض وأغتسم [أغتسل] وأعوم، فهل لك تحصيل ذلك وإيجاده في ملكك؟

ونهض كنك موسى جالساً وغاظه ذلك وجلس متفكراً، ثم أمر بعبده الذي هو رئيس عبيده وقومه المسمى فرب. ونودي وأتى وأحياه تحية الملك، وعادة تحيتهم له أن يقلع قميصه ويتأزر به، ثم يركع يضرب صدره، ثم يحثو على ركبتيه. ولا من في مملكته يصافحه إلا قاضيه، وهو الملقب بأنفار قم، وقم قبيلة، ومنها يخرخ قاضيهم. ولا يعرفون القاضي وإنما يقال أنفار.

فلما فرغ فرب من تحيته قال له: يا فرب، منذ تزوجت بزوجتي هذه ما طلبت منه وما خاطبتني بما تقصر عنه قدرتي، ولا بما ليس في ملكي ويعجز عنه قدرتي، إلا في هذه الليلة، فقد سألتني البحر وإيجادها من العدم في قفارها، وبيننا وبين البحر مسيرة نصف شهر، وليس لهذا الموجد إلا الله وحده، فقد أعجزتني الآن. فقال فرب: فعسى الله أن يصلحه عليك.

فخرج فرب باكياً يضرب صدره إلى موضع نزوله، ونادى العبيد، وحضروا أسرع من طرفة عين، وعددهم ثمانية آلاف وسبعمائة، هكذا قاله بابا أشرع منذ بمدينة جنى، وقال غيره بل تسعة آلاف كاملة. فأخرج لهم المديرات على حسبهم، ومشى ألف خطوة وأمرهم بحفرة، وحفروها وأخرجوا ترابها. ثم حفروها حتى نزل إلى نحو ثلاث

قامات. ثم أمر بالرمال والأحجار حتى امتلأت الحفرة. ثم أمر بجذوات الحطب، فجمعوها فوقها. ثم أتى بقلبات بلنغة ووضعها فوق ذلك كله. ثم رمى عليها النار، ووقد واشتعل فذاب ذلك البلنغات على الأحجار والرمال وكسرهم وملست الحفرة كالفخار. ثم أمر بالمياه اللواتي في قِربهم وزقهم، وحلوا أفواه القرب والزقوق فانصبت وسالت إلى الحفرة حتى امتلأت وأعلت وسمت، بحيث يضطرب فيها الأمواج وتلاطم كالبحر العظيم.

ورجع إلى كنك موسى، فوجدهما جالسين، وقد أيقظهما وهج تلك النار ودخانه، فحياه. ثم قال: أيها السيد، فقد أعانك الله وأذهب همك وأين إنارٍ؟ فقد أقدرك الله على إيجاد البحر ببركة من تزوره، رسول الله صلى الله عليه وسلم، فها هي.

ووافق ذلك بطلوع الفجر الأعلى من تلك الليلة. فقامت نسوة معها، وهن خمسمائة، وركبت على بغلتها إلى البحر. فنزلن فيها فرحات مولولات [مولوعات] مسرورات وغسلن. ثم رحلوا وغرف بعضهم من ماء الحفرة.

ومشى معه سلمان بن يعت، وكان من خدمه يركب أمام الرفقة، وورد في جم كثير. ووردوا يوماً على بئر في قفار صحاريهم عطاشٍ ظامئين، وأدلوا دلوهم في ذلك البئر ونزل على الماء فقطع حبله هنالك، ثم أخرى فقطع، ثم أخرى فقطع. فظنوا أن هنالك من يقطعها، وهم في غاية الظمآن، واجتمعوا كلهم على جرفها لا يدرون ما يفعلون. وشمر سلمان بن يعت على ساعده وتأبط سكينه ورمى بينفسه إلى داخل البئر، وترك القوم على البئر وافقين في كرب عظيم. وإذا هو برجل هنالك لص محارب سبقهم على البئر، مراده يمنعهم الماء حتى يموتوا عطشاناً كلهم فيخرج ويجمع جميع أموالهم لنفسه، ولا يظن أن أحداً يقدر أن ينزل عليه هنالك. فقتله سلمان بن يعت هنالك. ثم حرك لهم حبل الدلو وجروه فإذا هم بجنازة رجل قتله. وجروه ورموا به إلى البئر ميتاً.

وحدثني شيخنا موربكر بن صالح ونكرب رحمه الله أنه كان معه حمل أربعين بغلة من الذهب، وحج وزار.

قيل طلب من شيخ بلد الحرام مكة الشريفة - حرسها الله تعالى - أن يعطيه من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه ويسلم الشريفين أو الثلاث أو الأربعة يذهب معه إلى بلده ليتبرك أهل الناحية برؤيتهم وببركة أثر أقدامهم في بلدهم، وأبى الشيخ له، وأجمعوا على المنع والإباية عن ذلك تعظيماً وإجلالاً لدمه الشريف، لئلا يقع واحد

منهم في أيدي الكفرة ويضيع أو يضل. وصمم عليهم في ذلك واشتد إلحاحه، فقال الشريف: لا أفعل ولا آمر ولا أنهى، ومن شاء فليتبعك، فأمره بيده، فأنا بريء.

فأمر ملكي منادياً في الجوامع: من أراد ألف مثقال من الذهب فليتبعني إلى أرضي، فله ألف حاضر. وجمع عليه أربعة رجال من قريش، قيل أنهم كانوا من موالي قريش وليسوا من أنفس قريش، وأعطاهم أربعة آلاف، كل واحد منهم ألف، وتبعوه بأهليهم راحلين إلى بلده.

فلما رجع ملكي قافلاً ووصل إلى تنبكت، جمع القوارب والسفن، وحمل عيالهم وأمتعتهم ونسوته ليوصلهم إلى أرضه، حين عجزت دوابه عن الركوب. فلما وصلت سفنه إلى بلد كم، وفيهن شرفاؤه القادمين معه من مكة الشريفة، وقع عليهم جنكي وكرن ونهبوا كل ما كان في تلك السفن، وأنزلوا الشرفاء عندهم، وخرجوا في طاعة ملكي. وعلمهم أصحاب السفن بأمر الشرفاء وأخبرهم بمكانهم، وأقبلوا عليهم وأكرمهم وأجلسهم بمكان هنالك يسمى شنشن. قيل أن شرفاء بلد كيي أو كئي منهم.

انتهى قصة سفر حج ملكي كنك موسى.

وجنكي من أصغر عبيد ملكي وأرذل خدمه، وحسبك أنه لا يقف إلا على زوجته أي زوجة ملكي، ولها يعطي غرامة أقليم جني ولا يراه ملكي. فسبحان من يعز ويذل ويرفع ويخفض.

تنبيه: إن قيل ما الفرق بين ملنكي ونكر، فاعلم أن ونكر وملنكي من أصل واحد، إلا أن ملنكي هو الجندي منهم ونكر من يتجر ويسعى من أفق إلى أفق. وأما مل فإقليم واسع وأرض كبيرة عظيمة مشتملة على المدن والقرى، ويد سلطان مل مبسوطة على الكل بالقهر والغلبة. وكنا نسمع من أعوام عصرنا يقولون سلاطين الدنيا أربعة، ما خلا السلطان الأعظم: سلطان بغداد، وسلطان مصر، وسلطان برن، وسلطان مل.

وبلده التي كانت فيه دار الإمارة لملكي اسمها جارب، وأخرى تسمى ينع. ولا يسقي أهليهما إلا على بحر كَل، وعليه يردون على مسافة العدي، يخرجون إليه بكرة اليوم ويرجعون وقت العصر من يومه، وعليه يغسلون ثيابهم.

وهكذا حدثني به أخونا الحافظ محمد فم، فقال فصار اليوم مسيرة يومين. فانظر هذا الأمر وتعجب هل نقص من النهار شيء أو زيد في مسافة تلك المكان، أو ضعف حال خطوات الناس وقوتهم. فسبحان من يفعل ما يشاء.

وقد أذكرني هذه القصة قصة ما حكاه صاحب فريدة العجائب في قصة جبل سرنديب، هو جبل بأعلى الصين في بحر الهند، وهو الجبل الذي أهبط عليه آدم عليه السلام، وعليه أثر قدمه غائص في الصخر، طوله سبعون شبراً. وإن آدم خطا من هذا الجبل إلى ساحل البحر خطوة واحدة، وهو مسيرة يومين، سبحان من باين بين خلقه خلقاً وخلقاً.

قيل أن مل مشتمل على نحو أربعمائة مدن، وأرضها كثيرة الخير، ليس في مملكة سلاطين الدنيا غير الشام أحسن منها. وأهلها ذوو ثروة ورفاهة عيش، وحسبك بمعدن الذهب في أرضه، وشجرة كور الذي لا يوجد مثلها في الأرضين من التكرور إلا أرض برك.

ويد سلطانها مبسوطة من بيت إلى فنكاس، وكياك إلى سنقل، وفوت وزار وعربها في زمانهم الأول.

الباب الثالث
مملكة كياك

ولا يتولى ملك كياك إلا عبيده وأمراءه، ولا يدخله إلا يعت [نعت]. ثم بعد ذلك رجع أمره إلى جاز. ثم غلب على تلك البلدان أهل كياك، وخرجوا في طاعة ملكي وقتلوا أميره وخالفوا عليه، وتسلطن فيها أولاد جاور، وتلقبوا كياك. وقويت دولتهم وعظمت ملكهم وقهروا أهل تلك الجهة، وقاموا بالمحاربة وعظم جيشه وكثر حتى كان يخرج إلى القتال في نيف وألفين من الخيل.

وكان بأرض كياك مدينة عظيمة قديمة، سبقت زار بناءً وإمارة، واسمها سائن دنب، بسين مهملة مفتوحة فألف مكسورة بعده همزة مكسورة فنون ساكنة، وهو بلد الجافناوين الذين يقال لهم جافنك، وهي موجودة من زمن كيمع. ثم خربت عند انقراض دولة كيمع في أيام فتنتهم.

وبعد خرابته بنيت زار. ورحل بعضهم إلى كسات، وهم المسمون بكس، وبعضهم إلى زار، وهم قد غلب عليهم كياك فرن وسلب ملكهم، وعلى جميع عربها إلى فطط وتشت وتكنكع.

وأرذل الناس وأصغرهم عندهم هو فلن، يغلب رجل واحد منهم عشرة من الفلانيين. وأكثر ما يأخذون من طاعتهم من الغرامة الخيل، إلا أن ملوكهم ليس عليهم

هيبة الملوك، ولا يجلسون في زي الملوك، ولا يخرجون في زينتهم، ولا يلبسون العمامة. ولا يجلسون على الفرش، إنماهو في الفلانيين أبداً، وربما يجلس بين أصحابه مختلطاً بهم، ولا يعرف من بينهم. ولا يملك مع كثرة خيول جيشه إلا فرساً واحداً أبداً، عادة الجارية فيهم، مع قوة سلطنته. ولا يخرج من بيته إلى زيارة أحد، ولا يخرج من بيته إلا إلى الجهاد فقط. ولا يدخل المسجد إلا لصلاة العيد لا غير. وكانوا يقولون كفى الملك زينة ملكه وسلطنته، ولا يحتاج إلى الزينة بعد ذلك.

ومر كرمن فار على كياك إلى تنيض ملك فوت، وخافه كياك فرن وتحير وظنه يأتيه، وبعث إليه الهدايا يطلب رضاه. قيل إن كياك فرن وقع بينه وبين تنيض ملك فوت أمور وخصومة وتشاجر، وحلف بأن يكسر بلده ويصيره صحراء، وكان أقوى منه قوة وخيلاً ورجالاً. فاستغاث لذلك بكنفار عمر، ولذلك خرج إليه. وهذا أول ما سمعنا من القصة.

ثم أخبرني بعض العارفين بسيرهم أن سبب خروج كرمن فار عمر إليه أن أحد الزغرانيين من أهل سوي كان يخرج كل سنة إلى فوت ويتجر فيها، وسمع به تنيض وأخذ ماله ظلماً وجوراً وأراد قتله، وهرب إلى كرمن فار عمر، وسعى به إليه ونم عليه عنده وقال أنه يشتم كرمن فار عمر. ووقع فيه وأغضبه، ولذلك خرج إليه.

وقد بلغ أهل سوي في الحرب وعلم القتال والشجاعة والنجدة ومعرفة المكيدة غاية ونهاية. انظر كيف خرج كرمن فار بهذا الجم العرمرم الكثيف وقطع بها هذه المفازة البعيدة إلى قتال تنيض ملك فوت، مسيرة نيف وشهرين من تندرمة إلى فوت، وكيف ظفر فيهم وتمكن من ملكهم وقتله وغنم فيهم الأموال الجسيمة. وكان ذلك في عام ثامن عشر بعد تسعمائة.

الباب الرابع
دولة كيمع

وأما سلطنة مل ما استقامت إلا بعد انقراض دولة كيمع سلطان المغرب كله، بلا استثناء مكان ما منه. وسلطان مل من عبيده وخدمه ووزرائه، وكَيَمَعَ بكاف فياء وميم وعين مفتوحات، معناه في لغة وعكري ملك الذهب، كيهو: الذهب، ومع: الملك.

وهو سلطان عظيم. وأخبرني بعض الموثقين عن الفقيه قاضي ماسنة ألفَخَ أيدّ الماسني أن كيمع من الملوك الأوائل، وقد مضى منهم عشرون ملكاً قبل ظهور

رسول الله صلى الله عليه وسلم. واسم بلده قنب قنب مدينة عظيمة. وكان انقراض دولتهم في القرن الأول من الهجرة النبوية. وحدثني بعض السلف أن آخرهم كَنِسعَي، بكاف مفتوحة فنون مكسورة وسين مهملة وعين مفتوحة قبل ياء ساكنة، وهو الملك في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وله بلد اسمه كرنكع، وهو مسكن أمه، وهي الآن باقية عامرة.

ويقال أن له ألف خيل مربوطين في داره. عادة معروفة إن مات واحد منهم في صبح جيء بآخر مكانه عوضه قبل المساء، وفي الليل كذلك. ولا ينام واحد منهم إلا على زربية، ولا يربط إلا بحرير في عنقه وفي رجله. ولكلٍ منهم أنية من النحاس يبول فيها، لا يقطر من بوله على الأرض قطرة إلا في الإناء، لا في ليل ولا في نهار. ولا ترى زبلاً واحداً تحت واحد منهم، ولكل منهم من الخدم ثلاثة أنفس يجلسون تحته، واحد منهم يقوم بعلفه، واحد منهم بسقيه، وواحد منهم موكل على رصد بوله وحمل زبله. هكذا أخبرني به الشيخ محمد تكاد بن مور محمد بن عند الكريم فوفن، رحمه الله.

وكان أي كيمع يخرج بعد عشاء كل ليلة يسمر مع قومه. ولا يخرج حتى يجمع عليه ألف حزمة، ويجمعوها في باب دار مملكته، ويوقد تحته نار ويشتعل مرة واحدة، ويضيء له ما بين السماء والأرض ويشرق البلد كله. ثم يأتي ويجلس على منصّة الذهب الأحمر، وسمعت بعض من حدثني بالفضة، وقال ألف شقة من الكتان، لا ألف حزمة من الحطب. ثم إن جلس يأمر بعشرة آلاف من الموائد، ويأكلون وهو لا يأكل. فمتى تم الأكل يقوم ويدخل، ولا يقومون حتى تصير الحزمات رماداً، ثم يقومون. وهذا على الدوام.

ثم أفنى الله ملكهم وسلط أرذالهم على كبرائهم من قومهم واستصالهم [واستأصلوهم] وقتلوا جميع أولاد ملوكهم، حتى يبقروا بطون نساءهم ويخرجوا الجنين ويقتلوه.

واختلف أي قبيلة هم كانوا منها. قيل من وعكري، وقيل من ونكر، وهو ضعيف لا يصح. وقيل من الصنهاجة، وهو أقرب عندي، لأنهم يقولون في نسبهم أَسْكُعُ صوب، بهمزة مفتوحة فسين مهملة ساكنة فكاف مضمومة فعنين مصمومة، وهو حم في اصطلاح سودان لقباً. والأصح أنهم ليسوا من السوادين، والله أعلم. وقد بعد زمانهم ومكانهم علينا، ولا يتأتي لمؤرخ في هذا اليوم أن يأتي بصحة شيء من أمورهم

يقطع بها، ولم يتقدم لهم تاريخ فيعتمد عليه.

الباب الخامس

شي عال

وقد آن أن نرجع إلى المقصود من ذكر تراجم الأساكي، فقد أطنبنا في هؤلاء وسلكنا مسلكاً لم نقصد مما ليس له طائل، ويكاد أن يكون أكثرهم أكاذيب. ونستغفره تعالى: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

ثم بعد شي باردل ينب، ثم شي مادعو، ثم شي محمد كوكيا، ثم شي محمد فار، ثم شي بلم، ثم شسي سلمان دام - وفي بعض الروايات داند هو اسمه - وهو جد أهل بلد أرحم، وهو الذي غلب أهل أرض ميم وكسرهم وأفسد ملكهم، وكانوا قبل ذلك في ملك عظيم وقوة قاهرة خرجوا عن سلطان مل، وكان في ميم اثنا عشر ملكاً، ورأسهم ميم فن، ومنهم أي من أمرائهم تكفر سوم، وهو الذي يقف عليه سلطان ماسن ويأخذ التراب له ويبايعه ويقلع له قميصه ويتأزر به قدامه. وأثر مدينته هنالك مخروبة. واسم ذلك الملك إلى الآن باق ذليل يمشي على رجله بلا دابة، وقد زال ملكه وبقي اسمه، فسبحان الملك الدائم. ويزوره سلطان ماسن إلى الآن يزعم أنه يتبرك به ويطلب دعاءه وإذنه، وينزل عن دابته لتحيته تعظيماً له، ويلقي به في موضع بلده الخربة.

ثم خلف سلمن دام الظالم الفاجر الملعون المسلط شي عال وهو آخرهم ملكاً الذي سارت الرفاق بقبح سيره. وكان منصوراً وما قابل أرضاً قصده إلا خربه. وما كسر له جيش كان فيه قط غالباً غير مغلوب. لم يترك بلداً ولا مدينة ولا قرية من أرض كنت إلى شبردك إلا وقد جرى خيله فيه وحارب أهله وغار عليهم.

ومعنى شي، على ما وقفت عليه من خط بعض أئمتنا، محمود. قال معنى شي كي بنند، أي خليفة السلطان أو بدله أو عوضه.

وهو سلطان جبار قاسي القلب يأمر بإلقاء الطفل في المهراس ويأمر أمه أن تدقه، وتدقه الأم وهو حي، ويطعمه للخيول. وكان فاجراً فاسقاً. وسئل بعض شيوخ عصره من أهل موركير هل هو مسلم أو كافر، بأن أفعاله أفعال الكفرة وهو ينطق بكلمتي الشهادة ومن له قوة في العلم.

وانظر في أفعاله كفره بقتل الفقهاء، وكم من قرى هدمها وقتل أهاليها بالنار، يعذب الناس بأنواع العذاب وتارة يحرق بالنار ويقتل به، وتارة يبني بيتاً على حي

ويموت تحته، وتارة يبقر بطن امرأة حية ويخرج جنينها. وفيه من سيء الأعمال وسوء الرعاية ما لا يسع هذا المجموع حصر بعضه.

ولي سلطنة سنغي سنة تسع وستين من القرن التاسع، ومكث فيها سبعاً وعشرين سنة وأربعة أشهر وخمسة عشر يوماً، وهو سنة سبع وتسعين وثمانمائة. هكذا نقلته من درر الحسان في أخبار بعض ملوك السودان تأليف باب كور بن الحاج محمد بن الحاج الأمين كانوا.

وما له من الأعداء عدو مسخوط عليه يبلغ عنده فلن، وكل من رآه بعينه من الفلانيين إلا قتله، لا عالم ولا جاهل، لا رجال ولا نساء، لا يقبل للعالم منهم لا صرف ولا عدل. قتل قبيلة سنقر حتى ما أبقى منهم إلا طائفة يسيرة، أجتمعوا كلهم في ظل شجرة واحدة ووسعهم كلهم.

وكان يأخذ بعض أحرار المسلمين ويعطيهم لبعضهم ويزعم أنه يتصدق بهم عليهم.

وكان أهل زمانه وجنوده يلقبونه بدالِ، وبه يعظمونه. وما نادى أحداً منهم إلا أجابه دال، وهو بدال مهملة وألف ممدودة ولام مكسورة. وحدثني بعض أصحابنا، وهو محمد وانكر بن عبد الله بن سنجوك الفلاني رحمه الله، أنه سمع القاضي أبا العباس سيد أحمد بن أند غمحمد رحمه الله يقول أنه لا يجوز أن يلقب أحداً به، لآن معناه تعالى، وهي تختص برب العزة وهو الله تعالى. وكذلك دولنْتَ، وهو بدال مهملة فواو ممدودة فنون ساكنة فتاء مفتوحة، وبعضهم يقول دورنت بالراء فهو خطأ، قال معناه عبد المولى، وأعني بالمولى شي لعنه الله عليه. ودال هذا لا يقالها اليوم إلا لكومكي وجن كي، وينبغي أن يتنبه أهل الورع والطلبة عن ذلك.

وكان شي هذا فرغ أيامه في الغزوات، وكان دار سلطنته في كوكيا وفي كاع وفي كبر، ودار يقال له تل، وفي ورع من أرض درم يجاور بلد أنكب ويقابل بلد جنجو. ولا يستقر في أحد منها. وكان من تقدمه من شيين يسكنون في كوكيا إلا شي عال هذا الفاجر، هو في الغزوات أبداً.

وخرج في أوائل سلطنته إلى بلد دير. وسمع بخبر سلطان موشي المسمى كمداغ، وارتحل من دير والتقيا في كب، وهزم جيشه وتبعه إلى بنبر، ونجا بنفسه حتى دخل في بلده في دار مملكته المسمى أرقم.

ثم رجع شي علي، ومعه تنبكت كي محمد نض وأسكي محمد وأخوه كرمن فار

عمر ومحمد نض سلطان تنبكت وفرن أفنب وأبو بكر وفرن عثمان في ذلك الغزو.

وطلع على شي علي شهر رمضان في بنبر، وصلى العيد في كتنع، ورجع إلى كونع، وخرج في كونع إلى بسم وقتل بسم. ومضى إلى تمسع، وطلع عليه شهر رمضان في تمسع وصلى فيها العيد. ثم دخل في إثر بيدان حتى انتهى إلى داع، وقتل مودبّ وار هناك. ثم خرج من هنالك إلى فكر. ثم خرج من فكر ورجع إلى تمسع، وطلع عليه شهر رمضان في تمسع، وصلى العيد فيها. وأخذ المختار في بلد ككر، وقاتل أهل تند. ثم رجع إلى سوربنتنبع. ثم مضى ورجع إلى كاع، وفي اسم كاع لغتان: كاع وكوكو، وطلع فيه شهر رمضان، وصلى العيد فيه.

ثم أخرج أسكي بغن وأرسله إلى تسك - فانظر اسم أسكي في وقت شي وزمنه، وهو بخلاف ما عليه جل الناس بأن أسكي محمد هو أول ملقب به وتسمى بذلك حتى ذكروا سبب تسميته وتلقيبه بذللاك، نذكر ذلك قريباً في ترجمة أسكيا محمد وهذا غريب جداً - وهزم تسك جيش أسكي بغن.

ومحلة شي عال في بلد منصور، وطلع عليه شهر رمضان في منصور، وصلى العيد في كوكيا. ثم كر راجعاً إلى كاع، وخرج بجيشه إلى أزوت وقت غزوته ومات أسكي بغن. وارتحل شي عال إلى تسك، وطلع عليه شهر رمضان في بلد نعسر من بلاد موش، وصلى العيد فيه.

ثم ارتحل إلى بحر ولول، وجمع جيشاً كثيفاً، وأخرج دندفار أفنب وجعله أمير ذلك الجيش كلهم، وفي الجيش هيكي بكر - انظر أيضاً اسم هيكي في دولته، وهو أيضاً بخلاف ما يقولها أهل سنغي بأنه لم ينشأ إلا في زمن أسكيا محمد، وذكروا سبب تلقيب هيكي بذلك، وسنذكر ذلك في ترجمة أسكي محمد. وفي هذا الجيش أسكي محمد، وهو ملقب يومئذ بتندفرم، وفيه أخوه غمز كمزاغ، وهو يومئذ كتل فرم، وفارن عثمان. وأرسلهم إلى قصاص محمد كيرو في كنكي.

ورجع شي إلى كاع، ولم يجلس فيه. ومضى إلى بركن مدينة التي فيها دار مملكة موشكي ودمرها وأسر أهلها وقتلهم شر قتلة. ثم خرج إلى مل، وهربوا ولم يدركهم. ورجع وجهز جيشاً عظيماً، وجعل هيكي يعي أمير الجيش إلى قتل تنك يعمع، وقتلوه. ورجع الجيش إليه، وارتحل بهم إلى ككر، وأخذ منذ كنت في ككر.

ثم جهز جيشاً وأرسل دندفار أقنب إلى قتل بيدان في بلد نوم. ومضى فارن أفنب إلى دند لأمر أرسله شي عال به، ورجع منذونك بالجيش إلى شي عال.

ثم خرج شي عال وطلع عليه شهر رمضان في داغ، وصلى العيد هناك. ثم مضى ورجع إلى جن، وقدم عليه منذ ونك مع الجيش والتقى به في بلد جن، وطلع عليه شهر رمضان في جن، وصلى العيد فيه. وقاتل أهل جن، وقاتل أهل مل مرتين. ثم مضى وحمل الفلانيين إلى كوكو، وطلع عليه رمضان في جاكوا، وصلى العيد في كنو. ثم طلع عليه رمضان في كذب، وصلى العيد فيه. ثم طلع عليه رمضان في جرك، وصلى العيد في منت. ثم رجع إلى البحر، وطلع عليه رمضان في مل، وصلى العيد في يعتل. ومضى ورجع إلى كاع، وطلع عليه رمضان فيه، وصلى العيد.

ثم ارتحل من كاع في يومين من شوال، ومضى إلى تند، وقاتل أهل تند، ونزل في د، ومكث هناك شهراً.

ثم سمع بمرور موشكي إلى بير، وترك أهل بيته في دير، ودخل في إثر موشكي. وجاء إلى سيل، وقتل سيلكي. ومضى إلى كنتع، وطلع عليه شهر رمضان في كنتغ، وصلى العيد في سام. وارتحل موشكي إلى سام، ووجد شي حمل أهل بيته وماله. ومضى موشكي في إثر شي عال، ولحقه وطلع على جيشه، وخاف وكر راجعاً هارباً على عقبه. ونقلت هذا كله من كتاب الجد الفع محمود بن الجاج المتوكل، بخط بعض طلبته من قوله. وارتحل شي عال في دير والتقيا في كب.

وفي سنة ثلاث وسبعين انكسر مدينة تنبكت، ودخل فيها في اليوم الرابع من رجب. وفي تلك السنة خرج الفقيه العلامة شيخ الإسلام محيي اليدن القاضي أبو الثناء محمود بن عمر بن محمد أقيت من بير ورجع إلى تنبكت رحمه الله.

فاعلم أن شي وأسكي محمد ومور هوكار جد أهل موركير وفقهاؤها كلهم من أصل واحد، وجميع من يلقب بمُي كميدع ومينتك وميهو وميكع وميفر ومنتاص وميغي ومننور وميزع. واسم بلدهم ير. وكل من كان في هذا الإقليم أصلهم من المغرب من وعكري وونكر. وكنت أسأل كل من رأيته من أهل كيعك وبيت ومل وجعفن وكذلك/ هل كان عندكم في أرضكم قبيلة ميكع ومينتك؟ فيقول: ما سمعناه ولم نره.

وكان هذا الفاجر يعني شي عال ملكاً مطاعاً مهيباً، خافه رعيته لشره. أرسل رسوله إلى تنبكت، وهو في بلد جن يحاصرهم، وأتاه بأن أهل تنبكت يهربون، ويرجع أهل بير إلى ير، وبعضهم إلى فطط وتيشت، ويرجع كل قوم هاربين إلى أرض أصله. وأمر مرسوله: أي وقت وصل إلى تنبكت أن ينادي صارخاً بهم أن السلطان شي قال:

من كان في طاعته فلا يبيتنّ هذه الليلة إلا في هوكي وراء البحر، ومن تخلف فليذبحه. فجاء الرسول وقت الزوال وضرب الطبل الذي أتى به واجتمع إليه الناس، فقال أن: السلطان يأمركم بأن ترحلوا أجمعين إلى هوكي راحلين. وأخرج سيفاً في كمه وقال: هذا سيفه. قال: من بات في البلد هذه الليلة فأذبحه بسيفه هذا. قال الراوي عن شيخه محمد باب بن يوسف.

فما كان إلا كلمح البصر حتى رحلوا بأجمعهم، ومنهم من لم يحمل عشاء ليلته، وبعضهم لم يأخذ فراشاً، ومنهم ماش وله خيل في داره تركه توهماً منه أن ربط السرج أمره يطول. وبات أكثر ضعفائهم ومشائخهم في أربر، وبعضهم في جنتع. وقطع قوم البحر لأن يبات في ضفته، ووصل بعضهم وما وصل وقت المغرب، حتى خلت تنبك من كل أحد. وخرج قوم وما قفلوا باب بيوتهم. ولم يبق إلا المرضى لم يجدوا حاملاً، والعمى لا قائد له.

وحسبك هذا من شره وأن من أشر الناس من اتقاه الناس. وهذا عندي كاد أن يكون غير ممكن، ولا أحسب الحجاج بن يوسف مع سفاكه للدماء وشره بالناس أن يتأتي له مثل هذا في مثل تنبكت، ونفوذ أمره.

وحين خرج قاصداً لمحاربة جن، ووصل القرية هنالك يقال لها شيطي، بشين معجمة مكسورة بعده ياء ممدودة بعده طاء مفتوحة فياء ساكنة، وسمع به كُرن أنه يريد جنكي قال كرن: هذا عار علي يأتي سلطان من أرضه لقتال سيدنا ويمر علينا ولا ندفعه. ونهض قائماً وجمع جيشاً عرمرماً وتلقى بشي ووقع عليه ليلاً. وأجابه شي وتناضلا شدة النضال إلى طلوع الشمس، وأفنوا جيش كرن وكسرهم، وفروا هاربين إلى الحجر.

ثم لما وصل بكونا أتاه تنكي كذلك وكسره. وتحزم له سُريَع وتلقاه، نزل عليه بقوم لا يحصر كثرة وفعل به ما فعل بصاحبيه. وبات سرياً، وجنكي على سرير ملكه مع هذا كله نائماً كأنه لا يبالي.

ثم خرج جنكي بمن لا يحصى ولا يعد كثرة، وتحاربا وتقاتلا ستة أشهر يتضاربون نهاراً. ثم رجع جنكي، وهو كنبر على الأصح، وبات يبني سوره ليلاً. فما أصبح حتى فاض البحر وأحاط بالبلد وحال الماء بينهما. وحصرهم شي بأربعمائة سفن لئلا يخرج خارج ولا يدخل داخل. ثم ما فارقهم إلا أن قهرهم وملكهم ودخل في سورهم ونزل في وسط دار جنكي، وأراد أن يسكن فيها فما أخرجه فيها إلا

الأفاعي والحيات والعقارب. وخرج لذلك ونزل بدار كانت عن يمين دار جنكي في قبلة الجامع الكبير، وحازها وأنزل فيها فتيانه وأمتعته بعد رجوعه. ثم ملكها أسكي محمد، وقد رأيت جدرانها بعد خرابها.

ومتى اشتد ضرر شي على المسلمين وأحاط بالدنيا والدين باسمه، وامتلأت الصدور بحمل حزنه وهمه، يئس الناس من الفرج في أمره، وقنطوا لطول دولته وظنوا أنها لا تفنى ولا تنتهي.

ووقع على رجل فقير صالح وغصب بنته، وأتاه ذلك الفقير بيته واشتكى. وحلف أن لم يخرج أمامه إلا أن يأمر باحتراقه بالنار. وخرج باكياً ورفع يده إلى السماء واستقبل القبلة وقال: اللهم يا رب أسألك يا قريب أنك ترى وتعلم وتسمع وأنت القاهر أن تسلط هذا الفاجر الفاسق الذي طال إمهالك عليه وغره استدراجك به على رجل صالح، تستجيب دعوته وتغيثه إن استغاث بك.

فأتاه في ذلك اليوم رجلان صالحان من أولاد مورهوكار جد أهل موكير، اسم أحدهما مور الصادق والآخر مور جيب، يشتكيان من ضر نزل بهما من قبيله أي من شي المذكور. فلما بصرهما أمر بهما فقبضا وثقفا بالحديد، وأمر بهما إلى جزيرة ورموهما فيها. فقال أحدهما: اللهم ارحمنا منه وأهلكه قبل أن يقوم من مقامه. وقال الآخر: ويكون موته على غير الإسلام، بل على الكفر. وشي حينئذ في بلد يقال له فن من بلد الحجر، فمات في يومه وأهلكه موت الفجاة.

فلما تحقق جنده بموته دفنوه في مكانه، ولم يشع أحد بموضع قبره، لعنة الله عليه. وارتحل الجند في غده، وما علم أحد بموته من أهل ذلك البلد.

وأتى قوم من أهل جيشه إلى مور الصادق ومور جيب في تلك الجزيرة، وأخرجوا القيود في أرجلهم وأخرجوهم من الجزيرة في غده. فسبحان المفرج عن كل مهموم المنفس عن كل محزون الذي جعل خزائنه بين الكاف والنون. إنما أمره، إذا أراد شيئاً، أن يقول: كن فيكون. هلك الأمير وفك الأسير.

وكان موته في شهر المحرم افتتاح سنة الثامن والتسعين بعد ثمانمائة من الهجرة انتهى. وفي درر الحسان في أخبار بعض ملوك السودان أن موت شي عال كان في سنة تسع وتسعين من القرن الثامن فمكث فيها سبعاً وعشرين وأربعة أشهر وخمسة عشر يوماً.

وكان معه ابنه أبو بكر الملقب بشي بار في تلك الغزو، وحين وصل الجيش

قافلاً إلى بنكي ولوا بار مكانه في اليوم الثاني من ربيع الآخر، وهذا بخلاف ما في درر الحسان، فإن فيه أن تولية شي بار كانت في زاغ، فانظره.

وسبق مولد شيخ الإسلام القاضي أبي الثناء محمود بن عمر بن محمد أقيت، رحمه الله ورضي عنه رأرضاه، سلطنة شي بسنة واحدة، لأن مولده كما ذكر سيدنا أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن الحاج أحمد في مصنفه كفاية المحتاج في معرفة ما ليس في الديباج سنة ثمان وستين وثمانمائة.

وممن مات في أيامه من العلماء الأعيان وأكابر التكرور الفقيه القاضي مودبّ قاسم جنكاس وسيدي يحيى الأندلسي التادلسي، وهو ثابت النسب، وهو سيدي يحيى بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن الثعالبي بن يحيى البكاي بن الحسن بن علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن هاشم بن قصي بن يوسف بن يوشع بن ورد بن بطال بن أحمد بن محمد بن عيسى بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه ونفعنا بحرمته. وقيل أن سيدي يحيى تولى القضاء، وقفت على ذلك بخط بعض الطلبة. وبقي الكلام على ذكر من مات في أيامه.

ثم لما ولي أبنه بار، وما أتت على ولايته أربعة أشهر حتى ظهر أمر أسكي محمد بن أبي بكر. وأعانه الله على شي بار في ليلتين من جمادي الأولى في بلد يقال له أنفع. ووفقوا هنالك وجمعوا أهل الغزو، ثم التقيا بار وأسكي محمد في اليوم الرابع وعشرين من جمادي الأخرى وهو يوم الاثنين. ودخل بينهما حرب شديد وقتال عظيم، حتى ظن الناس أن الفناء نزل بهم. ومع شي دند فار أفنب، وهو من أشجع الناس، رمى نفسه في البحر ومات فيه. ومع أسكي محمد بركي منس كور، وليس معه أحد من سلاطين التكرور وسنغي غيره، ولم يجبه أحد دعاه غيره. ونصر الله أسكي محمد الحمد لله على ذلك، فهرب شي بار إلى زاغ.

قال القاضي محمود كعت بن الحاج المتوكل كعت: ما نزل القتال بينهما قط إلا بعد ما أرسل العالم الولي الصالح محمد تل الشريف، ينسبونه إلى بني مداس، إلى شي بار يدعوه إلى الإسلام، وهو يومئذ ببلد تسمى أنفع. وأبى وامتنع وضن بملكه كما كان ذلك من عادة الملوك، وأغلظ لذلك العالم الكلام وارتكب منه أمراً عظيماً، حتى هم بقتله، وصده الله عن ذلك بقهره وغلبته. ورجع إلى أسكي محمد وبلغه الخبر من إباية شي بار وما فعل به.

وبعد ذلك أرسل أسكي محمد العالم الصالح التقي ذا المناقب والكرامات

الوعكري الأصل الفا صالح جور إلى شي بار أيضاً ثانياً، وأتاه وبلغه رسالة أمير أسكي محمد. فما ازداد إلا عتواً وإباية وامتناعاً وتجبراً، وأتى بأشد من فعلته الأولى.

وله وزراء ويومئذ تنيف على عشرة وزير، منهم بركي منس موسى، وهو شيخ كبير وله عشرة أولاد يومئذ. كل أمير بحدته له جيش، وكلهم مع شي بار إلا منس كور وحده، فإنه هرب إلى أمير أسكي محمد وبايعه. وأما درم كي سندي وترتنكي وبنكي وكركي وجنكي وغيرهم وهؤلاء المذكورون كل أمير بحدته له جيش عرمرم، وكلهم مع شي بار.

وحلف واحد من وزرائه، وهو درم كي المذكور، ليقتلن العالم الصالح جور رسول أمير أسكي، وقال: إن لم تقتل هذا العالم لا تنقطع رسله إليك، بل لا يرسل إليك رسلاً تترى. ومنعه الله من ذلك، وقال للصالح جور: ارجع إلى مرسلك، فإن رجع إلي بعد رسول منه قدمه في عنقك، وقل لمرسلك أسكي فليتجهز للقتال بيني وبينه، ما قبلت كلامه ولا أقبل.

ورجع العالم الصالح جور إلى الأمير وبلغه كلام شي بار وحاله وما رأى منه من الإباية والامتناع من الإسلام.

ولما بلغ الصالح جور الأمير أسكي ما رأى من شي بار، جمع أهل مشورته وذوي رأيه من العلماء والأكابر وأقيال جيشه وشاورهم فيما يفعل، هل يقاتل شي بار أو يرسل إليه ثالثاً. واتفقوا على أن يرسل إليه رسولاً ثالثاً يداريه ويلين له الكلام، لعل الله يهديه إلى الإسلام. فأرسلني إليه، أي أنا الفقير المحتاج الفع كعت، وذهبت إليه ووجدته ببلد أنفع وهي بقرب كاع، وبلغته رسالة أمير المؤمنين أسكي وألنت له الكلام مبلغ جهدي كما أمر أمير المؤمنين أسكي الحاج محمد، وتلطفت له رغبة في أن يهديه الله. وأبى وامتنع وتغيظ وأمر بضرب الطبل ساعتئذ، وشرع في الاستجاشة ورعد وبرق أراد تخويفي، وتمثلت في نفسي بقول الشاعر: وأنصر على أهل الصليب وعابديه اليوم أهلك.

ثم اجتمع جيشه فرقه ساعتذ كالجبال، وسطع الغبار حتى صار النهار كالليل، وأقبلوا على الصياح ويحلفون ليسيلن الدماء كالسيول.

ثم رجعت وبلغته الخبر. ثم تجهز أمير المؤمنين أسكي الجاج محمد، وأمر بضرب الطبل واستجاش جيشه عليه في ساعتئذ، وكلهم بايعوه على الموت. ثم ركب وتوجه بجيشه المنصور نحو شي بار، فالتقي الجمعان يوم الاثنين رابع وعشرين من

جمادي الأخرى. وبين إرسال أمير المؤمنين أسكي إلى شي بار وبين التقاء جيشيهما اثنان وخمسون يوماً.

ودخلت بين الجيش حرب عظيمة، وأعانه الله على شي بار، وهزم جيشه وقتلهم قتلاً ذريعاً، حتى ظن الناس أن الفناء نزل بهم وأن هذا خراب الدنيا. وكان مع شي بار دند فار أفنب، وهو من أشجع الناس، رمى نفسه يومئذ في البحر ومات فيه. وكان مع الحاج محمد منس كور المذكور ابن منس موسى، وليس معه من سلاطين التكرور وسغي غيره، ولم يجبه أحد إلى دعوته إلا هو.

ولما هزم الله جيشه هرب بنفسه إلى إير فبقي هنالك إلى أن توفي، فتملك الأسعد الأرشد يومئذ، وكان أمير المؤمنين وخليفة المسلمين، وأورث الله الوارث أسكي الحاج محمد المذكور جميع أرض شي بار وهي من كنت إلى سبردك.

ووجد في ملكه يومئذ أربعاً وعشرين قبيلة أرقّاء له لا أحرار استرقوا. وسنذكر أسماء القبائل إن شاء الله ثلاثة منه من كفار قبائل بنبر، الأولى تنسب بجركر بكر، والثانية فينسبون بتكرتب، وأما الثالثة فتنسب بكسم برم. فورثهم شي بار من أبيه شي عال، وكذلك ورثهم شي عال من شي سليمان دام، وبعضهم يقول له داند، وكذلك هو من شي بلما، وكذلك هو من شي محمد فار، وكذلك هو من شي محمد كوكي، وكذلك هو ورثهم من شي مادغ، وهو الذي تغلب على ملكي. وكان أصلهم تحت ملكي بعد ما كانوا أجداده أقوياء وملكي من تحتهم، وقواه الله مقلب ملكي وكسرهم وسبى ذراريهم وجميع أموالهم وأخذ منهم أربعاً وعشرين قبيلة.

لكن هؤلاء القبائل الثلاث من تلاد ملكي، وعادتهم مند كانوا بيد ملكي لا يتزوج أحد منهم إلا بعد أن أعطا أصهاره أربعين ألف ودع، كراهية أن تدعى المرأة الحرية أو أولادها، ورغبة في أن يكونوا مع أولادهم في ملك ملكي.

وهؤلاء القبائل الثلاثة المذكورة آنفاً من أصل واحد أبوهم اسمه بَم تاسوا، بباء ممالة فميم فتاء مفتوحتين وسين مضمومة ضمة إشمام. واسم أمهم أربَعَكَلَي، بهمزة مفتوحة فراء مسكونة فباء وعين مفتوحتين فكاف مفتوحة فلام ممالة. وهم ثلاثة رجال أشقّاء فوقعت الخصومة بينهم لأجل امرأة خطبوها جميعاً، وتباغضوا وفرقوا أنسابهم. وكان نسبهم كسم بر، واسم قريتهم ينع من أرض مل، وهي مدينة ملكي.

وغرامتهم في زمن ملكي منذ كانوا ملكاً له أربعون ذراعاً للزوج وزوجته إلى أن صاروا في أيدي سيين. وغرامتهم في أزمان سيين من أولهم إلى شي عال، وهو آخرهم

ملكاً، يجتمعون مائة أنفس مخلوطين رجالاً ونساء ويكيل لهم كيالة مائتي ذراع في الأرض، ويجتمعون مع الدفوف والمزامير ويحرثونها له ويصيحون حال الحرث ويضربون الدفوف. فإذا حصدت تلك المزارع قسمها شي بين جيشه. فإذا فسدت المزارع أغرمهم وضمنهم.

فلما ملكهم أسكي محمد جعل غرامتهم في كل عام إذا حصدوا زروعهم، يأمر رجلاً من قومه يأخذ غلاتهم فمن استطاع منهم أن يعطي عشر أفتات أخذها، ومن استطاع عشرين فتّاً أخذها، وهكذا إلى ثلاثين فتاً، فلا يجاوزها، لأنها هو الحد الذي لا يزاد فوقها، ولو استطاع صاحب الغرامة ألفاً. وكان أسكي محمد يأخذ بعض أولادهم ويجعلهم أثمان الأفراس.

وأما القبيلة الرابعة من القبائل الأربع والعشرين المذكورين هي القبيلة المسماة جَنْدِكَت، بجيم ممالة ونون مسكونة ودال مكسورة كسرة إشمام فكاف ممالة فتاء مفتوحة، ومعنى الكلمة في لغتهم قطاع الحشيش، وغرامتهم من زمن ملكي إلى أزمان سيين قطع الحشيش للأفراس، إلى أن صاروا في يد أسكي محمد وتركهم كذلك. ووجدهم لا يصلحون إلا لخدمة الأفراس أين وجدهم من كاع إلى سبردك.

وأما القبيلة الخامسة هم الزناجية، وكل زنجي من كنت إلى سبردك كذلك يأخذ غرامتهم كلما غاض البحر، يأخذ ممن استحق عشر حزمات من الحيتان اليابسات، ومن استحق تسعاً فتسع، ومن استحق سبعاً فسبع، إلى من استحق حزمة كل بقدره، لكن لا يزيد فوق العشر.

وكل من أتى إليه بحاجة من حوائج السفن أخذ منهم سفينة وملاحين ويعطيه. واتخذهم أسكي محمد واختار لخدمته وأهل بيته. ما أذن لأحد أن يخدمهم ولا أن يبيعهم إلا هو وأولاده، إلا الشريف الحسني صقل بن عال، فإنه قد أعطاه أولاد زنجي يسمى فرنطك كلهم، وهو يومئذ ألفان وسبعمائة حين قدم هذا الشريف إلى كاع ووجد أسكي محمد هنالك. ومراده من ذلك العطاء أنه من أولاد النبي صلى الله وسلم وحبه إياه، وسنذكر تفاصيل العطاء وتفرقة الزناجية بين ما لهذا الشريف وبين ما لغيره في ترجمة أسكي محمد إن شاء الله.

وأما القبيلة السادسة فاسمها أربي، وهم عبيده وحشمه وخدمه، وبناتهم يخدم من زوجاته، ويحرثون له، وأولاده وفتيانهم يحملون السلاح قدامه وخلفه في الحرب وغيرها، ويرسلهم لحوائجه الخاصة. ولا حاجة لهم غير خدمته، ولذلك لا غلة عليهم.

وأما القبيلة السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة والحادي عشر فقبائل الحدادين وهم قبيلة جم تين وجم ول وسربني وقبيلة سمشاك. وهؤلاء القبائل الخمس كلهم أبوهم واحد، وهو عبد للنصارى حداد هرب من جزائر البحر المحيط إلى كوكي مدينة السيين في زمن شي محمد فار، واسم العبد بكر. وتزوج أمة نان سلم أم شي المذكور آنفاً، واسم الأمة متبل. فولدت له خمسة أولاد ذكور: تين وهو أبو قبيلة جم تين، وول وهو أبو قبيلة جم ول، وصرني وهو أبو قبيلة سربني، وكم وهو أبو قبيلة كم، وسمشاك وهو أبو قبيلة سمشاك، وإلى أبائهم نسبوا.

وكان أبوهم المذكور ظلوماً غشوماً فاجراً مسيطراً جاهلاً جباراً عنيداً، وصار هو وأبناؤه محاربين قطاع الطرق ويقتلون ويأسرون ويغصبون الأموال. فرفع أمرهم إلى السلطان شي، فأرسل إليهم رهطاً وأمر أن يقتل الأب وأن يؤخذ أبناؤه، لأنهم عبيده وبنو أمته. فقتل الأب وجيء بالأبناء الخمسة، فرقهم في البلدان، لئلا يجتمعوا فيظلمون. وتفرع من كل بشر كثير. وغرامتهم من زمن شي إلى زمن أسكي محمد مائة رمح ومائة سهم كل عام من كل بيت.

وأما الثانية عشر فقبيلة كُرْنكُي، بكاف مضمومة فراء ممالة إلى الضم فنون مسكونة فكاف مضمومة ضمة إشمام فياء مسكونة، من كاع إلى بلد فاني، من أرض سوم يجاور بلادها لكن ليس بقريب جداً. فإنهم تفرعوا من قبيلة سمشاك أبناء بنته.

وسنذكر ما بقي من القبائل الأربع والعشرين، وهم نصف ما ذكر في تراجم كلام أسكي محمد إن شاء الله.

وهذا كله في العام المذكور، وكان سن أسكي محمد يومئذ خمسين عاماً، وسن الفا صالح جور تسعاً وأربعين عاماً، وسن محمد تل ستاً وعشرين عاماً، وأنا يومئذ ابن خمس وعشرين عاماً. وكان سن محمود بن عمر بن محمد أقيت ثمانية وعشرين عاماً.

الباب السادس

أسكي محمد

هذه ترجمة أمير المؤمنين وسلطان المسلمين أبي عبد الله أسكي محمد بن أبي بكر.

ويلقب أبوه بأرلوم، قبيلة من السلوي، وقيل من طور. وأمه كسي بنت كركي بكر. ورأينا من ساق نسب أمه إلى سبط جابر بن عبد الله الأنصاري، وفي تتبع ذلك

خروج عن الغرض.

وله من المناقب وحسن السياسة ورفق بالرعية والتلطف بالمساكين ما لا يحصى. ولا يوجد له مثل لا قبله ولا بعده. وحب العلماء والصالحين والطلبة وكثرة الصدقات وإداء الفرض والنوافل. وكان من عقلاء الناس ودهاتهم والتواضع للعلماء وبذل النفوس والأموال لهم مع القيام بمصالح المسلمين وإعانتهم على طاعة الله وعبادته. وأبطل جميع ما عليه شي من البدع والمناكر والظلم وسفك الدماء، وأقام الدين أتم قيام، وأطلق كل من ادعى الحرية من استرقاقهم، ورد كل مال غصبه شي إلى مواليهم. وجدد الدين وأقام القضاة والأئمة، جازاه الله عن الإسلام خيراً. ونصب في تنبكت قاضياً وفي بلدة جني قاضياً وفي كل بلد يستحق القاضي من بلاده قاضياً من كنت إلى سبردك.

إنه نزل في بلد كبر حين توجه إلى سور بنتنبع بجيشه، ركب برذوناً له، وحمل خديمه عل فلن سيفه أمامه بعد صلاة المغرب. ليس معه أحد غير عل فلن المذكور إلى أن أتى هذا المكان الذي يصلي أهل تنبكت فيها العيد اليوم. وقال لعل فلن: أتعرف دار القاضي محمود بن عمر؟ قال: بلى. وقال: اذهب إليه فقل له أنا هنا وحدي، فليأتين وحده. فأخذ بزمام البرذون وذهب عل فلن.

وألقا الشيخ القاضي محمود واقفاً بباب داره مع طائفة من الناس على عادته، وبلغ إليه عل فلن رسالة أسكيا محمد. وأجابه ولم يكن إلا أن دخل بيته وأخذ هرواته ومشى معه، ورد كل من أراد أن يتبعه، وذهب وحده إلى أن وجد أسكي محمد، وحياه وقبل يديه الكريمتين. وأخذ عل فلن رسن البرذون وقاده، وأمره أن ينحي عنهما، ففعل.

ثم قال له بعد التحية والسلام التامتين: أرسلت رسلي في حوائجي، أوأمرتَ بأمري في تنبكت؟ فلترد رسلي وتمنعه وإنفاذ أموري. فهل ما ملك ملكي تنبكت؟ فقال الشيخ: بلى ملكه. فقال: أليس فيه يومئذ قاض؟ قال: بلى. فقال: أنت أفضل من ذلك القاضي أم هو أفضل منك؟ قال: بل هو أفضل مني وأجل. فقال أسيكا: هل منعه قاضيه أن يتصرف في تنبكت؟ فقال: لا ما منعه. فقال أسكيا: ألم يكن الطوارقون سلاطيناً فيها؟ فقال: بلى. قال أليس فيها قاض يومئذ؟ فقال: بلى، كان ذلك. فقال أسكيا: هل أنت أفضل من ذلك القاضي أم هو أفضل؟ فقال الشيخ: بل هو أفضل مني وأجل. ثم قال له: أما ملك شي تنبكت؟ فقال الشيخ: بلى ملكه. قال: أليس فيها قاض يومئذ؟

فقال: كان. فقال: هو أتقى لله منك أو أنت أتقى وأجل منه؟ فقال: بل هو أتقى لله مني وأفضل. فقال: فهل منع هؤلاء القضاة السلاطين من أن يتصرفوا في تنبكت ويفعلون فيها ما شاؤا من أمر ونهي وأخذ وعطاء؟ فقال: ما منعوهم وما حالوا بينهم وبين مرادهم. فقال: فلِم تنهاني أنت وتكف يدي وتطرد رسلي إن أرسلتهم لقضاء حوائجي، وتضربهم وتأمر بإخراجهم في البلد؟ ما لك وذلك؟ فما سببه؟

فقال الشيخ رضي الله عنه: هل نسيت أم تناسيت يوم جئتني في داري وأخذت برجلي وثيابي فقلت: جئت أدخل في حرمتك وأستودعك نفسي أن تحول بيني وبين جهنم، وانصرني وامسك بيدي حتى لا أقع في جهنم، وأنا وديعتك. فهذا سبب طردي رسلك ورد أمرك. فقال نسيت ذلك والله، ولكن ذكرته الآن، صدقت والله جزيت خيراً وكفيت شراً. أطال الله إقامتك بيني وبين النار وغضب الجبار، فأنا أستغفر الله وأتوب إليه، وحتى الآن أنا وديعتك آخذ بذيلك فأثبت في ذلك المكان. ثبتك الله وأدفعن عن نفسي.

وقبل يد الشيخ وودع الشيخ وركب ورجع فرحاً مسروراً داعياً للشيخ بطول البقاء بأن يقبضه الله قبل موت الشيخ رحمه الله.

انظر هذا الكلام من أسكي محمد فتعلم أنه سالم الصدر مؤمن بالله ورسوله. فالعجب والعجب منهما. فسبحان من فرق بين قوم، لله درهما.

فمكث أسكي محمد في السلطنة سنتين وخمسة أشهر فتم القرن التاسع. ففي تلك السنة فتح زاغ. وأخذ منها خمسمائة بناء، فذهب بالأربع المائة إلى كاع ليتخذهم لنفسه - واسم رئيسهم يومئذ كرمغ - من آلات بنائهم. وأعطاه أخاه عمر كمزاغ المائة الباقية.

وتولى عمر كمزاغ الكنفاروية، وذلك في تلك السنة. وهو أول من تسمى بهذا الاسم، ولم يكن قبل ذلك بخلاف بلمع وبنكفرم. فإن اسميهما موجودان منذ زمن شي.

وفي هذا العام وهو عام الثاني والتسعمائة بنيت تندرمة. وأمره أسكي محمد أن يبنى لنفسه مدينة، فجعل يتفتش في الجزائر والصحارى حتى أتى تندرم، فأعجبه ذلك المكان. وكان قبل مسكن قوم بني إسرائيل، وأجداثهم وأبارهم هنالك إلى الآن. فلما رأوا آبارهم ووجدوها يومئذ ثلاثمائة وثلاثاً وثلاثين بئراً في جوانبها ووسطها. ورأوا عجيب حفرها وحالها، تعجبوا من ذلك جداً.

وحدثنا بعض أعوام عصرنا من أهل مور كير، هو مور صادق بن الفقيه مور بن الفقيه مور معمك بن الفقيه مور هوكار، أنه قال: سمع من أبيه يتحدث مع قرنه وجيله، وقال أنه سمع من جده أنه قال: هؤلاء الآبار التي حفرها أهل بني إسرائيل ما حفروها بسبب شيء إلا أنهم أغنياء جداً من المال، ولهم مزارع من السلق ويكتسبون بها، يشترونها التجار منهم بثمن كثير. وماء تلك الآبار أصلح لسلقهم من ماء البحر. ومن سقى سلقه بماء البحر لم يطلب ولم يشبه بنباته كمن سقى بالآبار، وهو سبب حفرهم لها.

ويحفر بعضهم مقدار مائة وأربعين ذراعاً، وبعضهم مقدار مائتي ذراع، وبعضهم مائة إلى ستين ذراعاً، وكل ما نقصت عن ستين فلا يصلح للسلق. وكان بلدهم حينئذ إذا أرادوا بعضهم أن يغسلوا ثيابهم يروحون بعد الزوال، ويحملون معهم عشاء ليلة، ويجدون السير حتى يغرب الشمس أو تقرب إلى الغروب. ثم يصلون إلى موضع يمكن غسل ثيابهم فيه. وبين جدار بعضهم وبين الماء كعشرين خطوة.

وفي القرية يومئذ سبعة ملوك بنو الملوك من بني إسرائيل، منهم جبروت بن هشام، وذو المين بن عبد الحكيم وزير بن سلام، وعبد اللطيف بن سليمان، ومالك بن أيوب، وفضل بن مزار، وغالب بن يوسف، كل منهم يتبعه جيش عرمرم، وكل ملك مع جنده له آبار. وكل من أخطأ وسقى سلقه من آبار غير ملك يرد حسابه للملك صاحب البئر، سواء كان حراً أو عبداً. وكل ملك له اثنا عشر ألفاً من الخيل. وأما الرجالة الذين يمشون على الرجل فلا تعد ولا تحصى.

وأما صفة حفرهم الآبار أنهم إذا حفروا بئراً وأخرجوا ترابها بنوا جوانبهم بالطين والأحجار. ثم يأتوا بحزمات الحطب كشبر ثبر ويجعلونها وسطها. ثم يأتوا بقلبات بلنغة فيصبونها فوقها. ثم يوقدون عليها ناراً، فذابت فصارت كالحديد. ثم يتركونها حتى تبرد. ثم يصبون عليها ماء ويخرجون بعض رماده، وبعض لا تخرج. وفي حفرها اتلاف الأموال الجسيم. وكان سلق هذا البلد المذكور لا مثل له في أرض التكرور. وهذا ما بلعنا.

فلما جاء عمر يريد بناها أي تندرم، وإنما سمي بهذا لاسم لأنه لم يجد أحداً هنالك حينئذ إلا سرك واحد اسمه تند، وله زوجة اسمها مرمة، ولفقت اسماهما. وسمي البلد به وهو تند ومرم.

ولما رآه عمر كمزاغ سأله: ما تجئته، وقال له ما اسمك وممن أنت؟ وأجابه وقال: اسمي تسمن، لكن أولادي هؤلاء يدعو لي بتند لسماعهم ذلك من فم أمهم،

وقبيلتي زنج تنب، جزيرة بين كاغ ودند. وأولاده يومئذ ثمانية عشر ولداً، إحدى عشر منهم أناث وسبعة منهم ذكور.

وسأله عمر أيضاً: هل زنج تنب أحرار أم عبيد؟ وقال: بل عبيد الشريف مولاي أحمد في بلد مراكش.

وقال له: كم لك هنالك من السنين؟ قال: خمس وثلاثين سنة، كل من ترى من أولادي ولدوا هنا إلا كبيرهم عيش تيسم. وقال له: هل وجدت هنا أحداً حين تنزل؟ فقال له: ما وجدت هنا حينئذ إلا عبداً شيخاً كبيراً أبيض شعره، حتى أحمر من بقايا قوم بني إسرائيل، وكنت معه هنا ثلاث سنين، ثم مات في يدي. وقال له عمر: هل سألته عن حالة هذا البلد؟ فقال: نعم سألته عن قوته واسم البلد واسمه، واسم البلد فاسمه بعك، واسم بحيرتها فت، واسم سابق. وقال لي أيضاً أمة جنية أعتقها سيدها تأتيه بما يأكل كلما جاع. وأخبرني بأشياء نسيت بعضها.

وكان تسم يعطي عمر ضيافة له حيتاناً رطبة، فمكث عمر وقومه هناك تسعة أيام يأكل من معه الحيتان حتى يشبعوا.

ثم شرعوا في ابتناء تلك المدينة. وفتشنا عن الأحوال والأعوام، فإذا ذاك العام عام ثان بعد تسع مائة، والبناؤون يومئذ مائة كاملة، واسم رئيسهم وهب بري.

وبنوا خمساً وعشرين يوماً، أتى عمر رسول أخيه أسكي محمد قبل إتمام سور داره، فأمره بالمجيء إليه. وأمر أسكي محمد بلمع محمد كري وبنكفرم علي كندانكنكي أن يأتيا تندرم ويتمان بناء سور داره. والذي يتولى تلك البناء أرميز وأخاه باركي بكر الزغراني، ابني دندفار.

ورحّل كنفار أخاه إلى كاغ واستخلفه مكانه. ثم جعل أسكي محمد يتجهز للحج وزيارة بيت الله الحرام وقبره عليه السلام وقبور أصحابه رضي الله عنهم. وقام يجمع المال والجهاز لسفر ونادى من أرضه من كل جانب ويطلب الزاد والعون. ومشى إلى الحج في شهر الصفر بعد ما حصل له ثلاثمائة ألف ذهباً الذي أخذه عند الخطيب الطيب عمر من مال شي عال الذي تحت يده. وأما الذي في داره في الحفرة والتابوت فكثير.

ومعه ثمانمائة رجل من الجندي، منهم ابنه أسكي موسى، وهك كري علي فلان، وياي كت وكار، وأقيال كري مع بركي منس كور بن موسى الذي أمّره اسكي محمد على أرض فر حين نصره الله على شي بار.

ومعه أيضاً سبعة من فقهاء بلده، منهم الفا صالح جور، ومور محمد هوكار وهو يومئذ شيخ كبير، والفا محمد تل، وكاع زكرياء المنسوب بسنفه، ومور محمد المنسوب بتنك، والقاضي محمود يندبع، وأنا معه أي محمود كعت.

وفي قصة سيره عجائب أنه تبين لنا فضله وفضل الفقيهين الفا صالح حور والفا محمد تل. وهو أنه مشى مع رفقته حتى جاء فحصاً واسعاً بين الاسكندرية ومصر، وبات هنالك مع عسكره. فلما تنصف الليل خرج الفا صالح جور وحده ليتنفل بخلوة، فإذا هو بأصوات مرتفعة، فتوجه نحو الأصوات. فلما قرب منها رآه مصابيح وحولها طلبة من الجن يقرؤون الكتاب. فطاف حولهم، وإذا هم رهط شمهروش من الجن، معهم رجعوا من الحج، وهو وسطهم وعليه تقرأ طلبة الجن. فقصد الفا صالح جور نحوه فأتاه وحياه بتحية الإسلام، وصافحه فجعل الرهط يسلمون عليه ويصافحونه.

فارتفعت لذلك أصوات فسمعها الفا محمد تل، وهو خارج لتنفل، وعرف صوت الفا صالح جور بين الأصوات، وخشي أن يكون الفا صالح جور يخاصم أحداً من رفقة أسكي محمد، فتوجه نحوهم. فلما جاءهم وجدهم رهط شمهروش الجني والفا صالح جور قريباً من شمهروش يسأله. فأتى وسلم على شمهروش وعلى رهطه، وجلس يتحدث معهم.

وبينما هم كذلك إذ خرج موسى بن الفا صالح جور، وهو غلام سداسي حينئذ. فسمع صوت أبيه، فتوجه نحو الصوت فأتاهم. فوجد أباه والفا محمد تل من بينهم أي الجن رهط شمهروش الجني، وجلس قرب أبيه. وقال شمهروش للفقيهين: فمن انتما؟ فقالا من قوم أمير المؤمنين أسكي محمد، خرج وخرجنا معه حجاجاً. فكبر جور شمهروش وقال أن: أسكي محمد رجل صالح، سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: الخلفاء اثني عشر خليفة، كلهم من قريش، وأظن أنه منهم. مضت عشرة منهم وبقي اثنان، فلعله الحادي عشر. وسيأتي آخرهم في القرن الثالث عشر. وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أني أعيش إلى تاسع القرون وأوافق الحادي عشر من الخلفاء. ثم يحكم بين الجن والإنس، وحينئذ أتوقع الموت. وقالوا له: هل رأيت النبي صلى الله عليه وسلم؟ فقال نعم، وقرأت عليه. وتبشروا بذلك.

وبينما هم كذلك إذ وقف عليهم عبد جني وقال أن: راعيكم ضرب غلامنا حتى أغمي عليه، فإنا دعوناكم إلى الشريعة. وقال الفقيه الفا صالح جور كيف ضرب غلامكم راعينا، ونحن لا نراكم؟ وقال العبد: إن الغلام تبدل حية. وقال شمهروش

أميرهم: من تبدل عن صورته فدمه هذر. ثم قاموا يودعونهم وذهبوا فرجعوا إلى رفقتهم.

وباتوا هنالك ليلتين. فمات من الرفقة رجل اسمه محمد كي أخ من سغي، وكان من قوم شي وكثير الظلم. فلما جعلوا الصف ليصلوا عليه، وكان موسى بن الفا صالح واقفاً مع القوم، وتبين لنا فضله. وهو يقرب أبيه وقال لأبيه: انظر يا أبتي إلى الملائكة يخرجون الرجل من بين أيدينا ولم يبق بين أيدينا إلا النعش الخالي. ولم ير ذلك أحد إلا هو. فجعل أبوه يقول له: اسكت يا بني. فظهر لهم أنه مكاشف منذ كان صبياً.

وفي غد ذلك اليوم تبين لنا فضل شيخنا وصحبنا رطب اللسان بالذكر الفاضل الصالح التقي الزاهد ولي الله تعالى الفقيه الأمين الفا صالح جور، وفضل الشريف الحسني الفقيه اللغوي التصريفي النحوي له حظ في معرفة الصحابة ولي الله تعالى محمد تل، وفضل أسكي محمد الإمام العادل أبي اليتامى والأرامل والمساكين والضعفاء وملجأ العلماء.

أما الذي بين لنا فضل الفا صالح جور، فلما ارتحلنا من هناك سرنا ثلاثة أيام مجدّين. فلما كان اليوم الثالث هبت ريح شديدة حارة حتى يئس من في الرفقة من الحياة إلا قوي الإيمان. ونشفت ما في القرب من الماء جميعاً، حتى لم تترك منها ولو قطرة. واشتد على القوم العطش، حتى كان أشد عليهم من الريح. ففتحوا القرب فلم يجدوا شيئاً، فزاد خوفهم.

فأمر أمير المؤمنين أسكي محمد غلاماً له يقال له فرجل أن يذهب إلى هذا العالم الفا صالح جور، وهذا كله بعد نزول العسكر من شدة الريح، وطلب منه أن يدعو الله بحرمة النبي صلى الله عليه وسلم أن يسقينا. فزجر الغلام بأشد زجر وقال: إن حرمة النبي صلى الله عليه وسلم أعظم من أن تطلب بها الحوائج الدنيوية، اطلب منا أن نطلب بحرمتنا المذنبين. فقام ساعتئذ وتوجه إلى القبلة وقال: اللهم إنا عطشنا وأنت أعلم بحالي منا، وأنت عالم الظاهر والباطن. فما تم كلامه حتى سمعنا رعداً، فمطرنا مطراً ساعتئذ. فشربنا وسقينا دوابنا واغتسلنا وغسلنا ثيابنا. وأقمنا هنا يومين، فصار الماء نهراً طوله مائة رمح.

فلما جعل الأمير أسكي محمد يقسم التمر بين أهل الرفقة كعادته، فأعطى جميع الناس، ونسي الفا محمد تل. فحزن لذلك الفا محمد تل في نفسه، ولم يبن لأحد. فجعل بعض أهل الرفقة منعه عمداً، والبعض يقول نسياناً. وبكي أهل منزل الفا محمد

تل، وبعض أغتاب أسكي محمد. وبينما الرفقة كذلك إذا هم يجعل أبيض من المشرق، عليه حمل من التمر، يشق الرفقة إلى منزل الفا محمد تل، حتى أتاه فألقى حمل التمر بين يديه، فرجع إلى حيث أتى. فقام الفا محمد تل إلى الحمل، فجعل يقسم التمر بين أهل الرفقة كما جعل أسكي محمد، فجعل الأمير أسكي قسماً. فإذا هو تمر لم ير له مثل. فجعلنا إلى الجمل ننظر حتى غاب عنا. فجاء الأمير أسكي محمد فأكب بين يديه يقبل يديه ورجليه ويتعذر إليه بالنسيان. وتبين لهم فضل هذا العالم الولي ذلك اليوم، وقال: إن نسيتني فالعبد ينسى ولكن الرب لا ينسى أحداً. ورجع في آخر الثالثة.

وله خصائص ومناقب في حجه، من ذلك أقبل عليه أهل الحرمين الشريفين، واشترى في مكة المشريفة بقعة وبناها داراً، وحبس الدار على الكعبة الشريفة. وتلقا هنالك العلماء الأجلاء والصلحاء المرضيين. وعممه شريف مكة وقدمه وولاه وألبسه العمامة الزرقاء وسماه الإمام.

وتلقى بمصر سيدي عبد الرحمن السيوطي، وأخبره بما سيكون في بلاده. قيل أنه سأل عن بلد كاغ وما يؤول إليه آخره. قيل قال: أخاف أن يكون سبب خرابه الفتن. وعن بلد تنبكت قيل قال أن: أخوَف ما أخاف عليهم أن يكون خرابه وإتلافه بالجوع. وعن بلد جن قال: خرابه وهلاك أهله الغرق، يفجأهم الماء ويغرقهم أجمعين. وله معه قصة عجيبة أيضاً وزاره سيدي العالم العلامة محمد بن عبد الكريم.

وقيل أنه سمع رجلاً من أهل مكة كان عنده شيء من شعر رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم، يأتيه التجار بألوف من الذهب يطلبون منه أن يغمس تلك الشعر الشريفة المباركة في الماء ويشربون ذلك الماء ويغسلون به. فلما أتى الرجل طلبه منه وأخرجه له وظفر بشعر منها وألقاه في فمه والتقمه، يا له من فوز ما أحرمه ونعمة ما أوفره.

وقيل لما دخل شبكة رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل معه بركي منس كور، وأمسك بمعمدة من الشبكة الشريفة وقال: يا أسكيا محمد هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. دخلت في حرمتهم، أطلب منك أشياء، الأولى أن لا تجعل بناتي في الدار إلا بالنكاح. فقال: فعلت. ثم قال: وما الثانية؟ قال: أن تقف حيث وقفتك في الأمر ولانهي. فقال: فعلت. وما الثالثة؟ قال: فلا تقتل من دخل في داري ولا من وصلني. فقال: فعلت. فقال: لا بد أن تعطيني العهد على ذلك في هذا المكان الشريف، ويكون رسول الله صلى الله عليه وسلم شاهداً على ذلك.

فقال: فعلت. وعقدوا على ذلك.

وقيل أنه كان حين حصروه أهل برك وهزموا جيشه، تبعه أولاده وهم مائة كاملة، وحاط بهم جيش سلطان برك، وحالوا بينه وبين قومه، وليس إلا هو وأولاده. نزل عن فرسه وصلى ركعتين، ثم استقبل القبلة وقال: أسألك اللهم بحرمة ذلك اليوم الذي وقفت عند رأس رسولك في شبكته وسألتك أن تجيبني عند كل شدة، أسألك اللهم أن تفرج عني وعن أولادي وأخرجنا بين هؤلاء سالمين. ثم ركب وقال لأولاده: ادخلوا أمامي حتى أخرجكم. فقالوا له: لا نفعل ذلك أبداً لأنا جمع، إن مات فينا طائفة تبقى طائفة أخرى، وأنت فينا واحد، فإن مت فلا أب يخلفك لنا. ثم جعلوه في وسطهم وافتحموا عليهم وهزموهم، وخرجوا سالمين ولم يجرح منهم أحد.

فلما خرج ولحق بجيشه قال لهم اسمعوا ولا تعجبوا مع ما فيه من العجب الذي لم يتفق لبشر قبلي وذلك أن الله أعطاني مائة من الولد، ما فيهم ولد خاسر ولا جبان، وكلهم فرسان شجعان. وقد يخلق الله رجلاً ويعيش ولا يصيب ابناً واحداً، وقد يصيب واحداً فيكون ولداً فاسداً خاسراً. وقد أعطانا الله مائة صالحين، فإني أشكر الله على ذلك.

ومن كرامات أسكي محمد أنه لما أتى بلد موشكي بعد قتلهم وإهزام جيش موشكي، وقف على شجرة هنالك التي صنمهم تحتها، وأشار إلى الصنم فإذا الشجرة انقلعت من أسفلها وسقطت بإذن الله. وسئل عما قال عند الشجرة وما فعل بها وتسبب لسقوطها، فقال: والله ما قلت إلا لا إله إلا الله محمد رسول الله، وما زدت عليه كلمة غيرها. سمعته من والدي المختار قنبل رحمه الله، يتحدث بها.

وغزي في السنة الرابعة. في تلك السنة تولى شيخنا الفقيه محمود بن عمر القضاء. وفي العام الخامسة غزى باغن فار. وفي السادية غزى تلظ في أير، وهنالك أصاب ككك، ولم يكن لهم قبل ذلك. وفي السنة السابعة مشى إلى زلن، ورجع إلى كاع.

وأمر سبعة رجال من أبنائه وهم كرمن فار عثمان ومور عثمان ساكد وعثمان كري وسليمان كتنك وبنكفرم سليمان وكلسفرم سليمان وعمر توت وفقهائهم الذي حج معهم لاستثنائه صالح جور ومحمد تل. وقال لهم: فإذا جاؤوا موضع الذي عرف بإسكين إلى موضع عرف بفا حوز لك يا صالح جور، وأنتم الشهداء. وفيه ثلاث قبيلة ملكاً له: حدادنك أغماً وقبيلة فالن وأهل بل كك وكركع وسري، وإنما أصلهم من الزنجية.

ثم قال يا محمد تل إذا وصلوا حركنس كيغر وركب في مقابله من طلوع الشمس إلى حين غربت عليك حوزلك، وفيه ثلاثة قبيلة ملكاً لك: قبيلة زنجية وقبيلة

سربني وقبيلة جم ول، لآن جم ولي وسربني أمهم عربي وأبوهم حداد ماسني. وكان الأمر كذلك وغربت عليه الشمس بحذاء أشجار دودكش، ثم رجع إليه وقصها عليه. ودعا لهم.

وما غزى في السنة الثامنة والتاسعة والعاشرة. وفي الحادية عشر مشى إلى بركك. ولم يغز في الثانية عشر. وفي الثالثة عشر نزل في كبر وتلقاه هنالك ثلاثة رجال من حفدة الشيخ مور هوكار، وهم مور الصادق ومور جيب ومور محمد الذين أخذهم شي على في زمنه كما تقم. واشتكوا إلى أسكي محمد البؤس والشدة التي تلقاهم في زمن شي عال. وأمر لهم بعشرة خدام ومائة بقرة، فرجعوا. فلما كانوا راجعين تلقوا بإخوانهم بني أبيهم حفدة مور هوكار في الطريق قادمين إلى أسكي محمد، وسألوهم عن حاله. وأخبروهم بحسن سيرته وسياسته وكرمه، وذكروا لهم ما وهبه لهم من العبيد والبقرات. فقالوا: نحن شركاؤكم في هذه العطية نقسمها على رؤوسها. وأبوا، وتخاصموا، وبلغوا في ذلك نهاية، حتى رجعوا معهم إلى أسكي محمد وأخبروه بما جرى بينهم وبين إخوانهم.

فضحك فرحاً مسروراً. ثم قال للإخوة: إنما هذه العطية ما نويت بها ذريات مور هوكار، وإنما قصدوني إخوتكم هؤلاء الثلاثة، فأعطيتهم ما قسم الله لهم، وذلك رزقهم ساقها الله لهم. ثم أمر للإخوة الآخرين أيضاً بعشرة عبيد ومائة بقرة، وقال: هذا رزقكم أنتم، ولكم عندي ذلك غرامة في كل عام ما بقيت. فأخذوها وشكروا فعله، ودعوا له بطول البقاء والتمتع بملكه.

ثم قالوا له: نريد منك أن تكتب لنا كتاب الحرمة نسير بها في البلدان نحمى بها أعراضنا، حتى لا يتعرض لنا أحد من ظلمة جندك بظلم ولا بتعدية، عتقك الله من النار. فرضي وأجاب وأمر الكاتب أن كتب، وهو يملي له ويكتب. ووقفت أنا على ذلك الكتاب، أوقفني عليه خالي القاضي إسماعيل بن الفقيه القاضي محمود كعت. وقد لحس منه الأرضة بعض أسطار أسفل رسمه، ونقب منه أشياء. ونصه:

هذا كتاب أمير المؤمنين وخليفة المسلمين السلطان العادل القائم بأمر الله أسكي الحاج محمد بن أبي بكر، أدام الله عزه ونصره وخلد البركة في عقبه. ومن وقف عليه بأيدي جملة حفدة الفقيه الزاهد الصالح مور محمد هوكار، وهم مور الصادق ومور جيب وإسحق وأنيازك ومحمد ورسماك وعلي وبلقاسم، بني الفقيه مور معمع بن مور معمك بن الفقيه مور هوكار، رحمه الله ونفعنا بعلمه ودينه آمين. ومن وقف عليه ممن

يؤمن بالله واليوم الآخر وبرسالة رسوله الصادق صلى الله عليه وسلم فليحترمهم ويوفرهم ويعرف مناقبهم وفضلهم وحرمة جدهم. ويمسك كل جائر وفاجر جوره وفجوره من جندنا وأهل جيشنا وخدمنا الجائزين وعبيدنا ورسلنا، فلا يقربهم بضيم ولا بتحقير وتصغير. ومن تعرض لهم بسوء وظلم ينتقم الله منه على كذا. ونوصي كل من تنسل منا من أولادنا وحفائدنا أن يبروا بهم ويحترموهم ويحسنوا إليهم. وقد أسقطنا جميع وظائف السلطنة وغرامته بحيث لا يطالبهم أحد بشيء حتى الضيافة. وإن تعرض بينهم ظنة أو ادعى عليهم حقاً فلا يحكم عليهم إلا أنا وحدي أو من سيخلفني في هذا المقام من أولادي. ومن ظلمهم أو أخذ منهم أدنى شيء ظلماً باطلاً من ذريتي لا بارك الله له في ملكه وفسد عليه ملكه، وختم له بخاتمة السوء بحرمة الذي وقفت به على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقمت في داخل شبكة روضته صلى الله عليه وسلم. وكذلك أبحت لهم ولذرياتهم أن يزوجوا في مملكتي كلها، من كنت إلى شبردك الذي هو الحد الحاجز بيننا وبين سلطان مل، من كل نساء أحبوها، ويكون ولدهم منها أحراراً وأمهم تابعات لهم في الحرية، إلا سرك وأربي، وأني أنهاهم وأحذرهم عن نكاحهم لأنهما مملوكان لنا. ثم من تعدى منهم فولد منها بحرمة جدهم معتوق دون أمه، فأمه لا يطالبها أحد بالرق ما دامت في عصمته، فترجع إلى ملكي بعد طلاق أو وفاة الزوج.

ويتلو هذا السطر أربعة أسطار لحست دابة الأرض كلها وما بقيت منها إلا ما لا يتأتي كتبها، ولا يمكن تلفيق بعض ذلك إلى بعضه. ويتلوه:

وقد حضر عند هذه الوثيقة الفقيه أبو بكر بن الفع علي كار بن الخطيب عمر والفك عبد الله بن محمد الأغلالي والعاقب بن محمد الشريف، وشهد به كاتبه علي بن عبد الله بن عبد الجبار اليمني، ختم الله له بخاتمة الحسنى.

ثم أمر بأن ينادي كل من حضر هنالك من أولاده: كلس فرم سليمان كند نكرى ونيفرم موسى ينبل وشاع فرم علوا وحارفرم عبد الله وكنفار علي كسل. وأحضروهم وأمر بقراءة الكتاب عليهم، فقرئ عليهم. وقالوا كلهم: سمعنا وأطعنا. ثم قال: من سمع باسم هذا الكتاب أو رآه فلم يمتثل فلا يبارك له في نفسه وفي كل ما رزقه الله من ذرياته. ثم أخذ الكتاب بيده وطواه وجعله في يد كبيرهم، وهو مور الصادق. انتهى.

وقال القاضي إسماعيل كعت كل حكم حكم به أسكي محمد ما عرفنا ما بقي منها بعد نزول محملة جودرإلا هذا الحكم وحده. وقد أبطل الكل ذريات أسكي

محمد وحفائده. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قلت وهذا الواحد الذي قال القاضي إسماعيل أنه بقي. فقد أبطلوه بعد موت أسكي محمد بنكن بن بلمع صادق، وما أبقوا له أثراً. وقد رأيت بعيني كثيراً من حفائد مور هوكار وأسباطه في سوق تنبكت يباعونهم وهم يصارخون بأنهم حفائد مور هوكار، وباعوهم.

وممن تسبب باتلافهم أهل سنغي، وذلك في أول العالم الخامس والسبعين وألف، وقد أظهروا لهم العداوة والبغضاء. والظن أن دعوة أسكي محمد كادت أن تنزل بهم أو نزلت وحافت بهم كل ذلة وتصغير، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وفي الرابعة عشر مشى إلى كمنبقوت، ورجع في أول الخامس عشر. وفي تلك السنة حج سيدنا محمود بن عمر، وولى القضاء بعده القاضي عبد الرحمن. ثم رجع ومكث في تنبكت سنتين، والقاضي عبد الرحمن يقضي وما رد القضاء للقاضي محمود الذي استنابه. والقاضي محمود ساكت ولم يتعرض له، وما استرده، إلى أن وقعت نازلة في مجلس القاضي عبد الرحمن وحكم فيها بما حكم به. وسمع بذلك الفقيه القاضي محمود وأرسل إليه ينقض ذلك الحكم لمخالفته بنص الكتاب والسنَّة والإجماع. فأبى إلا إنفاذه. وسكت الشيخ، فأبلغ الخبر بذلك إلى أسكي محمد. فأرسل رسله ليردوا الحكم للقاضي محمود ويعزلوا عبد الرحمن.

وجاء الرسول وأجمعوا علماء تنبكت وفقهاءها في جامع سيدي يحيى ونادوا القاضي بأمر أسكي، وحضر. وقال له الرسل أن أسكي يأمرك بأن تسلم الأمر للقاضي محمود، لأنك نائبه، وإذا حضر المنيب فالنائب معزول مبطول، مع أنك لا تستحق القضاء ما جام محمود بين أظهركم حياً، ولاموه بسوء أدبه لعدم تسليم القضاء إليه حين أتى، وعزلوه.

ثم أتوا القاضي محمود يأمرون بأمر أسكي بأن يرجع إلى مكانه ويتولى. وأبى وامتنع، ولحوا عليه. فلما سمع أسكي بإبايته وامتناعه أرسل إليه كبراء قومه وألزموه ذلك. ثم لم يرض إلا بعد ما غلبوه بالحجج. أقاموه عليه وتولى رحمه الله.

وفي السابع عشر أرسل علياً المسمى عل فلن وبلمع محمد كري إلى باغن فار مع قت. وفي الثامنة عشر قتل أي تنيض الكذاب الذي ادعى النبوة والرسالة لعنة الله عليه. قتله كنفار عمر كمزاغ بغير علم أسكي وأمره. خرج من تندرم إليه، ونصره الله عليه. ومع ذلك كان في كثرة ومنعة وقوة أكثر من جيش كنفار عمر، ولم يغلبه إلا

بنصر الله.

وهو سلطان فوت، ويقال فوط كنك. وكان قوياً منصوراً شجاعاً ذا بأس خارجاً. خرج عن ملك فوط وجاء إلى كنك وأقام وتسلطن هناك. وسبب خروجه أي كنفار عمر وذلك أن كياك فرن وقع بينه وبين تنيض ملك فوت أمور وخصومة، وتشاجر وحلف بأن يكسر بلده ويصيره صحراء، وكان أقوى منه قوة وخيلاً ورجالاً. فاستغاث لذلك بكنفار عمر ولذلك خرج إليه، وهذا أول ما سمعنا من القصة.

ثم أخبرني بعض العارفين بسيرهم أن سبب خروج كنفار عمر إليه أن أحد الزغرانيين من أهل سنغي كان يخرج كل سنة إلى فوت ويتجر فيها، وسمع به تنيض وأخذه وأكل ماله جوراً وظلماً وأراد قتله، وهرب إلى كرمن فار، وسعى به إليه ونم عليه عنده وقال أنه شتمه، ووقع فيه وأغضبه، ولذلك خرج إليه.

وقد بلغ أهل سنغي في الحرب وعلم القتال والشجاعة والنجدة ومعرفة المكيدة غاية ونهاية. انظر كيف خرج كرمن فار بهذا الجم العرمرم الكثيف، وقطع بها هذه المفازة البعيدة القفر في مسافة نيف وشهرين في البعد من تندرم إلى فوت، وكيف ظفر بهم وتمكن من ملكهم وقتله وغنم فيهم الأموال الجسيمة، وكل ذلك في العام الثامن عشر بعد تسعمائة. وقطع رأسه وجاء به إلى تندرم ودفنه هنالك.

وفي التاسعة عشر غزى كشن. وفي الخامسة نزل كبر في شهر رمضان. ثم رجع إلى كاع في تلك الرمضان. ولحق الخبر يوم نزل كاع بمرض أخيه كرمن فارعمر كمزاغ، وكر راجعاً خفية إلى تندرم، ودخله ليلاً. وتوفي عمر في تلك الليلة، ودفنه بداره. ومكث فيها ثلاث ليال. ويقال أنه ركب فيها يوماً وتبع بحره الصغيرة حتى انتهى إلى بحر فت. فلما رجع قال: ما أجمل هذا البلد وأحسنه، ولكن أهله لا يتفقون على أمر واحد أبداً. وقيل له في ذلك وقال: لأن بحره معوج، ومن شرب من مائه لا يثبت قوله ولا يتفق أهله. ثم رجع إلى كاع. وذهابه ورجوعه اثني عشر يوماً، ولم يفطن أحد من أهل كاع بذهابه حتى رجع.

وجعل أخاه كرمن فار يحيى، وهو المسمى ياي. وفيه أقوال: قيل أنه ابن زوجته وهو ربيبه. وقيل أنه أخوه لأمه. وقيل أنه ابن أخي أمه كسي بنت كركي بكر. ومدة سلطنة كنفار ياي المذكور تسعة أعوام.

ثم خرج إلى كاع حين سمع بخبر أسكي موسى أنه يريد عزل أبيه ويدخل حين ضعف بصره. خرج من تندرم يريد أن ينهاهم ويزجرهم عن ذلك. فجاء إلى كاع حين

سمع بخبر وتكلم لهم، فلم يسمعوا ولم يرجعوا عن عصيانهم. خرج يوماً يركب إلى وراء بلد كاع وبركب أسكي موسى وإخواه المفسدون الخاسرون الخارجون وتبعوا إثره حتى لحقوه بمكان يقال له رأس أرزر، معناه - أرِزُر بهمزة مفتوحة بعدها راء مكسورة فزاى مضمومة - مجرى الماء. وتقاتلوا هنالك وغلبوه وقتلوه.

وفي آخر هذا أعني العام الخامس والثلاثين عزل أسكي موسى أباه أسكي محمد وتسلطن - ولم يبارك الله له في سلطنته - وذلك يوم عيد الأضحى من العام الخامس والثلاثين. ومكث أسكي محمد في السلطنة أربعين سنة غير واحد، وقيل ثلاثة وأربعين سنة على الصحيح. وعاش سبعاً وتسعين سنة، ومات في أيام أسكي إسماعيل.

وترك أولاداً كثيراً أولهم أسكي موسى، ونيفرم موسى ينبل، وكري فرم مور موسى ذهب مع كرمن فار عثمان. وله أولاد ثلاث أسماؤهم عثمان: أولهم كرمن فار عثمان، ومور عثمان ساكد، وعثمان كري. وله سليمن ثلاث: سليمن كتنك، وبنكفارم سليمن، وكلس فرم سليمن كند كرية. وله عمر ثلاث: عمر كي، وعمر توت، وعمر يويع. وله بكر ثلاث: بكر كور، وبكر سين فل، وبكر كرن كرن. وله علي ثلاث: علي واي، وعل كسل، وبنكفرم عل كندانكيي. وله محمد ثلاث: مور محمد، ومحمد كنب، ومحمد كدر. وقيل بل محمد دندمي، ومحمد الطاهر، وحارفرم عبد الله، وأسكي إسحاق، وأسكي إسماعيل، ومحمود دمية، ومحمود دنمع، ومحمود بكر، وأسكي داوود، ويعقوب، وبنكفرم ومحمد بل اسمه حبيب الله، وخالد، وياس، وإبراهيم وهو شقيق لسليمان كنكاغ، وبابل فرم فعم، وغيرهم مما لا يعد كثرة. وهذا ما حضر لي الآن، وبقي أكثرهم.

ومن بناته ويزبان وويزام هاني وويز عائشة كرويز وحفصة وعائشة بنكن أم محمد كوب وعائشة كر أم بلمع محمد وأو وبنش وحاوء أدم وأمكر ومك ماسن وفراس ماننكع وكبر وصفي كر وحاو جعكي أم هنبر كي منس وددل ونانا حسن وفت جند أم عبد الرحمان وفت ونين وكر توجل والدة سيد كر.

وأما كرمن فار عمر قد ولد أولاداً كثيراً، إلا أن أكثرهم لم يصب اسماً ولا موضعاً يشتهر به، غير أنهم كلهم شجعاناً أهلي القتال. ولم يلد ملكاً إلا محمد بنكن كري فقط، وكرمن فار تمن تنفري، وقلّت أيامهم. ومن أولاده ترع فرم ألفك وهو أثبتهم وأوقرهم مروة، وبنكفرم عل زليل وجعفر ومحمد كور وباغن فار عبد الرحمان وعلوسم وسمعيل كنكر وكريع ومحمد نان كون وغيرهم، وهم جماعة.

وبناته كبر تزوج بها كنفار يعقوب ثم تزوجها أسكيا داوود بعد موت يعقوب، وكيينوا تزوجها بركي منسمع بكل وولدت له بركي عمر، ونان اسما، وماسن فلها ذريات كثيرة، وشت زعر، وبنش كر.

والأساكي كلهم أولاد السراري إلا أسكي محمد وحده، بخلاف سلاطين بر. كلهم أولاد زوجات إلا بركي منس كنت وحده وهو ابن أمة. فأم أسكي محمد الذي هو ابن زوجة، اسمها كسي بنت كركي بكر. ثم أسكي موسى اسم أمه جار كرب. ثم أسكي مر بنكن أمه من كرو. ثم أسكي إسماعيل أمه مريم داب وانكرية. ثم اسكي إسحاق أمه كلثوم برد من أهل درم. ثم داوود أمه سان فاريو. ثم أسكي الحاج أمه من كاي. ثم أسكي محمد بان أمه أمس كار. ثم إسحاق أمه فاطمة بص الزغرانية. كلهن على زعمهم سراريهم.

وأما سلاطين بر أول القائم منهم كنسر مع سكن كنكر. وأول من سكن جبر منهم حفيده منس كور بن منس موسى أمه مريم سنبن. ثم منس سلمان أمه يعزسر. ثم منس كنت أمه فرم تور. ثم منسمع بوكل أمه كرز كنت. ثم منس بكر كوك أمه فت بعد. ثم منس دبر أمه مريم كنبع. ثم منس بكر وين أمه أيش برد. ثم منس عمر أمه كيبنو. ثم منس علوا أمه ناموي، وعليه جاء جودر.

وولد في أيام أسكي محمد محمد بن محمد بن سعيد حفيد الفقيه محمود بن عمر بن محمد أقيت، وسيدي الفقيه محمد بن القاضي محمود بغيغ رحمه الله، والفقيه أبو بكر بن محمود بن عمر بن محمد أقيت، وأحمد بن الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت والد سيد أحمد بابا، والفقيه القاضي محمود بن الحاج المتولكل كعت.

وأما الفع محمد تُلِ بتاء مضمومة بعدها لام مكسورة، هو جد أهل دكر وأفقههم. وتنسب قبيلتهم لبني مداس. حج مع أسكي محمد، وكان أسكي محمد يحترمه احتراماً عظيماً ويوقره، لكنه لم يترك عقباً تعلم من العلم شيئاً. ومات في أيامه الفع صالح جور جد أهل توتل، وكذلك هو لم يترك ولداً عرف اسمه أن كتبه له.

وقيل أن أسكي محمد هو الذي وهب أم القاضي محمد للفقيه محمود رضي الله عنه، وأمره أن يتخذها سرية، ففعل. ثم أرسل أسكي محمد ألف مثاقيل للفقيه محمود، قال له: إن ولدت سريتك ذكراً فسمّه باسمي فأعطه هذا الألف، وإن كانت أنثى فاعطها خمسمائة ولك أنت خمسمائة الباقية.

الباب السابع

أسكي موسى

ثم قام أسكي موسى على أبيه وتولى الملك غصباً لضعف بصره، وذلك في مصلى عيد الأضحى يوم الأحد العاشر من ذي الحجة. ومكث فيها سنة واحدة وتسعة أشهر. ولم يتول سلطنة سنغي وأسكويته أخف وأرذل منه. فسلطنة سنغي على ما قيل أكبر منه.

ومن سفاهته أنه لما عزل والده أسكي محمد وأخرجه من دار المملكة امتنع بجواريه وسراريه أن يدخلن عليه وحبسهن عنه لنفسه. ودعى عليه أسكي محمد وقال: اللهم اكشف عورته وافضحه. واستجاب الله دعوته عليه، وركب في غده مع كافة جيشه، وحرك فرسه ليجريه، وسقط عن فرسه. وقطع حبل سراويله، وعليه أربع قمصان وانقلب القمصان إلى رأسه، وبقي عرياناً. ولم يبق في الجيش أحد لم ير عورته.

وفي السادس والثلاثين قاتل هو وإخوته بين أككن وكبر، وغلب إخوته هنالك. فقتل من أولاد عمه كرمن فار عمر أكثر من ثلاثين، وقيل خمس وثلاثون، وقيل خمس وعشرون. وهرب كرمن فار عثمان إلى تمن.

وفي سنة وثلاثين قتل في قرية منصور يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شعبان.

الباب الثامن

أسكي محمد بنكن

وتولى بعده أسكي محمد بنكن كري، اسم أمه من كرو، أول يوم من رمضان. ولا يقال له إلا مر بنكن قاطع الرحم.

فلما تولى، أمر بإجلاء عمه الأكبر أسكي محمد رحمه الله وأخرجه من بلد كاع إلى جزيرة كنكاك وأسكنه فيها. وإن أسكي موسى لما عزله تركه في كاغ ولم يخرجه منه.

وقيل لما سقط مر بنكن من بطن أمه ليلة ولادته استهل صارخاً. وسمع باستهلاله شي عال، وهو في دار مملكته وهو بقرب دارهم. وأمر ولده أن ينادي كنفار عمر وأسكي محمد. فنوديا، وأتياه. فقال: هل ولد بداركم الليلة من ولد؟ فقال أسكي محمد: بلى ولدت أمة أخي عمر ابناً الآن. فقال لهما. أخبركما فيه أن تقتلوه. فحطا

التراب على رأسهما وصبراه ليتركه. فقال لهما: اذهبا إليه وانظرا في فمه، فإنه ولد بسن. فذهبا ففتحا فمه، فإذا هي مملوة سناً. فرجعا إليه فأخبراه بذلك. فقال: إنه ولد شقي فاجر، ولكن تركته. وأنت يا مع كينا لا يضر إلا إياك، فسترى ما يصدر لك منه ولأولادك. كذا نقلت من شيخي ووالدي رحمه الله.

وكان أسكي مر بنكن كري شجاعاً بطلاً فارساً. إذا حضر القتال واشتد البأس نزل عن فرسه ويقاتل على الرجل.

وهو ممن أقام أمر سلطنة سنغي وأول من فصل ملف وند وصنع السوار لخدمه، وأول من مشى بالدفوف في السفينة. وهو الذي اخترع فترف وكبتند آلتي اللهو، وفُتُرِفُ بفاء مضمومة بعدها تاء مضمومة فراء مكسورة ففاء مضمومة يشبه البوق، وكبتند وهو كالطبل إلا أن صوت الطبل أرفع منه، وهما معروفان عندهم. ولم يكن فترف إلا لسلطان أير.

وكان أسكي محمد بنكن رجلاً حروفاً قليل الصبر. وهو أول كنفار كان أسكي وتولى بعده كنفاروية عثمان بن كنفار عمر أو ابن أسكي محمد، والله أعلم بصحة هذه الورقة وما يليها، وفيها خلاف ترتيب كرامن فوري. ووقع الشر بينهما والتقيا بين كبر والجف، وتقاتلا هنالك، وغلبه محمد بنكن. وقتل من إخوة كمفار عثمان بن محمد خمسة عشر من أولاد أسكي محمد. وقد كثر جيش سنغي في أيامه. ويروى عنه أنه قال: زدت فيها ألفاً وسبعمائة رجلاً.

ومدة إقامته في السلطنة ست سنين وشهر. وعزل في منصور القرية التي تولى فيها السلطنة وقاتل إخوته، وذلك في يوم الأربعاء ثاني يوم من شهر ذي القعدة عام الرابع والأربعين. وقيل كان قتالهم في اليوم الرابع والعشرين من شعبان، هكذا ذكره باب كور في دررالحسان.

وممن مات في أيامه من الأعلام والعلماء الكرام الفقيه العالم سيدنا الحاج أحمد الأكبر جد سيدي أحمد بابا، وهو الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت شقيق سيدنا القاضي محمود بن عمر بن محمد أقيت، وهو أسن منه، فإنه مات رحمه الله على ما قال أحمد بابا في كفاية المحتاج في السنة الثالثة والأربعين.

وفي تلك السنة يعني سنة ثلاث وأربعين قام عليه ابن عمه أسكي إسماعيل بن أسكي محمد، فتولى السلطنة خارج بلد كاغ. فلما اتصل الخبر بأسكي محمد بنكن خرج هارباً إلى تنبكت، فتبعته الخيول. ثم خرج منها ودخل تندرم، وهناك أخوه كرمن

فار عثمان شقيقه، وهو تولى الكنفاروية بعد كنفار عثمان بن أسكي محمد. فلما رآه عثمان معزولاً هارباً تبعه وهربا إلى مل مخلصاً نجيين، وسكن مدينة تعب، ومات فيه، وقبره هنالك.

الباب التاسع
أسكي إسماعيل

وولاية أسكي إسماعيل رحمه الله كان في أول يوم من ذي القعدة سنة ثلاث وأربعين بعد تسعمائة. وكان محمود السيرة وممن استحق السلطنة. أمه مريم داب ونكرية.

فلما تولى أسكوية أمر ساعتئذ بإخراج أبيه أسكي محمد المرحوم من تلك الجزيرة يعني كنكاك التي أجلاه محمد بنكن كري إليه. وفي العام الرابع والأربعين ذهب إلى دير، ثم رجع إلى كاع.

ولما أخرج أباه من تلك الجزيرة وأسكنه في بعض بيوت دار المملكة أتى بشكارة له وحل ربط فمها وأخرج منها قميصاً وشاشية خضراء وعمامة بيضاء، وأدخل القميص في عنق أسكي إسماعيل وأدخل القلنسوة الخضراء في رأسه وعممه بتلك العمامة، وأدخل في عنقه سيفاً، وقال: هذا قميص قمصني به شريف مكة المشرفة الذي هو أميرها حينئذ وأدخل هذه القلنسوة على رأسي وعممني هكذا بيده المباركة في حضرة جم غفير من قومه من أهالي مكة وغيرهم، وقلدني هذا السيف وقال: أنت أميري ونائبي وخليفتي في إقليمك وأنت أمير المؤمنين. وأنا خليفته وأميره ونائبه. وولاني وملكني. وغصب الملك مني ولدي الفاسق موسى. ثم غصبه منه محمد بنكن، وكلاهما خارجان. وقد وليتك أنا ورددت الخلافة التي قلدني بها الشريف لك، وأنت خليفة خليفة الشريف الذي هو خليفة السلطان الأعظم العثماني.

فاعلم أن هذا السيف هو الذي كان أهل سنغي يكذبون فيه ويقولون التقطه في رحبة بدر حين وصل هنالك - قيل هذا بدر الذي قاتل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم الكفار - فحرك الفرس الذي كان عليه وقال: وددت لو حضرت معه يومئذ وأكون من أنصاره وأقاتل بين يديه حتى أموت. وقالوا في افترائهم أيضاً أنهم سمعوا صوت الطبل في السماء ضرب له، والصحيح ما ذكرنا من أنه من مواهب الشريف لأسكي.

وهذا السيف هو المسمى أنكج. وفي آخر أمر هذا السيف ثلاثة أقوال: قيل

ذهب به أسكي إسحاق الزغراني حين خرج عليه أخوه محمد كاع وعزله هرب إلى بلنك جهة كرم، قتله سلطان كرم وأخذ ذلك السيف، وهذا أصح الأقاويل فيه. وقيل كان في عنق أسكي محمد كاع حين أخذ يوم تنش وسلب منه. وقيل ذهب أسكي نوح به إلى دند، والله أعلم. ولا خلاف أنه لم يبق في أيدي أساكي تنبكت اتفاقاً.

ثم استخلف بعد هروب كنفار عثمان في كنفاروية كرمن فار حماد بن أريو بنت أسكي محمد، وأبوه بلمع محمد كري. ثم عزله. وقيل قتله، ولقتله سبب يطول ذكره هنا. وبعد قتله أطلع أسكي في مكانه في كنفاروية كنفار علي كسل بن أسكي محمد.

وكان في أيام أسكي إسماعيل قحط وجوع. وكان فارمنذ يوم ينتقل ويطلع أسكوية.

وممن مات في أيامه أبوه أسكي محمد في ليلة الفطر سنة أربع وأربعين ولا نعرف له عقباً هنا اليوم، لا رجالاً ولا نساء. ومدة سلطنته سنتان وسبعة أشهر وأربع ليل. ومات يوم الثلاثاء أربع من شعبان المنير سنة ست وأربعين وتسعمائة.

الباب العاشر

أسكي إسحق

ثم تولى أسكي إسحق بعد موت أسكي إسماعيل. وهو وحارفرم عبد الله شقيقان، أمهما كلثوم برد، أصلها من درم. وحارفرم عبد الله والد بنكفرم محمد حيك.

وكان أسكي أسحق مرضياً صالحاً مباركاً كثير الصدقات ملازماً لصلاة الجماعة عاقلاً فطناً ذا دهاء.

قيل أتى يوماً إلى المسجد لصلاة العشاء الأخيرة ليلة ذات مطر وظلمة وطين، وجلس في المسجد وحده. ثم أتى المؤذن ونادى بالأذان. ثم وقد المصباح وجلس ينتظر الجماعة والإمام. ثم لم يجئ أحد حتى جاء الإمام وحده وأحيا المسجد. ثم قال له المؤذن: أيها الإمام قم فنصلي، ولعلك تنتظر مجيء أسكي إسحق، فإنه لا يخرج من مرقده في هذا المطر والظلمة والطين، وأين هو الساعة؟ على سريره المفروش عليه بأنواع الحرير. فأجابه أسكي إسحاق في جنب المسجد قائلاً: إن كان أسكي إسحاق هو المنتظر فها هو قد سبقكما، فقوما نصلي. فقاما متعجبين في خروجه وحده إلى الصلاة.

وولايته كان في يوم الأحد السادس من شعبان عام ست وأربعين. و[بقي تسع

سنين] تسعة أشهر وتسع ليال.

وفي عام طلوعه يعني ست وأربعين ذهب إلى تعب ووجد أسكي محمد بنكن هنالك حياً. ثم مات في تلك الأيام، وصلى عليه أسكي إسحاق. وفي قصة موته سبب يطول ذكره.

ويروى أنه دخل مدينة جن - حرسها الله - في ذهابه لتعب وملك فيها أياماً، فأمر يوماً بأن يحضر كل من كان في جن من العامة والخاصة في المسجد الكبير بحيث لا يتخلف منهم أحد. فحضروا أجمعون. ثم جاء هو، ومعه أعيان جيشه وكبراء أقياله، حتى امتلأ منهم الصفوف والأساطين. ثم أمر ترجمانه أن ينادي بالناس يعلمهم حالفاً بلفظه: والله ما سافرت سفري هذا إلا لإصلاح البلاد ولمصالح العباد، والآن فعلمونا بمن يؤذي المسلمين، وبمن يظلم الناس في هذا البلد. ومن علم ذلك ولم يذكره وحق نفسه فحق عباد الله في عنقه. ودخل الترجمان في الصفوف يبتبعها ويقول ذلك، والجماعة ساكتة.

وكان ممن حضر في تلك الجماعة الفقيه القاضي محمود بن أبي بكر بغيغ، وهو بقربه جالس. فلما أطال الحال عليهم فما رد أحد له جواباً، قال له الفقيه محمود المذكور: أحق ما تقول يا إسحاق؟ فقال: والله لحق. فقال: إن علمناك بذلك الظالم فماذا تفعل له؟ فقال: أفعل له ما يستحق من قتل أو ضرب أو سجن أو إجلاء أو رد ما أتلفه من المال وغرمه. فقال له الفقيه محمود بغيغ رضي الله عنه: ما عرفنا هنا أظلم منك أنت، أبو كل الظالم وسببه، ولا يغصب غاصب هنا مغصوباً إلا لك وبأمرك وبقوتك. إن كنت بقتل الظالم فابدأ بنفسك وبادر به، وهذا المال الذي يجلبه إليك من هنا وتثرى إليك. ألك، أو لك هنا عبيد يحرثون لك، أو مال يتجر به لك؟

فلما سمع بذلك تحير وتدهش وتنفس الصعداء، وبكي وندم على قوله، حتى رحمه الناس وحتى عبس وجه قومه على محمود بغيغ. وقال له أرذالهم الجهلة السفلة: أنت القائل للسلطان. هذا القول، وكادوا أن يسطوا إليه، فردهم عن ذلك، وانتهرهم. فما صدر منه إلا الإذعان والخشوع والحشمة، بل قال: صدقت والله، وأنا تائب لله وأستغفره. ثم نهض إلى منزله باكياً، والدموع تقطر وتسيل من عينيه. هكذا روينا القصة عن خالنا الفقيه القاضي محمد الأمين بن القاضي محمود كعت رحمهم الله.

ثم رجع أسكي إسحاق إلى كاع. وأدركه في الطريق نعي الخطيب أحمد ترف خطيب جن قبل وصوله لكاع، وهو الذي ألفاه أسكي إسحاق هنالك خطيباً، وقيل

الخطيب أحمد سنكمو. فأمر بتقديم القاضي محمود بغيغ، وأرسل أحمد أعيانه من جيشه ليقدمه قاضياً أحب أم كره. فأتى الرسول وجمع أهل البلد كله، سلطان جن فمن دنوه وفقهاءها. وأحضروا محمود بغيغ، وهو لا يشعر، فأخذوه وأمسكوا به وجعلوا قمصان أسكي في عنقه الذي أرسل إليه، وعمموه، وهو يصرخ ويبكي بكاء الصبي. وقدموه جبراً وقرأوا عليه كتاب أسكي، وبأمره أتوه بفرس وحملوه إلى داره.

فلما دخل بيته استقبلته زوجته أم ولده السيد الفقيه أحمد بغيغ، وقالت له: لم رضيت القضاء؟ فقال لم أرض بذلك، وإنما أجبروني بها وكلفوني. فقالت لو اخترت الموت عليك لكان أحسن منه، ولو قلت اقتلوني فلا أدخل. فقال: ما قلت ذلك. فأدبرت باكية. ثم لم تزل تبكي أياماً، رحمهما الله انتهى.

ثم دعى على أسكي إسحاق ومات في شهره. ويقول: إسحاق نفى عن عيني الكرى، وألزمني السهر، كدر الله عليه عيشه، وينزل عليه ما يشغله. فرجع الذين أرسلهم ليولوا ذلك القاضي، فوجدوه قد مات.

وأسكي إسحاق هو الذي قدم القاضي عثمان درم قاضياً في تندرم، وكلفه عليه، واستقضاه قهراً. وكان القاضي عثمان عالماً صالحاً ورعاً زاهداً عابداً ولياً مكاشفاً، حج وزار، معروفاً. وله من الكرامات والمناقب ما ظهر لمن عاصره.

ومما يوثر من ذلك حين كان في المكتب يقرأ القرآن، وأمه فقيرة لا خادم لها إلا ولدها عثمان هذا الفقيه، وهو في خدمة معيشتها من الطبخ والدق وحمل الحطب والماء. فذهب يوماً يحمل حطب القراءة ولم تجد أمه من يقوم بإصلاح عشائها في تلك الليلة، وهي عجوز عاجزة. فعمدت إلى قدح يأكل فيها ولدها عثمان، فأملأتها روزاً مقشوراً لم تدق وغطته. فلما رجع عثمان من المكتب أشارت إليه بها، فقالت: خذ قدحك فيها عشاؤك، فكل. وعندها امرأة أخرى تحدث معها. فذهب عثمان إلى القدح فأخذها، فإذا هي مملوة طعاماً مطبوخاً بأنواع الآدام واللحم والسمن الكثير. فقامت أمه إليه وأدخلت يدها في القدح، فإذا هو فيها طعام طيبة الريح تفور وتفوح، منه رائحة طيبة عمت فناء دارها. فرجعت إلى مقعدها، فعلمت أنها كرامة من الله أكرمه الله به.

وقبره وراء جامع تندرم. الدعاء عند قبره مستجاب مجرب. وهي ترياق كما قال القشيري في رسالته. ويقول البغداديون قبر معروف الكرخي ترياق مجرب.

فائدة: القبور اللواتي يستجاب الدعوات عندها قبر القاضي عثمان درم المذكور،

وهو معروف يستجاب الدعاء عندها مجرب اتفاقاً، لا يرد الدعوات عندها. رأيناه بعيني، ودعوت الله عنده بدعوات استجاب الله لي، والحمد لله وله الشكر.

وعند قبر مور محمد الكابري.

وقبر سيدي يحيى مجرب. رأيناه وسمعنا به من كثير جربوه فألفوه. وكذلك وما زال فقهاء تنبكت الذين تلقينا بهم يزورونه، كسيدي أحمد بابا والسيدين الفقيهين إبراهيم ومحمد ابني أحمد بغيغ. وأخبرني صاحبي الفقيه محمود أن هذا الموضع الذي يقف الناس عنده الآن يظنونه قبره، وهو الموضع الملصق بالمنار الذي يؤذن فيه، بل هو يقرب ذلك الباب يسيراً، وهو موقف الفقيه إبراهيم وأخيه محمد بغيغ.

وقبر سيدي الفقيه محمود بن عمر بن محمد أقيت.

كذلك وقبر الفقيه العالم محمد بغيغ ابن القاضي محمود بغيغ، جربته أنا بنفسي ورأيت الإجابة، ولله الحمد.

وقبر الفقيه عثمان الكابري المدفون بمسجد كبر. حكى لي بعض الصالحين في ذلك خبراً يطول سردها.

وقبر مور هوكار في بلد يقال له ير، قد خرب اليوم، وقل من يعرف موضع قبره الآن.

وقبر الفقيه بكر سن في داخل جامع مور كير.

وقبر الفع محمد تل في حنديير مجرب. وربما يأتيه صاحب البرص والجذام، فيشفعه الله فيه فيبرأ. رأيت ذلك مراراً.

وقبر مور مان باكو في قرية مسماة تاوتلة في أرض بر، وهي معروف معلوم، وعليه علامة يعرف به.

وعند قبر الحاج كسربير في بلد كوك الونكري الأصل رحمه الله. بنا الكاهية الدلول سوراً على قبره.

وقبر فوديك محمد سان في بلد جن، المدفون في قبلة مسجده الكبير بوراء منبره.

وعند قبر الفقيه إبراهيم في بلد يقال له كوم معروف. وعنده دخل الكاهية محمد الهندي، وهو يومئذ عامل في بنك.

وقبر الفقيه سنب تنين المدفون في جوكل.

وغير ذلك ممن لا يعرف ولا يسمع به، ولله خلصان. وإنما أتينا منهم ما عرفنا

وما سمعنا من الثقات.

ويلقب أسكي إسحاق يقال له إسحاق كدبن، وكدبن في اسطلاح وعكري الحجر لأسود.

وممن مات في أيامه من العلماء الأعلام الشيخ الفقيه محمود بن عمر بن محمد أقيت - رحمه الله - ستة عشر ليلة من رمضان ليلة الجمعة. وقال صاحب درر الحسان أنه توفي في اليوم الخامس عشر من رمضان ليلة الجمعة. وعمره ثمانية وثمانون.

وتوفي أخوه الأكبر الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت ليل الجمعة غرة الربيع الآخر عام اثنين وأربعين وتسعمائة في الطاعون المسمى كف. هكذا في درر الحسان، ووافق بما ذكره العلامة أبو العباس أحمد بابا في كفاية المحتاج أن القاضي محمود بن عمر مات ليلة الجمعة سادس عشر من شهر رمضان، وأنه ولد سنة ثمان وستين وثمانمائة. ومات في هذا الطاعون خلق كثير. وتولى القضاء بعد الفع محمود بن عمر ولده القاضي محمد بن محمود يوم الجمعة الخامس عشر شوال.

وفي أول السادس والخمسين مات أسكي إسحاق. ومكث في السلطنة تسع سنين وتسعة أشهر وتسع ليال في بلد كيكي، وهنالك قبره. ولد له من الأولاد تنك سلمن وعبد الملك الذي جعله ولي العهد، ولم يرض أهل سنغي إلا أسكي داوود.

الباب الحادي عشر

أسكي داوود

وولي السلطنة بعده أخوه أسكي داوود بن أسكي محمد في الثاني والعشرين من صفر عام خمس وخمسين. ومكث في السلطنة أربعاً وثلاثين وأربعة أشهر.

ساعدته الدنيا، فنال ما شاء من دولة ورئاسة، وحصل له الدنيا عريضة. وقد تعب أبوه أسكي محمد وإخوته فزرعوا له، فجاء فحصد. ومهدوا الأرض، وأتى فنام عليه. وليس في إقليم تكرور من مل إلى لعلع من يرفع يده، ووجدهم يوم يطلع عبيداً طائعين سامعين. ولا من يقابل جند سنغي إلا كرمن فقط.

وروى أحمد بن إبراهيم بن يعقوب رحمه الله أن أسكي محمد كان إذا مر عليه أسكي داوود في صباح عبس وبهت وينظر فيه ويتأوه. فقال بعض خدامه: ولدك داوود كأنك لم تلده، ولا تحبه كما تحب جميع أولادك. فقال: كيف لا يحب الرجل ولده؟ وقد رأيت فيه أنه سيلي السلطنة، ويطول عمره، ويزرقه الله فيها أولاداً كثيراً. ومتى

ارتفع وتسلطن غلب على جميع أولادي وحفائدي وذرياتي كلها، ويمحي أسماءهم ولا يذكر منهم أحد سواه وأولاده. ويكون أولادي وأولادهم لهم تبعاً إلى منتهاهم. فقال له صاحبه: من علمك بهذه الحكمة؟ فقال: أتعجب من هذه؟ ولو شئت لأخبرتك بما بعد ذلك من هذا اليوم إلى يوم تنس. قال: وما يوم تنس؟ فقال: يوم ينتقم الله منهم، ويرغم الله أنف المتكبرين منهم. انتهى.

واسم أم أسكي داوود بنكانو فاري. وكان أسكي داوود سلطاناً مهيباً فصيحاً خليقاً للرئاسة كريماً جواداً مبسوطاً فرحاً ذا مزاح، وسع الله عليه في دنياه. وهو أول من اتخذ خزائن المال حتى خزائن الكتب. وله نساخ ينسخون له كتباً، وربما يهادي به العلماء. وأخبرنا كسردنك دك بن بكر فط أنه حافظ للقرأن، قرأ الرسالة فأتمنها، وله شيخ، يعلمها ويأتيه الشيخ بعد الزوال ويقرئه إلى الظهر.

وكان ما يأتيه من مزارعه وأحراثه من الطعام ما لا يعد ولا يحصى. وله في كل أرض من طاعته - من إرية ودند وكلن وكري حوص وكري كرم وما حواليها إلى كيكي وإلى كاع إلى كيس وجزائر بنب وينك وأترم إلى كنك وبوي إلى أن ينتهي مرسى دب - من الأخراث. وقد يحصل له من ذلك من الطعام في بعض السنين ما ينيف على الأربعة آلاف صنية.

وليس في قرية من قرى ما ذكرناه إلا وله فيه عبيد وفنف. وحرث في تحت يد بعض الفنافي منهم مائة عبد، وعبد بعضهم خمسون وستون وأربعون وعشرون. والفنافي جمع فنف وهو رئيس العبيد، ويقال ذلك أيضا لرئيس السفينة.

وحكى لي من أثق به أن له حرثاً في أرض دند يقال له أبدا، وله على ذلك الحرث مائة عبد وأربع من الفنافي. ولهم رئيس يفقون عليه، اسمه مسكل الله، ومعناه، مس كل الله، كل أمر كان ويكون من كل ماهو كائن في الدنيا والآخرة، الله هو مقدره ومكونه سبحانه لا إله إلا هو. ويحصد له من هذه المزرعة ألف صنون من الأرز. وهذا عليه مقطوع لا يزيد ولا ينقص.

وكان بذره لا يخرج إلا من عند أسكي في العادة، وجولد صنونه والسفن التي يحملها إلى أسكي عشر قوارب. ويرسل أسكي لرئيسهم مع الرسول الذي يأتي منه لحمل صنونه ألف كورية والكملية الواحدة من الملح والقميص الأسود والملحفة الأسود لزوجة ذلك الرئيس. وهذا عادته مع أسكي، حتى أتى رسل الفنافي يوماً إلى رئيسهم مس كل الله يعلمونه بوصول وقت حصاد حرثهم وطيبه، وهم لا يدخلون اليد

في قطعة حتى يأتي وينظرها ويدورفيها ثلاثة أيام، ويطوف في جوانبه الأربع، ثم يرجع إلى مكانه ويأمرهم بالحصاد.

وأتاه رسلهم في بعض سنين يعلمون ببلوغ حصاده وطيب حبوبه، وخرج على عادته في سفينته مع دفوفه وجماعته إلى أن أتى المزرعة وألفاها قد طاب، وطاف فيها نحو ثلاثة أيام ثم أتى بلداً يقرب ذاك الحرث اسمها دنك دمد، وترسي في مرساه. ثم بعث إلى إمام البلد وطلبته وضعفائه وأرملته، وجاؤوا كلهم. وقال لهم: من يستحق هذا الحرث وما فيه؟ وقالوا له: فمن يستحقه غير مولاه يعني أسكي؟ قال: أنا الذي استحقه في هذا العام لنفسي، وأنا أتصدق به وأجعله في آخرتي وأقرب به إلى الله، وهو لكم صدقة مني لله، فاقطعوه واحصدوه، وللضعفاء والمساكين منكن الذين لا يجدون سفيناً أن يقطعوا ما يقف فيه القدم، ولأصحاب السفن الصغائب ما فوق ذلك مما يلي وسط الحرث، ولأصحاب السفن الكبار وسط الحرث. تقبل الله ذلك مني. ورجع إلى بلده وأعطى لكل واحد من الفنافي من عند نفسه مزرعة يتعشون فيها.

فبلغ خبر ما فعل في تلك المزرعة إلى بلد كاع وفشا. وجاء يعمد كرن كرن خديم أسكي ومؤنسه وقت عشائهم في نادي قومه وقال: جاءني رجل اليوم وأخبرني بأن مس كل الله عبدك قد أصابه الجنون وتوسوس وجن. فقال أسكي: فما ذا فعل؟ فقال يجب قتله به إن لم يكن مجنوناً. قال فما هو؟ قال: أتى إلى حرثك أبدا وأعطاه لأهل دنك دمد وقسمها بينهم، فقال أنه جعله لآخرته، وأسلط أهل البلد عليه، ونزلوا فيه وحصدوه، وما أبقوا فيه لا قبضة ولا قبصة ولا حفنة.

وقال جلساؤه: وهل العقوبة إلا على أهل دنك دمد؟ وبقوا يخوضون فيه بأقاويل، ومنهم من يقول ما جن، ومنهم من يقول بجنونه، وأسكي جالس ساكت. ثم قال: وأنا أقول ما فعل شيئاً ضرني قليلاً إلا ما أجدني من الغيرة بأن هذا العبد بمنزله وفقره وحقارته يتصدق بمزرعة تخرج منها ألف صنية، فما ذا أتصدق به أنا؟ وما طلب من ذلك إلا اسماً ممدوحاً ينفرد به بين جماعته.

ثم سكت ملياً. ثم نادى برجل من خدمه وحشمه كان في ذلك المجلس، ونهض الرجل قائماً. وقال: اذهب إلى المرسى فيعطيك كيمكي عشر سفن وألفاً من جلود صنون، واذهب الآن في هذه الليلة إلى مس كل الله، فيملي لك هذه الصنيات. وأمر بإخراج الكملية الملح وألف كورية والقميص الأسود والقلنسوة الحمراء وملحفة سوداء التي هي عادته عليه. وقال: إن أكمل لك عدد الصنيات كاملات وأفيات فادفع

إليه هؤلاء الهدايا. ثم أخرج كلبين من الحديد وسلسلة، وقال: إن لم يكمل هذا العدد أو نقص واحد منها فتقبضه واجعل هذه السلسلة في عنقه والقيود في رجليه وأتنا به مع جميع ما ملك. وإن أعطاك ما تسأل منه فلا سبيل لك عليه ولا تقل له شيئاً، وما كان عليه إلا ألف صنون ولا نعرف منه إلا صنياتنا، ولو كان من أي حرث، وإن بشراء. وسيّره في تلك الليلة، وذهب.

ثم قال ما أراد مس كل الله إلا أن يعلو اسمه عن اسمنا، وأنا لا نعطي ألف صنية مرة واحدة، فكيف عبدنا يفاق علينا في الجود والكرم؟ وقال جلساؤه: حاشى وهو بنفسه لا يساوي قطرة من بحر جودك وكرمك، وإن شئت تتكرم به وبجميع ما له من المال. وشرعوا في مثل هذا الكلام، وتفننوا فيه حتى أسكنوه، وسكت.

وذهب الرسول إليه، وسبق الخبر عنده بأن جاءه رجل ووجده في مجلسه سلطاناً بين وسادته مضطجعاً يسمرون عنده. وأدخل ذلك الرجل فمه في أذنه والتقم أذنه، وأخبره بأن رسول أسكي يأتيه بالقيود والسلاسل يأخذونه، وسارّه بذلك. ونهض جالساً يرفع صوته قائلاً: وما دخلت له في الفتنة وما خالفته قط، فكيف؟ ثم قال: لا أمانة بين العبد وسيده.

ثم أمر في تلك الساعة بإحضار سفينة وسبعة من القدافين، وقام حينئذ مسرعاً. ومشى بحاله، ولم يدخل داره، وركب سفينته وتوجه إلى كاع. ومر بسفن أسكي في تلك الليلة قادمين، وحاد عنهم ومر ولم يعرفوه. ومكث ليلتين وقدم كاع. وكان له هنالك بيت كبيرة وزوجة. وبات في المرسى وما صعد إليها. فلما أصبح بكر قبل طلوع الشمس إلى بيت أسكي، فتلقاه البواب وأدخله وأجلسه حتى استيقظ أسكي.

ودخل المبكرون الذي يفطرون عند وقت الصبوح وشاوره البواب على المشاور، وأتاه المشاور ووقف عليه وحياه. وسلم عليه وتحاوروا. ثم دخل على أسكي وعلمه به. وسكت طويلاً. ثم قال له بعض من له عنده حظ ألا تستأذن له في الدخول فيدخل فنراه هل هو كما قيل أنه مجنون فنرى وجهه ونسمع كلامه هل يشبه كلامه كلام المجنون فأذن له في الدخول حينئذ فدخل وحمل التراب على رأسه على عادتهم المألوفة فقال له أسكي: ما جاء بك أما تلقيت برسولي المبعوث إليك بقواربي لحمل صنياتي؟ فقال لقيت بهم البارحة فأخفيت نفسي عنهم لأني سمعت أنك أرسلتهم ليقبضوني ولذلك فررت إليك، إذ ليس لي مفر منك إلا إليك، ولم أعلم عملي وفعلي. وقال له أسكي: كيد النفي، لأن "إن" حرف نفي وما حرف نفي كذلك.

إن ما عملت شيئاً، وأنا ما بعثته لقبضك ولا لتقييدك إلا إذا أنقصت من صنيات شيئاً، فإذاً يقبضوك ويقيدوك. فقال: فكيف يمكن أن ينقص من صنياتك شيء، وأنا حي؟ وهذا لا يكون أبداً. ثم قال: فلا سبب لقبضي ولا لقيدي إلا لهذا فقط؟ فقال: فليس سواه.

فحضحك ورفع التراب. ثم تولى خارجاً كأنه يريد الخروج لداره الكائنة هنالك. ثم رجع مسرعاً وحمل التراب على رأسه، فقال: إني أطلب منك إحدى الأمرين بحرمة أبيك وحرمة قدمه التي وقف بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة المشرفة. فقال له أسكي: وما هما؟ فقال أريد منك أن تصبر لي عشرة أيام حتى استريح عند زوجتي الكائنة هنا، فقد طال عهدي بها منذ عام الأول ما جئت إليها. أو تأخذ مني أرز عام الأول الذي قبل هذا العام، يعني الأرز القديمة. فقال أسكي ألف صنون من أرز عام الأول؟ فقد تبين جنونك، وأنا الذي أملكك لا أجد في داري مائة صنية من أرز عام الأول. ثم قال: قبلت ورضيت، وأين كانت؟ فقال: في داري التي كانت هنا موجودة، فيبكر رسلك إلي بجلود صنون غداً. وشك فيه بعضهم وأبعدوا أن يكون ذلك موجودة له. فقال أسكي أليس قال يأتي رسول غداً، فالغد قريب، إن لم يكذب هو فالغد لا يكذب. ثم ذهب ومشى إلى داره وبات.

فما استيقظ من نومه إلا ورسول أسكي عبد الخصي، ومعه خمسون عبداً يحملون جلود الصنون معه. وقام من نومه وتوضأ وصلى وأمر لهم بالدخول. وأمر لهم بالفطور، ففطروا. ودخل عليه جماعة من أصحابه وغيرهم من المرجفين. ثم أمر مس كل الله بعبده الكبير الكائن بباب دار هنالك، فنودي، فأتى. فقال له: اذهب مع عبيد أسكي هؤلاء فاكسر بع التي كانت في المكان الفلاني وعمّر هؤلاء أصنّاً كور.

فذهب وذهب العبيد والخصي معهم إلى تلك المكان في طرف بيته، فكسرها، فإذا هي ملأء بأرز تسمى زيفت، وعمر منها سبعمائة صنية، وفرغ ما فيها. ورجع العبد إليه وأخبره بفراغ ما في تلك بع وبما حصل فيها من سبعمائة صنية. فقال: ارجع فانظر في المكان الفلاني، فكان سماه له، في طرف البيت أيضاً، فإن فيه بع، فاكسرها وعمر منها البواقي.

وذهب. ثم رجع وعمر منها ثلاثمائة، وبقيت منها شيء. فقال له: ادخل في البلد واطلب جلود الصنون المبيعات. فذهب واشترى مائتين جلود صنون وثلاثين، وعمرها، وأتاه وأخبره. فقال له: ادفع لرسول أسكي مائة، واعط لمراسيله عشرين، واترك المائة الباقية هنالك، واتنا بالعشرة. فأتاه بها، فقسمها بين الجالسين هنالك عنده

وبين الفقراء والمساكين. ثم قال: صدقة تصدقت بها جعلها الله بين أسكي داوود وبين كل شر، ويريه الله تعالى عام المقبل.

فقال الراوي يرويه عن أبي أمه بكر علي دنتور، قال أنه حاضر عند مس كل الله حينئذ وحلف بالله أنه - أي مس كل الله - ما وقف في مكان عمارة تلك الصنيات. ثم حلف بكر بن علي دنتور المذكور أنه ما من أحد من العبيد الخمسين الذين حملوا جلود الصنون إليه لم يخرج إلا بنحو مائة مد على التقدير أو الستين أو السبعين، بل منهم من أصاب نصف صنية. ومروا عليه به، وما التفت على أحد منهم، ولا بحث عن أحد. ورجع مرسول أسكي الذي هو ذاك الخصي بعد فراغهم من شغلهم، وأخبره بما جرى من حصول الصنيات وأفيات كاملات بعد صلاة العصر.

ووجدوه في جماعته، وتعجبوا منه كلهم. ثم قال أسكي: ألم أقل لكم إن هذا العبد قد شبع حتى لا يشبه نفسه إلا بنا أو بأولادنا؟ وهذا الذي فعل الآن أعجب من تصدقه بالحرث الذي يخرج منه ألف صنية. وقالت الجماعة له: هذا كله ما كانت منه إلا بسعدك وصنيعته، هذه زيادة في اسمك. وقال بعضهم: العبيد كلهم سواء، لا يعظم أحد منهم إلا من عظمة سيده، وهو ورزقه رزق سيده. وإذا افتخر ملك من أشباهك أو افتخر سلطان كرم أو أير أو كنت أن عبد ملكهم قد يعطي كذا وكذا، فيقال لهم عبد أسكي أعطى الفقراء ألف صنية. وتبسم أسكي حينئذ من قوله، وعرف البشر في وجهه. قالوا: فأين عطاؤك من عطاء عبدك وشتان ما بين التريا والثرى، وهيهات ما بينهما.

وما تم كلامهم ولم يخرج أحد من الجلساء في ناديه حتى دخل رجل من خدم أسكي عليه ملف وند محزم، وفي يده اليمنى سوار فضة. وقد بعثه أسكي قبل ذلك إلى بلد من بلاد دند. وجاء ووقف قدام أسكي، وجثا على ركبته وحمل التراب على رأسه على عادتهم في تحية سلطانهم، وحياه تحية العبد سيده.

فقال أسكي داوود له: من أنت؟ فقال: أنا كارشع بكر. فقال: أنت من جندي ومن عبيدي؟ قال: نعم. قال: من أين جئت؟ فقال العبد: سبحان الله أنسيت أو غفلت؟ فقال: والله أنت الآن في عيني كأني ما رأيتك أبداً. أنت من كارشع يبرع أو من كارشع كتع؟ فقال: من كارشع يبرع، وأنا أكون مع لفلان سماه. فقال: أسكي من أي بلد جئت؟ قال: من دند، ألست أنت بعثتني؟ فقال: إلى من وفي أي شيء؟ فقال العبد: بعثتني لحمل ميراث خديمك زنك موسى سقنسار. وقال: هل مات موسى سقنسار؟ وقال له جلساؤه: غفلت، قد مات وأتاك نعيه منذ شهر الفلاني، وموته إلى هذا اليوم يبلغ أربعة

أشهر ونيف.

ثم سكت ملياً والعبد واقف قدامه. ثم سأله ما الذي رأيت من ماله؟ هل ترك مالاً؟ فقال الرسول: هكذا. وقال له: وما ذاك؟ فأراد العبد أن يدور إلى خلفه ويسارّه ليناجيه بما وجد له من المال وما أتى به الآن من تركته وما بقي هنالك. فقال: ما تريد؟ قال: أريد أن أذكر لك عدد المال. فقال: لِمَ لا تذكره في الناس جهراً؟ هل سرقنا؟ قل ذلك يسمعه الناس أو تخرج.

فقال وجدت له خمسمائة عبد بين العبد والأمة، وطعام تركه في بعوات أربعة عشر يكون فيها على التقدير ألف وخمسمائة صنية، وسبع سراحين البقر وثلاثين سراحاً من الغنم، ولباسه، وفرسه وهن خمسة عشر فرساً منها سبع خيول أحرار والبواقي من البراذين، وسروجها وغير ذلك من أمتعة بيته وسلاحه وترسه، وثلاثين من بول معمرات بحريش. وقال أسكي داوود: رحم الله موسى مقنسار وأسبابه، وما يصيب من حرمتنا أكثر من تركته كلها.

ثم سأل الرسول عن العبيد أين كانوا. فقال: أدخلتهم داري وتركتهم هنالك، وداري لا يحملهم. فقال: اذهب فاتنا بهم. فذهب فأتى بهم أجمعين، حتى أوقفهم بين يديه. وجاءت معهم أمة كبيرة عجوز عرجاء بيدها هراوة أملس الرأس صلعاء رأسها. فقال أسكي: ما هذه العجوز؟ فقال: هي من جملة الإماء. فقال ما فائدتها؟ وقد ظلمتها وأخرجتها من وطنها باطلاً، ولا حاجة بمثل هذه.

فقامت العجوز وقالت تمل تمل تمل، حفظك الله وأصلح لك دنياك وآخرتك وهنّأك بملكك. إن رسولك هذا ما جاء بي بالقهر وما ساقني، وإنما جئت لحاجة لي قصدتك بها وتشفعت إليك فيها برسول الله صلّى الله عليه وسلم وبقدم أبيك أسكي محمد التي وقف بها في الروضة الشريفة. فقال أسكي لتلك العجوز: قولي حاجتك وما هي. قالت الأمة: اعلم أيها الملك بأني أمة زنك موسى سقنسار، وأنا ظئره، وأمي رضعت أباه، وملكني أبوه، وملك جده جدي. ولي من هؤلاء العبيد من الأولاد والحفائد والأسباط سبعة وعشرون. ولذلك طلبت بالله منك، أن كنت تبيعهم فبعهم لواحد، وإن كنت تعطيهم فاعطهم لواحد، لا تفرق بينهم.

فسكت متفكراً. ثم قال للعجوز: يا أمي أين أولادك، أخرجيهم وميزي بينهم وبين هؤلاء العبيد. فدخلت العجوز بينهم وأخرجت أولادها وحفائدها وجاءت بهم، فإذا هم أحسن العبيد وأجملهم وجهاً وقداً، ومنهم من يزيد ثمنه على خمسين، ومنهم

من يساوي سبعين وثمانين. وقال لها أسكي: اذهبي بأولادك، فقد حررتهم وتركتهم وعتقتهم لله الذي أعطاني خمسمائة عبد في ساعة واحدة ولم أتجر وما سافرت وما قاتلت مع أحد في تحصيلهم. وحملت العجوز التراب على رأسها، وشكرت سعيه وأطالت له في الدعاء، ودعا له الجالسون.

ثم قالت أريد منك أن تكتب لهم الوثيقة بشهادة هؤلاء الجلساء الصالحين خوف دوران الزمان وانقلاب الأحوال وتغير الأمور. وقال: يا أمي كل من يكتب الوثيقة لمعتوقه لا يكتبها إلا لخوفي، وإني لا أخاف أن يشتري أحد من السودان على موالي. ومن هو؟

فما زالوا في محاورتهم حتى دخل تاجر في كاع يسمى عبد الواسع المسراتي، سمع بإتيان العبيد له. فوجدهم وقوفاً، ودخل وسلم، فقال: يا أسكي هؤلاء الخدام هم من أرزاقي، بعهم لي وأنا أشتريهم، وهم خمسمائة بخمسة آلاف مثاقيل تبراً. فقال: والله لا أبيعهم إلا للخالق تعالى لا للمخلوق، وأشتري بهم من الله الجنة، ولي من العبيد عبد برماوي الأصل الذي هو مس كل الله، اشترى الجنة بألف صنون، فكيف أنا بذنوني الكثيرة؟ فسيأتي رزقك غير هؤلاء إن شاء الله.

ثم التفت إلى أسكي الفع بكر الأنباري وقال له: اكتب لأولاد هذه العجوز بأني عتقتهم وقطعت عنهم حبل الرق وتركتهم لله تعالى. واستنطق الكاتب الأمة العجوز بأن تذكر أسماء أولادها. فكتبه الكاتب ساعتئذ في تلك المجلس بشهادته وشهادات من حضر هنالك من المعتبرين.

ثم أقام أنساناً من أناسه وأمره بأن ينادي له من حضر في البلد من أولاده، فيأتون قبل أن يقوم من مقامه. وذهب ونادى الحاج محمد بان وياس وإسحاق ومحمد سرك وونيفرم دك بركم ولنتن فرم بكر، وأتى بهم وحيوه تحية الولد والده وتحية الخديم مخدومه. وقال لهم: انظروا يا أولادي إلى هذه الشرذمة القليلة أخرجتهم من هؤلاء الجماعة الكثيفة الذين أعطانيهم الله فضلاً منه مجاناً، وما اشتريتهم وما أصبتهم بالقتال، ولذلك أخرجتهم من هذه الطائفة، وهم سبعة وعشرون، أعطيتهم لله ورددتهم له تعالى شكراً له على ما أنعم. فانظروا بأن الشيخ الكبير كمثلي يقول في ظنه أنه ميت، وأن موته يكون قبل ممات الأولاد. فالله تعالى يقدم من شاء ويؤخر من يشاء. وقد عتقتهم، فمن ردهم في الملكية بعدي أو ظلمهم بأدنى شيء أو سقى لهم ماء غصباً، فالله حسيبه والمنتقم منه يوم الوقوف بين يديه، ولا يبارك الله له في حياته وعمره.

فأجابه كبيرهم، وهو فار منذ، فقال: تمل تمل تمل، أطال الله عمرك. إن شئت فاتركهم أجمعين لله ولا لك ولد يبطل أفعالك، ولا من يهتك حرمتك. حاشى وكلا، بل نحمد الله بك ونشكره أن الولد يطيل بنيان والده ويشيد أركان جدران بيته. وها هو سليمان أخونا الذي هو أصغرنا سناً إن قطعت سرية إلى بلد من بلاد الكفار لا يبيت عنك في هذه الليلة حتى يغنم عشرة آلاف مملوكاً أو أكثر. فقد أغنانا الله بوجودك، أطال الله بقاءك. افعل ما شئت، جزاك الله خيراً وأضاف لك ثواب ذلك.

ثم خرجوا. وبعد خروجهم نهضت العجوز قائمة فقالت: تمل تمل تمل، استودعك الله أن الناس الضعفاء لا يقومون إلا بسند يسند إليه، وأعلمك بأن سندي هو الله، ثم أنت ومن يستخلفك في هذا الدار من أولادك ويجلس مجلسك بعدك. ولا بد لي من حمل غرامة لك تذكرني بذلك، وذلك عشر رؤوس صابون في رأس كل سنة. فقال أسكي داوود وأنا كذلك أحمل لك لابتغاء عفو الله تعالى وغفرانه غرامة تأخذيه مني رأس كل سنة، وهي الكملية الواحدة والملحفة السوداء لله تعالى. وأمر لذلك في ساعته لها وأعطاها إياها، أي الكملية الملح والملحفة السوداء، فقال: هذه غرامتي تأخذيه منه في أول شهر الشتاء. وخرجت العجوز بأولادها وحفائدها وأسباطها أجمعين.

ثم التفت إلى رجل من قومه فقال له: انظر في هؤلاء العبيد، وائتني منهم بسبعة وعشرين نفساً. فأتاه بذلك. فأعطاهم أسكي الفع بكر، فقال: هؤلاء صدقة منه لك لله تعالى. ثم أخرج منهم سبعة وعشرين فقال: هؤلاء أعطيتهم للمسجد الكبير فأرسلهم مع رسوله إلى إمامه وأمره أن يستعملهم في خدمة المسجد الكبير، والنسوة منهم تنسجن حصر المسجد وفرشه، والرجال يحمل بعضهم الطين له ويقطع له الخشب. فذهب رسوله إلى الإمام.

ثم قطع منهم سبعة وعشرين وقال لرسول آخر: اذهب بهم إلى الإمام إيضاً فقل له هؤلاء صدقة منه عليه جعلتهم لآخرتي فيدعو لي الإمام بالعفو والغفران. ثم أمر بسبعة وعشرين إلى الخطيب محمد جعيت خطيب كاع، وهو قاضي البلد، وأمر من يدفعهم إلى يد الخطيب ليقسمهم بين المستحقين للصدقة، إما برؤوسهم أو بثمنهم فيبيعهم ويتصدق بثمنهم إن رأى ذلك أصوب.

ثم سبعة وعشرين أمر بهم لشريف هناك يسمى شريف علي بن أحمد. فقال: هؤلاء لله يقسمهم للشرفاء بين نفسه وبين إخوته وبناته. ثم عزم الشرفاء بإعتاقهم

أجمعين. فلما أعتقوهم أمروهم أن يذهبوا حيث شاؤوا من الأماكن، وهؤلاء المعتوقون هم الشرفاء الكاذبون الذين يقولون في أنفسهم ما ليس فيهم، وأما موضع مسكنهم ينزلون في أرض كريكرم، وبعضهم في سي فلاير، وبعضهم في قرية كومو.

ثم سبعة وعشرين فقال للخطيب نفسه، وأرسلهم إليه. ثم قطع منه مائة ونادى رجلاً من خدمه فقال له: اذهب بهؤلاء الطائفة إلى القاضي العاقب، فقل له يشتري لي الجنة من الله بهؤلاء، فيكون وكيلي في اشترائها من الله، يقسمها بين نفسه وبين أهليه وذريته وبين من يستحق شيئاً منهم. فقال الراوي هذه المائة هي أصل كل من كانت في تنبكت من المسمى كابب.

ثم لم يزل يقسمها على عدد سبع وعشرين في تلك العشية حتى ما صلى المغرب، وفي بيته واحد. فقال له وندع: جاءت الشمس وطلعت واندرس ومحي نور النجوم وذهب، وقد حمى جودك وكرمك كرم مس كل الله وجوده. وقد أظهر الله ذلك قبل غروب الشمس. وشتان ما بين الفيل والفار.

ثم نادى مرسول كارشع بكر المتقدم ذكره واسترده إلى حمل ما بقي هنالك من تركة موسى سقنسار من البقرات والأنعام والخيول والطعام. قال الراوي عن جده أبي أمه، وهو حالف بالله أن جميع ما جاه من التركة ما رفع منه مثقال ذرة، وما استأثر بشيء، بل تصدق بالجميع. وما ترك داراً في كاع فيها يتيم أو أرامل إلا أدخل فيها بقرة حلابة أو بقرتين حلابتين أو أكثر. وقطع منها لمؤذني مساجد كاع مائة بقرة وأمرهم بالطعام وفرقه بين الفقراء والمساكين إلا الخيول، قسمهم لأهل الجيش. وأعطى أخت القاضي هند الفع ألف شاة من الضأن والمعز. قالت: رحم الله أسكي داوود ومن مثله. انتهت القصة مع خصائله وكرماته الفاشية.

ومن ذلك ما رويت عن خالي يرويه عن أبيه الفع كعت، أنه أتاه في بعض السنين في كاع، وتلقاه بالترحيب وفرح به غاية الفرح، وأضافه وأنزله وأكرمه، وربما يأتيه ليلاً يسمر عنده إلى قرب ثلث الأول من الليل. قال: فنادى الفع كعت كاتبه بكر لنبار، فجاء، فقال له: أردت أن أبعثك إلى أسكي بحاجة لنا. فقال: أنا رسولك بلا شك. فقال له: قل لأسكي أني محتاج قصدناه به. فإن لي أربع بنات وخمسة بنين، ويدخل بهن أزواجهن. ونطلب منه أربع زرابي وأربع إماء وأربع كلات، وأن يعينني في جهازهن. وأما البنون أريد لهم العمامة وأريد منه كسوة العام، قميصين وعمامتين وقلنسوتين والدابتين - فرساً ورمكة عتيقة - ومزرعة وعبيدها وبذرها، وأربعين حلابة. وذكر أنه

رأى في بلد تنبكت نسخة القاموس تباع، وقد قيل فيه ثمانون مثقالاً، وأوقفتها في يد صاحبها حتى آتيك وأطلب منك خلاصها، وتكون ذلك ذخيرة لك عند الله. ومعي أربع من طلبة العلم، وقد خرق ثيابهم،ونريد منك يا أسكي الفع أن تخبره وتبلغه رسالتي.

وقال أسكي الفع: تأمر أحد تلاميذك أن يكتبها لئلا أنسى منها شيئاً. فأمر أحد طلبته، فكتب وهو يملي إليه. ورفع أسكي الفع ذلك إليه فقرأها عليه. فتبسم فقال: ومن يقدر على إعطاء هؤلاء في دفعة واحدة إلا أن يصبر. فقال له أسكي الفع: قدرك أعظم ورزقك أوسع من ما طلبه منك. فضحك فقال أن لكل قوم رئيساً يطلب رضاه، وأظن هذا الشيخ رئيسك، تريد أن تغصب مني ما ترضيه به إن رأيته. فقل له: يقضي الله الكل إن شاء الله.

وما ترك له حادة إلا أعطاه إياها في غده. وأعطاه حرثاً يقال له زنكمع في أرض يون، وعليها ثلاث عشر عبيد، وهو الذي تخاصم مع كبرفرم علوا عليه يحرثونه، له أعطاه الحرث والعبيد وفنفهم، وأعطاه بزره أربعين صنية، واشترى له تلك النسخة بثمانين مثقالاً. هكذا رواه لنا ولده رحمه الله، إلى غير ذلك من الأخلاق الحميدة والسيرة الجميلة.

فانظر حسن ملاطفته مع القاضي العاقب عند بناء المسجد الكبير في تنبكت. وقد سعى بينهما وشاة وتقولوا على لسانه ما لم يقله. وأرسل أسكي إليه أقوالاً لا ينبغي بينهما. فأجابه القاضي بأجوبة لا يصبر عليه إلا مثل داوود. فلما أتاه أسكي في سفره إلى مل وزاره في بيته، عليه البواب ورده، وأبى البواب أن يدخل عليه. ووقف أسكي على بابه على رجليه وقوفاً طويلاً، وما استأذن له في الدخول إلا بشفعة بعض علماء البلد وأكابر شيوخه. ثم أمر بفتح الباب له.

ودخل عليه متملقاً متواضعاً منذللاً، وكب على رأسه. فقبله وجلس حذاؤه مستوفزاً، وهو يتخشن. وأسكي يتكين حتى أرضاه ورضي، وتوافقا بعد إباية منه وامتناع. وفي سرد تلك القصة طول تركناه.

لذلك وعادة أسكي إذا مر على تنبكت في غزواته نزل محلته ما بين كبر إلى تعية، وبعد نزول بيوم أو يومين يصعد إلى تنبكت ببعض أكابر جيشه ومشائخ أقياله، وينزل في بلمع جند ويضرب خبايانه هنالك. ويجد يوب كي وتنبكت منذ والبربوس منذ وكيربند منذ بنوا له بيوتاً نوالاً، وينزل هنالك ساعة. ثم يركب إلى دار القاضي، ويجد القاضي قد أحضر شهوده وأعوان الشرع وخدمه، ويدخل عليه ويقوم القاضي

ويتلقاه بالباب ويصنع القاضي لهم شيئاً من المأكول والمشروب يريدون التبرك به. ويأكلون ويشربون بعد دعاء كثير على العادة. ثم يتوجه إلى المسجد الجامع الكبير، وهنالك يتلقاه علماء البلد الأجلة وأكابر الأئمة كلهم يدخلون المسجد قبل قدومه ينتظرونه. ويشيعه القاضي وشهوده ويدخلون على الفقهاء في الجامع الكبير، ومنها تكون تحيتهم وسلامه ويدعون له. ثم يخرج إلى منزله في محلته بلمع جند، وهنالك تجار تنبكت وكبراؤها، ويبيت هنالك ليلة واحدة، ويضيفه الناس تلك الليلة ويهادونه الهدايا الكثير انتهى.

فلما كان عام منازعته مع القاضي في بناء ذاك المسجد حلف للقاضي أنه والله ما ضره شيء من ذلك كله سوى أن لم يجعل له حظاً ويترك له بقعة منها يبنيها وينال ثواب ذلك من الله. ثم دخل في ذاك المسجد وأطاف فيه من أوله من جهة القبلة إلى مغربه، وينتهي بناؤه إلى هذا الرحبة الكبير الواسعة التي يصلي الناس فيه العشائين وقت الصيف. وبعده مقبرة كثيرة وقال للقاضي: ما أبقيت لي موضعاً. وقال القاضي: ابن إن شئت، سهمك على هؤلاء القبور، وكلاهما حبسان ويجوز إدخال كل واحد منهما على الآخر.

وقام أسكي على رجليه حينئذ فرحاً وخط برجله على موضعي هذين الصفين الطويلين الذين يليان مقبرة سيدي بلقاسم التواتي وأصحابه. وأقام تنبكت منذ ومن معه وأمرهم بوضع الأساس فيه، وأعطاهم ما أعطاهم من المال، دفعه بيد القاضي العاقب رحمه الله، إلى غير ذلك من انقياده للحق.

ومن ذلك ما روي أنه قدم بعض الحجاج من أهل تنبكت وحواليها في بعض السنين. وكان منهم رجل من أهل كنت، وهو من مماليك أسكي، وقد حج معهم. ونزلوا بخارج بلد كاع، وعادة الحجاج في وقت سنغي إذا قفلوا ينزلون بخارج البلد ولا يدخلون إلا بعد مشاورة أسكي واستئذانه، ويخرج أسكي لملاقاتهم ويأتيهم بالكسوات واللباس ويسألهم الدعاء ويتبرك بهم.

فلما قدم هؤلاء الحجاج المذكورون، وذلك في زمن أسكي داوود، نزلوا بخارج البلد على عادتهم المألوفة، وسمع أسكي بذلك. ثم جاءه رسولهم يبلغه رسالتهم، ووجد الفع كعت عنده. وخرج مع بعض بؤوساء البلد، وأشار للفع كعت بالخروج معه إليهم، وفعل، حتى أتوهم. ونزل أسكي مع من معه، وأتاهم الحجاج. وقام هو بنفسه إجلالاً لهم وتعظيماً وقبّل أيديهم. وأقبل الرجل الكنتوي الذي تقدم ذكر بأنه من

مماليك أسكي، وقام أسكي له وهو لا يشعر به ولا يعلم أصله، وصافحه وأراد تقبيل يده، وكان وندع واقفاً على رأس أسكي وقد كان عرف ذاك الحاج الكنتوي المذكور وعرف أصله وأبويه، وقال: اخرج يدك من يد أسكي. أتصافحه بيدك وما خرجت من قوم يقدر على هذا؟ فكيف أنت عبده؟ وما أجرأك على مصافحة السلطان! أخروجك هذا من مكة؟ وأخذ بيده ونزعها من يد أسكي، وحلف وندع على قطع يده التي أدخلها في يد أسكي.

وعظم القوم ذلك وتعجبوا من جرأته على يد أسكي بإدخال يده فيها. والفع كعت بجانب أسكي قاعد ساكت. والتفت إليه أسكي وقال: يا محمود ما تقول في هذه المسألة؟ فما جزاء من جهل قدره؟ وقال الفع كعت: إلا أن تقطع يده وهذا أولى به. فقال له أسكي: أنشدك بالله، هل يجوز قطع يده على هذا؟ فقال كيف لا؟ يجوز قطع يد من وقف عرفة وطاف الكعبة ووضعها على الحجر الأسود، ثم وضعها على الركن اليماني ورمى بها الجمرتين، ثم زار الرسول صلى الله عليه وسلم ووضعها على مقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من منبره الشريف، ثم دخل في الروضة المشرفة ووضعها على شبكته، ووضعها على قبر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ثم لم يكتف بهذه المزايا والفضائل والمحامد كلها، حتى أتاك يصافحك بها لتعطيه غرضاً قليلاً حثيثاً من أغراض الدنيا. بل حق هذه اليد أن يضنّ صاحبه بها ويحفظها من النجاسة، ولا يرضي أن يصافحك بها. فلما صافحك بها ظنناها ختمت لها بسوء الخاتم، نعوذ بالله من ذلك.

فلما أصغى داوود لكلامه نهض إلى ذاك الحاج الكنتوي والدموع تسيل وتقطر من عينه ويقول: يا ويلنا، وقد أضللنا أننا لبيس إلا تس. وقبّل يده وأعطاه مائة ألف وأمر بوندع ونزعت عمامته على رأسه، ولطموه وسجنه وعزله من مكانه ذلك. ثم قال له: تركتك بحرمة يدك وتركت في قبيلة أبيك خمسين رجلاً وخمسين رجلاً من قيبيلة أمك، وأسقطت عنهم من وظائف السلطنة. ثم قال للفع كعت: ولولا العلماء لكنّا من الهالكين. فجزاك الله عنا خيراً.

ثم رجعوا إلى البلد. فلما رجع لداره أرسل للفع كعت عشرة أثواب وخمسة عبيد، وقال: هذا جزاؤك لما دخلت بيني وبين معصية الله وغضبه، أعوذ بعزة الله وقدرته من ذلك.

ومناقب أسكي داوود وإحسانه مع طلبة العلم وحميد سيره مع الرعية أكثر من أن يؤتى ببعضه، فكيف بكله؟ وفي تتبعه طول.

ومن تلطفه وتوقيره العلماء والصالحين وصبره عليهم ما حكاه لي بعض أشياخنا ما جرى بينه وبين الفقيه أحمد بن محمد بن سعيد سبط القاضي محمود بن عمر بن محمد أقيت حين أتاه مع السيدين الفقيهين محمد بغيع وأخيه أحمد أبني القاضي محمود بغيع رحمهم الله في كاع، حين أمر أسكي داوود بأن يتولى أحدهما قضاء جن. ولح عليهما في ذلك، وتشفع فيهما الناس. وأبى وشدد في ذلك، حتى هربا ودخلا المسجد وأقاما بها شهوراً، ويأتيهم رسل أسكي كل يوم، إلى أن عفى عنهما. ثم قال: لا عفو حتى يأتياني إلى كاع ونتبرك برؤيتهما. فخرجا إليه، وخرج معهما إليه الفقيه أحمد بن محمد بن سعيد المذكور، حتى أتوه. ووافق إتيانهم إليه بيوم الجمعة. وأتاه الفقيه أحمد بن محمد بن سعيد وحده، وترك الشيخين المذكورين بالمرسى أي مرسى كاع، ودخل عليه وألقاه في مجلس الجمعة على عادته، وعبيده الخصيان واقفون على رأسه، وكانوا نحو سبعمائة، وعلى كل واحد منهم لباس الحرير. وإذا أراد أسكي أن يبصق أو يتفل أسرع إليه بعض الخصيان ويبسط له كمه ويبصق فيه. ثم يمسح فاه من النخام. ودخل الفقيه، وتلقاه بالترحيب، حتى كاد أن يقوم لملاقاته، إلا أنهم إذا جلسوا على سريرهم في ناديهم يوم الجمعة أو يوم العيد لا يقومون لأحد، ولا يجلس أحد معه على سريره. ثم أمر بإخراج الناس فأخرجوا ليخلو بذاك الشيخ. فلما انفرد به قام إليه وحمل حصير الصلاة بيده وأفرشه له وأجلسه عليه، وحمل إليه الوسادة، وقبّل يده ومسح وجهه بها.

ثم أخبره بمكان الشيخين بالمرسى، وفرح بهما وتبشر. ثم أمر أسكي الفع بكر الأنبار وهيكي أن يأتيهما هنالك. وأسرج الفرسين يقادهما إليهما ليركبوهما، وفعلوا. وسمّى لهم بيتاً ينزلون فيه.

وبقي الفقيه أحمد عنده يتحدثان. فقال له الفقيه أحمد: عجبت منك حين دخلت عليك، وما حسبتك إلا مجنوناً رذيلاً سفيهاً حين رأيتك تبصق في أكمام فمصان، والناس يحملون على رؤوسهم التراب لك. فضحك أسكي وقال: ما كنت مجنوناً، أنا بعقلي. ولكن كنت رئيس المجانين الفاسقين المتكبرين، ولذلك جعلت نفسه مجنوناً وأدخلت الجن على نفسي تخويفاً لهم لئلا يتعدون على المسلمين.

ثم أمر بطعامه، وناشد الفقيه أحمد بالله أن يأكل معه، فأجاب فأكل ثلاث لقمات، ثم أمسك. ثم أمر بخيله فسرج وبفرس آخر للفقيه أحمد ليركبه، فأبى الركوب، فمشى على رجليه معه حتى أتيا منزل الشيخين الذي أمر بإنزالهما فيه. ودخل الفقيه أحمد، ثم دخل أسكي، وكب على رأسهما يقبلهما، وحياهما بأحسن تحية

وإكرام، إلى آخر القصة مع ضيافة عظيمة وزيارتهما كل ليلة إلى رجوعهما بالمنح التي زودهما بها.

ثم انظر إحسانه وتجلته أيضاً مع الفقيه أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت جد سيدي أحمد بابا بن أحمد. من ذلك ما ذكره أحمد بابا نفسه في ترجمة والده المذكور قال: ولما مرض أي والده أحمد المذكور رحمه الله في كاع في بعض أسفاره، وكان السلطان الأعظم أسكي داوود يأتيه بليل يسمر عنده حتى برئ تعظيماً لما ذكر. وفقت على ذلك في كفاية المحتاج.

قيل قرأ عليه بعض العلماء قوله عز وجل: لن تنالوا البر حتى نتفقوا مما تحبون. وسأله عن تفسيره، ففسره له. وكان له فرس عتيق سوداء الركبة وقميص سوسي عال أزرق، وأمر بالفرس فقيد إلى مجلسه، وقال: ليس في ملكي خيل أحب إلي من هذا الفرس، وهذا النوع في الخيول أحب إلي من جميع أنواع الخيول، وكذلك القميص السوسي العال الأخضر أحب اللباس إلي. وأعطاهما القارئ المفسر انتهى.

وإن لداوود قصصاً في الإحسان وقد تركنا منها الكثير خوف التطويل والإطناب. وكان يرسل للقاضي العاقب بن محمود كل عام أربعة آلاف صنية ليقسمها على مساكين تنبكت. وأقام لمساكين تنبكت جناناً فيها ثلاثون عبداً اسمه جنان المساكين.

وكان منصوراً في غزواته، وغزى غزوات كثيرة، وانتهى إلى سور بنتنبع. ولكنه هو الذي ابتدأ ميراث الجندي، وقال إنهم عبيده. ولم يكن قبل ذلك، ولا يورث من الجند إلا فرسه وترسه وحريشه فقط لا غير. وأما أخذهم بنات جندهم وجعلهن سرية فمصيبة تقدم زمن ملكه. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وكان إذا جلس مجلسه جاء رجل كلما أراد أن يتفل مد إليه كمه فيتفل فيه. وكان إذا ركب يمشي معه رجلان يأخذ أحدهما قربوس سرجه على يمينه، والآخر على يساره. ويضع يده اليمنى على رأس الذي على يمينه واليسرى على رأس الذي بشماله. وتبعوه في ذلك أولاده.

وقد خرج من الكنفاروية من بلد تندرم إلى أسكيوية. وولى الكنفاريوة لكسية وهو الزغراني، ولبث فيه كسية ثلاثة عشر سنة. ثم أخلفه أخوه يعقوب في الكنفاروية، ولبث فيه سبعة عشر سنة. ثم مات وأخلفه ولده محمد بنكن في الكنفاروية، ولبث فيها أربع سنين. وعلى هذا الحساب تكون مدة سلطنة داوود ثلاثاً وثلاثين سنة، وقيل أربعة وثلاثين وشيء قليل.

وفي تلك العام أعني عام الثالث والثلاثين قتل أسكي داوود محمد الشريف ابن مزاور خطأً. وأسفاً لذلك. وندم وخاف عقوبة ذلك. ثم لم يزل يبكي أياماً رحمه الله. ثم عزم على صوم الدهر، وسأل بعض علماء زمانه - وهو محمود جعبت خطيب كاع والفع كعت وأسكي الفع بكر لنبار وشريف علي بن أحمد وأنا حاضر أي القاضي إسماعيل كعت وكاغ زكريا بن أحمد وولي الله يا جور بن ولي الله صالح جور ويوسف بن محمد تل - عما يفعل في الاستغفار لهذا الذنب العظيم. فقالوا له أن: تفزع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتهرب إليه وتدخل في حرمته وتستشفع به ويشفعه الله فيك. وإذا لم تقدر على هذا فلك دية في الشرع، وهذا هو الرأي عندنا أن للشرفاء تعظيماً وإجلالاً عند الله، فكيف عند الناس، كما قال صلى الله عليه وسلم: إياكم وذريتي، فمن أذاهم فقد أذاني إلخ.

ثم قال أسكي داوود سمعنا وأطعنا. ولكن ضعف بدني وهنّ عظمي، وقلّت حياتي وقربت منيتي، ولكن تعطي قيمة الدية ثلاثين نفساً، إن شاء الله. والتفت إلى أخي المقتول ساعتئذ، وهو ابن القاسم ابن مزاور الشريف الونكوي، وسأله عن ما يحبه من المال. فقال ابن القاسم المذكور: العبيد عندنا خيار. وقال داوود: وهل تحب الزناجيين من جهة أرضك؟ وقال نعم.

وأعطاه ثلاثة من أماكن الزناجية وكل مكان يساوي بمائتي أنفس. أما اسم المكان الأول بوى بك يجاور قرية توتل من أرض تندرم، ورئيسهم يومئذ أنكند بن بل مود وكرى بن غيك، وإنما أصلهم من بقية غنيمة بلد موسى حين أرقهم الحاج رحمه الله بعد كسرهم. وأما اسم المكان الثاني كرني بلنغ من أرض شابك بجوار بلد سين، ورئيسهم يومئذ جعجي بن كيمي بكر تلق بربوش، وإنما أصلهم من بقية غنيمة أسكي محمد حين أرق أهل بلد كسات من بلاد المغرب بعد كسرهم. وأما الثالث اسمه حجر الصغرى من بلاد برك، يلقبونه بيثك، وعند بعضهم كاجل، في أرض ماسع، ورئيسهم يومئذ بكر جعن وسير بن قاسم، وإنما أصلهم حين أرق أهل كلنبوت. انظروا. فقال أسكي داوود فتعلم أنه مؤمن بالله ورسوله.

وله من الأولاد من بين الذكور والأناث ما يزيد على إحدى وستين، لأن أولاده أكثر من أولاد أبيه. وقيل الأولاد الأطفال الذين ماتوا له أطفالا أكثر من ثلاثين. وممن تولى السلطنة من أولاده عشرة أسكي: الحاج، وأسكي طف وهما شقيقتان وما عرفنا من الشقيقين دخلا أسكيوية قط سواهما، وأسكي محمد، وأسكي إسحاق، ومحمد كاع،

وأسكي سليمان، وأسكي نوح، وأسكي هارون لنكتيع ومحمد شرك أيج، وأسكي الأمين. وما عرفنا من الملوك من تولى له عشرة من الأولاد السلطنة سوى داوود وحده.

ومن أولاده أيضاً كرمن فار محمد بنكن، وكرمن فار صالح، وكرمن فار الهادي، وبلمع صادق، وبلمع حامد. ومن أولاده أيضاً مارنف عيسى، وبنفرم دك كم إج، ولنتن فرم بكر، ودعى فرم سن وهو أعور العين، وعمر كمزاغ، وعمر كت، وكار فرم بكر، وياس، وهارون ولد فات طر، وونيفرم زكرياء، وعلوا واك، ووركي فرم حماد، وأريفرم على كلم. وهؤلاء الذين حفظنا من أولاده الذكور.

ومن الأناث فكثيرة ومنهن كاس زوجة جنكي منبعل، وأرحمة كروى، وبنت زوجة مقشرن كي ماتت ببلد تنبكت، وأريو أم القاضي بوز كان قاضيا في لولع، وصفية زوجة سيدي سالم العصنوني والد الحسن كاتب الباشا، وأمة الله زوجة الخطيب درام، وعائشة كيمر زوجة القاضي محمود كعت أرحلها إلى تنبكت ومات في عصمته، وأليمة، وويز أم هايئ.

ثم مات أسكي داوود رحمه الله يوم الثلاثاء سابع عشر رجب عام إحدى وتسعين وتسعمائة وقبره بكاع وراء قبر أبيه.

الباب الثاني عشر
أسكي الحاج
وقاضي تنبكت العاقب

ثم تولى الأمر بعده ابنه أسكي الحاج في ذلك اليوم قبل دفنه. وكان الحاج رجلاً مليحاً لحياناً مهيباً ذا مروة. ولم تطل مدته، ومكث في السلطنة أربع سنين وخمسة أشهر وعشرة أيام. وكان في أيامه رخاء وسعة في المعيشة.

وفي شهر ولايته غزا أهل وكد، وقتل فرن وكد وسبوا ذراريهم وجميع أموالهم وزناجيهم إلى كاع. وهؤلاء الزناجيون الذين يتكلمون بلغة وعكري. ثم أفلت من الأسارى رجل زنجي اسمه مام كو إلى تندرم وعند كرمن فار، فوجد هنالك رجلاً زنجياً اسمه تثم وأولاده. ونكح بنت تثم، وهذا المذكور آنفاً هو جد أهل كل من يسمى أهل كرمن من الزناجية باش فرم، وكانوا بجتمعون على موضع من البحر يسمى سنشركي في أصطياد حيتان دع. وإنما يأكون أهل سنغي غرامتهم، ولكن حبل عبوديتهم للشرفاء إلى هلم جرى.

وفي مدته ولي القضاء للقاضي عمر بن القاضي محمود بعد وفاة القاضي العاقب بمدة نحو سنة وخمس أشهر، وكانت ولايته عشية يوم الخميس سلخ المحرم فاتح عام ثلاث وتسعين وتسعمائة. ومكث القاضي عمر فيها ثمان سنين.

وكان أسكي داوود يتمنى السلطنة من بعده لولده محمد بنكن، ودبر فيها وسعه، أبى الله إلا أن يكون الحاج هو القائم بعده، وأمه مِن كاي. وقيل كان يتكلم بكلام الكهنة، ويخبر بما في الغيب، ويوافق أكثر أقواله بمقادر الله.

ومن ذلك أنه كان في مجلس قومه وبطانته ودخلائه وغيرهم، والزمارون يزمرون بين يديه. ثم سكت طويلاً. ثم تنفس الصعداء، ثم قال: يدخل علينا الآن رجل من أهل بيتنا وولد أبينا، ولا يسبقه في الدخول علينا أحد، وهو أشقى إخوتنا، ويكون آخر سلاطيننا، وتكون مدة سلطنته كلها إحدى وأربعين يوماً، وفناء قبيلتنا بسنغي يكون على يده، يهلك نفسه ومن معه. ثم فاض الدموع من عينيه. وما تم كلامه حتى دخل أخوه محمد كاع، ولم يسبقه إليه داخل، وحياه. ثم جلس والتفت إليه وقال: يا محمد أنشدك الله، إن أصبت سلطنة إحدى وأربعين يوماً أتحبها؟ وسكت ولم يجبه. ثم سأله ولح عليه. وقال: أحبها. وقال: خذها وهو سهمك، والله لا يزيد ولا ينقص. ووافق بما قدره الله ومقادير الأمور بيده، ومصدره عن قضائه.

ومما حكي عنه أيضاً أنه كان له فرس عتيق أشهب، فنزل به ضرر شديد، وصرعه ونحل جسمه ولا يستطيع على الجلوس فكيف القيام، حتى انسلخ شعر جنبه الذي كان يضطجع عليه، وأنتن وخرج منه الديدان. وتأذى أهل بيته بشدة نتنه، وأشار إليه بعض أصحابه بأن يأمر بإخراجه وجره إلى المزبلة لئلا يصعب إخراج ميته. وضحك منه فقال: أتحسب أنه يموت في هذا المرض؟ لا والله وقد بقي من عمره باقية. وقال صاحبه: لم يبق له في الدنيا نفس، ومن وقف عليه الآن يجده ميتاً. وقال: والله ما مات، وعلى هذا الخيل إن شاء الله أركب يوم أدخل في دار سلطنتنا، ولا تشك. ثم عوفي وشفاه الله وعاد على ما كان عليه من القوة والصحة. ووافق قوله بما كتب الله في سابق علمه، وعليه كان سرجه يوم تسلطن، ودخل في دار المملكة وهو يركب عليه. فسبحان من يحيي العظام وهي رميم، وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو.

ومات في مدته الفقيه القاضي العاقب بن القاضي محمود بن عمر رحمه الله، وهو أعظم قضاة تنبكت عدلاً واجتهاداً، ولم يتول بعده نظيره، ثم لا يكون أبداً. ومولده، كما قال أبو العباس أحمد بابا في ترجمته من كفاية المحتاج لمعرفة من ليس

في الديباج، عام ثلاثة عشر بعد تسعمائة. وتوفي في شهر رجب عام إحدى وتسعين. ومن أراد معرفته ومعرفت مناقبه وقدره وسيرته المحمودة وكونه مسدداً في أحكامه ثبتاً فيها صليباً في الحق لا تأخذه في الله لومة لائم فليقف على ترجمته في كفاية المحتاج. ومنه يعرف فضله، وأنه حج، ثم رجع وشرع في بناء المسجد الجامع. وفي سنة تسع وثمانين وتسعمائة شرع في بناء مسجد سنكري، رحمه الله.

وأخبرني بعض الشيوخ أنه لما حج وأراد الانصراف والقفول إلى تنبكت استأذن خدم الكعبة المشرفة أن يحدّ الكعبة ويكيله بقدمه طولاً وعرضاً، فأذنوا له. وكاله بالحبل طولاً وعرضاً بطوله وعرضه، وجاء بالحبل المكيل. فلما أراد بناء مسجد سنكري أخرج ذلك الحبل وكال تلك العرضة التي أراد بناءه فيه على الأوتاد على جهاتها الأربع، وبنى عليها. وهو على مقدار الكعبة، ما زادت وما نقصت عليها بشيء. ثم لم أسمع ذلك من غير الشيخ الذي أخبرني به، وبقي في نفسي منه شيء من ذلك، والله أعلم.

ثم رجع لبناء مسجد سوق تنبكت، وهو آخر بنيته رضي الله عنه. وأنفق في بناء هذه المساجد الثلاثة ما لا يعرف نهايته إلا الله تعالى، فجازاه الله أحسن ما جازى به من أحسن عملاً.

وحدثني بعض من أثق بروايته أن الحاج الأمين كان سأله حين كان في بناء الجامع الكبير: كم يكون نفقة البناء ونهايته في يوم عليك؟ فقال سبعاً وستين مثقالاً إلا ثلثاً. فقال الحاج الأمين: أريد منك أن تسامحني وتؤثرني أن أحمل نفقة غد. فرضي له، وفرح الحاج الأمين بذلك وسر به. فلما أصبح في غده نادى أشرع منذ ودفع إليه سبعاً وستين مثقالاً إلا ثلثاً ليبلغه للقاضي. وأعطى أشرع منذ ألف ودع ومائة كورية، وقال له: أردت منك أن تبكر علي غداً لنأخذ مني نفقته، ولا تشاور القاضي حتى نقبضها إليه فرضي بذلك. ثم أصبح وبكر إليه، ودفع له سبعاً وستين إلا ثلثاً. ثم أعطاه ألف ودع ومائة كورية. ثم قال له: إن قبض هذا منك فارجع إلي غداً في مثل هذا الوقت. وذهب به إلى القاضي العاقب. فقال: هذا ممن؟ فقال: من الحاج الأمين. فقال: إن الذي قبضناه بالأمس كفاه. فتوقف في أخذه، ثم أخذها.

فلما أصبح من اليوم الثالث بكر عليه ودفع له سبعاً وستين إلا ثلثاً، وألف ودع ومائة كورية. فقال: على من قبضت هذا؟ فقال: من الجاج الأمين. فقال: ارجع إليه وانتهره، ورده بها. فرجع إليه أشرع منذ بذهبه فأخبره بما قال. وركب الحاج الأمين إليه

وحمله في قلمون برنوسه وصبّره ولاطفه بالقول. وقال له القاضي: هناك رجال لا يحبون أن يزاحمهم أحد في نفقة هذا البناء، وهم يتنافسون في ذلك. ثم قبضه منه بعد إبايته وامتناعه، ونهاه عن العودة إلى مثل ذلك. فرضي له عنه. وقد يكون الرجال الذين ذكر أنهم لا يحبون أن يزاحمهم أحد أراد به نفسه.

وكان القاضي العاقب رجلاً صالحاً حافظ القرآن مليح الصوت، وكذلك أسكي داوود وابنه أسكي الحاج. وكان ذات يومٍ من أيام تولية أسكي الحاج ورد كتاب من عند الشريف الحسني علي بن مولاي أحمد بن عبد الرحمن من بلد مراكش إلى القاضي العاقب العادل القائم من أمر الله. فإنه سمع بأن كرمن فار وإخوانه يأخذون الغرامة على زناجيتنا تثم وأولاده، وهم زاعمون بأن أسكي هو الذي أمرهم بذلك. ونحن لم نصدقهم في ذلك. فإن كانوا صادقين فأسكي قد سمعنا أنه ذهب إليكم، فاسأله أيها القاضي العاقب. فهل يظن أسكي أن له قدرة على ظلمي، لأن تثم وأولاده وحفائده وأولاد ممي كو وحفائده وهؤلاء المذكورون ولائذنا، ما ملكهم أسكي قط حتى الآن. فوجد أسكي حاضراً عند القاضي. فقال: والله لا أعلم بذلك شيئاً. ثم أمر مرسوله ساعتئذ إلى تندرم عند كرمن فار بأن يسلموا أمرهم بسبب النبي صلى الله عليه وسلم. انظر هذا فتعلم أنه سالم الصدر انتهى.

ومن عدله وصلابته في الحق ونزاهته عن مسامحة من حاد عن الحق خوف لومة لائم قتله مؤذن الجامع الكبير المسمى عبد الله ولد كنكي. وكان هذا المؤذن حضر يوماً بمجلس يمدح فيه النبي صلى الله عليه وسلم، وهو يوم الجمعة ببيت الشيخ النحوي أبي حفص عمر كري بن العلامة أبي العباس الحاج أحمد ذي الكرامات بن محمود بن عمر بن محمد أقيت رحمه الله. وقد اتخذ عادة أن يمدح النبي صلى الله عليه وسلم في بيته بحضرة الجماعة بعشرينيات الفزاري وتخميسها لابن مهيب، فكانوا يمدحون بها حتى مروا بقول المخمس: هو الوبل وعلو أن يقاس بطلّه. فقرأ عبد الله المذكور: الويل، فقلب باءه ياء مع شكل كل بحركة الأخرى.

فراجعه في ذلك من سمعه منه، ولم يرجع عما قرأه به. فرافعوا أمره إلى القاضي العاقب الصادع بالحق الذي لا يخاف في الله لومة لائم ابن الشيخ القاضي الورع الزاهد الذي انتشر فضله في الآفاق القاضي محمود بن عمر بن محمد أقيت. فأمر بأخذه. فسمع به فخرج هارباً إلى بعض القرى من بلاد أبرم من انن وندعدكر وكندام. ثم رجع كامناً حتى ظفروا به بعد عام إلى آخره.

وفي مدة أسكي الحاج ولي القضاء الفقيه القاضي عمر بن القاضي محمود بن عمر بن محمد أقيت بعد وفاة القاضي العاقب بنحو سنة وخمسة أشهر. وتعطل القضاء في تنبكت سنة وخمسة أشهر. وقام الإمام محمد بغيغ رضي الله عنه بالصلح بين الناس دفعاً لما بدا في الناس في ذلك الزمان المفترة من الخسارة وأكل بعضهم أموال بعض وتضييع أموال الأيتام.

وكان إذا صلى الصبح يجلس بباب مسجد سيدي يحيى، ويحضر بعض طلبته، ويقول رحمه الله: من له حق على من امتنع به فليأت. فجعل الناس يأتيه بدعواهم ويحكم بينهم فيأمر وينهى ويسجن ويضرب من استحق الضرب. وتكلم فيه المرجفون وأهل الفساد والسفهاء، ويقولون: انظروا هذا الرجل، يعنوا هذا الشيخ محمد بغيغ، الذي يزعم أنه لا يحب الدنيا وأنه زاهد وهو يحب الرئاسة وجعل نفسه قاضياً، وما استقضاه أحد. فربما يجد في محله كتبة الناس ويقولون فيه: من أمرك بهذا يا محمد بغيغ؟ ويشتمونه فيه، والعياذ بالله. ويرفعه ويقرأه ويتبسم ويقول رحمه الله: وقد تعين ذلك علينا، ويسألنا الله عن كل ما تضيع في هذا الزمان، ولا نبالي لوم أحد فيما تعين علينا، وعندنا علمه، ونخاف ونترك حق الله؟ وتقعة الله أشد. وربما يجد هنالك خطوط بعض الكبراء المشار إليهم بالعلم بمثل ذلك، ولا يلتفت إليهم إلى أن قدم القاضي عمر بن القاضي محمود.

ولم يكن إباية أسكي الحاج على تقديم القاضي إلا لسبب وقع بينهما، ولذلك أبى أن يقدمه. ولم يقدمه إلا بتكرار رسل محمد بغيغ المذكور إليه وكتبه لديه يزجره ويأمره بتقديمه. وما عرف أهل تنبك بذلك إلا بعد ما أتاخ رسول أسكي المذكور قائلاً لأهل تنبكت: لو لا شفاعة محمد بغيغ لا يقدم القاضي عمر، ولا نستقضي أحداً فيهم ما دمت حياً في هذه السلطنة. وعند ذلك تبين فضله وأنه لم يرد تولية القضاء. فرحمه الله ورضي عنه، فنعم الرجل، أثر الله عن غرضه. ومكث القاضي عمر في القضاء ثمان سنين.

الباب الثالث عشر
أسكي محمد بان

ثم قام أسكي محمد بان بن أسكي داوود على أخيه الحاج فعزله. وتولى السلطنة في المحرم عام خمسة وتسعين وتسعمائة. ونفى الحاج إلى تندبي بعد ضعفه

بعلة لازمة. فما لبث بعد عزله فمات.

ومكث محمد بان في السلطنة سنة وأربعة أشهر وثمانية أيام. وكانت في أيامه غلاء وقحط. وتوفي يوم السبت ثالث عشر جمادي الأولى عام ست وتسعين وتسعمائة في محلته بالبيداء بقرب تندبي قاصداً إلى تنبكت، بعد أن اعتقد للسملمين الشر بسبب حبهم لأخيه بلمع صادق. وكفى الله المسلمين شره. نقلت هذا كله من درر الإحسان من عزل أسكي الحاج وطلوع محمد بان إلى وفاته.

وسبب الشر الواقع وأما سبب الشر الواقع بين أسكي محمد بان بن أسكي داوود وبين أخيه بلمع صادق: وذلك سبب فناء سنغي وفتح باب الشر بينهم، وسبب فساد ملكهم وقطع سلك نظام دولتهم، إلى أن نزلت محلة أهل مراكش بهم إلى هلم جراً.

وقصة ذلك على ما حكى بعض شيوخهم الموثقين أن كربفرب كان غلاماً لأسكي على عادتهم، ومسكن بلمع ودار سلطنته هي كبر. وكبرفرم موكلاً بالمرسى وسفن المسافرين يأخذ من كل سفينة غرامة من الداخل والخارج، وبلمع يكون سلطاناً على الجنديين. وكل واحد منهما على طريقه.

وكان كبرفرم علوا هذا ظلوماً غشوماً خصيئاً فاجراً مسيطراً جاهلاً جباراً عنيداً، سُرق ملحفة بعض جواريه اسمها كنكي، أظنها كنكي أم طركي بر. واتهم خديم بلمع بسرقتها، وسمع كبرفرم بذلك، وبعث مرسوله إلى بلمع صادق يذكر له بأن غلامه سرق ملحفة جاريته، إما إن يأخذها منه أو يرسله إليه ليتولى سؤالها منه. فسأل غلامه عنها وحلف أنه لم يرها بعينه، لا سيما أن يسرقها. وذكر كبرفرم أنه لا يصدق إنكاره حتى يأتيه الغلام بنفسه ويعذبه إلى أن يردها. وأبى بلمع على ذلك وامتنع.

وكان ذلك بينهما في ذلك اليوم خصومة عظيمة. ويمشي بينهما الرسل بالشتم والكلام القبيح، إلى أن ظفر كبرفرم بذلك الغلام المتهم على غفلة، وخطفه رسل كبرفرم وحملوه إليه. فأمر كبرفرم بضرب الغلام مائة جلدة، وثقفه بالحديد في سجنه. ولما سمع بذلك بلمع نهض إليه برجله، ومعه فتيان داره وبيده حريش كبير، حتى دخل عليه نصف النهار وهجم عليه. ونهض كبرفرم قائماً، وقبضه بلمع ولطمه وسقطه على الأرض وظعنه بحريشه الكبير تحت أبطه وقطع قلبه، وسقطه ميتاً. وأمر بغلامه المسجون، فانحل من قيوده. وأمر بقفل دياره. وأمر بالميت، فجروه برجله إلى خارج بيته، ورمي هنالك. وحاز بيته بما فيه من الأموال.

وخاف عقوبة أسكي بذلك، وبعث رسوله إلى أخيه كنفار صالح بن أسكيا

داوود، وهو بتندرم، وأخبره بما فعل، وأنه خرج في طاعة أسكي محمد بان وخلع عن بيعته، وأمر أخاه كنفار صالح بالمجيء إليه مع جيشه وأهل جنده ليتفق معه ويذهبان إلى أسكي محمد بان بن أسكي داوود ويعزلانه ويتولى كنفار صالح سلطنة أسكي ويكون سلطاناً ويوليه كنفارويته.

وأتاه رسوله وأخبره وحضه وحثه على الخروج معه، وأجابه فرحاً مسروراً. وجمع جيشه، وتبعه بركي ودرمكي، وخرج بجيش عظيم. وأخبر من سمع من محمد بنيعت الحداد أنه قال: عددت من خرج معه من الفرسان واحداً بعد واحد، فكانوا أربعة آلاف وستمائة، وأما الرجال فلا يحسب ولا يعد كثرة.

توجهوا إلى بلمع صادق في كبر كتى، نزلوا بطعية، وبعث إلى بلمع بقدومه. وخرج بلمع للقائه، وتلقوا هنالك، ومعه قومه وأصحابه وجيشه. وكان بلمع لابساً يومئذ درعاً الحديد، وجعله شعاراً، ولبس فوق ذلك قميصاً سوسياً أخضر دثاراً، وسيفه في عنقه، وحزامه في وسطه.

وخرجا من جماعتهما يتناجيان ويتحدثان. وحدث له بلمع بكيفية قتله كبرفرم وسبب قتله، وعقدا الرأي والتدبير في سيرهما إلى كاع في عزل محمد بان أخيهما. ورحل كنفار صالح من طعية بجيشه، ومعه بلمع، وسارا حتى نزلا المحلة بين كبر وأمزع. وبعد نزولهم رجع بلمع إلى كبر لتجهيز ضيافتهم ونزولهم، وقيل هيأ لهم ثلاثمائة بقرة وأعدها لهم قبل إتيانهم، وذبح ما ذبح لإدام طعامهم.

فلما رجع بلمع إلى داره لإخراج تلك الضيافة إليهم، عقبه بعض الوشاة إلى أخيه كنفار صالح ونم له بقوله أنه يغدره ويريد قتله، وحذره وقال له: انظر وتأمل الهيئة التي ألقاك بها من لبس درع الحديد وشدة ربط الحزام. وصدقه كنفار صالح، وكان رجلاً خرقاً، فأمر بربط سرجه ساعتئذ بلا توان ولا تأمل، وركب ونادى من شجعان قومه أربعين فارساً، وأمرهم بالركوب معه، ولم يشاور أحداً منهم بسبب خروجه.

وخرج عازماً حازماً كمياً في سلاحه بقوة الغضب، حتى أتى بباب دار بلمع. وألفاه وبيده كاص يغرف به السمن على موائد ضيافتهم. وما راعاه إلا بصوت كاكك بباب داره، وعلم بأن كنفار هو المواتي، وتحقق عنده أنه لم يأت في هذا الوقت إلا لشر. ونهض، وفرسه الذي أتي به واقف تجاهه بسرجه ولجامه في فمه، وركب وخرج بباب أخرى من داره، وحمل ترسه، وأملأ يده بالحريش.

وتلقاه كنفار خارجاً من الباب ورماه كنفار بحريش. وقال بلمع: إنا لله وإنا إليه

راجعون، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ما حملك على هذا، وما سبب ذلك؟ أتتبع كلام النمائم وتكون علينا شماتة الأعداء؟ ثم بكى بلمع صادق. ثم رماه كنفار بحريش آخر، ولم يصبه به وأخطأه. ثم رماه بحريش ثالث ووقف الحريش على قربوس سرجه، وحرك بلمع فرسه كأنه يهرب. ثم رجع إليه، ورماه بحريش وركزه بين كتفيه حتى خرج من صدره. وقيل أن الرامي هو غلام كان مع بلمع يقال له محمد بن كنفار يعقوب، وهو المسمى كي إج، والأول أصح بأن بلمع هو الرامي بيده.

فلما أحس كنفار بألم ذلك الجرح ولى هارباً، وحمله فرسه وذهب به، ولم يبق له قوة يملك رأس الفرس. وحمله إلى بقعة بين كبر وكرنزمي قريب من كبر، وأسقطه هنالك ميتاً. ونزل عليه ورفع رأسه ووضعه على حجره، وهو في سكرات الموت، حتى خرج روحه على رجله، وذلك عشية يوم الأربعاء الخامس ولاعشرين من ربيع الآخر عام ست وتسعين وتسعمائة. كذا ذكره الفقيه يوسف كعت بن الفع كعت رحمهما الله.

ثم أمر بلمع بحمل جنازته إلى كبر. فحمل إلى داره بكبر. ولم يفطن بخروج كنفار من محلته إلى بلمع أحد من أهل جنده الذين أتوا معه إلا تلك الشرذمة القليلة الذين اختارهم من بينهم، وخرجوا معه إليه. وبعد علمهم بذلك ركبوا كلهم إلى بلمع ونزلوا على بلمع طائعين، وسألهم بلمع عن من عقبه عنده بعد ذهابه وبما سمع عنه، فتعجبوا وقالوا: ما علمنا بأحد دخل عليه بعدك.

ثم شرع في غسل جنازته وأتى بثلاث شقوق من السوسية العالية لكفنه. وكفنه إمام كبر مور كسنب في واحدة، وحمل الباقيين، وهو الذي تولى غسله وحمل نعشه إلى تنبكت. وهنالك صلوا عليه، ودفن هنالك. وقيل دفن في دار ملكة بلمع في كبر، والأول أصح. وشيع جنازته بلمع إلى تنبكت. ثم تصدق عليه بقراءة القرآن وذبح بقرات كثيرة وأعطى الطلباء القراء عشرة عبيد ومائة ألف ودع.

تذييل: قيل أن كبرفرم علوا هذا جرت بينه وبين أحد من العلماء خصومة في مزرعة الأرز التي أعطاها أسكي لذلك الشيخ، وتلك المزرعة في أرض يون. وجاء كبرفرم علوا يريد أن يغصبها منه يزعم أنها مزرعة السلطنة ولا يعملها، وهي أي تلك المزرعة بيد كل من تولى كبرفرموية، هو الذي يحرثها لدار سلطنة أسكي. وتخاصم مع الشيخ في أمر تلك المزرعة، حتى أخذ بيد ذلك الشيخ وصرعه، وكان ذلك أمراً عظيماً.

وكان مع الشيخ هنالك بعض طلبته أي تلميذه. وقال للشيخ بعد انصراف كبرفرم: لو لا قول الله تعالى في كتابه: ومن قتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم الآية، لقتلت كبرفرم

هذا اليوم بلا سيف ولا حريش. فقال له الشيخ: إنما قال الله: ومن قتل مؤمناً، ولم يقل: ومن قتل فاسقاً. وقال الطالب: هلك كبرفرم. وأخذ الطالب ورقة وكتب فيها أشياء وحروفاً، ثم طواه وخاطه في خرقة سوداء وعلقه على عنق تيس. ثم أخذ رمحاً وطعنه تحت أبطه، وسقط التيس ومات. فلما جاء مثل ذلك النهار من اليوم الذي طعن فيه تيسه سلط الله عليه بلمع صادق وطعنه تحت أبطه كذلك، ومات بقدرة الله انتهى.

فلما دفن بلمع أخاه كنفار صالح قام بفتنته. ورجع إليه أصحاب كنفار المقتول وجيشه أجمعون وأطاعوه واتفقوا معه وضربوا عليه الطبل وجعلوه سلطاناً وسموه أسكي. ووافقهم على ذلك عامة تنبكت وتجارهم وبعض علمائها وأصحاب أسكي الذين كانوا سكان تنبكت ومنذ وتصر منذ وعمده التجار بالأموال، وخطب به أئمة المساجد فوق المنابر يوم الجمعة.

وخرج قاصداً مع قومه الكثير، وكانوا جيشاً عرمرماً تنيف على ستة آلاف كثرة. وصحبه خياطون تنبكت يخيطون له الملف ويصلحون القمص والقفاطين. وتوجه إلى كاع لمضاربة أسكي وعزله وقتله. وما بقي أحد من السلاطين من إقليم أترم وأولاد الأساكي من لم يتبعه، إلا بنكفرم محمد حيك بن هارفرم عبد الله بن أسكي محمد وحده. بل فر هارباً عن بلمع لما بلغه جناياته إلى كاع، ودخل في زمرة أسكي وأعوانه.

وأسكي محمد بان في داره، وجواسيسه يجيء ويذهب ويتجسسون الأخبار، يقطع كل يوم مائة فارس ويتعاقبونه مائة أخرى إلى بنب وترك. ويعزم على الخروج للقائه إذا دنى إلى كاع.

فلما دنا وقرب إلى مسافة يومين خرج إليه أسكي محمد بان بجيش يضاعف جيشه خمس مرات، مجموع ذلك ثلاثون ألفاً. وخرج وقت صلاة الفجر، وكان رجلاً جسيماً سميناً ذا بطن، ونزل وقت الزوال. ونصب له الخباء وفرش له تحتها، ونزلت المحلة. وأمر حين نزوله بماء بارد وصب في إناء واسع واغتسل. ثم أتى مضجعه فاضطجع. وتزمل في ثيابه ونام إلى أن قرب وقت الظهر. فجاء غلمانه الخصيان الذين كانوا يوقظونه بوضوء وسواك، وحركوه فلم يتحرك. فتأملوه، فإذا هو ميت. وتركوه، وغطوه بالملاحف، ونادوا كبراء القوم من أقربائه إلى أن دخلوا عليه وأخبروهم بما جرى عليه.

ثم نادوا باريكي وهو كركي وبطانته وبعض كبراء الجيش، وكتموا موته على أولاد أسكي داوود، فجلسوا متحيرين متفكرين فيما يفعلون من الرأي والتدبير، إلى أن

اتفقوا على تولية كنفار محمود ابن أسكي إسماعيل بن أسكي محمد، وهو يومئذ بنكفرم، وكان شيخهم وأكبرهم سناً.

ونادوه وهو في منزله من تلك المحلة، وأرسلوا إليه بأن أسكي يناديه. وقام مسرعاً مجيباً إلى أن أتى إليهم، ووجدهم في خباء أسكي. وأدخلوه وأخبروه بموته، وكشفوا الثوب له عن وجهه، ورآه، وقالوا له: يا محمود هذه مصيبة نزلت بنا وبلاء عظيم شملتنا كلنا، ونظن هذا اليوم هو آخر أيام دولة أهل سنغي ويوم فنائهم. وقد رأيت بلمع صادق قتل كنفار صالح أخاه، وقتل كبرفرم علوا. ثم جهز الجيش إلى قتال محمد بان، وخرج هو بجيشه للقائه. وها هو محمد بان قد نزل به قضاء الله وقدره، وها هنا أبناء أبيهم كلهم حاضرون. ولا يسلم أحد منهم لأحد في هذه السلطنة، وألقى الله العداوة والبغضاء بينهم. وما كان لأحد منهم لأخيه قوة إلا قتله على هذه السلطنة. وما كنا إلا عبيد لهم فماذا ترى؟ وما رأيك في هذا؟ فإنا كلنا لا نرضي إلا عليك، ولا نتفق على أحد سواك لما فيك من الصبر والحلم وحسن التدبير، ومع ذلك كله إنك كبيرهم وشيخهم، فنرى نحن أن تولى السلطنة الساعة قبل أن يفطنوا بموته وتنادى جميع المعاندين منهم وعفاريتهم وأشرار الناس فيهم. وترسل لكل واحد منهم رسولاً ويقول أسكي هو الذي يناديه، وكل من جاء منهم تأمرنا بقبضه وثفقه بالحديد، ومن يستحق القتل منهم فنقتله الآن بأمرك، حتى يتموا. ثم نضرب عليك طبل السلطنة فنطلعك، فتكون أسكي بلا منازعة أحد. ثم نسير إلى قتال بلمع صادق فنقتله. فهذا ما رأينا، وهو الصواب، وبذلك يكون سلامة أرواحنا. وأما أولاد أسكي داوود وحفدته فلا نرضي بأحد منهم أن يكون والياً علينا أبداً لشرهم وطغيانهم ولكونهم قاطعي الرحم. وسكت محمود ملياً. ثم أجاب وقبل راضياً.

وأولاد أسكي داوود وحفدته وأسباطه الذين يحضرون هنالك حينئذ أكثر من سبعين فارساً، وأكبرهم إسحاق الزغراني ومحمد كاع ونوح والمصطفى. وإسحاق الزغراني أسن منهم، وهو يومئذ فارمنذ. واتفقوا على هذا الرأي، وأرسلوا واحداً من الخصي المسى تبكل إلى إسحاق أولاً، وأمروا المرسول أي يقول له أن أسكي محمد بان يناديه. فأتاه تبكل، وألقاه جالساً على حصيرة صلاته. وخلى به ونم له، وأخبره تبكل المذكور بموت أسكي محمد بان، وأعلمه بما كان عليه القوم، وبما ينادونه بسببه، وكشف له أسرارهم، ووصاه بأن يحذرهم. فقال له إسحاق: ارجع إليهم وقل لهم أني أجيء. فرجع الرسول وأخبرهم بأنه يأتي.

ثم أمر إسحاق بإخوانه وأحبائه وأولاد إخوانه وإحوته، وأخبرهم بما جرى وما كان عليه القوم لهم وبما عزموا عليه وهموا به. ثم ركب وركب أهاليه معه، وهم على نحو مائة بسلاحهم محزمين بتروسهم.

فما راع القوم إلا رهج خيولهم. فداروا بخباء أسكي الذي في القوم على جنازة محمد بان وحاطوا بهم. ونادى هيكي وشع فرم وباريكي، وأجابوهم في داخل الخباء، ومحمود بن أسكي إسماعيل معهم. فخرجوا إليهم خاضعين طائعين خائفين مروعي القلوب، وقد ضاق بهم ذرعاً.

وقال لهم إسحاق قد علمنا ما جرى وسمعنا ما عقدتم عليه من عداوتنا وبغضنا، فقد كشف الله لنا السر الذي عقدتم عليه، فقد أفضحكم الله. إما أن تسلموا لنا، أو يكون هذا اليوم آخر أيامكم في الدنيا يخرب الله فيها بيوتكم ويصيروا أولادكم فيها يتامى وأزواجكم أرامل. وتعلموا أن الله قد أخزاهم له، ورموا أنفسهم على الأرض ورجعنا ناكصين، يحملوا التراب على رؤوسهم له، ومحمود معهم في ذلك. قالوا كلهم: أمر الله، ثم أمرك السمع والطاعة لله ثم لك، وأنت أميرنا وسلطاننا، ولا نطيع لأحد إلا أنت، وحبلك في أعناقنا، فاعف عنا، ودخلنا لك في حرمة أسكي محمد وبحرمة قدمه التي وقف بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم في روضته الشريفة. انزل الآن على فرسك فنطلعك ونضرب عليك طبل السلطنة وتكون سلطاننا، فتغسل جنازة أخيك محمد بان الهالك وتدفنه، ونرحل غداً لقتال بلمع صادق أخيك، وندفع عليك باسه. فنزل ونزل أصحابه، وحينئذ تفطن الجيش بموت أسكي محمد بان، وحضروا جميعاً، وضربوا الطبل على إسحاق، وأمروه وتسلطن، وحملوا له التراب على رؤوسهم، وجاؤوا بالمصحف وحلفوا له به بأن لا غدر ولا غش ولا خدع.

وأمر بغسل جنازة محمد بان، وغسلوه وكفنوه، وإسحاق جالس على سرير ملكه. وأمر بحمله إلى كاع، وأتبعه بعض أعيانه وبكر لنبار أسكيا الفع الذي هو الكاتب، ودفنه ورأء جده أسكي محمد المرحوم. وكر راجعاً إلى المحلة في بقية تلك الليلة. وفي بعض التواريخ أنه أقام في كاع بعد دفن أخيه يوماً أو يومين.

وقام أسكي إسحاق وبكر وافتكر، وتوجه إلى لقاء أخيه بلمع صادق وأشبع الجيش في تلك الليلة، وقسم لهم العطايا وأفاض عليهم المنح وأرضاهم، فرضوا. وكان أسكي إسحاق كريماً جواداً.

الباب الرابع عشر
أسكي إسحاق الثاني

وسار إلى بلمع صادق وذلك يوم ثالث عشر جمادي الأولى عام ست وتسعين وتسعمائة، ولا علم عند بلمع صادق بموت محمد بان، ولا بطلوع إسحاق. وهو في البيداء بجيشه يسير ويأتي ويحسب أن قلوب أهل كاع تميل إليه بالمحبة مع ما يسند إليه من كثرة من معه ويعتقد أن لا غالب إلا هو.

فما فاجأه إلا بأربعمائة فارس فرسان الشباب، ليس فيهم سوى لابسين القلنسوة من أولاد الأساكي، وغيرهم يهرول بهم خيولهم. فلما أبصر بلمع صادق وقومه، فرحوا بهم وظنوا أنهم جاؤوا إليه مطيعين خارجين على محمد بان، حتى إذا دنوا منهم نزلوا كلهم ووقفوا على الأرض وحيوه: تنكر تنكر بلمع تنكر تنكر، أسكي إسحاق أخوك يسلم عليك، ويقول أن الله قبض أسكي محمد بان أمس بموت الفجأة، وأعطاه الله دار أبيه، وجعلوه كافة أهل سنغي سلطاناً، وتولى بإذن الله. ومن أطاع فليس له عنده إلا خيراً ومحبة وصلة، ومن خالف فقد خالف أمر الله وعصاه. ومن عصى أمر الله فلا يلوم فيما أصابه في ذلك إلا نفسه.

فأمر بلمع صادق رجلاً من قومه أن يسألهم أحق ما تقولون. فحلفوا له بذلك. فدخل الروعة والخوف والخشية في قلوب جيشه. وضرب بلمع صادق الطبل، وأمر تلك الساعة بالرحلة والركوب إلى ملاقاة إسحاق ومحاربته أصحابه أربعمائة فارس الذين أرسلهم منذرين به. وركب بلمع صادق ومن معه منكسرين قلوبهم وأطرأ عليهم غاية الفتور والكسل.

وساروا إلى أن أتوا مكاناً سمعوا فيه أصوات طبول أسكي وعاينوا رهج خيولهم وسمعوا بلغتهم ورأوا شجعان أسكي الذين كان يصطفيهم ويقدمهم أمام الجيش، ضج أصحاب بلمع وأيقنوا أن قد شملهم الهلاك والتلف.

ووثب بهم أصحاب أسكي وثبة الذئب الضري على الخروف، ونظروا إليهم نظرة ليث العرينة إلى الفريسة ومثلوهم في أعينهم كأنهم أفراخ الدجاجة التقوا مع الباز. وحملوا عليهم وشتتوا شملهم شذر مذر وولوا القوم مدبرين. وما منهم من وقف ليعلم ما الخبر، بل كسروا وفزوا عن بلمع. وكثير منهم من نزل عن فرسه ونزل في البحر وعام وقطع البحر عرياناً إلى كرم. ومنهم من دخل في حفرة الثعالب، ومنهم من صعد

فوق الشجر. وشرد خيوله، إذ لا قبل لهم بجند أسكي، ولا يقدرون على مبارزة جيشه، ولا يقف.

فلما رأى ذلك بلمع رمى نفسه بين القوم يتتبع الصفوف يطلب إسحاق، ولا يبالي بمن لقي منهم ومن أتاه منهم. هرب منه ولا يتعرض له. وصاح به إخوانه الذين كانوا مع أسكي: ماذا تطلب يا عدو نفسه، اخرج من بيننا، ولا تكن قاتل النفس. أينك بأسكي الذي تزعم أنك تطلبه؟ وهو في منعة وثورة أربعة آلاف من الرجال يحملون الحريش أمامه وألفين من العبيد الخصيان وراءه. وإن أدركك خصيانه هنا قتلوك وصيروك غذاء العقبان والنسور.

ثم أتاه ابنا أبيه لنتن فرم بكر وأريفرم هارون، ابني أسكي داوود، وأخرجاه كأنهما يريدان طعنه، ومرادهما أن تهرباه. وخرج هارباً، وتبعه من قومه أحبابه إلى منزلة محلته، وهما معه يطردانه، وهو على فرسه المعروف المسمى بامرس في قوة غضب وغيظة يأنف على الهروب، ولا يبغيان له الموت. فلما أتى محلته، وله هنالك ثلاثة من جواريه أي سرياته وأربعة عشر نسوة من الحداديات الزامرات، وكان معه أربع وثلاثون جمالاً، وحمل عليهم سرياته وحداديات ونفائس بضاعاته وكسواته وشيئاً مما أتى به من الأزواد، وجعلهم أمامه، ومعه من الفرسان سبعة عشر على خيول مختارين، وخمسة خيول عليهم السروج يقادهم أمامه. وتأخر عليهم خلفهم مع بعض فرسانه يساقهم أمامه هاربين.

فلما وصل أسكي إلى موضع محلته الذي خرج فيه هارباً، نزل هنالك وبات فيه، واختار من قومه خمسين فارساً وأمر عليهم حصل فرم علوا ولد سبيل وعبده الخصي أتكرم زكت، وأتبعهم بلمع صادق، وأمرهم أن لا يرجعوا إليه إلا بنفسه أسيراً أو برأسه قتيلاً.

وتبعوه يقتفون آثاره وأين بات. وارتحل من عنده يأتي حصل فرم تلك الموضع عشية يومه حتى أتاه إلى مكان يقال له زنزن في قبلة منزلة بلد بنب وأعيا عليه بعض جماله التي يحملون بعض نسوته والرجال يمشون على أقدامهم من حملة الحريش وبعض الخيول تركهم هنالك، وأمر بحمولهم وعديلاتهم، فرُميت في البحر. ومر. ثم لم يزل في إدلاج وتأويب وإيجاف وتقبيب حتى جاء تنبكت بعد صلاة العشاء. وقد سبقه الخبر بنعي أسكي محمد بان والأراجيف المكاذبة بأن بلمع صادق هو الذي تولى مكانه، وفرح به أهل تنبكت فرحاً عظيماً.

فلما دخل تنبكت قصد دار السيد الفقيه محمد بغيع رحمه الله ودخل عليه. وشاع إتيانه في البلد تلك الليلة، وأرسل رسله إلى أحبابه، وأتوه هنالك ومكث عنده بقية ليلته. ثم خرج وقت السحر، وزودوه بعضهم. وأدركه الليل بقرية كندم، ونزل خارج البلد.

فعقبه حصل فرم في تنبكت، ودخله وقت المغرب. وأخذ تنبكت منذ وثقفه في الحديد، ومر في تلك الليلة وبات.

ثم قام بلمع من مبيته آخر الليل ودخل تندرم وقت الضحى ومر، وما يراه أحد، وقصد مرسى بلد سن. وتلقى بالقوارب هنالك، وأخذوها وقطعوا تلك البحر بهم. فلما وصلوا البر مروا. ولم يلبثوا وساروا إلى أن نزلوا ببلدة كيم تحت الشجرة الكبيرة الكائنة لها من ناحية القبلة، وجاء أهل كيم، وسألهم علف الخيل، وأتوهم بصنية الدخن، وقطعوها وقسموها على خيولهم العاجزين.

فعقبه حصل فرم في تندرم، ودخله وقت الظهر، وسأل الناس عنهم. فأخبروا بأنه مر عليهم ضحى هذا اليوم. ومروا في إثره، وجازوا إلى مرسى كرم وقطعوا بحرها ومروا راكضين حتى وصلوا إلى قرب كيم، ومعهم الدفوف يضربوها، وسمع بذلك. نهض حينئذ وركب وحده على فرسه بامرس. ولحقهم حصل فرم هنالك وخيول أصحاب بلمع في المرعى يأكلون الحشيش. ودخل حصل فرم وقومه بينهم وبين خيولهم وجمالهم، وهنالك أخذوا جميع من معه وما معه من الجواري والبسط.

وقبضوا جميع من تبعه إلا بلمع وحده، فإنه رمى فرسه في بحيرة كيم وقطعها. ثم وقف وراء البحير على ضفتها وهم ينظرونه، وعليه دائرة ملف الحمراء وفرسه هذا المسمى بامرس، وهو ولد رمكة رجل من بلدة دنذكر اسمه محمد سابن. وقد بلغ ذلك الفرس في القوة والجرى غاية ونهاية بحيث لا يجاري ولا يباري.

ثم قطع حصل فرم وقومه تلك البحيرة بعد ذهابه بقليل. وسبقهم بلمع إلى كيب، ورمى فرسه في البحر الذي كان هنالك، وقطع به البحر عند غروب الشمس ذلك اليوم. ووصل حصل فرم إلى كيب بعد العشاء وسمع الخبر وأسرعوا في طلب السفن. وما حصل لهم السفن إلا الصبح، وقطعوا البحر ودخلوا في إثره يقفون آثاره.

وجاء بلمع إلى قرية تسمى لنف بقرب بوي وهناك ولده أسكي محمد بنكن، وهو صغير عند أمه زنب كاو، ووقف ببابها ونادوها. وخرجت بولدها محمد بنكن المذكور ودفعته إليه. وأخذه ووضعه معه في سرجه، ووضع يده على رأسه وبكي.

ومضى وتوجه إلى بلد بوي. وهنالك أعيا عليه فرسه بامرس وعجز ووقف، ونزل عنه. وكان هناك فرس حمدي لبعض عبيد أسكي، أخذه هنالك ووضع عليه سرجه وركب عليه وانصرف. ولم يتعرض له أحد هنالك، وتوجه إلى الحجر وحده.

وبعد انصرافه دخل حصل فرم وقومه في ذلك البلد. وقد عجزوا أفراسهم وانسلخ ظهورهم، ووقفوا. ونزلوا بباب دار بنكي وأخذوه وشتوه وسبوه وكادوا أن يقتلوه لِم تركه حتى مر عليه ولم يقبضه. ثم كروا راجعين على آثارهم إلى كاع حين علموا متحققين أنهم لا يدركونه، وأيسوا من لحوقه انتهت القصة.

تذييل: اسم من بنا بلد بوي هي امرأة اسمها يانو، وكانت تملكها قديماً. وبنا أختها المسمات ببير بلد أنكند. وبلد أبيهما همبر، وبلد أمهما دعنكع. وجلست يانو المذكورة أولاً في تلك القرية، وقد كانت واصلاً في الحجر بين دعنكع وهنبر. ووقع حرب وقتال بينها وبين شي عال، وهزمها شي وسبى ابنة أختها جت. ثم استجاش مائتي سفن لقتال أهل أنكند، وحصرهم بتلك السفن، فلا يدخل داخل ولا يخرج خارج، إلى أن هزمهم شي.

ووجد يومئذ في تلك البلد ثلاثة قبائل: سنغي وجم كري والزناجية. وقتل جميع من وجد من القبيلتين الأولتين إلا قليلاً منهم، وأخذ ذلك القليل وجميع من وجد من الزناجية. ثم أفلت من الأسارى سبعة رجال: ثلاثة من الزناجية، وأربعة من جم كري، وأسماؤهم: محمد كرب، ومحمد تي، وبريم، وكبر سكنم، وما بايعم سبري، وبكر ميك، وأنكيد ميطع. وهربوا إلى مكانهم أنكند، وجلسوا هناك مدة ثلاثة أعوام، وليس لهم زوجات. ولما شق عليهم ذلك قاموا إلى الإمام أسكي الحاج محمد رحمه الله، ووافق ذلك بدخوله في السلطنة، يطلبون عنده زوجات. فزوجهم سبع إماء من زناجيته، وهن عائش كرمات، وتات مريم، وزنب مك، ولمي عال، وخديج سرك، وسفية جنجن، وأمنة كاي. فلما زوجهم إياهن شرط عليهم غلة من يابس الحيتان، على كل أحد منهم حزمة منها، وألا يتزوج ذرية بعضهم لذرية بعض. فقبلوا ذلك ورضوا به، وذهبوا بزوجاتهم إلى أنكند.

ولنرجع إلى ما كنا بصدده. ثم لما سبى شي جت المذكورة أعطاها لأهل بلدة مور كير، وتزوجها أخو مور هوكار، وولدت له منس علوا ميدع. ثم رحلت يانو بعد انقراض شي عال إلى بودر وسكنتها، وعظم ملكها هنالك. وكانت الفتنة التي ذكرناها بين يانو وشي عال عام سبع وتسعين من القرن التاسع في اليوم الثاني عشر من المحرّم.

وكان في أرض بر حداد اسمه مندجم من جهة كرنكن، قام على بركي منس مس وطغى وتغلب على تلك الجهة، حتى خطب على بركي ابنته ليتزوجها. واستعان بركي بيانو المذكورة بأن يقاتله، وشرط عليها أن يعطيها من أرضه إن فعلت ما شاءت. فأتتهم في خمسين فارس فقاتلتهم وقتلت مندجم واستأصلتهم وتبعهم إلى بركب. وخيرها بركي فاختارت أرض بوي فسكنتها. ثم ماتت يانو، وما تركت ابناً إلا ابن أختها جت منس علو. وذهبوا وحملوه من موركير، وقدموه عليهم سلطاناً. وكان بنكي هو أول من تسمى بنكين، ولذلك ينسبونهم إلى ميدع.

وكان بين منس علو المذكور وبين كنفار عمر صحبة وكان يزوره في تندرم كل عيد ويصلي العيد عنده وكان ذلك سبباً لملكه إياهم انتهى.

ولنرجع إلى مقصودنا من كلام بلمع. ورأيت بخط خالنا الفقيه يوسف كعت بن الفع محمود كعت رحمهما الله أنه جاءه مرسول الأمير عشية الأربعاء يوم عيد الفطر إلى القاضي عمر بن محمود رحمهما الله بأن الجبليين وقعوا علا بلمع صادق وأخذوه غيلة انتهى.

ومن خطه أيضاً قال وكانت هذه الفتنة من أولها إلى آخرها أربعة أشهر. وأما أسكي إسحاق متى انصرف من قتال بلمع ورجع إلى كاع أجتمع عليه جند سنغي، واتفقوا عليه وأسادوه، وأطاعوه قبض كل من تبع بلمع صادق. وجاؤوا معه في عسكره من كرمن وبلمعي وبر ودرم، وأسر من أسر، وقتل من قتل، وضرب من ضرب، ومات أكثر المضروبين، وسجن من سجن، وعزل من عزل، ولم يبق بأرض بر بلد لم يبلغه شره، إلا أنكند لأن زناجيتها ملك الشرفاء. وكانوا هؤلاء الزناجية وديعة في ذلك الزمان لملك فات وبنكي علي. ومن الذين سجنهم أسكي في ذلك الأمر بركي عمر وأسكي بكر وبكر بن الفك وغيرهم مما لا يحصى.

وهذه الفتنة هي أول خسارتهم وهلاكهم وفناءهم قبل مجيء جيش مولاي أحمد الذهبي، وهي سبب خرابة بلد تندرم. وكل من خرج منها مع كنفار صالح لم يرجع منهم إلا قليل من أسافلهم.

وكان أسكي إسحاق كريماً سماحاً جواداً جميل الوجه، بلغ غاية في التصدق والعطاء. وكان محباً للعلماء مكرماً لهم. ومن إكرامه إياهم وعند مبالاته بالمال ما ذكرنا شيخي الفقيه محمود بن محمد أنه كان جالساً عشية يوم السبت بحذاء مسجد كاع، إلى أن وفد إليه وفد قليل من أرض بر يريدون أن يعطوه أنفسهم. فسألهم أسكي

إسحاق من أين قدموا. فقالوا: بلد أنكند. فقال: فما أسماؤكم؟ قال كبيرهم: أما أنا فاسمي حمد بن بكر، وأما هذه المرأة، وأشار إلى امرأة من نسائهم، فهي زوجتي اسمها سون بنت سر. وأما صاحبي هذا فاسمه حمد بن جنك كو، وأما زوجته هذه، فهي أختي اسمها بنا بنت تي. وأما ثالثنا فاسمه صالح بن بت. ثم قال لهم أسكي: من أي قبيلة أنتم؟ فقال كبيرهم: وأما أنا فمن سنغي، وأما هذا فمن زنج بكبير، وأما هذا فمن جم كري. قال وندع: صدقت ولكن أمه زنجية من زناجة أنكند.

ثم التفت أسكي إلى الجالسين حوله وقال لهم: هل تعرفونهم؟ أما كان أنكند ملكاً للشريف ابن القاسم. فقالوا: بلى. وقال: فهل بقي باقية سنغي في أنكند؟ فقالوا: لا، أفناهم قتال شي عال، وإنما هذا الكذاب غاصب لنفسه من الشريف ابن القاسم. ثم التفت إلى حمد جنك وقال له: ما حملك يا هذا على مناكحة أهل أنكند؟ أما كان الجد أسكي الحاج محمد رحمه الله شرط عليهم ومنعهم عن مناكحة غيرهم، وهل ما سمعت ذلك؟ قال: بلى، قد سمعت، تمل تمل. فقال لهم/ أنتم عاصون لله ورسوله. ثم أمر بأخذهم وسجنهم وثقفهم في الحديد إلى الصباح. ثم أمر بإطلاقهم وردهم إلى مالكهم.

ومن كرمه وجوده أنه أفاض على أهل سنغي كلهم سيبه وجوده، ويعطي ولا يبالي. وذكر عن أسكي الفع بكر بن لنبار كاتبهم أنه لما تولى ودخل في دار المملكة وبات فيها أول ليلة ملكه أمر بخصي هنالك الذي كان عنده أثواب أسكي، وبيده مفتاح بيت لباسه. ونودي بحضرة أسكي الفع بكر المذكور، وأمره رإخراج الأثواب جميعاً. وأخرج إليه سبعين شكارة من جلود النمر، في كل واحدة منها ثلاثون ثوباً من كتان دب والحرير والملف، وكل مع قميصه السراويل الكبيرة وعمامة. وأمر ذلك الخصي الخازن أن يعد الشكارات، وعدها واحداً بعد واحد إلى عشرة. فإذا بلغ العاشر، أمره بنعزاله وإخراجه من جملتهم، إلى سبعين. وجاءت عشره، سبع شكارات، وأعطاها لأسكي الفع المذكور، وقال: هذا زكاتهم، خذها موهوباً لله تعالى.

فلما تمت من مدة ملكه سبعة أيام أطلع محمود ابن أسكي إسماعيل وجعله كنفار. وأطلع أخاه مارنف محمد كاع وجعله بلمع.

ومما يؤثر من كرم أسكي إسحاق وجوده أنه قال في مجلسه يوماً، وهو يوم عيد الفطر وسنغي كله حاضرون، وأعيان بلد كاع وخاصتها وعامتها، وقال لترجمانه وندع: قل لهذه الجماعة: هل بقي أحد من أهل كاع من لم يدخل يده إعطائي؟ فليقم ويذكر ذلك فنعطيه الآن. فقالها وندع، وهو قائم على رجليه ينادي به ويكرره، ولم يخرج

منهم أحد يذكر أنه لم يصله منحه. وشاع ذلك القول في البلد، وكان الناس يسأل بعضهم بعضاً عن ذلك، ولم يقل أحد أنه لم ير خيره ولا وصله إعطاؤه في ذلك. وكفى بهذا كرماً وحلماً وجوداً وسعة ملكه وكثرة ذات يده. فانظر كاع وعظمها وكثرة سكانها. وقد حكى لي الشيخ محمد بن علي درام أن أناساً من أهل السودان تجادلوا مع أناس من أهل كاع. وقال السودانيون: كَنوا أعظم من كاع وأكبر منها. وبلغوا في أمر ذلك وجداله نهاية وغاية، وذلك في مدة سلطنة أسكي الحاج. ودخل أولاد تنبكت المرجفون وبعض أهل كاع، وأخذوا ورقة ودواة وقلماً، ودخلوا بلد كاع، وابتدأوا من أول بيت بمغربها يعدون القصور ويزممونها واحداً بعد واحد إلى ثلاث أيام، دار فلان ودار فلان إلى انتهاء بنيان البلد من المشرق. فجاءت سبعة آلاف دار وستمائة وست وعشرون غير بيوت مبنيات بالحشيش. وحسبك هذا من كرمه، وكيف يمكن من تعميم هؤلاء بالعطاء في شهر واحد إلا بالقوة العظيمة.

ومكث في السلطنة ثلاث سنين. وفي أيامه ظهر النقص بدولتهم وتبين فيه القلق والاضطراب. ثم نزل عليه جيوش أمير المؤمنين مولاي أحمد الذهبي. وقدم عليه مملوكه الباشا جودر مع ثلاثة آلاف من الرماة هذا، ما قاله صاحب درر الحسان، باب كور بن الحاج محمد بن الحاج الأمين كانوا. وقيل أربعة آلاف.

وتحركت المحلة وقامت وخرجت من بلد مراكش آخر ذي الحجة من آخر الثامن التسعين بعد تسعماية، وقدموا كاع في أول جمادي الأولى سنة تسع وتسعين بعد تسعمائة يوم الجمعة لخمس منه. وملاقاتهم مع أسكي إسحاق كان يوم الثلاثاء في موضع يسمى سنكي، قريباً من تندبي، وهو موضع معروف. وكان مع طراد الأيمن، وهو بند الأعلوج، خمسمائة صباحية مع كاهيتهم. ومع طراد الأيسر، بند الأندلس، خمسمائة صباحية مع كاهيتهم. فلما تقابل الجيشان حمل عليهم أصحاب الصباحية من اليمين والشمال وتلقاهم فرسان سنغي وتخالطا. وقتلوا من سنغي تلك أربعة وثلاثين، وطعن أهل سنغي منهم ثلاثة عشر، وسقط منهم خمسة. وغشي القوم الرهج والدخان، وألقى الله الرعب والخوف في أهل سنغي.

سمعت ممن أثق به يحكيه عن من حضر هنالك يومئذ، فقال أن أسكي لقيهم بثمانية عشر ألف فارس مقاتل، فيهم كنفار وبلمع وبنكفرم وجنودهم، وتسعة آلاف راجل وسبعمائة، منهم إثني عشر سونة بعصيهم.

فلما دنى منهم رجلية الرماة جثوا على ركبتهم يرمون بالرصاص. وقد ساق ألف

بقرات معه حين صف قتالهم، وجعلها بينه وبين القوم، وينزل عليهم الرصاص ويتبع رجاله البقرات حتى تخالطوا بهم. فلما أحس البقرات بأصوات مدافعهم ولوا على أصحاب أسكي حازمين متحيرين، وصدم منهم كثيراً ومات أكثرهم.

وعند ذلك نزل أسكي الفع بكر لنبار وأخذ بلجام أسكي وقال له: اتق الله يا أسكي. فقال له: كأنك تأمرنا بالهروب والهزيمة، فحاشى، فلست ممن يولي ظهره. ومن أراد أن يفر بروحه فليهرب. وولد بان يمسك بركابه، وقد علق بسيفه وترسه يريد وسط القوم، ودار بهم خيول الرماة وأرادوا أن يحاطوا بهم. ثم قال أسكي الفع المذكور: اتق الله ولا تقتل نفسك وتقتل إخوانك وتهلك سنغي كلها مرة واحدة في موضع واحد، ومن هلك هنا اليوم يحاسبك الله بأرواحهم لأنك سبب هلاكهم إن لم تهرب بهم. ولا نأمرك بالهروب وإنما نقول لك أن تخرج بهم من مقابلة هذه النار اليوم، ثم ننظر في الرأي ما نفعل ونرجع إليهم غداً بعزم وحزم إن شاء الله. فاتق الله.

وهو ومن معه من شجعانه ورؤساء قومه يأبون إلا القتال والهجوم فيهم والمخالطة معهم، ويموت من ثم أجله، وينجو من لم يقرب أجله. ثم لم يزل أسكي الفع به حتى غلبه وبيده عنان فرس أسكي يقوده ويهربه. فلما رأى أصحاب أسكي أنه أدبر وتولى لم يقف بعده أحد منهم بل اتبعوه، سوى الذين يقال لهم سونة، وهم تسعة وتسعون لم يتحرك أحد منهم وبقوا جالسين تحت تروسهم، وأدركهم أصحاب جودر قاعدين وقتلوهم أجمعين.

وحين أبصرهم أصحاب جودر يتهيؤون للهروب وعرفوا ما حاق بهم من الرعب والاضطراب وقفوا وصاحوا ورفعوا عقيرتهم بلا إله إلا الله اشكروا الله الدائم الدوم.

وأشجع أهل سنغي يومئذ وأجرأهم وأقواهم قلباً بلمع محمد كاع بن أسكي داوود، وعمر بن أسكي إسحاق بن أسكي محمد، وكري فرم علو بن دندفار بكر بن سيلي، وباريكي تبكل الخصي. وما زالوا بعد هروب القوم يرمون أنفسهم في المهالك ويدخلون ويخرجون ويحمون وراء قوم أسكي ويدافعون عنه ما أراد لحوقهم، والرصاص يطير على رؤوسهم ويضرب الناس أمامهم ووراءهم ويمينهم وشمالهم حتى خرجوا سالمين.

وهو يحسبون أن الرماة يتبعونهم، بل نزلوا هنالك وما جاوزوها، ونصبوا خباءهم وضربوا العطن بها. ورجع أسكي إسحاق حتى دخل مدينة كاع مهزومين. واجتمع به قومه كأنه لم يمت أحد منهم. ودخل في أهل كاع في تلك الليلة مصيبة وكرب والبلاء

ضاق بهم درعهم، لا مقعد ولا مفر.

وفي تلك الحالة أرسل الأمير مولاي أحمد الذهبي رسولاً إلى أخيه الشريف محمد بن القاسم يأمره بالرحلة من تلك الأرض، إذ لايليق بأمثاله الجلوس بأرض القتن. فأرسل هو إلى جميع عبيده الزناجية الذي بكوي وكان له هنالك يومئذ سبعون بيتاً، وإلى الذين بكين وهو يومئذ أربعون بيتاً وغلة كل بيت ثلاثة آلاف كل عام، وإلى الذين بطوتل وهم يومئذ خمسة وستون بيتاً وغلتهم بعد كل ثلاثة أشهر أن يعطي كل بيت حزمة من الحيتان اليابسات، والذين بكوم وهم يومئذ اثنان وسبعون بيتاً وغلتهم في كل عالم أن يصلح بعضهم سفناً وغلة باقيهم العاج، والذين بأنكند وهم يومئذ ثلاثون بيتاً غلة كل أحد منهم كل عام حزمة من يابس الحيتان، والذين بدمب وهم يومئذ عشرون بيتاً وليس عليهم غلة إلا ملاحة السفن.

فلما قدموا إليه أمرهم بالرحلة جميعاً. فاستشفعوا بأعيان ذلك البلد، فقبل شفاعتهم فيهم كلهم إلا أهل أنكند. فقال: يا أهل أنكند إني أحب أن ترحلوا من مكانتكم لأن ذلك المكان جزيرة ضيقة بالماء، وفيه مردة الجن والشياطين. ومع ذلك كله لم يرضوا بتلك الرحلة، وقال لهم الشريف: اذهبو فلعل الله أن يريكم ذلك بغير هلاك. فكان كما قال رحمه الله، كل من ولد بذلك البلد فإنه يكون مجنوناً، والعياذ بالله.

وكان أسكي يوم عزم على الخروج لملاقاة جودر وقتالهم جمع أشياخ كاع وأعيان جيشه والقاضي الخطيب وكبراء شهوده، وسألهم عن الرأي والتدبير. وحضر هنالك بعض علماء تنبك، وأشار له بلمع محمد كاع: أني أرى من الرأي أن تقطع لي مائة فارس ومائة عبد ونصعد ونعور كل بئر كان لهم في الطريق وندفنه. ثم نرجع ونقوم للقائهم، تجدهم ظمآنين قد أشرفوا على الهلاك، ونقع عليهم. هذا هو الرأي. وصوبه بعضهم وأبى عليه البعض. وكل من ذكر ما عنده ردوه.

وقال العالم التنبكتي: وأحسن ما رأيك وأقول به وأظنه هو أصوب أن تأمر أهل هذه المدينة بالانتقال والارتحال إلى وراء هذا البحر وتبقى أنت وجيشك هنا. وإن جاء وأنت على بصيرتك إن غلبتهم فالحمد لله، وإن غلبوك فاخرج إلى المغرب فتحمل من كان هنالك يتبعك منهم أكثر من مائة ألف وتقبلهم بهم، وأنت في وسع وأهلك وأولادك ومالك في وراء البحر مكان المنع حتى ينصرك الله عليهم.

وكاد أن يميل إلى قوله، وقام سع فرم وقال: تمل تمل أصلح الله أمرك، الفقهاء لا يعرفون أمور الحرب ولا يعرفون إلا الكتاب واقراءة. فكيف يمكن ترحيل كاع

بعظمها وكثرة سكانها؟ أين السفن يحملهم إلى وراء البحر؟ لا يتفق ذلك إلا بعد ثلاثة أشهر. وقام كيمكي داوود بن إسحاق وقال: فكيف لا؟ يمكن في ثلاثة أيام، بل يمكن فيه بلا شك. والذي عندي لأسكي من قوارب كنت التي هي سفن السفر والسير أربعمائة كنت، يحملون دار أسكي وأمتعته ونساءه وبضاعاته وماله ثلاثة أيام. وأما غير كنت من السفن الكبار من مماليك أسكي من كيم إلى كدي تكون ألف سفينة، ما عدى سفن التجار وسفن بنات أسكي وسفن سكان البلد ومن السفن الصغار الكائنين هنالك، يبلغ عددها ستمائة أو سبعمائة على ظني، بل لم أر الرأي أحسن من رأي هذا الفقيه، فلا تعرضوا عنه.

فقال ذلك الفقيه: إن عرضوا عن رأي هذه ونبذوه سيأتيهم يوم عبوس، ترى امرأة تأخذ بيد ولدها وبيدها طست مليء من الذهب، تطلب من يحملها وأولادها بتلك الذهب ويرميها وراء البحر، ولا تجد من يحملها.

فكان ذلك يوم رجع اليهم أسكي من قتالهم هازماً، ترى امرأة وبيدها طست مليء من ذهب وغيره تنادي صاحب سفينة باكية: احملني ولك هذا، ولا تجد من يلفت إليها.

وأخبرني الشيخ محمد زغيت حفيد الخطيب محمد زغيت: إن هذا الفقيه المشار إليه الذي أمر بانتقال أهل كاع إلى وراء البحر هو الفع كعت. فلما أعرض القوم عن استعمال رأيه، بكر في غده قافلاً إلى بلده، وزوده أسكي مائة ألف ودعاً وعشر خدام. ومشى بعد ما لح أسكي عليه أن يصبر حتى يرجع من قتال القوم. فلم يرض، وأدركه الخبر بهزيمة جيش أسكي ببلد كنت. وذكر الشيخ محمد زغيت أنه أتاه في بكرة ذاك اليوم وقال: لي يا محمد لو أخذ أسكي بقولي لا يكون عليه مثل هذه الخسارة. ثم بكي وحوقل واسترجع.

ورأيت بخط الفقيه الإمام أبي بكر سن بن عمر أن القتال بين أسكي إسحاق وأهل مراكش في سنكي في طرف تندبي ضحى الثلاثاء سادس عشر جمادي الأولى عام تسع ونسعين وتسعماشة، قائلاً من خط القاضي محمود بن الحاج المتوكل كعت رحمه الله أن أول القتال والمضاربة بينهما كان في سنكي وهو أول المواضع الثلاثة الذي تضاربا فيها. والذي في حفظي قبل، سنكي هو مكان المضاربة الثانية التي وقع عليهم بالليل.

ولما فسد أمر سنغي وشتت الله شملهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون بتضييع

حقوق الله وظلم العباد والتكبر وشموخ الأنف، وكانت بلد كاع في أيام إسحاق في غاية الفسق وإظهار الكبائر والمنكرات وفشو القاذورات، حتى اتخذوا الزنات رئيساً، وصنعوا له طبلاً ويتحاكمون فيها، وغير ذلك مما يعيب به ذاكره والمحدث به ذو المروات. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم هرب أسكي إسحاق إلى أن نزل بمكان يقال له برهة، وأراد أن يتوجه إلى دند. فخالفه قومه. ورجع وقطع البحر ومعه جيشه، إلى أن نزل بمكان يقال له برهة. وأخرج ألف فارس وأمر عليهم أخاه بلمع محمد كاع، وأمرهم بالوقوع على جيش جودر.

فلما خرجوا من عنده بيوم وليلة عزلوا أسكي إسحاق، وطلّعوا محمد كاع وجعلوه سلطان سنغي. وتسلطن ومكث هنالك.

ولما وصل الخبر إلى أسكي إسحاق بأنهم عزلوه وطلعوا محمد كاع، خرج متوجهاً نحو كرم، ومعه شرذمة قليلة من أحبائه، منهم ولد بعن. وحمل من مال السلطنة الذي كان معه هنالك من الذهب والفضة كثيراً. واختار من أفراس السلطنة ثلاثين فرساً مختارين ما بين بر والحمدية تقاد معه، وأربعين عبداً من الخصيان، والعلامات، وهن اثنا عشر بند السلطنة وطبل السلطنة وسيف أسكي محمد الذي أتى به من حجه. وقد قدمنا أصله وما قيل فيه واختلاف أقاويل الناس فيمن صار بيده من الأساكي.

فلما خرج هارباً شيعه من معه هنالك من أهل جنده حتى بعدوا معه. فلما أرادوا الانصراف والرجوع نزلوا على أفراسهم يتباكون على ذهابه وودعوه. ثم قال له هيكي: يا أسكي إنك تذهب بمال أسكي الجديد وتذهب بأشياء لم يذهب به ملك عزل أو طرد قبلك من الأساكي، ونحن مسؤولون به ومعاقبون على ذلك ممن يتولى بعدك. فقال: وما هي؟ قال: هؤلاء البنود. فقال: صدقت، وردها. ثم قال: هل بقي عندي شيء؟ فقال: هؤلاء الخيول، وهم خيول سرج أسكي. فرد منها خمسة عشر، وأمسك خمسة عشر. ثم قال: فما تريد بعد ذلك؟ فقال: هذا دنتور، فردها. ثم سأله: هل بقي شيء؟ فقال: ولدك البرك، فلا لك أن يذهب به، ولم يكن ذلك عادة، لأن كل من عزل إذا هرب فلا يهرب بولده، بل يتركه لأنه ملك السلطان الذي يتولى بعده، وهو ولده. فقال له أسكي إسحاق: هذا الذي تذكره ما خفي علي، ولا أجهل أن أسكي المعزول لا يذهب بولده، وذلك إذا كان لا يتولى بعده إلا أحد أولاد أبيه فيبقى عنده وهو ولده، واليوم لا يتولى بعدي إلا جودر، ولا أترك ولدي له ليملكه أو يبيعه، وإن طلبت أن تغصب منه ولدي وتعطيه لجودر فقد رمت شططاً. إما إن تقتلني أو أقتلك.

فسكت هيكي ثم قال: فهذه خاتم أسكي محمد وسيفه وعمامته. فقال: أما الخاتم لا يصيبه إلا من كسر أصبعي، وكذلك تلك العمامة لا ينالها إلا من قطع رأسي، والسيف سيفي، فليس بسيف أسكي. واصرف وانصرفوا.

ومضى إلى كرم، وقصد مدينة بلنك التي هي دار ممكلة سلطان كرم حتى نزل بخارج المدينة، وأرسل إلى سلطان البلد بمكانه وحاله وما جرى عليه وأنه قصد حرمته. وكان إسحاق حاربهم مرتين وغار عليهم وقت سلطنته، وقتل من جنده أكثر رجالهم حتى كاد أن يستأصلهم. ثم ساقه قدر الله وقضاؤه إليهم، فرحوا بإدراك ثأرهم منه.

وخرج سلطان البلد إليه في جم غفير وتلقاه بالترحيب والتعظيم، وهم كفار، وساقهم إلى وسط البلد وأنزلوهم في دار واسع هنالك، وأضافوهم ضيافة عظيمة في تلك الليلة. ثم رجعوا إليهم وقت السحر نائمون وصعدوا فوق تلك الدار بالنشاب عليهم، وصاحوا عليهم. وما أيقظهم إلا نزول النشاب عليهم كالمطر. وهدموا بعض جدار البيت عليهم وقتلوه، وقتل ولد بعن معه وجميع أتباعه.

وقيل لما نزل النبل على إسحاق وأخذ يتمضمض لسانه، أتاه ولد بان ووقف عليه، وكان ولد بعن علق السكين على سراوله، سل ذلك السكين وقال: آليت وحلفت لأسكي إسحاق إن أتاه الموت وأنا حاضر إلا أن أموت له قبله. ثم أخذ حلقومه بيده وذبح نفسه وسقط ومات قبل موت إسحاق. وهذا ما نقلته من كسردنك بكار، حدثني ببعض القصة، وحدثني به غيره ممن أثق بروايته.

الباب الخامس عشر

أسكي محمد كاع وانقراض دولة كاع

فلما تسلطن أسكي محمد كاع بعث رسولاً إلى جودر سراً يطلب المصالحة معه وبدخوله في طاعة السلطان مولاي أحمد الذهبي ويعطيه الجزية والغرامة. وأجابه جودر وكتب له أنه عبد مأمور لا يقدر أن يفعل ذلك إلا بمشاورة السلطان مولاي أحمد نصره الله واستئذانه.

وبعد هروب إسحاق دخل الباشا جودر وجيشه في وسط كاع ومكث فيها خمسة عشر يوماً. ثم ارتحلوا في اليوم... من جمادي الآخرة وقصدوا بلدة تنبكت حرسها الله، وقدموا صبحة الخميس في اليوم الأول من رجب، ومكثوا على ربوة تنبكت شهراً. ثم دخلوا ديار البلد وبنوا القصبة.

وفي درر الحسان لباب كور بن الحاج محمد بن الحاج الأمين كانوا أنهم نزلوا بخارج مدينة تنبكت في الجانب الشرقي صبيحة الخميس غرة رجب عام تسعة وتسعين. وتسعمائة فتلقاهم أعيان البلد بالترحيب، وأطاعوه في البيعة وضيفوه. ثم دبر في تحصيل القصبة داخل المدينة فحصلها. ثم دخلها بجنده انتهى.

وروي أن جودراً أتى إلى الفقيه القاضي عمر بن محمود، ودخل عليه وقبل رأسه ورجليه وجلس تجاهه متملقاً وقال: جئتك أطلب منك أن تستعير لنا داراً نسكن فيها، وقد قربت وقت المطر، ومعنا بارود السلطان مولاي أحمد الله ينصره، داراً أو رحبة واسعة فنبني بها قصبتنا وندخل فيها، إلى أن يأتيني أمر السلطان بالرجوع إليه، فنرجع فنتركه لمواليه. فأطرق القاضي ملياً، ثم قال: إني لست بملك ولا أقدر على إعطاء دار أحد، فادخل داري فانظرها، إن كان مرادك فيها فنخرج منها وتدخلون فيها كرامة وطاعة للسلطان نصره الله، وإلا فادخل في البلد وانظر أي المواضع منه أحب إليك ويوسعك وقومك فافعل.

ثم خرج وطاف في البلد ومعه نفر من قومه، حتى وصل إلى موضع هذه القصبة، وألقاها معمراً، بل هو أعمر ديار تنبكت، وفيها بيوت التجار الكبار والأعيان، وفيها هذا المسجد الذي يقال له مسجد خالد. ودار تباشات هذه هي طرف دار تاجر اسمه الحاج أكرجوم، وهذي الهرى هي دار تاجر كذلك يسمى سن سمووع، معناها سن لا يأكل الأرز.

وطافوا بذلك المكان وقلبوه وعجبهم وقطعوا منه مقدار هذه القصبة. ثم أمروا أرباب تلكم الديار بالانتقال والرحلة والخروج. ولا دار هنالك إلا وهي مملوة بالمال العظيم من الملح والصنيات وغيرهما مما لا يدخل تحت حصر ولا يعلمها إلا مالكها. واشتكى أهل المكان إلى القاضي عمر رحمه الله أن يستشفعون به ليطلب من جودر التأخير لهم حتى يطلبوا من البلط بيوتاً ينتقلون فيها.

فأرسل القاضي خديمه أشرع منذ عمر ليكلمه ويصبر لهم في ذلك. وركب هو بنفسه مع نفر معه وأتى القاضي وقال: سمعاً وطاعة لأمرك، ولكن إلى كم من الأيام؟ فقال الشهر، وإن منهم من يكون الشهر في انتقاله قليلاً. فقال: لا نقدر على صبر شهر، وقد ضاقت علينا الوقت، بل نصبر خمسة عشر يوماً، فيبادرون بالخروج. ثم خرج، فأخبر القاضي أولئك القوم بما قال.

وشرعوا يصبحون ويمسون فيطلب الديار، ويخرجون ما قدروا على حمله. فما

راعهم في صبح اليوم السابع إلا وهم نازلون لبابهم بحمولهم وخيولهم، وهجموا عليهم بالكلام القبيح والانتهار والضرب، وأخرجوه بالرغم والقهر وقسموا ديارهم، وهم داخلون وأربابهم خارجون. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وبقي جل أموالهم هنالك في ديارهم. ثم بعد خروجهم ما استطاع أحد أن يرجع إلى حمل ما بقي له. وشرعوا في تلفيق الديار والطرق وهدم بعض الديار. ولا فتنة أعظم ولا أكبر على أهل تنبكت ولا أمرّ منه.

نادى الباشا جودر علماء تنبكت وتجارها ووظف عليهم العبيد والخدام لبنائها، ونفقة العبيد منهم من كتب عليه عشرة عبد. ومنهم من وظف عليه سبعة وخمسة عشر وثلاثة عبد. وزمموا على كل منهم عدد من يأتي به وأسماءه. ويخدمون إلى صلاة العصر، وبعد صلاة العصر ينادي أين شواش، ويأتيه منهم أكثر من أربعين شاوشاً، ويأمرهم بسوق كل عبد إلى مولاه، ويقول: قل لأربابهم أن يعشاهم حتى يشبعوا ويبكروا بهم ويكون مع كل أحد منهم غذاه، بحيث لا يطلع شمس على أحد إلا وهو عندنا. ويشيعونهم الشواش إلى سيدهم ويعدهم له، ويجعل أيديهم في يد السيد. ويبكرون بهم قبل طلوع الشمس، ومعهم نفقتهم، حتى يقفون بهم عليه، ويعدونهم له واحداً بعد واحد. ومع هذا كله شواشهم يطوفون في البلد، وكل من التقوا بهم قبضوهم وساقوهم إلى حمل طين البناء من الصبح إلى العشي، حتى تم البناء انتهى.

وأخبرني بعض شيوخ تنبكت حرسها الله أن الباشا جودر قطعب علتجار تنبكت وقت البناء ألفاً ومائتين صنية عند استهلال كل شهر، يأتون بها في غده، ويفرقها على جنده تفرقة المؤنة. والمخبر المذكور أظنه المعلم بض الخياط مولى زين بن بنأ انتهى.

باقتصار ولا يحاط باطراد من نزلت بتنبكت من المصائب والاتلاف عند نزولهم بها، ولا يحصروا مما أحدثوه فيها من الزور والكبيرة، وقطع أشجارها ليستعملوها سفينة. وبعد صنع ذلك أمروا بجري تلك السفينة من تنبكت إلى البحر انتهى.

فلما تمت بناء تلك القصبة، وارتحل بجيشه كله إليها. فما لبث إلا قليلاً حتى نزل عليه الباشا محمود بن علي بن زرقون في نفر قليل، فارتحل مع جودر بجنودهما إلى كاع، وقاتلوا أهل سنغي وفتحوا بلادهم، وقبضوا على أولاد السلاطين منهم. وهرب عامتهم إلى بلاد دند، فسكنوها إلى هلم جراً. ونزل الباشا جودر في مدينة كاع ببعض الجند، ونزل محمود بالبعض في تنش، وضربوا العطن فيه.

وأرسل أسكي محمد كاع إليه، وهو نازل بجنده في مكان يسمى برهة كما تقدم،

يروم عقد الصلح بينه وبينهم. ورضي محمود، وتغفل بالغرور، وفرح برسله وأعطاهم الهدايا، وكتب إلى محمد كاع بأنه على ذلك الصلح، وأمره أن يأتيه بنفسه حتى ينظران ما هو الرأي وما يعقدان الصلح عليه.

فبعث أسكي محمد كاع إليه أسكي الفع بكر لنبار وهيكي. ومتى وصلا إليه، لقيهما بالترحيب والتعظيم، وضرب لهما الفسطاط، وبسط لهما الفرش وضيفهما. ومكثا عنده ثلاثة أيام. ثم كساهما بأحسن الكسوة والهدايا، وبعث لأسكي ما بعث، وكتب له يأمره بالمجيئة بنفسه، وحلف له بالأمانة التامة، وأمره بالتعجيل والإسراع بالقدوم، وأنه لا ينتظر إلا قدومه، وأنه مستعجل يريد الرجوع. ورجعا إلى أسكي بكتاب الباشا محمود. وقرأه، وحثه أسكي الفق على الذهاب وحضه عليه، وأنه يغدره وغره بأن الباشا حلف بالمصحف بأنه ليس له عنده إلا أمانة الله. قيل أنه أطلع أسكي الفع على جميع أسراره وجعله حبيباً وخليلاً، وباع له أسكي محمد كاع، ووعده له بأمور أن يتسبب لإتيان أسكي إليه.

وبعد سبعة أيام بعد قدوم أسكي الفع من عند محمود جمع أسكي أهل سنغي وشاورهم وأعلمهم بأنه ذاهب غداً إلى مجيبة الباشا محمود. وما فاه أحد منهم بكلمة لا ولا نعم. ثم قال له هيكي: أنت ما رأيت محمود وما عرفته، وما رآه إلا أنا وأسكي الفع، وإنا ما نظن معه إلا الشر، وما ترك لنا من التعظيم والتملق شيئاً، وإنه كان يقبّل رأسنا ويحمل لنا المأكول بنفسه ويخدمنا ويأتينا بالماء ويقف بها على رؤوسنا حتى نفرغ من الأكل. وحين رأيت ذلك تحققت أن له مراداً إياك إياك ثم إياك. فلا تذهب، فإن خالفت وذهبت والله لا ترجع أبداً. هذا ما ذكرت لك.

فالتفت إلى أسكي الفع فقال: ما تقول أنت يا الفقيه؟ فقال: والله ما نرجو فيه أنا إلا خيراً ووفاء. وسكت أسكي. وانصرف كل من الجماعة إلى منزله.

فلما أصبح ضرب طبله وركب مع من معه وأسكي الفع، وكان أخوه أسكي سليمان وطائفة من قومه هربوا منه إلى المحلة ودخلوا على محمود وأطاعوه ونزلوا عنده في المحلة، وأعطاه الخباء. وأسكي محمد كاع لا يشعر بذلك، فسار محمد كاع وجيشه كله متزيناً بأنواع اللباس حتى وصل أثناء الطريق، وكان معه كنفار محمود بن أسكي إسماعيل وبنكفرم تمن درفن، لحقه كنفار محمود ونزل عن فرسه وقال: اسمع وصيتي ووعظي واتبع قولي، فإني لك ناصح أمين. فقال له بما ذا توصيني وتعظ وتنصح؟ فقال: إن كنت عزمت على الذهاب وحملك الجراءة عليه، فاذهب أنت،

وحدك ويتبعك أربعون فارساً. وإن رجعت فلله الحمد، فقد رأيت من محمود ما رأيت. فإن قبضك فذلك قضاء الله وقدره. وإن شئت فاجلس أنت وأذهب أنا وكافة كرمن، فان قبضونا فذاك قسمتنا، وتسلم أنت وتنجو أنت ومن معك، فهو خير من ذهابنا كلنا صغيرنا وكبيرنا، ونصل في أيدي العدي ويستأصلونا، فنفنا مرة واحدة في موضع واحد. فنصير أثراً بعد عين. فهذا قولي.

فالتفت إلى كاتبه أسكي الفع المذكور فقال له: ما تقول أنت؟ فإني أظن أن قوله هذا صواباً. فقال أسكي الفع بكر: لا تسألني، فانظر في رأيك، فقد كثر الكلام في حل وربط، وذلك لا يليق بالسلطنة.

فوقف قليلاً، ثم مضى على وجهه، وقد سبق من أمر الله ما سبق. وركب كنفار محمود وتبعه وساروا. فلم يكن إلا قليلاً حتى تلقوا بالقائد الحروشي، ومعه ثلاثون خيلاً من أصحاب صباحية. فلما التقوا بهم حمل عليهم القائد الحروشي وأصحابه ودفعوا عليهم بمكان حلتهم وضربوا عليهم. ثم نزلوا على الأرض، وبايعوا أسكي وتبندقوا له قائلين: بسمل بسمل يا أسكي محمد، الفرح بك، يسلم عليك الباشا. ثم ركبوا، ودفع عليهم بعض أولاد أسكي اللاعبين بهم كذلك. ثم كر الحروشي وقومه راجعين إلى محلتهم.

وركب كنفار محمود يهرول حتى وصل أسكي، ونزل على الأرض وقال: يا أسكي ليس الخبر كالمعاينة، فاعلم أن هؤلاء الفرسان ما جاؤوا إلا للتجسس، فإن كنا لا تحب لنا الموت والفناء فقد رضينا بأنا لا نهرب، فدعنا ندفع على هؤلاء الفرسان ونقتلهم ونمر إلى محلتهم ونقع عليهم، لأنهم إذا رأونا يظنوننا فرسانهم أصحاب الحروشي، حتى نختلط بهم. ومن يموت فليمت على متن فرسه، وهو أحسن من دخولنا في أيديهم هكذا ونحصل بحيث لا رجوع لنا. فقال أسكي: حاشى ما نبتدأ بالخيانة والخداعة ونقض العهد بعد إبرامه. ومضى فلم يقف، وتبعه كنفار محمود حتى عثروا على المحلة وطلعوا عليهم وعلى خباياتهم الكبيرة.

وحين وصلهم الحروشي وبلغ إليهم وأخبرهم بمجيئهم، دخلوا في الخزامة وصفوا باليمين والشمال، وما منهم أحد إلا واقف مسند على مكحلته ممتلئ الفم بالرصاص. وحين وصل أسكي وقومه، خرج محمود والقائد مامي ماشينن على رجلهم مسرعين. ونزل أسكي محمد، وعانقه محمود والعائد مامي والكبراء كافة ورحب بهم، وأخذ بيده وساقاه إلى خبايا وأجلساه على مرتبتهما بين نمرقته أو جلس تحته.

وحياه الجيش كافة اثنين اثنين يأتيان ويتبندقان له السلام ورحمة الله. وأصحاب الشغل والرباب والنزوا والغياط جالسين وراءهم تحت خباياه يشتغلون. ولم يبق أحد من أصحاب أسكي إلا نزل عن فرسه ودخل في حلقتهم، وجلسوا مدهوشين من حيث رأوا قوماً وجوهم لا يشبه وجوههم بعدّ غفيرهم وزيهم الرقطى، وقد دخلهم الوجل والرعب والخوف.

وأمر محمود ومن معه من سلسلة وأهل الدائرة وحلوا غرائر التمر والزبيب والكور، وفي أيدي بعضهم طيفور، وبعضهم في أيديهم المناديل، يتبعون صفوف أصحاب أسكي، ويناولهم. ثم أخرجوا إليهم الموائد واللحوم المشويات، وأكلوا. وبعضهم واقفون على رؤوسهم بالماء في طست، ومنهم من يناولهم الماء بعد الفراغ من الأكل، ومنهم من يحمل الماء لغسل الأيدي، والمناديل يمسحون أيديهم فيها.

ثم قام محمود ودخل تحت خباء كبيرة مضروبة وراء الخبايا التي تجمع فيها. ثم أمر بالقائد مامي ونودي وخرج إليه وقال: ما تقول في هؤلاء القوم؟ وقد جاؤونا بأمانة الله، دعوناهم فأجابونا طائعين، وما كان مع أحد منهم سلاح. فالذي كان عندي أن نتركهم اليوم ويرجعون، وهم قوم حمقاء لا يعرفون الشر، ومتى أردناهم ما نريد يأتون، ويأتونا إن دعوناهم، فما تقول أنت؟ وقال مامي: نادوا الكواهي والباشوطات، وجاؤوا. وقال مامي لمحمود: أعد عليهم كلامك التي قلت في هؤلاء القوم. وأعاده عليهم. وقالوا كلهم لمامي ايش قلت أنت يا القائد؟ ومولانا أحمد نصره الله ما أرسلك معنا إلا للحرب والرأي والمكية. فقال: الله ينصر السلطان، ما بعثني إلا لذلك، ولكن يا الباشا الله يقويك ويعمل البركة فيك، كلامك هذا ما فيه بأس، ولكن هذا الناس قد دهشوا وخافوا ودخل فيهم الرعب، وإن خرجوا في أيدينا اليوم لا يرجعون إلينا أبداً لما خامرهم من خوفنا، ولا يجيبون بعد هذا اليوم إن دعوناهم. ما جاء بهم غير سعادة السلطان نصره الله. ومن دخل عدوه في يده فلا بد ضمان بقوته، فلا يتبع العاقل الأثر بعد العين، وإن فاتنا فيهم هذا اليوم لا نصيب مثله أبداً.

فقبل الباشا محمود يد القائد مامي وصوب رأيه. ثم قال القائد مامي: إن قبضناهم نشاور في أمرهم السلطان ونعلمه بحالهم. وإن أمر بإطلاقهم طلقناهم ولا نقتل واحداً منهم، وإن أمر بقتلهم قتلناهم. واتفقوا على رأيه.

ورجع القياد والكواهي والباشوطات إلى مكانهم من ذلك المجلس، وبقي هناك محمود ومامي، ونادوا شاوش باش وأمره أن ينادي أسكي وحده. وأتاه شاوش باش

وقبل ركبتيه وقال: أحب الباشا. ونهض أسكي قائماً وحده وذهب إليه معه حتى دخل عليهما. وقاما له وأجلساه معهما، وأتوه بقميص الحرير، وأمره أن يخلع عمامته. فخلعها كأنهما ينزلان القميص في عنقه. ورموه على رأسه وكبوا عليه، وقبضوه وجعلوا طرف عمامته في عنقه، وأمسكه شاوش باش.

ثم أمر الباشا محمود أن ينادي الرماة ويصيح بهم: ما أينه ما أينه. وقلعوا أوتاد الخبايات اللواتي تحتهم أصحاب أسكي وكبت عليهم، وقبضوهم أجمعين. ثم نادى المنادي وقال: كرلي كبيس، ومعنى كرلي كبيس في اصطلاحهم على ما فسرها لنا الكاهية محمد بن المصطفى الهندي: من رفع يده فاقتلوه. ثم أمروا بهدرباش على القوم الذي بقوا عند خيول أصحاب أسكي يمسكونهم من خدامهم وصبيانهم، وركبوا خيولهم وهربوا. وتبعهم فرسان الرماة وأدركوا بعضهم ولحقوا بهم، ونجوا بعضهم وانصرفوا.

ثم جاؤوا بسلسلتهم الكبيرة الطويلة وجلعوا فيها أعناقهم، وهي سلسلة واحدة اشتمل الكل إلا أسكي وحده، ما وثقوه وما ربطوه وما مسوه بحديد، بل فرشوا له تحت خبيئة هنالك، وجعلوا عليه الحرس والحفظة. ثم ما قلع من أحد لباساً لا قميصاً ولا سروالاً ولا عماماة ولا قلنسوة، وجعلوا عليهم قوماً كثيراً يحرسونهم. وإن قام أحد منهم للبول قام الكل معه. إنا لله وإنا إليه راجعون.

وفرقوا بينهم وبين أسكي، ولا يعرف أسكي لهم الخبر، ولا يعرفون له خبراً، وأسكي سليمان في المحلة، ثم الباشا يخفيه.

بعد عشرة أيام أخرجوهم، وهم في تلك السلسلة، والعياذ بالله من غلبة الرجال وصولة الزمان، إلى سفينة هنالك. وفرشوا لهم فيها، وذبح لهم بقرات، وأدخلوا لحومها معهم، وزودوهم. فلما حصلوهم في تلك السفينة، أخرجوا أسكي وركبوه على برذون، ومحمود يمشي معه ويحدثه ويحمل معه عود الكور إلى أن وصله إلى السفينة، وأمر بفرش زربيتين والحيفة من الحرير والوسائد، وأنزله على فرسه، وأمر بحمله إلى الفراش تحت هنك، وودعه وعانقه، وجعل عليهم شاوشاً واحداً يتبعهم ويخدمهم إلى أن يمكنهم بيد الباشا جودر، وهو في مدينة كاع.

وسار معهم، وإذا أصبح يأتي ذلك الشاوش إلى أسكي ويخرجه من السفينة إلى البر، ويأتيه بالوضوء ويصلي ويسلم على أصحابه، ويأتيه الشاوش بالفطور ويفطرون، ويقسم عليهم الكور. ومن القوم من ما أكل وما شرب منذ قبض إلا يسيراً يسد به الرمق. فلما كانوا في اثناء طريقهم بلغوا لأسكي رسالة إسحاق يوم يذهب بأن أمرهم

أن يقولوا له: هذه المصيبة التي نزلت بنا تكون إن شاء الله أفضل من المصيبة التي سيأتيه. فلما بلغوا إليه الرسالة بكي.

ثم قال أصحابه له: فما رأيك، فلا بد أن نسألك بها. نحن بجماعتها يسوقنا شاوش واحد، وإن كنا في سلسلة إن شئنا نقتله وندبر في إخراج هذه السلسلة في أعناقنا ونهرب على أرجلنا. فما تقول أنت؟ فقال: ما وافقت رأيي ولا كان الصواب في فمي، فكل ما عملته من الرأي ما نفع منها واحد، ما تتبعوا قولي. وأما أنا إن سألتموني بهذا الرأي لا آمركم به، وأظنه لا يصلح، إن فعلتم ذلك وهربتم على أرجلكم أدركوكم فيفعلون بكم ما هو أقبح من هذا. فاصبروا، وما في ظني أن السلطان مولاي أحمد لعله إن سمع بخبرنا ودخولنا تحت طاعته طوعاً ومجيباً دعوته وإتياننا لقومه، عسى أن يأمر بإطلاقنا وتسريحنا. فتبعوا قوله وصوبوه.

ثم بكر عليه ذلك الشاوش يوم دخولهم في كاع، ومعه كبل، وقال لأسكي: هات برجلك وقد أمرنا الباشا بقيدك يوم دخولك في البلد. ومد رجليه إليه وكبله في حضرة قومه. وحينئذ كسر قلبه ويئس من نفسه وقطع رجاءه من النجاة. وحين رسوا في المرسى عشية يوم الثلاثاء بأكبالهم ولبوسهم، وهم ثلاثة وستون، ساقوهم موثقين في القيود والسلاسل من تنش إلى كاع، وسجنوهم هنالك نحو شهر. ثم حفروا في تلك الدار جباً عميقاً واسعاً، وقتلوهم جميعاً، ورموهم في تلك الجب أجمعين، وردوا عليهم التراب، رحمهم الله.

وما قتلوهم إلا حين قتل ابن بنش أهل محلتهم الذين يخرجون من مراكش، فيهم القائد يقال له قندبور - يقول أهل السنغي يوم قندبور - وفيهم أربعمائة رام، وقع عليهم ليلاً واستأصلهم. ولو لا ذلك لم يقتلهم، لأنهم أرسلوا للسلطان مولاهم يشاورونه في أمرهم هل يقتلوهم أو يتركوهم. ولم يرجع المرسول حتى كان هذا الأمر. وقندبور في لغتهم عظيم البطن، كان بطن ذلك القائد عظيماً.

الباب السادس عشر
الباشات في تمبكت
ونوح أسكي دند

ثم بعد ذلك ارتحل الباشا محمود وجيشه من كاع إلى دند في طلب أسكي نوح ومن بقي معه من أولاد أبيه وأتباعهم.

وكان أسكي نوح من عفاريت أولاد أسكي داوود، وكان مسجوناً حين نزل محلة جودر إلى سنغي، سجنه أخوه أسكي إسحاق. فلما هرب أسكي إسحاق خرج بنفسه وذهب واجتمع إخوته وصاروا جماعة كثيرة. وكان رجلاً فارساً جسيماً بطلاً طويل القامة جميل الوجه.

وقد كنت أنا يوماً عند شيخنا الفقيه محمد بن المختار الملقب محمد بن كرتم في مدينة تنبكت حرسنا الله، ووقع في مجلسه ذكر أسكي نوح وقصته. أثنى عليه بعض من حضر هنالك بخير وصيت فقال شيخنا المذكور: أنتم لا تعرفون قدر نوح ورفعته، فهو أكرم بني أسكي داوود وأحلهم. ثم نهض ودخل في داخل بيته، وأخرج إلينا ورقة مطوية في جعبة نحاس، فإذا فيها مكتوب كتبه الوالي الصالح العارف بالله العالم العلامة السيد المكاشف زين العابدين الشريف الحسني بن الولي الصالح العالم سيدي محمد البكري، كتبه لأسكي نوح بخط يده الكريمة رضي الله عنه، بأحسن التحية والإعزاز والإكرام والدعاء له بخيري الدنيا والآخرة. ومما بقي في حفظي من تلك الأدعية قوله: وكنا ندعو الله لكن في أوقات الإجابة في ليل ونهار وفي ظلم الليالي.

قال محمد ولد كرتم رحمه الله: جاء بهذا الكتاب والدي الحاج المختار من حجته. قال ناولنيه زين العابدين في بلد مصر، وأمرني بإيصاله لأسكي نوح. ومتى قدم وجد نوحاً قد ذهب وهرب إلى دند. فلما تبعه الباشا محمود وجودر وجيشهما يقتفون آثاره، وهم لا يشعرون بأنهم على آثارهم، نزلوا بمكان يسمى وام، ومعه جم غفير من أهل سنغي والرجال والأطفال والعبيد والإماء، ينتجعون معه من أهالي كاع ونواحيها. وأدركهم محمود بن زرقون هنالك نازلين وقت القيلولة. فما نبههم إلا رهج الخيول، ونهضوا إلى خيولهم وركبوا ووقفوا ينتظرونهم، وما كان إلا كلمح البصر.

ونوح جالس، فأمره أصحابه بالركوب والهروب. فقال: إلى أين؟ قد هربنا إلى أن عجزنا، ونصبر اليوم حتى نموت على دين الإسلام ونستريح. فحملوه إخوانه وأركبوه وفروا به.

وهنالك وجد محمود كافة من تبعه من إخوته. وهي آخر المصائب نزلت بهم، وشتت شملهم وفرق جمعهم شذر مذر. ويسمى هذا اليوم الذي لحقهم فيه الباشا محمود يوم وام، يوم سفكوا دماءهم وسبوا ذراريهم.

وأول خسارتهم يوم القتال والمضاربة يوم سنكي، ومات فيهم من مات. ثم يوم فرار أسكي إسحاق الزغراني إلى كرم، تبعه جماعة وقتلهم معه. ثم يوم تنش، يوم أُسر

فيه أسكي محمد كاع وجمّاء الغفير. ثم يوم وام، وذهاب من ذهب من أبناء أبيه وبعض بناته.

وهذه النوازل هي التي أفنى سنغي وأبادهم بالكلية، بحيث ما جاء مع أسكي سليمان بن داووند إلى تنبكت ممن هو من أصول جند أسكي إلا نفر قليل، ما جاوزوا سبعاً وأربعين، ما بين الفارس والراجل. وعظمهم هيكن عبد الرحمان وهيكي برهم. فلما قدم أسكي سليمن إلى تنبكت وتوطن منهم جعل يلتقط رجالاً من أهل كرمن وبلمعي وبنك وبر حتى أحصل له من الجند نحو مائة رجل انتهى.

والباشا محمود لم يزل في كوكية وجيشه حتى أتاه هنالك براءة القائد المصطفى التركي ورسوله يطلب منه الإغاثة، وأخبره بما جرى بينه وبين أهل تنبكت من القتال والمضاربة، وأنهم قتلوا من رماته ستاً وسبعين، وأعلمهم بأنه في الحصران ويطلب الغوث منهم. واكترى ذلك الرجلَ لهم تارقاً، وأعطاه فرساً حراً أي رمكة كانت له. ولما وصل الرسول إليه أغضبه ذلك وغاظه، وألقاه عازماً على الرجوع إلى دند ليستأصل أولاد أسكي الذين كانوا مع نوح. فعمل ديواناً وشاور جيشه على أن يرجع إلى تنبكت لغوث القائد المصطفى. واتفقوا على أن يقطع لهم جيشاً من يغيثهم، وأشار إلى القائد مامي، وقلدوه ذلك وعينه، وقطع له سبعمائة رامياً، وسيره من غده.

وسأله القائد مامي عما يفعل بأهل تنبكت. فقال له الباشا: إذا وصلت فاعمل فيهم السبيل سبعة أيام. وعمل السبيل في عبارتهم إذا غضب السلطان على أهل بلد أو خرجوا عن طاعتهم أو خالفوه، ينزل عليهم جيشه فيدخل عليهم في بلادهم فيقتلون منهم كل من لقوا بهم، ولك من رأوه إلى أيام، إما يوم أو يومين، وإن كان بلد كبير استمروا على قتلهم إلى سبعة أيام. فقال مامي بلد تنبكت لا يوسع للسبيل ساعة وهم ألطف الناس وأرقهم قلباً. إن قتلت منهم ثلاثة يموت سبعة بالفزع والروع بلا مس الحديد، ومع ذلك السلطان نصره الله ليس مراده في خسارة تنبكت ولا خرابته، ومراده أن يُبنى عليها قصبته ويجلب منهم الأموال. وقال محمود: نعم عرفنا هذا، هو مراده، ولكن الأمر بيدك، فافعل برأيك، وتنظر ما يمكن فيهم. وقال: أذهب إن شاء الله ونعاملهم بالهداية والإسكان حتى تأتي أنت.

وقرأوا الفاتحة على ذلك، وارتحل مامي وسار ومضى حتى نزل بخارج البلد. ووجدوا أهل تنبكت قد تصالحوا مع القائد المصطفى، وانقطعت الفتنة والقتال. ووافق مجيئه هنالك بليلة المولد الشريف ثاني عشر من ربيع النبوي من الحادي بعد ألف، في

ليلة ما أعظمها، وأعظم بروعة كانت فيه. هرب أهل تنبكت، ودخل البحر، وحسب الناس أن الفناء يكون في غدها. وكم من رجال خرجوا منها في تلك الليلة وتركوا أموالهم وأولادهم وأزواجهم، وما حملوا من ديارهم حتى العصى. ومضوا وما رجعوا إليها بعد ذلك. واكتسب بعض سفهاء البلد في تلك الليلة أموالاً، وترى رجلاً يدخل على قوم في ديارهم ويرفع منها ما شاء ويخرج به، ورب الدار وذويه ينظرون إليه ولا يقول له أحد منهم شيئاً.

ودخل القائد القصبة في تلك الليلة، وتلقاهم القائد المصطفى، وبات الناس مفزعين ساهرين يتوقعون الشر الذي يكون غداً. وأصبح أهل تنبكت لم يفتح أحد منهم بيوتهم صامتين، ولم يخط أحد في طرق خطوة واحدة، إلا بعد صلاة العصر أمر الفقيه القاضي عمر أن ينادي أعيان البلد. فنادوهم، وأتوه أجمعون، منهم الفقيه محمد بغيع رحمه الله، يشاورهم على ما يفعلون. وما شرعوا في الكلام حتى دخل عليهم غلام القاضي الموكل بالباب، وأخبرهم بأن القائد مامي واقف بالباب، ومعه طائفة من قومه يستأذن بالدخول. فتغير الجالسون لذلك، وغير وجوههم. ثم استأذن له بالدخول، فدخل، ومعه أصحابه.

فدخل، وأراد القاضي أن يقوم له، وعزم عليه بأن لا يقوم ونهاه عن القيام. فمتى دخل انكبّ على رأس القاضي فقبله وعلى ركبتيه وعلى قدميه فقبلهما وقبل يديه. ثم التفت على الفقهاء والرؤساء وحياهم وسلم عليهم، وردوا عليه. وجلس قبالة وجه القاضي مستوفزاً. وقال أن: الباشا محمود والقياد والكواهي يسلمون عليك، وهو الذي أرسلني متى بلغه ما عمل فيكم سفهاؤنا، وساءه ذلك، فيطلب منكم العفو والغفران، وأن لا تأخذونا بذنوب ذلك، فبالله العظيم ما عملوا ذلك برأينا ولا بمشاورتنا، فاغفروا لنا، غفر الله لنا ولكم، ونحن حفرنا وردمنا، ونحن وإياكم اليوم إخوة، والسلام لا شك بعد هذا اليوم ولا غدر.

وكان رجال تنبكت المقاتلين، متى رأوا القائد مامي يذهب إلى دار القاضي يومئذ، ظنوه لا يذهب إلا للشر، اجتمعوا وجاؤوا إلى جامع سنكري، ورقوا في سطحه بسهامهم وسلاحهم، وارتقى بعضهم فوق بينت ذلك المكان. فلما تكلم مامي لدي القاضي بكلامه اللين وتلطفه وتملقه، أرسل القاضي الفقيه محمد بغيع رحمه الله ليناديهم. وأتاهم ووجد كلاً منهم كمياً في سلاحه، نادى كبراءهم فقال لهم: هل تعرفوني؟ قالوا: بلى. فقال: انزلوا كلكم فأتونا. فنزلوا فأتوا مسرعين. فقال القاضي

عمر: يدعوكم فاتبعوني إليه. ثم قال لهم: قد قطع الله تلك المحنة وعافانا من تلك البلية، فها هو القائد الأكرم مامي بن برون قد أتانا بالصلح والعفو وبسلام الباشا محمود وتحياته، فلا شر بعد اليوم. فقولوا أنتم أجمعون: الله ينصر مولانا أحمد.

ثم سلم عليهم مامي وردوا عليه السلام. وخرج مامي وركب وتوجه إلى القصبة. ولما وصل إلى بعكند التقى مع رماة يسلبون ثوب رجل هنالك. خطف خيله إليهم وسل سيفه وضرب منهم رجلاً على عاتقه حتى شق كتفه وسقط ومات. وأمر برأسه فعُلق. وسار ذلك في البلد، وسري فيه وفرح الناس به، واعتقدوا أنه سيوفي ما وعد، ووثقوا بقوله وظنوا فيه خيراً.

فيبكر عراب أهل القصبة خارجين إلى السوق ببضاعتهم، ومن كان جزاراً منهم خرج ببقرته فيذبحه وأقام يبيعه، ومن كان خرازاً أتى بجلوده يفصل منه نعالاً يبيعها، وكذلك خياطهم يخيطون للناس. ومن اشترى منه شيئاً استتبعه صاحبه إلى القصبة فيتبعه فيعد له الودع فيرجع. وهم كذلك يتبعون الناس إلى ديارهم ليأخذوا ثمن مبيعهم. وما تمت ثلاثة أيام حتى خالطوا وامتزجوا، واتخذ بعضهم من بعض أحباء وأصدقاء ويتزاورون في بيوتهم.

ثم قدم الباشا محمود من كاع وجهز جيشاً إلى رأس الماء ومشى هو بنفسه معهم. ثم رجع في شهر المحرم فاتح اثنين وألف وطلب تجديد البيعة للسلطان في مسجد سنكري. فجمع كافة أهل تنبكت بالمسجد المذكور، وأحضروا المصحف والبخاري ومسلم ضحوة يوم الأربعاء أربع وعشرين منه.

فلما اجتمع الناس غلقت أبواب المسجد ووقف الرماة على الأبناب والسطوح. فكان من أمر الله ما كان مما لا ينبغي ذكره، ولا يحتمل القلب جلب ما كان هنالك، وسرد أقاصيص قبض القاضي عمر وإخوته، فإنا لله وإنا إليه راجعون، أعظم رزءً عمت الإسلام.

ثم أخرجوهم وساقوهم إلى قصبتهم مشاة إلا القاضي عمر رحمه الله وحده، فإنه ركبوه بردوناً صغيراً واتبعهم شواشي. وأُسر معهم رجلان من الونكريين. فلما أرادوا أن يجعلوا في أعناقهما حبلاً امتنعا أن يدخل في أعناقهما حبلاً، ولطم أحدهما رامياً منهم. وسل سيفه وضربه به. وأخذ أخوه السيف منه وضرب به الضارب، فكان سبباً للقتل.

وحدثني شيخنا محمد ولد كرتم أنهم قتلوا من أهل تنبكت أربعة عشر نفساً، اثنان من ونكر واثنان من السودان، وواحد من الحدادين يسمى عبدل يبال، وتسعة من

سن، منهم العالم الولي العارف بالله الفقيه أحمد معيا، ومحمد الأمين بن القاضي محمد بن محمود بن عمر بن محمد أقيت، وغيرهم رحمهم الله، ومحمد المختار رحمه الله.

وأخبرني ولد وعد بن محمد من أيد المختار أن القاضي عمر رحمه الله لما أخرجه الرماة من المسجد، وكان معه غلامه يمسك مقاليد داره وجعل الغلام يبكي حين رأى ما جرى عليهم، فضربه أحد من الرماة بالسيف فقتله. وضحك القاضي عمر. فقيل له في ذلك. فقال: كنت أحسب أنا خير من هذا الغلام، فظهر فضله علي الآن، وقد سبقني إلى الجنة.

ثم بعثهم الباشا محمود إلى مراكش، وطائفة من أولادهم ومواليهم من النساء والرجال وهم على نيف وسبعين. ولم يرجع منهم سوى سيدي أحمد بابا رحمهم الله، رجع بعد ما مكث هنالك عشرين سنة غير ستة أشهر، ومكث في تنبكت بعد رجوعه عشرين سنة، ومات رحمه الله هكذا.

نقلت من شيخنا محمد ولد كرتم رحمه الله، وحدثني محمد بن كرتم المذكور أنه سمع يسدي أحمد بابا بن أحمد بن الحاج أحمد يذكر بأن الفقيه القاضي عمر رحمه الله مرض في سفرهم وذهابهم إلى مراكش مرضاً شديداً، وأصبح لا يستطيع الركوب. وطلبوا من ذلك القائد الذي ذهب بهم، وهو أمير تلك الرفقة، أن يؤخر له ويجلس لهم في ذلك اليوم وحده. فقال لهم: لا نلبث له ولو ساعة واحدة، أما إن تتركوه أو تحملوه على بعيره أين أدركه الموت فنطرحه. وأبى على انتظار حاله. فركب، ورجعوا ووضعوه على بعيره وساروا. قال محمد ولد كرم قال أحمد بابا: فوالله ما وصلنا ميلاً واحداً في السير حتى أتينا إلى مكان فيه حجارات كثيرة، ما يصعد الخيول عليها إلا بمشقة عظيمة. فتقدم ذلك القائد أمام الرفقة، فما كان إلا أن تزلق حافر فرسه فسقط، وسقط هو على عنقه فاندقت عنقه بقدرة الجبار تعالى ومات. وتزلت الرفقة لتجهيزه، وقالوا [= وقاموا] هنالك وباتوا، وفرج الله تعالى على القاضي عمر وأصبح معافاً، وقد شفاه الله. ومكثوا هنالك يومين، ثم ساروا.

ولما أجلاهم القوم وارتحلوا صارت تنبكت جسماً بلا روح، وانعكس أمورها وتغير حالها وتبدل عوائدها، ورجع أسفلها أعلاها وأعلاها أسفلها، وساد أرذالها على عظمائها، وباعوا الدين بالدنيا واشتروا الضلالة بالهدى، وعطل أحكام الشرعية، وأميتت السنة وأحيت البدع. ولا بقي فيها من يتمسك بالسنة، ولا من يسير على منهج

التقوى في ذلك الوقت، سوى محمد بغيغ بن أحمد وحده رحمه الله.

وحكى لي سبطي محمد بان بن يوسف كعت رحمه الله أن الباشا محمود مر بمحمد بغيغ يوماً فناداه وأحضره، فوجده في مجلس سلطنته ودائرته وبين كواهية وباشوطاته واقفين على رؤوس القياد والكواهي. ولما وصل إليه الشيخ محمد بغيغ نهض قائماً وتلقاه وقبل أطراف يديه وأجلسه قدامه وأعطاه الوسادة. ثم ناوله كتاباً مطوياً ومد له دواة وقلماً فقال: اكتب شهادتك فيه.

وفتح الشيخ الكتاب وتأمله، فإذا فيه ما صورته: وليعلم أمير المؤمنين السلطان بن السلطان مولانا أبا العباس أحمد الله ينصره ويخلد ملكه، إننا ما قبضنا هؤلاء الفقهاء القاضي عمر وإخوانه وأتباعه إلا أن ظهر لنا ما في نفوسهم من عداوة السلطان وبغضه. وتحققنا أن قلوبهم مع أسكي، وهم على كيدهم، ويجمعون لهم الرجال لمحاربتنا، ومتفقين على الفساد، بعد أن قتلوا من جيش السطلان ثلاثة وسبعين رجلاً. وفيه شهادة جل أعيان تنبكت وكبرائها على ذلك، وأعلام القاضي محمد.

وقال له الباشا: اكتب شهادتك تحت هذا السطر، وأشار إلى الموضع من الكتاب يضع شهادته فيه. فتعوذ الشيخ بالله من ذلك، أي من أن يضع شهادته. فقال: لا بد من أن تكتب، وكل من أبى على الكتاب قطعنا يده من منكبه. فتبسم الشيخ ضاحكاً وقال: قطعك اليد أفضل وأولى من كتب شهادة الزور، فالعياذ بالله، فأنا والله أختار قطع الرأس عليه. فقال: أيش هل أنت أفضل من هؤلاء الشهود الصالحين؟ أو أنت أخير من القاضي؟ قال: لا شك في أن كلهم خير مني، ولكن لعلهم طلعوا على فسادهم وعلى ما شهدوا عليه، وأنا والله ما أطلعني الله على ذلك، وما علمت به. والشهادة لا تكون إلا بالمعاينة والعلم والشهادة، وأنا ما عاينت وما علمت وما شهدت. فقال الباشا: ونحن نعرف نيتك، وأنت مع القاضي في مكره وكيده، وما أنت إلا واحد من قومه، ورأينا خطك في كتابك الذي كتبته لأسكي نوح. ثم التفت الباشا محمود إلى أسكي الفع بكر لنبار، وهو جالس عنده في وسط الجالسين، وقال: يا الفع بكر أما رأيت الكتاب؟ قال: بلى، رأيته بخط يده. وما التفت الشيخ ولا رفع رأسه إليه وما رد له جواباً.

ووافق ذلك بين الظهر العصر، وما صلى الشيخ العصر حين خروجه. ومكث الباشا طويلاً ولم يتكلم منهم أحد بلا ولا بنعم، والشيخ مطرف الرأس ساكت. ثم رفع الشيخ رأسه إلى السماء ينظر حال الغروب، ووجده قد قرب، وقام يصلي العصر، وصلى بخشوع ووقار وطمأنينة حتى أتمها، ثم سلم، ثم قام إلى موضع جلوسه الذي

قام فيه.

وأخذ الباشا بيده وقبلها وقال له: ارجع إلى دارك بالسلام. كثر الله أمثالك. ادع الله لنا وللسلطان الله ينصره بالنصر العزيز. وخرج الشيخ رضي الله عنه.

فلما رجع إلى داره أتاه أسكي الفع بكر لنبار المذكور، ووقف ببابه وسلم. وقيل: من أنت؟ فقال: أنا أسكي الفع بكر بن لنبار المنذب الفاجر الأثيم. وتبسم الشيخ وأمر بالباب. ففتح له، ودخل وكب على رأسه يقبله. ثم قال اغفر لي واعف عني، وما رأيت خطك ولا كتابك إلى أسكي نوح، وقد كذبت وافتريت عليك خوفاً من الباشا من سطوته، وما كان في صدري مثل قلبك الذي ما خلق الله فيه خوفاً غير الله. فضحك الشيخ، فقال: غفر الله لي ولك وعفى عني وعنك، وإنا ما أخذناك به. فخرج أسكي الفع بكر إلى داره باكياً. فانظر إلى هذا الشيخ مع الباشا ومع أسكي الفع أيضاً، إذا علم الله من قلب عبده الحق سخر له الخلق.

ثم لم يزل الشيخ يسعى ويمشي إلى الباشا في طلب الشفاعة للناس. فقلّ أن يرده في طلب ما من ذلك. وما طلب شيئاً من الشفاعة إلا شفعوه رحمه الله. ومن أراد معرفة الشيخ محمد يغيغ رحمه الله فايقف على ترجمته من كفاية المحتاج في معرفة من ليس في الديباج تأليف تلميذه اعلامة سيدي أبي العباس أحمد بابا بن أحمد بن الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت. ومنه يعلم مناقبه ومنه يظهر له كرامته وبلوغه غاية ونهاية في تقوى الله ومخافته إياه في السر والعلانية بحيث لا ترى له نظيراً في مراقبة ربه انتهى.

فكانت تنبكت قبل نزول هذه المحنة بها وقبل إجلاء أولاد القاضي محمود بن عمر وحفدته وأسباطه في غاية الحسن والجمال وإقامة الدين وإحياء السنة بها ما شئت من دين ودنيا، وحَيران تنافوا في المعاني. وهي يومئذ موصوفة ببعض ما وصف الحريري البصرة في المقامة الثامنة والأربعين التي تعرف بالحرامية، ولما وصف بها البصرة في المقامة الخمسين البصرية من قوله: يا أهل البصر رعاكم الله ووقاكم وقوى تقاكم، فما أضوع رياكم وأفضل مزاياكم وأوفى البلاد طهرة وأزكاها قطرة وأفسحها رقعة وأمرعها من نجعة وأحق بها قبلة وأوسعها دجلة، إلى قوله: وله عماية المد الفائض والجزر الغائض. انتهى.

فتنبكت يومئذ لا نظير لها في البلدان من بلاد السودان إلى أقصى بلاد المغرب من بلاد مل مروءة وحرية وتعففاً وصيانة وحفظ العرض ورأفة ورحمة بالمساكين

والغرباء وتلطفاً بطلبة العلم وإعانتهم.

وأما سن - بسين مفتوحة فنون ساكنة - فهم أجل عباد الله في زمانهم كرماً وحفظ المروءة والسكوت وترك ما لا يعني ولزوم بيوتهم ونفع المسلمين ورفد محتاجهم، وتلك فيهم خلقة وجبلة، رحمهم الله ورضي عنهم ورحم أسلافهم وأبقى مخلوقهم في سلامة وستر واقتفاء آثارهم.

وهي أي تنبكت يومئذ ليس فيها حكم إلا حكم متولي الشرع. ولا سلطان فيها، والقاضي هو السلطان وبيده الحل والربط وحده.

ومثلها، في أيام سلطنة سلطان مل، جعب بلد الفقهاء، وهي في وسط أرض مل، لا يدخلها سلطان مل، وليس لأحد حكم فيها إلا قاضيه. ومن دخله كان آمناً من ضيم السلطان وجوره، ومن قتل ولد السلطان لا يسأله السلطان بدمه، يقال له بلد الله.

ومثلها أيضاً بلد يقال له كنجور، وكنجور - بكاف مضمومة فنون ساكنة فجيم ممدودة فراء مهملة - بلد بأرض كياك، بلد قاضي تلك الإقليم وعلمائها. لا يدخلها جندي ولا يسكنها أحد من الظلمة، إلا سلطان كياك يزور علماءها وقاضيها في شهر رمضان من كل عام على عادتهم القديمة بصدقاته وهداياته ويفرقها عليهم. وإذا كانت ليلة القدر يأمر بطبخ الطعام. ثم يجعل المطبوخ في المائدة أي القدح الكبير، ويحملها فوق رأسه، وينادي قرّاء القرآن وصبيان المكتب، ويأكلونها. والقدح على رأسه يحملها وهو قاعد وهم قائمون يأكلون تعظيماً لهم. وهم على ذلك إلى هلم جراً. كذا حدثني به الحاج محمد سر الكجالوي. انتهى.

مع العافية والهناء والأمن الذي خص الله به أهل تنبكت، وترى منهم مائة رجل ليس لأحد منهم حريش ولا سيف ولا مدية إلا المنسأة. وأخبرني محمد بن المولود أنه رأى منها ستة وعشرين بيتاً من بيوت الخياطين المسماة بتند - بتاء مكسورة - ولكل واحدة من تلك البيوت شيخ رئيس معلم، وعنده من المتعلمين نحو خمسين، وعند بعضهم سبعين إلى مائة. وفيها مدارس معلم الصبيان الذين يقرأون القرآن مائة وخمسين أو ثمانين مكتباً، على ما ذكره الشيخ محمد بن أحمد. ذكر أنه حضر مكتب المعلم علي تكريا يوم الأربعاء بعد صلاة الظهر، وجعل صبيانه يأتونه بخمس ودعات وبعضهم عشر ودعات، على عادتهم المسماة الأربع، حتى تحصل قدامه ألف وسبعمائة وخمسة وعشرون ودعاً. قال الراوي المذكور أسرحت نظري إلى ألواح الصبيان المتخذة في عرصة داره، وعددت منها مائة وثلاثة وعشرين لوحاً. وظننت أن

تكون جملة القرآن محصلة في تلك الأواح. وغرائب تنبكت وعجائبها يومئذ لا تدخل تحت حصر ولا يحيط بها حفظ حافظ.

ثم جبر الله كسر تنبكت، وكثر قراؤها وأدباؤها من كوكي إلى جن، وجمع شملها وأقامها أتم قيام وعمرها، وأفاض الله البركة في برها وبحرها في أوائل دولة جيش مولانا أحمد، وأكثر الخير فيها حتى كاد الناس ينسون دولة سنغي.

وأخبرني شيخنا الفقيه الصالح بر السلنكي أنهم اشتروا معزة واحدة حلابة وتعيش بلبنها جميع أهل بيتهم، وهم خمسة عشر نفساً. وربما تبقى من لبنها شيء، فتبيت فيضربونه ويخرجون الزبد منها. وأكثر الله الحيتان في البحور ويتصيد فيها الصيادون ما لا يحصى من الحيتان، وأثمر أشجار الفيافي عشوشبت، وعاش الناس من ثمارهن سنيناً، حتى دخل الناس في الحرث واشتغلوا به. وأكثر الله الغيث وأنبت الزروع، وحصدوا منها كثيراً. ورخص الطعام من كل جانب ومكان.

وأطفأ الله نيران الفتن بين الناس والرماة والحقد، إلا ما خسرها الفلانيون المحاربون. وخربوها من البلدان وسلبوه من الأموال وما سفكون من دماء المسلمين، والتوارق من كاع إلى جن، حتى الزغرانيون دخلوا معهم في الفساد والإفساد. وأما الرماة فما خسروا بعد جمود نيران فتنهم شيئاً، وما أخذوا بأيديهم نفساً واحداً، إلا ما ساقه إليهم أيدي الأساكي وأرباب البلاد، إلا ما وظفوه على الناس من الغرامات والزكاة ومكس النبكات انتهى.

وتولى القضاء القاضي محمد بن القاضي عبد الرحمان في أوائل صفر الخير فاتح عام اثنين وألف، قدمه الباشا محمود والجيش بعد ذهاب الفقيه القاضي عمر. ومكث فيها أربعة عشر سنة وعشرة أشهر وسبعة أيام، وتوفي يوم الثلاثاء لستّ بقين من ذي القعدة عام سادس عشر بعد ألف. والقاضي هذا كان من أجود الناس وأكرمهم وأوسعهم قلباً وجوداًوكرماً رحمه الله، وجده سيدي أحمد بابا حياً حين قدم من مراكش، وأتاه يهنئه بمجيئه وسلم عليه وحياه، ثم خرج ورجع إلى بيته، ثم لم يخرج من بيته إلى أن مات في تلك الأيام.

وفي سنة ثالث وألف جاء القائد منصور بن بك من مراكش بمحلة كبيرة، فيها ثلاثة آلاف مقاتل وألف خيل. قاله باب كور بن الحاج محمد في جواهر الحسان انتهى.

وقد سمعت العلامة أبا إسحاق إبراهيم بن أحد بغيع رحمه الله كان يقرأ بعض

الطلبة قصيدة ابن دريد، ومتى وصل القارئ قول ابن دريد: وربأ خيل إلخ، وشرع في ذكر أنواع الخيل وصفات أفواهم، حتى أورد فيه خيول القائد منصور المذكور الذين أتوا راكبين عليهم في هذه المحلة المذكورة. وقال أن أكثر خيول القائد منصور الأشهب، والأشهب الذي فيهم تكون ثلثي خيولهم أو أكثر. ثم قال: وأظن إنما اختارها لقطع هذه المسافة البعيدة، لأنها أقوى الخيول وأمتنها وأصبرها على العطش.

وعاش القائد منصور بعد قدومه سنتين، ونفى الظلم من بلد تنبكت. وبلغ صرف المثقال ثلاثة آلاف ودعاً، ورخص سلع الغرب حتى بيع طرينه بأجيه والكرحة أي الجلد المدبوغ بخمسة مثاقيل، وبيع الكملية من الملح بستة مثاقيل إلى سبعة مثاقيل غير ثلث المثقال. ويصفف التمر بوسكري على الحصير عشر تمرات بخمس ودعات.

وكان كل من أتي به إليه سارقاً أو طارقاً ضرب عنقه وعلقه في سوق المسلمين. وفي ايامه احتطب كثير من الرماة ويتكففون بالليل على الأواب. وكان رحمه الله لا يتخلف عن الجمعة، وموضع سكناه بمغرب الجامع الكبير. وغزى إلى جبل هنبر وما والاه. ثم رجع فمات رحمه الله في العام الخامس بعد ألف. ودفن بمقبرة سيدي يحيى. ثم نبش قبره ونقل جثته في التابوت وحمل إلى مراكش.

وفي أيامه ظهر طابع وانتشر استعمال شربه.

وفي العام الثالث وألف توفي الباشا محمود بن علي بن زرقون في غزوته إلى الجبل. ومات ولم يلتق مع القائد منصور. وبعد موته انفرد الباشا جودر بولاية تنبكت إلى أن قدم عليه الباشا عمر يأذنه بقدومه إلى مراكش بأمر السلطان. ارتحل قافلاً يوم الخميس سلخ شعبان المنير عام سبع وألف.

ثم ولي الأمر بعد رجوع جودر الباشا عمر. وتسلطن ومكث سنة واحدة وأشهراً. ثم رجع إلى مراكش بأمر السلطان.

تمت تواريخ السودان من أخبار الأساكي. انتهت المقابلة بقدر الطاقة، فلله الحمد وله المنة على ما ولى من المنعم باتمام خط هذه الكتب المبارك على يد العبيد ربه الذليل الحقير الراجي عفو مولاه بمنه وكرمه، ذياك أبو بكر بن الفاهم عمر بن الأمين الدرامي لقباً الديواني نسباً الملكي مذهباً التجاني طريقة، في إحدى وعشرين من شهر الله جماد الأولى يوم الخميس قبيل صلاة العصر بعد صلاة الظهر. اللهم اغفر لي ولوالدي ولوالديهم إلى منتهى الإسلام. كتبته لشيخ الشيوخ الفقيه الماهر الباحث عن الأمور الفائق وال به. اللهم اغفر لي وله ولمن نظر فيه إلى آخر الزمان. وإن

وجدت العيب فيه فسد الخلل، فجل من لا عيب فيه وعلا. انتهى عام 1335 من الهجرة المحمدية. أفضل الصلاة وأنمى السلام على صاحبها.

الحمد لله على ما أولى ... فنعم ما أولى ونعم المولي
ثم الصلاة بعد حمد الصمد ... على النبي المصطفى محمد

ذيل

...عمر، نبش قبره أي عمر وطرحه في البحر. وقال أنه يفزعه في النوم كل ليلة. ولما سمع محمد بنكن بذلك مشى إلى قبره لينظر صدق ذلك وكذبه. فأمر بقبره فنبش، فوجده بعد ثمان سنين على حاله كأنه مات بالأمس. ولم ينزل على قبره ولو غبارة.

ثم بعد عمر ياي، وقبره في كاع، قتله أولاد أسكي محمد في موضع يقال له رأس أرزر، ودفن هنالك، وأسكي محمد حي. وقيل أنه ربيب أسكي محمد، تزوج بأمه. وقد قدمنا تفصيل ذلك.

ثم كرمن فار عثمان ابن أسكي محمد، وقبره في الحجر. هرب هنالك حين طرده إخوانه يوم طوية.

ثم كرمن فار مربنكن بن عمر، انتقل من كنفاروية إلى أسكوية، وعزل وطرد، وهرب مع أخيه كرمن فار عثمان تنفريا. وماتا في سور بتنبع.

ثم كرمن فار حماد ابن أريو بنت أسكي محمد. أخذه أسكي وقتله في كاع، وقبره هنالك.

ثم كرمن فار علي كسل، طرده أسكي إسحاق الكبير أخوه، وخرج هارباً يريد بير، وتلقاه هنالك في طريق الأعراب، ومعه طائفة من أحبابه، وأخذوه وذهبوا به وباعوه للعرب في المغافر، وعمل عليه الكبل وجعله في بستانه يسقي زرعه، ومات هنالك.

ثم كرمن فار داد، عقب على كسُل في كنفاروية، وخلصه الله حتى انتقل إلى كاع ودخل في سلطنة أسكيوية.

ثم كرمن فار كسية بن حولم، وهو زغراني الأصل، وكان من أحباب أسكي داوود وأحظى الناس عنده. فلما تولى داوود أسكوية، وكسي حينئذ يكون بلمع، وجعله كنفار. ومات في كنفاروية في بلد بوي، وقبره هنالك.

ثم كرمن فار يعقوب بن أسكي محمد، تولى بعده ومكث فيها خمسة عشر سنة.

ومات في تندرم، وقبره في مسجده الكبير. ولم يمت في كنفاروية في تندرم في زمن سنغي غيره وكرمن فار عمر.

ثم كرمن فار مربنكن بن داوود، عقب يقعوب. ثم عزل حين مات أبوه أسكي داوود، وتولى أخوه الحاج أسكوية. أخذه في بلد تنبك في دار القاضي العاقب رحمه الله ليلة ثانية عشر من ربيع الأول وقتله. وقيل أنه رماه في البحر حياً.

ثم كرمن فاري الهادي بن أسكي داوود، تولى كنفاروية بعد مربنكن المذكور. ثم خرج على أسكي الحاج وخالفه وأراد أن يعزله ويدخله. فظفر به الحاج وأخذه وسجنه شهوراً في بلد كنتع. ثم أمر به فقتل. ودفن وفي رجله كبلان، لم يغسل ولم يصل عليه. ثم نبش في زمن علي بن عبد القادر، فوجد كأنه مات أمس.

ثم تولى بعده كنفار صالح ابن أسكي داوود. واتفق مع بلمع صادق على عزل أسكي محمد بان، وخرج إلى بلمع. وجعل الله بأسهم بينهم، وسعى الوشاة بينهم، حتى تقاتلا. وقتله بلمنع. دفنه في مسجد كبر. وقيل نقل إلى تنبكت، والأول أصح.

ثم كرمن فار محمود بن إسماعيل، تولى كنفاروية بعد صالح. وهو آخر كرامن فاري. أخذه الرمات يوم تنش وقتل في كاع.

وأما البلامع فقد مات أكثرهم في البلموية. فأولهم محمد كري بن علي كوكيا ابن أخت شي عال. وكان بلمع قبل سلطنة أسكي محمد، وقد سبق اسم بلمع اسم أسكي بزمن قديم، وكان في زمن شي كذلك...

محمد بلو بن عثمان بن فودي

إنفاق الميسور

في تاريخ بلاد التكرور

1. الفصل الأول: في تحقيق اسم "التكرور "
2. الفصل الثاني: في تحديد بلاد "التكرور "
3. الفصل الثالث: في تراجم بعض علماء "باغرم "
4. الفصل الرابع: في وصف "برنو" وسكانها
5. الفصل الخامس: في ترجمة الشيخ البكري
6. الفصل السادس: في بلاد أهير وسكانها، وبعض علمائها
7. الفصل السابع: في بلاد حوس، وإقليمها وساكنيها
8. الفصل الثامن: في الأقاليم السبعة التي تقرب من كاشنة وغوبر، وسكانيها
9. الفصل التاسع: في تراجم بعض علماء الأقاليم السبعة
10. الفصل العاشر: في ترجمة والد المؤلف
11. كلامه في لواقح الأنوار
12. شمائله الكريمة وآدابه العلية وأخلاقه السنية التي يتأدب بها في المجالس
13. الإشارة إلى مدار ما يحدث الناس به في مجالسه
14. ذكر ما يستفتح به كلامه في مجلسه ذكر ما يحدث الناس به في فن أصول الدين
15. أدلة العقائد
16. في ذكرى ما يحدث الناس به في الفقه
17. الوضوء وصفته
18. الغسل
19. التيمم
20. الصلاة

21. قضاء الفوائت
22. السهو
23. الزكاة
24. زكاة الفطر
25. الصوم
26. الحج
27. الذكاة
28. اليمين
29. النذر
30. النكاح
31. البيع
32. حفظ الأعضاء الظاهرة من المعاصي
33. ذكر ما يحدث الناس به في فن التصوف
34. ذكر ما يذكر به من آيات الترهيب وذكر النار
35. آيات الترغيب وصفات الجنة
36. خاتمة: تذكر فيها أقسام الوعظ والتذكير وشروط الإنتساب لإرشاد الناس استطراداً
37. علو شأنه وابتداء حسد الملوك له
38. ذكر وقعة كن [Konni]
39. ذكر وقعة كتو
40. تمام الخبر عن واقعة كتو
41. ذكر الطلب بعد الهزيمة والفل
42. ذكر غزوة مني
43. تمام الخبر في مقامنا بغد
44. تمام الخبر من انتقالنا من غد
45. رجوع الشيخ إلى أرض العدو من أهل غوبر
46. ذكر غزوة "دن غد" افثانية
49. ذكر غزوة بور

50. ذكر غزوة القضاو الأولى
51. ذكر المقام بجرو
52. ذكر غزوة دباو
53. ذكر انتقالنا إلى نزفر
54. ذكر غزوة كب
55. غزوة فاقت
56. غزوة كنوما
57. غزوة بنغ
58. غزوة صيلام
59. غزوة جاتو الأولاى
60. غزوة بين
61. تلخيص ما وقع في كاشنة مع جماعة المسلمين هناك
62. تلخيص ماوقع في كنوا
63. انتقال الشيخ من سابنغرة إلى غواند
64. ذكر غزو كروفي
65. ذكر غزوة جات الثانية
66. ذكر غزوة زورار
67. ذكر غزوة أوغ
68. ذكر وقعة ألوس
69. فتح سوّ
70. غزوة جاندوت
71. غزوة ياور
72. غزوة بنا الأولى
73. غزوة باس
74. غزوة فافر
75. غزوة برغ
76. غزوة دفو
77. غزوة القضاو الثانية

78. ذكر بناء غواند
79. ذكر غزوة كنو
80. ذكر غزوات ارغنغ
81. غزوة فتح القاضوا الثالثة
82. غزوة بنا الثانية وما يتصل بها من غزو تند
83. ذكر ما كان من أخبار آدر
84. ذكر غزوة كنب
85. ذكرى غزوة غوار
86. غزوة نف
87. تلخيص ما وقع بأرض برنوا مع جماعة المسلمين هناك على ما بلغنا
88. ذكر قدوم امير المؤمنين محمد كما
89. ذكر ورود وثائق السلطان مولانا سليمان سلطان المغربة
90. تذنيب
91. تتمة
92. فصل في الإشارة إلى مصنفاته الشريفة ومؤلفاته المنيفة
93. فصل في كرامات الشيخ رض الله عنه
94. فصل في الإشارة إلى أولاد الشيخ رضي الله عنه
95. فصل في الإشارة إلى وزرائه
96. فصل في الإشارة إلى خدامه
97. فصل في الإشارة إلى عماله
98. فصل
99. فصل
100. ورد الطريقة القادرية وفوائده
101. ورد الشيخ
102. فصل

عونك يا الله

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

قال الفقير إلى مولاه الغني محمد بلو بن عثمان بن فودي. تغمدهم الله برحمته آمين:

الحمد لله الذي خلق الجن والإنس لعبادته، وشكر نعمه وأياديه وآلائه، وهو المنعم الشكور، وفتق من حكمته السموات السبع ومد الأرض ليدبر الأمر "ألا إلى الله تصير الأمور" [الشورى 53] وملأ أركان العالم بدائع حكمته مدى الأيام والدهور "تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير" [الملك 1] وبعث الرسل صلوات الله وسلامه عليهم إلى الخلق، بالزبر والكتاب المنير، ليعلموهم شرائع الديانات ويخرجوهم من الظلمات إلى النور. وخص سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم بفضائل لا تعد ولا تحصى "يؤفك عنه من أفك" [الذاريات 9] وهدى إلى سبله من سلك في جميع الأقاليم وجزائر البحور.

صلى الله عليه وسلم، وعلى السابقين الأولين من المهاجرين الأنصار والصحابة أجمعين، ومن تبعهم بإحسان مدى الأعصار والدهور.

أما بعد، فلما من الله علينا في هذا الزمان بظهور هذا الإمام الخليفة، مجدد هذا الدين للبرية، محيي سنة المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم، ناشر العلوم، وكاشف الغموم، والدي عثمان بن محمد العالم الرباني، والغوث الصمداني، قطب الزمان، وحجة الأوان، وعلامة الدنيا، وطالق المرتبة العليا، ينبوع المعارف، ودوحة القواطف واللطائف - فالعلماء من بحر علومه يغترفون، والحكماء من مشكاة نوره يقتبسون، والأولياء بكعبة سره طائفون، والعارفون على عرفات حضرته واقفون، إلى مثله تشد الرحال، وبمثله تضرب الأمثال، وفي وصفه تفني الآجال، وعن بابه تقضي الآمال، أطال الله حياته، وجعل العقبة خيراً، وأنعم المولى علينا بالجهاد ببركاته في هذه البلاد، وأمدنا بجنوده، وأيدنا بنصره، حتى شاهدنا من سلطان قهره، وشديد انتقامه لأعدائه، وانتصاره لأوليائه، عجائب وغرائب وكرامات لأوليائه وأصفيائه، مما يزيد المؤمنين إيماناً، ويكسب الكافرين ذلاً وخيبة وخسراناً - بقيت النفس تتشوف إلى تأريخ ما وقع في هذا الزمان من الخير، خصوصاً مع إضافة ما وقع قبل في هذا القطر من العجائب والغرائب، وأخبار الملوك والعلماء، وما ينخرط في ذلك من ذكر النوادر في هذا القطر، مما يستعذبه الفهم والعقل، وتستلذ عند سماعه الأسماع في النقل. فجعلت أقدم رجلاً وأؤخر أخرى، علماً مني بأنه لم يستصبح أحد قبلي في هذا الظلام. فأقتبس من سراجه في هذا المرام، مع ما أنا بصدده من الأشغال وضيق الزمان، مع تحمل الأثقال.

ثم بدا لي بعد الاستخارة أن أرمي في هذا المرمى بسهم، لعل الله ينفعني به ومن وقف عليه من المسلمين. أعانني الله على تحريره وتهذيبه وترتيبه، ووفقني لإكماله، إنه خير معين.

وسميته "إنفاق الميسور، في تأريخ بلاد التكرور"

والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الفصل الأول

في تحقيق اسم "التكرور"

واعلم أن هذا الاسم الذي هو التكرور، علم على الإقليم الغربي من الجنوب السوداني، على ما فهمنا من تعبيرهم في التواريخ والنقول. وهذا الاسم شائع في الحرمين ومصر والحبشة، ومندرس في محله، حتى لا يعرفه أهل هذه البلاد أصلاً، وإنما يتلقونه من الحجاج الذين سموه بالحرمين ومصر.

ورأيت لمجد الدين الفيروزبادي في القاموس أنه بلد بالغرب، ورأينا لبعضهم أنه عبر عن كنو وكاشنا وما والاهما ببلاد السودان، وعبر عن تنكيت وما والاها ببلاد التكرور. والله أعلم.

وقال ابن خلدون في التأريخ الكبير له حيث تكلم في أخبار ملوك السودان المجاورين للمغرب: شعوب السودان تاجرنت، ويليهم الكانم، ويليهم من غربيهم كوكو، وبعدهم التكرور.

ولكن القصد تأريخ هذا القطر كله، من بلد فور إلى بلد فوت وما وراءها، وما والاها، كما مر، بحسب المكنة، إذ قدمنا أن تسجيل التواريخ في هذه البلاد مهجور [=مجهول] أصلاً.

هذا وقد قال الحسن اليوسي في المحاضرات: كان شيخ مشايخنا أبو عبد الله محمد بن العربي ابن أبي المحاسن يوسف الفاسي، من دأبه أنه متى لقي إنساناً يسأله: من أي بلد هو؟ فإذا أخبره قال: من عندكم من أهل العلم والصلاح؟ فإذا أخبره بشيء من ذلك سجله، وهذا الاعتناء بالأخبار والوقائع والمسانيد ضعيف جدً في المغاربة، فغلب عليهم في باب العلم الاعتناء بالدراية دون الرواية. وفيما سوى ذلك لا همة لهم.

وكان أبو عبد الله المذكور يذكر في كتابه "مرآة المحاسن" أنه كم في المغرب من فاضل قد مات وضاع، من قلة اعتنائهم بالتأريخ! وهو كذلك.

وقد سألت شيخنا الأستاذ أبا عبد الله بن ناصر، رحمه الله ورضي عنه، يوماً عن السند في بعض ما كنت آخذه عنه. فقال لي: أنا لم تكن لنا رواية في هذا، وما كنا نعتني في ذلك، قال: وقد قضيت العجب من المشارقة واعتنائهم بمثل هذا، حتى أني لما دخلت مصر كان كل من يأخذ عنه عهد الشاذلية يكتب الورد والرواية والزمان والمكان الواقع فيه ذلك. إلخ.

وهذا حيث العلم والدين والعقل.

فأي شيء نقول ونحن في طرف العمارة، وفي بلاد السودان التي غلب على أهلها العجمة، وظلمات الجهل والهوى والكفر! كما قال المغيلي: والغالب على أهل تلك البلاد الجهل والهوى والكفر، وأصلهم كان ذلك. إلخ.

لكن نأخذ ما سنح وما ورد علينا من الأخبار حسب ما تيسر، وندع ما تعسر.

الفصل الثاني

في تحديد بلاد "التكرور"

وأول هذه البلاد من جهة المشرق، على تعبيرهم، بلد فور، ويليه من جهة المغرب بلد وداي وبلد باغرم:

فأما بلد فور فبلد واسع ذو أشجار وأنهار ومزارع، قوت أهله الدخن والذرة والدجر، وفيه رعاة كثيرون، ويعمره عجم متعربون، وعرب متعجمون، وقد فشا فيه الإسلام كثيراً، وأكثر أهل هذا القطر حجاج، وزعموا أنهم يكرمون الحجاج، ولا يتعرضون للطريق.

ويقرب من هذا الوصف أهل وداي وباغرم، ولكن خربت باغرم، وسبب خرابها - على ما زعموا - أن سلطانها أكثر من الفسق إكثاراً فظيعاً، حتى تزوج بابنته من صلبه! فسلط الله عليه أمير وداي صابور، فخرب دياره وقتله "فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا" [النمل 52].

وأما ما حاذا هذه البلاد من جهة الشمال، فقفار ورمال معاطيش لا يعمرها إلا الرعاة في فصل الربيع من البرابرة والعرب المذكورين.

وأما ما والاها من جهة الجنوب، فبلاد كثيرة يعمرها أجلاف السودان على اختلاف ألسنتهم، لم ينتشر فيها الإسلام كثيراً، ولم يتفق لي من أخبار هذه البلاد، ونوادر الأمور وأخبار ملوكها وعلمائها ورجالها - ما يحق لنا ذكره وإيراده على ما

شرطنا قبل.

الفصل الثالث

في تراجم بعض علماء "باغرم"

من شيوخ باغرم العالم العلامة سليمان، وابنه النجيب، أعجوبة الزمان، وطريفة الأوان، العالم العلامة، الزاهد الورع الفهامة، محمد الوالي، لطف الله بهما. وزعموا أن الشيخ سليمان ذهب من بلدنا هذا إلى أهل باغرم، واستوطنها، وهو من قبيلتنا هذه.

وقد ألف ولده النجيب محمد الوالي تآليف تدل على وفور علمه، وكثرة إحاطته وتضلعه بالعلوم، منها: المنهل في علم التوحيد، ومنها نظمه على النقاية [للسيوطي]، ومنها قصائد وأشعار.

وكان قراء هذه البلاد وما قرب منها معتنين بعلم الأوفاق والحروف وعلم النجوم، مستغرقين في طلبها، حريصين على ذلك، حتى هجروا علم الكتاب والسنة والشريعة أصلاً، رغبة في الدنيا، فقال الشيخ فيهم:

من عذيري من أناس نجموا ... أفسدوا الدين وأبدوا كل ضر
تركوا علم الكتاب المنزل ... وحديث جا به هادي البشر
وعلوم الشرع والفقه التي ... تنفع المرء وتحميه الخطر
صرفوا اللهم إلى مكسبهم ... لحطام زائل لا يستقر
آثروا الدنيا على أخراهم ... لم يبالوا ما يؤديهم لضر
وعلى وفق ورووه حيلة ... لاكتساب المال والجاه المضر
جعلوه وصلة تدنيهم ... لبني الدنيا وآبوا بضرر
لقبوه علم سر كذبوا ... ماله والسر لكن علم شر
إنما السر علوم بثها ... أولياء الله أصحاب النظر
سلهم هل يعرفون حكمها ... قد تعاظوه لدي أهل البصر
ولعمري هو دهليز الردى ... ولكفر قد يؤدي في العبر
ما ترى فيمن تقضي عمره ... لارتصاد في شميس وقمر؟
يرتجي السؤل ودفع الضير من ... هذه الأشيا لبئس المنتظر

يـــا عــــباد الله يأهـــل التقـــى أبغــــضوهم واهجـــروهم بالهجـــر
أفـــسدوا الـــدين وأطفـــوا نـــوره هـــم عـــداة الـــدين فـــي هـــذا العـــصر
صـــل يـــا رب وســـلم دائمـــاً للنبـــي المـــصطفى هـــادي البـــشر

وأخذ الشيخ عن الشيخ البكري:

وممن استوطنها قبل هذين الشيخين الشيخ ولولو. وزعموا أنه استوطن كُلُنبَرد - بضم الكاف واللام وفتح الباء المدغم فيها النون وتسكين الراء - من ناحية برن يو منجهة الشكال، هو والشيخ الولي ابن الجرمي التاركي، وجعلا يجيئان الطريق، ويقرران للناس الحق، فتراسل الناس إلى الاقتداء بهما، حتى تاب على أيديهما بعض عمال أمير برنو أمير عمر، فسعى بهما إلى السلطان سي عمر فاستحضرهما في ناديه، وسألهما عن شأنهما، فأخبره الولي ابن الجرمي، فقال: إنا ما أردنا أن نشتتت لك الرعية، وإنما نرشد الناس إلى الطريق، فقتله! فجرى دمه على كلمة الشهادة. وسرح الشيخ ولوند، فهرب إلى باغرم واستوطنها، حتى توفي بها.

وزعموا أنه ولد بطريق الحج، ذهبت أمه وهي حبلى، فضلت عن الرفقة حتى عطشت، فولدته، فماتت عطشاً! وبقي ثلاثة أيام، حتى مرت به رفقة أخرى، فحملوه إلى بلادهم حتى شب، فتعلم القرآن، ثم رحل في طلب العلم إلى أكدز، وإلى تنبكتو. ثم رجع إلى محله، حتى كان من أمره ما كان.

وتوفي هذا الشيخ بعد كمال الألف بقليل. والله أعلم.

وزعموا أنه قال لجماعته: قد أظلكم زمان ولي من أولياء الله، يظهر في هذه البلاد، يجدد الدين، ويحيي السنة، ويقيم الملة، فمن أدركه فليتبعه، فعلامته أنه يجاهد أولاً باللسان، حتى يتبعه أكثر الموقنين، ثم يجاهد بالسنان، ويملك هذه البلاد، وليخرجن أمير برنوا من داره، كما أخرجنا من ديارنا، ويملكها.

والحمد لله قد ظهر، واتبعناه ووازرناه. جعلنا الله ممن اهتدى، وأحسن عواقب أمورنا، وأطال حياته، وجعل العاقبة خيراً.

الفصل الرابع

في وصف "برنو" وسكانها

ويليه من جهة المغرب بلد برنو - بفتح الباء وإسكان الراء وضم النون، بعدها واو - وهي بلدة ذات أنهار وأشجار ورمال واسعة، عامرة بالسكنى قبل هذا الجهاد،

ولـم تكـن بلـدة فـي هـذا القطـر أوسـع مـنها وأكثـرها عمـارة، ويـسكنها البربـر والعـرب المذكورون والفلاتيون وفيها مماليك البربر كثيراً.

وهؤلاء البربر من بقايا البابرة الذين بين الزنج والحبوش، وهـم الذين طردهم حمير من اليمن بعد إفريقيس التبع.

وسبب مقامهم باليمن - على ما زعموا - أن إفريقيس تبع استغاث به أهل الشام حين أكثر البربر الفساد فيها، واستنصروه عليهم، فغزاهم وشتت جموعهم، وسبى منهم ذراريهم. ولما رأى نخوتهم استبقى ذراريهم عنده مماليك يستعين بهم.

فلما مات ومضى برهة قاموا على حمير، فاقتتلوا، فطردهم حمير من اليمن، واستوطنوا قريباً من أرض الحبشة، ثم وافوا كانم واستوطنوها، ووجدوا في هذا البلد عجماً تحت حكم إخوانهم التوارك، يقال لهم أمكيتا. وغلبوهم على البلد، وأقبلت دولتهم أيام استيطانهم البلد، حتى ملكوا أقاصي البلد من هذا القطر.



وكانت وداي وباغرم قبل هذا تحت سلطانهم، وكذلك بلاد حوس - بفتح الحاء - وما والاها من بلاد بوش - بفتح الباء وإسكان الواو - ثم ضعفت شوكتهم.

وقد حج من سلاطينهم كثيرون، وتظاهروا بالخير والإسلام وإقامة الحدود والشريعة في أوائل أمرهم جداً، وبقيت آثار الإسلام فيها كثيراً.

وقد انتشر الإسلام فيها انتشاراً بين سلاطينهم ووزرائهم وعامتهم. بل لا يوجد في هذه البلاد عامة إلا معتنون بقراءة القرآن وتجويده وحفظه وكتابته.وثم تزل العامة هكذا حتى قام هذا الجهاد.

لكن حدثونا أن لسلاطينهم وأمرائهم مواطن يركبون إليها، ويذبحون بها، ويرشون بالدماء على أبواب قريتهم، ولهم بيوت معظمة فيها حيات وأشياء يذبحون لها، ويفعلون للبحر كما كانت تفعل القبط للنيل أيام الجاهلية. ولهم في ذلك أعياد يجتمعون فيها هم وقراؤهم وسلاطينهم وعامتهم، ولا يحضرها غيرهم، ويسمون ذلك عادة البلد، ويزعمون أن ذلك صدقات يستعينون بها على جلب المصالح، ودرء المفاسد، وإذا لم تفعل تلك العادة بطلت معايشهم، وقلت أرزاقهم، وضعفت شوكتهم. وتوارثوا هذه العوائد كابراً عن كابر.

ولم يبلغنا عن أحد من سلاطينهم وعلمائهم - بالغاً ما بلغوا - أنهم أبطلوا تلك

العوائد، إلا ما كان من الموفقين ممن لا يشاركهم في أمورهم من العرب والفلاة، فإنهم لم يزالوا ينكرون عليهم فعلها ويكفرونهم. ولا شك في كفرهم، وإن كان علماؤهم يدعون أنهم لا يريدون بذلك الإشراك، ولا يعتقدون التأثير. فهم كفار، لأن هذه الأصنام من الأشجار والمياه والأماكن التي يذبحون لها كانت أصنام أجدادهم الذين لم يسلموا قبل، فهم في ذلك مقلدون لهم، وإن تظاهروا بالإسلام والخير بعد ذلك، لأن الإسلام في هذه البلاد إنما ورد به التجار والمسافرون، فأخذه من أخذه منهم.

فمن الناس من خلص دينه كما ينبغي، ومن الناس من خلطه بما يناقضه. وكان غالب ملوك هذه البلاد من هذا القبيل، لأنهم أخذوا بالإسلام وهم يقرون بالتوحيد، ويصلون ويصومون، ولكنهم لم يفارقوا أحوال أجدادهم الأولين، ولم يتركوا من عوائدهم شيئاً، فكل من خالطهم علم بالضرورة أنهم متلبسون بما لا يصدر إلا من كافر.

فبعضهم من قبل التقليد، وبعضهم من عمل نفسه.

قال شهاب الدين في نسيم الرياض شرح الشفاء: "من أهل السودان قوم مسلمون، ومنهم قوم كفار يعبدون الأشجار، ومنهم كفار يعبدون المياه.

قال سيدنا المختار بن أحمد الكنتي في النصيحة الكافي:بلد السودان بلد قد غلب على أكثر أهله الكفر، ومن فيه من المسلمين تحت قهر الكفرة، قد اتخذوهم أجراء، والناس يعملون بعمل أميرهم غالباً، وهم قد غلبت عليهم ظلمات الجهل والهوى والكفر، ولهذا نهى عن السفر إلى أرض العدو وبلاد السودان. إلخ.

وسيأتي لهذا مزيد بيان.

وإذا فهمت ما قررناه علمت أنهم لا يعذرون بما أظهروا من مقاصد أخرى - كمن سجد لصنم بمائة ألف درهم - وإن كانوا ينطقون بالشهادتين ويصلون يوصومون ويحجون ويعملون أعمال البر، لأن واحدة من خصال الكفر يحبط ألفً من خصال الإمان إجماعاً.



ومن عوائد هذا البلد - على ما حدثونا - انتشار الفاحشة في قراها وخيارها، ولا ينكر بعضهم على بعض البتة.

ومن أخلاقهم النخوة والكبر في الفراء والعام، فالسلاطين من باب أحرى، والحدة، والمكر، والذل، وعمد المواساة، وسفك الدماء، والظلم الكثير، والفجور.

وفيهم يقول الأستاذ الطاهر بن إبراهيم في قصيدة:

إن كانـــــورين كانـــــوا أهـــــل قهـــــر واعـــــتلاء

فالأراجـــــيف لـــــديهم كأراجيـــــز الثـــــناء

والأســـــاطير إلـــــيهم ذو أســـــاطين البـــــناء

والأكاذيـــــب إلـــــيهم مـــــن أكاذيـــــب الجـــــناء

والأســـــاطير أراجيـــــز بـــــساتي الغـــــناء

يـــــا بنـــــي كانـــــور هـــــذا مـــــن فـــــنون الأزدراء

الفصل الخامس

في ترجمة الشيخ البكري

من علماء هذا البلد الإمام العالم العلامة المتفنن الفهامة شيخ الشيوم ذو الفهم والرسوخ، الشيخ البكري، أخذ العربية والبلاغة في جاندوت، وصدر منها عالماً متفنناً، ثم رحل لبلاده، ولقي الشيخ النجيب التكداوي الأنصمني، وتتلمذ له حتى صدر منه عالماً متفنناً فرجع لبلاده، وتصدر للتدريس، وأقام بها حتى توفي.

ومنهم العالم العلامة الفقيه الفهامة أبو بكر الباركوم، المعريف بابن آجروم، أخذ عن الشيخ البكري، له تآليف تدل على وفور علمه، منها: العقيدة المعروفة بشرب الزلال.

ومنهم العالم العلامة الفقيه الفهامة أبو بكر الباركوم، المعروف الشيخ الطاهر بن إبراهيم الفلاتي، كان نسيج وحده، عالماً بالمنقول والمعقول، صالحاً تقياً بارعاً والحاصل أنه بلغ مبلغ الرجال.

نشأ بموضع يقال له "ذات البقر" بارعاً وأخذ العلم عن الشيخ البكري، ثم رجع لموضعه، وتصدر للتدريس، ثم حمله السلطان إلى حصن برنو، وأسكنه فيها، وابتنى له داراً، وولاه خطة [=خطبة]. له تآليف وأشعار: منها نظمه على الكبرى وشرحه، ونظمه على الحكم، ونظمه الدرر اللوامع، ومنار الجامع، فيعل التصريف.

كان رحمه الله كثير الحساد في ذلك البلد، لقي من جفاء أهل البلد وجفاء

السلطان أمراً فظيعا، لإظهاره النصح لهم، مع أن الظالمين لا يحبون الناصحين لهم. وأتى يوماً باب السلطان يريد الدخول عليه، فأمر السلطان البواب أن يصده ويمنعه من الدخول، فأغلق عليه البواب الباب وكر راجعاً، وأنشأ يقول:

أتركت بابا لا يحد مسافة وأتيت بابا سده السبواب

باب يقول: فلا تلج، وتول من بخل وكل ضم هذا الباب

وله قصيدة في النصح للسلطان من سماع أقوال الوشاة والسعاية، وقد مر منها أبيات.

وكان رحمه الله ممن يبشر بظهور هذا الإمام الخليفة، مجدد هذا الذين في رأس هذا القرن للبرية، والذي روي عنه الثقاة بسنده إلى الشيخ ولوند أنه قال: قد أظلكم زمان ولي من أولياء الله يظهر في هذه البلاد، يجدد الدين للبرية، ويفشي العلم، وينصر السنة.

ومنهم غير هؤلاء، ضاعت آثارهم لما قدمنا من عدم تسجيل التواريخ في هذه البلاد.

الفصل السادس

في بلاد أهير وسكانها، وبعض علمائها

ويلي هذا البلد من جهة الشمال بلدة أهير، وهي بلا واسعة، وقيعان ممتدة يعمرها التوارك، وبقايا صنهاجة، وبقايا السودان.

وكان هذا الإقليم قبل في يد السودانيين، من أهل غوبر - بضم الغين وكسر الباء - فاستولى عليها التوارك: قبائل خمسة وافوا من الأوجل، يقال لهم: أمكيتا، وتمكك، وسندار، وأكدالا وأجدارنين. فتغلبوا على البلد ومكثوا فيها، ثم اتفق رأيهم في تأمير الأمير عليهم، ليقيم لهم أمرهم، ويرد قويهم عن ضعيفهم، فأمروا رجلاً من أهل أستفي، ثم تنازعوا بعد ذلك وعزلوه، ثم طلبوا آخر، ولم يزالوا هكذا: كلما لم يوافقوهم أميرهم عزلوه.

وكان هؤلاء التوارك من بقايا البربر الذين انتشروا أيام فتح إفريقية.

والبربر: امة من ولد إبراهيم.

وقيل: من ولد يافث.

وقيل: من يأجوج ومأجوج الذين سدهم ذو القرنين، وقد خرجت منهم طائفة

يغيرون فسد من دونهم، فبغوا وتناكحوا مع الترك والتتار.

وقيل: هم من ولد الجان. ذهبت رفقة إلى بيت المقدس، فباتوا في قاع، فأصبحوا وقد حملت نساؤهم من جان تلك البقعة، فولدتهم، وهم أمة جبلوا على سفك الدماء ونهب الأموال والحرابة.

وقيل: إنهم هم الذين قتلوا النبي حنظلة، عليه الصلاة والسلام.

وقيل: إنهم الذين قتلوا النبيين: زكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام. وهم الذين بغوا على بني إسرائيل، فأخرجوهم من ديارهم، حتى قاتلهم طالوت، فقتل داود أميرهم جالوت، حتى كان من أمرهم ما كان. وكانوا إذ ذاك بفلسطين، فخرجوا منها متوجهين إلى المغرب، حتى انتهوا إلى ألوبية ومراقية، وهما كورتان من كور مصر الغربية، مما تشرب من ماء السماء، ولا ينالها ماء النيل، فتفرقوا هنالك، فتقدمت زناتة ومغيلة إلى المغرب، وسكنوا الجبال، وتقدمت لواته، فسكنت أرش أنطايلس وهي برقة وتفرقت في هذا المغرب، وانتشروا حتى بلغوا السوس.

ونزلت هوارة مدينة البدوة، ونزلت نفوسة مدينة صبرة، وجلا من كان بها من الروم من أجل ذلك.

وأقام الأفارق - وكانوا خدماء الروم - على صلح يؤدونه إلى من غلب على بلادهم، وهم بنو فارق بن ينصر بن حام.

ولنرجع إلى تقرير هذا الإقليم.

وزعما أنه لما افتتحت إفريقية انتشر من فيها من البربر، وساروا إلى المغرب، واستوطنوا تونس، وانتشر من تونس قبائلهم إلى المغرب، وسار بعضهم إلى الغرب الجنوبي، الضارب في بلاد السودان، فاستوطنوا الأوجل وفزان وغدامس وغات.

هذه القبائل الخمس المذكورة، وافوا من الأوجل، واستوطنوا هذا الإقليم ونفوا من بها من السودانيين.

وكان الإسلام انتشر في هذا الإقليم كثيراً، وظهر في أهله البركة والخير كثيراً، وكان منهم العلماء والأولياء ممن لا يحصيهم إلا الله، وضاعوا لعدم تسجيل التأريخ في هذه البلاد، كما قدمنا، ولكن نذكر طرف في الإشارة إليهم:

فمنهم الأستاذ الفقيه العاقب بن عبد الله الأنصمني المسوفي، قال أحمد بن بابا في "كفاية المحتاج في معرفة من ليس في الديباج": العاقب بن عبد الله الأنصمني المسوفي من أهل تكدة قرية عمرها صنهاجة، قرب السودان، فقيه نبيه، ذكي الفهم،

وقاد الذهن، مشتغل بالعلم، في لسانه ذرابة، له تعاليق، من أحسنها كلامه على قول خليل: "وخصصت نية الحالف"، وهو حسن مفيد، لخصته مع كلام غيره في جزء سميته "تنبيه الواقف على تحرير: وخصصت نية الخالف".

وله جزء في جواب الجمعة في قرية أنصمن. خالفه فيه غيره، والصواب معه، والجواب المحدود عن أسئلة القاضي محمد بن محمود، وأجوبة الفقير، عن أجوبة الأمير، أجاب فيها أسكيا الحاج محمد. وله غيرها.

أخذ عن المغيلي والجلال السيوطي، وغيرهما.

وقع له نزاع مع مخلوف البلبالي في مسائل.

كان حياً قرب الخمسين وتسعمائة.

ومنهم الأستاذ النجيب بن محمد شمس الدين التكداوي الأنصمني. قال أحمد بابا في الكتاب المذكور: هو من شيوخ العصر، معه فقه وصلاح، شرح مختصر خليل بشرحين: كبير في أربعة أسفار، وآخر في سفرين.

وله تعليق على تخميس عشرينيات الفازازي لابن مهيب في مدحه صلى الله عليه وسلم.

أخذ عن أحمد سحولية، وهو الآن بالحياة، كبير السن.

ومنهم الشيخ الإمام العالم الرباني سيدي محمود البغدادي، ذو المناقب الكثيرة، والكرامة الأثيرة، فريد الدهر، ووحيد العصر، القطب، محيي السنة، وقامع البدعة، والداعي إلى الحق، المتكلم بكلام الأولياء، سلطان الطريقة، وبرهان الشريعة، مستغرق الوقت في العبادة والأذكار.

دخل بلاد آهير، مسرجاً بالنور والهداية، وهرع إليه للاقتباس من نوره وهدايته من يرى اضطراره وافتقاره إلى من ينقذه من الضلالة إلى الهدى، ومن الظلم إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغفلة إلى اليقظة، ومن التشاغل لغير الله إلى التشاغل بالله، ومن الهوا إلى التقوى، رحمهم الله وغفر لهم.

وأخذ عنه أصحابه، وتمشيخ [تمشى؟] على يده خلائق، واقتبس من نوره شيوخ جلة [جيله؟]، وبقي آثار بركاته وبركاتهم.

وكان أصحابه يجلونه، ويعظمونه تعظيماً، ويدعون له أن [أنه] المهدي المنتظر، ويروون فيه أحاديث، كلها قريب من الوضع، والله أعلم.

بيد أنه عالم رباني، وغوث صمداني، بشر به أولياء الله قبل ظهوره.

فكان من أخلاق أهل هذا البلد التجمد على العوائد الردية، وتقديمها على الكتاب والسنة، وأقبح ما يكون منها أنه إذا ظهر فيهم عالم أو ولي، ثم توفي، أقاموا من ذريته أحداً مقامه، واقتدوا به كما كانوا يقتدون بذلك العالم والولي وأشد، وإن كان جاهلاً لا يعرف شيئاً، وربما كان كافراً. ولا يستطيع أحد أن يبطل هذه العادة فيهم، لشدة رسوخها فيهم، فصدق ما قال صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً، فَسُئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا".

وكانت هذه العادة حقيقاً إزالتها.

ومن أقبحها أن طائفة منهم لا يتوارثون على مقتضى الكتاب والسنة، وإنما يرث عندهم ابن الأخت.

ومن عوائدهم القبيحة المخالفة للشريعة عدم القصاص على مقتضى الكتاب والسنة، فإذا قتل منهم قتيل قتلوا من قبيلة القاتل نفساً، كما كان الأولون يفعلون.

ومن عوائدهم الذميمة عزل السلطان بغير موجب شرعي، حتى أدى إلى ضعف سلطنتهم، وانتشار الحرابة في بلدتهم، حتى لا يكاد تنضبط أمورهم البتة. ومنها غير ذلك مما لا يعد ولا يحصى.

الفصل السابع

في بلاد حوس، وإقليمها وساكنيها

ويلي هذا البلد من جهة اليمين، وغربي برنو بلد حوس، وهو سبعة أقاليم، لسانهم واحد، وعلى كل إقليم أمير نظير للآخر قبل هذا الجهاد. وأوسطها كاشنة، وأوسعها زكزك، وأجدبها غوبر، وأبركها كنوا.

وهي بلاد ذات أنهار وأشجار ورمال وجبال وأودية وغياض، يعمرها السودانيون من مماليك البربر، من أهل برنوا، والفلاتيون، والتواركيون.

فزعموا أن عبداً لسلطان برنوا يقال له باو، هو الذي ولد السودانيين من أهل هذا البلد، ولذلك قلنا: إنهم من مماليك البربر، من أهل برنوا.

وحدثني الأخ أمير المؤمنين محمد الباقري بن السلطان محمد العادل، أن كاشنه وكنوا وزكزك ودورونه وبربم، كلهم من ولد باو الذي هو مملوك سلطان برنوا. وأما أهل غوبر فهم أحرار من أصلهم، خرجوا من مصر، وهم من بقايا القبط، وتوجهوا إلى

المغرب، هكذا وجدت في التأريخ عندهم.

وهذه الأقاليم السبعة قد كان فيها من العجائب والغرائب أمور كثيرة. وأول من استقرت له الدولة فيها - على ما زعموا - آمنة بنت أمير زكزك. غزت هذه البلاد واستولت عليها قهراً، حتى أدى إليها الخراج من كاشنة وكنوا، وغزت في بلاد باوش حتى وصلت البحر المحيط، من جانب اليمن والغرب، وتوفيت بألتاغر - بفتح الهمزة والتاء مع التشديد وفتح الغين.

ولهذا كانت زكزك أوسع بلاد حوس، إذ فيها أقاليم باوش كثير، وهو أقاليم يعمرها أجلاف السودان، فمن تلك الأقاليم إقليم غوار - بضم الغين وفتح الواو. وهي سبعة أقاليم، لسانهم واحد، وهم من أجلاف السودان ولم ينتشر فيهم الإسلام.

ومن تلك الأقاليم إقليم أتاغر، وهو إقليم واسع، وبجنبهم مرسى ويروى - بكسر الياء وضم الواو، ودوم - بضم الدال، ويسكوا - بفتح الياء وإسكان السين وضم الكاف، وكتوا - بضم الكاف والتاء على لإشمام، وأدام - بفتح الهمزة والدال، وكتوا آخرو بها معدن الصفر والشبه، وكرنرف - بضم الكاف والراء وإسكان النون مع ضم الراء.

وهذه الأقاليم يشتمل على نحو عشرين إقليماً، سلطانهم واحد، وهو سلطان كرنرف، وهبت له الدولة فيما مضى، حتى ملك هذه الأقاليم التي هي نحو عشرين.

وغزا كتوا وبرنوا، فخرب كثيراً.

وفي هذا البلد معدن الكحل والذهب والملح، وفي جنبهم مرسى سفن النصارى من ملكان الذين يتجرون في السودان.

ومن تلك الأقاليم إقليم أتاغر، وهو إقليم واسع، وبجنبهم مرسى السفن من هؤلاء النصارى المذكورين، وهذا البلد والذي قبله على شاطئ البحر المحيط، وهذه الأقاليم المذكورة كلها في إقليم زكزك، ولم ينتشر فيها الإسلام قبل هذا الجهاد.

الفصل الثامن

في الأقاليم السبعة التي تقرب من كاشنة وغوبر، وسكانيها

وبقرب كاشنة وغوبر سبعة أقاليم كلها مندرجة في الأقاليم السبعة المذكورة آنفاً التي هي حوس، وهي بلد زنفر، وكب، وياور، ونفي، ويرب، وبرغ، وغرم. وعلى كل بلد أمير نظير للآخر.

فأما بلد زنفر - بفتح الزاي وإسكان النون وفتح الفاء - فأصل أهلها - على ما زعموا - أن أباهم كشناوي وأمهم غوبوية، هبت له الدولة بعد ضعف شوكة أهل كب، فقام منهم سلطان يقال له يعقوب بن بب - بفتح الباء، فخرب ديار كب، واستولى على أكثر بلاد كب، وقام على كاشنة، واستولى على بعضها، ثم ضعفت شوكتهم، وقام عليهم سلطان غوبر باباري، فخرب ديارهم، وعقبها لبنيه خمسين سنة، فقام عليهم هذا الجهاد.

وأما بلد كب - بفتح الكاف - فأصل أهلها، على ما زعموا، أن أمهم كشناوية، وأبوهم من أهل سنفي، وهي بلاد واسعة ذال أنهار وأشجار ورمال، هبت لهم دولة أيام كنب - بفتح الكاف وسكون النون وفتح التاء، ويقال إنه عبد للفلاتيين، قام وقهر البلاد وملك الأقاصي منها والدواني. ويقال إنه ملك كاشنة، وكنو، وغوبر، وزكزك، وبلاد آهير، وبعض سنفي، وغزا برنوا.

وسبب غزوه لأرض برنوا، على ما قيل، أن أمير برنوا ميعلي استغاث به أمير آهير على سلطان كب، لأجل ما شدد عليهم، فخرج ميعلي من برنوا غازيا، فسلك طريق سو سوباد حتى سلك شمال دور وكاشنة، ويمين غوبر، ودخل بلاد كب، حتى وصل إلى حصن سورام - بضم السين. فتلقاه سلطان كب صباح العيد، فاقتتلا ساعة، فهزم سلطان كب للغرب، وبقي سلطان برنوا هناك ليقاتل الحصن، فاستصعب عليه الحصن، فكر راجعاً. فسلك اليمين حتى وصل غند - بفتح الغين وإسكان النون، ومر راجعاً إلى بلده. ثم أنشأ كنت جيشاً واقتفى آثاره حتى وصل أنغر - بضم الهمزة وسكون النون وضم الغين. فتلقاه البراون، وهزم من جنودهم نحو سبعة، وغنم فيهم كثيراً، ثم كر راجعاً حتى وصل إلى موضع يقال له دغل - بضم الدال والغين وإسكان اللام - من ناحية كاشنة، وبها طائفة باغية عليه، فقاتلهم أشد قتال، حتى رموه بسهم. فكر راجعاً حتى وصل إلى موضع يقال له جرو - بكسر الجيم وإسكان الراء - فتوفي بها، وحمله قومه ودفنوه بدار سورام.

وكانت له ثلاثة أمصار، أقدمها بلد غنغ - بضم الغين وإسكان النون، ثم سورام، ثم بيك - بكسر اللام. وتمكنت دولتهم فيها، بل لا يوجد بهذه البلاد دولة أعظم منها فيما مضى. وهذه آثارهم ما رُئِيَ مثلها في هذه البلاد، وقد مضى من خرابها نحو من مائة عام.

وقد بقيت دولتهم بعد كنت نحواً من مائة عام، ولم تضعف شوكتهم حتى قام

عليهم سلطان غوبر محمد بن شروم، وأغب - بفتح الهمزة والغين - ابن محمد بن المبارك، سلطان آهير، وأمير زنفر. واستولى على معظم البلد أمير زنفر، واستولى كل على ما يلي بلده، وهو الذي خرب هذه الأمصار الثلاثة، كما ذكرنا قبل.

وأما ياور فبلدة ذات جبال وأودية على شاطئ البحر الذي يقال له النيل، ويعمرها أجلاف السودان الذين هم ضعاف العقول. وقد تولى عليهم السلطان العادل المعروف بسوت، وردهم عن الكفر إلى دين الإسلام وعن العناد إلى الرشاد، فانتشر بسببه الإسلام فيها. هكذا وجدت في كتاب الأستاذ محمد الوالي "النصائح" الذي ألفه لأجله.

وأما بلد نوف، فبلد ذو أنهار وأشجار، ورمال وجبال، من جانبه الأيمن والأيسر، يعمرها أجلاف السودان، ويقال أنهم من كاشنة أصلهم، والصحيح أنهم أخلاط من كاشنة وزكزك وكنوا وغيرهم، ولهم لسان غير لسان أهل حوس.

وكان أهل البلد محترفين جداً وفيهم الصنائع العجيبة، وفي بلادهم الأمور البديعة، ويجلب من بلدهم الطرائف الغريبة، وكأن بلدهم إنما اقتطعت من بلاد الريف، وتولى عليهم فيما مضى السلطان العادل جبريل، وانتشر الإسلام بسببه، فأبغضوه لشدة رسوخه في أمر الدين، وعزلوه وولوا عليهم من يناسبهم في جنونهم ومجونهم.

وأما بلد يرب فبلدة واسعة ذات أنهار وأشجار، ورمال وجبال، فمنها الأخبار العجيبة، والأمور الغريبة. بجنبهم مرسى السفن للنصارى المذكورين.

وأهل هذا البلد، على ما يقال، إنهم من بقايا بني كنعان الذين هم عشيرة نمرود.

وسبب مقامهم بالمغرب' على ما قيل، أن يعرب بن قحطان هو الذي طردهم من العراق إلى المغرب. فسلكوا بين مصر والحبشة، حتى وصلوا إلى يرب، وكانوا يخلفون في كل بلد طائفة منهم، ويقال أن أجلاف السودان الذين يعمرون جوف الجبال، كلهم منهم، وكذا أهل باوور. وهذا البلد يقرب وصف أهله بأهل نفي.

ومن بلادهم يجلب هذا الطير الأخضر الذي هو ببغاء ناطق، وفي هذا البلد أخبار عجيبة ذكرها محمد مسنة، صاحب النفحة العنبرية في "أزهار الربا، في أخبار يربي".

وكان أهل هذا البلد يجلب لهم العبيد من بلادنا هذه، ويبيعونهم للنصارى المذكورين. وإنما ذكرت لك هذه القضية، لئلا تبيع عبداً مسلماً لمن يجلبه إليها، وقد عمت البلوى بذلك.

وأما بلد برغ، فبلدة ذات أشجار ورمال، يعمرها أجلاف السودان، ويقال أنهم من عبيد الفلاتيين الذين خلفوا وراء النهر، حين جاوزوا البحر وانتشروا في هذه البلاد، وهؤلاء السودانيون عتاة مردة فيهم السحر الكثير.

ويقال أن الأمير العادل الحاج محمد أسكيا حين استولى على هذه البلاد، غزاهم ولم ينجع فيهم شيئاً، واستصعبوا عليه.

وأما بلد غرم، فهي بلدة واسعة ذات أنهار وأشجار ورمال وجبال، يقرب وصفهم من وصف أهل برغ، بيد أنهم سراق فجار، وبلدهم أوسع من بلد برغ.

وبجنبهم بلد يقال له موش - بضم الميم، بلدة واسعة ذات أنهار وأشجار، يعمرها أجلاف السودان، وفيها معدن الذهب.

الفصل التاسع

في تراجم بعض علماء الأقاليم السبعة

من علماء هذه الأقاليم السبعة المذكورة آنفاً التي هي: دور، وكاشنة، وكنو، وغوبر، وزكزك - الشيخ الإمام العالم العلامة، التحرير الفهامة، فريد دهره، ووحيد عصره، عبد الله سك، الفلاتي البغاوي، رحل في طلب العلم إلى أقدر، وإلى فزان، وأخذ عن ابن غانم، ثم أخذ عن الشيخ البكري، ثم رجع لبلاده، وتصدى للإقراء. وأخذ عنه محمد البغاوي، والقاضي موسى غبر السوداني.

وله مع شيخه البكري جزء يسير في مجاوبته، حيث كفر الشيخ الفلاتيين، من أجل العادة التي يفعلونها في الصحارى قبل ظهور الشيخ، وهي أن يجتمعوا ويخرجوا مع أولادهم الصغار، حتى ينتهوا إلى موضع بعيد من العمارة، ثم يعقدوا على رؤوس أولادهم ما يعقدون، ثم يوقدوا ناراً عظيمة، ويذبحوا البقر ما استطاعوا، ويغرزوا اللحم حول النار. فإذا حان وقت السحر جاء أولادهم الكبار، وهم واقفون، وبأيديهم عصى فيجعلون يضربونهم، حتى ينتهى أولئك الأولاد إلى النار واللحم، ثم يطوفون بالنار هم وأولادهم، وهم يقولون: نحن وداعة الله، ثم وداعتك أيها النار، وأنت أبونا وأمنا، وبعضهم يرقص عليها، وبعضهم يقعد عليها فلا تضره. ثم يأكلون لحومهم، هم وأولادهم الكبار والصغار، ثم إذا أصبحوا قام خطباؤهم وتكلموا بكلام يرونه بليغاً عندهم، وأدبوا أولادهم بما يرونه أدباً.

وكان الشيخ البكري يرى تكفيرهم. وكان هذا الشيخ يرى عدم تكفيرهم، ويرى

أن ذلك من المعاصي، لأنهم يقرون بالتوحيد، ولا يعتقدون الإشراك مع الله في شيء، ويصلون ويصومون.

ولكن الصواب مع الشيخ البكري، إذ التكفير في ظاهر الشرع يكون بأدنى من ذلك، والله أعلم.

وفي هذا الشيخ يقول الشاعر:

مدينة العلم عبد الله ذاك سكا وفي التعدد خذ من بعده عسرا



من علماء هذه البلاد الإمام العالم العلامة محمد الكشناوي الفلاتي، رحل للشرق، وحج وجاور الحرمين، ورجع لمصر، وتوفي بها.

ويقال أنه أقر له بالعلم والفضل علماء الحرمين ومصر.

ومنهم القاضي محمد بن أحمد بن أبي محمد التاذختي. قال أحمد باب، في كفاية المحتاج: عرف بأيد أحمد - بهمزة مفتوحة وياء ساكنة فدال مفتوحة، مضافاً لاسم أحمد، ومعناه: ابن. كان فقيهاً عالماً، فهاماً محدثاً، متفنناً محصلاً، جيد الحفظ، حسن الفهم، كثير المنازعة.

وقرأ ببلده على جده الفقيه الحاج أحمد بن عمر، وعلى خاله الفقيه الصالح علي، ولقي بتكدة الإمام المغيلي وحضر دروسه، ثم رحل للشرق صحبة سيدنا الفقيه محمود، فلقي أجلاء، كشيخ الإسلام زكرياء، والبرهانين: القلقشندي، وابن أبي شريف، وعبد الحق السنباطي وجماعة. فأخذ عنهم علم الحديث، وسمع وروى، وحضر دروس الأخوين اللقانيين، وتصاحب مع أحمد بن عبد الحق السنباطي. وأجازه من مكة أبو البركات التويري، وابن عمه عبد القادر، وعلي بن ناصر الحجازي، وأبو الطيب البستي، وغيرهم.

ثم رجع لبلاد السودان، وتوطن كاشنة، فأكرمه صاحبها، وولاه قضاءها.

وتوفي في حدود ست وثلاثين وتسعمائة، عن نيف وستين سنة.

له تقاييد وطرر على مختصر الشيخ خليل.



ومنهم الشيخ الأستاذ المكاشف المعروف بابن الصباغ، دهليز العلم، له تآليف: منها شرحه على عشرينيات الفازاري، ولكن لم يشتهر.

ومنهم الشيخ العام العلامة التحرير محمد مسنة، له تواليف تدل على وفور علمه، منها النفح العنبرية في شرح العشرينية، وبزوغ الشمسة في شرح العشماوية، وأزهار البر في أخبار يربي. أخذ عن ابن الصباغ.

ومنهم هاشم وابن تاكم، من جلة زمانهما، وفيهما يقول الأستاذ الطاهر بن إبراهيم، من قصيدة له:

أيــدري زمانــي هاشــما وابــن تاكمــا أتــاكم بــريق هاشــما مــا أتاكمــا

ومنهم الشيخ هارون الزكزكي، شيخ الشيوخ الفلاتي، وعنه أخذ الشيخ رمضان.

ومنهم الشيخ العلامة رمضان بن أحمد، وكان أصله من فزانن، استوطن زنفر، وله قصائد وتواليف، منها: نظمه على رواة البخاري، أي رواية الفروع عن الأصول. ومنها الجوهرة في ذم علم النجوم.

ومنهم الشيخ العالم العلامة، والتحرير الفهامة، البليغ عمر بن محمد ابن أبي بكر الترودي. وكان أصله من ركب، وله بها آثار. كان فقيهاً جليلاً، عالماً صدراً شهيراً، ماجداً فاضلاً أصيلاً،من بيت علم ودين.

له تقاييد وأشعار: تخميس على الكواكب الدرية للبوصيري، وله تخميس على "بانت سعاد" وله تقاييد وأشعار.

ومن كلامه رحمه الله ما كتبه لبعض الإخوان نصحاً له، وبياناً لما لا يعتمد عليه من الكتب فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

أما بعد، فالكتب التي لا ينبغي مطالعتها، والاشتغال بها، لكون أكثر ما فيها ضعيفاً وباطلاً، ولكون الأحاديث والآثار التي فيها موضوعات كثيرة في أيدي الناس، منها:

1. كتاب وصية علي
2. وكتاب وصية فاطمة
3. وكتاب وصية أبي هريرة
4. وكتاب وصية معاذ
5. وكتاب مرضاة الرب
6. وكتاب دقائق الأخبار
7. وكتاب تارك الصلاة

8. وكتاب غزوة خيبر
9. وكتاب انشقاق القمر
10. وكتاب وفاة بلال
11. وكتاب شفاعة المحمود
12. وكتاب أهوال القيامة
13. وكتاب صفة الجنة
14. وكتاب كلام البهائم
15. وكتاب الجمعة
16. وكتاب المعراج الكبير
17. والصغير معاً
18. وكتاب المرشد الذي أوله أربعة جواهر في نبي آدم يزيلها أربعة.. إلخ
19. وكتاب أربعين حديثاً الذي أوله: لكل شيء مهر، ومهر الجنة ترك الدنيا
20. وكتاب قصة الغلام
21. وكتاب قصة القاضي مع السارق
22. وكتاب قصة الجارية مع أبي حازم
23. وكتاب قصة العصفور
24. وكتاب العلم النافع الذي أكثر تراجمه: أيش كذا
25. وكاب آداب العلماء
26. وكتاب السبعيات في قصص الأنبياء
27. وكتاب مناجاة موسى
28. وكتاب بريد من شرح الرسالة
29. وكتاب الوحشي
30. وكتاب غريب، كلاهما شرح الشهاب
31. وكتاب الريح الأحمر
32. وكتاب شمس المعارف
33. وكتاب قصة الدعاء المبارك
34. وكتاب ذكر الخميس
35. وكتاب الياقوتة
36. وكتاب النفخ والتسوية
37. وكتاب الباجي الذي أكثر ما فيها: فإن قيل لك كذا وكذا فقل: كذا وكذا
38. وكتاب فتح مكة، وهو سفر كبير مجلد
39. وكتاب غزوة سيسيان
40. وكتاب فقه الدين
41. وكتاب إفحام الخصم في إباحة الدخان

42. وكتاب التبيين في المواعظ
43. وكتاب سؤالات الراهب
44. وكتاب من شرح البسملة
45. وكتاب الطير، وما أبطله
46. والكتاب المعروف بجامع الكبير
47. وكتاب المنتقي، ولا أعني شرح الشهاب، بل مجلداً كثير الأسانيد
48. وكتاب فضائل رمضان
49. وكتاب فضائل ليلة القدر
50. وكتاب الفصول
51. وكتاب نصيحة إبليس
52. وكتاب صلوات الليالي الفاضلة
53. وكتاب فضائل سور القرآن، سورة سورة
54. وكتاب الثعالبي

هذا ما به الفتوى عند العلماء.

رحل من بلده للشرق طلباً للحج، وحبسته الأعذار، وسكن برايازاكي - بفتح الباء وفتح الراء وبعدها ألف، وفتح الياء وبعدها ألف وزاء، والف بعد الزاي وكسر الكاف.

وبها قبره ظاهراً يزار، وقد زرته مراراً.

ومنهم الشيخ علي جب، العلامة المشهور المكاشف، له شرح على الكبرى، وشرح على لامية الأفعال. كان فاضلاً حسن الخلق والخلق، ساعياً في الدعوة إلى الله، مجتهداً فيها، معظماً عند الخاصة والعامة، شيخ الشيوخ. أخذ عنه العلامة النظار المحقق الأصولي المتفنن أحمد بن غار.

وأخذ عنه الأستاذ جبريل بن عمر، وأخذ عنه جلة من العلماء، وحصلت في حضرته بركة عظيمة. وتعزى إليه الكرامات.

توفي بمارنونا - بفحت اميم وألف بعده وراء مفتوحة ونون مضمومة، وبها قبره ظاهر يزار.

ومنهم الأستاذ جبريل بن عمر، شيخ الإسلام العلامة المحقق، القدوة النظار الصالح البركة الحاج، قال الوالد في شفاه الغليل في حل ما أشكل من كلام شيخنا جبريل - وهو يعد فضائله - فقال: "ليعلم أهل بلادنا السودانية هذه، بعض ما أنعم الله عليهم، ليجتهدوا في شكر الله تعالى، على وجود هذا الشيخ في هذا البلد، فيستوجبوا

المزيد". فأقول وبالله التوفيق.

ومن فضائله رضي الله عنه أنه كان ممن حمل لواء العلم في زمانه، فشرف بزيارة بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه محمد صلى الله عليه وسلم مرتين.

ومن فضائله رضي الله عنه أنه بلغ الغاية في الاشتغال بالكتاب والسنة، وحض الناس عليهما.

ومن فضائله رضي الله عنه، أنه كان أول من قام بهدم العوائد الذميمة في بلادنا السودانية هذه، وكان كمال ذلك ببركته على أيدينا.

ومن فضائله رضي الله عنه أنه بلغ الغاية في العبادة والخلق الحسن، والغيرة على الإسلام. كان حليماً هيناً ليناً، حسن الكلام مع من لقيه، مبتسماً معه، ولا يحقد على أحد، ولا يعبس في وجهه، ويطيب كلامه لجميع الناس على طريق البسطة، حتى تظن أن كل واحد صديقه.

ومن فضائله رضي الله عنه أنه ذو بسط ودعابة، مشرف بلباس الهيبة، وهو من أعجب العجائب في شأنه.

ومن فضائله رضي الله عنه أنه بلغ الغاية في تعظيم المصطفى صلى الله عليه وسلم، حتى أنه قل أن يذكره إلا باسمه: أفضال الخلق.

وفضائله رضي الله عنه كثيرة لا تحصى. وفيما ذكرناه كفاءَة لمن تأمل.

ونحن بالنسبة إلى مقامه نسبة الظالع مع الصليع، ونسبة دوي الزنبور مع نغمة الزبور، فوالله لا ندري هل نهتدي إلى سبيل السنة، وترك العوائد الذميمة، لو لا تنبيه هذا الشيخ المبارك. وكل من أحيا السنة وهدم العوائد الذميمة في بلادنا السودانية هذه، فهو موجة من أمواجه، ولذلك قلت فيه شعراً:

إن قيل في بحسن الظن ما قيلا ... فموجة أنا من أمواج جبريلا

وهو رضي الله عنه كما قال في مدح شيخه مرتضى:

فريد الدهر فائق كل قرن ... عجيب شأنه في كل فن

ولو لا لا تزال لقلت لا لا ... وجود لمثله في كل قرن

وأنا أقول أيضاً:

شيخ الشيوخ بأرضنا جبريل ... بركاته ما نالها تفصيل

كشفت به ظلم الضلال كأنه ... في كشفها ببلادنا قنديل

ولأستاذنا العم عبد الله بن محمد:

جبريل من جبر الإله به لنا ديـنا حنيفا مستقيم المنهج

شمس الضحى بزغت بغرب فانتهت للشرق تشرق للقريش وخزرج

وأخذ عن هذا الشيخ الأستاذ المذكور

وأخذ عنه أيضاً العلامة المشارك، التقي النقي المتفنن الأصولي، المصطفى بن الحاج عثمان.

وأخذ عنه أيضاً العلامة المشارك الراوية محمد الفربري بن محمد، وانتفع به خلائق كثيرون. وآثار بركاته في هذه الديار باقية.

وبالجلمة فهو شيخ الشيوخ، وصاحب التمكين والرسوخ، علم صدر متقن.

وأخذ عن الشيخين النبيلين، الأخوين المتفننين، الأصوليين، العلامتين، النظارين، الفاضلين: أبي بكر وأخيه علي ابني الحاج عثمان، توفي أحدهما بفزان، وقد حج أبو بكر مرتين.

وأخذ أيضاً عن محمد بن الحاج المتفنن حسن الخط، ورحل معه إلى الحج، وتوفي هناك.

وقد لقيا: هو وشيخنا يوسف الحفناوي، وأخذا عنه، وقد أشار إلى موت أحدهما. ومات محمد بن الحاج، ورجع هو لبلده، ثم رجع للحج ثانياً، ولقي الشيخ مرتضى وأخذ عنه، ورجع لبلده، وتوفي بها.

ومنهم شيخ الشيوخ الفقيه المهيب محمد المنقوري. نقل مختصر خليل، ومهر جداً، وتصدر للتدريس، فأخذ عنه جماعة، منهم: قاضي القضاة شعيب، وقاضي القضاة محمد سنب، وقاضي القضاة البركة إبراهيم البرتاوي، والعلامة عياض إسحاق، وقاضي القضاة أبو بكر.

وظهر في طلبته البركة الكثيرة، انتفع بها المسلمون وبهم.

توفي بمرنون - بفتح الميم، وإسكان الراء ونون بعده واو ونون، وبها قبره يزار، وقد زرته مرتين: مرة مع الوالد.

الفصل العاشر
في ترجمة والد المؤلف
رضي الله عنهما

ومنهم شيخ الإسلام، وعلم الأعلام، العالم الرباني، والغوي الصمداني، علامة الدنيا، وطالع المرتبة العليا، أبو محمد عثمان بن محمد ابن عثمان، المعروف بابن فودي والدي. أطال الله حياته، وجعل العاقبة خيراً له.

بشر به أولياء الله قبل ظهوره. من ذلك ما تقدم عن الشيخ ولديد، والشيخ الطاهر.

ومن ذلك ما روى الثقاة عن أم هانئ الصالحة الولية الفلاتية، أنها قالت: يظهر في هذا القطر السوداني ولي من أولياء الله، يجدد الدين، ويحيي السنة، ويقيم الملة، ويتبعه الموفقون، ويشتهر في الآفاق ذكره، ويقتدي العام والخاص بأمره، ويشتهر المنتسبون إليه بالجماعة. ومن علامتهم أنهم لا يعتنون برعي البقر كعادة الفلاتيين، ومن أدرك ذلك الزمان فليتبعه.

والحاصل أنه قد تفرس فيه أولياء الله كثيراً، وأخبروا بشأنه وأمره قبل ظهوره وحين ظهوره.

واعلم أن هذا الشيخ نشأ من صغره في الدعوة إلى الله، وقد أمده الله تعالى بأنوار الفيض، وجذبه إلى حضرته، وكشف له عن حضرة الأفعال والأسماء والصفات، وأشهده غرائب الذات. فصار بحمد الله بين أولياء الله، يكرع من كأسات القرب، ويكتسي من حلل العرفان والحب. وقلده الحق تعالى تاج العناية والهداية، وأهله للدعوة إليه، وإرشاد العامة والخاصة.

وأخبرني أنه حين حصل له الجذب الإلهي، ببركة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، إذ كان يواظب عليها من غير ملل ولا كلال ولا فترة، أمده الله بفيض الأنوار، بواسطة الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله عنه، وجده الرسول صلى الله عليه وسلم، فشاهد من عجائب الملكوت وحصل على غرائب الجبروت، وشاهد أفعال الأسماء والصفات والذات، ووقف على اللوح المحفوظ، وفك رمزه الملحوظ. وكساه الحق تعالى حلة الدعوة إليه، وتوجه تاج الهداية والإرشاد إليه، فنادى منادي الحضرة: يا أيها الناس أجيبوا داعي الله، مرات، ثم قال: "يؤفك عنه من أفك".

ثم رده الحق تعالى إلى محل الإفاقة، ليتأتى له الإرشاد والدعوة، وربما تعاهدته أنوار الجلال فقبضته، أو تفقدته أنوار الجمال فبسطته، مع أنه من أهل التمكين والمقامات، لا من أهل الأحوال والواردات. فقام بما قلده الحق به، وأهله من الدعوة إليه، والدلالة عليه، فجعل يدعو إلى الله ويدل عليه، ويكابد ما هو المعهود من أخلاق الناس من الجفاء والإنكار والاستهزاء، ولم يزل يجتهد ويحدثهم بقدر عقولهم ويلاطفهم. وقد لقي من جفائهم ما لا يستطيع أن يصفه الواصف، حتى أتاح الله له أن صمد إليه الموفقون، واستمع إليه نفر من المؤمنين. فجعل يقرر للناس الحق، ويبين لهم الطريق.

وقد وجد في هذه البلاد من أنواع اكفر والفسوق والعصيان أموراً فظيعة، وأحوالاً شنيعة، طبقت هذه البلاد وملأتها، حتى لا يكاد يوجد في هذه البلاد من صح إيمانه وتعبد إلا النادر القليل، ولا يوجد في غالبهم من يعرف التوحيد، ويحسن الوضوء والصلاة والزكاة والصيام وسائر العبادات:

فمنهم كفار يعبدون الأحجار والجن، ويصرحون على أنفسهم بالكفر، ولا يصلون ولا يصومون ولا يزكون، ويسبون الله ويقولون في حقه ما لا يليق في جنابه الأعلى، وهؤلاء غالب عامة السودانيين الذين لهم "ماغنداوا" [Maguzawa] وبعض عتاة الفلاتيين والتوارك.

ومنهم قوم يقرون بالتوحيد، ويصلون ويصومون ويزكون من غير استكمال شروط، بل يأتون في ذلك كله بالرسم والعلامة، مع أنهم يخلطون هذه الأعمال بأعمال الكفر الذي ورثوه من آبائهم وأجدادهم، وبعضهم من قبل نفسه، وعلى هؤلاء يحمل قول الشيخ جبريل بن عمر في قصيدته:

وبعد فاعلم أن ذا تبصرة	للناس في السودان بل تذكرة
فلا ترى منهم سوى من يدعي	إسلامه بفمه الموسع
مستترا بالصوم والصلاة	عن قدحه بأقبح اللعنات
فهو حقا كافر صريح	لأنه محرم مبيح
في الخوض دائم ومستمر في	عقيدة خالفها الجمع والوفي
عمٍ عن الحديث والكتاب	وما له قال ذوو الألباب
راض بحكم الجاهلية التي	أزالها الله بوضع الشرعة

حيـــر أفكـــار صـــغار العلـــم فحكمـــوا إســـلامهم بالـــوهم
مـا بينهم وبين أهـل الشرق [شرك؟] تفـــرقة لاحـــت لأهـــل الحـــق
وذاك يـــــستبين بالظواهـــــر يدركـــه فـــيهم ذوو البـــصائر
يـــدرك بالخبـــرة والتجـــربة بأفعـــال تظهـــر للأبـــصرة
مـــا لـــم يكـــن بفعلـــه إلا الـــذي كفـــر أنـــه بالإجمـــاع يحـــتذي
فمـــن أتـــاه كافـــر مـــرتد كـــذاك كفـــرانا بـــواحا عـــد

وغالب ملوك هذه البلاد وجنودهم وأطبائهم وعملائهم من هذا القبيل.

ومنهم قوم يقرون بالتوحيد، ويصلون ويصومون ويزكون من غير استكمال شروط كما مر مع أنهم مقيمون على عوائد ردية، وبدع شيطانية.

ومنهم منهمكون في المعاصي الجاهلية متأنسين بها، دارين فيها مجرى المباحات، حتى كأنها لم يرد فيها نهي، وهي خصال كثيرة أقاموا عليها، وهؤلاء أكثر عامة الفلاتيين، وبعض مسلمي السودانيين، إذ قد مر أن غالبه كفار بالأصالة، وبعضهم بالتخليط.

ومنهم قوم مؤمنون عارفون بالتوحيد كما ينبغي، محسنون للوضوء والغسل والصلاة والزكاة والصيام، عاملين بذلك كما ينبغي، وهؤلاء النادر القليل كما مر.

ولما قام هذا الشيخ يدعو إلى الله، وينصح لعباده في دين الله، ويهدم العوائد الردية، ويخمد البدع الشيطانية، ويحيي السنة المحمدية، ويعلم الناس فروض الأعيان ويدلهم على الله، ويرشدهم إلى طاعته، ويكشف لهم ظلم الجهالات، ويزيل لهم الإشكالات، وقد وجد هذه الطوائف المذكورة على هذه الحالات، فسارع إليه الموفقون، وصمد إليه السعداء المهتدون، فجعل الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، وترادفت إليه الوفود أمواجاً، ويقرر لهم الطريق، ويبين لهم الحق، وفي ذلك يقول الأستاذ أخوه عبد الله:

عـــثمان مـــن قـــد جاءنـــا فـــي ظلمـــة فـــأزاح عـــنا كـــل أســـود دجـــدج
ودعـــا إلـــى ديـــن الإلـــه ولـــم يخـــف فـــي ذاك لـــومة لائـــم أو فجفـــج
فأنـصات خلـق حـين صـات لـصوته وعـــلا لـــه صـــيت فويـــق الأبـــرج
بـــشرى لأمـــة أحمـــد بـــبلادنا الـــسـ ودان فـــي هـــذا الـــزمان المـــبهج
كـــم ســـنة أحييـــتها وضـــلالة أخمـــدتها جمـــرا ذكـــا بـــتأجج

وظللت في أرض عوائدها عدت — وتخالفت سنن النبي الأبهج
استعظمتها أهلها فاستأسدت — وصدت دوين الدين باب الولج
فاستنسرت بغثانها وتنمرت — جرذانها ترمي بنصل سلمج
من أراد دين الله يمحو عزه — فقمعته قمع القوى الأولج
ولكل فرعون طغى موسى سطا — وقضية عاصت على تنفج
فأبيض وجه الدين بعد محاقه — وأسود وجه الكفر بعد تبلج
والدين في عز ونهج منهج — والكفر في ذل ونهج منهج
والسنة الغراء صبح ينجلي — والبدعة السوداء ليل يدجي
طمست معالمها وأخلق ثوبها — والدين في درع يميس مدبج
وتفجرت للدين من بركاته — عين الحياة تذل ماء الحشرج
فجرى مذانب للمشارب أفهقت — ماء يقول صفاؤه: هل من يجي
حتى تبرج مثل بدر طالع — بليال صحو أو صباح مبلج

ثم إنه لما برز على أهل زمانه في هذا الأسلوب، أنقسم الناس فيه إلى قسمين: قسم معتقد، وقسم منكر منتقد، فأما المنكرون عليه فأشاعوا عليه ما هو المعهود من أبناء الجنس، ونسبوه إلى الأهواء والرياء وغير ذلك.

كضرائر الحسناء قلن لوجهها — حسدا وبغضا أنه لدميم

وهو في ذلك يصبر على جفاهم، ويتحمل أذاهم، ويعرض عن جهالتهم، ويتصامم عن سوء مقالتهم، قائماً بما هو في صدده من النصح والإرشاد، ودعوة الخلق إلى الله.

قال عبد الوهاب الشعراني في لواقح الأنوار: قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: قد جرت سنة الله تعالى في أنبيائه وأصفيائه أن يسلط عليهم الخلق في مبتدأ أمرهم، وفي حال نهايتهم كلما مالت قلوبهم لغير الله تعالى، ثم تكون الدولة والنصرة لهم آخر الأمر، إذا أقبلوا على الله تعالى كل الإقبال.

ثم قال: وذلك لأن المريد السالك يتعذر عليه الخلوص والمسير إلى حضرة الله تعالى مع ميله إلى الخلق وركونه إلى اعتقادهم فيه، فإذا آذاه الناس وذموه ونقصوه ورموه بالبهتان والزور نفرت نفسه عنهم، ولم يصر عنده ركون إليهم البتة، وهنا يصفو له الوقت مع ربه ويصح له الإقبال عليه، لعدم التفاته إلى وراء. فافهم.

ثم إذا رجعوا بعد انتهاء سيرهم إلى إرشاد الخلق، يرجعون - وعليهم خلعة الحلم والعفو - فتحملوا أذى الخلق، ورضوا على الله تعالى في جميع ما يصدر عن عباده في حقهم، فرفع بذلك قدرهم بين عباده، وكمل بذلك أنوارهم، وحقق بذلك ميراثهم للرسل في تحمل ما يرد عليهم من أذى الخلق، وظهر بذلك تقاوت مراتبهم، فإن الرجل يبتلي على حسب دينه.

وقال الله تعالى: "ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا" [الأنعام 34]. وذلك لأن الكمل لا يخلو أحدهم عن هذين الشاهدين: إما أن يشهد الحق تعالى بقلبه، فهو مع الحق لا التفات له إلى عباده، وإما أن يشهد الخلق، فيجدهم عباد الله، فيكرمهم لسيدهم. وإن كان مصطلماً فلا كلام لنا معه، لزوال تكليفه حال اصطلامه، فعلم أنه لا بد لمن اقتفى آثار الأنبياء، من الأولياء والعلماء، أن يؤذوا كما أوذوا، ويقال فيهم الزور والبهتان، كما قيل فيهم، ليصبروا على الخلق كما صبروا، ويتخلقوا بالرحمة على الخلق، رضي الله عنهم أجمعين.

وكان سيدي علي الخواص رضي الله عنه يقول: لو كان كمال الدعوة إلى الله موقوفاً على إطباق الخلق على تصديقهم لكان الأولى بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأنبياء قبله، وقد صدقهم قوم هداهم الله بفضله، وحرم آخرون فأشقاهم الله بعدله.

ولما كان الأولياء اوالعلماء على أقدام الرسل، عليهم الصلاة والسلام، في مقام التأسي بهم، أنقسم الناس فيهم فريقين: فريق معتقد مصدق، وفريق منتقد مكذب، كما وقع للرسل عليهم الصلاة والسلام، فحقق الله بذلك ميراثهم.

ولا يصدقهم ويعتقد صحة علومهم إلى الله، إلا من أراد الله عز وجل أن يلحقه بهم، ولو بعد حين.

وأما المكذب لهم والمنكر عليهم، فهو مطرود عن حضرتهم، لا يزيده الله بذلك إلا بعداً. وإنما كان المعترف للأولياء والعلماء، بتخصيص الله تعالى لهم، وعنايته بهم، واصطفائه لهم قليلاً في الناس، لغلبة الجهل بطريقهم، واستيلاء الغفلة وكراهة غالب الناس أن يكون لأحد عليهم شرف بمنزلة أو اختصاص، حسداً من عند أنفسهم.

وقد نطق الكتاب العزيز بذلك في حق نوح عليه الصلاة والسلام، فقال: "وما آمن معه إلا قليل".

وقال تعالى: "ولكن أكثر الناس لا يؤمنون". "ولكن أكثر الناس لا

يعلمون" [غافر 57 - 59]. وقال تعالى: "أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً" [الفرقان 44]. وغير ذلك من الآيات.

كلامه في لواقح الأنوار

وهذا الذي ذكره هؤلاء الأئمة، هو المعهود من أبناء الجنس من علماء كل عصر، ولذلك أفتى بعض الفقهاء أنه لا تقبل شهادة بعضهم على بعض لهذا المعنى.

ولا شك أنه ليس على العموم، ولكنه شائع معلوم.

ولقي هذا الشيخ من علماء عصره من الجفاء والأذية، ما الله يحصيه ويدريه، فنصره الله وأيده بطائفة من العلماء المهتدين، فصدقوه ونصروه. وفي ذلك يقول أخوه الأستاذ يحرض الإخوان في نصرته ويذكرهم منة الله التي أمتن بها عليهم في ظهوره منهم:

طربت فأشجاني الطيور الكوابح ... وفرحني منها الغيوث الروائح
وخوفني منها ذئاب بوارح ... وأمنني منها الظباء السوانح
لقول النبي: لا تزال جماعة ... على الحق منا أو يجيء المقارح
ألا بلغن عني لحي رسالة ... تعيها رجال أو نساء صوالح
لعالمهم أو طالب العلم رائم ... لإظهار دين الله فيه يناصح
أقول له: قم وادع للدين دعوة ... تجبها عوام أو خواص جحاجح
ولا تخش في إظهار دين محمد ... بقولة قال تأسيه كناتح
ولا تخش تكذيبا وإنكار جاحد ... وهزء جهول ضل والحق صابح
وغيبة هماز وضغن مشاحن ... يساعده من للعوائد راكح
وليس لما تبني يد الله هادم ... وليس لأمر الله أن جاء ضارح
وبين لهم أن العوائد بهرجت ... وسنتنا لاحت عليها لوائح
ولهو الشباب اليوم قد بار سوقه ... وقامت على سوق الصلاح المدائح
وأهل الدنا اليوم قد بار سوقه ... وسنتنا قد ظللتها الدوائح
ومنكر هذا الدين قد خف وزنه ... ومظهره ميزانه اليوم راجح
وناصره قد صار في الناس عاليا ... ومنكره للخاص والعام دانح
وإن إله العشر قد من منة ... علينا ومن يشكر فذلك رابح
ومن كفر الإنعام واتبع الهوى ... ففي بدئه بله القيامة طائح

وذاك بأن قد بين الدين في امرئ — لنا نسبا نعلو به ونطامح
فإن نحن آويناه ننصر قوله — نفز ونحز نعماه والكل فالح
وإن قد أضعناه أفاد بغيرنا — مصائب قوم عند قوم مصالح
ولو نفعت قربي فقط فيه ماردي — أبو طالب عم النبي، وتارح
وما ضر شمساً إن نفى العين ضوءها — وما ضر حوضاً أن أبته القوامح
أطايب أرض تخرج النبت رائعا — بإذن ذويها إن أفاضت دوائح
ولو همعت ديما لما أنبتت ولو — بسابس نبت في الأراضي البوالح
فلا يمنع الإرشاد عدم قبولهم — فمدخلهم مولاهم أنت فاتح
فإنك إن بلغتهم ضاع عذرهم — فساقيهم المولى فإنك جادح
مطيع لما قد قاله سيد الورى — به بلغوا عني أتته صحائح
وأمر بمعروف ونهي لمنكر — على شرطه للناس بالحق قارح
وفهمهمو ما يلزم المرء عقده — من الدين مما سهلته القرائح
وغسلا وضوءا أو صلاة زكاتهم — وصوما وبيعا ثم كيف يناكح
وواجبها مسنونها مستحبها — ومنهيها فالكل في الكتب واضح
وعلم نساء سترهم بأن ترى — على غير وجه والأكف القواسح
وعلمهم الإحسان كيف يراقبو — ن مولاهمو ذو جدهم والصمادح
وكيف تراعي نية في جميعها — ليرعاه ذو فهم يطيعك لائح
وكيف التخلي عن صفات ذميمة — وكيف التحلي بالحميدة ناصح
بنفسك فابدأ حائدا عن هوى الهوى — لدي سومها ترعى وإنك كابح
أضر عدو من بدارك ساكن — مطيع لشيطان وللدين قابح
سلامة عيب النفس عزت لمالها — يكون خلال المنكرات المسارح
فلا تستطيع الترك عن شهواتها — ولم تحتمل ذلا كذاك السبادح
لجاؤك بالمولى وتقليل مطعم — دواء لأداء النفوس مطحطح
وبالأصغرين احفظ، وبالأجوفين والـ — جواسيس صن دوماً تطعك الجوارح
تباع لقرآن النبي وصحبه — وتابعهم ترياق من هو صالح
عليه صلاة الله ثم عليهم — كذاك سلام بالرياحين فائح

وكــتب تراعــي سـنة مــثل مــدخل ومــستخرجات مــنه فــيها نــصائح
كنــياتها وكـــذلك إحــياء ســنة لــباب طــريق الــصالحين مــصالح
غـــزاليها وكـــذاك زروقـــيها عطائـــيها تـــشفي بهـــذا القـــبائح
بجائـيها أو مــا حــذا حــذوها ولا يعاملهـــا معـــشوق دنـــياه طـــالح
يوفقـــنا المولـــى بجـــاه نبـــيه لـــسنته حتـــى تجـــيء الفـــوادح
علـــيه صـــلاة الله ثـــم ســـلامه وأصـــحابه مـــارن تـــال ورائـــح

شمائله الكريمة

وآدابه العلية وأخلاقه السنية التي يتأدب بها في المجالس

واعلم أنه نشأ عفيفاً متديناً، ذا خلال مرضية، نسيج وحده. انتهت إليه الإمامة، وضربت عليه آباط الإبل شرقاً وغرباً، وهو علم العلماء، ورافع لواء الدين، أحيا السنة وأمات البدعة، ونشر العلوم، وكشف الغموم، بهر علمه العقول، جمع بين الحقيقة والشريعة، فسر القرآن سنين بحضرة أكابر العلماء والصلحاء، عالماً بقراءته وفنونه من بيان وأحكام، وناسخ ومنسوخ، مع إمامته في الحديث وفقهه في غريبه، ورجاله وقنونه وفي أصول الدين، والذب عن السنة ودفع الأشكال، قائماً بالحق صحيح النظر، متدرباً في تعليم الغوامض، إماماً في النقول العقلية، متعبداً ناسكاً، تصدر للتدريس وبث العلم، فملأ القطر المغربي معارف وتلاميذ، يقف أهل زمانه عندما يقول، وكان حامل لواء التحصيل، وعليه مدار الشورى والفتوى، معظماً عند الخاصة والعامة، مجدداً على رأس هذا القرن، خطيباً بليغاً، شاعراً فصيحاً فاضلاً حسن الخلق، جميل العشرة، كريم الصحبة، محققاً شديداً العارضة، مقطوعاً بولايته وقطبانيته، كثير الحياء والشفقة على الخلق، متواضعاً، يرى نفسه كأقل الحشرات، وقافاً على حدود الشريعة، آلفاً بألوفاً، لقي من المحبة والتعظيم من الخلق ما لم يعهد حتى كان أحب الناس إلى أنفسهم، يتزاحمون عليه مع طلاقة وجه، وحسن خلق وبشاشة. وكان حليماً رحيماً بالمؤمنين، وضع له القبول، واتفق على جلالة قدره الثقلان. وبالجملة فالوصف يقصر عن مزاياه، وهو شيخ علماء وقته، بل قطب الأئمة في جميع الأعصار.

وهذه أوصافه لا يحتاج لنقلها من معين، ومتى احتاج نور شمس لدليل؟

قطب الوقت في الحال والمقال [والمقام؟]، ناصر الدين بمقاله وبيانه، محيي السنة بفعاله، دائم الإرشاد والهداية، حجة الله على العالم، متمسك بالكتاب والسنة،

سيد وقته وإمام عصره، وأعجوبة زمانه، ذو النورين: العلم والعمل، وكان صاحب كرامات ظاهرة ومقامات فاخرة، وأسرار زاهرة، وبصائر باهرة، وأحوال خارقة، وأنفاس صادقة وهمم عالية، ورتب سنية، ومناظر دينية، وإشارات نورانية، ونفحات روحانية وأسرار ملكوتية، ومحاضرات قدسية.

له معراج الأعلى في المعارف، والمنهاج الأسنى في الحقائق، والطور الأرفع في المعالي، والقدم الراسخة في أحوال النهايات، واليد البيضاء في علوم الموارد، والباع الطويل في التصريف النافذ والكشف الخارق عن حقائق الآيات، والفتح المضاعف في معنى المشاهات، وهو أحد من أظهره الله إلى الوجود، وأبرزه رحمة للخلق، ووضع له القبول التام عند الخاص والعام، وصرفه في العالم، ومكنه في أحكام الولاية، وخرق له العادات، وأنطقه بالمغيبات وأظهر على يديه العجائب والكرامات.

ثم اعلم أني رأيته إذا أراد الخروج إلى الناس، يقف في زاوية الدار هنية، ويتكلم بكلام، ثم ينصرف إلى الناس، فسألته عن ذلك، فقال: أجدد النية، وأعاهد الله على الإخلاص فيما أخرج إليه، وأسأله أن يفهم الحاضرين ما أحدث به، ومع ذلك كنت أجدد النية في المجلس، وأتذكر في العهد. وكان إذا وصل إلى المجلس سلم بسلام عام يسمعه جميع الحاضرين، وإذا صعد على الكرسي حياهم بتحية عامة ثلاث مرات، ببشاشة وطلاقة وجه، وحسن خلق. ثم ينصت الناس، فلا يضجر ولا يحقد ولا يسأم مع كونه مبتلى بجماعة من العوام ذوي سوء أدب، إذا استنصتهم لا يسكتون، وإذا منعهم من السؤال لا ينتهون، ثم يحدثهم بصوت عال لا يواجه بخطابه أحداً دون آخر، ولا يستحيي أحداً من الحاضرين، وإن كانوا شيوخاً جلة أو علماء حسدة، بل يتكلم على الجميع، ولا يبالي بهم، بما يعم الانتفاع به، وربما ألقى سؤال وهو في أثناء كلام، فيسكت له فيجيبه.

وكان صلباً في الدين، لا تأخذه في الله لومة لائم، يحكم بالقسط والعدل ولو في القربى، لا تأخذه حمية الجاهلية، بل لا يزيغ عن الحق.

وهذا طرف من شمائله الكريمة وأخلاقه السنية، أشرت إليها تعليماً للجاهل، وتذكيراً للعالم الغافل، وتوفية لما شرطنا. ولو أخذنا في ذكر شمائله الكريمة التي خصه الله بها استقصاء لاحتجنا إلى الأسفار وخرجنا عن حد الاقتصار، مع أن الاقتصار واجب في هذه الأعصار، ولا سيما في هذا الزمان الذي تقاصرت همم أهله وتشاغلت بأمر معاشها وأغراضها وأقبلت إلى الدنيا وزخارفها، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم

كأنهم لا يعلمون. شعر:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

ناموا عن المقصود لم يتيقظوا ستكون يقظتهم لخطب أعظم

وإلى الله المشتكى.

الإشارة إلى مدار ما يحدث الناس به في مجالسه

وأعلم أن مدار ذلك على خمسة أقسام:

القسم الأول في ذكر ما فرضته الشريعة، وهي الأصول والفروع الظاهرة والباطنة، وسيأتي ذكرها إن شاء الله.

القسم الثاني في الحث على إتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

القسم الثالث في رد الأوهام التي توهمها الطلبة، إذ وجد في هذه البلاد طائفة مثل الطائفة التي ذكرها الحسن اليوسي، وهم طائفة نظروا في كلام من حض من الأئمة على النظر في علم التوحيد، وحذر من الجهل فيه ومن التقليد، فجعلوا يسألون الناس عما يعتقدون ويكلفونهم الجواب والإبانة عن الصواب. فربما عثروا على قاصر العبارة عما في قلبه، أو ملجلج اللسان لدهش ناله، أو جاهل بشيء مما يقدح في العقيدة، أو يظنونه قادحاً. وإن لم يقدح فيشيعون عليه الجهل والكفر، ثم أشاعوا أن الفساد قد ظهر في عقائد الناس، وجعلوا يقررون العقائد للعوام بعبارات مقررة عندهم، واصطلاحات محررة، وحدود معبرة حسب ما في كتب المتكلمين، فشاع عند الناس أن من لم يشتغل بالتوحيد على النمط الذي يقررون فهو كافر.

وأشاعوا أن عوام المسلمين لا يؤكل ذبائحهم ولا يناكحون، مخافة أن يكونوا لم يعرفوا التوحيد.

ثم لم يقفوا في هذا، بل لما انتهكوا حرمة عوام المسلمين، ابتلاهم الله بانتهاك حرمة خاصتهم أيضاً، فتناولوا فقهاء وقتهم، ووقعوا في أهل العلم والدين، ومن هم على سبيل المهتدين وضللوهم إذ لم يضللوا العامة، وقد اشتعلت فتنتهم، وتراكمت ظلماتهم، حتى كادت تطبق على هذا القطر كله. فطلع هذا الشيخ عليهم، فأطفأ الله به نار فتنتهم، وكشف بنوره ظلماتهم فأبطل مذهبهم، واجتث شجرتهم من فوق الأرض، ولم يبق لها قرار.

وله تآليف في الرد عليهم، تنيف على خمسين تأليفاً، وله معهم وقائع ومشاهد في المناظرة أجاد فيها وكشف عن ساسق الحق والحقيقة، والحمد لله.

ومثل هذا الرد على طائفة من الطلبة، وقفوا على بعض الكتب الفقهية ولم يهتدوا لواضح سبيلها، فجعلوا يفتون بالشواذ والمراجيح. وبعضهم يطالع الكتب الغريبة أربابها، فيفتون بما فيها، وبعضهم يأخذ من كتب المسخوطين.

ومن ذلك الرد على طائفة ظهرت في هذه البلاد بالدعوى والتظاهر بالكشف، مع أنهم لم يخرجوا عن دائرة الشيطان والهوى، ولم يعرفوا بعض ما يجب عليهم من فروض الأعيان، وقفوا على بعض كتب التصوف، وانقبضوا في زي الوقار والتقشف إرصاداً للدنيا وحطامها، وغروا من هو على شاكلتهم من الحمقى.

وبعضهم لا يعرف شيئاً، وإنما يتظاهر بذلك اقتناصاً للدنيا واختلاساً لحطامها كما قال الحسن البوسي في المحاضرات، حيث يقول:

وقع بسجلماسة أنه شاع في البلد ذات ليلة، أنه قد ظهر رجل في المدينة الخالية، فأصبح الناس يهرولون إليه أفواجاً، فخرجنا مع الناس، فقائل يقول: أنه من أولياء الله، وآخر يقول: أنه صاحب الوقت، فلما بلغنا المدينة وجدنا الخلائق اجتمعوا من كل ناحية على ذلك الرجل، حتى أن أمير البلد - وهو محمد بن اشريف - خرج في موكبه. فلما كثر الناس، واشتد الزحام عليه وتعذرت رؤيته، دخل في قبة هناك في المقابر، فأخرج كفه من طاق في القبة، فنجعل الناس يقبلون الكف وينصرفون، وكان كل من قبل الكف اكتفى ورأى أنه قضى الحاجة، وقبلناه وانصرفنا. ثم بعد أيام سمعنا أنه ذهب إلى ناحية القرية، وأنه سقط في بئر هناك ومات، فظهر أنه رجل مصاب، وكان يشتغل باستخدام الجان ونحو ذلك فهلك.

وإنما ذكرت هذا ليعلم ويتنبه لمن هذا الحاله، فكم تظاهر بالخير من لا خير فيه، ومن مجنون أو معتوه، أو موسوس أن ملبس، فيقع فيه الاغترار للجهلة الأغمار:

ما أنت أول سار غره قمر ورائد أعجبته خضرة الدمن

وقد يشايعه من هو على شاكلته من الحمقى ومن الفجار، وشبه الشيء منجذب إليه - إن الطيور على أجناسها تقع - فيغتر الأغبياء إلا من عصم الله. وقد صعدت في أعوام الستين وألف إلى جبل من جبال هسكورة، فإذا برجل نزل عليهم من ناحية الغرب، واشتهر بالفقر، وبني خباء له، وأقبل الناس عليه بالهدايا والضيافات، وكان من أهل البلد فتى يختلف إليه ويبيت عنده واستراب من أمره بعض الطلبة، فتلطف مساء

ليلة حتى ولج الخباء، فكمن في زاوية منه. فلما عسعس الليل قام المرابط إلى الفتى، فاشتغل معه بالفاحشة - نسأل الله العافية - ثم علم أنهم قد علموا به فهرب، وبلغ الخبرإلى إخوة الفتى فتبعوه، ولم أدر ما كان من أمره، ومثله كثير.

ومن أغرب ما وقع من هذا أيضاً ما وقع بسجلماسة، حدث به أخونا في الله الولي الصالح أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن علي بن طاهر الشريف المعروف بابن علي رضي الله عنه: ما لعب بإخواننا - يعني أشراف سجلمانة - إلى رجل جاءهم بالبلد، واتسم بسم الصلاح، ووقع الإقبال عليه، وكان يأتيه الرجل فيعده بأن يبلغه إلى مكة ويحج به طرفة عين، واستمر على ذلك مدة، ثم قام نفر من الأشراف واتفقوا على اختباره، فكمنوا قريباً منه، وتقدم إليه أحدهم - وعنده خمسون مثقالاً فقال له: يا سيدي إن هذه الصلاة تثقل على نفسه، عسى أن ترفعها عني، وأفرغ تلك الدراهم بين يديه، وكأنه هش لذلك، فبادره الآخرون، قبل أن يستوفي كلامه وأوجعوه ضرباً وطروده [وطردوه]، ثم بعد مدة سافر بعضهم إلى ناحية المغرب، فمر بعين ماء هناك، فإذا الرجل عندها يستقي قربة له منها، وإذا هو يهودي من يهود معروفين هناك - نسأل الله العافية.

فالحذر مطلوب، ولا سيما فيما نحن فيه من آخر الزمان الذي استولى فيه الفساد على الصلاح، والهوى على الحق، والبدعة على السنة، إلا من خصه الله، وقليل ما هم.

هذا الزمان الذي كنا نحاذره   في قول كعب، وفي قول ابن مسعود
إن دام هذا ولم يحدث له غير   لم يبك ميت، ولم يفرح بمولود

بل نقول: ليته يدوم، فإنه "لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه"، كما في الحديث الكريم.

نعم لا بد للناس من تنفيس، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا تنفيساً نقضي فيه ما بقي من أعمارنا من خير، ونستعتب مما مضى، إنه الكريم المنان.

هذا - ولا بد مع الحذر - من حسن الظن بعباد الله، ولا سيما من ظهر عليه الخير، والتغفل عن عيوب الناس.

وفي الخبر: "خصلتان ليس فوقهما شيء من الخير: حسن الظن بالله، وحسن الظن بالناس، وخصلتان ليس فوقهما شيء من الشر: سوء الظن بالله، وسيء الظن بالناس".

ومن تتبع عيوب الناس، تتبع الله عيوبه، حتى يفضحه في قعر بيته، فالاعتراض

بلا موجب جناية، واتباع كل ناعق غواية.

وفي كلام مولانا علي كرم الله وجهه: الناس ثلاثة: عالم ربناني، ومتعلم على سبيل النجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق.

فمن ثبتت استقامته، وصح علمه وورعه وجب اتباعه، ومن اتسم بالخير وجب احترامه على قدره والتسليم له في حاله، ومن ألقى جلباب الحياء عن وجهه وجب لومه. وإذا ظهرت البدعة وسكت العالم فعليه لعنة الله، ولا بد من مراعاة السلامة.

وهذا باب واسع لا يكفيه إلا ديوان وحده، وإنما ذكرنا هذه الإشارة استطراداً.

"لله الأمر من قبل ومن بعد".

القسم الرابع - في إخماد البدع الشيطانية، ورد العوائد الردية.

القسم الخامس - في بث العلوم الشرعية، وتحرير المشكلات فيها، ولإفادة بالغرائب النوادر في العلوم.

هذه الأقسام هي حاصل ما يحدث به، وغالب تواليفه نافعة، ومصنفاته الشافية، وفي مجالسه بغية الطالبين، وغبطة الراغبين، من تحرير المشكلات وتهذيبها والتقاط الغرائب والزوائد من مهمات الوقت.

قال الأبسني: كان شيخنا أبو عبد الله يقول في مجالس التدريس، إذا لم يكن في مجلس الدرس التقاط زائدة من الشيخ فلا فائدة من حضور مجلسه.

ومن شعره:

إذا لم يكن في مجلس المرء نكتة ... بتقرير إيضاح لمشكل صورة

فدع سعيه وانظر لنفسك واجتهد ... فلا تتركن والترك أقبح خصلة

ومؤلفاته مشتملة على فوائد وغرائب عجائب، من إيضاح المشكلات وتقريب المعضلات، وتسهيل العويصات، وغير ذلك من منافعها الظاهرة، وفوائدها الباهرة.

وكان أبو عبد الله يقول: وإنما تدخل التأليف في ذلك - يعني الانتفاع بها بعد الممات - إذا اشتملت على فوائد زائدة، وإلا فذلك تخير للكاغد، ونعني بالفائدة الزيادة على الكتب المتقدمة. والله أعلم.

ذكر ما يستفتح به كلامه في مجلسه

كان رضي الله عنه يستفتح كلامه في جلسة الوعظ بخطبة إمامه الشيخ عبد القادر الديلي رضي الله عنه، وهو:

الحمد لله رب العالمين - ويسكت - ثم يقول: الحمد لله عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، ومنتهى علمه وجميع ماشاء وخلق وذرأ وبرأ، عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم الملك القدوس العزيز الحكيم، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدي ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، اللهم أصلح الإمام والأمة، والراعي والرعية، وألف بين قلوبهم بالخيرات، وادفع شر بعضهم عن بعض، اللهم أنت العالم بسرائرنا بأسرها وأنت العالم بحوائجنا فاقضها، وأنت العالم بذنوبنا فاغفرها، وأنت العالم بعيوبنا فاسترها، لا ترنا حيث نهيتنا، ولا تنقدنا من حيث أمرتنا، أعزنا بالطاعة، ولا تذلنا بالمعصية، واشغلنا بك عمن سواك، واقطع عنا كل قاطع يقطعنا عنك، وألهمنا ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ولزوم طاعتك.

ثم يشير إلى تلقاء وجهه بأصبعه، ويقول: لا إله إلا الله، ما شاء الله، لا قوة إلا بالله العلي العظيم، اللهم لا تحينا في غفلة، ولا تأخذنا على غرة "ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا واغفر لنا وأرحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين" [البقرة 286].

وربما استفتح بخطبته المشهورة في رؤوس تأليفه ورسائله، وهي: الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ورضي الله تعالى عن السادة التابعين والعلماء العاملين، والأئمة الأربعة المجتهدين ومقلديهم إلى يوم الدين.

وربما استفتح بسند حديث الرحمة، المسلسل بالأولية، إذا رآى الأضياف، يسرد أسانيده التي أودعها في كتابه - أسانيد الضعيف - وربما ذكر بعد الخطبة حديث: "إنما الأعمال بالنيات"، ويقول: وبسندنا المتصل إلى الإمام الحافظ الحجة أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة بن بردزية البخاري الجعفي قال: حدثنا الحميدي قال: حدثنا سفيان قال: حدثنا يحيى بن سعيد الأنصاره قال: أخبرني محمد بن إبراهيم التيمي، أنه سمع علقمة بن وقاص الليثي يقول: سمعت عمر بن الخطاب على المنبر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن

كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه.

ثم يقول: أصلحوا نياتكم في أموركم كلها: في العبادات وغيرها، فمن كان يصلي فليصل لله، ومن كان يصوم فليصم لله، وهكذا في سائر العبادات.

ذكر ما يحدث الناس به في فن أصول الدين

[ملتقط من "أصول الدين" له]

واعلم أنه يرتب ذكر تلك الأصول، ويفسرها بلغة الحاضرين، وهو أن يقول:

العالم حادث وصانعه الله تعالى واجب الوجود، قديم لا أول له، مخالف للحوادث، ما هو بجرم ولا صفة للجرم، ولا جهة له ولا مكان، بل هو كما كان في الأزل قبل العالم، غني عن المحل والمخصص، واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، قادر بقدرة، مريد بإرادة، عالم بعلم، حي بحياة، سميع بسمع، بصير ببصر، متكلم بكلام، مختار في فعله وتركه، والكمال الإلهي كله واجب له، والنص الذي هو ضد هذا الكمال الإلهي مستحيل عليه.

ورسله كلهم من آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم صادقون أمناء، مبلغون ما أمروا بإبلاغه للخلق والكمال البشر كله واجب لهم، والنقص البشري كله مستحيل عليهم.

ويجوز في حقهم الأكل والشرب والنكاح والبيع والشراء والمرض الذي لا يؤدي إلى نقص.

والملائكة كلهم معصومون، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، نورانيون، ليسوا بذكور ولا بأناث، ولا يأكلون ولا يشربون.

والكتب المنزلة كلها حق وصدق، والموت بالأجل حق، وسؤال منكر ونكير للمقبور وغيره حق، وعذاب القبر حق، وجمع الناس في ذلك حق، والحساب حق، والصراط حق، والكوثر حق، والنار ودوام النار مع أهلها حق، والجنة حق، ودوام الجنة مع أهلها حق، ورؤية المؤمنين له تعالى في الآخرة حق، (وأن الصلاة والزكاة والصيام والحج كل منها واجب، وأن النكاح والبيع مباح)، وكل ما جاءت به الرسل حق وصدق. [ما بين القوسين ناقص في "أصول الدين"، ويتبع هذا النص زيادة في التقليد]

أدلة العقائد

ودليل حدوث العالم في العقل ملازمته للصفات الحادثة من حركة أو سكون

وغيرهما، وملازم الحادث حادث.

ودليل وجوده في العقل: إخراجه المخلوقات من العدم إلى الوجود، لأن المعدوم لا يفعل.

ودليل قدمه في العقل: قدرته على إيجاد المخلوقات، لأن الحادث عاجز لا يخلق.

ودليل بقائه في العقل: ثبوت قدمه، لأن كل ما ثبت قدمه استحال عدمه.

ودليل مخالفته للمخلوقات في العقل: قدرته على إيجادها، لأن من ماثلها لا يقدر أن يوجدها.

ودليل غناه تعالى بالذات في العقل: وجوب اتصافه بالقدرة والإرادة والعلم والحياة، لأن الصفة لا تتصف بها.

ودليل وحدانيته في العقل: إيجاد المخلوقات، لأنه لو كان معه ثان لوقع التمانع بينهما.

ودليل قدرته في العقل: إيجاد المخلوقات، لأن العاجز لا يوجد.

ودليل إرادته في العقل: اختلاف أنواع المخلوقات.

ودليل علمه في العقل: الإتقان

ودليل حياته في العقل: وجوب اتصافه بالقدرة والإرادة والعلم، لأن الميت لا يتصف بها.

ودليل سمعه وبصره وكلامه في العقل: وجوب اتصافه بالكمال، ولأنه لو لم يتصف بها اتصف بأضدادها، وهي نقائص، والنقص عليه تعالى محال.

ودليل جواز فعله أو تركه في العقل: لزوم قلب الحقائق في فرض وجودها أو استحالتهما، لأنه لو وجب عليه شيء من الممكنات عقلاً، أو استحال عقلاً، لانقلب الممكن واجباً أو مستحيلاً في حقه وذلك لا يعقل.

ودليل أمانة الرسل في العقل: أمر الله تعالى بالاقتداء بهم في أقوالهم وأفعالهم.

ودليل تبليغهم ما أمر الله بتبليغه للخلق: أمانتهم.

ودليل جواز الأعراض عليهم في العقل: وقوعها بهم.

[هنا يستمر "أصول الدين"] وإذا عرفت هذا كله فاعلم أن جميع ما جاؤوا به صدق: من عذاب القبر وأهواله والقيامة وأهوالها، من الصراط وجميع المغيبات عنا، وأن الجنة والنار مخلوقتان، وأن الله تعالى يراه المؤمنون ويكلمهم وغير ذلك، مما هو

مفصل في الكتاب والسنة. [حتى هنا أصول الدين]

ودليل ذلك كله في العقل: إمكانه، وقد أثبت الله تعالى ذلك في القرآن العظيم.

واعلم أنه تعالى أثبت الإيمان على الإجمال بقوله تعالى: "آمنوا بالله ورسوله" [الحديد 7] وبقوله: "إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون" [الحجر 15] وبقوله: "قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويقعوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون" [البقرة 126].

وفصل أركانه بقوله: "ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين..." [البقرة 177].

وأثبت أن كل من أسلم لا يكفر، ولا يساء الظن به، ما لم يظهر كفره بالقول وبالفعل، بقوله: "ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً" [النساء 94].

وأثبت حدوث العالم بقوله: "وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده" [الروم 27].

وأثبت كونه قديماً بقوله: "هو الأول".

وأثبت كونه باقياً بقوله: "وتوكل على الحي الذي لا يموت".

وأثبت كونه مخالفاً لخلقه بقوله: "ليس كمثله شيء".

وأثبت كونه غنياً بقوله: "والله الغني".

وأثبت كونه واحداً بقوله: "قل هو الله أحد".

وأثبت كونه قادراً بقوله: "إن الله على كل شيء قدير".

وأثبت كونه مريداً بقوله: "فعال لما يريد".

وأثبت كونه عالماً بقوله: "إن الله بكل شيء عليم".

وأثبت كونه حياً بقوله: "هو الحي".

وأثبت كونه سميعاً بصيراً بقوله: "أسمع وأرى".

وأثبت كونه متكلماً بقوله: "وكلم الله موسى تكليماً".

وأثبت كونه مختاراً بالفعل والترك بقوله: "وربك يخلق ما يشاء ويختار".

وأثبت صدق الرسل بقوله: "وصدق المرسلون".

وأثبت أمانتهم يقوله في حكاية قولهم: "إني لكم رسول أمين".

وأثبت تبليغهم الرسالة بقوله: "الذين يبلغون رسالات الله".

وأثبت كونهم يتزوجون بقوله: "وجعلنا لهم أزواجاً وذرية".

وأثبت كونهم يأكلون الطعام ويبيعون ويشربون بقوله: "يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق".

وأثبت الملائكة بقوله: "الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة".

وأثبت كون الموت بالأجل بقوله: "إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون".

وأثبت تثبيت المؤمنين عند سؤال القبر بقوله: "يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت".

وأثبت عذاب القبر بقوله: "ولو ترى إذا الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون".

وأثبت نعيمه بقوله: "فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم. وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين".

وأثبت البعث بقوله: "وإن الساعة آتية لا ريب فيها وإن الله يبعث من في القبور".

وأثبت الحشر بقوله: "وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً".

وأثبت إيتاء الكتب بقوله: "فأما من أوتي كتابه بيمينه" في حق المؤمنين - "وأما من أوتي كتابه بشماله" في حق الكافرين.

وأثبت وزن الأعمال بقوله: "والوزن يومئذ الحق".

وأثبت الصراط بقوله: "فأهدوهم إلى صراط الجحيم".

وأثبت النار بقوله: "إنا أعتدنا للظالمين ناراً".

وأثبت الكوثر بقوله: "إنا أعطيناك الكوثر".

وأثبت الجنة بقوله: "وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً".

وأثبت الشفاعة بقوله: "عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً" وبقوله: "ولسوف يعطيك ربك فترضى" وبقوله: "ولا يشفعون إلا لمن ارتضى".

وأثبت رؤية المؤمنين له تعالى في الآخرة بقوله: "وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة".

فهذه أصول الدين إلهياتها، ونبواتها، وسمعياتها، قد أثبتها الله تعالى في القرآن العظيم، فكل ما لم نذكر منها فهو مندرج فيها.

ويجب على كل مكلف أن يعتقدها، كما جاءت، وبالله التوفيق.

في ذكرى ما يحدث الناس به في الفقه

[من رسالة القيرواني]

واعلم أنه يرتب تلك الفروع بلغة الحاضرين، وهو أن يقول: الاستبراء واجب، وهو الاستنجاء، وصفته أن يبدأ بغسل يده، فيغسل مخرج البول، ثم يمسح ما في المخرج من الأذى بمدر أو غيره أو بيده، ثم يحكها بالأرض ويغسلها، ثم يستنجئ بالماء، ويواصل صبه، ويسترخي قليلاً، ويجيد عرك ذلك بيده حتى يتنظف من الأذى، وليس عليه غسل ما بطن من المخرجين، ولا يستنجي من ريح.

الوضوء وصفته

وهو أن يغسل يديه، ثم يدخل يده في الإناء إن كان مفتوحاً، فيأخذ الماء فيمضمض فاه ثلاثاً من غرفة واحدة إن شاء، إو ثلاث غرفات، وإن استاك بأصبعه فحسن، ثم يستنشق بأنفه الماء، ثم يستنثره ثلاثاً: يجعل يده على أنفه كامتخاطه، ويجزئ أقل من ثلاث في المضمضمة والاستنشاق وله جمع ذلك في غرفة واحدة، والنهاية أحسن، ثم يأخذ الماء إن شاء بيديه جميعاً، وإن شاء بيده اليمنى، فيجعله في يديه جميعاً، ثم ينقله إلى وجهه فيفرغه غاسلاً له بيده من أعلى جبهته، وحده: منابت شعر رأسه إلى طرف ذقنه، ودور وجهه كله من حد عظمي لحييه إلى صدغيه، ويمر يديه على ما غار من ظهر جفانه وأسارير جبهته، وما تحت مارنه من ظاهر أنفه، يغسل وجهه هكذا ثلاثاً، ينقل الماء إليه، ويعرك لحيته في غسله وجهه بكفيه ليداخلها الماء، وليس عليه تخليلها في الوضوء في قول مالك ويجري عليها يديه إلى آخرها، ثم يغسل يده اليمنى ثلاثاً، أو اثنتين يفيض عليها الماء ويعركهما بيده اليسرى، ويخلل أصابع يديه بعضها ببعض، ثم يغسل يده اليسرى كذلك، ويبلغ فيهما بالغسل إلى المرفقين يدخلهما في غسله - وقد قيل: إليهما حد الغسل، فليس بواجب إدخال فيه، وإدخالهما فيه أحوط، لزوال تكلف التحديد، ثم يأخذ الماء بيده اليمنى، فيفرغه على يده اليسرى، ثم يمسح بهما رأسه، يبدأ من مقدمه من أول منابت شعر رأسه - وقد فرق أطراف أصابع يديه، بعضها ببعض على رأسه، ويجعل إبهاميه في صدغيه، ثم يذهب بيديه ماسحاً إلى آخر شعر رأسه مما يلي قفاه، ثم يردهما إلى حيث بدأ، ويأخذ بإبهاميه خلف أذنيه إلى صدغيه، وكيفما مسح أجزاه، إذا أوعب رأسه، والأول أحسن.

ولو أدخل يديه في الإناء، ثم رفعهما مبلولتين، ومسح بهما رأسه أجزأه، ثم يفرغ الماء على سبابتيه وإبهاميه، وإن شاء غمس ذلك في الماء، ثم يمسح بهما أذنيه ظاهرهما وباطنهما، وتمسح المرأة كما ذكرنا، وتمسح دلاليها، ولا تمسح على الوقاية، وتدخل يديها من تحت عقاص شعرها في رجوع يديها في المسح، ثم يغسل رجليه يصب الماء بيده، ويعركهما بيده اليسرى قليلاً قليلاً، يوعبهما بذلك ثلاثاً، وإن شاء خلل أصابعه في ذلك، فإن ترك فلا حرج، والتخليل أطيب للنفس، وأحب إلى العلماء ويعرك عقبيه وعرقوبيه وما لا يكاد يداخله الماء بسرعة من جساوة أو شقوق.

الغسل

وصفته: أن يبدأ بغسل ما يفرجه أو جسده من الأذى، ثم يتوضأ وضوء الصلاة، فإن شاء غسل رجليه، وإن شاء أخرهما إلى آخر غسله. ثم يغمس يديه في الإناء، ويرفعهما غير قابض بهما شيئاً، فيخلل بهما أصول شعر رأسه، ثم يغرف بهما على رأسه ثلاث غرفات، غاسلاً له بهن، وتفعل ذلك المرأة وتغعث رأسها وليس عليها حل عقاصها، ثم يفيض الماء على شقه الأيمن، ثم شقه الأيسر ويتدلك بيديه بأثر صب الماء، حتى يعم جسده، وما شك أن يكون الماء أخذه من جسده عاوده به، ودلكه بيده حتى يوعب جميع جسده، ويتتبع عمق سرته وتحت حلقه، ويخلل شعر لحيته، وتحت جناحيه، وبين اليتيه، ورفغيه، وتحت ركبتيه وأسافل رجليه، ويخلل أصابع رجليه، ويغسل رجليه آخر ذلك، يجمع ذلك فيهما لتمام غسله وتمام وضوئه، إن كان أخر غسلهما.

ويحذرأن يمس ذكره في تدليك باطن كفيه، فإن فعل ذلك وقد أوعب ظهره أعاد الوضوء وإن مسه في ابتداء غسله، وبعد أن غسل مواضع الوضوء منه فليمر بعد ذلك بيديه على مواضع الوضوء بالماء - على ما ينبغي من ذلك وينويه.

التيمم

وتيمم المريض والمسافر والصحيح الحاضر الذي عدم الماء، أو لم يقدر على مسه، أو خاف حديث مرض أو زيادته.

وصفته: أن يضرب بيديه الأرض، وإن تعلق بهما شيء نفضهما نفضاً خفيفاً، ثم يمسح بهما وجهه كله مسحاً، ثم يضرب بيديه الأرض فيمسح يمناه بيسراه، ويجعل أصابع يده اليسرى على أطراف أصابع يده اليمنى. ثم يمر أصابعه على ظاهر يده وذراعه. وقد حنا عليه أصابعه حتى يبلغ المرفق، ثم يجعل كفه على باطن ذراعه من

طي مرفقه قابضاً عليه، حتى يبلغ الكوع من يده اليمنى، ثم يجره بباطن إبهامه على ظاهر إبهام يده اليمنى، ثم يمسح اليسرى باليمنى هكذا.

وإن مسح اليمنى بكفه اليسرى، واليسرى بكفه اليمنى، كيف شاء وتيسر عليه وقد أوعب المسح لأجزأه. والأول أحسن.

الصلاة

وصفتها أن تنوي أداء الصلاة الحاضرة وتعاونها بلفظة التكبير، وهو أن تقول: الله أكبر، مع حصول النية في القلب، واحذر أن تفعل ما يتعاطاه بعض الجهلة، وهو أن يقول: الله، ثم يسكت للنية، ويقول: أكبر، أو يقول: الله أك، ثم يسكت لذلك، ثم يقول: بر. وترفع يديك حذو منكبيك، أو دون ذلك، ثم تقرأ الفاتحة مع سورة سراً، إن كان نهارية، أو جهراً إن كانت ليلية، فإذا تمت السورة تكبر في انحطاطك إلى الركوع فتمكن يديك من ركبتيك، وتسوي ظهرك، مستوياً، ولا ترفع رأسك، ولا تطأطئ، وتجافي بضبعيك عن جنبيك، وقل إن شئت: "سبحان ربي العظيم وبحمده"، ثم ترفع رأسك وأنت قائل: "سمع الله لمن حمده"، ثم تقول: "اللهم ربنا لك الحمد"، إن كنت وحدك أو خلف إمام، وتستوي قائماً مطمئناً مترسلاً، ثم تهوي ساجداً لا تجلس، ثم تسجد، وتكبر في انحطاطك للسجود، فتمكن جبهتك وأنفك من الأرض، وتباشر بكفيك الأرض باسطاً يديك، مستويتين إلى القبلة، تجعلهما حذو أذنيك أو دون ذلك، وذلك واسع، غير أنك لا تفرش ذراعيك في الأرض، ولا تضم عضديك إلى جنبيك، ولكن تجنح بهما تجنيحاً وسطاً، وتكون رجلاك في سجودك قائمتين وبطون إبهاميهما إلى الأرض، وليس لطول ذلك وقت.

وأقله أن تطمئن مفاصلك متمكناً، ثم ترفع رأسك بالتكبير، فتجلس فتثني رجلك اليسرى في جلوسك بين السجدتين، وتنصب اليمنى، وتجعل بطون أصابعها إلى الأرض، وترفع يديك عن الأرض على ركبتيك. ثم تسجد الثانية كما فعلت أولا، ثم تقوم من الأرض كما أنت، معتمداً على يديك، لا ترجع جالساً لتقوم من جلوسك، ولكن كما ذكرت لك، وتكبر في حال قيامك، ثم تقرأ كما قرأت في الأولى، أو دون ذلك.

قضاء الفوائت

ومن نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها.

السهو

ومن سها عن سنة مؤكدة كسورة، أو جهر، أو تكبيرتين غير الإحرام أو تحميدتين، أو أحد التشهدين، أو جلوس له - سجد قبل السلام، وكذا من نقض وزاد.

وفي الزيادة فقط، كجهر بمحل سر، يسجد بعد السلام.

الزكاة

فمن وجب عليه الزكاة فليخرجها من طيب ماله، مع طيب نفس.

زكاة الفطر

تجب زكاة الفطر على كل كبير وصغير، ذكر أو أنثى، حر أو عبد من المسلمين، وهي صاع على كل نفس بصاع النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أربعة أمداد بمده عليه الصلاة والسلام. وتؤدي من جل عيش أهل ذلك البلد.

الصوم

وصوم شهر رمضان فريضة، يصام لرؤية الهلال، ويفطر لرؤيته، والسنة فيه تعجيل الفطر، وتاخير السحور.

الحج

وحج البيت فريضة على كل من استطاع إليه سبيلاً من المسلمين.

الذكاة

يذبح الرجل والمرأة، والصغير والكبير، والحر والعبد، وهو قطع الحلقوم والأوداج، لا يجزئ أقل من ذلك.

اليمين

ومن حلف بالله ثم حنث، فعليه الكفارة. وهي إطعام عشرة مساكين من المسلمين الأحرار مداً لكل مسكين، بمد النبي صلى الله عليه وسلم. وإن كساهم، كساهم للرجل قميص، وللمرأة قميص وخمار، أو عتق رقبة مؤمنة، فإن لم يجد ذلك ولا إطعاماً، فيصم ثلاثة أيام يتابعهم، فإن فرقهن أجزأه.

النذر

ومن نذر لله نذراً فليوفه.

النكاح

ومن تزوج فليتزوج مثنى مثنى، وثلاث ثلاث، ورباع رباع، فلا يزد على ذلك، فإن لم يستطع فواحدة.

وليعدل بين نسائه، وعليه النفقة والسكنى بقدر وجده، ولا قسم في المبيت لأمته، ولا لأم ولده.

البيع

ومن باع فليتجنب الخلابة والخديعة، وليذكر عيب سلعته.

حفظ الأعضاء الظاهرة من المعاصي

ويجب على كل مسلم أن يحفظ أذنه من استماع كل لغو وباطل، وأن يحفظ عينيه من النظر إلى الحرام والهمز والغمز، وأن يحفظ اللسان من الغيبة وكل ما لا يجوز، والتحدث بالباطل والغش والنميمة، وأن يحفظ يديه من السرقة بهما وغيرها، وأن يحفظ البطن من أكل الحرام، وأن يحفظ العورة من الزنى واللواط، وأن يحفظ رجليه من مشية المختال، ومن المشي إلى المعصية.

ذكر ما يحدث الناس به في فن التصوف

واعلم أنه يقول: اعلموا أن صفات القلب على ضربين: مهلكات ومنجيات، فالمهلكات: هي الكبر والعجب، والحسد، والحقد، والبخل، والرياء، وحب الجاه، وحب المال، والافتخار، والأمل، وإساءة الظن بالمسلمين، فهذه العشر من المهلكات من أصول مذمومات الأخلاق.

ويجب على كل مسلم أن يتخلي عنها، ويتحلي بالمنجيات، وهي: التوبة، والإخلاص، والصبر، الزهد، والتوكل، وتفويض الأمر إلى الله تعالى، والرضا بقضائه، والتقوى، والخوف، والرجاء. وهذه أيضاً من المنجيات من أصول محمودات الأخلاق، فمن أثبتها أثبت فروعها فيه بإذن الله تعالى. [وانظر "أصول الولاية"، فيها خمس عشر صفات]

ذكر ما يذكر به من آيات الترهيب وذكر النار

واعلم أنه يرتب الآيات، وهو أن يقول:

فمن امتثل أوامر الله واجتنب نواهيه، فقد سلك طريق الجنة، ومن لم يمتثل أوامر الله ولم يجتنب نواهيه، فقد هوى في النار، والتحق بأهلها. "لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش".

وقال تعالى: "لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل"، وقال تعالى: "وخاب كل جبار عنيد، من ورائه جهنم ويسقي من ماء صديد، يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان، وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ"، وقال تعالى: "والذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم، وصهر به ما في بطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد، كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق". وقال تعالى: "أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم، إنا جعلناها فتنة للظالمين، إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم، طلعها كأنه رؤوس الشياطين، فإنهم لأكلون منها فمالئون منها البطون، ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم، ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم، إنهم ألفوا آباءهم ضالين، فهم على آثارهم يهرعون". وقال تعالى: "إن شجرة الزقوم طعام الأثيم، كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم".

ويقال للملائكة: "خذوه" - يعني كل واحد من أهل النار - "فاعتلوه إلى سواء الجحيم، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم". "خذوه فغلوه، ثم الجحيم صلوه، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه". وقال تعالى: هذا فليذوقوه حميم وغساق. وآخر من شكله أزواج". وقال تعالى: "إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون. في الحميم، ثم في النار يسجرون". وقال تعالى: "إن لدينا أنكالاً وجحيماً، وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً".

ثم بعد ذلك يذكر محاورة أهل النار، كما في حديث السهقي: "أنه كان لأهل النار خمس دعوات: فيجيبهم الله تعالى في أربعة، فإذا كان في الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً: يقولون ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا، فهل إلى خروج من سبيل؟" فيجيبهم الله تعالى: "ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم به، وإن يشرك به تؤمنوا. فالحكم لله العلي الكبير".

ثم يقولون: "ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً، إنا موقنون". فيجيبهم الله تعالى: "فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم، وذوقوا عذاب الخلد بما

كنتم تعملون".

ثم يقولون: "ربنا أخرنا إلى أجل قريب، نجب دعوتك ونتبع الرسل". فيجيبهم الله تعالى: "أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم فذوقوا فما للظالمين من نصير".

ويقولون: "ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين". فيجيبهم الله تعالى: "اخسؤوا فيها ولا تكلمون". فلا يتكلمون بعدها أبداً.

وكثيراً ما ذكر محاورتهم التي في حديث ابن المبارك، قال: بلغني أن أهل النار استغاثوا بالخزنة، وقال الله تعالى: "وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب". فرد عليهم الخزنة: "أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات؟ قالوا: فادعوا. وما دعاء الكافرين إلا في ضلال". فلما يئسوا من الخزنة نادوا مالكاً - وهو عليهم غضبان، وله مجلس في وسطها، وجسور يمر عليها ملائكة العذاب، فهو يرى أقصاها كما يرى أدناها - فقالوا: "يا مالك ليقض علينا ربك". فسألوا الموت، قال: فسكت عنهم، ثم لا يجيبهم ثمانين سنة، قال: والسنة الثلثمائة وستون يوماً والشهر ثلاثون يوما، واليوم كألف سنة مما تعدون. ثم لحظ إليهم بعد الثمانين، فقال: "إنكم ماكثون".

فلما سمعوا منه ما سمعوا، ويئسوا من قبله، قال بعضهم لبعض: يا هؤلاء، إنه قد نزل من العذاب والبلاء بنا ما قد ترون، فهلم فلنصبر، فلعل الصبر ينفعنا، كما صبر أهل الطاعة على طاعة الله فنفعهم الصبر إذ صبروا، وأجمعوا رأيهم على الصبر، فصبروا فطال صبرهم، ثم جزعوا، فنادوا: "سواء علينا أجزعنا أم صبرنا، ما لنا من محيص". أي من منجى.

قال إبليس عند ذلك: "إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل". فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم، قال، فتودوا: "لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم"، إلى قوله: "فهل إلى خروج من سبيل؟" قال: فرد عليهم "ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير".

فهذه واحدة. فنادوا الثانية: "ربنا أخرجنا نعمل صالحاً إنا موقنون". قال: فرد الله تعالى عليهم: "ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من

الجنة والناس أجمعين، فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون".

فنادوا الثالثة: "ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل". فرد الله تعالى عليهم: "أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لك من زوال، وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال، وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال". هذه هي الثالثة.

ثم نادوا الرابعة: "ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل". قال الله لهم رداً عليهم: "أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير، فذوقوا فما للظالمين من نصير". ثم مكث عنهم ما شاء الله، ثم ناداهم: "أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون؟" قال: فلما سمعوا كلامه قالوا: الآن يرحمنا ربنا، فقالوا عند ذلك: "ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين. ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون". فقال عند ذلك: "اخسؤوا فيها ولا تكلمون".

فانقطع عند ذلك الرجاء والدعاء، وأقبل بعضهم على بعض، ينفخ بعضهم في وجه بعض، وأطبقت عليهم، فذلك قوله تعالى: "هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون".

آيات الترغيب وصفات الجنة

واعلم أنه يرتب الآيات، ويفسرها بلغة الحاضرين، وهو أن يقول: فمن امتثل أوامر الله واجتنب نواهيه، فذلك يدخل الجنة، قال تعالى: "إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١)" [الكهف].

وقال تعالى: "أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (٤٩)" [الصفات].

وقال تعالى: "الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣)" [الزخرف].

وقال تعالى: "إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧)" [الدخان].

وقال تعالى: "مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ" [محمد 15].

وقال تعالى: "إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)" [الطور].

وقال تعالى: "وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ

وَالْإِكْرَامِ (٧٨)" [الرحمن].

وقال تعالى: "وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦) وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨)" [الواقعة].

وقال تعالى: "إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦)" [الإنسان].

وقال تعالى: "وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (١٥) قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١)" [الإنسان].

وقال تعالى: "إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨)" [المتففين].

وقال تعالى: "وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦)" [الغاشية].

ثم يدعو الشيخ، وينصرف.

خاتمة

تذكر فيها أقسام الوعظ والتذكير وشروط الانتساب لإرشاد الناس استطراداً

واعلم أن الوعظ من حيث هو تذكير الناس أمور الآخرة، بذكر أهوالها، وما يكون في تلك العرصات وغير ذلك، من ذكر أمور الجنة على قسمين: محمود ومذموم.

والمحمود: أن يذكرهم بآيات الله، والحكايات الصحيحة، قال تعالى: "فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)" [ق]، "وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥)" [الذاريات].

ومثل الآيات الأحاديث والآثار المتواترة، والأحاديث الصحيحة، كما نبه عليه غير واحد من العلماء.

والمذموم: أن يذكرهم بما ابتدعه جهلة القصاص، من ذكر الأكاذيب والأحاديث الموضوعة.

وأما الوعظ المتعارف في بلادنا السودانية هذه، وهو إرشاد الناس إلى ما ينبغي أن يتعين عليهم تعلمه، وحملهم على المعروف. ففرض على كل فقيه فرغ من فرض. عينه، وتفرغ لفرض الكفاية، ويجب عليه القيام بذلك في كل قرية ومحلة، إن قام بهذا الأمر واحد سقط الحرج عن الباقين في ذلك القطر، وعاد ذلك الأمر عندهم من أفضل القربات، وأجل المقامات نبه على هذا الغزالي في الإحياء، وأحمد بن حجر الهيثمي في الزواجر.

فإن قلت: قد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخويصة نفسك.

هذا الحديث وما ضاهاه يدل على تجنب أمور العامة، وطلب السلامة لخويصة النفس لفساد الزمان، ولا شك ولا خلاف أن هذا الزمان الذي أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم كما نبه عليه الحسن اليوسي في المحاضرات.

قلت: إن ذلك محمول على أنه علم أن إرشاده أو أمره ونهيه بالفعل والقول لا يؤثر فيهم شيئاً، أو علم ضرورة أن ذلك مما يهج الهرج، أو يجلب منكراً أكبر، فقد سقط الوجوب عنه في حقهم، ورجع في حق نفسه. وأما في حقهم فمستحب في

الصورة الأولى إذا لم يتعذر بالقول، وهو الغالب، فليتكلم في ذلك فيذكر حكمه، وإن سمع الناس منه. ورجعوا حصل المراد، فإن أبوا فقد أقام عذره عند الله، وقام بما وجب عليه، قال تعالى: "وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)" [آل عمران]. وقال عليه الصلاة والسلام كما رواه الترمذي وغيره "لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم". وقال عليه الصلاة والسلام: "إذا ظهرت الفتن وسكت العالم فعليه لعنة الله".

ثم أعلم أن للانتصاب والتصدر لما ذكر شروطاً:

منها ممارسة الكتاب والسنة، والتضلع بالعلوم الشرعية، بحيث لا تزلزله المسائل، ولا تدهشه النوازل، بل يجمع بين مفترقها، ويتصرف فيها تصرف الحيتان في لجج البحار. ويتغلب فيها تغلب الطير في جو القفار، ببصيرة نافذة، وهمة عالية.

وأما ما يفعله بعض أهل بلادنا السودانية هذه. وهو أن يتصدر الطالب والعامي للوعظ والصولة إلى نشر العلوم، وإرشاد الناس، فهو المصيبة العظمى، والفتنة الكبرى، فما شئت إن تلقي جاهلاً مسرفاً على نفسه، لم يعرف بعض ما يجب عليه، فضلاً أن يصل إلى ما ذكرنا، إذا نزعته نزعة شيطانية، وهيجته شهوة نفسانية في طلب العلم والدرجة والوجاهة عند الملوك، واقتناص أموال الناس وغير ذلك، وخيلت له نفسه أنه ذو نية حسنة، وهمة صادقة في إرشاد الناس وتعليمهم، وأنه أهلا لذلك، بل إن ذلك متعين عليه ولا بدله من ذلك - ألا رأيته يصول ويقول، وينابذ المنقول والمعقول، حتى إذا استخف قلوب العوام، وأطاعوه، وأحدقوا به من كل جانب، فعند ذلك يهدم الدين ويفسده، ويعتني بما سوّلت له نفسه الخبيثة، وهو ما أشار إليه صلى الله عليه وسلم في حديث رفع العلم واتخاذ الناس رؤساء جهالاً، فيسألون، فيفتون بغير علم، إلى أن قال: فضلوا وأضلوا فكل واحد من هؤلاء أضر في الدين على المسلمين من ألف شيطان، وليس الخبر كالعيان، فافهم.

ومن ذلك الانتصاب للتدريس من غير أهلية، قال الشريف جمال الدين السمهودي: يجب عليك ألا تنتصب للتدريس إذا لم تكن أهلاً له، ولا تذكر في الدرس من علم لا تفرقه، سواء شرطه الواقف أم لم يشرطه، فإن ذلك لعب في الدين، وازدراء بين الناس، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور".

وعن الشبلي: من تصدر قبل أوانه فقد تصدى لهوانه، وعن أبي حنيفة: "من طلب الرئاسة في غير حينها لم يزل في ذل ما بقي، ولبعضهم في تدريس من لا

يصلح للتدريس:

تصدر للتدرس كل مهوس ... جهول ليسمى بالفقيه المدرس

فحق لأهل العلم أن يتمثلوا ... ببيت قديم شاع في كل مجلس

لقد هزلت حتى بدا من هزالها ... كلاها وحتى سامها كل مفلس

والواجب في حق العامة ومن في معناهم الإرشاد والإنكار، فيما استوى في إدراكه العام والخاص، من غير تصدر ولا انتصاب اتفاقاً.

ومنها الإمكان، كما نبه عليه غير واحد من العلماء.

ومنها حسن السير، قال تعالى: "وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ" [آل عمران 159]. وهذه الشروط الثلاثة لا بد منها.

وأما الشروط الباقية فغير لازمة في حق الإرشاد، وإنما هي راجعة في حق المرشد، كحسن النية، وموافقة القول العمل، فهي شروط كمال لا شروط فعل، وغير ذلك.

علو شأنه وابتداء حسد الملوك له

ثم إنه لم يزل هذا الشيخ يقرر فروض الأعيان هكذا للعامة، يبث فنون العلم للخاصة، ويربي المريدين والسالكين، ويرشدهم إلى آداب الحضرة، حتى صدر عوام أوانه عارفين بفروض أعيانهم عاملين، وصار طلبة زمانه علماء مهتدين، وكان أولئك المريدون والسالكون واصلين.

وكان يخرج في كل ليلة جمعة يعظ الناس بما تقدم، ويحضر مجلسه خلق كثير، لا يحصى عددهم إلا الله، ويخرج في سائر الليالي بعد العشاء لبث العلوم والإجادة بالغرائب. وكان يخرج بعد صلاة العصر للتدريس، يفسر القرآن، ويدرس الحديث والفقه والتصوف. وله تآليف يدرسها في بعض الأحيان. وكان يخرج إلى الآفاق والبلدان للإفادة والوعظ، ثم يرجع لمحله "دغل" [Degel].

وفدت عليه وفود الإسلام شرقاً وغرباً، وقدم عليه سائر العلماء في وقته متبركين به، مستنيرين بنوره، فأفاد الكل، فعم النعم في هذه البلدان، وانتشرت بركاته فيها، فاستبان الدين، وعمل بالحق.

ثم إنه لما برز هكذا، وكثر أتباعه من العلماء والعوام، وتراسل الخلق إلى الاقتداء به، وكفاه الله من ناوأه من علماء وقته، وشيده بالطائفة الصادقة من علماء كل قطر، حتى نشر أعلام الدين، وأحيا السنة الغراء، فتمكنت في البلد أي تمكين، نصب أهل الدنيا له العداوة من ملوك هذه البلاد، بعد ما كانوا له مجلين معظمين، وبدعواته

متبركين، مع أنه يداريهم ويلاطفهم، ولا يحول بينهم وبين ما يشتهون، بل لا يعترض عليهم، وإنما غاظهم ما يرون من ظهور الدين وقيام ما درس من معالم اليقين، وذهاب بهاء ما هم فيه من الضلال والباطل والتخمين، مع أن سلطنتهم مؤسسة على قواعد مخالفة للشريعة، وغالب سياساتهم خارجة عن الطريقة. فلما أوضح الشيخ الطريق، واهتدى إليه أهل التوفيق، وسلك السالكون، وبقي أهل الدنيا من علماء السوء والملوك في طغيانهم يعمهون، فخف ميزانهم، وبار سوقهم، وسقطوا عن أعين المهتدين، فجعل أولئك الملوك والعلماء يؤذون الجماعة، وينهبون أموالهم، ويغرون بهم سفهاءَهم، ويقطعون طرقهم، ويعترضون لكل من ينتسب إلى الشيخ، وهو وجماعته لا يعترضون لهم، ولا يجري على خاطرهم أنهم يطيقون ذلك البتة، إذ غالب أولئك الأتباع ضعاف الناس، لا يعرفون الغزو قط.

ولم يزل كل من تولى من ملوك بلادنا مجتهداً في إطفاء ذلك النور، ويكيد بالشيخ وبجماعته ويمكر بهم ويحتال في استئصالهم، وفي ذلك قلت:

ألا بلغن عني وإن كنت نائيا ... ولاة يروح الجور منهم ويرجع
فإن تنتهوا عن غيكم قد رشدتم ... وإلا فحرب بيننا متوقع
وإن نحن أوذينا نفر بديننا ... إلى الله إن الأمر لله راجع

وأيضاً:

أراقبهم في كل وقت علمته ... أراقبهم في وقت كل شروق
وإن فجأونا بالعقيرة في الضحى ... نجالدهم حتى تقوم بسوق
ولكن يتيح الله لهم الصوت ... فيموتون عن قريب

ثم إنه لما رأوا الشيخ لا ينتهي عما هو فيه، ولا يزداد إلا حسناً وابتهاجاً، ولا يزال عوام الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، خافوه على أمرهم، لأن أمرهم مخالف لما هو بصدده، بل مضاد لغالبه. فلا جرم أن سلطنتهم لا يوافقها الشريعة، لأنهم أخذوا من العبادات قدر ما يتنظفون به ويستترون، فيأتون بصورة الصلاة والصيام والزكاة، ويتلفظون بكلمتي الشهادة من غير مراعاة لشروط ما ذكر.

وأما الأحكام فهم متجمدون على ما وجدوا آباءهم الأسلاف الذين لم يقروا بالإسلام، ولم يدعوه لأنفسهم، وغالب أحكامهم مصادم للكتاب والسنة وإجماع الأمة، كما هو معلوم مشهور مع أنهم مغترون بأقوال وأفعال لا تصدر إلا من كافر.

فلا جرم أن ظهور الدين، وقيام الشرع لا يوافقهم، فلذلك أجمعوا كيدهم على نصب القتال بينهم وبين الشيخ وجماعته، ولا يشكون أن الدولة لهم، لما يرون من

ضعف أتباعه عن المقاتلة. فاجتمع مشورتهم على زجر الدعاة إلى الله، ومنعهم من الوعظ، وأمر كل أحد أن يرجع إلى ما وجد عليه آباءه وأجداده، فلم يرعنا إلا إنذار أمير غوبر نافانا، بثلاثة أمور:

1. أنه لم يرض لأحد أن يعظ الناس إلا الشيخ وحده،
2. ولم يرض لأحد بالإسلام إلا وارثه من آبائه، ومن لم يرث الإسلام فليعد إلى ما وجد عليه آباءه وأجداده،
3. وألا يتعمم أحد بعد اليوم، ولا تضرب امرأة بخمارها على جيبها.

وهذا إنذاره في الأسواق، كل ذلك سعى منه في مكيدتنا، فكفانا الله كيده ومكره، فأتاح الله له الموت بعد لك عن قريب.

ولما ولي ابنه - ثينف - شمر عن ساق الجد والاجتهاد على ذلك، حتى غزا قرية عظيمة من قرى الإسلام، على حين غفلة من أهلها، فقتلوا ما شاء الله من فقهائها وقرائها في نهار رمضان، وهم صائمون، ونهبوا أموالهم، وأسروا ذراريهم، وجعلوا يفترشون الكتب والمصاحف، ويحتطبون الألواح فيوقدون بها، ويستهزئون بأهل الإسلام، ويقولون لهم: "إيتونا بما تعدوننا إن كنتم صادقين".

ثم جعلوا يعرضون لقرية الشيخ، حتى أرسل أميرهم إلى الشيخ أن ينحاز بأهله وإخوانه وأبنائه فإنه يريد أن يهجم على القرية. فأبى عليه الشيخ إلا أن يهاجر بجماعته، - ثم إنه أظهر الندامة فيما قال، وطلب من الشيخ المقام وترك الانتقال، مع أن قرائن الأحوال مؤذنة بعدم الأمانة منه، وشواهد الأدلة ناطقة بذلك. فاعتذر إليه الشيخ فهاجر من وسط بلادهم عام شريج في شهر ذي القعدة، لعشر مضت منه. [1213 = 15 إبريل 1799م، ولكن اقرأ "ح" عوض "ج" فتجد 1218 = 21 فبرائر 1804م]

وقام الفقيه النبيه، الزكي الرضا المعروف بأغال التاركي [Agali]، صاحب الشيخ، وندم التوارك إلى معاونة الشيخ في الهجرة، وحمايته مما يتوقع من أعدائه. فأعان الشيخ هو وكل من استمع له وأطاع منهم، حتى وصل الشيخ إلى غد [Gudu]، ثم رجع واجتهد في إخراج المسلمين من وسط الكفار، وأعان كثيراً منهم.

وكنت عنده بعد غزو الكفار قرية المسلمين، من أهل غينا المذكورة آنفاً، ورأيته حزن لذلك جداً، ولحقه الحمية الإسلامية، ولما خرجت من عنده، وهو يريد القدوم على الشيخ وقد سمعت أن أمير غوبر أرسل إلى الشيخ أن ينحاز بأهله وإخوانه، فإنه يريد أن يهجم على القرية، كتبت مع صاحب لي كتاباً، أنقذته مع الفقيه أغال، فمن جملة ما فيه:

هـلا غرضـت إلـى شـيوخي حـسبة ... منـي رسـولا فـزت بالآمـال
أن يهجـروا الـبلد القبـيح فعالـه ... ويـبادروا الـتحويل فـي اسـتعجال
إنـا سـنوقع فـيه غـارات لهـا ... نقـع يثيـر قـتامها كـالآل
فالحـزم شـأني والمقـام وركـنه ... والبـيت والعـرفات ذي الأجـبال
كـلا ولـست مـن الـدناءة حـاملا ... إن الـدناءة حمـل ذي الأثقـال
وإذا أذيـت بـبلدة ودعـتها ... أنـا لا أقـيم بغيـر دار حـلال
إن الإقامـة فـي مقـام مذلـة ... عجـز ولـوم غيـر فعـل كمـال
ولقـد هممـت وقـد ينجـز وعـده ... فـيفوز بالفـوز الوفـى أمثالـي
إن أوقـع الحـرب العـوان لغوبـر ... أو يـرد مـنها أعجـل الآجـال

فكتب إلى الوالد أن أقدم إلينا بما قدرت به من العون على الهجرة، فإنا إن شاء الله على جناح الهجرة، فسرت إلى كب. فبثت الوثائق، وناديت بالجموع، فسرت حتى دخلت دغل، ووجدتهم في الهجرة، فهاجرنا من وسع بلادهم سالمين، وأعاننا الفقيه أغال، والشيخ محمود غردم، وعلي جيد قائد الجيوش، وغيرهم، فنزلنا بغد، فجعل المنتسبون إلى الشيخ من أهل الأطراف، يهاجرون إليه إرسالاً للشهرين، ثم حجروا الناس عن الهجرة في المحرم بأمر الأمير، فجعلوا يقطعون على المهاجرين الطرق، ويأخذون أموالهم، وأعانهم على ذلك موالوهم التوارك.

فلم نزل هكذا، يلتحق بنا طائفة مع عيالهم وأموالهم، وطائفة بعيالهم دون أموالهم، وطائفة بأنفسهم دون عيال وأموال.

ثم إن الأمير لما رأى أن الناس لا ينتهون عن الهجرة، كتب إلى الشيخ يأمره بالرجوع إلى موضعه دغل، يلتمس ذلك منه. فكتب إليه الشيخ أنه لا يرجع هناك حتى يتوب الأمير، ويخلص دينه كما ينبغي ويتفق هو والمسلمون على دين واحد، ويبسط القسط والعدل، ويرد جميع ما سلبوا من الجماعة وما أسروا منهم، ليأمن الناس منه، فحينئذ يرجع إلى محلته دغل. فسار بهذه الوثيقة بريده، ورد مع وزير الأمير القادم علينا بكتابه. فلما وصل إليه وقرأ عليه الكتاب وقد استحضر جميع وزرائه وعلمائه، جعل يسب الشيخ والجماعة، ويوغل عليهم. واستفتى من حضر من علمائه في أمر الشيخ وجماعته، فقالوا له: أنت على الحق، والشيخ وجماعته على الضلال. فكان كما قالت علماء اليهود، حين سألهم المشركون: من أهدى سبيلاً، يا معشر أهل الكتاب، نحن أم محمد؟ فقال ابن صوريا: أعرضوا علينا دينكم،. فقالوا: نحن ننحر الكوماء، ونسقي

الحجيج، ونفك العناة، ونحفظ بيت ربنا، ونعبد ما يعبد آباؤنا، ونصل الأرحام. فقال: وما دين محمد؟ قالوا: صنبور، قطع أرحامنا، واتبعه السراق الحجيج، بنو غفار. قال: لأنتم خير منه وأهدى سبيلاً. فأنزل الله: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (٥٤)" [النساء]. - أورد هذه الرواية هكذا أحمد بن حنبل وابن جرير والن المنذر وغيرهم.

حدثني الأخ المشارك التقي العابد المتفنن، أبو الحسن بن أحمد، أنه حضر الواقعة. فكان ما حدثني أن الذي تولى القراءة - أعني قراءة كتاب الشيخ على الأمير - زور وحرف كما شاء، وذكر أموراً لا تطابق الحال، كل ذلك إغراء للأمير على غزو الشيخ وجاعته. ووافقه على ما زخرف واخترع وزور من حضر من علمائهم السوء.

والأخ التقي الصالح المعروف، بهداه حاضر - وكان قبل ممن ينصح الأمير ويوازره - وهو ساكت لا يقول شيئاً. ثم إن قال الأمير لبريد الشيخ: انفذ ولا أجد لك دليلاً، وإذا بلغك الله إلى الشيخ، فأخبره بأني على التهئ والجهاز في المسير، فليتأهب للقائي.

فخرج البريد هائماً، لا يدري أين يتوجه، ولم يجد من يشيعه، مع أن السودانيين يقتلون كل من رأوه فلاتياً. ولما خرج من عنده سلك الشمال حتى وصل إلى الطبل اغنبل، فجعل له دليلاً إلى بلدة آزر. فلما وصلها تلطف حتى وصل إلى الشيخ، فأخبره بجميع ما كان، وسائر وزرائه حاضرون.

ثم إنه لما علمنا بالضرورة انقطاع حبال الأمانة بيننا وبينهم، وقد أعانهم على عداوتنا جميع من هو على شاكلتهم من السودانيين والتوارك، ولم يبق لنا ملاذ أو ملجأ في ملوك هذه البلاد لتظافرهم على عداوتنا، وتعاقدهم على ذلك، روماً منهم لاستئصالنا، اجتمعنا وشاورنا في أمرنا، وقلنا إنه لا يتأتي للناس أن يكونوا هملاً من غير وال. فبايعنا الشيخ على السمع والطاعة في المنشط والمكره، فبايع هو على إتباع الكتاب والسنة ليلة الخميس.

وأول ما بايعه أخوه الوزير عبد الله، ثم بايعته، ثم بايعه الوزير عمر الكموني، ثم بايعه الكافة. ثم إنه لما أصبحنا عقدت الرايات، ونفذنا إلى حفر الخندق، ونحن نتمثل بقوله:

والله لـــو لا الله مـــا اهتديــنا ولا تــــصدقنا ولا صــــلينا

وأنــــزلن ســـكينة عليـــنا وثــبت الأقـــدام أن لاقيـــنا

إن الأولـــى لقـــد بغـــوا عليــنا وإن أرادوا فتــــنة أبيــــنا

حتى حفرنا قدر استطاعتنا. ثم إنه كان قبل مسير البريد إلى القاضاو، مع وزير الأمير، حين أكثر السودانيون قطع الطرق للمهاجرين، هاج الجماعة يوم الخميس على السودانيين الذين في تلك الجهة، فمالوا عليهم بالقتل والأسر والنهب. فلما أصبح يوم الجمعة قام الشيخ فخطب الناس فأمر بإطلاق الأسارى ورد المنهوب، فأطلقوا ورد المنهوب إليهم.

ثم إنه كان قبل مسير البريد، كان يغزونا من عمال الأمير، يستلبون النفر ويأسرون والشيخ يعرض عن ذلك. فغزا خيل مراداوس، وغزاخيل - متنكر بزاغ ورمز - فقتلوا ونهبوا الأموال. والبريج إذ ذاك عند أميرهم. ثم إنه لما رجع البريد وأخبرنا بما جرى هناك أمرنا أميرنا وحفرنا الخندق، أنفذنا جيشنا إلى أطراف بلدهم، إلى موضع يقال له غنغ - بكسر الغين والنون - فلقي الجيش كيداً ونصراً، فقتلوا، وأسروا ما شاء الله. ثم إنه أنشأنا جيشاً آخر في اثنين من شهر الربيع الأول، وفخرجت بالرايات إلى المعسكر. فلم يفجأني إلا صائح: السلاح السلاح، واصباحاه. فغرزت الرايات حتى يأخذها أمير الجيش قائد الجيوش، فخرجت صامداً إلى الصارخ، حتى وصلنا إليه، فوجدنا الخيل التي أغارت قد ولت راجعة، فاقتفينا آثارها من الضحى، فلحقنا بهم بعد صلاة العصر بثرم - بفتح المثلثة وإسكان الراء - ونحن خمسة. فلم نلق كيداً، فرجعنا من ورائهم بعد صلاة المغرب. وقد عطشنا وعطش خيلنا. فذبحنا من البقر التي يخلفون، فمصصنا الفرش - الكرش وذهبنا راجعين، ولقينا بالجيش ناهضاً، فسار الجيش حتى غزاهم في صباح تلك الليلة.

وحدثني من حضر الواقعة أن الكفار لما سمعوا بحسهم تأهبوا واستلأموا. ولقوهم فهزمهم المسلمون حتى وصلوا إلى ديارهم، فأسروا ونهبوا. ثم مالوا إلى الماء فنزلوا فسقوا واستقوا حتى رووا. ثم راحوا واستشهد في هذا الغزو مؤذن الشيخ أحمد السوداني، والرجل الصالح بركند. والحاصل أنه لم يزل يجري بيننا وبينهم وقائع منذ قدم البريد وقبل قدومه، ولم يزالوا يرسلون إلينا بالسرايا مثل كرفيا - بضم الكاف وإسكان اراء - ونرسل إليهم بالسرايا، حتى كانت هذه الوقعة المتقدم ذكرها.

ذكر وقعة كن [Konni]
- بضم الكاف وتشديد النون -

وهي قرية جيل من السودانيين. ويقال أن أباهم غوبري، وأمهم من مماليك التورد. قبيلتنا هذه. ويقال أن قبيلتنا هذه ساكنوهم أول دخولهم في هذه البلاد مدة طويلة، ثم تسلط عليهم أمير كن، محمد دمك - بفتح الدال وإسكان الميم - فأغار عليهم غدراً، وذبح من القراء والعلماء نحو أربعين نفساً في مساجدهم، وأسر الذراري، ونهب الأموال، فجلا من ذلك الرجل الصالح محمد بن سعد، مع من التحق به، ونزل بمرت - بفتح الميم والراء وتشديد التاء - في بلد غلم - بفتح الغين وإسكان اللام - ووال أمير غوبر، ونزل بنوعال، بقلب - بضم القاف واللام - والتحق بنو تحند - بفتح التاء وإسكان الحاء وضم النون - مع من معهم بأرض زنفر، واستوطنوا تواغام - بفتح التاء والواو والغين.

ومنهم الأستاذ الأديب، العلامة التحرير، الفهامة المعروف بشيخ، أخذ عن قاضي العسكر يكنو، الفقيه المحدث موسى غير، وهو عن الإمام اعلامة محمد البعاوي، وهو من عند الله لثقة. ثم رحل لأكدز، وأخذ عن العلامتين: الشيخ والدرفان، وسعيد باش. وأخذ أيضاً عن الشريفة آمنة، وعنه أخذ أخوه الأديب المتفنن المحدث المعروف ببل سميح، والد الأديب النبيه الجهنبذ، العلامة المحدث إبراهيم بل. ثم إنه تخلف آخرون في غربي آذر، وخلو أرض كن.

ولنرجع إلى ما نحن بصدده من ذكر وقعة كن. وكان من حديثها أنه لما رجع غزو متنكر - بفتح الميم والتاء وإسكان النون وفتح الكاف - اجتمعنا للتخميس وقسم الأربعة الأخماس على الغنمين عسر علينا وتعذر، لانشار الأمور وعدم ضبطها، وكثرة الخلائق، حتى لا يمكن كتبهم في ديوان، مع انتشارهم حين رجوعهم، أخذ كل فريق إلى ناحيتهم وجمعنا ما قدرنا عليه، ووضعناه عند الخازن، عمر الكمون، وفكرنا في قسمه، فلم يتفق لنا. ثم خمسناه، ورددنا إلى الغنمين الذين قدرنا عليهم ما بقي، فصالحوا فيما بينهم، ولما انفصلنا من هذا الأمر أنشأنا جيشاً، فخرج يوم الاثنين في الربيع الأول، وقد سمعنا بخبر مسير أمير غوقبر إلينا، وأنه بالمعسكر، فشاورنا في أمر الغزو فاتفق رأينا بمسيره وتعجيله، فخرج الجيش وعليه من أصحاب الشيخ، محمد غير - بفتح الغين - فسار به عشية الأربعاء وليلة الخميس، فصبح الحصن صبح الخميس، فقاتلوه أشد قتال. واستشهد من المسلمين خلق كثير. ثم فتح الله عليهم الحصن في العصر من اليوم، فقتلوا رجاله وسبوا نساءهم وذراريهم، واحترق أكثر عيالهم في النار التي رموها، وقتلوا أمير البلد. ثم إنهم لما فرغوا من الخصن أتاهم تاركي، فقال لهم:

أدركوا عيالكم، فقد خلفكم فيهم أمير غوبر، فإنه خرج من معسكره يوم الثلاثاء، وبات ببور - بضم الباء - ثم رحل وحل بغنب - بفتح الغين وإسكان النون - فنهض بالجيش محمد غير بغنب - فتح الغين - ورجعوا يومهم. ثم إنه قمنا غاية جهدنا ذلك اليوم وطلبنا القسم كما ينبغي، فتعسر لأجل ما ذكرنا قبل، مع ضيق الوقت.

ذكر وقعة كتو
- بضم الكاف والتاء -

وهي أعظم وقعة بيننا وبينهم، وهي بمثابة يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان.

وكان من حديثها أنه لما خرج بريدنا من عند أمير غوبر، أخذ الأمير في التأهب والجهاز وأرسل إلى أطراف بلاده، وكانت إخوانه أمير كاشنة، وأمير كنو، وأمير زكزك، وأمير دور وأمير أزبن، فأجابوه كلهم بما التمس منهم من مساعدته ومعاونته على كل من انتسب إلى الشيخ. وأذنوا له في الغزو، وأخذ كل واحد منهم يتأهب لغزو من انتسب إلى الشيخ في بلده.

ثم إنه لما أجابوه وأذنوا له في المسير، وعاهدوه على المعاونة، خرج يوم الأحد إلى معسكر له من داخل الحصن، وبات ليلتين أو تسع ليال، ثم خرج وسلك اليمين، وبات بنور، ثم رحل ونزل بغنب، كما تقدم، ثم رحل وحل بمكد - بفتح الميم والكال - ثم رحل ونزل بشار، ثم رحل ونزل بجان سرك - بفتح الجيم وإسكان النون وفتح السين وإسكان الراء - وبات ليلتين ينتظر بعض جنوده. وأقبل بجنود لا يحصى عددهم إلا الله، وانضاف إليه أكثر التوارك مشمرين. ثم إنه لما بلغنا مسيرهم إلينا بالتواتر، خرجنا صباح السبت، فعسكرنا قريباً من ديارنا، وعلينا الوزير الأكبر، أخو الشيخ عبد الله، فنزل بنا قريباً. وظللنا يومنا ولم نسمع عن خبرهم شيئاً، فرحنا إلى ديارنا فبتنا فيها. ثم إنه غدونا صباح الأحد إلى حيث ظللنا أمس، فإذا خيل من إخواننا الفلانيين خرجوا من عسكر الجيش مهاجرين، وقد خلفوا عيالهم في ديار الكفار، وهم أبو بكر قائد الخيل الآن، ودمي - بضم الدال وكسر الميم - ويدمام - بكسر الياء والدال - وابن يمي - بكسر الياء الأولى وتشديد الياء الثانية.

وأخبرونا أن الجيش لما نهض من جان سرك، نزل ميداج - بفتح الميم وإسكان الياء - وأنه نهض من ميداج إلى أغ - بفتح الهمزة والغين مع التشديد - أو إلى أيامي، يلدتان. فرجعنا إلى الديار فوجدنا الشيخ خارجاً. فدعا لنا وبشرنا بالنصر على الكفار، وشجع قلوبنا. ثم إنه أمرنا بالخروج ليلاً لما سمعنا بنزولهم أيامي. وكانت أيامي قريباً منا مسيرة نصف يوم. فخرجنا ليلاً وبتنا قريباً من ديارنا، وانتظرناهم يومنا متأهبين، بين جبلين بموضع يقال له ملب - بفتح الميم وكسر اللآم. فظللنا كلما طار أعصار طرنا

إلى مراكزنا، وكلما رأينا دخاناً حتى أمسينا، فرجعنا إلى رحالنا. وفي هذا اليوم التحق بنا جموع المسلمين الذين في آدر مع الفقيه، آغال، ومحمد بن الأستاذ جبريل، وجود بن محمد وغيرهم، وفرحنا بقدومهم.

ثم إنه لما نزلوا أيامي ليلتهم، باتوا متعبئين. ثم لما أصبحوا نهضوا إلينا، فتلقاهم جموع الأعراب بجنبهم، فاقتتلوا ساعة. ثم هاجت سحابة فأمطرت فرجعوا إلى معسكرهم واستكنوا، ولما انكشف السحاب نهضوا إلى جموع الأعراب فاقتتلوا هم وإياهم أشد قتال. فهزموا الأعراب. ولكن لم يكن يومئذ بأس، وهؤلاء الأعراب رغبوا عن الدخول فينا وأخذوا جانبهم، فساق الله الجيش حتى نزل بساحتهم، وهم في عيال، فجرى ما جرى. ثم إنهم لما أصبحوا، وقد انحاز الأعراب وهربوا بعيالهم وبقرهم وسلكوا الغرب، ولم يتوجهوا إلى الشمال حيث كنا نهض الجيش. واتبع آثارهم فجعلوا يقتلون ويأسرون يومهم، حتى نزلوا بعد الغروب بكتوا وهوما، ليلة الخميس.

ثم إنه لما خرجنا يوم الأربعاء، وانتظرناهم إلى الزوال، فلم نسمع بحسهم، فخرجت في خيل فضربت حتى وصلت معسكرهم، فوجدت بعض الأعراب الذين اختفوا في الغيال، فخبروني بأن الجيش نهض وتبع آثار الأعراب، وهو الآن بقرب عيالكم. فكررت راجعاً، فلقيت بالوزير وقد نهض بالجيش، ونزل ببراغم - بفتح الباء والراء مع الغيا المعجمة - فخبرته بما جرى فكر راجعاً ومعه ما لا يحصيه إلا الله، فرجعنا إلى ديارنا فعسكرنا يقرب الديار، وبات أكثر الجند في ديارهم. ثم إنه لما أصبح انتظر قليلاً، حتى تلاحق الناس، فنهض بالجيش إلى كنو، ونحن بديارنا نشاهد الدخان، فسرنا إليهم صباح الخميس، وعبأنا في السير حتى وصلنا غردم - بضم الغين وإسكان الراء وفتح الدال. ثم ضربنا حتى نزلنا بقريب من مائهم الذي هو كتو، والجيش عليه فاستقينا من حياض، ثم نهضنا إليهم، وقد سمعوا بحسنا، ورأى خيلهم جمعنا، وسبق الفقيه أغال في خيل، فذاد جموعهم عن الحوض، واستلب منهم خيلاً. ثم إنه لما قربنا منهم أخذنا في التعبئة، وجعلنا نسير زحفاً زحفاً، وهم متعبئون واقفون على مراكزهم، قد استلاموا في جلائهم نحو مائة، وصفوا الدرق والمجن وتهيئوا، فبارزناهم فتراءينا، واكتحلت الأحداق بالأحداق، فكبرنا ثلاثاً، ثم نهضنا إليهم، وقد أنطقوا طبولهم، ونهضوا إلينا فالتقينا ساعة فحملت ميمنتهم على ميسرتنا حتى خالطوهم وألجأوهم إلى القلب. وحملت ميسرتهم على ميمنتنا كذلك، فثبت القلب منا، فرموا ورمينا، وكان قتالنا إذ ذاك بالرمي، فالخيل لا تعدو عشرين ومعهم من الجياد ما لا يحصيه إلا الله. فلما ثبت قلبنا تلاحق به الميمنة والميسر، وقامت الحرب على ساق، وتخالط الصفان، وهزم الله

الكفار، فولوا هاربين، وتفرقوا أبابيد وحل المسلمون على أكتافهم يقتلون وينهبون فقتل منهم ما لا يحصيه إلا الله تعالى، فهرب أميرهم، وقتل صديقه، بيد ومتاج وغيرهم.

ثم إنه لما منح الله المسلمين أكتافهم تبعوهم ليلهم ويومهم، ورجع أميرنا الوزير على الماء فنزل فاستقينا، ثم رجعنا إلى معسكرهم فنزلنا حتى صلينا العصر، ثم رحلنا إلى ديارنا فبتنا، "فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين". وفي ذلك يقول الوزير عبد الله:

بدأت ببسم الله والشكر يتبع … على قمع كفار علينا تجمعوا
ليستأصلوا الإسلام والمسلمين من … بلادهم والله في الفضل أوسع
تـوارك مع غوبر ونيف سفيههم … محزبهم والله يرأى ويسمع
فلما أتوا غنغنغ ما فيه أفسدوا … بحرق وتخريب وأشياء تقطع
وجاسوا غياضا في نجوى فقتلوا … جموعا من اعراب والمال يجمع
فزادهم كفرا وزادوا تكبرا … عليهم جلال والقوانس ترفع
ولبس شفوف يزدهيهم وخيلهم … لها خيلاء والزوابل شرع
فقلت وفألي مثل أمر محقق … لدي سينفي نيف بالذل يرجع
وكنا انتظرناهم موضع بيننا … ثلاث لليل ثم أخرى نربع
ولما رأينا جبنهم عن جموعنا … رحلنا إليهم واللواء مرفع
فقيل لنا: ساروا إلى كت غربكم … لكي يرجعوكم نحو شرق فتجمع
فقلت: النجا لا يسبقونا لجمعنا … بعشر ربيع بدرها يتطلع
وصلنا لأهلينا فجاوزت منزلي … بغير دخول فيه والناس هجع
وليس معي إلا قليل أطاعني … على السير بعد الأين والجوع يلذع
ولما رأينا الفجر ضاء عموده … نزلنا فصلينا إلى أن تجمعوا
فسرنا إلى غردم وقد تم جمعنا … قبيل زوال اليوم والجمع يوزع
فذدنا جموع الكفر عن حوضه وقد … رأوا جمعهم مثلي جماعتنا فعوا
فظنوا محل الغيل ينصر جمعنا … وأن الربا من ناصريهم ستنفع
ففروا إليها ثم صفوا وأنطقوا … طبولهم والجمع يدنو ويتبع
إلى أن تراءينا وزاد اقترابنا … رموا فرميناهم فولوا وأقشعوا
فلم يك إلا أن رأيت جهامهم … قد انكشفت عن شمس الإسلام تلمع

بنصر الذي نصر النبي على العدا ... ببدر بجمع بلملائك يجامع
وكم من كمي جدلته أسهامنا ... وأسيافنا وأراه طير وأضبع
وكم ذي جلال صرعته أكفنا ... فجزّت فؤوس رأسه يتقطع
طردناهم وسط النهار فلم يكن ... لهم غير غيل في دجى الليل مفزع
فجمع ظهري مع عشائيه ينفهم ... بريم على الإيماء والشمس تطلع
لكل الجهات قد تفرق جمعه ... بداداً ليوم الجمع لا يتجمع
فخلوا لنا أموالهم ونساءهم ... على رغمهم والله يعطي ويمنع
ونحن على الإسلام جمع تناصروا ... ولسنا بشيء غيره نترفع
قبائل إسلام فتورب قبيلنا ... فلاتينا حوسينا الكل مجمع
وفينا سواهم من قبائل جمعت ... على نصر دين الله كان التجمع
بنو تور أخوال الفلاتين إخوة ... لعرب فمن روح ابن عيص تفرعوا
وعقبة جد للفلاتين من عرب ... ومن تورب كانت أمهم هي يجمع
فسل عنهم من حاربوا بمتنكر ... وكن وريم نص الأخبار يسمع
فيا أمة الإسلام جدوا وجاهدوا ... ولا تنهوا فالصبر للنصر مرجع
فقتلاكم في جنة الخلد دائما ... وراجعكم بالعز والمال يرجع
فليس لما تبنى يد الله هادم ... وليس لأمر الله إنجاء مدفع

وله أيضاً قصيدة أخرى:

ألا من مبلغ عني لدادي ... وزيد وكل ثاو في بلادي
ولاة الكفر خوف فوات مال ... وطمع سلامة من ذي فساد
بأن لم يبق بين المسلمين ... وبينكم علامات الوداد
خذلتم جمع إسلام جهارا ... رضا منكم موالاة الأعادي
نسيتم ما قرأتم في الكتاب ... لذا أخطأتم سبل الرشاد
ألما يكفكم أن يثفقوكم ... ولا يألونكم في ذا المراد
كذلك لا تجد لَا تَتَّخِذُوا لا.. ... إلى بُرَآَءُ مِنْكُمْ يا عباد [الممتحنة 1 - 3]
لواسعة وَلَوْ كَانُوا وبدأ [المائدة 81] ... بَرَاءَةٌ فافهموا صوب السداد [التوبة 1]
وليس لنا كلام في خليط ... لهم ود كبد وذاك بادي

ولا تسأل عن أصحاب الجحيم … كصاحب ناقة أهل الفساد

تولى كبره يغضاً لدين … فكان قدارهم وهم كعاد

وإنا في بلاد ليس فيها … سوى حكم الإله على العباد

أمير المؤمنين لنا أمير … وصرنا كلنا أهل الجهاد

نجاهد في سبيل الله دوما … فنقتل أهل الكفر والعناد

سلوا عنا مصادمنا بغنغ … متنكركن أيام الجلاد

سلوا شيطان غوبر وهو ينف … وهل لم ينف من بين البوادي

وقد جمع الجموع لقطع دين … ونادى في المدائن كل نادي

وفوقهم السوابغ من دروع … وتحتهم العتاق من الجياد

فساروا يقتلون ويأسرون … ذوي الإسلام روماً للفساد

فلاقيناهم يوم الخميس … يغردم قبل ظهر في النجاد

وقد ركزوا لحوماً حول نار … وحازوا في الخيام علا العتاد

ثاباً من شفوف في صوان … وأنواع البساط مع الوساد

ولا تسأل عن الكعك الخليط … بسمن مع عسول في المزاد

نياما في النعيم فلم يرعهم … سوى همس الرجالة والجياد

وقاموا واستعدوا كل شيء … لحرب ثم صفوا في عداد

فسار لواؤنا يدنو إليهم … وعاد لهم كغول في البجاد

فراميناهم ورموا نفوطا … فصارت نارها مثل الرماد

كأن سهامهم لا نصل فيها … وأسيفهم بأيد للجماد

كأن رماحهم بيدي عمي … فولوا هاربين بغير زاد

تشتت جمعهم وهم عطاشى … حياري مثل غوغاء الجراد

قتلناهم وحزنا كل مال … لهم تركوه منثوراً بواد

قتلنا قابغي وكذا تمدغي … كذا ورو القياه في المبادي

كذا أمثالهم تترى وكل … شياطين وأشقاهم مغاد

ففر بلا التفات ينف يعدو … أمام خيوله تعدو بداد

فأنفه من الموت المتاح … تعلقه على عرف الجواد

سواد الليل صار له حصونا ... فبات ولم يذق طعم الرقاد
فوارسه عوابس في مروط ... عضضن على خيول كالقراد
غياض بجو ظنوها قصورا ... فما بالوا بشوك أو قتاد
فلم يرجع لهم ثوب صحيح ... وكل قد تمزق في الوهاد
فليسوا راجعين إلى قتال ... لنا فيها إلى يوم المعاد
ألا أبلغ أنا الحسن بن أحمد ... مغلغة تبين بالمراد
بأنا سوف نجمع للجهاد ... جموعا من كوار إلى وطاد
تحل ببركها غار وتخشى ... جناحاها رديف إلى غلاد
تفرح كل ذي قلب سليم ... وتحزن كل كفار الفؤاد
فإن الله ينصر ناصريه ... بوعد جاء من رب العباد
فوعد الله تم بنصر دين ... وليس لنا سوى شكر الأيادي

تمام الخبر عن واقعة كتو

ولما هزم الله المشركين بكتو، وهرب أميرهم ينف، وخلى من الأموال ما لا يحصيه إلا الله وغنمها المسلمون، فنزل بموضع يقال له تَنبَغَرك - بفتح التاء وإسكان النون وفتح الباء والغين المعجمة وإسكان الراء - ولقي من تخلف عن الوقعة من بعض أقياله أمير غم - بضم الغين المعجمة - وهو الذي سبب له غزو عبد السلام وجماعته بغنبنا - بكسر الغين وفتح الباء - حتى هاج هذا الأمر وكانوا يجلون هذا القيل، فأمره على من التحق به من الفل، فعسكر هذا القيل بشمولا - بكسر الشين وضم الميم مع التشديد، والتحق به من جموعهم خلق كثير، وقد انحاز قومهم من أهل ذمتهم من السودانيين، ومواليهم من الفلاتيين والتوارك، وهربوا إلى أقاصي البلد، وعسكروا هناك، أطمس قومهم بذلك، ورجعوا إلى ما حولهم.

ثم إنه لما رحعنا نحن إلى ديارنا، وقد رد الله عنا عدونا، أقمنا أياماً ننظر في شأننا وندبر في أمورنا، ونجبر كسرنا، ونحتال في طلب القوت إذا أنهم ضيقوا علينا وضن عندنا القوت، لظافرة السودانيين كلهم على عداوتنا، فلا نمتار في أي بلدة من بلادهم، ونحن مهاجرون، ليس عندنا إلا عيالنا ومواشينا، ولا نقتات إلا بما استلبنا من عدونا.

ذكر الطلب بعد الهزيمة والفل

ثم إنه اطمأنا أياماً. خرجت بالراية في طلب القوم، فسلكت الشمال، حتى نزلنا قريباً من مهاجرنا، ثم إنه أتى إلينا خيل أغاروا على أرض العدو، فخبرونا أن العدو

كلهم رجعوا بعيالهم ومراكبهم، يحملون المعيشة، واغتروا بالعسكر الذي بجنبهم، وكان بيننا وبين العسكر حين خبرونا نصف يوم.

ولما أصبحنا عبأنا الجيش، وأرسلنا بالسرايا والغارات على أرض العدو، فقتلوا وغنموا ما شاء الله، واحتملوا القوت، فسرت بهم حتى وصلت محلتنا التي هاجرنا منها، وعبرت حتى نزلت قريباً من عسكرهم. ثم إنهم لما سمعوا بنا أنفذوا خيلاً، فلقيت بالسرايا فرجعت مذعورة إلى أمير غم، وأخبروه بكثرة الجيش وجنده فانتقل بهم من شمولا هرباً، حتى نزل كوتا - بفتح الكاف والواو مع التشديد.

ولما سمعت بهروبهم رجعت بالقوم، وقد غنموا فلقينا بغندو - بضم الغين المعجمة وإسكان النون وضم الدال - طائفة من العدو، وخرجوا من كنب، وهم من فل كتوا، فتوجهوا لبدهم، فجالدناهم واستأصلناهم، ثم سرنا حتى وصلنا ديارنا، بحمد الله وحسن عونه.

ذكر غزوة مني

وكان من حديثها أنه لما رجعنا من الطلب، اجتمعنا وشاورنا في أمرنا فاتفق رأينا في إنفاذ الجيش إلى عسكرهم إن أمكن لنا، فخرج الجيش حتى نزل بمتنكر، بجنب مائها، فإذا خيل من العدو غزت على أطراف بلادنا، فقتلوا وأسروا قريباً من معسكرنا، ثم إنه نهض الجيش على آثارهم واقتفى آثارهم، حتى صبح عسكرهم كوتاو - بفتح الكاف وتشديد الواو. ولما أبصروا بالجيش انحاز أكثرهم وسلك طريق مكد، وتبعهم الجيش يوم ذلك، فنزل جيشنا بمكد، ونزلوا بكرار. وقد جرى بينه وبينهم محاورات، ثم نهض الجيش صباح ذلك اليوم إليهم وسلك الطريق حتى وصل إلى كرار، وبها جمعهم، فحسهم عنها، فنزل الجيش على مائها يستسقي، فتبعهم الخيل وبعض الرجال، حتى وصلوا بهم إلى جنب الجبال. فثبت لهم العدو، فاقتتلوا ساعة، فانحاز المنافق ثنب - بفتح المثلثة وإسكان النون، كابش - بفتح الكاف والباء - في خيل له.

ولما رأى العدو اكشافه ثابت خيل المشركين، فمالوا على بقية الخيل والرجالة، فكانت الهزيمة فاستشهد جماعة من القراء والصلحاء، حتى انتهى الفل إلى الجيش، فنهض قائد الجيش، وثبت لهم وسار الجيش إليهم، فهزمهم حتى وصل بهم إلى المعركة، فحسهم عنها، فتفرقوا عباديد، ثم إنه عبأ بالجيش إلى مني، ونزل بها ساعة من نهار، وقد أغار الجيش على نواحيها، وأصاب غنائم وحمل قوتاً، فراح وبات قريباً منها، وكان المشركون لما سمعوا بالجيش أرسلوا إلى أميرهم يطلبون منه المدد، فأمدهم بكل من تخلف منهم، وكانوا في هذه الأيام ينتظرون المدد.

ولما راح الجيش من مني، لحق بهم مدد، فجاؤوا بجمع لا يحصيه إلا الله،

وحملوا من عددهم معهم كثيراً.

ولما أصبحوا نهضوا إلى جيشنا وتبعوا آثاره، وكان الجيش لما انتقل افترق ثلاث فرق فأخذ المنافق طريقه مع جمع، وسلك اليمين، وتوجه لبلاده، وأخذ أهل آدر من جماعة الفقيه أغال طريقهم فسلكوا الشمال، وأخذ قائد الجيش الطريق المتوسط، ونحى بلادنا "غد". فلما وصلوا إلى هذا المحل سلكوا طريق قائد الجيش، فلحقوا بهم بعد الضحى، وسار الجيش وهم يقاتلونه يميناً وشمالاً وخلفاً إلى الظهيرة، ولم يكن يأس فامتنع الجيش عنهم كلما صالوا عليه ثبت لهم رجال، وثبتوا حتى أيسوا منه، فرجعوا خائبين خاسرين حتى وصلوا غد، في عافية.

تمام الخبر في مقامنا بغد

ثم إنه لما سار الجيش إلى "مني" في مدة قليلة، ورد علينا بريد "غد" و"لغ" وأمير "دنك" وأمير "برم" وأمير "مفر" كلهم بالتهنيئة، وكان أمير "برم" و"مفر" و"دنك" قبل هذا الجهاد بغاة على أمير "غوبر"، ولما وصل إليهم الخبر بما صنع الله للمسلمين فرحوا بذلك جداً، ورغبوا فينا لعدواتهم له، لا رغبة في الإسلام، فداريناهم على ذلك لشدة احتياجنا إلى الميرة فأطلقوا إلينا عيرهم وتجارهم، وانتفعنا بذلك.

ولما رجع إلينا الجيش وقد اشتد بنا الجوع، وبلغ كل مبلغ حتى لا تكاد تتجمع الميرة من بعيد، أرسلني الوالد إلى الأخ محمد مويج أمير "كب" وهو ببلدة "ياب"، أنه يريد اللحوق بجماعته بها ليتسعوا في الميرة، فأجاب إلى ذلك، وشرع في جهاز الشيخ، ووجدته أنه قد نصر على ما يليه من بلد العدو، ووسع كثيراً، ثم ذهبت راجعاً فلقيت بالشيخ والجماعة، فسرنا حتى وصلنا بجنب البحر، فتأخر هناك أياماً.

وكان العدو لما رجعوا من وراء الجيش، ساروا إلى حصن لهم يقال له "دان غيد" - بفتح الدال وإسكان النون وكسر الغين - وأنشأوا جيشاً فغدوا إلى أطراف جماعتنا في "ركن" - بكسر الراء والكاف وفتح النون فأصابوا بقراً وسبوا، فخرج إليهم الطلب فأنقذ بعض ما أصابوا وغنموا من خيل العدو نحواً من سبعين، وذهبوا بالبعض، ثم إنهم لما وصلوا إلى حصنهم، سمع أمير "غم" قائدهم أن أمير "دنك" خلفه في عياله فقسم الجيش قسمين، وخلف بعضه في الحصن، وسار بالبعض حتى هجم على أمير "دنك" وجنوجه فشتتهم، وسكن بالجيش هناك.

ثم إنه لما تأخر الشيخ أنشأ جيشاً إلى حصنهم وبقية عسكرهم، فخرج المنافق "ثنب كابشي" فسار بالجيش حتى وصلنا الحصن بعد صلاة العصر، فخرج عسكرهم وكمن في ناحية. فسار الجيش وأخذ يقاتل الحصن، ونحن نظن أنهم في الحصن. ثم خرجوا على الجماعة، فكانت الهزيمة حتى انتهت إلى قائد الجيش، وتلاحق الناس

وغنمنا منهم، فغربت الشمس فنهضت بالجيش ونزلت به قريباً من الحصن فبتنا.

ولما أصبحنا عبأنا للقتال، فغرونا بالصلح والأمانة، وطلبوا منا الانصراف حتى يتأتي لهم الإرسال إلينا، فانصرفت بالجيش راجعاً، فلم ينقض ذلك اليوم حتى غدروا بنا وقتلوا من تأخر عن الجيش قليلاً، فذهبنا إلى محلنا في عافية.

ثم رحل الشيخ وجماعته حتى نزل "بمغبش" - بفتح الميم والغين وإسكان الباء - بقية فصل الربيع، وبها كاتب ملوك بلادنا السودانية. فمن جملة ما في وثائقه أن بين لهم ما هو فيه من نصر الحق على الباطل، وإحياء لسنة وإخماد البدعة، وطلب منهم أن يخلصوا لله دينهم وأن يتبرأوا من كل ما يخالف الشرع ويصادمه، والتمس منهم أن يساعدوه على جهاد عدوه، وألا يغتروا بكلام عدوه فيه، فيساعدوا العدو عليه فيعمهم الله بالهلاك بسبب ذلك، لأن الله أقسم: لينصرن المؤمنين وليخزين الكافرين، فسار بالوثائق عبد الرحمن بن العلامة، زمنوا والمصطفى. فلما أوصلوا وثيقة أمير "كاشنة" ونظر إليها أخذته العزة فمزقها، فمزق الله ملكه.

ولما أوصلوا وثيقة أمير "كنوا" كاد أن يقبل، ثم أبى وسلك ما سلك إخوانه.

ولما أوصلوا وثيقة أمير "زكزك" قبل وتاب، وأبى عليه قومه، فقاتلهم فقام على ذلك مدة عمره. ولما مات بغوا على المسلمين، وارتدوا، وكان من أمرهم ما كان.

وفي هذا العام أنشأ منها سرايا إلى أرض العدو، منها سرية محمود إلى "كيمي" - بفتح الكاف وإسكان الياء وكسر الميم.

تمام الخبر من انتقالنا من غد

ثم إنه لما انتقلنا من "غد" وخلفنا الذين بشمالنا من جماعة الشيخ الأستاذ أغال، صاحب الشيخ، والفقيه محمدان، والوالي الكاشف محمد تكر -بضم التاء والكاف- و"جود"، واجتمعوا، وحلوا ثنية بين "آدر وغوبر" وكان العدو علموا بمقامهم هناك، فنصب لهم أمير غوبر عسطراً آخر بجنبهم وجعل يمدهم بالأمداد، وكلما وصل اليهم مدد نهضوا إلى الجماعة فيدرهم الله عن الجماعة، فينهزمون، ولم يزالوا هكذا نحو سبع غزوات، حتى أفنى الجماعة أكثرهم، فحينئذ نهض الجماعة إلى غزوهم، فغزوا أرض "غدو" - - بفتح الغين المعجمة وضم الدال - و"غلم" - بفتح الغين وإسكان اللام - و"زنغلم" - بكسر الزاي وإسكان النون وكسر الغين المعجمة - و"تاكس" - بضم الكاف، فاستصعب عليهم "تاكس" وهزمهم بعض الهزيمة ولم يكن بأس، وغزوا حتى وصلوا "كرفي" - بضخ الكاف وإسكان الراء - نصف يوم من "الغاضا"، ورجعوا لمحلهم، وكان إذ ذاك لا يسمعون بأخبارنا، ولا نسمع بخبرهم لإحاطة الأعداء بهم وكثرة المياه.

رجوع الشيخ إلى أرض العدو من أهل غوبر

ثم إنه لما حان وقت الخريف اجتمعنا وشاورنا في أمرنا، فاتفق رأينا في الرجوع إلى أطراف بلاد العدو بعيالنا، ليمكن لنا غزوهم، فانتقل الشيخ من "مغبش" ونزل إلى "سيف" - بكسر السين وإسكان الياء وفتح افاء، ثم خرج فنزل "بركن". فخرج سرية عليها عبد السلام، فاحتملوا قوتاً، ثم خرجت سرية أخرى فاحتملت أيضاً قوتاً، ثم انتقل ونزل "بسكت" - بضم السين والكاف مع التشديد، وتأخر هناك أياماً.

ذكر غزوة "دن غد" افثانية

ثم إنه كان أمير "غم" أرسل إلى الشيخ وطلب أن يصلح بينه وبين أمير "غوبر". فأجاباه الشيخ إلى ذلك، فأرسل أمير "غم" إلى أمير "غوبر" أن وجه إلى الشيخ من وزرائك بريداً، واصطلح مع الشيخ، وأعطه ما يريد منك، فإنا لا نقدر على أمره، فوجه وزيره الأكبر "غلاديم"، وكان بينه وبين الشيخ موافقة وهو رجل عاقل يحب الشيخ، فضيعوه [فضيفوه؟ فضيقوه؟].

ولما ضيقنا عليهم راجعوه ووازروه، ولذلك وجهوه إلينا. فلما نزل "بسكتوا" عازماً على إنشاء الجيش إلى "دار غد" ورد علينا يوم ذلك، وأخبر الشيخ أن أمير "غوبر" ندم وعزم أن يقبل على الشيخ كل خلة طلبها منه. فاجتمعنا وشاورنا في أمرهم، فاتفق رأينا أن يجتهد الأمير ويسير إلى الشيخ بنفسه، ويأخذ من الشيخ كل ما يريد، ولم نتكتف بقدوم الوزير علماً منا بأحوالهم، ومكايدهم. فقبل منا ذلك الوزير، فضرب له الشيخ مدة يسيرة، وأمنهم ما خلا "دان غد"، فقبلوا ذلك منا. فخرج الجيش إلى "دان غد" يوم الخميس، فصحبهم بكرة الجمعة، فلم يكن بأس أن فتح الله علينا الحصن، فقتلنا وأسرنا ونهبنا، ولم تكن غنيمة مثلها، ثم كففنا أيدينا عن أرضهم، على ما شرطناهم وعاقدناهم. فذهب ذلك الوزير حتى وافى الأمير، وأخبره بجميع الأمور، فكاد أن يقبل منه، فجمع أهل مشورته، فاتفق رأيهم على عدم مسيره وإنفاذ البرداء، فأنفذوا الشيخ الشريف "باب"، وكان محصوراً عندهم مع قومه، فوافى. وقد نزل الشيخ "بتبر" - بفتح التاء وإسكان الباء. فأخبره بإباء الأمير عن المسير، وطلبه المصلحة هكذا، فلم نقبل علماً منا بمكائدهم وخيانتهم "وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ" [الأنفال 58]. فنبذنا إليهم عهدهم. فرجع الشيخ الشريف "باب" واحتال. فخرج منهم إلى الجماعة، ثم إن الشيخ أنشأ غزوة إلى "كيمي" لرجوع الأعداء إليها، وأنشأ آخر إلى "غنغرم" - بضم الغينين المعجمتين مع إسكان النون. فخرجت بهم إلى "غنغرم"، وقد اجتمع فيها العدو، وتحصنوا في عيالها، ففتحها الله علينا، وغنمنا أكثر من غنيمة "دان غد". ورجعنا وقد رجع غزو كيمي بالنصر والغنيمة، وعليهم محمود غردم.

ولما رجعنا ورجع غزو محمود انتقل من "ثبر [تبر]" إلى "كرار". فنزل بها. وانضم إلينا جماعة الفقيه أغال، ومن معه، وجماعة الكشناويين.

وكان من حديثهم أن سلطان كاشنة، لما سمع بما وقع لأمير غوبر بعد ما عاقدوه وأذنوا له، أمر عماله بغزو جميع من انتسب إلى الشيخ واستئصالهم. فجعلوا يقتلون ويأسرون، فنفر أولئك الجماعة يأوي بعضهم إلى بعض حتى صاروا جماعة، فجعلوا يدافعون عن أنفسهم، ووصل بعضهم إلى "مستماطي"، فتحصنوا بها. ووصل بعضهم إلى "مدب" - بفتح الميم والدال. ثم توجهوا إلينا حتى دخلوا بلد "زنفر". ثم خرجوا ووصلوا إلينا "بكرار". وقد قطعوا الفيافي مسيرة شهر، ولقوا من العدو الزحوف الكثيرة، ثم إنه اجتمعنا وشاورنا في أمرنا، فاتفق رأينا على إنقاذ العزو إلى ضواحي "حصن القاضاو" ليتمكن الوصول إليه.

ذكر غزوة بور

وكان من حديثها أنه لما اجتمعنا وشاورنا في غزو ضواحي القاضاو، واتفق رأينا على إنفاذه، خرجنا، وعلينا علي جيد، قائد الجيوش، حتى نزلنا "مني". ثم سرنا وأغرنا غربي الحصن، ووجدنا الكفار متحصنين في "غيال"، ففتحها الله علينا. ولم نرجع حتى وصلنا "بور" - بضم الباء ون - نصف يوم من "القاضاو". وكان إخواننا من أقيال الفلاتيين الذين مع الكفار بجنب الحصن من ناحية اليمين، قد أرسلوا إلينا بإسلامهم، وقد التحق بهم من المسلمين المهاجرين والفرارين الذين تسلط عليهم العدو، وممن له نسبة إلينا، أو كان فلاتياً. فأغاروا في ذلك اليوم حتى وصلوا إلى "جرو" قريباً من الحصن جداً. فرجعنا ورجعوا.

ذكر غزوة القضاو الأولى

وكان من حديثه أنه لما رجعنا من غزو ضواحيها الغربية، وغزو إخواننا ضواحيها اليمانية - وقد التحق بنا الأخ الصالح "نمود" بجماعته، وأغار على شرقي الحصن وأبلى - اجتمعنا وشاورنا في أمرنا. فاتفق رأينا على قتاله والمسير إليه، مع أنه اجتمع فيه من جنودهم وقومهم ما لا يحصيهم إلا الله، ونحن قد التحق بنا كل من تخلف عنا من إخواننا، ممن كان محصوراً فيها، فخرجنا مستهل شعبان، فنزلنا "بمني"، ثم رحلنا وعلينا الوزير الأكبر عبد الله، حتى نزلنا "بور"، وأخرنا حتى تلاحق الناس. ثم سرنا حتى نزلنا "غاذك"، فأعجل قائد الجيش حتى لحق بالمقدمة، فوجدناهم قد أعدوا لكل ناحية طائفة، وخرج عسكرهم فحمل على ميسرتنا فثبتت، فاقتتلوا ساعة وأهل الحصن يرمون بالسهام من ناحية والعسكر يقاتل من ناحية، فأعاننا الله عليهم فهزمنا عسكرهم، وقد أصيب العم في رجله فمنحنا الله أكتافهم، فاستحر القتل فيهم، ثم إن ميمنة الجيش

بقيت على مقاتلة الحصن يوم ذلك واتبعنا نحن آثارهم، ثم رحنا إلى المعسكر الذي أتينا منه، وأرسلنا إلى الميمنة فلحقونا فخرج خيل المشتركين لما رحلنا، فكمنت في خيل من ناحية، حتى أدركوا مؤخرة الجيش، فحملنا عليهم فردهم الله، وكانت خيلاً عظيمة فوافينا الجيش وقد نزل بالمعسكر. ولما أصبحنا بعثوا إلينا خيلاً عظيمة وظننا أن أميرهم خرج إلينا. فثار الجيش إليهم، فتلقتهم خيلنا فانهزموا وتبعت آثارهم، فسار جيشنا حتى نزل "زغرب" - بضم الزاء والغين - بجنب الحصن من ناحية اليمين، وبتنا ثلاث ليال، ثم سرنا لقتال الحصن، فنزلنا وعبأنا للقتال يوم الأحد، وقاتلناهم أشد قتال، حتى كاد أن يفتح لنا، واستشهد من جماعتنا خلق كثير، وقتلنا منهم كذلك حتى الغروب، فرجعنا إلى المعسكر.

ثم إن التوارك كانوا ينافقون يأتون ويقولون: آمنا وإذا خلوا إلى الكفار السودانيين قالوا: إنا معكم، ولما حضروا الوقعة الأولى رجعوا إلى رحالهم واجتمعوا وخلفوا في عيالنا يغيرون. فكتب إلينا الأخ الصالح منهم، أحمد بن حيدرة، وأنذرنا منهم وأخبرنا بما هم فيهم، فنهض بالجيش الوزير إلى عيالنا، وتخلفت في الإخوان الذين بجنب اليمين لئلا ينتشروا، فبقينا نجاهد العدو، يغيرون علينا، ونغير عليهم حتى سار الجيش والتحق بالعيال.

وفي ذلك المقام أنشأت سرية إلى "أكي" - بفتح الهمزة وضم الكاف وتشديد اياء، فأصابت غنائم كثيرة ورجعت سالمة. ثم انتقل الشيخ بالجماعة، ونحى ناحية القاضاو، حتى نزل "ببور". ولما سمعنا بمسيره خرجت حتى لقيته. ثم إنه كتب أولئك التوارك كتاباً غرونا به، مع أنهم يجتمعون. فلما تم جمعهم ساروا إليها، وقد نزلنا "ثنثو" - بضم المثلثتين مع إسكان النون - وانتشر الناس في طلب القوت، وبقي الأشراف في الديار. فلم يفجأنا إلا العدو وبجنبنا، فخرج الأشراف ومن معهم فعسكرنا بجنب رجالنا. ثم إنه أتى إلينا الأخ الصالح أخو الشيخ سعد، ومعه الراية، وقال: انهضوا إلى عسكرهم فتقدمت إليه، وقلت: دعهم حتى يدنوا منا، فأبى وسار بالناس، وأنا إذ ذاك مريض، فقعدت عنهم لذلك حتى وصلوا إلى العدو، وقد تهيَّؤوا وتعبوا فاقتتلوا ساعة، فكانت الهزيمة واستشهد من خيار الجماعة طائفة كثيرة، وانتهى الفرارون إلى حيث عسكرنا دون رحالنا. فخرج الأخ الوزير إلينا، وخرج بأثره الشيخ، وهو يدعو الله فهزم الله عدونا، ووضعنا فيهم السلاح، وتفرقوا عباديد، ثم رجعنا لدفن الشهداء، وقد استشهد منا نحو ألفين واستشهد من خيار القوم رجال، ومنهم:

- قاضي القضاة، محمد ثنب
- وصاحب اللواء، سعد
- ومحمود غردم
- ومحمد حم
- والعالم النبيه المحدث، زيد
- وأبو بكر بنغ - بكسر الباء وإسكان النون
- والمكاشف الصديق والصديق السوداني
- وغيرهم.

واستشهد فيه من القراء نحو من مائتين، فدفنا ما استطعنا، ثم رجعنا وبتنا في رجالنا، ثم غدونا ودفنا ورابطنا، وهذه الواقعة كانت على الميلين من القاضاو.

ثم رجعنا وبتنا، ثم غدونا ورابطنا، ثم رجعنا فبتنا، ثم رحنا إلى "برايزاك"، فنزلنا بها بقية شهر رمضان.

وفي هذا المحل غزا إلى أطراف جماعتنا العدو وأصابوا بقراً. ثم عادوا مرة أخرى، فهزمهم الله وأخزاهم، وفيه خرجنا إلى عسكرهم، وهم "بجرو" و"توارك" و"غوبر"، فعبأنا في المسير، وكانت تعبئتنا إذا صدق الحرق، تقدم الطلائع، نحواً من مائتي خيل، ونقفيهم بالمقدمة من الرجالة الأقوياء، ونؤمر عليهم. ثم تجمع الرجالة إلى القلب، ويجتمع في القلب الأشراف، أهل الرايات مع راياتهم. ثم نجعل الخيل في الميمنة والميسرة، ونؤمر عليها، ثم نجعل على المؤخرة طائفة، وهكذا سرنا متعبئين، حتى وصلنا "جرو". فوافيناهم قد هربوا حين سمعوا بمسيرنا واتبعنا آثارهم، فقتلنا منهم ما نلنا، ثم رجعنا لمحلها. وفي هذا المقام خرج بالراية محمد بن المصطفى، أمير "أدو" وغزا "فوم" وغنم وسلم.

ذكر المقام بجرو
- بفتح الجيم وضم الراء -

ثم إنه لما صلينا الفطر "ببرايزاك"، وقد رزئنا بموت الفقيه أغال، وموت علي أخي الشيخ الأكبر، مع كثرة الخوف وشدة الجوع والأمراض، ونقص الأموال والأنفس، اجتمعنا وشاورنا في أمرنا. فاتفق رأينا في الانتقال إلى "جرو"، وكانت "برايزاك" على نصف يوم. وأردنا أن نقرب إلى "القاضاو" للحصار، فنزلنا "بجرو" على ميلين من القاضاو، من جانب الشرق مستهل شوال، فأقمنا بها مع عيالنا مرابطين محاصرين لهم، والغوابر والتواراك كانوا علينا يداً واحدة، مجتمعين في الحصن، وبعض عسكرهم بشرقينا. فلم تزل خيل أهل الحصن يغيرون علينا من جهة الغرب،

وخيل عسكرهم الشرقي يغيرون علينا من جهة الشرق، وأهل الشمال منهم يغيرون علينا من جهة الشمال، ونحن كذلك يخرج إليهم السرايا والغارات، لكن أكثر ما يكون منا الحراسة والرباط.

وفي هذا المقام خرج إلينا العدو عازمين على الغزو، وقد أخرجنا الراية عازمين على عزوهم، وعلينا مجيد بن داود فلقيناهم قريباً من رحالنا، فحملت عليهم خيل المسلمين، فانهزموا وركبت على أكتافهم، فقتل منهم ما شاء الله. ثم رحنا فنزلنا قريباً من حصنهم من جهة الشرق. ثم رحل الجيش صباح الليل، وغزا "كرف" فأصاب الغنائم واحتمل القوت، ورجع سالماً غانماً.

وفي هذا المقام خرج أبو حامد بالناس للغزو وطلب القوت إلى الجانب الشرقي، ولما وافوا "دباو" - بضم الدال - وجدوا بها عسكر العدو، فاقتتلوا ساعة، فكانت الهزيمة.

ولما وصل إلينا الفل خرجنا ولقينا بهم وقد رجع عنهم عدوهم وأصاب منهم ما أصاب.

ذكر غزوة دباو

ولما رجع هذا الجيش منهزماً، اجتمعنا وشاورنا في أمرنا، فاتفق رأينا على إنقاذ الجيش إلى عسكر العدو، فخرج بالراية علي قائد الجيش إلى "دباو" فباتوا "بفوم". ثم لما أصبحوا عبأوا للقتال حتى أتوا "دباو" ووجدوا العدو خارجين ينتظرونهم، فحملوا على العدو فهزمهم الله، وركب المسلمون على أكتافهم وقتلوهم قتلاً ذريعاً، وأسروا ونهبوا، واحتملوا القوت، ورجعوا منصورين.

ثم إنه لما رجع الجيش خرج بالراية محمد بن الحاج بالناس لطلب القوت. فسمع العدو بمسيرهم، فخرجوا من الحصن ليلاً، وباتوا قريباً منا. فغدوا إلى محمل رباطنا، فوافو [فوافى] الأستاذ الوزير عبد الله، قد سبق الناس إليه في طائفة يسيرة، فحملت خيلهم، وكانت قريباً من الألف في رجالنا، وقد خرجت ولقيت بهم، وأنا مع رجلين قريباً من عند الله. فانحازوا عنا وحملوا في الرجال. ثم حمل قلبهم على الطائفة التي مع الوزير عبد الله، وقد التحقت بهم فحملوا علينا. ونزل الأستاذ عن فرسه - فأحاطوا بنا، ونحن لا نعدو عشرة - فالتحمنا قريباً وثبتنا لهم، حتى رد الله خيلهم خائبة منهزمة من الرحال. فحمل عليهم رجال منا فردوهم عن الرحال، وتلاحق الناس، وهم ونحن واقفون، وقلبهم واقف علينا، فأصابوا منا رجلين، وقتلنا منهم طاغية.

ولما نظروا إلى خيلهم منهزمة انحازوا عنا، فرجعوا هاربين. وتلاحق الناس، وخرجنا إلى طلبهم حتى وصلنا قريباً من حصنهم. ثم لم نزل هكذا نحن وإياهم، حتى

انتقلنا إلى شاطئ البحر الغربي قريباً من القاضاو، بموضع يقال له "جرو"، فبتنا ليالي. وقد أشتد بنا الجوع، فاتفق رأينا على إنشاء الغزو إلى الحصن. فخرج الناس وعليهم علي قائد الجيش، حتى وصل الحصن، ولم يكن بينهم كبير قتال، فرجع بالناس.

ذكر انتقالنا إلى نزفر

ولما أصبحنا بعد رجوع هذا الغزو، اجتمعنا وشاورنا في أمرنا، واتفق رأينا على الانتقال إلى زفر لطلب القوت، ولم يكن معنا أهل بلد من السودانيين غيرهم لمكان عداوتهم لأهل غوبر، فانتقلنا إلى زنفر بعيالنا، وخلينا بلد غوبر، وسرنا يومنا فنزلنا "برون" - بضم الراء. ثم لما أصبحنا سرنا ونزلنا "بشنكاز" - بكسر الشين وإسكان النون، فبتنا ليلتين. فلحق بنا طلب العدو، فكررنا عليهم، وهزمناهم أشد الهزيمة، وقتلنا منهم رجالاً. ثم غدونا وسرنا إلى "موداش" ونزلنا بها. ثم سرنا حتى نزلنا "دمني" - بضم الدال. وعندما سمعنا بخبر مسير الأخ أحمد بن حيدرة إلينا مع بعض جماعتنا الذين لاذوا به - وهو مع بعض التوارك يلتمس لهم الأمان - فأمرنا الشيخ بالنتظاره. فانتظرته في خيل حتى الظهر. ثم إنه خرج الطلب من أعدائنا، وفجأونا، ونحن منتظرون الأخ أحمد بن حيدرة. فلما رأيناهم حملت الخيل عليهم، فهزمهم الله. فقتلنا منهم قتلاً ذريعاً. ثم سرنا حتى لحقنا بالناس وقد نزلوا "بهرغرم" - بفتح الهاء وإسكان الراء. ثم رحنا ونزلنا "بمرادم" - بفتح الميم وضم الدال، وبتنا ليلتين. ثم رحلنا "بدفومفر" - بضم الدال والفاء وفتح الميم والفاء، فبتنا ليالي، وبها وجدنا العمارة والذي قطعناه في هذه المدة المذكورة فيافي وقفار.

وفي هذا الموضع تلقانا وفود الزنافرة من السودانيين، وقد اشتجروا في أمر الولاية، فأصلح بينهم الشيخ. ثم رحلنا فنزلنا "رمرا" - بكسر الراء وضم الميم، وأقمنا بقية شهر ذي القعدة، وكنا خرجنا من غوبر مستهله.

وفي هذا المقام خرج على قائد الجيش بالراية، فلم يتفق له جمع فرجع، وفي هذا المقام خرجت بالراية إلى أطراف بلاد غوبر، فلم يتفق لي جمع - كما كان لعلي - فمضيت في طائفة يسيرة، فسرنا بهم خمس ليال، حتى وصلنا قريباً من العدو، فسرت بهم ليلة كاملة، فصبحنا "رازفي" - بفتح اراء وضم الزاي، وبها من قومهم كثيرون. فأغار الجيش عليهم، وغنم غنيمة عظيمة. فخرجنا راجعين، فلحق بنا الطلب، فكرت إليهم خيل المسلمين وردوهم. فسرنا يومنا حتى نزلنا بمحل الأمن، فخمسنا. ثم رحلنا إلى رجالنا، فوجدنا الأستاذ الوزير انتقل بعياله إلى "سابنغر" - بفتح السين وضم الباء وفتح الغين، وبقي الشيخ ينتظر رجوعنا. فرجعت مستهل ذي الحجة. فلما صلينا العيد رحلنا إليهم، فوجدنا علياً قائد الجيش خرج بالراية إلى ناحية "كاشنة" وغزا "دل" -

بفتح الدال، وأصاب غنيمة ورجع. ثم إنه نزلنا "سابنغر" - مع أن أهل البلد من السودانيين كلهم تعاقدوا على عداوتنا، واتفقوا على طلب استئصالنا، ولا ينفذ عيالنا في طلب القوت إلى بلدة من بلادهم إلا وأكلوهم ما خلا "زنفر" لما ذكرنا - رجع محمد بن الحاج بجماعته إلى "غرباي" والتحق بمن تخلف عنهم من الجماعة. فجعل أمير "كاشنة" ينفذ إليهم جيوشاً، وهم يهزمونهم مرات.

وسيأتي نسق أخبر ما وقع في "كاشنة" و"كنو" في محله إن شاء الله، ولنرجع إلى ما نحن بصدده من ذكر غزوات جماعة الشيخ خاصة.

ذكر غزوة كب

وكان من حديثها أنه لما نزلنا "سابنغره"، ومعنا جموع أهل "كب" ممن أعانونا على جهاد "غوبر"، وفيهم عثمان مسي بن سلطان "كب"، وكان الشيخ ولاه على من سمع له من أهل "كب"، وكان له جهة من بلد "كب" قبل هذا باغياً على سلطان "كب". فاجتمعنا وشاورنا في أمرنا، فاجتمع رأينا في غزو "كب". فخرج بالراية قائد الجيش، علي جيد، مع الوزير الأكبر، وخلفوني في العيال مع الوالد. فسار الجيش حتى وصل "غنم" فغزاها. ثم مر يغزو حتى وصل حصن "كب"، فنزل قريباً منه، وبات ليلي. ثم نهض إلى الحصن، ففتحه الله عليهم، وقتلوا وغنموا غنيمة عظيمة لم يغنم مثلها، وأسكنوا عثمان مسي فيه، وخرج أمير "كب" محمد بن سليمان إلى ناحية الشمال، ومات منهم أكثر من ألف عطشاً حتى وصلوا "دمان" وسكنوا فيها. ثم انتقل إلى "أوغ".

ولما فتح الله الحصن للمسلمين أعني الحصن الكبير، من حصون "كب" - وكانوا فتحوا حصوناً قبل ذلك - اجتمعوا وتشاوروا، فاتفق رأيهم على إنفاذ الجيش إلى "غنب". فأنفذوه إليه ففتحه الله عليهم. وقد كر علي جيد والأستاذ الأكبر راجعين بمن معهما قبل وصول جيش "غنب"، فأنفذوه إليه، ففتحه الله عليهم. وفي ذلك يقول الأستاذ عبد الله:

تذكرت والذكرى تثير لذي النوى	هموماً وفي الذكرى تهب صبا الهوى
أخلاي ماتوا في الجهاد وغيره	وبعدي عن شيخي فأرقني الجوى
فمن مبلغ عني بني وإخوتي	وأهلي وجيراني ومن معهم ثوى؟
بأني ودندا مع علي وجمعنا	وبولل له في الفتح والعز والروى
فتحنا حصونا بين كندا وكندتا	تزيد على عشرين بالقهر والقوى
وسالمنا رغما سواها فأسلمت	بظاهرها والله يعلم ما انطوى
ثلاثة كندالسيم ماسو وكلكلوا	وزلم فلم حصنين دنكا الذي حوى

وبانذ وحصني غنبنا روم غنفر   وحصني معاذ كادما طاط في الهوى

وزورغلي رندال ثم عظيمها   وليلاب منه فركندط فانزوى

وفي اثنين مع عشر المحرم فتحنا   عظيم الحصون حصن فود الذي غوى

قدار كباوا ثم فر ظهيرة   بفرسانه ذات الشمال على الصوى

فغادر في ذا الحصن مالا كأنه   لقارون لم يأخذ بزاد إلى القرى

ولو لا شباك الشرع ثم سلاسل الـ   سمروات لاستغنى الذي كلنا نوى

سما جيشنا جيش الفتوح فكلنا   حوى من فتوحات الغنائم ما حوى

وليس لنا أمر يهم قلوبنا   من الدين والدنيا سوى وحشة النوى

وفقد أحباء كرام تتابعوا   لجنات عدن في كراد وثنثوى

متى ما تذكرت الإمام وحزبه   تموج في قلبي بحور من الدوى

فإن سر غوبر والتوارك، ذلك الـ   قتال سجال ليس مرجعنا سوى

فمن قتلوا هم في جهنم دائماً   ومن في جنان الخلد ليسوا على استوا

ومع ذا فكم يوم بكن متنكري   وغردم ودار غدا ويوم لتاغوى

وديم جميعا ثم بمبرم بعده   وبورى به ذاقوا ضروبا من التوى

فوالله لو لا خندق وممرد   عميق طويل لاستحالوا هبا الكوى

رحلنا إليهم بالعيال وما لنا   حصرناهم شهرا ببابهم الحوى

ولم يبق بيت بين ريم وحصنهم   ومازم ومازوزى لذلك ما خوى

فخلوا لنا أقواتهم وبلادهم   ونحن غواد بين جرو ويانروا

ويوم أتونا للقتال فأدبروا   نقتلهم من تل ماتوا لدمبوى

قتلنا به جانز ومن كند بعده   ومثلهما ممن على كفره انطوى

وكم مرة جاؤوا بياتا فأقشعوا   وما فيهم من صوب صاحبه ضوى

وأخرى أتوني فيه خامس خمسة   فولوا وما نالوا الذي جمعهم نوى

وطورا أتوا جمعا وجينا توزعوا   بشرق وغرب ثم خاب الذي غوى

وما ساعة إلا يصكّ سماعنا   صراخ فنلقاهم سراعا بلا توى

على كل جرداء وأجرد شيظم   تراه كصفراء الجراد إذا استوى

قد اعتاد غارات الصباح تخاله   إذا ما جر فوق الربا طار في الهوى

فلمـــا رأونـــا لا نمـــل جهادنـــا لقـتل وأسـر جلهـم خـاف فارعـوى
ففـروا إلـى الـبلدان شـتى وجمعهـم كجمـع أنـاس كـان فـي سـبأ بـوى
فللـــه حمـــد أولا ثـــم آخـــرا فقـد تـم نظمـي وهـو حـال لمـن روى

ثم إنهم لما خلفوني في العيال، بت ليالي قلائل، فخرجت متوجهاً نحو أطراف غوبر، فأعرض لنا أهل قرية ثلاثاً، فتقاتلنا، فاصطلحنا. ثم إنه لما رجعنا منها بقية ذي الحجة خرجت بالراية مستهل المحرم متوجهاً إلى جانب "كاشنة"، حتى وصلت "تنفافي" بضم اتاء. ثم بدا لي التوجه إلى أطراف بلاد غوبر، فسرت بهم ثلاث ليال، حتى وصلت قريباً من أرض العدو، فسرت الليل كله، فصبحنا "غودا" بضح الغين المعجمة، وقد وجدنا عسكر العدو، فتلقونا. فهزمهم الله، وقتلنا فيهم قتلاً ذريعاً، وغنمنا منهم غنيمة عظيمة، وقد فتح إخواننا الذين ساروا إلى "كب" حصنها يوم السبت لاثني عشر من المحرم، وفتحنا نحن "غودا" يوم الأحد، لثلاثة عشر منه بينهما ليلة واحدة. ولم نخل للعدو في بلده "رايا وريم" دياراً، فرجعنا سالمين منصورين إلى رحلنا. واتفق قدومنا بقدوم إخواننا الذين غزوا في "كب"، والحمد لله رب العالمين.

غزوة فاقت

ثم إنه لما رجعنا من غزوة غودا - ورجع إخواننا من "كب" - خرجت بالراية بأمر الشيخ إلى ناحية أمير "زنفر" لما سمعنا أنه والى عدونا من أهل غوبر والتوارك، فسرنا في آخر المحرم إليه ليالي، حتى نزلت ببابه. وقد أغار على أرضه الخيل، فرددنا جميع ما أخذوا إليه، وطلبت منه المكالمة، فأبى. وطلبت منه موالاتنا دون عدونا، فأبى.فنهضت بالجيش إلى حصون قريته، ففتحها الله لنا وغنمنا، وأغرنا على التوارك الذين وجدناهم عنده. ثم عبرنا إلى ناحية "زرم"، والتحق بنا إخواننا الذين كانوا هناك. ثم ذهبنا إلى ناحية الشمال من ناحية "زنفر"، فغزونا "فاقت" و"ساموا" و"زكوا"، فتح الله علينا حصونها. وقد انتشر باقي الحصون نحواً من خمسين. ثم رجعنا إلى معسكرنا من ناحية "زرم". ثم انتقلنا إلى "جنفار" - بضم الدال - وعبأنا لقتالها. فوجدناهم قد هربوا إلى الجبال. فمررنا واحتملنا القوت. ثم سرنا ونزلنا "كرتوا" وخربناه. ثم ذهبنا راجعين، فلحقنا طلب جوند "زنفر" كلها. فالتقينا "بمالكوا" فأعاننا لله عليهم، فردهم الله عنا. ثم سرنا حتى لحقنا برحالنا بحمد الله وحسن عونه.

غزوة كنوما

وكان من حديثها أنه لما نزلنا "بزنفر" - وقد انتشر رعايانا في الآفاق - لطلب المعاش، فسار جماعة إلى ناحية "كاشنة". فأكلهم أمير "كنوما"، فقتل وأسر ونهب. ولما

اطمأننا وساعدنا الحال في غزوهم اجتمعنا وشاورنا، فاتفق رأينا في غزو "كنوما"، وكانت بلدة ممتنعة. فخرج بالراية قائد الجيش علي، فسرنا ليالي حتى وصلنا "كنوما". فتلقونا، فقاتلناهم ساعة. وقد أنزلوا ميمنتنا وانكشفوا، وثبت الميسرة، وكنت في الميسر في خيل عظيمة، فحملنا عليهم فهزمهم الله، واتبع آثارهم الخيل. ولما تلاحق الرجالة - وكان "قد" تأخر صاحب الراية - صعدنا بهم الجبال، حتى انتهينا إلى حيث لا يتأيي للخيل المسير، فنزلنا وسرنا على أقدامنا حتى انتهينا على ظهرها، فعسكرنا هناك. وقد تحصن أميرهم في حصنه مع خواص دولته، فقاتلناهم بقية النهار.

ولما جن الليل رجعنا إلى المعسكر فبتنا. فلما أصبحنا غدونا إليهم، فوجدناهم قد هربوا، واتبعهم الخيل فأصابوا منهم. فأقمنا بها أياماً واحتملنا القوت. ثم رجعنا إلى رحالنا بحمد الله وحسن عونه.

غزوة بنغ

وكان من حديثها أنه لما رجعنا من "كنوما" وجدنا أن أمير "زنفر" أرسل السرايا في عيالنا. فاجتمعنا وشاورنا في أمرنا، فاتفق رأينا على غزوه. فخرج بالراية قائد الجيوش علي، فسرنا ليالي. وقد انتشر بعض حصونهم، واحتملنا القوت منها. فسرنا حتى نزلنا بحصنهم، فقاتلناه أشد قتال أياماً. فلحق بالجيش الجوع، فغدونا إلى "قنبر" - بكشر القاف، فتقاتلنا نحن وإياهم سائر النهار، ثم رحلنا فنزلنا "فوش" - بضم الفاء. ثم رجعنا لرجالنا بحمد الله وحسن عونه.

غزوة صيلام

ثم إنه لما رجعنا من غزوة "بنغ"، وقد سمعنا باجتماع بقية أهل "كب" في "أوغ" مع أميرهم الطريد الشريد في "صيلام"، وإغارتهم على نواحي الجماعة، اتفق رأينا في غزو "صيلام". فخرج بالراية قائد الجيش فسار ليالي حتى وصل "صيلام" فقاتلها. ففتحها الله عليهم، فقتلوا وأسروا وغنموا. ورجعوا لرجالنا بحمد الله وحسن عونه.

غزوة جاتو الأولاى

وكان من حديثها أنه لما غزونا "بنغ" واستصعب، وبغي علينا سائر أرض "زنفر" من أجل ذلك ومن أجل فساد المحاربين منا، سطوا عليهم وأضروا بهم. ولما بغوا علينا واجتمع أكثرهم في "جاتوا"، جعلوا يغيرون على أطراف الجماعة، فاجتمعنا وشاورنا في أمرنا، فاتفق رأينا في غزو "جاتوا". فسرنا ليالي، فأصابني حمى الربع فرجعت، فسار الجيش حتى وصل رحالنا بحمد الله.

غزوة بين

ثم إنه لما رجعنا من غزو "جاتوا" اجتمعنا وشاورنا، فاتفق رأينا على غزو "بين"

لنقضهم العهد. فسار بالجيش علي حتى صبحهم، فقاتلهم، ففتح الله عليهم، فأصابوا غنيمة عظيمة. ورجعوا بحمد الله وأحسوا عونه.

تلخيص ما وقع في كاشنة مع جماعة المسلمين هناك

ثم إنهم لما رجعوا من هذا الغزو - ونحن نسمع بخروج أمير "كاشنة" إلى الجماعة، وقد اشتد بحضرتنا الجوع - فانتقلنا إلى "كب"، ونزل الشيخ "بغاد" - بفتح الغين المعجمة. وخلفنا إخواننا من فلان "زنفر" في بلدهم مع شدة الجوع والخوف. ووجهت عمر دلاج بريداً إلى جماعات "كاشنة" و"كنوا" ليخبرهم بشأننا ومكاننا وما جرى فينا. فخرج من عندنا حتى وصل "كاشنة"، وكان من أهلها، فوجدهم "بستماك". وعبر بالوثائق إلى "كنو" ووافى قدومه "كاشنة" بمسير أمير "كاشنة" الكافر، متوجهاً إلى "كنو"، هو وأمير "دور" الكافر. وكان أمراء هذه البلاد قبل هذا الجهاد، لا يتلاقون ولا يغزون مجتمعين، ولما قام الجهاد عليهم صاروا يداً واحدة، ولذلك خرج أمير "كاشنة" وأمير "دور" معاً، ومعهما من الجنود ما لا يحصيه إلا الله. ولما انتهوا إلى أطراف جماعة "كنوا" تلقاهم قبيل من الفلاتيين تابع الدين وتاب، يقال له "دان ثنك" في نفر يسير، فهزمهم، فرجعوا خائبين.

ولما وافى قدوم البريد عمر دلاج هذه الوقعة، نهض بالجيش، وفتح بلاداً كثيرة وأنجع. ثم إنه لما غزوت "جاتو" واجتمعنا نحن وهم وأهل كنو، عقدت لهم الراية إلى "رنك"، وفتحوها. وعقدت لمحمد بن الحاج الراية إلى "رنك"، وفتحها وسكنها. وكان قائد أمير كاشنة الكافر، منذ هزموا خرج بالجيش ونزل "جاندك" وجعل يقاتل أهل روم، ويغير على أطراف الجماعة، وهزم من روم ثلاث هزيمات. ولما سمع بمكان محمد بن الحاج وجماعته، سار إليهم فهزمهم الله، فرجع خائباً إلى حصن كاشنة، فكان سبب ضعفهم.

ولما رجع لحصن كاشنة، وتمكن أهل الجهاد منهم، سار محمد بن الحاج، ونزل بغربي الحصن. وسار عمر دلاج، ونزل قريباً من جهة اليمين، فجعل يغير عليهم، وحصروهم. وغزاهم محمد بن الحاج، فسالموه دون عمر دلاج. فأرسلوا إلينا في ذلك، فأمرتهم بالغزو، ولم أجبه إلى إمضاء الأمانة لما في ذلك من خوف الخيانة والتفريق للجماعة. فوافى البريد، وقد مات محمد بن الحاج. ولما ألح عليهم عمر دلاج بالغزو، وخرج إليه أمير كاشنة وسار حتى وصل بمحله، فعبأ للقتال، فتلاقاهم الجماعة، ولم ينجعوا فيه شيئاً. فرجعوا إلى حصنهم وتحصنوا. فسار إليهم أمير كاشنة بالجيش، حتى وصلوا إلى الحصن، وقاتلوه. فرجعت إليهم خيل الإسلام من ناحية،

فهزموهم، وقتل أمير كاشنة.

ثم إنه لما هزمهم الله انتقل عمر دلاج حتى نزل قريباً من حصنهم، فألح عليهم أياماً حتى فتح الله عليه القرية. فسار أمير كاشنة الكافر الذي ولي بعد المقتول إلى "دنكم" وكان الأخ المظفر محمد محمود من أهل الحفاظ، من أعان جماعة كاشنة على جهادها، وغزا فيها غزوات، وأبلى: فمنها إعانته لأهل روم على قائد خيل أمير كاشنة، ومنها غزوة سور، ومنها مقاتلته مع أهل "كمن"، ومنها غزوة فو، ومنها غزوة مراد ثلاث مرات، وغيرها.

ولما أخرجوا عمر دلاج، خرج بالراية. وقد اتفق خروجه بخروج جماعة "كنو" لنصر عمر دلاج، حتى احتمعوا قريباً من حصن كاشنة. فساروا، وعليهم الأخ المظفر، إلى "دنكم". فقاتلوها أشد قتال، ففتحوها بإذن الله، وقتلوا أمير كاشنة الكافر وصناديد قومه. فرجع عمر دلاج، وسكن حصن كاشنة.

ثم إنه بعد ذلك بقليل قدم أميرآهير محمد الباقر. ونزل بجيشه وكاد التوارك، وأمروا أمير كاشنة آخر. فقام عليه أمير آهير وعمر دلاج فقتلوه.

هذا تلخيص ما وقع "بكاشنة" باختصار، خوف الملل.

وأما تلخيص ما وقع في "دور"، فاعلم أنه قدمنا أن أمير دور وأمير كاشنة هزما يوماً واحداً، ولما رجع لبلده قام عليه جماعة أهل دورا المنتسبون إلى الشيخ. وأعانهم دار تشك وموسى أمير "زكزك" الآن. فأكبوا عليهم وألحوا عليهم، وقاتلوهم حتى هرب إلى أطراف بلده، وفتح حصنه. ثم إنه لما سمع ما صنع أمير آهير محمد الباقر بأمير كاشنة الذي ولاه التوارك، هرب إلى "برنوا" إذ كان طمعه قبل فيه. ولما سمع أنه سالم الجماعة هرب إلى "برنوا، وهو بها الآن.

تلخيص ماوقع في كنوا

وقد قدمنا أن أمير غوبر لما همّ بغزو الشيخ، أرسل إلى إخوانه فطلب منهم المساعدة، فأجابوه إلى ذلك. ولما قام أمير كنوا على المنتسبين إلى الشيخ، وقد خافوه على أنفسهم، وهاجروا من وسع بلادهم إلى أطراف البلد وتلاحقوا، أرسل إليهم بالغزوات: غزوة بغزوة، والله تعالى يعين المسلمين عليهم ويهزمهم. وجرى بينهم وبين الجماعة حروب عظيمة، ووقائع جسيمة، حتى خرج أمير كنوا الكافر بنفسه، ونزل محصن جان يحيى. فسار إليه الجماعة بعيالهم، وأحاطوا بهم، فقاتلوا الحصن، حتى فتحه الله عليهم، وقتلوا من جنود كنوا كثيراً. وهرب الأمير إلى حصنه الكبر. ثم انتقل الجماعة إلى "حبركد" فقاتلوه أشد قتال، وأقاموا عليه شهراً. ثم انتقلوا ونزلوا قريباً من الحصن الأكبر، فلم يلبثوا إلا أياماً قلائل، ففتحه الله عليهم. وهرب أمير كنوا إلى "رنو"،

وتفرق أموره. فسكنوا الحصن.

ثم إنه لما سمع بإخراج أمير كاشنة الكافر لعمر دلاج من حصن كاشنة، طمع في إخراج جماعة كنو. فرجع بمن معه، ولما سمع بمسير الجماعة، خرجوا فقتلوه "ببرمبرم" - بضم الباشئين والرائين وإسكان الميم. فقتلوه وشتتوا جنوده، والحمد لله.

انتقال الشيخ من سابنغرة إلى غواند

ثم إنه لما اشتد بنا الجوع في نزفر - وقد بغى علينا أهلها - انتقلنا إلى أطراف بلاد "كب" فنزل الشيخ "بغواند" - بفتح الغين المعجمة وفتح الواو - وانتشر جماعته في سائر البلد لطلب القوت.

ذكر غزو كروفي

وكان من حديثها أنه لما نزلنا "كب" أنشأ الشيخ الغزو إلى "القاضاو"، فخرج بالراية علي جيد وتخلفت عن هذه الغزوة لمرض أصابني. ولما فصل بالجند وعلم ضعفه عن المسير إلى القاضوا سلك الشمال، فشن الغارات على التواري "بكوفي"، فأصابوا غنيمة. ورجعوا سالمين غانمين بحمد الله وعونه.

ذكر غزوة جات الثانية

وكان من حديثها أنه لما انتقلنا من "زنفر" وخلفنا بضع قومنا فيها بين ضيق الجوع والخوف، أرسل أهل "زنفر" إلى أمير "غوبر" يستمدونه، فخرج جندهم، فجال في زنفر، وأغار على بقية قومنا وأصاب ما أصاب. ولما وصلوا إلى "زنفر" أرسل قومنا إلى الشيخ يطلبون الإغاثة منه، فأمرني بالمسير. وخرجت بالراية، فسرنا ليالي حتى وصلنا "الجواني" من بلاد "زنفر" فشننا عليهم الغارات، وفتحنا بإذن الله من حصونهم "باك" و"تانو" حتى وصلنا "جات" وقاتلناها قتالاً شديداً، وفتح منها تسع قرى، فرجعنا إلى العسكر. ثم رحنا إلى بلادنا سالمين غانمين. وفي ذلك قلت:

ألم تر أن الله أبلى عباده	بلاء غزيزاً والحروب تسعر
بما أنزل الكفار دار بوارهم	فلاقوا هواناً والحوادث تخطر
وعزز أهل الدين من بعد يأسهم	فهم في بلاد الله أقوى وأوفر
وقد رام أهل الكفر أن يستفزنا	أولو طولهم من أرضهم فتناصروا
فرد الإله كيدهم في نحورهم	وأوقعهم في كل ما قد تحذروا
فسل عن حروب بيننا واقتنع بها	على صنع مولانا لنا حين تشكر
فسل عن قريب يوم أحمل راية	إلى "جاب" والأنباء تجري فتذكر
قتلنا جموع الكفر والله عالم	ويدريه والتقريب فيه مسطر

"فبأكـي" قتلـناهم و"ثانـوا" بأرضـها ... و"بانـاع" قتلـنا، وفـي "جـاب" أكثـر

ففـي "بـال" أربعـة وخمـسون قـتلوا ... وفـي "ثانـوا" أربـع وعـشرون يذكـر

ثلاثـون عـدة أهـل" بانـاع" أمـة ... علـى الـشرك أرديـناهم فتعـسفروا

وفـي "جاتـو" قتلـنا بهـا مائـة وشـيء ... وأبـنا "لكانكـي" هـناك معـسكر

ثـلاث ليالـي ثـم أبـنا لدمـرها ... فدمـرها المولـى وإيـاه نـشكر

فـرحنا كأنـا مـن جواثـي عـشية ... بغالـي الغـنائم والجمـوع تكاثـروا

ولله حمـد أولاً ثـم آخـراً ... ولله در المـصطفى حـين يذكـر

ذكر غزوة زورار
- بضم ازاي -

ولما انفصلنا بالجند إلى "جات"، وتأخر من تأخر، طلب العم إنفاذ الجيش إلى ناحية الشمال. فخرج بالراية قائد الجيش، وقد أمره الشيخ بغزو "فولكم" - بضم الفاء، ولـم يأمره بغزو التوارك، إذ كانوا أرسلوا إليه بطلب الأمانة، فأجابهم إلى ذلك، وكتبت إليهم. فسار "بوثابغر" البريد. فلما انفصل قائد الجيش بالجند نحو التوارك من غير علم منه، فشن الغارة عليهم، وبريد الشيخ عندهم. فأغاروا إبلاً كثيرة وبقراً وسبوا سبايا. ثم رجعوا. فخرج الطلب في إثرهم، فلحقهم "بكرفي، فاقتتلوا. فكانت الهزيمة، واستشد الأخ الصالح هداه.

ذكر غزوة أوغ

وسببها أن أمير "أوغ" كـان تابع حين فتح حصنهم الأكبر، ولكـن كـان ينافق. فأرسل إلى أمير "غوبر" يستمده علينا. فخرج العدو من أهل "غوبر" فغزوا على أطراف الجماعة، حتى وصلوا إلى "اوغ"، ثم رجعوا لبلادهم. ولحقهم بعض إخواننا بالليل، واستلبوا منهم بعض الغنيمة، وأكلوا منهم كثيراً. ثم إنه لما سمعنا بمسيرهم إلينا، خرجنا للرباط، ثم أنشأنا غزواً، فسرنا، وعلينا "مويج". فنزلنا "أوغ" فقاتلناه قتالاً شديداً، وأقمنا عليهم أياماً. ثم رحلنا راجعين لما سمعنا بمسير الأحزاب إلينا.

ذكر وقعة ألوس

ثم إنه لما أقمنا على "أوغ" محاصرين لها، وأبطأ علينا الفتح، ورد علينا بعض الإخوان، وأخبرنا بتحزب التوارك والغوابر وسائر أهل أحوس إلينا، فتحولنا إلى رحالنا، فلم نلبث إلا يسيراً حتى سمعنا بمسيرهم إلينا بالأحزاب. فانحاز من كان في جهة الشمال. ثم إنه بلغنا أنهم عسكروا قريباً منا فاجتمعنا وشاورنا في أمرنا، فاتفق رأي ساداتنا على الخروج إلى لقائهم، ورأي البعض على انتظارهم حتى يصلوا إلى

رحالنا، فصدر الكل على الخروج إلى لقائهم بعد ذلك. فخرج بالراية قائد الجيوش، ومعه الوزير عبد الله، حتى وصلوا "كنبر" - بفتح الكاف والباء، وتخلفت في الديار، فأمرني الشيخ باللحوق بهم، وقال: سر معهم لئلا تقع الهزيمة، فيقولوا: تخلفت وتخلف الناس، فتبعت آثارهم ليلاً ووجدتهم بالمعسكر، وطلبت منهم الرجوع والانتظار في الرحال، فقبل مني الوزير، وأبى قائد الجيش. ولما أصبحت رجعت إلى رحالنا. ولما وافينا "لغ" - بكسر اللام والغين، تأخرنا هناك، حتى صلينا الظهر والعصر. ثم تشاوروا فاتفق رأيهم بالمسير إلى العدو. فسرنا حتى نزلنا "بكولد" - بضم الكاف، وهو حصن فيه أهل الذمة وبعض الجماعة. فأكله الجيش ونهبوا ما فيه. فقام الوزير فنهاهم ووعظهم فلم يسمعوا. فقمت ودخلت الحصن لأنهاهم فكادوا أن يقتلوني فخرجت. ولما رأينا ما فعلوا وخفنا عاقبة ما صنعوا، طلب منا الوزير الرجوع، ولم يساعده بعض الرؤساء. فمضينا حتى انتهينا إلى جمع التوارك صباح السبت. ولما سمعنا بحسهم ورأينا آثارهم عبأنا للقتال. فسرنا على التعبئة حتى وصلنا إلى صفهم. فرموا ورمينا، فحملت ميمنتهم على ميسرتنا، فكانت الهزيمة. واستشهد من الجماعة نحو من ألف رجل، وانتهى الغل إلى الرحال.

ثم إنه لما أصبحنا يوم الأحد أرسلوا إلينا غارة، فانحاز الناس ولجأوا إلى الحصن. وخرج الفرسان وكنت ممن خرج متمثلاً بقول القائل:

أنا الذي بررت يوم الحره والحر لا يفر إلا مرة

للأجزين فرتي ذي كرة

فحملنا عليهم فهزمهم الله، وقتلنا منهم كثيراً واستلبنا منهم إبلاً كثيرة وأتراساً وسيوفاً، فولوا خائبين خاسرين، وكذلك يوم الثلاثاء. ثم لما أصبحنا يوم الأربعاء بعثوا إلينا خيلاً، فخرجت في خيل فتلقيناهم وطاردناهم سائر اليوم. وقد نزل عسكرهم قريباً منا، ولما كان وقت العصر هزمنا خيلهم حتى انتهت إلى عسكرهم. فركب كل من تخلف عنهم، وهي خيل عظيمة. فتلقيناهم في نفر يسير، فحملوا علينا ومعهم سودانيون كثيرون، فثبتنا لهم فردهم الله عنا. ثم ركب إلينا من تخلف عنا من جيشنا. ولما صلينا المغرب سرنا إليهم لنصيب منهم كيداً. فلم نلق كيداً، فرجعنا إلى ديارنا. ولما أصبحنا يوم الخميس تحولوا قريباً منا، وقد خرج الشيخ في المسجد يعظ الناس، ويأمرهم برد التبعات، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحرضهم على القتال ويدعو لهم بالنصر. ولما نزلوا قريباً منا عبأوا للقتال، واشرأبوا إلى الحصن، فتلقاهم المسلمون، وكنت ممن خرج مع الفرسان. ولما نهضوا إلينا، وأتونا من فوقنا ومن

أسفل منا، وكانت خيلهم سلكت من أسفل منا، وقلبهم من فوقنا وطائفة من خيل عظيمة سلكت أيضاً من فوقنا من جهة الشمال، فتلقينا خيل الميمنة، فحملت علينا ونحن عشرون، وهم ينيفون على عشرة آلاف، فثبتنا لهم فخالطونا فانحزنا قليلاً وكررنا إليهم، وثبتنا لهم وأنا أقول:

أنا ابن عثمان مقوي ساعده   أدافع الكفار عن مقاصده
والبر يحمي عن حريم والده   والعاق مغبون ولو في تالده

ولما رأوا ثباتنا وقفوا، فحملنا عليهم فرددناهم إلى حيث انحزنا. ولما وصل قلبهم إلى حيث وصل ثبت له رجال صادقون فرموهم ورماهم المسلمون. فهزمهم الله، وحملنا على ميمنتهم فتضعضعوا فتبعتهم الخيل والرجال إلى "غنباي" - بضم الغين. وكان أمير "كب" فيها، وكان قبل مجيئهم حين فتح حصنه تابع هو ومجوس "كب". ولما كانت وقعة ألوس، ارتدوا كلهم، ودخلوا في الجيش، وكانت الحصون الغربية منا كلها كذلك مرتدة.

وتشاغل الناس بالنهب حتى أمعن العدو ولم يتبعهم إلا قليلون، أنجعوا بعدوهم. وفي هذه الوقعة يقول الوزير أبو عبد الله:

الهفي لقلب شابه الهم والأسا   بليل التمام والصباح إلى المسا
لفقد أخلاء مضوا في جهادهم   بنشي وبعض في كوار والوسا
هم عدتي في نصر دين محمد   فمن كان فيهم في الجهاد تنفسا
فكلهم قار فقيه وتابع   أولي العلم قارئ الضيف في الحرب أحمسا
وناصر دين الله لازم مسجد   ومجلس وعظ لا يفارق مجلسا
لمظهر دين الله عثمان كلهم   بالأقوال والأفعال منه قد اكتسى
وخلفت في خلف أضاعوا صلاتهم   وطاعوا على نيل اللذيذات أنفسا
وغالبهم شار بدنياه دينه   بإيثار ما يهواه والقلب خليسا
جرئ على أكل الحرام وأكله   كما تأكل الأنعام يأكل بولسا
ولا يسمع المأمور يعصي إمامه   فمن قام ينهاه عن السوء أخفسا
وإن كان ذا جاه يمهد عذره   وأول ما قد قيل فيه ودلسا
وليلة نحش بت في كلد حائرا   بأخلاط غوغاء الرعاء مدنسا
فقلت - وفينا بنت بيس بظلمهم   لصبح عست هذه الصحيفة أبؤسا

فسرنا وذاك الجمع يأتي وراءنا	فلما رأوا جمع التوارك أركسا
وخلفت في الأخرى أنادي: ارجعوا	كأني أنادي أو أكلم أخرسا
وقد كنت أرجو كرهم لمقامنا	فخاب رجائي في لعل وفي عسى
سوى بعض أحبابي وولدي وإخوتي	حموني وبعض حين فندس قندسا
ومنا رجال لم يزالوا بصفنا	وهم صدقوا ما عاهدوا الله في المسا
قضوا نحبهم فيها كفار وحمدا	فنالوا جنانا والحسان وسندسا
ومنا رجال الله ينتظرونه	وكل إذا ما صيح للحرب بلهسا
وما بدلوا قولا وفعلا كمن عدا	وصار إذا ما صيح في البيت دنكسا
وقد لقي الكفار منا بالوسا	سهاما تقد الترس لم تك خنسا
فاقصد سهم ابن برهي وطرفه	فولى إلي أصحابه متألسا
فلسنا نخاف الحرب من قتل بعضنا	وذاك المني من نال ذلك قرطسا
فمنذ بدت منا حروب توالدت	فما زال فينا من على الحرب خرسا
وتكثير قتلانا إذا سر غيرنا	فنحن نرى تلك الشهادة ملبسا
ومع ذا فكم يوم بكن - متنكرا	وغر دم ودان غندا وجوه العدوسا
وبمبرم مازوزي لازم أن بهم	كنوم ودوش دل سل من تحدسا
وما نيل من جيش والفتوح ونحوه	دليل يكون النصر فيه مؤسسا
ويوم أتونا واشرأبوا لحصننا	فولوا وجل بالسهام تخفسا
فقتل منهم نحو خمسين طاغيا	وزادت لدي النسوان وجها وشمسا
فشتتهم رب السماء وبعضهم	إلى الليل لا يدري إلى أين طسسا
فخابوا لما لاقوا وبالسلم أرسلوا	وذو شدة من قيل منهم تأيسا
ولا تأمنوا إسلام أو سلم كافر	بشرق ولا غرب وحسبكم مسا
كلوا سلمهم لله ثم ثقوا به	فماخاب من رب البرية أنسا

ولما انفصلنا من أمر "ألوس" اشتد في بلادنا الجوع لانتشارها، فخرجت بالعير إلى الأطراف الغربية، وخرج قائد الجيش إلى "أوغ" وقد اجتمع فيها العدو حتى انتهى إليهم، وشن الغارة فخرجوا في عدد كثير - وهو في نفر يسير، فكانت الهزيمة، واستشهد يعقوب المجاهد. ثم أنشأ جيشاً آخر، فأرسل به إلى "كرر" - بفتح الكاف، فأصاب غنيمة. ثم أنشأ آخر إلى "أرغنع" فكانت الهزيمة، ولم يكن بأس.

ثم إنه خرج العدو من الغوابر إلى أهل "كب" وأغاروا على جماعة محمد غابن ولادان، واستشهدوا محمد غابن وأوجعوا، ولما رجعت من الميرة وجدت هذا الأمر قد تفاقم، واتقض جميع من كان معنا من السودانيين من أهل "كب" حتى أميرهم، عثمان مسي، فخرجت بالراية حتى انتهينا قريباً من حصن "سوّ" - بفتح السين وتشديد الواو، فشننا عليهم الغارة، فقتلنا ما شاء الله وغنمنا، ومضيت إلى محمد تكر لأرده إلينا بأمر الوالد.

ثم إنه خرج قائد الجيش بعد هذا إلى "دمان" - بفتح الدال فلقي بحمد الله العدو، فهزمهم الله عليه، ورجع سالماً غانماً، والحمد لله. ثم أنشأ جيشاً آخر، فمضينا إلى "غلم"، فأغرنا عليها وصالحنا أهلها، ومضينا إلى "ززعا"، فصالحنا أهلها، ومضينا إلى "غور"، ففتحها الله علينا، وقتلنا رجالهم وسبينا ذراريهم. ثم عبرنا إلى "كاد" فلقينا جمع العدو فهزمهم الله، فقتلناهم وقطعناهم من دابرهم ولم ينفلت منهم أحد، واستشهد صاحبي محمد غين. ثم لما أصبحنا مضينا إلى حصنهم. ولما وافيناه وجدناهم قد تحصنوا فيه، فعبرنا فنزلنا فبتنا. ولما أصبحنا فإذا صارخ: اركبوا اركبوا، فلقينا خيل العدو ورجالهم خلطونا، فكانت الهزيمة، لكن لم يكن بأس. ولما تلاحق الجيش وقفنا لهم، فردهم الله عنا، فأقبلنا على قوتهم فأحرقناه، ومضيت لبلدنا، والحمد لله.

فتح سوّ

ولما رجعنا لبلادنا خرج بالراية قائد الجيش ومضى حتى انتهى إلى "سو"، ففتحها الله عليهم، وقتلوا "مسي"، وأصابوا غنيمة.

غزوة جاندوت

وكان من حديثها أنه أرسل الشيخ إلى سائر جماعته بالمشرق من أهل زنفر وكاشهة وكنو ودورا كلهم أن يردوا عليه، فلقيناهم بمغم ليخبرهم ما يخبرهم. ولما حان وقت الخريف وأقبلوا أرسلني مكانه، وأخبرني بما أخبرني. ثم أن خرجت فسلكت أرض زوم وزنفر، وكانت زنفر إذ ذاك باغية علينا، حتى انتهيب [انتهيت؟] إلى معسكرنا بكاركي فالتقيت أنا وإياهم هناك ببررغد. فوافى أهل كنوا وقد فتحوا بلادهم، فأمرت عليهم الفقيه العادل سليمان بن الجم، وأخبرت الكل بأن الوالد حياهم وأمرهم بالمبايعة على السمع والطاعة، واتباع السنة قولاً وفعلاً، ظاهراً وباطناً، وحركة وسكوناً، ليلاً ونهاراً، فسمعوا وقبلوا، وأخبرتهم بأن يبشرهم بأن الله يفتح عليهم البلاد ويمكنهم في الأرض فليحذروا بعد ذلك أن يتحاسدوا فيتفرقوا، أو يبدلوا شرائع الإسلام، كما بدل هؤلاء. فاستبشروا وقبلوا النصيحة. وأخبرتهم بما بشرهم به من قرب ظهور المهدي، وأن جماعة الشيخ طلائعه، ولا ينقضي بإذن الله هذا الجهاد حتى يفضي إلى

المهدي. فسمعوا واستبشروا، ودفعوا إلي ما قدروا عليه من مال الله.

ثم أنشأنا جيشاً إلى جاندوت، وبها من بقايا الطلبة، وكانت قرية اشتهرت بسكنى العلماء، وكان من بها من الطلبة يضللوننا ويغرون بنا السودانيين، وقد طردوا منها من انتسب إلينا من صلحائها كالحاج عمر والأخ المظفر محمد بن الشفاء، ولقيا منهم جفاء وإذاية، وضرراً عظيماً. ولما اتفق رأينا على غزوهم سرنا إليهم حتى نزلنا بإزائهم. فقدمت إليهم الأخ محمد بن الشفاء، وقلت له: أخبرهم بأني ما أتيت لأغزوهم وإنما نزلت بإزائهم لأناظرهم في هذا الأمر، فإن كنا على الصواب تابوا وتبعوا، وإن كانوا على الصواب تبنا وتركنا ما نحن فيه. ولما قال لهم ذلك قالوا: لا نناظره في شيء، ولا نحب رؤيته، ولا جمع الله بيننا وبينه وبين أبيه في الدنيا والآخرة. فرجع ووجدني أصلي العصر. فلما قضيت الصلاة أخبرني، فركيت [=فركبت] إلى الحصن بعد صلاة العصر، وأقبل الجند إليهم، ففتحه الله علينا في الساعة والحمد لله. وبتنا هناك ليالي. ثم رحلنا إلى الغرب. وقد انتشر من حصون كاشنة نحو خمسين حصناً، وأغزرنا على فلاتيهم، إذ كانوا على شاكلتهم، ورجعنا سالمين غانمين. فصدر الجموع إلى بلادهم وصدرنا إلى بلادنا بحمد الله.

غزوة ياور

ولما فصلنا بالجند إلى جاندوت من بلادنا، أنشأ الشيخ جيشاً إلى ياور. فخرج بالراية قائد الجيش فغزا ياور وفتح منها قرى كثيرة وخرج إليه أهل ياور فهزمهم الله، وقاتل حصنهم الكبير ولم يفتح عليه، فكر راجعاً.

غزوة بنا الأولى

ولما رجعنا من جاندوت ورجع على قائد الجيوش من ياور فلم نلبث إلا أياماً، فخرج بالراية الوزير الأكبر، فسار إلى بنا وكانوا بغاة علينا، فقاتلهم قتالاً شديداً، ولم يفتح عليه، فكر راجعاً.

غزوة باس

وكان من حديثها أنه لما رجعنا من جاندوت ورجعت قائد الجيش من ياور اجتمعنا وشاورنا فاتفق رأينا في غزو باس. فخرج بالراية سلطان كب مويج، حتى وصل باس ولم يلق كيداً، ورجع وقد مضى عليهم شهران.

غزوة فافر

وكان من حديثها أنه لما هزم الله التوارك من غواندر ورجعوا لبلادهم خرجوا وتوجهوا إلى أرض زنفر للميرة فأنشأوا هنالك غزواً من السودانيين، فغزوا حصن غد بفتح الغين المعجمة، فهزمهم الله. وكان بها الفقيه الأستاذ دنب ولما هزمهم الله رجعوا

لأرض كيا ولما تهيأوا للرجوع ورجعوا لبلادهم تلقاهم الأخ المظفر نمود بجنب البحر فاقتتلوا ساعة فهزمهم الله، واستاق أبقارهم، ونهبوا جميع ما معهم.

ولما رجعوا لبلادهم أخذوا بالتأهب إلى غزو زوم فمكثوا طويلاً، ثم جاسوا إليها وكنا خرجنا لما سمعنا بمسيرهم، ونظن أنهم توجهوا إلينا حين سلكوا طريق الغرب، ولما نحوا نحو زوم رجعنا لبلادنا. فحينئذ دعوت الله بهذه القصيدة المباركة المستجابة إن شاء الله تعالى:

أناديك يا مولاي في السر والجهر ... بأسمائك الحسنى السنية كالدر
وبالمصطفى الهادي الرشيد محمد ... وأصحابه والآل والتابع الغر
وبالأنبيا والرسل والملك الرضى ... وبالأوليا والصالحين أولي الأمر
لتكفينا من كل سوء وفتنة ... وترزقنا رزقا كفافا مدى العمر
إلهي ومولاي ترى من العدا سعوا ... وكادوا به فينا من الكيد والمكر
فكد يا إلهي كل من رام كيدنا ... وخذه إذا يبغي علينا على قدر
فنصرا عزيزا يا إلهي لقومنا ... فمنك نرجي الفوز باللطف والنصر
أغنبل فاحص جمعه ثم فله ... فيقرع سنا بالندامة والخسر
فلا تجعلنا فتنة للذين هم ... عتوا واعتدوا بالظلم والفجر والكفر
وأتمم لنا نورا أرادوا خموده ... ولو كره الكفار من ذلك النور
وأسق بلادا كان فيه مقامنا ... ومن بركات الأرض أخرج على الفور
أغثنا أغثنا أنت مالك أمرنا ... وعجل بيسر لا يعقب بالعسر
فقد مسنا ضر فضاقت فجاجنا ... فمنك نبغي الكشف من ذلك الضر
ونسألك التأييد بالروح في الذي ... نريد فمن أيدته باء بالخير
نعوذ بوجه الله من شر نفسنا ... إذ المرء مطبوع على الشؤم والشر
ومن شر وساوس رجيم مطرد ... ومن سوء أقدار المهيمن في الأمر
ومن سوء قهر الخلق والدين والهجا ... فلطفك نرجو في الأمور مدى الدهر
وفينا إلهي ما ترون من العدا ... يضاهون قول الكافرين بلا نكر
وهم عرفاء الناس ثم رعاؤهم ... فلا يرتضون الحكم من شرعة الأمر
فلا يهنهم إلا اتباع ضلالهم ... وأهوائهم ظلما وكفرا على كفر
فما زادنا إلا خبالا سوادهم ... فتعلم ما هم فيه يا رب من مكر

فبددهم يا رب فل سوادهم ولا تبق ديارا يجاهد بالغدر
ويسر لنا فتح الحصون بأسرها وقلع عماد الكفر في ذلك القطر
ويسر لنا يا رب نصب دعائم من الشرع في هذي البلاد على الفور
إلهي ومولاي من النار نجني ومن كل سوء في القيامة والحشر
وبلغ سلامي للنبي محمد وأصحابه والآل والتابع الغر
وبلغ لموتانا السلام بأسرهم وآثرهم باللطف والعفو والغفر
إلهي رجائي لا تخيب دعوتي إليك رفعت البث فاشفعه باليسر

ولما بلغوا أرض ركب ونهضوا إلى زوم صبح الأربعاء. فوافوا زوم وقت العصر، التقاهم المسلمون فهزمهم الله. واستحر القتل فيهم، وقتلهم قتلاً ذريعاً. وفي ذلك قلت:

ألا هل أتاها أن غزوة فافرا شفا شقما في القلب من حين أخبرا
شفا النفس أدبار التوارك يومها فخابت ظنون غنبل ثم أدبرا
تصيح الردينيات في حجباتهم وتسقيهم كأس المنايا المخمرا
ومن قبل كانوا يحشرون محاشهم وأوباشهم من أهل غوبر وزنفرا
ولما توافي جمعهم وزهاؤه ثلاثون ألفا أو يزيدون أكثرا
إلى زوم كم قد أجمعوا الكيد كلهم ليستأصلوهم أو ينالوا الأكابرا
يقودهم طاغوتهم وخبيثهم أغنبال أفاك ردي فشمرا
وخامد رأس الكفر ثم قدارهم أمير كيا وأبرش طاغوت زنفرا
دنوا وتدانوا زوم ثم تذامروا وجعم أولي الإسلام قد كان أنفرا
فلما التقاهم جمعنا فتضعضعوا فولوا على أقعابهم حين كبرا
فلم يك إلا راية الدين مشرع بنو الحرب في حافاته حين شجرا
تداعي أولو الإسلام حين تذامروا بكل حسام يفرق الهام مشهرا
وكل رديني وأسمر معضب على كل جهد من نجائب بربرا
ورجلهم يحمي سهاما كأنها ندى صاب في جو النهار وأمطرا
فغادر خيل الله للنصر هامهم بمعترك والكف والرجل قد فرى
فخلوا لنا أزوادهم ومتاعهم وأموالهم نفلا ورزقا ميسرا

وكانــوا قــديما يعــرفون لقــاءهم كــريها بغيــضا قــبل غــزوة فافــرا
فــسل يــوم ثـنتوا حــين ولــوا بأسـرهم وشنـــشن رهـــن خلفـــوه مجـــزرا
وعـن يـوم ألـس حين دارت رحـي الـوغا فـــنالوا ونلـــنا واحتملـــنا المفاخـــرا
وإن ســرهم مــا نالـــنا مــن شــهادة فـــتلك المنــى مـــنا نُحـــبُّ المآثـــرا
فمـــن قـــتلوه بلغـــوه مـــراده فطوبـى لــه واللطـف والمـسك أذفـرا
وروح وريحـــان وجـــنة خلـــدة وورث حـــورا مـــن نـــساء حرائـــرا
ومـن حلـل الفـردوس يكـسي جمـيعها حريـــرا وديـــباجا وتبـــرا منـــضرا
فـــسبحان مـــن رد العـــدو ذريعـــة إلـــى درك مأمـــول لـــنا قـــد تعـــسرا
فـــأبلغهم أن قـــد قتلـــنا بغوبـــنا ســـراتكم قـــتلا فخلـــوا التفاخـــرا
فعـادوا إلـى صـدق بجامعـة الدجـى فـــباتت علـــى جـــنب وســـاق تكـــسرا
وسـيد بـن برهـي قـد ثـوى ثـم طـرفه وأمـــثاله ممـــن هـــوى الكفـــر أشـــهرا
إلهـي إلـيهم أنهـم حـذروا الوغـي فـــإن لـــنا فـــي كـــل ضـــد بواكـــرا

وفي ذلك قلت أيضاً:

ألا أبلـــغ تـــوارك أهـــل أزبـــن علانـــية فقـــد ذهـــب الـــسرار
بأنـــا قـــد نـــزعنا خـــصيتيكم فلـــيس لكـــم إلـــى زحـــف نفـــار
فـــأين ســـراتكم ســـيد بـــن برهـــي ونجـــل كجيـــر مـــشؤوم قـــدار
وأي صـــدي تـــركناه صـــريعا وفـــي لحيـــيه والقحـــف ازورار
ضـــربنا قـــرن كبـــشكم فأضـــحى أجـــم كأنـــه فـــيكم حمـــار
فحـــزنا يـــا تـــوارك أهـــل أزبـــن ففـــروا كـــي يخلـــصكم فـــرار
فـــسيروا أربعـــين ونـــصف عـــام ففـــروا كـــي يخلـــصكم قـــرار
فلـــم يـــك قـــولكم أن تـــشتمونا وتفتخـــروا إذا جـــد الفخـــار

وللوزير عبد الله:

أمـــن طلـــل خـــلا أم فقـــد قـــوم ألفـــتهم تبـــيت بغيـــر نـــوم
فكـــم خـــل فقـــدت رضـــى تقـــي شـــجاع قـــارئ ســـراد صـــوم
وكـــم طلـــل علمـــت بـــريم خـــال وشـــحغل كوكـــي وغلـــم غلـــم
فـــتلك ديـــار غوبـــر والـــتوارق ولاة الكفـــر خاويـــة بظلـــم

وكم يوم بكن لنا عليهم ودارغد وغردم أي يوم
بأيدينا هلاك جميع غوبر هلاك تـوارق يرماح زرم
غداة يقودهم للحين جهلا طبيلهم أغنبل دون علم
يؤازره الغوابر والكوابش كيا وزوافر غوغاء برم
فأوردهم يعافر حوض موت ففر بأهله بلباس نوم
وسابق خامد شيطان آزر وزدي قدارهم أصحاب لوم
ففروا عن جماعتهم وجازوا مسيرة خمسة في نصف يوم
فما بالوا بآبال وخيل وأعبدهم وأثوبهم وطعم
وأحرار ثووا في زرم نحوا ثلاث مئين تؤذنهم بحزم
فثاب جميعهم عن جمع جيش لزرم وصلبوا طلاب سلم
فنعم الجمع جمع نمود يوم اللـ تقي الجمعان في أرجاء زرم
شفاء صدور كل المؤمنين وغيظ صدور كفران وجرم
ألا من مبلغ عني لعادر إذا بقيت بها أصحاب حزم
بدار تداركوا بطراد خامد قواكم قبل تشتيت وهدم
فخامد خامد لا تتركوه ليوقد ناره فيكم بإثم
وكل محارب لا تتركوه بها ليدوم فيكم نيل سلم
فلله المعز وللرسول وجمع المسلمين فتم نظمي

وكان أهل غرسا وردوا علينا وأشرافهم عندنا وأهل ميرتهم.

ولما جاش الجيش ذهب فتيانهم وأشرافهم عندنا يقولون: نحن معكم، لا نوالي الظالمين. وفي ذلك قلت:

أصحبتي بلغوا عني الجوابا إلى العذال قولا مستطابا
بأني لا أزال إلى المعالي أرقى لست من يهوى الربابا
وأني ماجد سمح جيي وضرغام إذا سمت الضرابا
فأبلغ زد مع هودا يهودي توقع وارتقب مني سبابا
ومغزاه فبات إلى تكره فاوقع في بلادكم الخرابا
بجند يملأ الأركان طرا ويكسو السهل والحزن النشابا

تلــف الخــيل يومــئذ نــساء أوانــس قــد أصــبن لهــا نهابــا
فــلا يحجــبن يومــئذ بخــدر ولا يوقــين مــن شــمس عــتابا
ولا يبقــى بأرضــكم عــدوا ولا يبقــى لكــم إلا التــرابا
عللــت وفــي الــتجارب كــل علــم بــأن أتيــسر أعلــى ركابــا
وهــم أولــى الــتوارك كــل يــوم عهــد وأعلاهــم إذا انتــسبو شــعابا
ولا تــثقوا بعهــد غــرس فإنــي رأيــتهم نعاجــا أو ذئابــا
ولــو وزنــت شــيوخ غــرس جمــيعا عــلا الميــزان مــا وزنــوا ذبابــا

ولما هزم الله التوارك وأخزاهم رجعوا إلى بلادهم، وكانوا أنفذوا لأهل ميرتهم من السودان كثيراً فأكب الجماعة على عيرهم، فأكلوا ما شاء الله من أموالهم، وتقووا بذلك، وضعف بذلك شوكتهم. فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

غزوة برغ

ولما كان الربيع خرج العم الوزير بالراية، حتى وصل راغم بضم الغين المعجمة. فكاد أن يفتح عليهم، فكر المشركون، ولكن لم يكن يأس.

غزوة دفو

ثم بعد خروج العم إلى الغزو، خرجت بالراية حتى وصلت سكت، روماً لغزو دفو، فرجعت ولم ألق كيداً.

وقد انتشر أهل دفو وهربوا لما سمعوا بمسيرنا، وهناك أرسلت إلى أخينا المظفر داون - بفتح الوا وإسكان الثاني، وهو من أقيال الفلاتيين، وأمرته بغزو ضواحي القضاو ليجلب إلى أخبارها، ليتمكن لنا غزوها في الخريف. فخرج حتى شن الغارة بباب الحصن، واستاق بقرهم فخرج الطلب، فكروا عليهم، فقتلوا منهم، فرجعوا بالغنيمة سالمين بحمد الله وحسن عونه، وأتوا بقص الخبر.

غزوة القضاو الثانية

ثم إنه لما حان الخريف اجتمعنا وشاورنا، فاتفق رأينا في غزو القضاوا وعلينا قائد الجيش حتى وصلنا غندم - بضم الغين المعجمة والدال المهملة، فلحق بنا جموع أهل زرم فسرنا حتى صبحنا أرض العدو، فأغارت الخيل عليهم والرجل، فاتفق أن علم العدو بمسيرنا فخرجوا إلينا. فلقيناهم فلم يكن كبير أن هزمهم الله تعالى، فقتل من أشرافهم خمسة رجال، كل واحد منهم يعدل مائة عندهم، كأمير غلم، وغيره.

ثم نزلنا بعسكرنا الأجنفي وبتنا ليلتين، وأمرت على الخيل الأخ المظفر نمود فسار للحصن، فرجعوا سالمين.

ثم رحلنا فنزلنا قريباً من الحصن، فبتنا، ثم سرنا لمعسكرنا زغرب فنزلنا بها. وقد اتفق قدومنا بصلاح قوتهم، فاشتغلنا بفساده وتحريقه، فأحرقنا معظمه. ثم خرج إلينا العدو حتى صبح عسكرنا يوم الخميس، فلم يك بأس أن هزمهم الله وقتل من صناديدهم نحو من عشرين أو أكثر، ولا تسأل عن الأوباش، ففرح المسلمون، وذل الكافرون، والحمد لله رب العالمين.

ولما أصبحنا غدونا إلى الحصن، لننظر حاله، فقاتلناه ساعة، فرجعنا عازمين على قتاله. فنهضنا بالجيش ونزلنا قريباً منهم، حيث نزلنا عازمين لقتال الحصن، فاجتمعنا وشاورنا، فاتفق رأينا في غزو التوارك فسرنا إلى معسكرنا لنعبر إليهم، فلقينا أشرافهم وافوا يلتمسون الصلح، فصالحناهم على عهود ومواثيق. ثم رجعنا لبلادنا بحول الله وعونه.

ذكر بناء غواند

ولما رجعنا لبلادنا - وقد وجدنا الشيخ مريضاً - اشتغلت ببناء الحصن الذي هو فيه، فبنيناه. ولما صح خرجت بالراية إلى دند. وكانوا بغة يخرجون إلى أطراف بلادنا ويغيرون عليها. ولما وصلنا إلى أطراف بلادهم القريبة منا شننا عليهم الغارات. ولما وصلنا حصن كيم وزكو قاتلناهما يوم الاثنين، ففتحهما الله علينا، فرجعت من هناك. فمر قائد الجيش وقاتل هناك حصناً فاستصعب. ثم مر فقاتل حصنهم الأكبر عند أميرهم الباغي، ففتحه الله عليه، وقتل الكافرون من أصلهم ومن عند آخرهم. ثم سار بالجيش على كنب - بفتح الكاف، وكان بها طاغية منهم، ففتحها الله عليهم. ثم رجعوا لبلادنا سالمين غانمين، والحمد لله.

وفي هذه الغزوة وقع الوباء في الجيش، فمات منه خلق كثيرون، منهم عبد القادر وإخوانه من أصحاب الشيخ.

ذكر غزوة كنو

ولما انفصلنا من أمر أهل دند خرجت بالراية متوجهاً إلى أرض كياو، وكان أمير كياو هو الذي أعلن التوارك على غزو زرم، وهو ردء الأعداء ومرصدهم.

ولما وصلت أرض زرم وجدت مشاجرة بين سودانييها وجماعتنا، فأصلحت ذلك، ومررت إلى كياو، وقد انتقض أرض برم ومفر وبنع، وكانوا ينافقون فنزلنا قريباً من أهل وُيَ - بضم الواو وفتح الياء، فتلقونا فهزمهم الله. ومررنا إلى كناء حتى نزلنا برزغدا، ولما استرحنا أياماً سرنا إلى كياو، ونزلنا تور - بضم التاء، فعبأنا حتى نزلنا قريباً من كنو. ثم نهض إليه الجيش، وقد انضاف إليهم عسكر أهل كياو كلهم، وكنت تخلفت قليلاً في المعسكر لحاجة. ولما نهض الجيش إليهم تلقوه، فكانت الهزيمة،

ولم يكن لهم بأس، فكررنا إليهم، فهزمهم الله حتى ألجأناهم إلى الحصن.

ثم اقتتلنا نحن وهم سائر النهار واشتد الأمر علينا، فهاجت نار من فوق، كرامة للشيخ، فانتشرت في ديارهم، فكانت سبباً للفتح، ففتحه الله علينا ومالت الخيل على جندهم حتى أفنوهم، وقتل من بقي في الحصن من رجالهم، وسبي ذراريهم ونساؤهم وجمع أموالهم. وفي ذلك قلت:

سائلوا عنا وعن أعدائنا ... يوم دار الحرب في كنوا الحفر
قد تركناهم بها مثل الهبا ... أو كأحطام الهشيم المحتظر
ولكم كر به فرساننا ... في صناديد كياوا المنكسر
إذ رجعنا لهم وقت الضحى ... بجنود كجراد منتشر
وكأن الخيل في أرجائها ... جدأ تخطف أشلاء البقر
فلقيناهم وأوغلنا بهم ... برماح وسهام كالمطر
وأشرأبوا فرمونا مثلها ... فأقمنا هكذا حتى الظهر
فدعونا: يا نزال للوغي ... فدخلنا حصنهم وقت العصر
فسقيناهم منايا فرأوا ... سهم أمثال جذع منقعر
ثم رحنا غانمين كأننا ... قد رجعنا من جواثي للحفر
فأحمدوا لله على إحسانه ... لأولي الإسلام يأهل العبر
فهو أهل الحمد والشكر معا ... وثقوا بالله في صرف الدهر
فهو مولانا ووالي أمرنا ... حبذا المولى ونعم المنتصر

ولما رجعنا لبلادنا خرج المظفر نمود فغزا كرياً من أهل كياو، ففتحها الله عليه، ولقي بجنود كيا، فهزمهم الله وأبلى بهم. ثم إنه لما حان الربيع خرج المظفر "واون" فغزا شراً حصن القضاو، فخرج الطلب فلحقهم، فمالوا على الطلب، فقتلوا من صناديد المشركين نحواً من عشرة. فكان سبب ضعف شوكتهم في تلك الجهة. ثم غزا سائر الجهة المذكورة الأخ المظفر نمود، وأبلى. وكذلك عمر دلاج سلطان كاشنة غزا هو ناحية منها، فكانت هذه الغزوات سبب بلد غوبر، والحمد لله رب العالمين.

ذكر غزوات ارغنغ

وكان من حديثها أن أهل أرغنغ سالمونا. ثم رأينا منهم إخلافاً، فنبذ إليهم الشيخ عهدهم. ولما سمعوا بذلك وجهوا من أشرافهم ليطلبوا لهم الأمان، فقتلهم أغيلمات، فثار الحرب ومضى الجند، وفيهم الوزير الكبير عبد الله، وقائد الجيش علي جيد

وعبد السلام، فقاتلوا أرغنغ أشد قتال، وحاصروه ولم يفتح عليهم فرجعوا.

ثم اجتمعنا وشاورنا، فاتفق رأينا على غزوهم وغزو أوغ. فسار الجيش وعليه قائد الجيش، فشننا الغارة على أهل أرغنغ فأصبنا غنائم، ثم مضينا ونزلنا أرغ، وأفسدنا بساتينهم كثيراً، فرجعنا بحمد الله وحسن عونه.

ثم إنه لم تزل السرايا منا غادية عليهم ورائحة، حتى استلانوا، فاجتمعنا وشاورنا في أمرنا فاتفق رأينا على غزو أرغنغ فمضينا بالجند حتى نزلها عليهم، فطلبوا منا الصلح، فصالحناهم. فحينئذ استقام لنا بلد كب، ورجعنا بحمد الله وحسن عونه.

غزوة فتح القاضوا الثالثة

ثم إنه لما حان الربيع أرسلت إلى أطراف البلاد كلها، وأمرتهم بالتهيأ إلى غزو أطراف القاضاو. فانتدب المسلمون كلهم، وقد جردوا على الكفار من أهل غوبر. ولما حان الخريف سرنا وعلى الجنود الغربية قائد الجيش، وعلى الجنود الشرقية القائد المظفر نمود وجماع أمرهما عندي. فخرجنا حتى نزلنا معسكرنا الأجنفي، فبتنا ليالي، ثم سرنا يوم الأحد، فنزلنا قريباً من الحصن. ثم بتنا، ثم غدونا وعبأنا للقتال. فأخذ الأخ المظفر ناحية الشمال، فقاتل هناك، وأخذنا جهة الشرق، فقاتلنا هناك، وقاتل سلطان كاشنة بين الغرب واليمين، ففتح الله علينا الحصن طرفة عين. فمال المسلمون عليهم بالقتل والأسر، وقتل أميرهم ينف وأفنى رجاله حوله، والحمد لله. فوجهت البريد إلى الشيخ، فوافى أن سبقه الجن وأخبروا بجميع ما يكون حتى خرج الشيخ وبشر الناس. وذكر أهل السير أن الجن تسير بأخبار الوقعات قبل أخبار الإنس، ويحتمل أنه رأى ذلك كشفاً. ولما فتح الله على المسلمين هذا الحصن، فرحوا فرحاً شديداً، وذل المشركونه ذلاً كثيراً، وكان المسلمون أينما كانوا يتوقعون وقعة القاضاو، والكفار حيث كانوا يرون ثبات ملكهم وزواله بها. وكانوا في كل بلدة مصيخين إليها، ينظرون ما يكون من أمرها. فلما كانت الوقعة وسارت بها الركبان سقط في أيديهم، وانكسر ظهورهم، فتاب بعضهم، وتابع آخرون، فاستقام أمر البلاد، واطمأن جوانبها، والحمد لله رب العالمين.

غزوة بنا الثانية
وما يتصل بها من غزو تند

ثم إنه لما رجعنا من غزو القاضاو، اجتمعنا وشاورنا في غزو البلغالك من أهل "بنا"، فلم يكن بأس أن فتحها الله علينا. فمال الجند عليهم بالقتل حتى أفنوا مقاتلتهم فلم ينفلت منهم أحد، فسبوا نساءهم. ثم مررنا وصالحنا "بنغ". ثم مرنا وصالحنا "كي". ثم سرنا حتى وصلنا "تند" بجنب البحر الذي يقال إنه النيل، فقاتلناه أشد قتال في أربعة أيام، فلم يفتح علينا، فرجعنا لبلادنا. فاتفق أن غزا إخواننا أرض "برنو" من ناحية

"سوس باد"، فكانت الهزيمة، ولم يكن بأس. فلما رجعنا خرجت فعسكرت بسكتوا مرابطاً ومرتقباً ما يؤول إليه أمر التوارك، فوافى نزولي بها قدوم أمير أهير الأخ الناصح أمير آهر الباقري لبلاده آدر، فجرى بيني وبينه مراسلات، وكانت وعقت قبل هذا.

ولما اطمأن أميرهم في بلد آدر بين التوارك أنه يريد القدوم على الشيخ للزيارة والتبرك به والانخراط في سلكه، فأبوا عليه. فأبى وسار فتبعوه بعد ذلك، حتى وصل بعسكرنا، فبات ليالي، ثم سرت معه فزار الشيخ وتبرك، وتحمل ما تحمل، وبايع على اتباع الحق ونصرته، وأقام شهراً. ثم سار فنزل بمعسكرنا، وأقام أياماً، وخلف عندي أولاده، ثم خرج إلى بلاده.

ولما وصل إلى أكرز كتب إلى ما جاوره يعلمهم بما سمع ورأى من أمور الشيخ، ويحضهم على متابعته. ثم رجع إلى بلده آدر عازماً على غزو المحاربين من أهل بلده، وغزوا برنو معنا، فتوفي بها، رحمة الله عليه، وفي رثائه قلت:

إذا ما تذكرت الحبيب الذي توى ... تموج من عيني دموع وتسكب
ويرثي له قلبي مدى الدهر كله ... ومن قبلك قالوا في الرثاء وهذبوا:
"أخلاي لو غير الحمام أصابكم ... عتبت ولكن ما على الموت معتب"

ذكر ما كان من أخبار آدر

وكان التوارك من أهل آدر حين خرج أميرهم إلى غزو زرم ورد عليهم كتاب من محمد الباقري يأمرهم بعزله وتولة محمد بن المصطفى لمكان، محبته للجماعة، فعزلوه وولوا محمد بن المصطفى. ثم نكصوا على أعقابهم، فعزلوا محمد بن المصطفى، ورجعوا إلى أميرهم الخبيث خامد. وأعانهم على ذلك توارك أهير من أهل تنبسي. وفي ذلك قلت:

لعمري لقد طاشت عقول بتونكت ... وضلت حلوم أليون وتقصر
يرمونا فيما بيننا نقض عهدهم ... وتهيج أضغان بها الحرب تسعر
إلا صالحونا وأقصدوا السلم تسلموا ... فأنتم إلى الصلح أو السلم أفقر
فخامد إن أوفدتموه يكن لهم ... بعاد حريقا مستطيرا فتحسر
ألا أبلغن عني ألمت رسالة ... وقد يحدث الأمر الكبير المحقر
لئن كان غوغاء التوارك غركم ... كما غر قوما قبلكم ثم أدبروا
ستعلم أن لفت أناها وضرست ... بمن أنت في آدر أتقى وتصبر
وقد خذلتك أننسين تباعها ... وحلوا ثنايا انصما وتقهقروا

أو التحقوا في واجل وطرابلس وجازو بأحمادو خلفوها وفرفروا

ثم إنه لما قدم إليهم أمير المؤمنين محمد الباقري، روماً لزيارة الشيخ، أمرهم أن يتوبوا عن عداوة المسلمين والسعي في محاربتهم، فسمعوا له، وانقادوا. فلما زار ورجع لبلاده، توفي خامد وولوا بعده أخاه إبراهيم، وكان أخبث من خامد. وفي ذلك قلت:

لعمري لقد زادت شقاوة ليسن وخف لواها حين ولوا بريهما
فتلك ثلاث في الديار تمتعوا كميعاد قدار فالياس أعلما

ذكر غزوة كنب

ولما حان الربيع خرج بالراية الوزير، ولما بلغ دب انتشر من بها من العدو، ثم إنه لما سمع بمسيرهم أهل تند خافوا وهربوا.

ولما وصل بالحيش إلى جانب البحر عبر بهم على حصن كنب، فشنوا الغارات على ضواحيها الغربية، وأبلوا هناك بلاء عظيماً. فجاء أهل كنب من بني كرباس، فصالحوه على سائر بلدانهم، فكر راجعاً بحمد الله وحسن عونه. وفي ذلك يقول الوزير عبد الله:

فحمدا وشكرا طيب الأنفاس لله ذي الآلاء رب الناس
يعطي ويمنع من يشاء بفضله وبعد له لا يهتدي بقياس
فيعز من والاه في آلائه يذل من عاداه بالأرجاس
ومن الدليل عليه سوط عذابه في الأربعاء على بني كرباس
نصرا لنا برماحنا وسهامنا وسيوفنا ببطونهم والرأس
أولادهم ونساؤهم مسبية ورجالهم مقتولة بالفأس
بعد انتشار فراشهم بزروعهم وتطاير الفرسان بالأتراس
من بعد هدم وحرق دلب وطردهم فارتاع تند وهل له من آس؟
قولوا لهم: توبوا فلا ينجيكم هرب لبرغ ولا إلى كنياس
تروى وكنب رأوا ترى فتعوذوا بالله والإسلام خوف الباس
فنجوا وقد أخذ الهلال حلوقهم بغيوث عفو جاء بعد اليأس
ظنوا بأن البحر يمنع جمعنا فيه يغرهم أخو الوسواس
رأوا الجموع يمينهم وشمالهم شرقا وغربا وهو جمع رأسي

فـيهم دعـاء الـشيخ يحـدث فـي الفـلا ... ســبلا فجاجــا عالــي الأجــراس
يــا ســائلا أخــبارنا عــن بحــرهم ... خــذ فـضلها واكـتب علـى القـرطاس
لمــا أتيــنا البحــر طــاع تفلقــا ... بعــصا المعــونة طائــع الأجــناس
حتــى رجعــنا ثــم خــضنا ثانــيا ... وورودنــا وصــدورنا فــي فــأس
صــدق الرســول رأى جمــوع غــزاته ... فــي البحـر كـالأملاك فـوق كراسـي
ســرنا زيــوم تواصــلا لجموعــنا ... والــبعض مـنهم جـاء مـن كـراتاس
ثــم انــصرفنا آئبــين ونرتجــي ... أجــرا يــزول بــه أسـي الأفــلاس
مــا مــنا ســهم ولا رمــح ولا ... سـيف كمـن آبـوا مـن الأعـراس؟
لله حمــد والــصلاة علــى العــلا ... خيــر الــورى والآل والأكــياس

ولما حان الخريف بنيت للشيخ حصناً بجنب معسكرنا بسيفاو، فانتقل إليه، متعنا الله ببقائه وجلع العافية خيراً. وبنيت على معسكرنا حصناً، فكانت قرية سكت عمارة إسلامية. وفي ذلك قلت:

لــسعدي ديــار يــا لهــا مــن مــنازل ... بــسكت فــذات الــتل دون المــناهل
بــلاد تمــناها ذوو الــرأي قــبلها ... وجــاد علــيها كــل أســحم هاطــل

ذكرى غزوة غوار

ثم إنه لما حان الربيع وقد رجع جموعنا الذين وردوا "نفي" لنصر عبد الرحمن النفوري على عسكر "نفي" وقد أصابوا من الأمانات فقمنا غاية جهدنا، ورددنا ما أمكن رده، ونحن نسمع بعتو أهل غوار وصيالهم على أطراف بلادنا، فخرجت ونزلت في المعسكر شهرين.

ولما حان الخريف نهضت حتى نزلت القاضاوا، فسعيت جهدي في الإصلاح، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورد المظالم، وأمرت الأخ محمد فجلس لها، وحضر الفقهاء، فبسطوا العدل والقسط ما شاء الله أن يبسطوا، ونصروا المظلومين. ثم رحلنا حتى نزلنا بمعسكرنا "دايو"، فبتنا ليالي، فلحق بنا الجنود. وكنا ننتظر وقع الحاج الأمين وأمير برنوا لما سمعنا بمسيرهم إلى أطراف بلادنا. وقد كتبوا إلي كتاباً فيه من السب واللعن، وفحسن [فحش؟] القول وبذاءة الكلام والتوعد والتهديد ما فيه. وستأتي الإشارة إليه.

ولما سمعنا بموقفهم بسيكو، وقد ردهم الله خائبين، نهضنا إلى قار لمكان قربها، فسرنا حتى وصلنا إلى "مدود" ففتحها الله علينا. ثم سرنا حتى نزلنا بحصن "قار"

وقاتلناهم ساعة وفتحها الله علينا. فأسرنا أميرهم، وهو عندنا الآن. فشننا الغارات على بلادهم، والحمد لله رب العالمين. وفي ذلك قلت:

خبرن يا نسيم أهل الديار ... خبر الحرب حين دارت بقار
قد تركناهم بها كهباء ... أهلكوا في غيابة وغبار
وغشينا بيوتهم بعد هذا ... وأسرنا أميرهم في الأسار
فاحمدوا الله واشكروا نعماه ... وعليه توكلوا في الغيار

وفي ذلك يقول الوزير:

حمدا وشكرا لربي الواحد الباري ... على هلاك طغاة من بني غار
على حشود جنود من جماعتنا ... مهاجرين وفيهم جمع أنصار
أمامهم دعوات القادري لنا ... أمامنا راجمات جمع كفار
يخربون بلاد الكفر إن نزلوا ... بدار كفر فساءت حال ذي الدار
يقودهم "بل" في خيل وفي رجل ... بين الليوث كليث ثائر ضاري
حتى أناخ على ساحات دارهم ... فأصبحوا مثل عصف حط في النار
فأصبحوا لا نرى إلا حصونهم ... وليس فيها جميعا صوت ديار
وأسر طاغوتهم قد زاد ذلهم ... مقيدا بينهم في ملبس العار
يأهل غار ألما يكفكم كشنا ... والجار يسمع ما قد حل بالجار
كذا كنو مع زكزك وهي قربكم ... وزنفرا مع غوار نسل بابار
تلكم بيوتهم بالظلم خاوية ... منهم فصاروا أحاديثا لسمار
بقدرة الواحد القهار قاهرهم ... فالحمد لله في جهر وأسرار

غزوة نف

ولما رجعنا من غزوة غوار اشتغلت بإصلاح دار الشيخ. فخرجت الجنود وعليها قائد الجيش حتى ورد "نف" فأبلوا بلاء عظيماً، وفتحوا حصوناً كثيرة، ونصروا جماعتنا الذين كانوا بها، والحمد لله رب العالمين.

تلخيص ما وقع بأرض برنوا
مع جماعة المسلمين هناك على ما بلغنا
وبالله الاستعانة لا رب سواه

ثم إنه لما ضيق الجماعات على أمير دورا وأمير كاشنة وأمير كتو، فبعثوا إلى أمير برنوا يتنجدونه على الجماعة. فأرسل إلى وزيره أن يقبل إلى انجادهم ونصرهم،

كما هو المعروف أن الملوك ترى على أنفسها إنجاد الملوك على من غلبهم. فأقبل إلى ما أمر به، فأرسل إلى من يليه من أهل دورا بالسرايا والغارات، وجعل يتأهب للمسير إلى إنجاد أمير داورا وكتو وكاشنة بأمر أميره. ولما أحس بذلك مجاوروهم وجماعتنا جعلوا ينحازون إلى جهة واحدة. فبعث إليهم بالسرايا، والله تعالى يردها عنهم. ثم خرج بنفسه، فشن الغارة عليهم، فزحف لهم، فرده الله منهزماً.

والحاصل أنهم لم يزالوا هكذا، حتى صال عليه بعض الجماعة، فأخرجوه من حصنه، وتفاقم الأمر. وكان الجماعة المنتسبون إلى الشيخ في برنوا قبل قيام أمير برنو عليهم يلتحقون بأبوب فير في أرض "ياوش" ليعينوه في الجهاد، وبعضهم يلتحق في عبدور، ليعينه في جهاد من يليه. ولما سمعوا بتأهب أمير برنو لإنجاد ملوك حوس وأمره الوزير أن يقبل إلى ذلك خافوا على أنفسهم، فهاجر من بناحية اليمين إلى "بودير" وهاجر من الغرب إلى ناحية في عبدور، وثبت لهم ضرضيم، كما قدمنا، وهم يشنون عليه الغارات، والله تعالى يردها عنه، حتى صالوا عليه، فردهم الله منهزمين. فحينئذ قام عليهم حتى أخرج الوزير من حصنه، ولما تفاقم الأمر، وأخرج الوزير من داره تشاغلوا عما كانوا بصدده من نصرة مجاوريهم، وأقبلوا في نصرة انفسهم. وهكذا أمر هذا الجهاد، كلما قام ملك لينصر إخوانه ويغزوا الشيخ، وثبت عليه جماعته المنتسبون إليه، فشغلوه عما هو بصدده، حتى صار الأمر إلى ما صار إليه.

ثم إنه لما تفاقم الأمر، وجه أمير برنوا إلى الشيخ الحاج آدم يسأل عن سبب هذا الأمر، ويلتمس من الشيخ أن يمنع الفلاتيين من الهجرة من بلده، زاعماً أنه أمير المؤمنين، فأمرني الشيخ بكتب الوثيقة. فكتبت إليه، وبينت له السبب أتم بيان، وبينت له أحوال أمراء حوس وأنهم كفار، وأن مظاهرتهم من مسلم ارتداد، فليحذر أن يغروه بغرورهم فيدخل في أمورهم، وطلبت منه أن ينصر الجماعة عليهم، وكتبت إلى الفلاتيين ما يقتضي الموافقة بينهم وبين أمير برنوا، وحذرتهم من الاعتداء في بلده.

ولما رحل من عندنا بلغنا أنه بلغ فوافي أمير برنوا خارجاً ومتوجهاً إلى ضرضيم وابن عبدور.

ولما أخرج له الورقات كاد الأمير أن يقتله، وقال له: إنك فلاتي، ذهبت إلى إخوانك، ولم آمن أن حملت منهم السحر إلينا، فشفع له الشريف الشهيد فهرب إلى أرض باغرم، ولم أدر ما كان من أمره.

ثم إن أمير برنوا مر لصوبه حتى عسكر بوشكال فبعث بالجند إلى جماعة ضرضيم فأكلوهم، ومر الجند إلى ابن عبدور، فالتقوا بقدر، فهزمهم الله وقتل من

صناديدهم كثيرون، وقتل الوزير وقائد الجيش، وقتل منهم قتلاً ذريعاً.

ولما انتهى الفلال إلى أمير برنوا هرب ليلاً، ونحى حصنه. ولما رده الله عن المسلمين قام الإخوان من أقيال الفلاتيين الذين بداي، فطلبوا الشيخ الفقيه الصوفي البخاري، والماهر الصالح، التقى المختار، وكانا انحازا بمن معهما إلى أبوب بر فردهما لأرض داي وشرعوا في جهاد برنوا فوجه إليهم أمير برنوا قائد خيله مرات، والله تعالى يرده عنهم، ثم طلبوا أبوب بر فجاء بجند المسلمين واجتمع معهم، فساحوا بأرض برنوا وجاهدوا فيها وأبلوا وأمعنوا فيها، ثم كر لبلاده.

ثم إنه توفي ابن عبدور، فقام الفقيه الأستاذ المحب المتفنن إبراهيم زاك، وجاهد فخرب برنوا حتى وصل قريباً من الحصن، وكاد أن يسالمهم. ثم رجع وقام الإخوان الفلاتيون، وفيهم علماؤهم بالوا وجاهدوا أرض برنوا من جهة اليمين، فوجه إليهم أمير برنوا جنوداً والله تعالى يردها عنهم، حتى أفنوا أكثر جنود أهل برنوا، واجتمعوا مع الماهر المختار، وكانوا يناسبونه. فتوفي الشيخ البخاري، فقام بالأمر كله في برنوا الماهر المختار، بايع له المجاهد الصادق حامد فأقبل في جهاد أهل برنوا حتى أخرج أمير برنوا من دار مملكته، وتوجه لكانم. وسكن المختار في الخصن. ثم رجع إليه أمير برنوا بمن استنفر هناك مرات، والله تعالى يردهم. ثم إنه لما جمع الناس الأموال ورجعوا لبلادهم، وتفقدوا عيالهم خلفوه في طائفة يسيرة. ولما رجع أمير برنوا هناك واستغاث بمن تخلف عنه، وفيهم الحاج الأمين بن محمد الكانمي، فهجموا على الطائفة، فاستشهدوهم فانتشر باقي الناس إلى ممتنع البلاد، ثم إنه لم يرعنا إلا وثيقة من الحاج الأمين، ونصها:

الحمد لله فاتح أبواب الهداية، ومانح أسباب السعادة، والصلاة والسلام على من بعث بالحنفية السحمة وعلى آله وأصحابه الذين هدوا وأوضحوا شرعه.

من المتعفر بتراب الذنوب، المتدثر بجلباب العيوب العبد الذليل محمد الأمين بن محمد الكانمي إلى العلماء الفلاتيين ورؤسائهم، السلام على من اتبع الهدى.

أما بعد، فالبعث لرسم هذا المزبور أنه لما ساقتني المقادير لهذا الإقليم، وجدت نار الفتن بينكم وبين أهل الوطن موقودة، فسألت عن السبب، فقيل: بغي، وقيل: سنة. وتحيرنا في الأمر فكتبت لإخوانكم المجاورين لنا وثيقة طلبت منهم بيان السبب والدليل على الجواز، فأجابوني بجواب ركيك لا يصدر عن عاقل فضلاً عن عالم، فضلاً عن مجدد، وعدوا فيه أسماء كتب لنا إطلاع على بعضها، لكن لم نفهم منها ما فهموه،و بينما نحن في حيرة التردد، هجم بعضهم على دار الإدارة، ونزل المهاجرون لنا قريباً منا

فكاتبناهم ثانياً، وناشدناهم لله والإسلام أن يكفوا عنا شرهم فامتنعوا، وصالوا علينا. فقمنا مدافعين عن أنفسنا، متبرئين إلى الله من سوء صنيعهم، حين ضاقت علينا الأرض، ولم نجد مقاماً ولا مجالاً، ووقع منا ما وقع. وحين وجدنا راحة، وفشا هذا - والله أعلم بالمستقبل - رأينا المكاتبة. وإن لم تنجع فكيم [فيكم؟] أحسن من السكوت.

فاعلموا أن العاقل يتلقى الكلام بقبول ليفهمه، فيجيب جواباً مستقيماً، فأخبرونا عن قتالكم لنا، واسترقاقكم أحرارنا.

إن قلتم: فعلنا ذلكم بكم لكفركم فإنا براء من الكفر، بعيدون عن ساحته. فإذا كان إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ومعرفة الله وصوم رمضان وعمارة المساجد كفراً، فما الإسلام؟

فهذه الأبنية التي أقمتم بها الجمعة، كنائس أم بيع أم بيوت نيران؟ وإن كانت من غير شعائر الإسلام، فلمَ صليتم بها حين ملكتم؟ هل ذلك إلا كلام متناقض؟

ومن أعظم حججكم على تكفير عامة المؤمنين، ركوب الأمراء لبعض المواطن، قصداً للصدقة بها، وكشف رؤوس الحرائر، وأخذ الرشوة، وأكل مال اليتيم، والجور في الحكم. وهذه الخمسة لا تبيح لكم هذا الفعل. أما ركوب الأمراء فبدعة شنيعة مذمومة وجب النهي عنها والإنكار على فاعلها، لكن لا يكفر فاعلها، إذ ليس أحد منهم يدعي أن لها تاثيراً أو يقصد بذلك إشراكاً، بل قصارى دعواهم لجهلهم أن الصدقة في هذه المواضع أحسن من غيرها، ومن مارس كتب الفقه ووقف على كل الأئمة في باب الحج حين تكلم على النهي عن الهدي للقبور والذبح عندها، علم مصداق ما قلناه.

وهذه دمياط مدينة عظيمة من مدائن الإسلام، وهي بين مصر والشام، وذلك موضع العلم والإسلام، وبأرضها شجرة تفعل العامة مثل فعل الأعاجم، ولم يقم أحد من العلماء لقتالهم، ولا قال أحد بكفرهم. وأما كشف الرأس فحرام أيضاً، ورد القرآن بالنهي عنه، لكن لا تكفر فاعلته، لأن التكذيب يؤدي إلى الكفر، وأما عدم الفعل مع التصديق فمعصية تجب التوبة على الفور منها، ألا ترى أن الحرة إذا صلت مكشوفة الرأس وخرج الوقت لا إعادة عليها عند القائل به، كما هو معلوم في كتب الفقه، وكيف تصح الصلاة من كافرة؟

وكذا أخذ الرشوة وأخذ مال اليتيم والجور في الحكم. وكل ذلك من الكبائر التي نهى الله عنها، لكن لا يكفر أحد بعد أن استقر إيمانه بذنب، فلو أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر وأعزلتم الناس حين لم ينتهوا، لكان أحسن من هذا القتل، إذ الأمر

والنهي متوقف على شروط: منها ألا يؤدي إلى ما هو أعظم منه، وهذا نهيكم قد ورطكم وأدخل عليكم وعلى المسلمين ضرراً دنيوياً وأخروياً، أليس الخروج على الملك بعد انعقاد البيعة حراماً عند جميع أهل السنة، وإن طرأ منه فسق، وتلك المسالة أوضح من شمس الظهيرة، ولكن لا حول ولا قوة إلا بالله العي العظيم.

فما سر قلة التأمل؟ أكثر من أن يحيط بها نطاق البيان.

سلمنا تسليماً جدليًا أن تلك الأفعال مكفرة صاحبها، فكيف يسري لغيره، وقد قال تعالى: "ولا تزر وازرة وزر أخرى". وقال: "من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها"، إلى غير ذلك من الآي.

سلمنا تسليماً جدلياً أن الكفر يسري للغير، لكن يلزم من ذلك إبطال الشريعة، وكفر جميع الأمة والعياذ بالله تعالى، إذ ما من زمن إلا وفيه في جميع البلدان من الفسق والمعاصي ما لا ينحصر كثرة. فهذه مصر مثل برنوا وأعظم منها، وكذلك الشام وجميع مدن الإسلام، فبهن الرشوة والجور وأكل مال اليتيم والظلم والبدع من زمن بني أمية إلى يومنا هذا، ولا يخلو زمن ولا بلد من نصيب من البدع والمعاصي، فلو كفر الجميع بطل تواليفهم، فكيف تستدلون بأقوالهم وهم كفرة على ما يقتضيه قولكم، والعياذ بالله من الخبط في الدين، ومن اتباع النظر الفاسد.

نعم رأينا منكم ما ينكره كل موفق، وذلك إهانتكم للكتب برميها في الطرق وفي المواضع المستقذرة - وفيها اسم الله تعالى. وتعلمون أن من ألقى آية من القرآن في موضع مستقذر كفر، والعياذ بالله! وكذلك رأينا من بعضكم من يعاهدون ويؤكدون الإيمان، ثم ينقضونها بعد توكيدها، بقتل الرجال واسترقاق النساء والأبناء، فيا عجباً منكم بعد أن كانت لكم التقدمة في العلم والدين، أحببتم الملك ورغبتم فيه وسولت لكم نفوسكم، وتخيلتم ما تخيلتم، واستدللتم بظواهر لا تنهض لكم دليلاً، لا سيما وقد سمعنا من سير الشيخ عثمان بن فودي ورأينا في تآليفه ما يخالف فعلكم.

فإن كان هذا الأمر صدر من بخله فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. لقد كنا ظننا به جميلاً، والآن - كما قال القائل - إنا نحب الشيخ والحق ما اتفقا، فإذا ما اختلفا كان الحق أولى، أعاذنا الله من أن نكون ممن قال الله تعالى فيهم: "هم ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً"، وأن نكون ممن قال الله تعالى فيهم: "فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون". والسلام

فلما ورد علينا الكتاب أجاب عنه العم الأستاذ عبد الله بجواب مقنع، وأجبته

عنه، ونص الجواب مني:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ذي الحجة البالغة والكلم النافذة الصادعة بالحق الماحقة للباطل الدامغة. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أمر بالمعروف ونهى عن المكنر والبغي، شهادة قاطعة شموسها بازغة، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وينصره على ذوي الأهواء الزائغة، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه ذوي العلوم البارعة النافعة.

من العبد الفقير لرحمة ربه القدير محمد بل نجل أمير المؤمنين عثمان ابن فودي، وفقه الله لرضاه وأذاقه حلاوة تقواه.

أما بعد، فقد وصلت إلينا رسالة من شيخ كانمي، لست خلون من شعبان: أنه يسأل عن سبب قتال أهل الجماعة لأهل البلدان، واسترقاق أحرارهم وذكر فيها أنه كانت في ذلك بعض المجاورين لهم من الفلاتيين، فأجابوه بجواب ركيك، لا يصدر عن عاقل فضلاً عن عالم فضلاً عن مجدد، وذكروا له في الجواب كتباً سموها، له إطلاع على بعضها، لكنه لم يفهم منها ما فهموه. فبينما هو في حيرة التردد، هجم بعض الفلاتيين على دار الإمارة، ونزل المجاهدون لهم قريباً منهم. فكاتبوهم ثانياً، وناشدوهم الله والإسلام أن يكفوا عنهم شرهم فامتنعوا، وصالوا عليهم. فحينئذ قاموا دافعين عن أنفسهم متبرئين إلى الله من سوء صنيع أولئك حين ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فوقع منهم ما وقع. ثم ذكر بعد ذلك مناقضاته لهم وأقام على ذلك حججه وبراهينه. وفهمنا من مضمون فحوى خطابه، بل من صريح كلامه، أنه استند بما سمع من أولئك في تضليل سائر الجماعة وعلمائهم، وتوصل بذلك إلى التشنيع عليهم، مع أنه لم يدرك حقيقة الأمر، ولم يقف على كنهه، وإنما تبلغه أخبار ممن لا يحسن أداءها، فعلمنا أنه إما جاهل أو معاند، إذ لو كان من أهل المعرفة ما ساغ له أن يحمل الكل على الضلال، لما يسمع من جواب صدر من بعض الأتباع، الذين لم يمارسوا العلوم، بل يجتهد في طلب الحق، ويكاتب جميع من يظن به العلم والدين منهم، حتى إذا استقصى جميع ما عندهم من الأجوبة والمقالات، فحينئذ يضعها على ميزان لسان العلم الذي عنده، فإن قبله وظهر له أنه حق اتبعه، وإلا رجع إلى التأويل والتماس المخرج ما أمكن، ووقف عن العمل به، "ولا يقف ما ليس لك به علم". ثم إنه إذا تعذر التأويل، فحينئذ يقوم إلى إرشادهم بما يغلب على ظنه أنه يصلحهم بالقول والمناظرة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإن تعسر بالقول فشأنه بهم.

وأما قولنا: أو معاند - فهو أنه يعرف الحق وطرقه، وأن جواب هؤلاء لا يسوغ

تضليل الجماعة كلها، حتى يسري في تعييبه إلى إمامه الذي انتشر في الآفاق محاسن سيره، وإنما حمله على ذلك التعصب والحمية الجاهلية، عياذاً بالله، فنقول، وبالله التوفيق، لو لا ما قال المولى جل وعلا: "وإذا حييتم بتحية" وما قاله رسوله المصطفى فيما رواه البيهقي وغيره، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن للكتاب حق رد الجواب كرد السلام - لما جاوبناه بنت شفة، بل نخليه بينه وبين أمثاله يتطاولون كما قال القائل:

فذاك كالعير لا يسعي تناظره   دع الحمير على أمثالها تصل

واعلم أيها الكانمي أولاً: أنا ما حاربنا الناس بما أجابوك أصلاً، وإنما حاربناهم دفعاً عن أنفسنا وديننا وأهلينا، لما آدونا واستفزونا وطلبوا منا أن نعود إلى ما لا يحل لنا، وقد بين لنا الشيخ الحق ورأيناه واتبعناه، فأغروا بنا سفهاءهم يؤذوننا وينهبون أموالنا ويقطعون طرقنا ونحن نجتهد في إصلاح ديننا، وننشر ما عندنا من العلم وإرشاد من وصل إلينا، وهذا دأبنا ودأبهم، فلما رأونا أنا لا ننتهي عما نحن فيه ولا نزداد إلا حسناً وابتهاجاً، ولا يزال عوام الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، غاظهم ذلك، فأجمعوا كيدهم على نصب القتال بينا وبينهم، ولا يشكون أن الدولة لهم، لما يرون من ضعفنا عن المقاتلة، فلم يرعنا إلا إنذار من أمير غوبر نافات بثلاثة أمور:

أنه لم يقض لأحد أن يعظ الناس إلا الشيخ وحده، ولم يرض لأحد بالإسلام إلا وارثه من آبائه، ومن لم يرث الإسلام فليعد إلى ما عليه آباؤه وأجداده، وألا يتعمم أحد بعد اليوم، ولا تضرب امرأة بخمارها على جيبها. وهذا إنذاره في الأسواق. كل ذلك سعى منه في مكيدة علينا. فكفانا الله شره وضيرة وصرف عنا كيده ومكره، فأتاح الله له الموت بعد ذلك عن قريب.

ولما ولي ابنه ينف شمر عن ساق الجد والاجتهاد على ذلك، حتى غزا قرية عظيمة من قرى الإسلام، على حين غفلة من أهلها، فقتلوا ما شاء الله من فقهائها وقرائها في نهار رمضان وهم صائمون، ونهبوا أموالهم، وأسروا ذراريهم، وجعلوا يفترشون الكتب والمصاحف ويحتطبون الألواح يوقدون بها، ويستهزئون بأهل الإسلام، ويقولوون لهم: "إيتونا بما تعدوننا إن كنتم صادقين". ثم جعلوا يعرضون لقرية الشيخ، حتى أرسل أميرهم إلى الشيخ أن ينحاز بأهله وإخوانه وأبنائه، فإنه يريد أن يهجم على القرية، فأبى عليه إلا أن يهاجر بجماعته. فهاجر بها إلى موضع يقال له غذ، فلما وصل بها جعل الناس ممن آثروا الإسلام يهاجرون إليه إرسالاً، والكفرة تتعرض لهم وتقطع عليهم سبلهم بأمر أميرهم. ثم جعل بعد ذلك يرسل إلينا بالسرايا والغارات، والشيخ يكاتبهم، فأبوا عليه، مع أن الأمير يتأهب إلينا. فلما وصل إلينا

هزمه الله، وشتت شمله، فنجا بنفسه. فلما رجع إلى داره أرسل إلى إخوانه أمير كاشنة، وأمير كنوا، وأمير زكزك، وأمير دورا، وأمير أهير، ينذرهم بأنه أهمل نويرة شبت في بلده، حتى انتشرت فوق طاقته وغلبته أن يطفئها حتى أغرقته، فليحذر كل أن يصاب في بلدته بمثل ما أصيب هو به. فقام كل واحد منهم على من ينتسبون إلى الشيخ يقتل ويأسر، ففروا في البلاد عباديد، يأوي بعضهم إلى بعض، حتى صاروا جماعات. فجعلوا يدافعون عن أنفسهم حتى صار الأمر إلى ما صار إليه في تلك البلاد. وهذا ما نعرف عندنا في بلادنا حقيقة. وأما في بلادكم فليس عندنا علم ما أوقد المحاربة فيها، إلا أنه قدم علينا في بعض الأعوام الماضية رجل يقال له آدم الحاج، وزعم أنه أرسله إمام برنوا أحمد بن علي إلى الشيخ يسأله عن سبب هذا الأمر، وأن يمنع الشيخ الفلاتيين من الهجرة عليه من بلده، وأنه أمير المؤمنين، فأمرني الشيخ بكتب الرسالة، فكتبت إليه ما هو السبب، وبينت له أحوال أمراء حوس. وأنهم كفار، وأن مظاهرتهم من مسلم ارتداد، وكتبت إلى الفلاتيين الذين في بلده، ما يقتضي المواصلة بينهم وبين أمير برنوا، ويوجب الموافقة ويمنع المخالفة.

فلما رحل من عندنا الرسول ومضى لسبيله راجعاً لم نلبث إلا قليلاً بلغني أنه بلغ وأن أمير برنوا قتله في معسكره في توجهه إلى ابن عبدور، والله أعلم بحقيقة الحال.

ثم نرجع الآن إلى الإجابة عنا في تشنعك علينا بجوار أمثالك، مع ما دسست في ذلك من مغالطاتكم، وقد سبق في قلبك ما سبق، فأنقضها عروة عروة، فلله الحمد في الآخرة والأولى. فأما الإجابة عنا فيما شنعت علينا بجواب من قال لك: أنا نجاهد أهل برنوا وغيرهم بالكفر، وأستمسك في تكفيرهم بركوب الأمراء لبعض المواطن قصداً للصدقة بها، وانكشاف الحرائر وأخذ الرشوة وأكل مال اليتيم والجور في الحكم - فمعلوم أن المعتمد عند تكفير فرق النحل: من قدرية وجبرية وغيرهم، ما خلا المجسمة ومنكري علم الله بالجزئيات. وهذا في أهل الإيمان، فكيف بما تقرر "عند كل" أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب، يا عجباً منك! كيف تقر لنا بالتقدمة في العلم والدين، ثم تشنع علينا بجهل أشباه هذا! فكلامك هذا متناقض ويا عجباً! كيف يقال: أنا نقاتل الناس لهذه الخمس، ففي تعمل عندنا الآن كثيراً، فلو عليها نقاتل ما منعنا أن نقاتل عامليها عندنا! ويا عجباً منك لو كنا نكفر عامة المؤمنين لم نتخذ مساجدهم لنا مساجد كما زعمت فكلامك هذا متناقض.

ثانياً، ويا عجباه منك! كيف يقال: أنا نكفر عامة المؤمنين بهذه الخمس، ونحن

نفك كل ما ثبت إسلامه عندنا، ونطلقه ونخلي سبيله، كما هو معلوم عندنا، فلم يبق إلا أن جميع ما ذكرته فينا مغالطات مشاغبات، اتخذتها ذريعة إلى الجرح والقدح على المسلمين، وسولت لك نفسك وخيلت أن ذلك يستقيم لك حجة في مذهبك الفاسد. وهيهات ذلك، إنما سبق في قلبك ما سبق، وكاتبت أمثالك فسمعت منهم مقالات غير لائقة، إما لقصور بيانهم عن الحقيقة، أو لسوء فهمك، والله تعالى أعلم، وإليه ترجع الأمور.

وأما دعواك أن نهينا عن المنكر أدى إلى منكر أكبر، فليس الأمر كذلك، فمعلوم بالضرورة عندنا أنا لم يتعرض لنهي الملوك عن عوائدهم المخالفة للشرق، وإنما نرشد من آتانا يطلب من يدله على الطريق، والملوك هم الذين بدؤونا بالنهي عن ديننا والمحاربة، وضيقوا علينا كما ذكرت آنفاً.

وأما ادعاؤك أن هذا الأمر والنهي أدانا إلى ما يضر بديننا، وهو الخروج على الإمام بعد البيعة، وقد ثبت عند كل حرمته، وإن طرأ عليه فسق، فإن كان كلامك هذا يتناول ملوك بلادنا هذه فلا عبرة به، كما ثبت عندنا من كفرهم بجهل الأصول والذبح للأحجار والأشجار وإنكار البعث والنشور، هذا ما نعرفه في بلادنا هذه. وأما في بلادكم فليس لنا علم بأحوال أئمتها وسلاطينها، إلا أنه إذا كان فيها قيام أميركم على إذابة المجاوريين لكم من الفلانيين الذين لهم الاقتداء بالشيخ، حتى الجأتموهم إلى الهجرة، تعصباً لملوك حوس ونصرة لهم، ومعلوم أن الكافرين بعضهم أولياء بعض، كما أن المؤمنين كذلك - علمنا بالضرورة أنه حينئذ راض بدينهم، حين قام يواليهم دون المؤمنين، ويظاهرهم عليهم، ولا جرم أن الرضا بالكفر كفر - فعلى الحازم أن يفر منه إذ ذاك بدينه،. ثم لا أعظم منك جهلاً حيث أضفت إلينا لازم أقوال لم نقلها. وإنما صدرت عن بعض من لا يحسن التعبير عما عندنا، وذكروا لك الحق على وجهه، فجاء الخلل من سوء فهمك، كيف يمكن تكفير جميع الأمة وعلمائها والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: لا تجتمع أمتي على ضلالة، وتضافرت الأحاديث على هذا المعنى، ويحك أن كفرنا جميع الأمة وعلماءها كما زعمت، فكيف نستدل بأقوالهم.

ثالثاً كلامك هذا متناقض. لا يصدر عن عاقل فلم يبق إلا أنك مغلط لنا مشاغب، وإنما سبق في قلبك ما سبق.

سلمنا أن قائل هذا الجواب يلزمه ما عددت عليه، ألم تعلم أن لازم المذهب ليس بمذهب عند المحققين كما قدمنا.

وأما قولك: رأينا منكم الخ، فاعلم أيها الكانمي أني شهدت بعض الوقائع، ففتح

حصن من حصون كاشن، فركبت لأنظر حاله، فرأيت الورقات تتطاير وتقع في المواضع المستقذرة، فسعيت جهدي في إخلاصها فلم أقدر لكثرتها، فرجعت ولم أقض حاجتي، فظللت يومي واجماً. ثم جمعت الناس وبحثت عن فاعل ذلك لأزجرهم، فلم يتفق لي علم بأحد صدر منه ذلك. فشاورت ذوي الرأي فيه، فقالوا: إن سبب ذلك اتفاقي لا يقصد فعله أحد، وإنما يكون عند المناهبة والمجاذبة للأمتعة، فتنحل الربط أو تنقطع، ثم تنتشر القراطيس وتطيش، فلا يختلج في خاطرك أن ذلك يكون من أهل الدين منا، أو برضى منهم، والعياذ بالله. اللهم إلا أن يكون ذلك الإلقاء - إن كان من السفهاء السفلة، ولو أطلعنا على من يلقي الورقات في المزابل والطرقات من السفهاء لأوجعناهم وأخذناهم بأشد تأديب. فإن كان بهم تعيرنا فانظر إلى بني إسرائيل، فقد عبدوا العجل، وقال بعضهم لموسى: أرنا الله جهرة، إلى غير ذلك، فيلزمك إذ ذاك تنقيص الرسل بأتباعهم، والعياذ بالله! وهكذا القول في نقض العهود والمواثيق فإن ذلك لا يصدر إلا من السفلة الذين لا يعرفون قدر العهد والميثاق وحفظ الأمانة وأن الغادر ينصب له لواء غدره يوم القيامة، وإن الشافع المشفع هو خصيم من غدر في ذمته.

وأما قولك: فيا عجباً منكم بعد أن كانت لكم التقدمة الح، فهو كلام متناقض، لا يتكلم به عاقل، كيف تشهد لنا بالعلم والدين، ثم تنسب إلينا الجهل والفسوق؟ أحين أحبنا الملك انتزع العلم منا والدين؟ حتى رجعنا إلى تسويلات النفوس وتخييلاتها، واستدللنا بظواهر لا تقوم حجة، أم عرفنا الحق، ثم نبذناه، اتبعنا التسويلات والتخيلات بدله؟ فإن قلت: انتزع منكم العلم والدين وانعكس بكم الحال فكيف أنت والحديث: إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه - الحديث.

فإن قلت: قد عرفتم الحق ونبذتموه ورجعتم إلى ما رجعتم إليه مما ذكر، قلنا: فأنتم إذاً من باب أحرى، إذ شهدت لنا بالتقدم في العلم والدين وإنما نبذناهم حين أحبنا الملك، وإذا كنا كذلك فأنتم لنبذهما أحرى، ومن لباس العلم والتقوى أعرى.

وأما قولك: فإن كان هذا صدر عن رأيه فكلام غلطه ظاهر، فكيف نبادر إلى أساءة الظن بمن فاضت محاسن سيره في جميع الأقطار، فاستطلق بالثناء عليه ألسنة العوام والخواص أولى الأبصار. فكيف تأخذنا بشيء سمعته من بعض مجاوريك الذين لا يكاد يبلغهم من خبره إلا آحاد الأخبار، فكيف يؤخذ بما صدر منهم؟ فكفى به غلطاً، أم كيف تستدل بقوله تعالى: "ولا تزر وازرة وزر أخرى" وقوله تعالى "من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها" ثم تأخذنا بعد ذلك بشيء بلغك من بعض مجاوريكم، ولعلهم ممن لا يحسن التعبير عن حقائق الأمور، أم هم يحسنون ولكن أعرضوا عنك

من إلحادك فذكروا لك ما ذكروا، فكلامك هذا متناقض رابعاً - هيهات هيهات لما تظنون، ونعوذ بالله أن نرد على أعقابنا بعد أن هدانا الله، "هذا بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليه وما أنا عليكم بحفيظ"، والسلام.

ثم أجبته بجواب آخر، ونصه:

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى. أما بعد، فمن محمد بل نجل أمير المؤمنين عثمان بن فودي إلى الحاج الأمين جواباً لما ورد من سؤاله. أما قولك: فأخبروني عن قتالكم لنا واسترقاقكم أحرارنا... إلى كلام متناقض، فالجواب - والله الموفق للصوال - اعلم أن سبب قتالنا لكم فلأنكم واليتم كفار حوس دوننا بغير تقية منهم، وتعلمون أن من والى الكفار دون المؤمنين بغير تقية فهو مثلهم، كتاباً وسنة وإجماعاً، ولقيامكم أيضاً على إذاية المجاورين لكم من الجماعة حتى ألجأتموهم إلى الهجرة، وبدأتموهم بالمقاتلة، تعصباً لملوك حوس ونصرة لهم، ولا يخفى أنه ما أقمتم لمظاهرتهم على المؤمنين إلا لرضاكم بدينهم، ولا جرم أن الرضا بالكفر كفر، وتعلمون على هذا أن معرفة الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وعمارة المساجد ولا يمنع من قتالكم، ولا ينفعكم في الدنيا والآخرة، لثبوت ارتدادكم، إن كان سبق لكم الإسلام الصحيح. فإذا لم يكن موالاة في الدين يصار إليه في العقليات ولا الشرعيات حينئذ.

وأما قولك: واسترقاقكم أحرارنا، فلما علم من الخلاف في استرقاق المرتدين، انظر أجورة "المغيلي" لأسئلة أسكيا الحاج محمد، والنوازل للبرزلي، تجد ذلك.

وأما قولك من أعظم حججكم.. إلى ولا قال أحد بكفرهم، فلا نسلم دعواك أنهم ما يريدون بذلك إشراكاً، فإذا لم يكن الذبح للأحجار والأشجار كفراً وإشراكاً ضرورة، فما الشرك؟ والعتر والنصب والأصنام والأزلام - كفى بهذا غلطاً.

وأما قولك ومن مارس كتب الفقه.. إلى آخر الكلام، فجهل منك صريح، فذلك إنما هو لمن أهدى للفقراء والخدم لحضرة القبور صدقة عليهم، أو لأصحاب القبور لا تعود عليهم بركاتهم، لا لمن قصد الذبح للقبر نفسه، فإذا لم يكن الذبح للقبور نفسها إشراكاً فما الإشراك؟ وأما قولك: هذه دمياط.. إلى آخر الكلام، فلا نسلم أن العلماء لم يتعرضوا لقتالهم، ولم يقولوا بكفرهم، فهذا عبد الرحمن بن يوسف الشريف تعرض للشجرة التي بسجلماسة فقطعها، وقال: إنها مثل ذات أنواط، وتعلم أن ذا أنواط من الأوثان في الجاهلية.

وقال الحسن اليوسي: وبقرب "تاغية" مقام الشيخ ابن يعزي شجرة أخرى من

هذا المعنى، وغرس من أحجار، وكان ذلك حقيقياً بالإزالة، غير أن العالم سيفه لسانه، وما وراء ذلك فإنما هو لأولي الأمر، ممن به قدرة على الأمر. انظر المحاضرات.

وأما قولك: وأما كشف الرأس.. إلى "بذنب"، فلا نسلم أن أحداً قال بالتكفير بالمعاصي، فإنما ذلك مغالطة منك ومشاغبة وزور وبهتان علينا، فالله حسيبك.

وأما قولك: فلو أمرتم.. إلى أخروياً، فلا نسلم أنا جاوزنا الحدود في شروط الأمر والنهي، بل وقفنا عند الشروط كما ينبغي. فالمقاتلة الحادثة فيما بين ذلك إنما هو من اعتدائكم علينا، فإنا لم نتعرض لنهي الملوك عن عوائدهم المخالفة للشرع، فهم الذين بدؤونا بالنهي عن الدين، وألجأونا إلى الهجرة، وبدأونا بالمقاتلة، "فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون".

وأما قولك: أدخل عليك وعلى المسلمين.. الخ، فلا نسلم أن ذلك أدخل ضرراً، فإنه معلوم عندنا بالضرورة أنه إنما أدخل خيراً كثيراً علينا وعلى المسلمين وأورثهم أرضكم ودياركم وأموالكم، وكفاهم شركم وكيدكم، وهم اليوم في صلاح دين ودنيا، والحمد لله على ذلك.

وأما قولك: سلمنا.. إلى النظر الفاسد - فكلام زور وبهتان ومشاغبة، فمن قال منا بالتكفير بالمعاصي يلتزمه ماعددت عليه، هذه جرأة منكم وتسلط في أعراض المسلمين، "وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم".

وأما قولك: رأينا منكم الكلام.. إلى الإبقاء، فمشاغبة ومغلطة، وتعلم أن هذه الأفعال لا يمكن أن تكون من الأخيار، وإنما تكون - إن كانت - من السفهاء منا، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: "الجهاد ماض، لا ينقصه جور من جار".

وأما قولك: يا عجباً... إلى فعلكم، فكلام مختلط، أو كلام من تخبطه الشيطان من المس، تشهد لنا بالخير، ثم تشهد لنا بالشر، كفى بهذا خبالاً وخبطاً، وكيف تقول: إننا أحببنا الملك،وتعلم أن الحب من أفعال القلوب؟ فهل شققت قلوبنا، فرأيت ما فيها، أم اطلعت على الغيب؟ كفى بهذا منك زوراً وكذباً. وهكذا قولك في الشيخ عثمان بن فودي: شهدت له بالخير، ثم ألممت إليه بالشر، خبطاً منك وخبالاً في قلبك، كفى بهذا منك نقيصة.

فاعلم يا كانمي أننا براء من جميع ما رميتنا به، راجعون إلى الله تعالى مما ألممت به إلينا، والله المستعان على ما تصفون، والسلام.

ثم قام الفقيه إبراهيم ذادا وجاهد حتى غزا أمير برنو وأخرجه من الحصن إلى كانم، ولقي الحاج الأمين، وقد نفر بالجند فاستقبلوا إبراهيم زادا فوجدوه قد كر راجعاً

فتبعوه إلى داره، فوافوه وقد انتشر الناس فنالوا منه ما نالوا، ثم كروا راجعين. ثم أقبل محمد منغ بن الماهر المختار على غزو برنو هو وأهل "علو".

ولما رجع الكانمي غزا أهل علو ولم ينجح فيهم فهزموه بعض هزيمة، ثم نهض محمد منغ فأخرج أمير برنو عن داره بعد ما رجع، وهرب لكانم، ثم إنه قام الحاج الأمين، ونفر بالجند إلى علو فأغاروا، وانحاز محمد منغ وأهل سيكو ولم يلق كيداً فرجع.

ثم إنه رجع أمير برنو لداره، فقام محمد منغ فأخرجه من داره، فهرب لكانم، فقام الأمير الكانمي ونفر بالجند حتى وصل دماتر وجاوز، وقد وجدهم انحازوا وجرى بينهم وبين الجماعة قتال فلم يك كبيراً، وكروا راجعين ولم يلقوا كيداً، وكنت أكاتبهم كل عام وأطلب منهم أن نصالح فتضيع الوثائق فيما بين ذلك، ولم يبلغهم إلا وثيقة واحدة. وكان في أثناء ذلك ورد علينا من الحاج الأمين كتاب، سمح فيه بعض المسامحة، جواباً لوثيقة أخينا غوادير ليم الذي بعث به إليه يطلب منه أن يصالح بينهم وبين الجماعة، فلما ورد علينا كتابه أجبته ولكن لم يصل إليه - على ما بلغنا. ونص الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الذي ألف بين قلوب المؤمنين، وأمرهم بموالاة بعضهم بعضاً، ونهى عن موالاتهم للكافرين، والصلاة والسلام على من آخى بين الأنصار والمهاجرين، وعلى آله وأصحابه الذين هم أشداء على الكفار رحماء بينهم، أذلة على المؤمنين وأعزة على الكافرين والفاجرين، وعلى الذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذي سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم.

من الفقير إلى مولاه الغني: محمد بلو نجل أمير المؤمنين عثمان بن فودي إلى الحاج الأمين بن محمد الكانمي، يقرأ عليه السلام.

أما بعد فإذا كان المولى جل وعلا لطف بك، ونظرت إلينا بعين الإنصاف، وبدا لك أن نترك المجادلة في الدين إلا بالتي هي أحسن وأحب، والكف عن التعصب أسلم للعواقب، لأنه يؤدي إلى اتساع الخرق وامتداد الفتق، ويوجب إنكار الحق جملة، لأن الجدال في الدين دغل، والتعصب فيه خطر ودخل، إلا أن يكون بإظهار الحق باللين والرفق، وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين. ولذلك اقتصرنا على الإجابة عنا في نقض عري الجدال الصادر منك خاصة، فأضربنا عن ذكر ما عندنا صفحاً، خوفاً من التعرض لما ذكر، وإذا حققنا أنا معذورون فيما نحن فيه، إذ الدفع عن الدين والنفس والأهل والمال واجب عند جميع أهل الملل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كذلك، فينبغي لك أن تنظر إلى

المجاورين لكم من الجماعة بعين الإنصاف كذلك، لأنك ذكرت في كتابك الأول أنك لما ساقتك المقادير إلى إقليم برنوا وجدت هذه النار موقدة فسألت عن السبب فقيل: بغي، وقيل سنة. وتحيرت في الأمر، فاللائق أن تتبين هذا الأمر وتثبت فيه حتى تقف على العلم بالسبب، ولعلهم كانوا معذورين كما كنا.

أما قولك: وإنما كلامنا في أرض برنو وأهلها، إذ هي مدينة من مدائن الإسلام، وسلطانها معدود من كبار سلاطين المسلمين... إلى ولا حاجة به - فاعلم أنا ذكرنا لك في كتابنا الأول أنه ليس عندنا علم حقيقة أئمتها وسلاطينها، لكن يبلغنا الأخبار عنها بما هو أكثر مما ذكرت فيهم، وهل هم باقون على ما يؤثر عن أوائلهم أم غيروا، كما هو المعهود في أذناب الدول، والله أعلم.

فإن قلت: إنهم باقون على الإسلام، ولم يداخلهم خلل يناقضه إلى الآن، فذاك إليك، والعهدة عليك.

وأما قولك: اعلم أيها الأخ أن الذي مات فات والصلح بين المسلمين خير، وفي السعي في ذلك أجر عظيم، ولا يكون الصلح إلا بأن تتحمل أمراً وأتحمل أمراً الخ - فاعلم يا أخي أن الذي أشرت إليه أمر سديد، ورأي رشيد، ويمكن نفوذه كما ذكر، ولكن أيها الأخ ينبغي لنا ولك أن نسعى في هذا الصلح، ولا نريد فيه إلا الخير والإصلاح، ولا نقيده بقيد ما، ولا نعلقه على شرط، بل امتثالاً لقوله تعالى: "واتقو الله واصلحوا ذات بينكم"، وقوله: "وإن طائفتان من المؤمنين أقتتلوا فأصلحوا بينهما" الآية وأمثالهما. ونعتمد فيما نسعى إليه أن يوفقنا الله إلى ما فيه رضاه، وما يكون لنا ولكم مصلحة، قال تعالى: "إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما".

وتعلم أيها الأخ أن ما ذكرته من أن منازعته غير جائزة شرعاً - مغالطة، فأين تجد اليوم من الأمراء الأقدمين من استكمل الشروط، وتمسك بالكتاب والسنة، واشترط لرعيته طاعته على طاعته لهما، حتى لا يجوز الخروج منه والحروب، ولذلك قدمنا أولاً أن نأخذ في الإصلاح وحقن الدماء وحفظ الأموال وعصمة الأعراض، نابذين في ذلك لكل قيد، ربما كان سبباً لسد باب الخير، إن نريد إلا الإصلاح ما استطعنا.

هذا، وأنا نضرع إلى الله أن يأخذ بأيدينا وأيديكم ويسلك بنا الصراط المستقيم ويوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه ويؤلف بيننا وبينكم ويجعل بيننا وبينكم مودة ورحمة ويغفر لنا ولكم، إن ذلك على الله يسير، "وما ذلك على الله بعزيز"، والله على كل شيء قدير، والسلام.

فسار بهذه الوثيقة بريدنا، فضاع فيما بيننا وبينهم، ولم نزل هكذا، كلما كتبنا إليهم لا تصل إليهم وثائقنا، فحينئذ تجشمت في إنفاذ البريد إليهم. وكتبنا إليهم ما يقتضي المواصلة بيننا وبينهم، وطلبنا منهم الموادعة والمتاركة، وبينا لهم حقيقة أمرنا، وقبل وصول بريدنا إليهم ورد علينا من الحاج الأمين كتاب آخر، فيه من الجدال والتعصب ما فيه، فأجبته، ونص الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على من لا نبي بعده، الحمد لله اذي حفظ دين الإسلام بإحكام آياته للمؤمنين المسترشدين، ونسخ ما يلقي الشيطان في قلوب مواليهم الظالمين الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم المشركين، وضمن حفظ القرآن لما اشتمل عليه من الشرائع بقوله: "إنا نحن نزلنا الذكر وإن له لحافظون". والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين، القائل: يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تخريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فمن محمد بلو نجل أمير المؤمنين عثمان بن فودي إلى الحاج الأمين بن محمد الكانمي، يقرأ عليه السلام، ويحييه بأطيب كلام.

أما بعد، فقد وقفنا على كتابك الذي كتبت إلى مجاوريكم من الجماعة، لتستبين الحق والحقيقة، وتأملنا حق التأمل، وفهمنا منه ما انتهى إليه فهمنا وحاصل ما فيه: أنك طلبت منا امتثال قوله تعالى: "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما". ثم استدللت في الشأن بما استدللت به، وشرطت في ذلك ما شرطت في وقوع الصلح، حتى يخرج المهدي - إن كان - أو ينزل عيسى عليه السلام، وأكدت الاحتجاج بما أكدت، ثم رشحت الكلام بما ذكرت في بلادنا هذه، وما نويت بعد وقوع الصلح، ورشحت بما ذكرت فيّ وما ساءك مني، ومما أنكرت على محمد الدليل.

فاعلم أيها الأخ إذا كان المولى لطف بك، ونظرت إلينا بعين الإنصاف، فاللائق بك أن تلقي هذه المغالطات والمشاغبات التي أكثرها حجج داحضة، وغالب قضياتها مزورة علينا باطلة، فاللائق الإعراض عن إجابتها، ولكن حملني على الإجابة قوة الشفقة على جهلة الطلبة، كيلا يغتروا بكثرة الصخب والشغب، فيظنوا أنك على دليل في هذا المذهب، وليس قصده الصيال ولا الجدال.

هذا لتعلم أولاً أنا ما ساغ لنا الأذن لمجاوريكم من الجماعة في قتال برنو إلا لما تواتر من الأخبار، وتضافر منها ممن خالطوهم وعرفوا أحوالهم، أنهم يذبحون للأحجار والأشجار ويعملون للبحر كما كانت القبط تفعل للنيل أيام الجاهلية، وأن لهم بيوتاً معظمة فيها أصنامهم، ولها سدنة، ورأينا مقتضى ذلك في كتابك الأول، حيث

قلت: ومن أعظم حججكم على تكفير عامة المؤمنين ركوب الأمراء لبعض المواطن قصداً للصدقة، ثم تأولت أنهم لا يريدون بها الإشراك، ولا يعتقدون فيها التأثير، وإنما قصارى دعواهم أن الصدقة أفضل من غيرها. ولا يخفى على كل من له أدنى بصيرة أن هذه الدعوى لا عبرة بها، لأن الحكم منوط بالظاهر، والله يتولى السرائر، فمن رأيناه ذبح للأحجار كفرناه بقطع، ووجود هذه الأمور من جملة ما كفرنا به أهل برنو لأنه ما بعث أمير برنو - على ما بلغنا - على إذاية المجاورين لكم من الجماعة المنتسبين إلى الشيخ، حتى ألجأهم إلى الهجرة، وبدأهم بالمقاتلة، إلا التعصب لملوك حوس ونصرتهم، ولا يخفي أنه ما نهض لنصرتهم إلا لرضاه بدينهم، ولا جرم أن الرضا بالكفر كفر، وقتالنا إياهم سائغ، إذ جهاد الكفار على كل من قدر فرض، وقد تبين بما ذكرناه على أمير برنوا أنه علم على كفره، وتعلمون أن حكم البلد حكم سلطانها، فإن كان مسلماً كان البلد دار إسلام، وإن كان كافراً كان البلد دار كفر، ولا ينكر هذا إلا جاهل بأقوال العلماء، وإذا تقرر ما ذكرنا فاعلم أن المسلمين المقيمين بدار الحرب على ثلاثة أقسام: قسم خالطوهم وتولوهم، ورضوا بما هم فيه، فهؤلاء كفار مرتدون مثلهم بإجماع، وليس في هذا نزاع، وقسم ساكنوهم اختياراً لكن غير راضين بفعلهم وإنما حبسهم معهم غرض دنيوي، فهؤلاء فساق بإجماع، وليس في ذلك نزاع، فإذا غزا المسلمون دار الحرب وعثروا عليهم، وقبضوا خلي سبيلهم هم وذراريهم اتفاقاً. أما أموالهم ففي ردها لهم وجعلها في الفيء خلاف تقرر في علم الفقه، وقسم ساكنوهم اضطراراً، فهؤلاء ليس بهم بأس، فإذا عثر عليهم وقبضوا خلي سبيلهم هم وذراريهم اتفاقاً، ورد إليه أموالهم اتفاقاً.

هذا ما نعرف في هذه المسألة حسبما وعيناه من أقوال علماء السنة، وحشونا به كتبنا، فلتراجع، فلو اقتصرت على قولك: أنهم تابوا وأقلعوا عما كانوا عليه لكان أولى من هذا الإسهاب، وأحرى من كثرة الاصطخاب، إذ هو أقطع حجة عند كل من يعترف بالحق في قتالهم، وهذا الأمر لم نعرفه قبل، ولم يبلغنا قط، لكن في خريف هذا العام وردت علينا وثائق منسوبة إليكم يدل على ذلك، ولذلك وجهنا نحن بريدنا إليكم لنستوثق الخبر، ويأتينا بالحقيقة، فإذا كان الأمر كما قيل فسنوجه بريدنا مخداد بن ليم ويحضر معه سادات المشرق من الجماعة، فتوجهون أنتم من ترضونه لأموركم وتأمنونهم وراء ظهوركم، فيكون الموعد بسيكو، فيتعاقدون على عهود ومواثيق يتوافقون عليها ويتراضون فيوضع القتال ويثبت السلم، ولأجل ذلك تأخرنا هذا العام عن غزو برنوا وقد عزمنا عليه، فإذا كان الأمر كما ذكرت من أنهم تابوا وأقلعوا فوضع القتال إذ ذاك عما بيننا وبينهم واجب، والصلح فيما بيننا وبينهم لازب.

وأما قولك: وقد علمتم أنه لن يأتي آخر هذه الأمة بأفضل مما كان عليه أولها -

سمعته من شيخي سيدي معاوية، ولا ندري أحديث أم أثر. وتعلمون أننا في آخر الزمان - وقد مضى اثناعشر قرناً فكلام صحيح، لكن المراد به بيان فضل السلف الصالح، وخصائصهم - وهم من هم - إذ هم الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفضيلة بقوله: "خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم"، وفي المدخل: انظر إلى حكمة الشارع صلوات الله وسلامه عليه في هذه القرون، كيف خصهم بالفضيلة دون غيرهم من القرون، في كثير منهم البركة والخير، ولكن اختصت تلك القرون بمزية لا يوازيهم فيها غيرها، وهي أن الله عز وجل خصهم بإقامة دينه، وإعلاء كلمته. فالقرن الأول منهم خصهم عز وجل بخصوصية، لا سبيل لأحد أن يلحق غبار أحدهم فضلاً عن عمله، لأن الله عز وجل قد خصهم برؤية نبيه عليه الصلاة والسلام، ومشاهدته، ونزول القرآن عليهم غضاً طرياً يتلقونه من في النبي صلى الله عليه وسلم، حين يتلقاه من في جبريل عليه السلام، وخصهم بالقتال بين يدي نبيه ونصره وحمايته، وإذلال الكفر وإخماده، ورفع منار الإسلام وإعلائه، وحفظهم آي القرآن الذي كان ينزل نجوماً، فأهلهم لحفظه حتى لم يضع منه حرف واحد، فجمعوه ويسروه لمن بعدهم، وفتحوا البلاد والأقاليم للمسلمين، ومهدوا لهم وحفظوا أحاديث نبيهم في صدورهم، وأثبتوها على ما ينبغي من عدم اللحن والغلط، والسهو والغفلة، ثم قال بعد كلام: فلما أن مضوا لسبيلهم طاهرين عقبهم التابعون رضي الله عنهم، فجمعوا ما كان من الأحاديث متفرقاً، وبقي أحدهم يرحل في طلب الحديث الواحد، وفي المسألة الواحدة الشهر والشهرين. ضبطوا أمر الشريعة أتم ضبط، وتلقوا الأحكام والتفسير من في الصحابة - رضي الله عنهم - مثل علي بن أبي طالب، وابن عباس رضي الله عهما. كان علي رضي الله عنه يقول: سلوني ما دمت بين أظهركم، فإني أعرف بأزقة السماء مما أنا عارف بأزقة الأرض. وقال عليه السلام في ابن عباس: "ترجمان القرآن"، فمن لقي مثل هؤلاء كيف يكون علمه؟ وكيف حاله وعمله؟ فحصل للقرن الثاني نصيب وافر أيضاً في إقامة الدين ورؤية من رأى بعين رأسه صاحب الشريعة صلوات الله وسلامه عليه، فلذلك كانوا أفضل من الذين بعدهم. ثم عقبهم التابعون لهم، وهم تابعوا التابعين، رضي الله عنهم، وفيهم حدث الفقهاء المقلدون والمرجوع إليهم في النوازل الكاشفون للكرب، فوجدوا القرآن والحمد لله مجموعاً ميسراً، ووجدوا الأحاديث قد ضبطت وأحرزت، فجمعوا منها ما كان مفرقاً، وتفقهوا في القرآن والأحاديث، على مقتضى قواعد الشريعة، واستخرجوا فوائد من الأحاديث، واستنبطوا منها فرائد وأحكموا، وثبتوا على مقتضى الأصول والمعقول، ودونوا

الدواوين، ويسروا على الناس، وأزالوا المشكلات باستخراج الفروع من الأصول، ورد الفرع إلى أصله، وتبيين الأصل من فرعه، فانتظم الحال، واستقر أمر دين الأمة المحمدية بسببهم، فحصلت لهم مع إقامة هذا الدين خصوصية أيضاً بلقائهم من رأي من رأى صاحب العصمة، ومع بذلك يزيد في حكم من الأحكام التي تقررت، أو ينقص منها، فذلك مردود بالإجماع.

وأما ما استخرجه من بعدهم من الفوائد غير المتعلقة بالأحكام فمقبول لقوله عليه الصلاة والسلام: "لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق مع كثرة الرد". فعجائب القرآن والحديث لا تنقضي إلى يوم القيامة. كل قرن لا بد له أن يأخذ فوائد جمة خصه الله بها وضمها إليه، لتكون بركة هذه الأمة مستمرة إلى قيام الساعة. قال عليه الصلاة والسلام: "أمتي مثل المطر لا يدري أيه أنفع. أوله أو آخره". أو كما قال عليه السلام يعني في البركة والخير، والدعوة إلى الله تعالى، وتبيين الأحكام، لا أنهم يحدثون حكماً من الأحكام، اللهم إلا ما يندر وقوعه مما لم يقع في زمان من تقدم ذكرهم بالفعل ولا بالقول ولا بالبيان، فيجب إذ ذاك أن ينظر الحكم فيه على مقتضى قواعدهم في الأحكام الثابتة عنهم، البينة الصريحة. فإذا كان كذلك على مقتضى أصولهم قلناه فلما أن مضوا إلى سبيلهم ظاهرين، أتى من بعدهم فلم يجد في هذا الدين وظيفة يقام ويختص بها بل وجد الأمر على أكمل الحالات، فلم يبق له إلا أن يحفظ منه ما دونوه واستنبطوه واستخرجوه وأفادوه. فاختص إقامة هذا الدين بالقرون المذكورة في الحديث - ليس إلا - فلأجل ذلك كانوا خيراً ممن أتى بعدهم، ولا يحصل لمن يأتي بعد هذه القرون المشهود لهم بالخير - خير إلا باتباع من شهد له صاحب العصمة صلوات الله عليه وسلامه. فبقي كل من يأتي بعدهم في ميزانهم، ومن بعض حسناتهم. فبان ما قاله عليه الصلاة والسلام: "خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم". ا هـ.

وهذا الذي ذكره هو معنى قول شيخنا: "لن يأتي آخر هذه الأمة بأفضل مما كان عليه أولها"، لا مثل محمد الوالي والطاهر وأمثالهما من علماء برنوا، كما أشرت إليه في كتابك الأول. فقولك: أحديث هو أم أثر، ثم قلت: إن غالب ظنك أنه حديث، لكن لم تقف له على سند، ونحن لم نقف عليه، ولكن الحافظ حجة على من لم يحفظ، والذي عرفناه - كما رواه غير واحد من الحافظ - أنه صلى الله عليه وسلم قال: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها"، يعني القرآن والسيف - كما قال العلماء - والعجب منك أنك لم تزل تستدل في جميع رسائلك وكتبك بالآي والأحاديث على وجه الاستدلال والإفحام، مع أن المقلد إنما يسوغ له إيراد الآي والأحاديث على وحه

التبرك والاستئناس، وكان حقه في الاستدلال أن يسرد أقوال العلماء، ويستدل فقط، وهذا هو خليقة المقلد وليس له أن يتعاطي وظيفة المجتهدين.

قال الجلال السيوطي: "فإن الاستدلال إنما يسوغ للمجتهد العالم بطرق الاستدلال، فأما غيره فما له ولذلك؟"

قال الغزالي في كتاب التفرقة: "شرط المقلد أن يسكت، ويسكت عنه، لأنه قاصر عن سلوك طريق الحجاج، ولو كان أهلاً كان متبعاً لا تابعاً وإماماً لا مأموماً، وإن خاض المقلّد في المحاجة فذلك منه فضول، والمشتغل به ضارب في حديد بارد، وطالب لإصلاح بائد، "وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر؟" هذه عبارة الغزالي. والعجب منك تصديك لذكر أدلة ولو أرد عليك أدلة مخالفة لما ذكرت، لم تدر كيف تصنع فيها! قال الجلال السيوطي: "كيف يحل لمن لم يتقن واحداً من العلوم المشترطة في التكلم في القرآن - وعدتها خمسة عشر - أن يجرؤ على الاستدلال بأيات القرآن والأحاديث على حكم من الأحكام وعلى واحد من الأمور جاهلاً بطريق الاستدلال، عاجزاً عن تحصيل مشروطه، ومثل هذا هو الذي ورد فيه الحديث: "من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار"، وفي رواية: "فقد كفر".

وقد أوجب أهل الأصول على المجتهد المستدل - هل معه قرينة تصرف الدليل عن ظاهره أولاً؟ - فهذا نطح مع الناطحين من غير تأمل ولا مراعاة لشرط من الشروط، فلو استحيى هذا الرجل من الله لتوقف عند مرتبته، وهي التقليد وترك الاستدلال لأهله. قال الله تعالى: "ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم" - وأولو الأمر هم المجتهدون - كما قال عبد الله وجابر وابن عباس ومجاهد وأبو العالية في قوله: "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم". قال: هم أهل العلم، ألا ترى أنه يقول: ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم، ومعلوم أن لفظ الفقهاء والعلماء إنما يطلق على المجتهدين. وأما المقلد فلا يسمى فقيهاً ولا عالماً، كما نص عليه أهل الفقه والأصول. وامتناع إطلاق الفقيه والعالم على المقلد كامتناع إطلاق المسلم على اليهودي، خصوصية من الله: "لا يسأل عما يفعل وهم يسألون".

وأما قولك: "ومضى من العلماء والمجددين من الأئمة السلف والخلف من مضى، وما فيهم من احتج بهذه الحجج وكفر عامة المؤمنين وشهر سيف العدوان هكذا - مع أن هذه البدع والمناكر موجودة في كل قطر وفي كل عصر. والآيات التي أوردتموها، واستحللتم بها محارم الله لا تخفي يومئذ على العجائز والصبيان، فضلاً

عن فحول العلماء فليسعكم ما وسع الأولين - وهم لعمر الله سادة، ما عليهم مزيد، يقطع العقل أن هذا القرن لا يوجد أفضل من الصدر الأول ولا أقوى ولا أعلم." - فالجواب: أنا ما قاتلنا أهل برنوا إلا لما ذكرناه قبل ليس إلا، وهذا الذي ذكرته في هذه المقدمات وما استخرجته منها من الاستنباط والنتيجة فحجة داحضة. كيف يقال: إنه لا يجوز لمن قدر أن يغير المناكر ويزيل المفاسد، لا يصح له أن يتكلم فيها لكون من تقدمه من العلماء لم يغيرها أو لم يتكلم فيها. وهذا لعمري باطل. قال الحجة المغيلي في أجوبته لأسئلة أسكيا الحاج محمد: "فاكتسب لنفسك ما ترجى بركته، وتحمد لك عاقبته في الدنيا والآخرة، ولا تقل في باطل، قدرت اليوم على إزالته: هذا لا يلزمني لأني مافعلته، إنما فعله غيري. وكل ما فعله غيرك، ثم صار إليك إن كان خيراً فأثبته، وإن كان شراً فأزله، ولو طال زمنه، لأن الملك كله لله، وأنت عبد الله. واجب عليك أن تصلح ما وصل إليك." ا هـ قال ولي الله ابن أبي جمرة في بهجة النفوس: "ثم بعد هذا البيان الواضح يحتجون على الجواز، لكون بعض تلك الأشياء الفاسجة كانت في زمن من تقدمهم من الفضلاء ولم يتكلموا فيه، ويرون أنهم لا يتكلمون. وإن ظهر الفساد بالدليل الشرعي، لكون من تقدمهم لم يتكلم فيه، وهذا غلط آخر أيضاً، لأن من كان قبلهم - وكان هذا الواقع في زمانهم - محتمل أن يكون الواقع على هذه الصيغة الفاسدة، ومحتمل أن يكون وافق الاسم، ولم يكن على هذه الصيغة الفاسدة، فلا حجة لهم فيه، لأنه كان في زمانهم صالحاً، فلم يكن لهم فيما يتكلمون - وهو الآن فاسد - فوجب الكلام حين الفساد.

ولهذا المعنى قال رزين رحمه الله: ما أتى على بعض الفقهاء المتأخرين إلا وضعهم الأسماء على غير مسميات، لأنه كانت تلك الأسماء في الصدر الأول على صيغ جائزة بوجوه شرعية، وهي اليوم على غير وجه جائز، فأجازوا غير الجائز، لاشتراكه في الاسم مع الجائز. وإن كانت في زمانهم على تلك الأحوال الفاسدة، فهو محتمل أيضاً لأن يكونوا غفلوا عنها، لشغلهم عما كان عندهم آكد وأهم، فلم يلقوا إليها بالهم، أو نظروا إليها وغلطوا فيها، لأنه لا أحد معصوم من الغلط. وإذا غلط أحد فكيف يتبع في غلطه؟ هذا من الغلط، والظاهر في هذا الوضع أحد الوجهين. والثالث مرجوح، لأجل أنه لا يحمل على المؤمنين إلا الوجه الأصلح، سيما من تقدم، والوجهان هما ما تقدم من أنها كانت صالحة، أو فاسدة ولم يلتفتوا إليها لشغلهم بغيرها، لأنهم لو التفتوا إليها لتكلموا عليها وعللوها: أما بالجواز أو بالمنع، لو فعلوا ذلك لنقل عنهم، ولم ينقل عنهم شيء في ذلك. فإذا لم يتكلموا فيها فكيف يعطي

الحكم للساكت ولا قائل بذلك، مع أن الأصل تطرق الفساد إلى الأحكام، لقوله صلى الله عليه وسلم: "لينقضن عرى الإسلام عروة عروة، كلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها. وأولهن نقض الحكم وآخرهن نقض الصلاة". فيتطرق الفساد إلى الأحكام شيئاً فشيئاً، ولا يشعر به، كما أخبر بذلك الصادق عليه الصلاة والسلام، فالعاقل يكون ممن جبر ما نقض، ويحذر أن يكون ممن أعان على النقض، وقد قال عليه الصلاة والسلام: "من أحيا سنة من سنتي قد أميتت، فكأنما أحياني، ومن أحياني كان معي ف الجنة". فاحذر أن تكون مع الخلق، وكن مع الحق حيث كان، لأنه عليه الصلاة والسلام قال: "لا يكون أحدكم إمعة يقول: أنا مع الناس، إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساؤوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا ألا تظلموا".

وأما قولك: "وأطلب منكم أحد أمرين، إما أن تقولوا: فعل فلان في الإقليم الفلاني في العصر الفلاني مثل هذا من علماء السنة المعتبرين" - فالجواب: فاعلم أن من فعل مثل هذا لا يحصى كثرة، بل السؤال عن هذا التعنت، فهذا محمد بن أبي بكر المعروف بأسكيا، قريب منا قطراً وعصراً، لما ولى بلد سنغي بعد سر علي، فاستفتى محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني بما نصه: ما جوابكم عن سر علي من ملوك سنغي؟ قال: كانت أمه من بلد فار، وهم قوم كفار يعبدون الأصنام والأشجار والأحجار ويتصدقون لها ويسألون حوائجهم عندها، فلا يغزون حتى يشاوروها، وإن قدموا من سفر قصدوها ونزلوا عندها، ولتلك الأصنام سدنة يخدمونها، فيهم كهان وسحرة يقصدونها كذلك، وكان سر علي من صغره إلى كبره كثير الإقامة عندهم، حتى نشأ بينهم، وتطبع بطبائعهم في شركهم وعوائدهم. ثم بعد مون أبيه طلب السلطنة، فقام على سنغي وقاتلهم حتى غلبهم وتسلطن عليهم، كما كان أبوه من قبله من ملوك سنغي، إلا أنه لما نشأ من صغره إلى كبره بين أخواله وتطبع بطبائعهم، كان من صفته أنه ينطق بالشهادتين ونحوهما من ألفاظ المسلمين، ويصوم رمضان ويتصدق كثيراً بالذبائح وغيرها عند المساجد ونحوها، ومع ذلك يعظم بعض الأشجار والأحجار بالذبح عندها والصدقة والنذر لها والتضرع وطلب حوائجه منها، ويستعين بها وبالسحرة والكهان في أموره كلها أو جلها. ومن صفاته أيضاً أنه لا يتوقف في النساء بلا نكاح ولا غيره من الشروط الإسلامية، بل كلما أعجبته امرأة في جميع مملكته أخذها، وأدخلها في بيته. ومن صفاته أيضاً أنه حلل دماء المسلمين بقتل القراء والعلماء والعباد والنساء والصبيان الرضع وغيرهم، ولم يزل علي ذلك مدة عمره حتى

مات. ثم ولي الأمر بعده أسكيا، فملك البلاد ورد العباد عن الشرك والفساد، فما الحكم في سن علي وجميع أعوانه من الظلمة، الذين كانوا يعملون بعمله، هل هم كفار أو لا؟ وهل تسترق أولادهم من بعدهم، وتباع أمهات أولادهم أو لا؟ فأجاب بما نصه:

إن سن علي وجميع أنصاره وأعوانه لا شك أنهم من أظلم الظالمين الفاسقين الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض. فجهاد الأمير أسكيا فيهم وأخذه السلطنة من أيديهم من أفضل الجهاد. وأما هل هم كفار أو لا؟ فلا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب، فالذي ذكرتموه من حال سن علي، علم على الكفر بلا شك. فإن كان الأمر فيه كما ذكرتم، فهو كافر، وكذلك من عمل بمثل عمله، بل يجب التكفير بما هو أقل من ذلك. وأما استرقاق أولادهم فلا أراه، وإن ثبت عليهم موجب الحكم بالتكفير، لأن الكفار ثلاثة أصناف: الأول من هو كافر صريح بالأصالة، كالنصارى والمجوس ونحوهم ممن ورث الكفر الصريح من آبائه. والثاني من كان مسلماً ثم ارتد عن دين الإسلام ارتداداً ظاهراً وصرح بأنه خرج عن دين الإسلام ودخل في غيره من دين الكفر. الثالث من يزعم أنه مسلم وحكمنا بكفره لأجل أنه صدر منه ما لا يقع في الظاهر إلا من كافر، كما ذكرتم عن سن علي. فالكافر بالأصالة في الكفر تسبى ذراريهم ونساؤهم وتقسم أموالهم، ولا خلاف في ذلك بين العلماء. وفي الكفار بالارتداد خلاف: قال ابن القاسم في أهل حصن من المسلمين ارتدوا عن دين الإسلام إلى الكفر: لا تسبى ذراريهم ونساؤهم، وأما أموالهم فهي فيء للمسلمين. قال ابن رشد: وهذا هو الصحيح من جهة النظر، لأن المرتدين أحرار من أصلهم. قال: وإلى مذهب ابن القاسم في المرتدين ذهب عامة العلماء وأئمة السلف وإذا علمت هذا، وكل من فعل شيئاً من تلك الأفعال الموجبة للتكفير يستتاب، وإن تاب ترك، وإن لم يتب قتل بالسيف كفراً، ولا يسترق أولادهم، وإنما يجبرون على الإسلام. وأما بيع أمهات أولادهم التي استولدوها من أموال بيت المال، فلا أرى به بأساً، وإن كانوا لا يسترقون. ا هـ.

وفي المختصر: وإن ارتد جماعة وحاربوا فكالمرتدين، قال الشبرخيتي في بيان معنى ذلك: يستتاب الكبير ويجبر الصغير، ويوقف المال ولا تسبى العيال، وهو فعل عمر رضي الله عنه، وعليه جماعة العلماء وأئمة السلف إلا قليلاً. وقال أصبغ: كالكفار الحربيين يسترقون هم وأولادهم وعيالهم، ولعمري إنه أمر خالف فيه عمر أبا بكر في أهل الردة من العرب، فجعلهم أبو بكر الناقضين للعهد، فقتل الكبار وسبى النساء والصغار، وجرت فيهم المقاسم وفي أموالهم، وهو فعل أبي بكر الصديق رضي الله

عنه. والله ولي التوفيق والهداية.

ثم استفتاه عن سلطان من المسلمين بجانبه، بما نصه: ما جوابكم عن سلطان يعمل الحرام، فإذا قيل له في ذلك قال: كل ما نعمل حلال، أنا أعلم منكم، ودأبه: تلبيس الحق بالباطل، وله فقهاء اتخذهم لذلك، فكلما أراد أن يعمل شيئاً من غرضه أحضرهم، وقال لهم: أليس هذا حلالاً؟ فيقولون: بلى، لك ذلك، فيوافقونه على غرضه ويستتر بهم من الطعن عليه بالظلم والجور. فهل مثل هذا السلطان ظالم أو كافر لأجل تحليل ما حرم الله؟ وكذلك أولئك الفقهاء؟

فأجاب بما نصه: فمن ثبت عليه أنه حلل المكس ونحوه من أكل أموال الناس بالباطل وجب الحكم بكفره، وكذلك من أنكر الحق المبين ولبسه بالباطل.

وسأله بأشياء غير هذا، فأجابه بما أجاب، فلما أوصل عند هذا الأمير الجواب، وحصل عنده العلم بالصواب، قام فمهد البلاد، وبسط العدل بين العباد، واشتهر عدله في سائر الأقطار، حتى زاره من الفقهاء والعلماء جماعة، منهم الحجة المغيلي، ثم حج ولقي العاقب الأنصمني والجلال السيوطي وغيرهم من شيوخ الإسلام، وكتبوا له من النصائح ما كتبوا، وشهدوا له بالعدل والاستقامة.

ولا يخفى أن أحوال زمانه وبلاده كأحوال زماننا وبلادنا هذه وبلادكم، وحسبك به وبمن أفتونه في جهاده قدوة وأسوة حسنة. فإذا علمت هذا علمت بأن جهادنا هذا جهاد صدق صحيح. فإنه موفق لما عليه الآي والأحاديث وأقوال علماء السنة، ولسنا في الخبط البتة.

وأما قولك: حتى يخرج المهدي - إن كان - أو ينزل عيسى، وكلاهما ليس ببعيد - فالجواب: إن كنت عنيت بكلامك هذا أن زمان المهدي، وهو زمان العهد وظهور الحق فواضح. وإن كنت عنيت به نفي الفاطمية عن شيخنا هذا، من أجل ما يبلغك أنه يكثر تقرير أمر العهد - فاعلم أنه لم يتظاهر أنه المهدي ولا ادعيناه له قط، وكيف يتظاهر بذلك أو ندعيه له، وبعض علامات المهدي التي وردت في شأنه لم توجد فيه؟ فمن وقف على كتاب البرهان في علامات المهدي آخر الزمان، والعرف الوري في أخبار المهدي وأمثالهما، كيف يتصور أن يدعى الفاطمية لمن لم يكمل له شروط المهدي، عند كل من يعترف بوجوده آخر الزمان؟ وسيظهر عن قريب إن شاء الله.

وأما قولك: ومن أراد أن يتخطى رقاب علماء الأمة المتقدمين، ويدعي اليوم أنه فاتهم باستنباط، أو أكمن له ما عسر عليهم، فقد زلت به القدم، وسقطت منه المكالمة، ووقع في مهواة العجب نسأل الله السلامة - فالجواب: أن هذا الكلام مشاغبة، وقد مر

الجواب عنه.

وأما قولك: واحتجاجي ودفعي كله عن أهل برنوا لما شاع وذاع من إسلامهم في سائر الأقطار والأمصار، وشواهد آثره عليهم، وإن كانت ملوكهم تفعل أموراً مخالفة للشرع، فإنا لا ننكر ذلك، ولا نرضى بفعلهم، لكن حيث سلطكم الله عليهم سوط عذاب وأدبهم بكم، وأقلعوا عما كانوا عليه، فتوبتهم تنفعهم، ولا تبيح لكم أن تفعلوا بهم هذا الفعل - وقد مر الجواب عن مثل هذا آنفاً.

وأما قولك: وأما أهل السودان فلا علم لي بها، ولا تكلمت في أمرها، وما أنا بداخل بينكم وبينهم إن لم تتعرضوا لأرض برنوا، وها هو برسولي العالم الأمين، بعثته إليكم ليأتي بالخبر الصحيح فإن كان صلحاً وافقاً، فليأت به، سوء وقع في جميعكم أو من بعضكم، وإن كانت حرباً فليأت به. - فالجواب، والله الموفق للصواب: أنا ما تعرضنا لبرنوا إلا لما ذكرنا قبل، وهذا الصلح الذي دعوتم إليه قد بدأناكم به مراراً، فلم نزل نكاتبكم به كل عام. وغالب ظننا أن رسائلنا لا تبلغكم ولا تصل إليكم أخبارها، لعدم رؤيتنا جوابكم فيها، وهو إن شاء الله صلح موافق، وفقنا الله وإياكم إلى الخير.

وأما قولك: وأنا منتظر لأوراق بعثتها لعلماء المشرق في هذا الأمر، وبينت لهم حال الفريقين، فإن جاء الجواب موافقاً لكم سلمت وأذعنت، وإن جاء مخالفاً لكم بعثت به إليكم، إن شاء الله. - فالجواب، وبالله التوفيق للصواب: كيف تحاجنا بجواب استفيته مع أنك لم تنصفنا في السؤال، وتعلم أن الجواب إنما يأتي على وفق السؤال. وقد رأينا في رسائلك التي ترسل بها إلينا أنك ما أنصفتنا فيها، ولا ذكرت الأمر على حقيقته، بل ترمينا بقضيات مزورات علينا، وأمور موضوعات، فحيث ذكرت الأمر على خلافه، ووشحت الكلام حيث شئت، وذكرت في السؤال الصادر منك ما ذكرت، فلا حاجة لنا في الكلام على السؤال الوارد منك إلا إذا رجعت وأنصفت، وذكرت في حال الفريقين ما يحق ذكره، ويثبت أمره، وعدتك الحمية والتعصب.

وأما قولك: ثم إذا ثبت الصلح، واطمأن كل أحد في موضعه ووضع السلاح وترك الغزو، وسافر التجار، وحج الحجاج، وانتشر الأمن، فعند ذلك - إن كان الشيخ سيدنا عثمان بن فودي حياً، وسمعت بصحيح خبره - سرت إلى حضرته، أو من أرضاه كنفسي، فإني ظني به جميل واعتقادي فيه حسن. - فالجواب والله الموفق للصواب: أن الصلح إن شاء الله، فيما بيننا وبينكم واقع، ولنضرع إلى الله أن يصرف عنه كل مانع. والذي ذكرت أنك تريد بعد حصوله القدوم على الشيخ، فكلام حسن، لأن مثله جدير أن يسعى إليه، بل حقيق أن يسافر إليه، كما قال المغيلي: يجب عليك أن تطلب عالماً

من علماء الذكر حيث كان، لأن علماء الذكر كالأنبياء في الأمم الماضية يجب الاعتماد عليهم، والسعي إليهم، وإن بعدوا، فالشيخ - متعه الله - بأتم العمر، وأعلى الأمر، وجعل العاقبة خيراً، مناقبه أجل من أن تحصى، بل هو كما قال القائل

ما في علاه مقالة لمخالف   فمسائل الإجماع فيه تسطر

وأما قولك: وإن لم أسمع بخبره - وكان الأمر من ابنه محمد بل - فهو في موضعه وأنا في موضعي، ما أنا بطالب منه خيراً ولا شراً، إن لم يطلبني. وإن ابتدأني وجد ما أراده خيراً كان أو شراً، فلقد فهمت في أول مكتوب منه ما يدل على أن أمره أمر سلطنة وملك، وحيث كان الأمر هكذا، فلا أخشى سطوته، ولا أخاف شوكته. ومع ذلك فأمره لله، ما أنا بذاهب لجهته، ولا قاصد أرضهم بسوء ما لم يظهر منهم ما يوجب ذلك. والله حسبه فيما تكلم به فينا، وما أقرب الوقوف بين يدي أحكم الحاكمين، والانتصاف لمن ظلم من الظالمين. والسلام. - فالجواب، والله الموفق: فما ذكرته من أنك لا تطلب مني خيراً ولا شراً فأنا، إن شاء الله، أبتدأك في طلب الخير، ولا أريد الشر البتة. "إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب".

وما ذكرت من أنك فهمت من أول مكتوب مني بأن أمري أمر ملك وسلطنة، فلا تخشى سطوتي، ولا تخاف شوكتي، إلى ما يوجب ذلك، ذلك - فلا يخفى على كل ذي بصيرة ما في هذا الكلام والذي قبله من الجهالة وسخف المقالة، والله على ما نقول وكيل.

وما ذكرته مما ألمحت به في الكلام الذي رددت به عليك في الجواب الأول والثاني من كتابك الذي شنعت به علينا، وزورت كما شئت، فذلك منكم عدم إنصاف، لأنا ما رددنا عليك إلا على وفق ما رميتنا به، "وجزاء سيئة سيئة مثلها"، مع أنه ليس في جوابنا سب ولا فحش القول أصلاً: ما للكريم على البذاءة من يسد. ولو أنصفتم ما اختلفتم علينا، بل ورد منكم وثيقة فيها من السب واللعن وفحش القول، وبذاءة الكلام وسوء المقال والتوعد والتهديد ما فيها، لكن الله يعلمه ويحصيه. فما منعني الإجابة عنها والالتفات إليها والتفجع بما فيها إلا علمي بأن ذلك إنما يصدر عن الجهلاء، فأعرضت صفحاً امتثالاً لقوله تعالى: "وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً". ولذلك كتبت في إجابتها بعد الحمد والثناء بما كتبت. "أما بعد، فقد رأينا كتابكم الذي فيه خطابكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالم، سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين". وحسبنا الله ونعم الوكيل، والسلام.

وأيضاً إنما أعرضنا عن إجابتها، والتأذي بما تصفون والتوجع به، علماً بأنه لا

يضر السحاب نبح الكلاب. قال حسان بن ثابت:

لا تسبنني فلست بندى ... إن ندى من الرجال الكريم

ما أبالي أنب بالخزي تيس ... أم لحاني بظهر غيب لئيم

وقال آخر:

ما يضر البحر أمسى زاخرا ... أن رمي فيه غلام بحجر

وقال جرير:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا ... أبشر بطول سلامة يا مربع

والعجيب منك أنك لم تزل تنسبني إلى إذايتك في الكلام، وتنحلني إلى الجدال، كما في وثيقتك الثانية، لا جرم أن من تأهل كلامك في وثائقك هذه، على ضرورة أنك المجادل، ومن وقف على كتابكم الذي أشرنا إليه علم بالضرورة أنكم القائلون بالفحش والعيب والإذاية. شعرا:

رماني بنو عجل بذاء أبيهم ... وأي عباد الله أنوك من عجل

"والله المستعان على ما تصفون"

وأما قولك في الرد على محمد الدليل في تشبيه عمل الشيخ بعمل رسول الله، فتعنت، وعلم على عدم اتفان (علم البيان)، لأن المعلوم من المشبه أن يكون دون المشبَّه به، وإن كان يختلف باختلاف الأحوال والنكت، فليعلم الواقف على هذه الورقات، بأن قصدي النصح للإخوان لئلا يغتروا بكثرة صخب هذا الإنسان. وليس قصدي الجدال ولا الانتصاف، فمن وقف عليها، وأمعن النظر علم قطعاً أن الحق بخلاف ما يذكره، وحسبنا الله ونعم الوكيل. وقد قدمنا أنه لما علمنا عدم وصول وثائقنا إليهم، تجشمت في انفاذ البريد، فسار بوثائقنا. وحاصل ما في وثيقة الوالد، الذي كتبته له:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً. الحمد لله وحده ولا إله غيره والصلاة والسلام على من لا نبي بعده. - فمن أمير المؤمنين وسلطان المسلمين سيدنا ووسيلتنا إلى ربنا عثمان بن فودي إلى العالم العلامة محمد الأمين الكانمي، بألف تحية وألف سلام. - أما بعد، فباعث الرسالة إليك إعلامك بما نحن فيه، إذ أكثر المجاورون لكم من جماعتنا رفع شكايتهم منكم إلينا، وألحوا بالانتصار بنا عليكم، فتعين النظر في شأنهم، والتوجه إلى صوبهم. فاعلموا علم يقين بأن طريقتنا طريقة أهل السنة والجماعة، من إيثار الحق واتباع السنة، حنفاء عن طريق التفريط الذي هو الركون إلى العوائد، والتسامح في المعاصي، وعن الإفراط الذي هو إنكار ما ليس بمنكر، فأحرى ألا نكفر الناس بما ليس كفراً. فيطلب

منكم أن تأمروا أمير برنوا وقومه أن يتوبوا إلى الله، ويتبرأوا من كل عادة ردية، مخالفة للشريعة، وليتفق هو ومجاوروهم من الجماعة على طريق واحد، فيوضع القتال، ويثبت السلم، أو يتاركونا ولا يتعرضوا لنا، فيكون الإصلاح بينه وبين الجماعة بعهود ومواثيق، ويتوافقون عليها ويتراضون فيوضع القتال عما بيننا وبينهم. وإن آثروا الطريقة الأخرى، ورغبوا في بقائهم على حالتهم الأولى، فلا يسعك المقام معهم ومعاونتهم. قال الله تعالى: "وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان". والسلام. - هذا حاصل ما كتبته للشيخ - إلى الحاج الأمين بأمره، وكتبت إليه بما حاصله:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً - فمن محمد بل إلى الحاج الأمين بألف تحية وألف سلام - فباعث الرسالة إليك إعلامك بأني لم أزل كل عام أنفذ الوثائق في طلب الإصلاح فيما بين ذلك، فتضيع الوثائق ولا تبلغكم، لذلك أنفذت هذا إليكم مع هذه الوثائق وكنت قلت شعراً، فإن بلغك فاذكره، وإن لم يبلغك فانظره:

ألا مـــن مـــبلغ عنـــي الأميـــنا	رســـالة ناصـــح يـــبدي اليقيـــنا
تعلـــم أنـــنا ممـــا رميـــنا	بـــه بـــراء فـــأوف العـــذر فيـــنا
وأنـــا مـــا تغلبـــنا علـــيهم	علـــوا أو فـــسادا قاصـــدينا
ولكـــن حـــين أخـــرجنا اعـــتداء	وبغـــيا صـــاح قمـــنا دافعيـــنا
تبـــين أمـــرنا هـــذا أخانـــا	وفتـــشه ولا تعجـــل عليـــنا
فـــدع عـــنك الـــركون إلـــى الأعـــادي	ونـــصر الظالمـــين الفاجـــرينا
تعلـــم أنهـــم أهـــل اعـــتداء	ووال أخـــا الـــصلاح المؤمنيـــنا
وخـــاللهم وظاهـــرهم علـــيهم	فـــإن الله مخـــزى الكافـــرينا

فالحاصل أن من يتحرى السلامة، ويتورع من الملامة، فلا بد أن يجتنب مالاً يكاد يتضح حلاله من شبهته، فاسعوا في الإصلاح جهدكم، فإنا نسعى فيه، وفقنا الله وإياكم إلى الخير والإصلاح. ا هـ. ما مر في الوثيقتين.

فسار بهذه الوثائق بريدنا عثمان، حتى وصل عنده، فرحب بالبريد وأكرمه، وأجاب بما نصه:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله من العبد الذليل محمد الأمين بن محمد الكانمي، إلى العالم العلامة الشيخ عثمان بن فودي، سلك الله بنا وبه سبيل السداد. السلام التام ورحمة الله وبركاته - أما بعد، فقد بلغنا كتابك وتأملناه حرفاً حرفاً.

أما قولكم: إذ قد أكثر المجاورون لكم من جماعتنا رفع شكايتهم.. الخ ما ذكر في ذلك، فاعلم أنه لم يصدر منا إليهم ما يوجب الشكوى البتة، إذ هم يغيرون على أطراف بلادنا ويستلبون الأموال ويسترقون الأحرار ويسفكون الدماء ويحرقون الديار، فنقوم لدفعهم واستخلاص ما أخذوه، ونتبعهم إلى حيث قدر الله تعالى، فتارة نجدهم وننقذ منهم ما استلبوه، وتارة يعجز ونناً هرباً. هذا دأبنا معهم حتى اليوم ثلاثة أعوام. وما غزوت عليهم قط مبتدئاً طالباً منهم نفعاً أو قاصداً ضرراً، فهل ألام على ذلك شرعاً أو عرفاً؟ وإن كان هذا أوجب عليكم التوجه لصوبنا، فما نحن بتاركين الطلب إن أغاروا لأجل تهديدكم، ولا نعطي بأيدينا للطغاة لأجل وعيدكم، فإن المجاورين لنا أناس غلب عليهم الجهل والتقليد. همتهم ملك البلاد وقهر العباد بأي وجه، ولسنا نعطيهم ذلك اخياراً. وإن توجهتم إلينا بعد ما أطلعناكم على الموجب، فنحن على اللقاء - إن شاء الله - صابرون، وبعون الله، لكل صائل دافعون، ولمن جاءنا في ديارنا مقاتلون، "وما النصر إلا من عند الله".

وأما قولك فاعلموا علم يقين بأن طريقتنا طريق أهل السنة والجماعة.. إلى قولك: "وتعاونوا على البر والتقوى" - فهذا كلام مستقيم لا ينكره ذو لب سليم، إلا أن المجاورين ليس هذا الحالهم. ولو كانوا كذلك ما اختلفنا ولا تقاتلنا. وقد أمرنا الناس باتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل هذا الأمر، وما زلنا آمرين - إن شاء الله - حتى يجف اللسان، أعانني الله وإياكم على طاعته، واتباع سنة نبيه.

وأما قولك: إن آثروا الطريقة الأخرى، ورغبوا في بقائهم على حالتهم الأولى... الخ - فاعلم أني لست ممن ينصر الباطل، إن شاء الله، ولا ممن يدنون حول حماة، لكني ابتليت بأناس أتاح الله أن يجعلني فيهم، وأكثرهم مرضى القلوب، وأنا فيهم كطبيب يعالج الأمراض المزمنة، ولا معين له، وجاورني من جماعتكم أناس لا خلاق لهم، كلما أطفأت ناراً أوقدوا أخرى، وشغلوني وغيري عن دين الله فضلاً عما سواه، والآن حيث جعل الله المراسلة بيننا، يرجى خمود نار الفتنة، إن شاء الله، فمر جميع الفلاتيين يكفوا عن قتال برنوا وعن الغزو عليها أصلاً، ولا يطمعوا في شيء سوى وجود العافية والأمن في ديارهم على دينهم وأموالهم. فإن بلغوا ذلك فبها ونعمت، وإن أبوا ذلك، وجعلوا يخوضون في القيل والقال وإيراد الأدلة المقابلة بأدلة مثلها، مدندنين حول طلب الملك، فلا صلح ولا أمن، وطرق الأدلة متسعة لنا، كما هي عند ظنهم متسعة لهم، ولكن الأسلم والأحوط والأصلح وضع القتال إن وجد إليه سبيله، ومع هذا كله لا أغزوهم ولا أقصدهم ابتداء، إلا إذا أغاروا وأفسدوا، فلا بد من الطلب

ولا بأس به، إن شاء الله.

وأما المسافر والحاج فليأت لا يخف من جهتنا شيئاً، فإني لا أظهر لفلاتي عداوة إلا إذا جاء غازياً، وإن خالفني أهل برنو فيما آمرهم به من الأمور الشرعية والمصالح الدنيوية، أو تعدوا على ابن سبيل طالباً فضل الله أو حاج لبيت الله، فعند ذلك أسل يدي من أمرهم، كما تسل الشعرة من العجين، ورجعت لموضعي الذي جئت منه وتركت ما بينهم وبين جيرانهم، ينتقم الله من الظالم بالظالم، ثم ينتقم منهم جميعاً. وفقنا الله وإياكم لما يحبه ويرضاه، وجعل خير أيامنا يوم نلقاه. والسلام.

وجاوبنا بما نصه:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، إلى محمد بل بن الشيخ عثمان بن فودي السلام التام عليك ورحمة الله وبركاته - أما بعد، فقد بلغنا كتابك، وفهمنا من مقتضاه أنك تجتهد في كل عام في إنفاذ الكتب والرسائل إرادة الإصلاح، فها قد من الله تعالى بوصول بريدكم إلينا، وشاهد أحوالنا وأخبرنا بأحوالكم، وقد ختمت وثيقتكم التي أرسلتها معه بما لا مزيد عليه من قولك: والحاصل أن من يتحرى السلامة ويتورع من الملامة فلا بد أن يجتنب مالا يكاد يتضح حلاله من شبهته.. إلى آخر كلامك. فإن الأمر كما ذكرت طرق الأدلة متسعة، وأوجه الشبه بينة. وكلنا في غرر وخطر، والأسلم والأحوط ترك القتال، لكن قدر الله أن مجاورينا من المنتسبين إليكم أناس ليسوا مثلكم، ولا هم على مثل حالكم، وهم السبب في تأجيج نار الفتنة بيني وبينكم. وإن أردتم ثبوت الصلح وفتح الطرق وانتشار الأمن، فمروهم أن يكفوا عن الغزو على أرض برنوا وقتال أهلها، ويكتفوا بالعافية والأمن عما أرادوه من الملك والسلطنة. ثم إذا كفوا عما ذكرته وظهر غدر وخلاف من أهل برنوا تركتهم ورجعت لأرض التي جئت منها، وليفعلوا عند ذلك ما أرادوا. هذا، وإني ما ابتدأتهم بالقتال قط فيما سبق، ولا أبتدئهم فيما يأتي أيضاً، إلا إذا أغاروا على أطراف البلاد، فعند ذلك لا بد من الخروج للطلب، كعادتي الأولى، وذلك جائز بل واجب حيث لم أقل بكفر أهل برنوا ولم أر لتكفيرهم وجهاً. وما قل وكفى خير مما كثر وألهى. أحسن الله لنا ولكم العاقبة، وجعل حظنا من نعمه نعم الإخوة. والسلام. الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

ألا عم صباحا واحضر الذهن أنني ... حريص على من يقبل القول بالفهم
فإني أرى نفسي على الحق والهدى ... وما زغت يوما عن طريق ذوي العلم
وما كنت مختارا لما قد سمعتمو ... من الغزو والغارات والسفك للدم
ولست بعات في قتالي ومعتد ... عليهم ولكن دافع الجور والظلم

كإنفـاذ غرقـي والحـريق ومـن ظلـم   وذا واجـب لا خـوف فـيه مـن الإثـم
وفـي الـصلح خيـر أن رضـيتم جوابـنا   لنـنجو مـن الـتأويل والقـول بالـرجم
ولكـــن جيرانـــي الـــذين يلـــونكم   ذوو خـبـط لا يرتــضون بــذا الـــسلم
فنـــسأل رب العـــرش يجمـــع امـــرنا   علـى البـر والـتقوى ويحـسن بالخـتم

أ ه. كتبت الأبيات بعد أن ركب الأصحاب على عجل، وألحقتها، فلا تنظروا ما فيها من خلل، والمقصد صحيح. والسلام.

ولما وصل عندنا جاوبه الشيخ بجواب مقنع، بين فيه الحق ورفع الأشكال، ونقض بالكلية عرى الجدال، فماذا بعد الحق إلا الضلال. وإن لطف الله بالحاج الأمين وفعل ما فيه وعمل بمقتضاه، فسنقول له من أمرنا يسراً، ولا يلقي منا إلى سروراً وخيراً. وإن تولى بعد ظهور الحق وخاض في القيل والقال، وأتى بالتمويهات الداحضة، والشبه الباطلة في الاستدلال، فضرب الأعناق حتى تضع الحرب أوزار القتال. إن الحكم إلا لله. "وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم".

وقد فهمنا من رسائله ما يدل على أنه صاحب نخوة وتكبر وتعصب، وقد سبق في قلبه ما سبق، وقل أن يرجع متكبر ولو ظهر الدليل وأوضح السبيل، ولكن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من ينيب، أحسن الله عاقبتنا وعاقبته وسلك بنا الصراط المستقيم. إنه ولي التوفيق.

ونص الجواب المقنع المذكور الذي أغنى عن كل جواب:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

- من أمير المؤمنين عثمان بن محمد المعروف بابن فودي، متع الله الإسلام والمسلمين ببقائه وأيامه وجعل العاقبة خيراً - إلى الشيخ العالم الجاج محمد الأمين بن محمد الكانمي، يسلم عليه وعلى من كان معه من المسلمين. وسبب الوثيقة إعلامك خمسة أمور: وهي تغني عن جواب وثيقتك التي وصلت إلينا على يد بريدنا عثمان.

الأول، إعلامك سبب القتال الذي وقع بيننا وبين سلاطين حوس.

الثاني: إعلامك سبب القتال الذي وقع بيننا وبين سلطان برنوا وأهله.

الثالث: إعلامك أنا لا نكفر أحداً من أهل القبلة.

الرابع: إعلامك أننا نكفر كل من يخلط أعمال الإسلام بأعمال الكفر وأقواله.

الخامس: إعلامك حكم إقامتك في بلد برنوا.

أما الأول، الذي هو سبب القتال الذي وقع بيننا وبين سلاطين حوس فقد كفاك في ذلك ما كتبه إليك أخي عبد الله، فإني قلت له ذات يوم: اكتب له سبب القتال الذي

وقع بيننا وبين سلاطين حوس، فيعذرنا بذلك كل من وقف عليه، إن كان من أهل الإنصاف. فأجابني بكتابة ذلك في قرطاس، ونص كلامه:

بسم الله الرحمن الرحيم. والصلاة والسلام على من لا نبي بعده. أما بعد فمقصودي في هذا المكتوب بيان هجرتنا من بلد غوبر وسبب جهادنا الذي وقع بيننا وبين سلاطين حوس ليعذرني في ذلك كل من وقف عليه إن كان من أهل الإنصاف.

اعلموا أن شيخنا عثمان بن محمد بن عثمان بن محمد أمير المؤمنين - أطال الله حياته في طاعته - إنما نشأ على دعوة الخلق إلى دين الله في كل مجلس حضر فيه، يبين فيه لأهل كل مجلس بلغتهم ما هو فرض عين عليهم وغيره، ويأمرهم بمكارم الأخلاق، مجتهداً في إزالة الشبهات عنهم في فن التوحيد وغيره، وفي تخليهم من الصفات المهلكات، والتحلي بالصفات المنجيات، وإحياء السنن وإخماد البدع. فأجابه خلق كثير، ونصروه حتى اشتهر بذلك.

وكان يسير في جماعته يطوف في البلد لتبليغ الدين فيها، حتى تاب أكثر الجهال فيها من الكفر والفسق والبدع، وكان يداني علماء زمانه الذين يخالفونه وينكرون عليه، ولا يتعرض للسلاطين أصلاً، حتى كثرت جماعته واشتهروا باسم الجماعة في حوس وكانوا يتركون بلادهم وينتقلون إليه، وكان بعض من كان في جيوش السلاطين يتوب وينتقل إليه مع ماله ويترك سلطانه، فكان ذلك مما يغيظ السلاطين حتى يقع بينهم وبين سلاطينهم ما هو معروف، وهو لا يتعرض لهم، بل يتغفل عن ذلك، ويقول: لا أدخل بين أحد وبين سلطانه، ولا أفرق بينهما، دفعاً للفتن، والأمر مع ذلك لا يزداد إلا عظماً، فكان حينئذ يداري السلاطين بالسير إليهم وإظهار المواصلة بينه وبينهم. ومع ذلك ما يرون من كثرة الجماعة وعزة الإسلام عنده وتألفهم يغيظهم، وشياطين الجن والإنس تهيجهم، ويقولون: إن لم يفرقوا هذه الجماعة فلا ملك لكم، يفسدون لكم الأرض باجتماع الناس عندهم ويتركونكم، حتى أرسل إلينا سلطان غوبر يريد الغدر بنا، على ما سمعنا وتبين لنا بقرائن أحواله وأقواله وأفعاله. فوقانا الله شره، وسمعت منه ما أعلمنا أنهم لا يريدون إلا إهلكنا، فرجعنا إلى مكاننا.

ثم بعد ذلك غزا سلطان غوبر جماعة من جماعة الشيخ، وقد كانت هربت منه لما خافوه. فاتبعوهم بالجيش حتى أخذوهم وقتلوهم وسبوا أولادهم ونساءهم وجعلوا يبيعنهم بيننا، ويخوفوننا بمثل ذلك، حتى أرسل إلى الشيخ ذلك السلطان: أن اخرج من بلدي أنت وأولادك ونساؤك وإخوتك، ولا تخرج مع أحد غيرهم من جماعتك، وفارقهم.

فأرسل إليه الشيخ أني لا أفارق جماعتي، ولكن أخرج معي كل من أراد الخروج، ومن أراد المكث فليمكث.

فهاجرنا من وسط بلادهم سنة شريح، سنة 1218 ه لعشر مضين من ذي القعدة إلى أطراف البلاد في البراري، فجعل المسلمون يهاجرون ويتبعوننا، ويصلون إلينا: بعضهم مع أهله وماله، وبعضهم وحده، وقد أمر سلطان غوبر سلاطين بلاده أن يأخذوا من هاجر ويمنعوهم من الهجرة، فأخذوا أموال كثير من المسلمين وقتلوا بعضهم.

ثم جلع سلاطينه الذين هم أقرب إلينا من جهة شرقنا يغيرون علينا ويقتلون وينهبون ويأسرون، فاضطرب أمر الناس لذلك، وجئنا إلى الشيخ وقلنا له: إن هذا الأمر قد عظم، وانتهى إلى شهر السلاح، فلا بد أن نربط بالسلطان الذي يرجع أمر الناس إليه، مع أنه لا يجوز للمسلمين أن يكونوا هملاً. فبايعناه لتلك الضرورة على اتباع ما قال، على الكتاب والسنة وبايعناه على الجهاد. وقمنا لدفع الغارات عنا، لأن الدفع عن الأموال والأنفس والأهل واجب إجماعاً. فسرنا إلى الذين يغيرون علينا، وهم خيل متنكر، فتلقونا بالقتل، فهزمناهم وأحرقنا بيوتهم وقتلنا رجالهم وسبينا نساءهم وأولادهم، فتفرقوا، وكنا نسمع أن ملكهم سلطان غوبر يجمع لنا جموعاً ليستأصلونا، فحفرنا لذلك خندقاً اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان أهل حصن سلطان كن ممن يغير علينا من جهة الشرق. فسرنا إليه، وفتحنا حصنهم وقاتلناهم وقتلنا سلطانهم. ثم رجع جيشنا وانتظرنا سلطان غوبر ينف، فجاء إلينا بجيوشه، فتلقيناه بكتو، فهزم الله جنوده، فهرب إلى حصنه ذليلاً مغلوباً، وذل بذلك جميع الكفار في حوس. فتيقظوا لذلك، وجعل كل سلطان يقتل المسلمين في بلاده، فوقع الحرب بينهم، فاستأصل الله الكفار، إنجازاً لوعده في نصر دينه وناصريه.

وكنا بعد طرد سلطان غوبر أرسلنا إلى جميع ملوك حوس أن ينصروا دين الله ويعينونا في إقامة الدين. فتكبروا وأبوا، فاستأصلهم الله. "فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين". والسلام. ا هـ كلامه.

وأما الثاني الذي هو سبب القتال الذي وقع بيننا وبين سلطان برنوا وأهله، فاعلم أنا ما قتلناهم لكفرهم بالأصالة، وإن كان يؤثر عنهم تواتراً ما يوجب الحكم بالتكفير، مثل ما يفعلونه في مكان يسمى بيكو، لعدم علمنا بذلك حقيقة. وإنما قاتلناهم لابتدائهم لنا بالقتال واعتدائهم علينا موالاة للكفار وتعصباً لهم ونصرة لهم، ولا جرم أن ذلك يوجب الحكم بارتدادهم، إن كان سبق لهم الإسلام الصحيح. قال المغيلي في مصباح الأرواح في أصول الفلاح: مما يدل على عدم الإيمان بنص القرآن موالاة

الكافرين، لقوله تعالى: "ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون. ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون"، لأن الدليل المذكور بين أن من لازم الإيمان عدم موالاة الكفار، فلزم بشهادة رب العزة تكفير كل من تولى أحداً منهم كائناً من كان في كل زمان ومكان، وموالاتهم نصرهم، ولأن المولى هو الناصر وكل من تولى أحداً منهم يكفر بما ظهر عليه من الموالاة. ولا يعذر بما ظهر عليه من قصد المنفعة، فيستتاب بالسيف. فإن مات أو قتل مات كافراً فلا يغسل ولا يصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين، وإن كان مدة حياته ينطق بالشهادتين، ويصلي ويصوم ويحج، ويعمل بأعمال البر،لأنه لا عمل إلا بالإيمان، وواحدة من خصال الكفر تحبط ألفاً من خصال الإيمان... ثم قال:

وكيف لا يكفر بموالاة الكفار، وقد نص العلماء على التكفير بواحدة من خصال لا تحصى، كالاستخفاف باسم من أسماء الله تعالى، أو بشيء من وعده أو وعيده، أو برسول الله في شيء من شأنه، كتصغير عضو من أعضائه أو تكذيبه في شيء مما جاء به، أو قوله: لو أمرنا الله أو النبي بكذا لم أفعل، أو لو صارت القبلة في هذه الجهة ما صليت إليها، أو لو شهد ملك أو نبي بكذا ما صدقته، أو لو كان فلان نبياً لم أؤمن به، أو قصعه من ثريد خير من العلم، أو ضحك على وجه الرضا بكلام كفر، أو قال لمريد الإسلام: اصبر حتى يفرغ المجلس، أو أشار على كافر بألا يسلم، أو مسلم بأن يكفر، كفتواه لامرأة لتكفر لتبين من زوجها، أو استهزأ بشيء من الشريعة كجماعة جلس منهم واحد بمكان مرتفع، وجلسوا حوله يسألونه مسائل ويضحكون، ثم يضربون له بالوسائد مثلاً، وكمن قال عند شرب الخمر أو الزنى: بالله، أو صلى لغير القبلة متعمداً - فإن صادفها، إلى غير ذلك من الفروع. ا هـ كلامه في مصباح الأرواح في أصول الفلاح.

وأما الثالث الذي هو إعلامك أننا لا نكفر أحداً بذنب من أهل القبلة فهو كقولك: لإجماع أهل السنة على عدم التكفير بالمعاصي، وفي ترجمة صحيح البخاري باب المعاصي من أمور الجاهلية، ولا يكفر صاحبها. وفي درر القلائد:

ومن عصى بكبير أو أصر على   صغيرة فاسق بالإثم مجدول

وفي الرسالة: وأنه لا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة.

وأما الرابع الذي هو أننا نكفر كل من يخلط أعمال الإسلام بأعمال الكفر وأقواله، وهو كذلك، لإجماع أهل السنة على تكفير من كان كذلك. وفي القصيدة الجزائرية:

ومثلهم كل ذي شرك، وإن نسبوا للدين أنفسهم كفر ولا تغسل

وفي بدء الأمالي:

لفظ الكفر من غير اعتقاد يطوع رد دين باغتفال

وفي المختصر: والجاحد كافر. وفي الكوكب الساطع: جاحد مجمع عليه علماً ضرورة في الدين ليس مسلماً. وفي إذاء الدجنة:

وجاحد المعلوم بالضرورة باء بكفر وانتحى غروره

وأما الخامس: وهو إعلامك حكم إقامتك في بلد برنوا، فاعلم أن إقامتك فيها محرمة، لأنا قد بينا لك أنهم مرتدون بموالاة كفار بلادنا الحوسية ومظاهرتهم علينا، فصارت بلدهم بلد حرب، فوجبت هجرتك منها لى غيرها من بلاد الإسلام، لقوله عليه الصلاة والسلام: "إني بريء من مسلم ساكن بين المشركين"، ولقوله عليه الصلاة والسلام: "المؤمن والكافر لا تتراءى نارهما". أوردهما سيدنا المختار الكنتي في النصيحة الكافية، وقوله عليه الصلاة والسلام: "من جامع المشرك أو سكن معه فإنه مثله"، رواه أبو داود عن سمرة.

وأما قولك في وثيقتك: فمر جميع الفلاتيين أن يكفوا عن قتال برنوا وعن الغزو عليها، فلا يمكن بل لا يجوز، بعد أن علمنا أنهم كافرون بمظاهرتهم أهل حوس علينا. وفاعل ذلك كافر، كما بينه المغيلي في مصباح الأرواح في أصول الفلاح، كما مر بيانه.

والإصلاح لا يكون بيننا إلا بأحد أمرين: إما أن يرجعوا إلى الإسلام الصحيح، أو يطلبوا منا وضع القتال ودخولهم في السلم، ولا نظن أننا نكفرك ونكفر جماعتك الذين كانوا معك من المسلمين بمظاهرة أهل برنوا علينا، والعياذ بالله من ذلك، لأننا لا نكفر المبتدع المتأول، وكيف نكفر العالم السني وهو على التأويل في كلامه، إذ قد رأينا تأويلك في جميع وثائقك. وفي الدرر والقلائد:

من خالف الحق منا فهو مبتدع ولا نكفره ما دام تأويل

ومرادنا أنك على تأويل، أنك لم تعلم أنهم كفروا بمظاهرتهم الكفار علينا قبل مجيئك إليهم، لكنك تعتقد أنهم مسلمون، والفلاتيون المجاورون لهم مسلمون فوقعت الفتنة بينهم، ولم تعتقد أن قتال الفلاتيين جهاد، ولا أن بلادهم دار حرب.

ثم إن الفلاتيين كانوا يبتئدون لجمع الجيوش إليك، ثم تقوم للدفاع عن الأنفس والأهل، لما عرفت أنه واجب شرعاً، هذا مراد كلامنا أنك على تأويل، إذ لو عرفت أنهم كفروا بمظاهرتهم الكفار علينا قبل مجيئك إليهم، وكنت ولياً لهم دوننا لاشترك الإلزام، والعياذ بالله من ذلك.

ولا يقال: إنهم على تأويل لاشتراك العلة، إذ حالك مغاير لحالهم لأن إسلامهم غير محقق ولا مثبت عندنا، لما يؤثر عنهم تواتراً ممن خالطوهم وعرفوا أحوالهم، بأن لهم مواطن يركبون إليها، ويذبحون ويتصدقون ويرشون الدماء على أبواب قريتهم، وأن لهم بيوتاً معظمة فيها أصنامهم، ويفعلون للبحر كما تفعل القبط للنيل أيام الجاهلية. وكل هذا كفر في ظاهر حكم الشرع، وإن كانوا لا يعتقدون التأثير فيها، فهو إشراك تقليد. فلا يعذرون بما ظهر عليهم من مقاصد أخرى، كمن سجد لصنم مثلاً بمائة ألف درهم. فقد بان الفرق بين أمرك وأمرهم لأنك مسلم محقق إسلامه، بل عالم سني، وما سمعنا من العوام والخواص ممن عرفك، إلا من يحدث أنك عالم صالح. والسلام.

ذكر قدوم أمير المؤمنين محمد كما

ولما توفي أخوه محمد الباقر، ووليي بعده، كتب إلى الشيخ أنه ثابت على ما عليه أخوه قبل. ثم سار لبلدة أكوز ورجع لزيارة الشيخ والانسلاك في سلكه وتحمل ما تحمل أخوه قبل. فقدم إلينا بسكت. ثم سرت معه إلى محل الشيخ. ولما بلغ ومعه وزراؤه وأعوانه، أقر أنه ما جاء إلا ليتحمل ما تحمل أخوه، ويستفيد من الشيخ، ويواصل الجماعة ويعاونهم على البر والتقوى، ويتبرك بالشيخ ونؤكد المحبة والأمانة له ولجميع عيالهم القاطنين ببلاد السودان، فأجابهم الشيخ لما دعوه، وقرر لهم بما عنده.

فمن جملة ما قرر لهم أن دعاه أمير المؤمنين محمد كما ناصر الدين إلى معاونته ومساعدته إلى اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإحيائه والتزام الورع والتقوى في خاصة النفس، مع عدم الإنكار، إنكار الحرام على كل ما فيه خلاف، ولا سيما إن قلد فاعله في ذلك بعض العلماء، وترتب على فعله مصلحة شرعية، وأمره بالبراءة من كل عادة ردية وبدعة شيطانية، لأن كلا منهما مما لا يشهد له كتاب ولا سنة، ولا قول عالم من علماء السنة، أو حيث لا يعتقد به قول مخالف من العلماء ففي هذين الإنكار الكلي واجب، والسكوت عليه حرام.

ثم دعاه الشيخ إلى محاربة من حارب الشيخ، ومسلمة من سالمه، لأنه لا يحارب إلا من حارب الله ورسوله، ولا يسلم إلا من سالم الله تعالى.

ثم قال له: إن أجبتني إلى متابعة الحق والشرع، فأنا وجماعتي من أوليائك وأنصارك. فاحكم بالعدل والشرع، ولا تخف في الله لومة لائم، ولا تتوقف. فكل من خالفك فإني لا أزال أدعو الله أن يكفيني وإياك عن كل من خالف الحق وأراد نصر الباطل واتباع الهوى - ومتى دعوت جماعتي إلى جهاد فرقة خالفتكم في الدين، ومنعت حكماً من أحكام الله، أو حقاً من حقوقه، فإنهم يجيبونك وينصرونك، وتكفي

أمر الفتنة إن شاء الله.

ثم التفت إلى الوزراء والأعوان، وأمرهم بالسمع والطاعة له ومعاونته على ما تحمل ومساعدته، وأمرهم أن يحمدوا الله ويشكروه على ما خصهم بدعوته، فإنه لم يزل يدعو الله تعالى أن يؤيده بأحد ملوك هذه البلاد ووزرائه وأعوانه، فينصرونه، وعلى ما خصهم به دون غيرهم من أهل الأقاليم، مع أنهم لم يفوقوهم، وهم قد هلكوا وتشتتوا حين قاموا على المسلمين. وعليهم أن يساعدوه على اتباع الحق والسنة ونصرتهما على الباطل والبدعة، فقد سعدوا بهذا الزمان، وأنهم حينئذ خير من آبائهم وأجدادهم، حيث لم يوافقوا مثل هذا الزمان، وعملوا مثل ما عملوا. ثم أجابهم إلى ما دعوا إليه من تأكيد المحبة والأمانة كقومهم، فرفع أسماء وزرائه عن قومهم، وخلي شأنهم لهم، وأمنهم في تجاراتهم مع أنهم آمنون، وطلب منهم أن يؤمنوا سبلنا، ويخلوا بلادنا لمن والاها. فأجابوا وأذعنوا.

ثم دعونا نحن وإياهم على هذا العهد والميثاق. ثم لما رحلوا عشية قررت لهم كلام الشيخ، حتى فهمه كل من لم يفهمه قبل أو لم يحضر.

ثم لما رحلوا من عندنا شيعناهم إلى حيث ودعناهم وألقيت إلى من حضر من علمائهم سؤالات، وقلت لهم: قد قال لنا الشيخ: إن الإنكار فيما أجمع على وجوبه أو تحريمه.

وأما المختلف فيه فلا إنكار فيه إنكار الحرام، ونحن نرى أموراً ترتكب من جهتكم، وهي عندنا مما أجمع على وجوبها أو تحريمها، فما عذركم في عدم القيام لها والإنكار عليها؟ حتى يشتهر عند كل وجوبها أو تحريمها، فلو كان لكل مستند صحيح فعلمونا:

السؤال الأول: إيتاء الزكاة، فهو عندنا واجب إجماعاً، مثل الصلاة، وقد استفاضت الأخبار أن أكثر أصحاب الأموال عندكم يقرون بالإسلام ويصلون، ولا يؤتون الزكاة، ولم يبلغنا أن علماء آهير اتفقوا على الإنكار عليهم وضللوهم في ذلك، وإنما يبلغنا من الآحاد. وكيف يصح إسلام من فرق بين الصلاة والزكاة؟ وكيف لا يجب القيام على مانع الزكاة للإمام إن وجد، وللجماعة إن فقد، وقد روي على ذلك.

السؤال الثاني: التوريث على مقتضى الكتاب والسنة، فهو عندنا واجب إجماعاً، وعدمه بدعة شنيعة مخالفة للكتاب والسنة وأقوال علماء الأمة.

السؤال الثالث: القصاص على مقتضى الكتاب والسنة واجب إجماعاً، وعدمه شرع لم يأذن به الله، وبقية من بقايا الجاهلية.

السؤال الرابع: عزل الإمام لغير كفر، وهو حرام عند جميع أهل السنة، ومن يعتد به من علماء الأمة.

فإذا ثبت هذا عندكم، كما ثبت عندنا، فكيف يسوغ لكم معاشرة من لم يظهر التوبة والإقلاع عنها، والركون إليهم وإظهار الرضا عنهم، وتعلمون أن هجران الفاسق واجب، وصحبته حرام. قال تعالى: "ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار".. الآية. وقال تعالى: "ودوا لو تدهن فيدهنون".

قال القرطبي: والفرق بين المداورة والمداهنة: أن المداورة بذل الدنيا لإصلاح الدين أو الدنيا أو كلاهما معاً، وهي مباحة، وربما استحبت، وأما المداهنة، فهي ترك الدين لإصلاح الدينا. وفسرها ابن بطال بأنها معاشرة الفاسق، وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه. وفسر المداورة بأنها الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق بالنهي عن المنكر فعله، وترك الإغلاظ عليه، حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل سيما إذا عدت الحاجة إلى تأليفه أو كان لا ينجع فيه إلا مثل ذلك أو نحوه. أليس من الواجبات على أمير المؤمنين ناصر الدين وجماعته أن يحملوهم على العمل بالكتاب والسنة وأقوال علماء الملة، ويخرجوهم من كل عادة خالفت ذلك أو صادفته إن قدر هو وجماعته المؤثرون لاتباع الحق، أو ينحازوا عنهم ويهجروهم، ليرتدعوا بذلك، أو يهاجروا إلى جهة يتمكنون فيها من إقامة الدين ونصرة الحق، وينعزلوا عنهم وعن أمرهم، إذ الهجرة من بلد الكفر والمعصية والبدعة إلى دار الإيمان والطاعة والسنة متعين بل واجب إن قدر عليه ووجد المهاجر. نص على هذا ابن جزي في القوانين، وصاحب المدخل وغيرهما.

ومقصودنا بهذا الكلام النصح والتنبيه، ولكن أنتم أعرف بأحوالكم فيما تأتون وتذرون، وما تبدون وما تكتمون، وإعذارنا إياكم في أحوالكم وجميع أموركم أولى وأحرى، إذ أنتم أعرف بها منا، وصاحب البيت بما فيه أدرى، وأنتم لا تغفلوا عنا في النصح والتنبيه.

فالمؤمنون بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. وفي الحديث الوارد عنه صلى الله عليه وسلم: "لن تهلك أمة مع التناصح". فبقاء الدين وقيام ما درس من معالمه، إنما هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمناصحة والتواصي على الحق والصبر عليه والمرحمة والمعونة على البر والتقوى. جعلنا الله وإياكم ممن حبب إليه الإيمان وزينه في قلبه، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، وجعلنا من الشاكرين، والأئمة الهادين المهتدين. ونتضرع إلى الله وندعوه بكرم وجهه

وجلالة قدره وإحاطة علمه وقدرته وبكلماته التامات وكتبه المنزلة وبالقرآن العزيز وبالرسل والأنبياء وبمحمد عبده ورسوله، أن يتولى أمورنا ويحسن عواقبنا ويرشدنا إلى ما فيه سعادتنا ديناً وأخرى بحوله وقوته. الله أكبر، لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه. "ربنا عليك توكلنا وإليك أننا وإليك المصير". والسلام.

ذكر ورود وثائق السلطان مولانا سليمان سلطان المغربة

وقد قدمنا أن أمير آهير محمد الباقر لما قدم على الشيخ زائراً ومنسلكاً في سلكه أقام شهراً متصفحاً أحوال الشيخ ويأخذ منه. ثم إنه لما رجع لبلاده كتب إلى مجاوريه بأحوال الشيخ مما رأى وعمل، فسار البريد بالوثائق فورد بعد وفاته البريد لسلطان المغارب بوثيقتين كريمتين مختومتين، وكان البريد من أهل توني، وهو رجل صالح عالم صوفي ونص الوثيقتين:

بسم الله الرحمن الرحيم، بسم الله وبالله، وما توفيقي إلا بالله، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. "فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله". الحمد لله الذي هدانا للإيمان والإسلام، وأزكى الصلاة والسلام على سيد الكونين والثقلين والفريقين من عرب ومن عجم، وعلى آله وصحبه وكل من انتصر به.

ومن تكن برسول الله نصرته أن تلقه الأسد في آجامها تجم

وبعد السلام التام المحفوف بمزيد الإكرام، على أخينا في الله سلالاة السلاطين، والخلفاء الأساطين سلطان أهير، السلطان السيد محمد الباقري بن السلطان محمد العدال.

فلتعلم أنه أتى حضرتنا العلية باليد صحبة هديتك الدالة على حسن طويتك، كتاب منك كريم، فتلقيناه بالتبجيل والتكريم، وفتحناه فإذا هو مخبرنا عن حسن حالكم وما فتح الله به عليكم من بلوغ آمالكم، ومخبر عن حال الفقيه النبيه الصالح السيد عثمان بن محمد ابن فودي، صالح الذي أقام ببلادكم منار الإسلام، وأحيا سنة النبي عليه الصلاة والسلام، وأخمد البدعة والضلالة، وهدم أركان الجهالة، وشن الغارات على بلاد الكفرة، حتى كسر شوكتهم وأضعف مملكتهم، وقهر أهل الطغيان والفساد، وعلا به الإيمان وساد. وزاد في شرح حاله عندنا حامل كتابكم إلينا الشيخ عثمان بن محمد بن منصور، بلسان طلق غير ذي عي وقصور، وأطال لسانه بالثناء عليكم وعلى وزيركم، حتى خلنا أن العدل عليكم مقصور، فحمدنا إليكم الله الذي يتوكل عليه المتوكلون، وبه نستعين، وهو سبحانه القوي المعين، ونسأله تعالى أن يسبل عليكم مننه

ومنحه ويديم على أعاديكم نقمه ومحنه، وحسن طويته، وتصديق فعله، وقد ذلل قطوفه لناظره تذليلاً.

إن الكـــلام لفـــي الفـــؤاد وإنمـــا جعـــل اللـسان علـى الفـؤاد دلـيلا

ومما زاد غبطة فيه وميلاً إليه ثناؤكم الجميل الدال على حسن سيرتكم وخلوص سريرتكم، وأن القصد وجه الله والعمل بقوله جل وعلا: "وتعاونوا على البر والتقوى" الذي هو معتمد المؤمن في التمسك بحبل الله الأقوى، وها نحن - إن شاء الله - لا ننساكم من الدعاء في الخلوات والجلوات، وفي مظان الإجابة وأدبار الصلوات. فلا تنسونا أنتم من مثل ذلك أيضاً في أوقات الاستجابة وحالة الرجوع إلى الله والإنابة، وأن يعيننا على ما كلفنا به من أمور الرعية. وإن الأمير أحوج إلى صالح الأدعية، سيما في هذا الزمان الذي انتشرت فيه المفاسد، وطار به صيت كل فاسد، ولم يوجد من ببذل للأمير النصح المجرد ولو رجلاً واحداً تفرد.

وإذا صـفا لـك مـن زمانـك واحـد فاشـدد علـيه وأيـن ذاك الـواحد

وقد صفا لك في هذا القائم - فيما ذكرت لنا - وكتبت به إلينا، فاشدد بيدك عليه، وأدم إحسانك إليه. ختم الله لنا ولك بالخاتمة الحسنى، وجعلنا جميعاً من أهل المقر الأسنى، بجاه النبي وعترته، وكل من هو ناصر لملته، ويصلك الطابع الذي بعثت عليه على الوصف الذي أشرت في كتابك إليه، صحبة رسولك الشيخ عثمان، الذي وصفتموه بغية الوصف والأمان، ولم نجد بداً من إسعافك لما طلبت توفية بحق مالك في جانبنا من المحبة التي عليها طبعت، فنسأل الله أن يلهمنا ما يبيض محيانا ومحياك، وأن يغفر لنا من فضله ما جنيناه، ويجعل خير أيامنا وأسعدها يوم نلقاه، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير. وبتأريخ أواسط جمادي الآخرة عام خمسة وعشرين ومائتين وألف، وهنا انتهى نص الوثيقة الأولى.

ونص الثانية:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلواته على سيدنا محمد المصطفى الكريم، وعلى آله وصحبه الذين انتهجوا نهجه القويم، إلى السيد الذي فشا في أقطار السودان عدله، واشتهر في الآفاق المغربية ديانته وفضله، العلامة، النبيه العديم في زمانه الشبيه، ذو النورين: العلم والعمل اللذين هما منتهى الأمل، السيد عثمان بن محمد بن عثمان بن صالح الفلاني، نفع الله بعلومه القاصي والداني. وسلام منا عليه، ما اشتد شوقنا إليه، ورحمة من الله تغشاه، حتى لا يخشى إلا الله "والله أحق أن تخشاه".

وبعد فقد بلغنا من الثناء عليك والتعريف بأحوالك وأفعالك وأقوالك ما أوجب

محبتنا عليك وتسلمنا إليك، وذلك على لسان سلطان محبتنا للسلطان ناحيتكم وأمير الطوائف الإسلامية بساحتكم المقر في كتابه بفضلك، وأنك ناصح لله، وعليه مدار محبتنا للسلطان محمد الباقري بن محمد العدال، فإنه أخبرنا بما قمت به من الأمر الواجب: من الأمر المعروف والنهي عن المنكر الذي له نصب الرسول والأمير والوزير والحاجب، حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً وترادفت عليك وفود الإسلام أمواجاً وصرت يلطف شمائلك إنسان العين من عين الإنسان.

والناس أكيس من أن يمدحوا رجلا   ما لم يروا عنده آثار إحسان

وهذا من أعظم منح الله وأتم النعم، كما يشهد الحديث: "لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم". فالله تعالى يجازيكم عن الإسلام خيراً، ويقيكم ضيراً ويديم دولتكم محفوفة محفوظة وبعين العناية ملحوظة وفي حصن الله الحريز آمنة. قال الله سبحانه: "ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز. الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور". والسلام. معاد على جنابكم الذي صار للإسلام بخلوص نصيحتكم كالبيت المعمور، وفي الثاني عشر من جمادي الآخرة عام خمسة وعشرين ومائتين وألف.

ويقال: إننا ننسب هؤلاء الشرفاء من جهة جدتنا فاطمة، التي يقال: أنها من ذرية الفقيه الصالح عبد السمد بن الشيخ الولي الحاج - وقبره ظاهر يزار في مقبرة معروف يقال لها: عجواء، في مغرب حصن أغذاد وقريب من الحصن من الأولياء والصالحين أحمد بن ترفيت المعروف بالفيلالي، وهو من ذرية مولاي إدبيس الذي هو أخو مولاي إسماعيل والله تعالى أعلم. والسلام.

تذنيب

واعلم أن موجب جهادنا هذا أمران:

الأول الدفع عن الأهل والأنفس والدين، إذ قد بينا سبب هذا الأمر وباعثه فيما مر في غير ما موضع، وهذه المقاتلة حيثما وقعت بيننا وبين الناس. إنما أصلها الدفع، لأننا ما قمنا إلا لدفع أمير غوبر حين بغي علينا واعتدى وصلا. فلما قاتلناه غلبناه، "ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين". أرصد لنا إخوانه الذين أذنوا له في محاربتنا، وعاهدوا له المساعدة والمعاونة علينا، فصالوا علينا، فقمنا أيضاً دافعين عنا، حتى أنجز الله وعده ونصرعبده وهزم الأحزاب وحده، إنه هو القوي العزيز، فأنزل الكفار دار البوار وألبسهم لباس الهوان وعزز أهل الدين ونصرهم في سائر البلدان، فاستأصل الله شجرتهم وأزال شوكتهم، "فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين"،

وجعل المسلمين خلائف في الأرض ومكنهم في الطول والعرض، ولله عاقبة الأمور.
ثم إنه لما قاتلنا هؤلاء فقتلنا منهم من قتلنا، وأخرجنا من أخرجنا. أرصد لنا مجاوروهم من أهل البلاد لينجدوهم علينا، كأهل برنوا وأهل أهير وجميع من والى هذه البلاد ممن يحاربنا. وكل من حاربنا حاربناه، إنما لأجل ما ذكرناه من قيامهم لنصر مجاوريهم علينا وموالاتهم دوننا، ونحن لم نبتدئ أحداً في هذا القتال إلى الآن. وإن كان يسوغ ويتمكن إنما ندافع من صال علينا ابتداء منه أو نصرة لأوليائه المجاورين لنا، وهذا الذي ذكرناه عندنا وعند كل من يعرف حقيقة هذا الأمر مما علم ضرورة.

الأمر الثاني: محاولة نصر الحق على الباطل، والسعي في مصالح المسلمين، إذ جهاد الكفار لكل من قدر واجب، بعد كمال الشروط.

وأما جهاد الكفار الأصليين مع الإمكان فواضح.

وأما جهاد الكفار المرتدين فكذلك.

وقد قدمنا أن ملوك بلادنا هذه وجنودهم وعلماء السوء من هذا القبيل، لأنهم وإن كانوا يدعون لأنفسهم بالإسلام ويفوهون بكلمتي الشهادة ويأتون بصورة الصلاة والصيام، فهم مقترنون بما لا يصدر إلا من كافر، كجهل ما يقدح في العقيدة والذبح للأشجار والأحجار وإنكار الحق المبين، وبعضهم يصرح على نفيه بالكفر ولا يدعي الإسلام، وبعضهم يأخذ من العباد وينكر الأحكام وغير ذلك.

والحاصل: أن أحوال ملوك بلادنا هذه كأحوال "سن علي" من ملوك سنغي حسبنا ذكر عنه محمد بن الحاج أسكيا، كما مر، فأجابه الشيخ المغيلي بأن ما ذكر عنه علم على كفره بلا شك، وكذلك كل من عمل بمثل عمله، وأنهم أظلم الظالمين الفاسقين الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض.

فالجهاد فيهم وفي أنصارهم وأخذ السلطنة من أيديهم من أفضل الجهاد وأهمه، وإذا فهمت ما قدمناه علمت أن جهادنا هذا، وإن كان دفعاً، ففيه نصر الحق على الباطل والسعي في المصلحة وفك رقاب المؤمنين من أسر الكفرة، ولا يخفى أن الجهاد واجب في هذه البلاد لمن قدر، ولو لم يكن دفع.

وقد قدمنا أن سيدنا المختار الكنتي قال في كتابه الجرعة الصافية والنصيحة الكافية: بلد السودان بلد غلب على أكثر أهلها الكفر، ومن فيها من المسلمين تحت قهر الكفرة قد اتخذوهم أمراء، والناس يعملون بعمل أميرهم غالباً، وقد غلب عليهم ظلمات الجهل والهوى والكفر. ولهذا نهى عن السفر إلى أرض العدو وبلاد السودان. وهذا الذي ذكره سيدي المختار الكنتي هو المعروف في البلاد السودانية هذه قبل الجهاد.

وأما قول أحمد باب حين أجاب بأن هذه البلاد التي هي برنو وكاشنة وبعض ذكرك [=زكزك] وما قاربها بلاد إسلام، فيحتمل أن يكونوا أسلموا في الأزمنة المتقدمة إلى زمان أحمد باب، ثم ارتدوا بعد، ويحتمل أن يكون لعدم مخالطته بهم ومعرفته بالحقيقة حكم بما ظهر له وفشا في الأخبار، ويحتمل أن يكون نظر إلى استفاضة الإسلام فيها في غير سلاطينه.

والاحتمال الثاني أظهر، لأنهم لو أسلموا وخلصوا دينهم لسمع ونقل إذ لم يبلغنا أنهم فارقوا أحوال أجدادهم الأولين الكافرين إلى زماننا، وإن كانوا ظاهرين بالخير والإسلام.

قال شيخ شيوخنا جبريل بن عمر: وأما ما وقع في بلاد السودان - يعني من المخلطين أعمال الكفر بأعمال الإسلام الذين هم غالب ملوك هذه البلاد وجنودهم - فليس ببدعة ولا تحريف ولا تغيير ولا اتخاذ سنة، بل هو كفرهم الذي بقوا عليه، إذ لم ينقل عن أحد أنهم تركوه قط، ولو نقل لسمع. ثم قال: إلا أنهم لما أدخلوا على ظلمهم أنوار الصلاة والصيام والتلفظ بلا إله إلا الله، ظن الجاهل منهم وقليل العلم أنهم مسلمون، كلا إنهم ليسوا بمسلمين.

واما الثالث من الاحتمالات فمرجوح أيضاً، لأن المعروف من البلد حكم سلطانه، فإن كان مسلماً كان البلد دار لإسلام، وإن كان كافراً كان البلد دار كفر، تجب الهجرة منه إلى غيره إن وجد وأمكن.

وعلى هذا الذي ذكرناه يحمل قول كل من حكم في هذه البلاد بأنها دار إسلام قبل هذا الجهاد. والذي ذكرناه فيها أنسب إلى الحق، وفي القبول أولى وأحرى، لأنا ساكناهم وخالطناهم وعرفنا أحوالهم وصاحب البيت بما فيه أدرى، والله أعلم.

وأما اليوم فقد صارت دار إسلام، إذ أزال الله شوبها، وأبقى خالصها وبركة هذا الشيخ الذي من الله بظهوره، وأيده بالكرامات الظاهرة والأنوار الباهرة، فنفع السعداء دعوته، فسمعوا وأطاعوا، وقمع الأشقياء البعداء سطوته فأذعنوا وأطاعوا، فأزال فيها شبه الضلال، فلم يبق فيه اليوم أشكال. فدوخ الله له هذه البلاد، وأقام فيها بالعدل والقسط بين العباد، وأقام بكل إقليم نائباً عنه يقوم بالأمر كما ينبغي، فأقيمت الصلاة وأديت الزكاة وأقيم الجهاد ونشر العلم وأطفئت الفتن وقمع البغاة وأنصف المظلوم وسبلت السبل وصين الدين والدنيا، ولا جرم أنه من الخلفاء الراشدين والأئمة الهادين المهتدين. وهو القائم المبعوث المجدد في هذا الأوان، إذ لله تنفيس لعباده، ولو في آخر الزمان:

فإن شئت فأوجز في وصفه أو أطنب، وإن شئت فقصر أو أسهب، فإن الوصف يقصر عن مزاياه، فهو قطب الوقت الأفخم والغوث الأعظم، فالعلماء نجوم، وهو القمر، بيد أنه لا يدعي أنه المهدي المنتظر، وجدير أن يقال فيه:

ما في علاه مقالة لمخالف فمسائل الإجماع فيه تسطر

تتمة

وينبغي أن نسوق الكلام هنا في حكم استرقاق أهل هذه البلاد، وقد قدمنا أن أقسام أهل هذه البلاد ثلاثة أقسام:

قسم مؤمنون مخلصون، وهؤلاء النادر قبل ظهور الشيخ، وقسم مخلطون أعمال الكفر بأعمال الإسلام، وهؤلاء غالب ملوك هذه البلاد وجنودهم وعلمائهم السوء، وقسم كفار بالأصالة لم يدخلوا في الإسلام أصلاً، وهؤلاء عامة السودانيين الذين يقال لهم "ماغذاو". وإذا فهمت ما قدمناه علمت أن المجلوب إذا كان من ماغذاو يسترق، لأن الكفار بالأصال تسبى ذراريهم ونساؤهم وتقسم أموالهم، ولا خلاف في ذلك بين العلماء.

وأما الذين ارتدوا عن سبيل الإسلام ارتداداً ظاهراً، وصرح بأنه خرج عن دين الإسلام ودخل في غيره من دين الكفر وكانوا يزعمون أنهم مسلمون، وحكمنا بكفرهم لأجل أنه صدر منهم ما لا يقع إلا من كافر، كغالب ملوك هذه البلاد قبل الجهاد وجنودهم وعلمائهم الذين يجعلون لهم المكس، ويلبسون لهم الحق بالباطل، أو يعينونهم على غزو المسلمين بنصرهم، وهؤلاء يستتابون، فإن تابوا تركوا، وإن لم يتوبوا قتلوا بالسيف كفراً، وفي استرقاقهم خلاف. وفي المختصر: وإن ارتد جماعة فحاربوا فكالمرتدين. قال الشبرخيتي في هذا المحل في بيان معنى ذلك: يستتاب الكبير ويجبر الصغير ويوقف المال ولا تسبى العيال، وهو فعل عمر رضي الله عنه، وعليه جماعة العلماء وأئمة السلف إلا قليلاً، وقال أصبغ: كالكفار الحربيين يسترقون هم وأولادهم وعيالهم. ولعمري إنه أمر خالف فيه عمر أبا بكر في أهل الردة من العرب، فجعلهم أبو بكر الناقضين للعهد، فقتل الرجال وسبى النساء والصغار، وجرت فيهم المقاسم وفي أموالهم، وهو فعل أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وأما قول من قال: إن السودانيين من أهل هذه البلاد - ممن مر - مماليك البربر من أهل برنوا، فإن صح فهم فيء. والسلام.

فصل في الإشارة إلى مصنفاته الشريفة ومؤلفاته المنيفة

فمنها كتاب نور الأولياء

وكتاب عمدة البيان

وكتاب علوم المعاملة
وكتاب عمدة العلماء
وكتاب عندة المتعبدين والمتحرفين
وكتاب مرآة الطلاب
وكتاب حصن الأفهام من جيوش الأوهام
وكتاب أسانيد الضعيف
وكتاب السلاسل الذهبية
وكتاب عمدة العباد
وكتاب كف الطالبين عن تكفير عوام المسلمين
وكتاب عمدة دعوة العباد إلى كتاب الله
وكتاب أصول الولاية
وكتاب ترغيب عباد الله في حفظ علوم دين الله
وكتاب رجوع الشيخ السنوسي عن التشديد في التقليد
وكتاب تمييز المسلمين من الكافرين
وكتاب التصوف
وكتاب تلخيص كتاب الحارث المحاسبي
وكتاب نصائح الأمة المحمدية
وكتاب الفصل الأول
وكتاب سوق الصادقين
وكتاب إحياء السنة وإخماد البدعة
وكتاب شفاء الغليل في كل ما أشكل من كلام شيخنا جبريل
وكتاب المسائل المهمة
وكتاب الجهاد، وغيرها مما نف على مائة مؤلف، وفي القدر المذكور كفاية لمن تأمل

فصل في كرامات الشيخ رضي الله عنه

وللشيخ كرامات لا تعد ولا تحصى، ولا يحملها إلا ديوان وحده. ولو لا أن الحال ضيق علينا لأوردنا منها بعض ما شاهدناه بأنفسنا، ولكن إذا أذن الله لنا فسنفرد لها إن شاء الله تأليفاً مستقلاً. والحمد لله.

فصل في الإشارة إلى أولاد الشيخ رضي الله عنه

وله من الأولاد: محمد سعد، وعلي، ومحمد ثنب، ومحمد بل المؤلف، وأبو

بكر، وعمر، ومحمد البخاري، ومحمد حاج، والحسن، وآخرون صغار، وله من البنات: خديجة، وعائشة، وفاطمة، وحفصة، وعائشة أخرى، وسودة، وأسماء، وحنة، وأخر متن صغيرات، وأخر موجودات.

ونجب من أولاده: الكبير محمد سعد، نشأ فتعلم القرآن والعلم وقرأ النحو والتصريف، وفسر القرآن والحديث. والحاصل: إنه نقل فأوعى، وظهر فيه البركة والنجابة. وعليه قرأت النحو: قرأت عليه الألفية حتى انتهيت إلى باب جمع التكسير، فأهل رمضان، وفأقبلنا إلى استماع التفسير، وتوفي في الآخر من الشهر في صباح الفطر، وتوفي معه صاحب الشيخ الفقيه المحدث المتفنن الصالح التقي الرضى أبو محمد محمود، رحمه الله، وعليه قرأت الرامزة حتى انتهيت إلى أثنائها.

ولنرجع إلى ما نحن بصدده من ذكر أولاد الشيخ.

وممن نجب من أولاد الشيخ: محمد ثنب العالم العلامة الجامع بين الشريعة والحقيقة الصوفي، لكنه يتوحش عن الخلق أحياناً وينقبض، ثم يفيق أحياناً.

وممن نجب منهم: المؤلف محمد بل، وستأتي ترجمته في الوزراء وباقي أولاده الموجودين لا بأس بهم، فيهم البركة، ويرجى لهم صلاح الحال والنجابة.

فصل في الإشارة إلى وزرائه

وله من الوزراء صاحبه التقي الرضى الصوفي عمر الكموني، صاحب الإشارات السنية والعبارات الجميلة. صحب الشيخ أولاً، وآزره وخدمه، وله عند الشيخ مكانة.

ومنهم: وزيره الأكبر وركنه الأبهر شقيقه الأستاذ أبو محمد عبد الله بن فودي، العالم العلامة النظار الفهامة شيخنا البركة، المصنف المفسر المحدث الراوية الحافظ المقرئ المجود النحوي اللغوي البياني المتفنن الآخذ من كل فن بأوفر نصيب الراتع من كل علم في مرعاه الخصيب الشهير الرحالة آخر السادات الأعلام وخاتمة النظار ذو التحقيقات البديعة والأبحاث الأنيقة الغريبة المتفق على شرع. له القدم الراسخة والرحب الواسع في كل مشكل، سيف الله على ذوي البدعة معدن الصدق والعلم وزناد الفهم، كان آية في تحقيق العلوم مفرط الاطلاع على المنقول في الفنون جامع شتات العلوم فاضل وقته وأعجوبة أوانه. له تواليف: منها نظمه على النقاية، ومنها سلالة المفتاح.

وحاصله أنه رمى بسهام في كل فن وأصاب، وهو العجب العجاب. صحب الشيخ من صغره، وقرأ القرآن وتعلم العلم منه، وأخذ عن الشيخ جبريل والشيخ أحمد بن غار وغيرهم.

ووازر الشيخ وخدم له، وكفاه المهمات من أمره، وجاهد في الله، وقام بأمواله،

لا تأخذه في الله لومة لائم، وسار بمسيرة حسنة ووصل الأرحام وشفى الأسقام، فالله يجزيه عن الإسلام خيراً، وكفاه من كل شر وضير.

ومنهم العالم العلامة الفقيه النبيه إمام المسجد محمد ثنب، من أصحاب الشيخ، ولي أمر خطة الإمامة والقضاء واستشهد بننشو.

ومنهم المؤلف، كنت منذ نشأت وقرأت القرآن وتعلمت العلم لازمت الشيخ أتصفح أحواله وأستمع إلى مقاله، وأنا غلام حدث حتى حصل لي من بركة الشيخ ما سار به الركبان، وحدث به المسار في العمران. أخذت العربية والبلاغة عن العم المذكور، وقرأت عليه الأصلين، وقرأت عليه إضاءة الدجنة والكوكب الساطع، وقرأت عليه الألفية ولامية الأفعال يشرحها الجامع بين اللغة والتصريف، وقرأت عليه في البلاغة تلخيص المفتاح والجوهر المكنون، وأخذت عن الشيخ الوالد التفسير وأصول الدين والحديث، وقرأت عليه الإنسان الكامل في الحقيقة، وأخذت عنه علوماً جمة وفوائد كثيرة، واشتهرت بين الطلبة مع الملل والكلال. وصحبت الشيخ ووازرته وقمت بأموره، وجاهدت العدو وأنجعت، وأنفقت بقدر الطاقة على الموسع قدره وعلى المقتر قدره.

فصل في الإشارة إلى خدامه

وله: كر منغ وسليمان وثنب وسليمان آخر، يقال له بلغبه، وود وغيرهم.

فصل في الإشارة إلى عماله

ولما فتح الله له البلاد ولى أخاه الوزير سائر بلاد الغرب، واستعمله عليها ليرعى له فيها ويعدل، وولاني سائر بلاد الشرق واستعملني عليها لأراعي فيها بالعدل، وقام كل واحد منا على قدر ما استطاع، وبسط العدل في كل من حضره، وأقام كل واحد منا على ما يعد فيه نائباً على كل إقليم من بلادنا.

ومن العمال الذين من جهتي: أبو حامد على زنفر، وعمر دلاج على كاشنة، وسليمان بن أبحم على كنوا، ويعقوب على ياوش [باوش؟]، وإسحاق على دور، وإبراهيم على برنوا جميعها، ومحمد منغ على برنوا الشرقية، وأيوب على ما والاه من بلاد ياوش.

فصل

ويليها من جهة الشمال بلد سنغي وهو بلد واسع يعمرها بقايا صنهاجة والعجم والفلان، وهو إقليم ظهر فيه الخير والبركة، وفشا فيهم الإسلام، وتولى عليهم العدول من الأمراء، وكان فيها من العلماء والصلاح من لا يحصيه إلا الله.

فصل

من علماء هذا الإقليم عبد العزيز التكروري، رحل إلى الشرق في زمن أبي

القاسم التويري، أواسط التاسعة وكان عالماً، فعزا لأهل مصر مسائل المختصر كلها لأصولها - على ما قيل - إلا نحو ثلاثة، سمعته من شيخنا العلامة محمد بغيع رحمه الله. نقل عنه الحطاب في مواهبه وذكر في معجم السيوطي عبد العزيز التكروري وهو غير هذا فيما يظهر، والله أعلم، فانظره.

ومنهم محمد بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى بن محمد الصنهاجي، قاضي تنبكت، كان فقيهاً فهاماً داركاً ثاقب الفهم، من عقلاء الناس ودهاتهم، ولي القضاء بعد أبيه، فساعدته الدنيا. فنال ما شاء من دولة ورئاسة، وحصل له دنيا عريضة. شرح رجز المغيلي في المنطق. وأخذ عنه والدي البيان والمنطق، وتوفي في صفر سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة، مولده عام تسع وتسعمائة.

ومنهم محمد بن محمد بن أبي بكر الوانكري التنبكتي، عرف ببغبع - بباء مفتوحة فغين معجمة ساكنة فباء مضمومة فغين مهملة مضمومة - شيخنا وبركتنا الفقيه العالم المتفنن الصالح العابد الناسك، كان من صالح خيار عباد الله الصالحين والعلماء العاملين، مطبوعاً على الخير وحسن النية وسلامة الطوية والانطباع على الخير واعتقاد في الناس، يتساوون عنده في حسن ظنه بهم وعدم معرفته الشر، يسعي في حوائجهم ويضر نفسه في نفعهم، ويتفجع لمكروههم، ويصلح بينهم، وينصحهم إلى محبة العلم وملازمة تعليمه، وصرف أوقاته فيه ومحبة أهله والتواضع التام، وبذل نفائس الكتب الغريبة العزيزة لهم، ولا يفتش بعد ذلك عنها كائناً ما كان من جميع الفنون، فضاع بذلك جملة من كتبه - نفعه الله بذلك. وربما يأتي لبابه طالب يطلب كتاباً فيعطيه له من غير معرفته من هو، فكان العجب العجاب في ذلك، أثيراً لوجهه تعالى، مع مجبته للكتب وتحصيله شراء ونسخاً. وقد جئته يوماً أطلب منه كتب نحو، ففتش في خزانته فأعطاني كل ما ظهر به منها، إلى صبر عظيم على التعليم آناء النهار وعلى إيصال الفائدة للبليد بلا ملل ولا ضجر، حتى يمل حاضروه، وهو لا يبالي حتى سمعت بعض إخواننا وأصحابنا يقول: أظن هذا الفقيه شرب ماء زمزم لئلا يمل في الإقراء، تعجباً من صبره مع ملازمة العبادة والتجافي عن درن الأخلاق وإضمار الخير لكل البرية حتى الظلمة، مقبلاً على ما يعنيه مجتنب الخوض في الفضول، وارتداء من العفة والمسكنة أزين رداء، وآخذ بيده من النزاهة أقوى لواء، مع سكينة ووقار، وحسن أخلاق وحياء سهل الورود والإصدار، فأحبته القلوب كافة، وأثنوا عليه بلسان واحد إلى الغاية، فلا ترى إلا محباً مادحاً ومثنياً بالخير صادقاً، طويل الروح، لا يأنف من تعليم مبتدئ أو بليد، أفنى فيه عمره مع تشبثه بجوامع العامة، وأمور القضاة، لم يصيبوا عنده بديلاً ولا

ناولا له مثيلاً. طلبه السلطان لتولية القضاء فأنف منه وامتنع وأعرض عنه واستشفع، فخلصه الله تعالى. لازم الإقراء، ولا سيما بعد موت سيدي أحمد بن سعيد، فأدركته أنا يقرأ من صلاة الصبح، أول وقته إلى الضحى الكبير، دولاً مختلفة، ثم يقوم لبيته وهو يصلي الضحى مدة، وربما مشى للقضاء في أمر الناس بعدها، ويصلح بين الناس، ثم يقرأ في بيته وقت الزوال ويصلي الظهر بالناس، ويدرس إلى العصر، ثم يصليها ويخرج لموضع آخر يدرس فيه للاصفرار أو قربه، وبعد المغرب يدرس في الجامع إلى العشاء ويرجع لبيته، وسمعت أنه يحيى آخر الليل على الدوام، وكان محققاً دراكاً، ذكياً فطناً غواصاً على الدقائق، حاضر الجواب، سريع الفهم، منور البصيرة، سكوتاً صموتاً وقوراً، وربما انبسط مع أصحابه ومازحهم، آية الله في جودة الفهم وسرعة الإدراك، معروفاً بذلك، أخذ العربية والفقه من الفقيهين الصالحين: والده وخاله، ثم قطن مع أخيه الفقيه الصالح سيدي أحمد شقيقه تنبكت ولازما الفقيه أحمد بن سعيد في مختصر خليل، ثم رحلا للحج مع خالهما، فلقوا الناصر اللقاني والتاجوري والشريف يوسف الأرصيوني والبهمتوشي الحنفي والإمام محمد البكري وغيرهم، فاستفادا منه. ثم رجعا بعد حجهما وموت خالهما فنزلا بتنبكت، فأخذا عن ابن سعيد الفقيه الحديث، قرءا عليه الموطأ والمدونة والمختصر وغيرها، ولازماه، وعن سيدي والدي الأصول والبيان والمنطق وقرأ عليه أصول السبكي وتلخيص المفتاح، وحضر عليه شيخنا بعد موت أخيه جمل الخونجي، ولازم مع ذلك الإقراء حتى صار من خيار أشياخ وقته في الفنون لا نظير له، ولازمته أكثر من عشرين سنة، فختمت عليه مختصر خليل بقراءتي وقراءة غيري نحو عشر مرات أو ثمانية وختمت عليه الموطأ فراءة فهم، وتسهيل ابن مالك قراءة بحث وتحقيق مدة ثلاث سنين، وأصول السبكي بشرح المحلي ثلاث مرات، قراءة تحقيق، وألفية العراقي بشرح مؤلفها، وتلخيص المفتاح بمختصر السعد مرتين فأزيد، وصغرى السنوسي، وشرح الجزائرية، وحكم ابن عطاء الله مع شرح زروق، ونظم أبي مقرعة والهاشمية في التنجيم مع شرحها، ومقدمة التاجوري، ورجز المغيلي في المنطق، والخزرجية في العروض بشرح الشريف البستي وكثيراً من تحفة الحكام لابن عاصم مع شرحها لواده كلها بقراءتي.

وفسرت عليه القرآن العزيز إلى أثناء سورة الأعراف، وسمعت بلفظه جامع المعيار للونشريسي كاملاً، وهو سفر كبير، ومواضع أخر منه.

وباحثته كثيراً في المشكلات، وراجعته في المهمات. وبالجملة فهو شيخي وأستاذي، ما نفعني أحد كنفعه وبكتبه، رحمه الله تعالى وجازاه بالجنة.

وأجازني بخطه جميع ما يجوز له وعليه، وأوقفته على بعض تواليفي فسر به، وقرظني عليه بخطه، بل كتب عني من أبحاثي وسمعته ينقل بعضها في درسه، لإنصافه وتواضعه وقبوله الحق حيث تعين. وكان معنا يوم الواقعة علينا، فكان آخر عهدي به. ثم بلغني أنه توفي في شوال عام اثنتين وألف. ومولده عام ثلاثين وتسعمائة على ما سمعته منه.

له تعاليق وحواش نبه فيها على ما وقع لشراح خليل وغيره، وتتبع ما في الشرح الكبير للتتائي من السهو نقلاً وتقريراً في غاية الإفادة، جمعتها في جزء تأليفه، رحمه الله تعالى.

ومنهم أحمد بن محمد بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى الصنهاجي التنبكتاوي، جد والد أحمد باب، يعرف بالحاج أحمد، أكبر الأخوة الثلاثة، شهروا علماً وديناً في قطرهم، من أهل الخير والفضل والعلم والدين، حافظاً على السنة والمروءة والصيانة والتحري، محباً في النبي صلى الله عليه وسلم، ملازماً لقراءة قصائد مدحه وشفاء عياض على الدوام، فقيهاً لغوياً نحوياً عروضياً محصلاً، اعتنى بالعلم على طول عمره، وله كتب عدة كتبها بخطه مع فوائد كثيرة. أخذ عن جده لأمه الفقيه القاضي أند محمد، وعن خاله الفقيه مختار النحو وغيرهما، شرق في عام تسعين وثمانمائة، وحج ولقي الجلال السيوطي وخالد الأزهري إمام النحو وغيرهما، ورجع في زمن فتنة الخارجي سني غال [سن علي] ودخل كنوا وغيرها من بلاد السودان، ودرس العلم وأفاد، وانتفع به جمع، منهم أخوه الفقيه محمود، قرأ عليه المدونة وغيرها واجتهد في العلم درساً وتحصيلاً، حتى توفي ليلة الجمعة في ربيع الثاني عام اثنين بل ثلاثة وأربعين وتسعمائة عن نحو ثمانين سنة، وطلب للإمامة في الجامع بالناس فأبى، فضلاً عن غيرها. ومن مشهور كراماته أنه لما زار القبر الشريف وطلب الدخول إلى داخله، منعه الخدم منه، فجلس خارجه يمدحه صلى الله عليه وسلم، فانحل له الباب بلا سبب فتبادروا لتقبيل يده. هكذا سمعت هذه الحكاية من جماعته.

ومنهم عبد الله بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى الصنهاجي المتوني، شقيق جد المتقدم، كان فقيهاً حافظاً زاهداً ورعاً صالحاً في غاية الورع والتقوى قوي الحفظ، درس بولاتن وتوفي بها سنة تسع وعشرين وتسعمائة وولد سنة ست وستين وثمانمائة. له كرامات.

ومنهم محمود بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى الصنهاجي التنبكتاوي، قاضيها، أبو الثناء وأبو المحاسن، عالم التكرور وصالحها، ومدرسها

وفقيهها بلا مدافع. وكان من خيار عباد الله الصالحين العارفين به، ذا ثبات عظيم في الأمور، وهدى تام وسكون ووقار وجلالة. اشتهر علمه وصلاحه في البلاد، وطار صيته في الأقطار شرقاً وغرباً، وظهرت بركته إلى ديانة وصلاح وزهد ونزاهة، لا يخاف لومة لائم، هابته الخلق كلهم، السلاطين ومن دونهم، فصاروا تحت أمره، يزورونه في داره متبركين به، لا يلتفت إليهم. ويهادونه بالهدايا والتحف تترى، وكان شيخاً جواداً يفرق ما أهدي له الناس. ولي القضاء عام أربعة عشر وتسعمائة، فسدد في الأمور وشدد، وتوخى الحق ودرأ الباطل وهده، فاشتهر عدله بحيث لا يعرف له نظير في وقته، مع ملازمته التدريس، وللفقه من فيه حلاوة وطلاوة، سهل العبادة بلا تكلف، حسن التكرار، فانتفع به كثيرون، وحيي العلم ببلاده، وكثر طلبة الفقه، ونجب جماعة منهم.

وأكثر ما يقرؤون المدونة والرسالة ومختصر خليل والألفية والسلالجية، وعنده انتشر قراء خليل هناك، وقيد عليه تقاييد، أبرزها بعضهم في سفرين. وحج عام خمسة عشر وتسعمائة، فلقي السادة الأجلاء، كإبراهيم المقدسي والشيخ زكريا والقلقشندي، من أصحاب الحافظ ابن حجر والقانيسي وغيرهم، عرف صلاحه، ثم رجع لبلاده ولازم الإفادة وإنفاذ الحق وطال عمره في الحق، فألحق الأنباء بالآباء، ودرس نحو خمسين سنة، حتى توفي في سنة خمس وخمسين ليلة الجمعة سادس عشر رمضان، وبلغ من الجلالة وتعظيم الناس له، وشهرة الذكر بالصلاح مبلغاً لم ينله غيره.

ولد سنة ثمان وستين وثمانمائة، أخذ عنه والدي رحمه الله، وأولاده الثلاثة القضاة: محمد والعاقب وعمر وغيرهم. ومنهم العاقب بن محمود ابن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى الصنهاجي، قاضي تنبكت، من بيت علم وديانة ورئاسة. كان رحمه الله مسدداً في أحكامه ثبتاً فهماً، طباً في الحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، قوي القلب جداً، مقدماً في الأمور العظام التي يتوقف فيها غيره، جسور على السلطان فمن دونه، لا يبالي بهم، وقع له معهم وقائع، وكانوا يخضعون له، ويهابونه، ويطاوعونه فيما يريد، إذا رأى ما يكره عزل نفسه، وسد بابه، فيلاطفونه حتى يرجعوا له مراراً، موسعاً له في دنياه، مجرداً في أموره، مع التحري والتقوى مهيباً جداً.

أخذ عن أبيه وعمه. رحل وحج ولقي الناصر اللقاني وأبا الحسن البكري والشيخ اليشكري وطبقتهم، أجاز له اللقاني كل ما يجوز له وعنه، وأجازني هو كذلك، وكتب لي خطه بذلك، ولد عام ثلاثة عشر وتسعمائة، وتوفي في رجب عام أحد وتسعين وتسعماشة.

ومنهم أحمد باب قال، الثقة أبو عبد الله محمد بن يعقوب الأديب المراكشي.

كان أخونا أحمد باب من أهل العلم والفهم والإدراك التام، حسن التصنيف، كامل الحظ من العلوم: فقهاً وحديثاً وعربية وأصلين وتاريخاً، مليح التأليف. ألف تآليف عربية مفيدة جامعة، فيها أبحاث: عنديات ونقلية، وهي كثيرة، كوضعه على مختصر خليل من الزكاة إلى أثناء التكلح في سفرين، وتنبيه الواقف على تحرير، وخصصت نية الخالف، في كراس، وتعليق على أوائل الألفية، سماه النكت الوفية في شرح الألفية، وآخر، سماه النكت الزكية، لم يكمل، ونيل الأمل في تفضيل النية على العمل، في شرح حديث "نية المؤمن أبلغ من عمله"، وآخر فيه سماه غاية الأمل في تفضيل النية على العمل، وغاية الاجتهاد في مساواة الفاعل للمبتدأ في شرط الإفادة، في كراسين، وآخر سماه النكت المستجادة في شرط الإفادة، والتحديث والتأنيس في الاحتجاج بابن إدريس، يريد بألفاظه في العربية، في ورقات، وجلب النعمة ودفع النقمة بمجانية الظلمة، في كراسين، وشرح الصغرى للسنوسي في كراريس، ومختصر ترجمة السنوسي، في ثلاثة كراريس، ونيل الابتهاج بذيل على الديباج، ومطلب المأرب في أعظم أسماء الرب تعالى، في كراسة، وترتيب جامع المعيار للونشريسي، كتب منه كراريس، وله وسائل وسيلة في المشكلات، وقفت على بعضها.

ثم امتحن في طائفة من أهل بيته بثقافهم في بلدهم في محرم عام اثنين وألف، على يد محمود زرقون لما استولى على بلادهم، وجاء بهم أسارى في قيود. فوصلوا مراكش أول رمضان من العام واستقروا مع عيالهم في حكم الثقاف إلى انصرام أمد المحنة. فسرحوا يوم الأحد الحادي والعشرين لرمضان عام أربعة وألف، ففرحت قلوب المؤمنين لذلك، جعلها الله لهم كفارة لذنوبهم. حدثني بحديث الرحمة المسلسل بالأولوية عن والده بسنده، وحديث المصافحة عن والده أيضاً، وسمعت عليه أكثر صحيح مسلم بلفظه، ولم يفتني منه إلا قليل، وقرأت عليه من الشفا، وعشرينيات الفازازي، وتخميس ابن مهيب لها، وشيئاً من صحيح البخاري، وسنن الترمذي والموطأ، وسمعت جمبيع ألفية العراقي عليه تفقهاً إلا أبياتاً، وأوائل مختصر خليل، وأشياء من الأبي على مسلم وغير ذلك. وأجازني وذكرته في الأسانيد والرجال والتاريخ. وكان من أوعية العلم، صان الله مهجته وناولني مسلسل المالكية بسنده. انتهى ملخصاً، وقد انتقيت ما في هذا الفصل كله من كتاب كفاية المحتاج في معرفة من ليس في الديباج لأحمد باب.

ومنهم الشيخ العالم سيدنا الوافي الكنتي، العلّامة الفقيه المحدث الصوفي الولي الصالح القطب الغوث العارف بالله الرحالة المشهور شرقاً وغرباً، وبالجملة فقدره فوق

ما يذكر، فهو آخر أئمة الصوفية المحققين الجامعين للحقيقة والشسريعة، له كرامات وتواليف مفيدة، بلغ مبلغ الرجال، وكان معاصراً للشيخ، وفيه يقول أستاذنا عبد الله:

بلـغ شـريف شـريف أصـل كاسـمه ... عنـي لـلشيخ كاسـمه المخـتار
أزكـى سـلام شـيب مـسكا تمـه ... ريـح النـسيم تهـب فـي الأسـحار
أخـباره فـي علمـه وصـلاحه ... سـارت بـه الـركبان فـي الأمـصار
بـل فـي القرى بـل فـي البـرايا كلها ... بـل فـي الـبحار الكـل والأشـجار
شـمس المـشارق والمغـارب كلهـا ... قطـب الكـرام وجلـة الأبـرار
أخبـره أنـا لا نـدين بديلـه ... أبـدا وإن كـنا بـذي الأقطـار
متعلقـين بـه نـروم دعـاءه ... ونـشيم مـنه سـحائب الأمطـار
أنـا وإن كـنا بـأرض لـم تكـن ... للمـسلمين نقـيم فـي الكفـار
لـسنا نخـالطهم بـشيء بـل لهـم ... ديـن، لـنا ديـن النبـي المخـتار
ومـرادنا أن يـسر المولـى لـه ... تألـيفه لنـراه بلأبـصار
نـريد مـن إسـناده مـا نالـه ... مـن شـيخه فـي العلـم والأذكـار
فـالله ينفعـنا بـه وينيلـنا ... بـركاته بنبيـنا المخـتار
صـلى علـيه الله مـع أصـحابه ... مـا سـارت الـركبان بالأخـبار

وفيه يقول القطب الوالد عثمان:

بلـغ تحياتـي إلـى المخـتار ... سـراجنا فـي هـذه الأمـصار
وقـل لـه لـيدع بالخيـرات ... فـي هـذه الدنـيا وفـي الممـات
وفـي حلـول القبـر والقـيام ... بلغـه يـا شـريف بالـسلام
يـا رب زد لـشيخنا المخـتار ... كـرامة التوفـيق فـي الأخـيار
وانـصره يـا رب علـى الأعـداء ... وأعطـه بأحـسن الجـزاء
وقـدر لقاءنـا فـي الجـنة ... يـوم النـشور يـا عظـيم المـنة
بجـاه سـيد الـورى محمـد ... وصـحبه ومـن إلـيه يقـتدي
صـلى علـيه ربـنا وسـلما ... ثـم علـيهم بالـسلام عمـما

وفيه قلت:

يـا قاصـدا نحـو الهـدى يعـتام بـي ... ويفودنـي فـي ليلتـي ونهـاري

أبلـــغ تحياتـــي لكــنت بأســـرها لا ســـــيما للـــــسيد المخـــــتار
أبلـــغ تحــية مـــشتك زلاتـــه للغـــوث مـــع أقطابـــه الأخـــيار
واطلـــب لـــنا مـــنه الـــدعاء فإنـــه بدعائـــه نـــرجو قـــضا الأوطـــار

وكنت مرة جالساً عند الشيخ، فورد رجل يستأذن، فأذن له. ولما دخل على الشيخ قال له: أشهد بأني رأيتك ثلاث مرات. والشيخ يقول: قد شهدت. ثم قال للشيخ: هل تدري ما سبب مقالتي هذه؟ فقال: إلا أن تخبرني. قال: قال كنت من خدام سيدنا المختار،فقدمت هذا القطر مبتغياً فضل الله، ثم رجعت لبلادنا، وقدمت على الشيخ سيدنا المختار، فسألني عن سفري وعن البلاد التي اتجرت فيها. فقلت له: إلى بلاد الشيخ سيدنا عثمان بن فودي. فقال: هل وصلت إلى الشيخ ونظرت إلى وجهه؟ فقلت نعم، كاذباً. فقال: اشهد بأني رأيتك وأنت رأيت عثمان بن فودي ثلاث مرات. فقال: لا ألفينك يوم القيامة، وقد لذت بك، وأنا أقول: إني رِايتك وأنت رأيت الشيخ عثمان بن فودي. فقلت له: يا شيخي إني كذبت عليك فاعف عني. فهذا هو سبب مسيري إليك لأشهدك بِأني نظرت إليك، وأرجع إلى سيدي المختار فينظر إلي. فبات عند الشيخ ليلة واحدة، ثم رحل لبلاده.

وللشيخ سيدنا المختار أوراد وأحزاب، أخذتها عن الإمام الصوفي فاضي [=قاضي] "أمودي" الحاج محمد العافية، وهو أخذه عن الشيخ سيدنا المختار، والورد هو:

ورد الطريقة القادرية وفوائده

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً. ورد السلسلة القادرية. وهو من أجل الأوراد، لأنه يغني عن كل ورد، ولا يغني عنه ورد، ومن قوائده أن صاحبه لا يموت إلا على أحسن حال. ولو فعل ما فعل، وهو أن تقول دبر كل صلاة مكوبة.

"حسبنا الله ونعم الوكيل" مائتين، "أستغفر الله" مائتين، "لا إله إلا الله" مائة، "اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وسلم" مائة.

ثم تزيد بعد المغرب والصبح: "اللهم أرض على روح غوث الثقلين سيدي ومولاي عبد القادر الجيلي وأشياخنا وأشياخهم، أولهم وآخرهم" ثلاثاً، "لا إله إلا أنت، سبحانك، إني كنت من الظالمين" سبعاً، "اللهم يا لطيف أسألك اللطف فيما جرت به المقادير" سبعاً، "يا الله يا واحد يا موجود يا جواد، انفحني منك بنفحة خير، تغنيني بها عمن سواك، إنك على كل شيء قدير" سبعاً، "اللهم بارك لي في الموت

وفيما بعد الموت" أربعاً وعشرين. ثم تقول بعدها: "يا الله" ثلاثاً، "يا رب" ثلاثاً، "يا رحمن" ثلاثاً، "يا رحيم" ثلاثاً، "لا تكلني إلى نفسي في حفظ ما أملكتني مما أنت أملك به مني، وامددني بدقائق اسمك الحفيظ الذي حفظت به جميع الموجودات، واكسني بدرع من كفايتك، وقلدني بسيف نصرك وحمايتك وتوّجني بتاج عزك وكرمك، وردني برداء منك وركبني مركب النجاة في الحياة وبعد الممات، بحق فجش" ثلاثاً، "وأمدني بدقائق اسمك القهار الذي تدفع به عني من أرادني بسوء من جميع المؤذيات، وتولني ولاية العز التي يخضع لها كل جبار عنيد، وشيطان مريد، يا عزيز يا جبار" ثلاثاً، "اللهم سخر لي جميع خلقك كما سخرت البحر لموسى، ولين لي قلوبهم كما لينت الحديد لداود عليه السلام، فإنهم لا ينطقون إلا بإذنك، نواصيهم في قبضتك، وقلوبهم بيدك، تصرفهم كيف شئت. يا مقلب القلوب ثبت قلبي على الإيمان، يا علام الغيوب" ثلاثاً، "أطفأت غضب الناس بلا إله إلا الله، واستجلبت مودتهم بسيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما رأيته أكبرته وقطعن أيديهن حاش الله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم، يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً. وألقيت عليك محبة مني، يحبونهم كحب الله، والذين آمنوا أشد حباً لله، والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، والله يحب المحسنين. أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس، كم مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين. قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيما تدعوا فله الأسماء الحسنى. ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً، وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل، وكبِّره تكبيراً، الله أكبر مما أخاف وأحذر".

وتصلي بين المغرب والعشاء ست ركعات، تنوي بالأوليين قضاء الحوائج، وتقرأ في الأولى منهما الفاتحة و"أنا أعطيناك" ستاً، وفي الثانية بالفاتحة و"قل يأيها الكافرون" ستاً، وتقول في سجودهما: "رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري"، وتنوي بالوسطيين حفظ الإيمان، وتقرأ في الأولى منهما الفاتحة و"الإخلاص" ستاً، وفي الثانية الفاتحة والمعوذتين مرة، وتقول في سجودهما: "اللهم إني أستودعك ديني وإيماني فاحفظهما علي في حياتي وعند وفاتي وبعد مماتي"، وتقول بعد السلام منهما:

"اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن جميع ما أتحرك به من هذه الساعة إلى مثلها في حقي وفي حق غيري خير لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري وعاجله وآجله، فأقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه.

وإن كنت تعلم أن جميع ما أتحرك فيه من هذه الساعة إلى مثلها في حقي وفي حق غيري شر لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري وعاجله وآجله، فاصرفه عني واصرفني عنه وأقدر لي الخير حيث كان. ثم أرضني به، إنك على كل شيء قدير"، وتنوي بالأخيرتين النجاة من هول المحشر، وتقرأ في الأولى منهما الفاتحة وآية الكرسي، وفي الثانية الفاتحة مع "لو أنزلنا هذا القرآن" إلى آخر سورة الحشر، وتقول في سجودهما: "ربنا لا تزغ قلوبنا..." الآية. وتدعو بعدهما بدعاء الاستخارة المتقدم.

وتصلي في جوف الليل ركعتي التهجد، تقرأ في الأولى الفاتحة وسورة الكهف، وفي الثانية الفاتحة وسورة الدخان أو "يس" في الأولى و"الملك" في الثانية، أو قل "يأيها الكافرون" في الأولى، و"قل هو الله أحد" في الثانية، بقدر الحفظ واتساع الوقت. وتقول في سجودها: "اللهم ارحم ذلي، وضارعتي إليك وآنس وحشتي بين يديك وارحمني برحمتك، إنك على كل شيء قدير"، وتصلي على النبي صلى الله عليه وسلم مائة بعدهما.

وتصلي عند الضحى ركعتين، تقرأ في الأولى بالفاتحة وسورة الشمس، وفي الثانية بالفاتحة وسورة الضحى، وتقول بعد السلام منهما: "يا منور يا فتاح، نور قلبي بنور معرفتك، واحفظ لي أبواب حكمتك، وانشر على خزائن رحمتك، إنك على كل شيء قدير" عشر مرات.

وتم بحمد الله وحسن عونه.

ورد الشيخ

وهذا ورده الذي يأخذه عنه المريدون والسالكون، قد أخذته عن شيخي القاضي العدل محمد العافية، ولقنني كما لقنه الشيخ المختار، وأجازه، ثم أجازني هو فيه وفي أحزاب الشيخ كلها. وما منعني من سردها ههنا إلا خوف التطويل، ولم تزل نفحات بركات هذا الشيخ ترد علينا، والحمد لله.

ومما حدثنا به صاحب الشيخ وتلميذه سيدنا هيب الأموي، أنه خرج الشيخ يوماً وقال: الأولياء الكمل اليوم ثلاثة: واحد خلف الشام، عربي، نوره: نور لا إله إلا الله، وواحد فلاتي في بلد السودان، عثمان بن فودي، نوره نور خاتم رسول الله الذي في كتفه الأيسر، وواحد نوره نور قلب رسول الله، وسكت عنه. فعلموا أنه هو هو.

ومما حدثنا به عن الشيخ أيضاً أنه خرج ذات يوم، فسئل عن هذا الجهاد، وقيل له: إنهم يفعلون كذا وكذا وأكثروا، فقال سيدنا عثمان بن فودي ولي من أولياء الله، وجهاده حق، وسيملك هذه البلاد فلان.

فصل

ويلي بلاد سنغي من جهة الغرب، ويلي برك من جهة الشمال بلاد ملي وهو إقليم واسع يعمره السودانيون، ويقال إنهم من بقايا القبط، ويعمرها أيضاً التورودذر الفلاتيون والعرب واليهود والنصارى، وفيها معادن الذهب، وبها مرسى سفن النصارى، من ملكان، يعمرها قبل اليوم سرنكلي ويقال إنهم من الفرس، وهذه بلاد قديمة العمران.

وأما إقليم السودانيين منهم، وهو إقليم بنبر، فهو إقليم واسع ذو أنهار وأشجار، وهم إلى الآن كفار، وعندهم قوت. وفي إقليمهم معدن الذهب، وبجنبهم إقليم الختووذ، وإقليم فوت، وهو إقليم واسع يعمرونها هم وسرنكلي من الفرس. وأما التوروذ فقيل إنهم من اليهود، وقيل إنهم من النصارى، وقيل إنهم من أهل بنبر من السودانيين المذكورين آنفاً. فوافوا بجنب البحرين: النيل والفرات فاستوطنوا هناك، وجاوروا اليهود الذين في الجزائر، وكانوا إذا أضروا باليهود استفتح عليهم اليهود بجنود الصحابة ويقولون لهم: أنا أقمنا بهذه الجزائر لننتظر جنود نبي مرسل ولا نبي بعده، فإذا بعث وتوفي قام بالأمر بعده صاحبه أبو بكر، وإذا توفي قام بالأمر بعده صاحبه عمر، فإذا توفي وردت جنوده على هذه البلاد، ونزلوا على هذا الماء، يعنون ترمس، فإذا جاؤوا اتبعناهم وغلبناكم على هذه البلاد، لأنه لا يغلبهم آحد. هكذا وجدنا في كتبنا، والتوروذ يسمعون. ولما نفذ جنود الصحابة إلى المغرب وردت به الأخبار، وساروا إلى الغرب حتى نزلوا على ترمس، ولما رأى التوروذ ذلك سبقوا اليهود فأسلموا، وقال اليهود: ليس بمن نقول لكم، فقال لهم التوروذ: نحن رأينا الحق فاتبعناه، فغزا الجيش سرنكلي، ولما أرادوا الانصراف قال لهم أمير التوروذ: أتيتمونا بالدين ونحن جاهلون به، فخلفوا لنا من يعلمنا، فخلفوا لهم عقبة بن ياسر، أو عقبة بن عامر، أو عقبة بن نافع، فجلس يعلم الدين والشرائع، فزوجه أمير التوروذ ابنته، مخ مغ، فولد منها أربعة أولاد: دعت وناس ووي ورعرب. ثم سار لبلاده حتى وصل مصر، وخلف بنيه عند أمهم، فشبوا وتكلموا بلسان غير لسان أبيهم وأمهم، وكان لسان التوروذ قبل ذلك واكر. ثم تزوجوا وولدوا فكان ذراريهم الفلان. وقبائل الفلان كلها راجعة إلى أربعة: (1) جذامير لارديت ولد فتع، فمن فتع قبائل سنغي وغيرهم، (2) وناس ولد البعاوين، فمنهم قبائل "وُلرب" بضم الوا وغيرهم، (3) و"وي ولد قربي"، وقبائل "فربي" معروفة عند القلان، (4) ورعرب ولد ويوب، وهذه جذامير الفلان. ولما كثر هذا القبيل ساروا واستوطنوا فلغ، حتى تكاثروا وأكثروا هناك من الفسق، وكان التزور قبلهم غالبين على أرضهم، ولما جاء الإسلام أسلموا عليها، وأقبلوا في أمر الدين متمسكين به غاية التمسك، ولما سار الفلان هناك وتكاثروا رجعوا إلى فوت،

وغدروا بأمير المؤمنين فقتلوه هو ومن معه يوم العيد، وهو يصلي بهم، فمال عليهم الفلان فقتلوهم، فملكوا الأرض، ومكثوا ما شاء الله وأكثروا في الأرض الفساد، فقام عليهم الفقيه إبراهيم، فجاهدهم فصب عليهم ربك سوط عذاب، فاستلانوا وملك الفقيه الأرض، ورد العباد عن العناد وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وأحسن بلد التوروذ ما شاء الله، ثم قام عليهم الفلان وغلبوهم على الأرض، وأقبلوا على الفساد، إذ كان أمر الدين لا يهمهم إذ ذاك، كما حدثونا، وأقاموا على ذلك مدة. ثم قام عليهم التوروذ، فتقاتلوا هم وإياهم أشد قتال، وأوجعوا الفلان، ولما اشتد الأمر افترق الفلان ثلاث فرق: فرقة دخلوا مع التوروذ، وأطاعوا، وفرقة رجعوا إلى فلغ وفوت جلوا وسكنوا هناك، وفرقة عزموا أن يسيروا إلى الشرق ليدخلوا مع قبائل آبائهم العرب، فمضوا حتى وصلوا إلى حيث وصلوا في هذه البلاد، حتى وصل بعضهم إلى قبائل العرب، وتخلف الضعفاء في هذه البلاد، وكان من أمرهم ما كان في هذه البلاد.

ولما أخرج التوروذ الفلان من أرضهم وانتشروا، ورجع بعضهم إلى فلغ، أقام التوروذ على أرضهم فأقاموا الدين وأحيوا السنن. ثم مال عليهم أهل فلغ من فلان، فغلبوهم على البلد، وملكوه وهم دمنيكون، فمكثوا ما شاء الله. ثم قام عليهم الفقيه سليمان فغلبهم وشتتهم، وولوا أمير المؤمنين عبد القادر، فقام ومهد البلاد وجاهد ورد العباد عن العناد. ثم أعزل وولوا بعده محمد الأمين، وهو الآن عليهم.

وكان في الإقليم علماء أكثر من تنبكت، ولكن لبعدها عنا لا نكاد نحفظ من أمورها إلا قليلاً. وكانت قبائل التوروذ اثنتي عشرة قبيلة: ليدب، وجايب، ودبب، وياليالب، وآنانب، وسحب، وحنحنب، وجفرب، وسيسب.

وكان مسير قبيلتنا هذه من فوت إلى هذه البلاد بعد انتشار الفلان بقليل، وكان أهل هذه البلاد أكثر حجاجاً على بعدهم. وهو إقليم ظهر فيه البركة، وكان فيه علماء مهتدون.

ويقال إن الفلان من ولد جعفر بن ابي طالب، والتوروذ من اليهود، نقلته عن الوالد، وهو عن الشيخ جبريل، وهو عن المرتضى. ويقال أيضاً إن الفلان من اليهود، قال الشيخ ظاهر بن إبراهيم: والدليل على أن الفلان من اليهود حبهم البقر والتمسك بالعصى، وقيل عن ذلك، والله أعلم، وقد مر ما قاله الأستاذ عبد الله:

بنو تور إخوان الفلاتين أخوة ... لعرب فمن روم بن عيصو تفرعوا
وعقبه أبو كل الفلاتين من عرب ... ومن تور كانت أمهم هي تجمع

لم يكن وراء هذا الإقليم إلا إقليم دمل، ولم ينتشر فيها الإسلام، وهي على

شاطئ البحر المحيط. وزعموا أنهم يسمعون وجبة الشمس في بلاد دمل، وبعدهم السافرة في إقليم البحر بحنب جابلص.

وفي هذه البلاد أخبار عجيبة، وطرائف غريبة، أعجلتنا عن الإكثار منها محاولة الخاتمة، فنسأل الله أن يجعلها جميلة.

وقد انتهى والحمد لله ما عملنا عليه في هذا الكتاب من قصد الإشارة إلى تاريخ بلاد التكرور. وذكرنا من ذلك ما تيسر، وأعرضنا عما تعسر، وسلكنا مهيع المؤرخين، من ذكر الغث والسمين. وألتمس من الناظر في هذا الكتاب أن يسامحني ويعذرني من كل هفوة لفظية أو معنوية، لقيام العذر، إذ قدمنا أنه لم يستصبح أحد في هذا المرام، فألتمس من سراجه في هذا الظلام، مع ما أنا فيه من التقلد المحتوم، وحمل كل الرئاسة المعلوم، ومكابدة الفتن المارجة، وجهاد العدو والفئة الخارجة. فعملت هذه الكلمات على عجل، اغتناماً للإمتاع وإفادة للقلوب والأسماع، والله المسؤول في دفع كل شر وضير، وجلب كل نفع وخير. والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

ووافق الفراغ من هذه النسخة يوم الأحد لأربع عشرة خلت من المحرم، عام ستة وثلاثين بعد مائتين وألف. تم الكتاب بحمد الله وحسن عونه، وتوفيقه الجميل، وصلى الله على سيدنا محمد خير خلقه، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً. والحمد لله رب العالمين. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

تراجم لعلماء من بلاد شنقيط "موريتانيا"
مستخرجة من معجم المشائخ
لمحمد مرتضى الزبيدي (ت1205 هـ/ 1791 م)

تمثل هذه النصوص مصدرا في غاية الأهمية من علاقة الشناقطة باللغوي المصري مرتضى الزبيدي، وننشرها هنا لأول مرة، عن أصلها المخطوط بيد المؤلف، وهي هنا مرتبة حسب ورودها في الجزء الأول من المعجم أما الجزء الثاني فلا يزال في حكم المفقود.

(1)

أحمد بن عمر الكنتاوي: بفتح الكاف المغربي ورد علينا منصرفا من الحج في سنة 1195 فسمع علي في 36 صفر منها الأولية وأول حديث البخاري مع جماعة وأجزت لهم خطا، ورجع إلى بلاده. (ص 15).

(2)

أحمد الحبيب بن المختار بن القاضي العلوي بن عبدي بن محمد عبد الله الشنقيطي المالكي: شاب صالح مجذوب له حافظة ولديه نوادر وذكاء مفرط وذهن جيد، ورد علينا سنة 1193 وسمع في الأولية، مجالس من البخاري ولازمني كثيرا وسمع مني أشياء وأحبني واستفدت منه فوائد ومما أنشدنيه ارتجالا:

إن بالقــرب مــن ســويقة لالا　　ســيدا ألــبس الدنــيا جمــالا
أنــشد الحــال فــي ســامعيه طنــين　　هكــذا هكــذا وإلا فــلا لا

وكنت قد أنشدته قبل ذلك لغيري:

رأيــت بــدرا علــى كثــيب　　يخجــل الــبدر والــهلالا
فقلــت مــا اســمك قــال لولــو　　فقلــت لــي لــي فقــال لا لا

توجه الى الحرمين وأقام بها إلى الآن وفي كل عام يرا سلني بمكاتباته ويتحف مسامعي لطيف مخاطباته. (ص 18)

(3)

إدريس بن عمر بن عبد القادر التواتي الشيخ الصالح العالم ورد إلى مصر مرات

منها سنة 1186 فلقيته في دار الكتب وطلب مني شيئا من شرح القاموس فاغتبط به ثم ورد علينا في سنة 1193 فورد منزلي ورود محب وقرأ علي أشياء منها الدلائل والأحزاب واغتبط بشرح الإحيا كثيرا وتأسف على عدم التمكن من تحصيله ليذهب به إلى بلاده. وقد أجزته في كراسة عممت فيها له ولأولاده. وهو مليح الخط كثير الود خالص الاعتقاد توجه لبلاده وراسلني بكتاب من مقره وهو موضع بني كرداسة وصورة وعند وصوله الي فزان أرسل إلي كتابا آخر وهذا نص بعض كتبه: الحمد لله حق حمده ومامن نعمة إلا من عنده والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبيه وعبده سيدي الأعلى وذخري الأغلى ومنحة الله العظمى السيد الجامع بين الحلتين بلبه على الطريقتين حفظ الحديث وخادمه ذو المجد الأثيل وهامة النسب الأصيل الشريف الأ نور شيخنا وسيدنا سيدي محمد مرتضى أعلى الله رتبته وحفظه في أهل عصره السلام عليكم سيدي ورحمة الله وبركاته فإنا أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو أما بعد يا سيدي إن تفضلت بالسؤال عن خديمك فهو بحمد الله وفضله وبركة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبركة الصالحين وبركتكم على خير وعافية ونعمة من الله شاملة وعسى أنتم ياسيدي كذلك وربنا يعينكم بعافيته ويديم عليكم رداء ستره بجاه النبي وآله ولتعلم ياسيدي أننا على ماتعهد من محبتكم وخدمتكم ولاعتقاد التام الصالح في جنابكم ولايمر علينا يوم ولا ليلة إلا دعونا لكم فيها بما نرجومن الله قبوله وذلك ورد علينا محتوم في الحضر والسفر ونرجو أن نكون عندكم كذلك فالله الله ثم الله الله سيدي لا تقصر في الدعاء لنا ببلوغ المنى دنيا وأخرى فإننا عبادك ومن جملة عيالك وفي عرفك ولا تظن ياسيدي أنك تخرج من قلبنا ولو ساعة، وقد ورد علينا هذه السنة الحاج الأبر الزاهد الأورع سيدي الحاج أحمد البكاي بن أبي نعامة فشفانا من خبرك واستفدنا منك صحتك وعافيتك فحمدنا الله على ذلك مع أن الخاطر متعلق بالكتاب لأن مكاتبة الصديق لصديقه عوض عن لقائه والسلام من خديمك إدريس بن عمر وفقه الله وصلى الله على سيدنا محمد وسلم. (ص: 24 - 25)

(4)

أحمد بن محمد السباعي الإدريسي المعروف بابن الحاج المتوطن برند [كذا في الأصل] بالصحراء سمع مني الأ ولية يوم الجمعة 31 رجب سنة 1193.

(ص 17).

(5)

أحمد بن محمد بن عبد الرحمان أبي نعامة التواتي الملقب بالبكاي الولي الصالح

صاحب النيز (؟) والسر والمد والكرامات، منازلهم في أقبلي مشيخة ركب الحج كعادة أبيه وجده وكنت قد سمعت به ووصلت إلي أخباره وكاتبته وعقدت معه عقد الأخوة، ثم ورد علينا حاجا في أثناء 1197 فاجتمعت به وشاهدت من محاسنه ومكارم أخلاقه مايفوق عن الوصف وقد جددت معه عقد الأخوة والمحبة، وسمع مني وكتبت له الإجازة، ودعا لنا بخير وعاد لبلاده ولا تنقطع عني مراسلاته وهداياه (ص 18).

(6)

أحمد بن المختار الشنقيطي الشيخ الصالح المجذوب ورد علينا من طرابلس حاجا في رمضان سنة 1303 فسمع في أشياء وسألني عن مسائل فأجبت عن بعضها ولديه محفوظات ونوادر وعنده جذب مشوب بسلوك وحسن نية.

لازمني أيام إقامته بمصر وتوجه إلى الحجاز بارك الله فيه (ص 19).

(7)

إبراهيم بن الحسين السباعي الشريف ورد علي في أوائل 1303 فسمع مني أشياء وهو شاب صالح خير، وكان حجه على قدميه مع كمال صيانة ودين. (ص 24).

(8)

عبد الله بن محمد الكنتاوي المغربي، الشيخ الصالح المتعبد، أخذ ببلاده عن المختار بن أبي بكر نزيل أزوات ولازمه واعتنى به انتفع به، ورد علينا حاجا في سنة 1194 مع الركب التواتي وتوجه إلى الحرمين وحضر على الشيخ صالح الفوتي شيئا من دروسه، وعاد مع الركب المصري، فسمع مني في 26 صفر من سنة 1895 من لفظي الأولية والشعر وحديث إنما الأعمال... ثم صار يلازمني في أكثر الأوقات وذكر لي عن شيخه صاحب أزوات أخبارا عجيبة سنذكر بعضها في ترجمته وأخذ له مني كتابا بعد أن بلغ سلامه لي وكتبت له إجازة حافلة وأجازني في بعض الفوائد وتوجه إلى بلاده بارك الله فيه (ص 51 - 52).

(9)

عبد الله بن أحمد المغفري الشنقيطي شيخ فاضل ورد علينا في سنة 1193 فسمع مني الأولية في يوم الأربعاء 31 لجمادى الأخيرة وتوجه إلى الحرمين ثم عاد إلينا، فحضر بعض دروسي وسمع أشياء مما كان يقرأ علي بمنزلي وتوجه إلى بلاده بارك الله فيه (ص 58).

(10)

عبد الرشيد الشنقيطي الشاب الصالح أحد المجاورين بالمدينة المنورةعلى

ساكنها أفضل الصلاة والسلام فسمع مني أشياء وكان وصوله في سنة 1199 ومعه صورة فتوى إذ عارض بعض أهل المدينة في إدخال أهل شنقيط في وقف المغاربة وزعم أنهم من السودان وليسوا مغاربة فوصل إلى مدينة فاس واستفتى علماءها فكتب عليها شيخنا التاودي بن سوده بأنهم من خلفي المغاربة وكذا كتب عليها غيره من العلماء واتصل خبره إلى السلطان فكتب له منشورا بإثبات ذلك فورد علي وأراني خطوطهم وكتب عليه كذلك بعض علماء مصر وتوجه إلى المدينة ثم بلغني أنه توفي هناك بعد سنة رحمه الله (ص 78 - 79).

(11)

عبد الودود بن المختار العطواني الشنقيطي أحد عباد الله الصالحين سمع مني الأولية في يوم الثلاثاء 24 صفر 1192 وكتبت له الإجازة وتوجه إلى بلاده (ص 90).

(12)

عمر بن عبد الرحمان بن عبد القادر التواتي المغربي شيخ صالح سمع مع ابن عمه إدريس بن عمر بن عبد القادر أشياء وكتب اسمه في الإجازة وتوجه مع الركب الفزاني في سنة 1196 (121).

(13)

عمر بن محمد المغفري الشنقيطي الشيخ الصالح ورد علينا حاجا في سنة 1193 فسمع مني الأولية في يوم الأربعاء لتسع بقين من جمادى الأخيرة منها، وتوجه للحج ثم عاد إلينا ولازمني في أشياء سمعها مني وأجزت له وتوجه لبلاده بارك الله فيه (ص90).

(14)

عمر بن المختار الشنقيطي الشيخ الصالح الولي العارف العلامة ورد علينا في سنة 1174 فاجتمعت به في منزل المرحوم أبي الهادي الوفائي وهو إذ ذاك شيخ السجادة، وعقدت معه عقد المواخاة وأسمعنا منه قصيدة القطب سيدي علي وفا.

سكن الفؤاد فعش أيها الجسد   هذا النعيم هو المقيم إلى الأبد

وأجازنا وأخبرنا أن هذه القصيدة يحفظها عامة أهل بلده ويقرأونها في الكتاب ثم توجه للحج وعاد إلى طرابلس وبها مات ودفن بالقرب من مقام سيد أحمد زروق وبني على قبره مقام وظهرت له كرامات رحمه الله (ص 121).

(15)

عمر بن مصطفى بن محمد بن عمر بن زكرياء بن داود إبن صالح الكنتاوي المالكي الشيخ الصالح الفهامة قرأ العلم في بلاده على أبيه وغيره وتكمل في النحو

والتوحيد ورد على مصر حاجا في سنة 1198 فسمع مني في رابع عشر رجب منها الأولية والشعر ثم حضر عندي في كتاب الشفاء للقاضي في مشهد السيدة رقية في شهر رمضان وسمع مني أشياء وذاك بأدب كامل وقرأ علي في الصحيح وغيره وكتبت له الإجازة وتوجه لبلاده (ص 122).

ملحق: وثائق رئيسة

فتوى حول الحياة السياسية والاجتماعية (تنظيم السيبة)

تأليف محمد صالح بن عبد الوهاب الناصري الولاتي ت1271هـ

الحمد لله على فضله وصلواته على رسوله وبعد فقد طلب مني بعض الإخوان جوابا عن ما ظهر اليوم من الظلم والعدوان وذلك أنّ بعض المُتعدّين للأحكام والفتوى المتردين من الأنام في المهاوى. وقد أفتى تجكانت وإدَوَالحاجْ في حربهم هذه فيما بلغنا أن لهم أخذ ما وجدوا من أموالهم التي نهبها كنته ومن معهم من حزبهم وأنهم يجوز لهم قبضه في أي يد كانت ويجب على من وجدوه عنده ردّه وأنّ هذا هو المشروع الذي يتعيّن على الناس فيه الشروع فقلت:

والناس ليسوا كلهم رعاعا ... يتّبعون النّعم الرّتاعا

إنّ هذه الفتوى - إنْ كانت كما بلغنا - باطلة، باطلة، باطلة وهي من حلي كل حق نائبة عاطلة تمجّها الأسْماع وتنفر من ذكرها الطباع ولا يفتى بها المستفتي إلا من قصده إثارة الفساد في هذه البلاد بين العباد.

ولأنها مما لا يرد المناهل ولا يغر إلا الجاهل المتساهل، لأن هاتين الطائفتين المتناهبتين لا يخلو أمرهما من أن تكونا متأولتين وعليه لا شيء للواحدة منهما قبَل الأخرى فيما أتلفت من دمها ومالها كما نص على ذلك الشيخ خليلفي مختصره الذي قال: إنه "مبيّن لما به الفتوى" بقوله: (وإن تأوّلوا فهدر.....أو باغيين معا)

وعليه فكل واحدة منهما ضامنة لما أتلفت من دم الأخرى وحالها كما نص على ذلك الشيخ خليل بقوله: (..... وضمن المعاند النفس والمال)

والمراد بالمعاند الباغي الذي لا تأويل له أو متأولة إحداهما والأخرى باغية وعليه فلا شيء على المتأولة فيما أتلفت من دم الباغية وحلها كما نص على ذلك الشيخ خليل: (ولم يضمن متأول أتلف نفسا ومالا) قال شرّاحه وقد اتضح من هذا ومن قبله جواز صلح المذكور على الْهَدْر.

ولما كان العمد في هذا البلاد كالخطإ في كف القصاص وإلزام الدية لعاقل قاتل

العمد وألزام أولياء المقتول عمدا قبولها لخوف الفتن لتعذر الحق لسيبة البلاد. ويتعين الصلح منها على ما تقرر فكذلك يتعين الصلح على الْهَدْر في الدماء والأموال لجامع العلة من سِيْبَةِ البلاد.

وتعذر جريان العمل فيها لما هو مقتضى السياسة التي لا يجوز التعويل على غيرها في هذه البلاد السائبة.

كما نص عليه الأئمة وبه جرى عملهم في الأحكام واستقر عليه الفتيا وإذا كان العمل جرى فيها بأن لا قسامة ولا قصاص ولا هدر فكذلك جرى فيها بعدم الرد لأموال المتناهبين.

كما وقع بين إجمان وتجكانت، وبين الأغلال وتجكانت، وتجكانت فيما بينهم، وإجمّان فيما بينهم والأغلال فيما بينهم، وفيما وقع بين إجمان وأهل بورده ومن معهم، وبين أهل الطالب المصطفي وأهل أبي رده ومن معهم، وبين أهل وادان وأهل شنقيط وأهل تيشيت فيما بينهم غير ما مرة، وبين شرفاء ولاتة وشرفاء النعمة وفي ما وقع بين تندغ وأولاد أبيري وبين ادوعلي وإداب لحسن،وبين كنته فيما بينهم، وفيما وقع بينهم وبين أهل سيد محمود وغيرهم من العرب والزواية، وما وقع صلح بين هؤلاء وغيرهم إلا على الْهَدْر. فهل ردّ أهل سيد محمود الطالبون اليوم أموالهم المنهوبة ما نهبوا في حروبهم الماضية وأيامهم الخالية على كُنْتهْ أموال جوك بوص والمخشيبه ولحصيرة والجاكلي وغيرها وهل رد عليهم ما نهب لهم في بوعنز وازرافيه وغيرهما. وهل طلبوا ردا يوما ما قبل هذه المرة وفيهم يومئذ عبد الله ولد سيد محمود وليس بدون أحد من هؤلاء الطالبين الرد علما ولا فهما ولا حزما ولا عزما وقد صالح على ما جرى به العمل من الْهَدْر لعلمه أنه لا يتأتي من غيره ذلك إذ لا يمكن إلا الصلح على الْهَدْر أو الحرب وأن الرد معدوم لعدم الإمام وجريان الأحكام ولأجل ذلك فلا استفتي فيه مستفت مفتيا ولا أفتى فيه مفت مستفتيا، مع كثرة العلماء والصلحاء والرؤساء والحكماء حتى أيام ما مضي من الحروب والصلح فيما سكوتهم دليل على رضاهم به وقبولهم له وعلى جوازه وصمته لأن الصلح لا يشترط فيه أن يكون على يد قاض أو من يقوم مقامه.

نص
الحرب بين بني حسّان وصنهاجة

:" [...]ثم خلفه ابنه سيد اغلي وكان قطبا علامة مربيا قدوة، يهتدى بهديه ويرجع

إلى إشارته ورأيه وكان يخرج إلى المرابطين أيام دولتهم بالصحراء، وجِيلُ حَسَّان يأخذون عنه الأوراد ويستمدون منه الأمداد.

وذلك في دولة السلطان أبي فارس وكان مقلدا له لايعمل إلا على وفق إشارته، فخرج إلى الصحراء فتزوج بنت محمد ابن آلم بن كنت بن زم رئيس ابدوكل، واسمها أهو، فأولدها ابنه خاتمة السلف وعين أعيان الخلف، سيد امْحَمد الكنتي فنشأ في أخواله ابْدُوكَلْ من صنهاجه، وقفل سيد اعلي إلى توات. وبها توفي - رحمه الله - فدفن إلى جنب أبويه، بعزي وتخرج على يده أزيد من ألف واصل.

ثم لم يزل سيد محمد الكنتي بأخواله حتى تدرب وحفظ القرآن ومهر في سائر الفنون، وكان مجاب الدعوة، لايجاريه في مجاريه خلف، وهو أغلى وزنا وأعْلى محلاً، دام يُحْيي ما قد أميت من الفضل، وينفي فقرا ويطرد محلا. ثم رجع إلى الصحراء ما بين تيرس إلى الساقية الحمراء.

واستوطنها بمن معه من تلامذته وجيرانه، محترما مكرما معظما عند سائر دولة المرابطين من لمتونة وبني حسان مُقدّما عليهم محكما فيهم. إلى أن جرى القضاء بأمر غاظه على أخواله ابْدُوكَلْ، وهم يومئذ المتغلبون على الصحراء ومن فيها إلى أطراف السودان. فارتحل عنهم، مغاضبا لهم، فورد عليه غزو من أولاد الناصر وقد بلغهم مغاضبته لأخواله، فقال بعضهم لبعض: إن فاتتكم هذه الفرصة في لمتونه فحرام عليكم الظفر بهم بعدها. فقد غاظوا هذا الغوث وأغضبوه. وما يزيل قلنسوة الغوث عن رأسه، يزيل ملك السلطان من أسه، فاستضافوه ليلتهم وطلبوا منه أن يعطيهم دولة لمتونه، فقال: أعطيتكموها على شرط: أنكم متى بلغتم منهم الحد الذي تامنون شوكتهم، رفعتم عنهم السيف وأبقيتم عليهم عيشة لبنيّ وبينكم، فاعطوه عهدهم وميثاقهم على ذلك وقالوا: كيف لنا بجموعهم المتكاثرة ومحالهم المتظاهرة. فقال: إنما عليكم شن الغارات والإجهاز عليهم فإني قد دعوت الله عليهم بإذهاب الدولة وإيهان الصولة، فأجابني فيهم. فانقلبوا إلى أهاليهم، وتألب أفناء أبناء حسان بمن أنضاف إليهم فصبحوا لمتونه وهم غارون، فانتدب لقتالهم من يليهم من الأحياء واشتغل من عداه بأشغالهم استهانة بشأنهم واستخفافا بصولتهم. فهزموا من يليهم لأول حملة، وركبوا ظهورهم مع من وراءهم ممن لم يستعد لحربهم فهزموهم هزمة لم تبق منهم على مجتمع، وأبقوا منهم البقايا المدعوة الآن: باللحمة، التي ضرب بنوا حسَّان على رقابها المغارم ومن كان منهم زوايا أبقوه على ما كان عليه.

سيد محمد الخليفة الكنتي ت1242 هـ: الرسالة الغلاّوية، تحقيق د.حماه الله ولد السالم

نصوص حول

تكرور وشنقيط

- 1 -

".. مدينة تكرور أهلها سودان وكانوا على ماساير عليه السودان من المجوسية... حتى وليهم وارجابي بن رابيس فأسلم وأقام عندهم شعائر الإسلام وحملهم عليها وحقق بصائرهم فيها وتوفي وارجابي سنة اثنتين وثلاثين وأربع ماية فأهل تكرور اليوم مسلمون..".

أبو عبيد البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب: ص172

- 2 -

".. التكرور إقليم واسع ممتد شرقا إلى آدغاغ ومغربا إلى بحر بني الزناقية وجنوبا إلى بيط، وشمالا إلى آدرار.."

الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي ت1214هـ: فتح الشكور في معرفة أيان علماء التكرور، "المقدمة".

- 3 -

"... واعلم أن هذا الاسم الذي هو التكرور علم على الإقليم الغربي من الجنوب السوداني، على ما فهمنا من تعبيرهم في التواريخ والنقول. وهذا الإسم شائع في الحرمين ومصر والحبشة، ومندرس في محله حتى لايعرفه أهل هذه البلاد أصلا، وإنما يتلقونه من الحجاج الذين سمعوه بالحرمين..".

محمد بلو بن عثمان بن فودي ت1253هـ: إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، ص47

- 4 -

"... وكان الركب يمشي من شنجيط إلى مكة كل عام، ويتعلق معهم من أراد الحج من سائر الآفاق، حتى أن أهل هذه البلاد، أعني من الساقية الحمراء إلى السودان، إلى أروان، إن رؤوا، لا يعرفون عند أهل المشرق إلا بالشناجطة إلى الآن، وقد تحج الدار منهم كلها، حتى لايبقى فيها صغير ولا كبير، منشدة اعتنائهم بالحج.."

سيد عبد الله بن الحاج ابراهيم العلوي ت 1233هـ: صحيحة النقل، مخطوط

فهرس المحتويات

مقدمة.. 3
النصوص.. 22
الوسياني: كتاب السير.. 22
سير المشايخ.. 23
ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أيام المائة الثامنة.................................. 25
المقري نفح الطيب... 27
شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع.................. 28
ابن خلدو: كتاب العبر... 31
ابن الخطيب: الإحاطة في تاريخ الغرناطة... 49
تقي الدين المقريزي: كتاب السلوك في معرفة الملوك.................................... 51
ابن الدوادري: كنز الدرر وجامع الغرر.. 53
القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك.................. 55
أبو حامد الأندلسي الغرناطي: تحفة الألباب.. 57
أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان... 60
الشريشي: شرح المقامات الحريرية.. 81
البكري: المسالك والممالك.. 82
الشريشي: شرح المقامات الحريرية.. 90
ابن قتيبة: كتاب المعارف.. 91
البيروني: كتاب الجماهر في معرفة الجواهر.. 92
الهمداني: كتاب الجوهرتين... 94
القزويني: عجائب المخلوقات وآثار البلاد.. 95
ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب............................. 100

إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء: البداية والنهاية.......115
أبو الفداء: تقويم البلدان.......116
ياقوت: معجم البلدان.......121
ابن الأثير: الكامل في التاريخ.......128
اليعقوبي: كتاب البلدان.......133
الإصطخري: المسالك والممالك.......134
عبد الله المالكي: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية.......138
عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي: تاريخ السودان.......139
القاضي محمود كعتي: تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار [رواية وتحرير ابن المختار].......356
محمد بلو بن عثمان بن فودي: إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور.......470
ورد الطريقة القادرية وفوائده.......624
ورد الشيخ.......626
تراجم لعلماء من بلاد شنقيط "موريتانيا" مستخرجة من معجم المشائخ لمحمد مرتضى الزبيدي (ت1205 هـ/ 1791 م).......630
ملحق: وثائق رئيسة.......635
فتوى حول الحياة السياسية والاجتماعية (تنظيم السيبة) تأليف محمد صالح بن عبد الوهاب الناصري الولاتي ت1271هـ.......635
نص حول الحرب بين بني حسّان وصنهاجة.......636
نصوص حول تكرور وشنقيط.......638
فهرس المحتويات.......639